تاريخ
المعتقدات والأفكار الدينية

تأليف
ميرسيا إلياد

ترجمة
عبد الهادي عباس

الجزء الثاني



تاريخ

المعتقدات والأفكار الدينية

عنوان الكتاب بالفرنسية

HISTOIRE DES CROYANCES

ET DES IDEÉS RELIGIEUSES

MIRCEA ELIADE

تاريخ

المعتقدات والأفكار الدينية

الجزء الثاني

تأليف
ميرسيا إلياد

ترجمة
عبد الهادي عبّاس
المحامي

مِنْ غوتاما بوذا حتى انتصار المسيحيَّة

ديانات الصين القديمة - البراهمانية والهندوسية - بوذا ومعاصروه - الديانة الرومانية - السلت - الجرمن - أورفية - فيثاغورس - التركيب الهندوسي - تجارب اليهودية - الهلينية - تركيبات إيرانية - ولادة المسيحية غروب الآلهة - الخ ....



طبعة أولى
١٩٨٦ - ١٩٨٧

طبع في مطابع الشام
٣٠٠٠/١٠/١٩٨٦



دمشق - شارع بور سعيد - هاتف ٢١١٠٤٨ - ٢١١٠٢٢

مقدمة الجزء الثاني

ان ظروفاً غير متوقعة أخرت طباعة الجزء الثاني من تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية . وقد اغتنمت فرصة التأخير لاكمال عرض المراجع لبعض الفصول ذاكراً الأعمال التي ظهرت في ١٩٧٧ وحتى بداية ١٩٧٨ . ان المراجع هي بأطوال مختلفة وقد اهتمت بمضاعفة المعلومات المتعلقة بالمسائل المألوفة أقل بالنسبة لغير المتخصصين (.. ديانات ماقبل التاريخ للصينيين والسلت ، والجرمن والتراس ، والكيمياء ، والرؤويات الغنوصيات . . .) ولكي لا أضخم كثيرا ملحقات هذا الجزء ، نقلت الى الجزء المقبل الأقسام حول ديانات التيبت ، واليابان وآسيا الوسطى والشمالية ، وبالنتيجة ، أوجب تقسيم الجزء الثالث إلى مجلدين ، كل منهما بما يقارب ٣٥٠ صفحة ؛ الأول ، من فيض الاسلام ورواج التانترية إلى جواشيم دي فلـور والحركات الألفية للقرنين ١٢ و ١٣ ، وثاني مجلد ، من اكتشاف ديانات الأميركية القديمة حتى اللاهوتيات الالحادية المعاصرة .

وبالمناسبة اعاود الشكر لاصدقائي وزملائي والأساتذة بول ريكور واندريه لاكوك والسيد جان لوك بايو الذي ارادوا بصدق قراءة واعادة النظر بمختلف الفصول من هذا

الجزء الثاني . وهذه المرة أيضاً ، فإن الكتاب لم يكن يقيض له أن يصل إلى هنا لولا حضور وعطف وتضحية زوجتي .

م . الياد

جامعة شيكاغو ١٩٧٨

الفصل السادس عشر

ديانات الصين القديمة

١٢٦ ـ المعتقدات الدينية في العصر الحجري .

بالنسبة لمؤرخ الثقافة ، كما هو بالنسبة لمؤرخ الأديان ، تشكل الصين موضوعاً متميزاً للأبحاث . وفي الواقع ان اكثر الوثائق الحفرية قلما ترجع إلى الألف الرابعة والخامسة ، وعلى الأقل في بعض الحالات يمكن تتبع استمرارية مختلف ثقافات ماقبل التاريخ وحتى انه يمكن التحديد بدقة لمعطياتها في انشاء الحضارة الصينية الكلاسيكية . من جهة أخرى ، وكما أن الشعب الصيني يتألف من العديد من المركبات الإتنية ، فإن ثقافته تشكل تركيبا معقدا وأصوليا يمكن أن يكتشف فيه اسهام مصادر متعددة .

إن الثقافة الحجرية الأولى (نيوليتيك) هي ثقافةيانغ ـ شاوyang- chao ، حسب اسم القرية ، التي وجدت فيها ، في عام ١٩٢١ آنية من غضار مرسومة . وان ثقافة

نيوليتية ثانية مميزة في فخاريات أسو ، اكتشفت في عام ١٩٢٨ بالقرب من لونغ ـ شاو . غير أنه بعد ١٩٥٠ فقط ، امكن تصنيف كل الأوجه والصور الجانبية لثقافات نيو ـ ليتية ، بفضل العديد من الحفريات المنجزة في السنوات الثلاثين الأخيرة . وبواسطة تحديد التاريخ بالاشعاع الفحمي radiocarbone فإن التسلسل التاريخي قد تغير جذرياً . ففي بان ـ باو pan-p'o «في مقاطعة (شنسي) اكتشف أقدم مستقر عائد لثقافة يانغ ـ شاو ، وان تحديد تاريخه باشعاع الكربون يدل على ٤١١٥ أو ٤٣٦٥ ق.م . ان المستقر كان مشغولاً ، في الألف الخامسة خلال ٦٠٠ سنة . ولكن بان ـ بو لا تحتل ابداً المحطة الأولى من ثقافة اليانغ ـ شو[١] . وحسب رأي بينغ ـ تي ـ هو ، المؤلف لآخر تركيبة حول ماقبل التاريخ الصيني ، إن الزراعة الممارسة في الألف الرابعة كانت اكتشافاً محلياً ، تماماً مثل تدجين بعض الحيوانات ، ومثل السيراميك وتعدين البرونز[٢] . وعليه ، وأيضاً منذ عهد قريب ، جرى تفسير تطور الثقافات النيوليتية والعصر البرونزي الصيني بانتشار الزراعة والتعدين انطلاقاً من واحد أو أكثر من مراكز الشرق القديم . ولا موجب لنا للتحزب في هذا التضاد . ويبدو مؤكداً أن بعض التقنيات قد اخترعت أو حولت جذرياً في الصين . ويرجح كذلك أن صين ما قبل التاريخ قد تلقت عدداً من العناصر الثقافية من أصل غربي انتشرت عبر سيبيريا وسهوب آسيا الوسطى .

ان الوثائق الحفرية قابلة لترشدنا حول بعض المعتقدات الدينية ، غير أنه سيكون من العبث الاستنتاج ان هذه المعتقدات تمثل كل النمط الديني لشعوب ماقبل التاريخ . ان الميتولوجيا واللاهوت ، والبنية ، والمورفولوجيا(علم الهيئة)للشعائر تسمح بصعوبة بحل رموزها على أساس الحفريات فقط ، وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، فإن الوثائق الدينية المعدلة باكتشاف الثقافة النيوليتية ليانغ ـ شاو ترجع بالكامل تقريباً إلى الأفكار والمعتقدات ذات العلاقة بالفضاء المقدس ومع الخصب والموت . ففي القرى ، يقع البيت المشترك في وسط الساحة محاطاً بمساكن صغيرة مدفونة لنصفها . وتوجيه القرية ، كذلك بنية المسكن ، مع موقده المركزي وثقب الدخان ، كل ذلك يدل على كوزمولوجيا موزعة بين كثير من المجتمعات النيوليتية التقليدية (١٢٠٥ع) . وان الاعتقاد باستمرار حياة الروح موضحة بالأدوات والأطعمة الموضوعة في المقابر . وان الاطفال كانوا يدفنون

بالقرب من المساكن ، في جرار كبيرة مزودة بفتحة في قمتها ، لكي تسمح للروح بالخروج والعودة[٣] . وبعبارة اخرى ، ان الجرة الجنائزية كانت «البيت» للميت ، وهي فكرة جرى التعبير عنها كثيراً في عبادة الأجداد في العصر البرونزي و «عصر شانج» .

إن الآنية من الغضار المدهون بالأحمر والمزخرف بالاشارة الجنائزية هي هامة بشكل خاص[٤] . فهنالك ثلاثة زخارف ايقونية ـ المثلث ورقعة الشطرنج والكوري Cauris (نقد صدفي) ـ توجد حصراً على الآنية ذات الاستعمال الجنائزي . وعليه فإن هذه الزخارف متضامنة برمزية معقدة ، مشركة المفاهيم الجنسية ، من ولادة وتجديد واعادة ولادة . ويمكن افتراض ان هذا التزيين يشير للأمل باستمرار الحياة وبعودة الولادة في العالم الآخر .

ان رسما متضمنا سمكتين ووجهين مجسمين يمثل على الأرجح كائنا مما فوق الطبيعة أو (مختص بالمقدس) ، ساحراً أو كاهناً[٥] . ولكن تفسيره مازال غير مؤكد . فالسمكتان لهما بالتأكيد معنى هو في آن واحد جنسي اذ يتعلق بالتقويم (فصل الصيد يتناسب مع فترة خاصة من الدورة السنوية) . وتوزيع الوجوه الأربعة يمكن ان يوحي بصورة كوزمولوجية حسب رأي بين ـ تِي ـ هو (ص ٢٧٥٠) . ان مجتمعات عصر يانغ ـ شاو كانت تتبع القواعد المرتبطة بالانتساب لخط الأم ، وعلى العكس فإن الفترة التالية ، فترة لينغ ـ شاو تشير إلى الانتقال إلى مجتمع أبوي مميز بسيادة عبادة الأجداد . وحسب رأي باحثين آخرين يفسر هو Ho بعض موضوعات من الحجارة ورسمها على الأواني المدهونة كرموز قضيبية .

وكما فعل كارلجرين Karlgren الذي اشتق الرمز تسو الذي يدل على الجد ، من رسم لقضيب فإن هو HO يرى في تعدد الصولجانات القضيبية الأهمية المتحصلة من عبادة الأجداد[٦] . وإن «موت الجد» الذي رأيناه ، يتضمن بالتأكيد رمزية جنسية . غير أن كارل هنتز carl Hentz يفسر مختلف الموضوعات والرسوم «القضيبية» وكأنها تمثل «بيتا للروح» وبعض السيراميك من يانغ ـ شاو يمثل نماذج لأكواخ صغيرة ـ هي في ذات الوقت جرار جنائزية ـ قابلة للمقارنة بالقطع المماثلة لما قبل التاريخ الأوروبية وبأكواخ

المغول . إن هذه «البوتيات» للروح التي تأكدت بشكل واسع في ماقبل التاريخ الصيني ، تشكل الرائد «للوحة الاجداد» للعصور التاريخية .

واجمالاً ، فإن ثقافات يانغ ـ شاو ويونغ ـ شاو تكشف المعتقدات المميزة لحضارات اخرى نيوليتية : التضامن بين الحياة ، الخصب ، الموت ، والوجود التالي ، التي اظهرها مفهوم الدورة الكونية بالتقويم والتي تحينت بالشعائر ، وان اهمية الأجداد بصفتها كمصدر للقوة السحر ـ دينية ، وسر تزاوج الاضداد (المؤكدة كذلك «بموت الأجداد») ، عقيدة سبقت بنوع ما فكرة الوحدة/ الكلية للحياة الكونية ، التي ستكون الفكرة السائدة في العصور التالية . ويحسن ان يضاف الى ذلك ان قسماً كبيراً من التراث النيوليتكي قد احتفظ به ، مع التحويرات التي لابد منها ، في التقاليد والتطبيقات الدينية في القرى .

١٢٧ ـ الديانة في عصر البرونز ـ اله السماء والأجداد .

لقد وصلت الينا معلومات افضل وبشكل ملموس منذ الاسرة الملكية للشانغ (١٧٥١ ـ ١٢٨) ق.م. وهي تتناسب الى حد كبير مع معلومات ماقبل التاريخ وبداية التاريخ القديم للصين . إن عصر الشانغ مميز بتعدين البرونز وظهور مراكز مدينية ومدن ـ عواصم وظهور اريستوقراطية عسكرية ، ومؤسسة الملكية وبدايات الكتابة . وفيما يتعلق بالحياة الدينية ، فإن الوثائق غزيرة ، فبدئيا يوجد صور ايقونية غنية ، موضحة بصورة خاصةعلى آنية جميلةجداً وشعائريةمن البرونز. ومن جهة أخرى فإن القبور الملكية ترشد إلى بعض التطبيقات الدينية ، ولكن ما يشكل مصدراً ثميناً للغاية إنما هو ، بصورة خاصة ، النقوش الكهنوتية المحفورة على عظام حيوانات واصداف السلحفاة[٨] . وأخيراً فإن بعض المصنفات المتأخرة (على سبيل المثال كتاب الاناشيد livre des odes) المسماة من قبل كارل جرين (نصوص شو الحرة)[٩] تشتمل على كثير من المواد القديمة . ومع ذلك تضيف بأن هذه المصادر ترشدنا على بعض المظاهر من ديانة شانغ فقط ، وفي المقام الأول على المعتقدات والطقوس لقبيلة ملكية ، وتماماً كما في العصر النيوليتي ، بقيت الميتولوجيا واللاهوت في الشطر الأكبر منها مجهولة .

ان تفسير الوثائق الايقونية غير مضمون دائما . وقد اتفق على الاعتراف ببعض المشابهة مع الموضوعات المثبتة على السيراميك المرسوم ليانغ شو[١٠] ، وزيادة على ذلك ، مع الرمزية الدينية للعصور المتأخرة . إن هينتز (ص ٩٥) يفسر اقتران الرموز القطبية كموضحة للأفكار الدينية ذات العلاقة مع اعادة تجديد الزمن والتجديد الروحي . كذلك فإن رمزية الزيز cigale وقناع شاو- تين، هامة جداً ، وهي توحي بالولادات واعادة الولادات : النور والحياة المنبثقة من الظلمات ومن الموت . كذلك فإن مما هو مميز أيضاً ، اتحاد الصور المتعاكسة (الأفعى ذات الريش ، الأفعى والنسر الخ)، وبعبارة أخرى إن جدلية الأضداد واتحاد المتعارضات لازمة مركزية بالنسبة للفلاسفة والصوفيين التاويين . ويمثل الآنية من البرونز جرار- بيوت . وأشكالها تشتق إما من السيراميك وإما من نماذج مسبقة من الخشب[١٢] . وإن للفن الرائع من رسوم الحيوانات المكتشفة على آنية من البرونز على الأرجح ، نموذج من الحفريات على الخشب[١٣] .

وتكشف النقوش الكهنوتية لنا مفهوما دينياً غائياً (أولا يمكن ادراكه ؟) في وثائق النيوليتيك ، وبخاصة على سيادة اله أعلى سماوي تي Ti (سيد) او شانج تي (السيد في الأعلى) . إن تي يأمر بالايقاعات الكونية والمظاهر الطبيعية (المطر ، الريح ، الجدب الخ). انه يمنح النصر للملك ويضمن وفرة المحاصيل أو على العكس ، يثير الكوارث ويبعث الأمراض والموت ، ويقدم إليه نوعان من الأضاحي : في معبد الأجداد وفي البرية ، ولكنه ، كما يحصل لآلهة سماوية أخرى قديمة (ف ١٤٠ ع) فإن عبادته تدل على تحدرها من الأولية الدينية . تي يتجلى بعيداً وهو أقل فاعلية من أجداد السلالة الملكية ويقدم إليه تضحيات أقل . ولكنه هو الوحيد المدعو عندما يتعلق الأمر بالخصب (المطر ، والحرب ، الشاغلان الاساسيان للحاكم) .

على كل حال ، إن مركز تي يبقى عاليا . وكل الآلهة الأخرى كما أن كل الأجداد الملكيون تابعون له . وأجداد الملك وحدهم مؤهلون للشفاعة عند تي ، ومن جهة أخرى ، فإن الملك وحده يستطيع الاتصال مع أجداده ، لأن الملك هو «الرجل الوحيد»[١٤] . والملك يدعم سلطته بمساعدة أجداده ، والاعتقاد بقدرتهم السحر- دينية تضفي السيادة لاسرة شانغ الملكية . إن الأجداد بدورهم يتطلبون تقدمات من الحبوب

والدم ولحم الاضحيات التي تقدم إليهم[١٥] . ومن غير المجدي ، الافتراض ، كما يعتقد بعض العلماء انه ، طالما ان عبادة الأجداد كانت هامة بالنسبة للاستقراطية الحاكمة ، كانت تطبق تدريجيا من قبل كل الطبقات الاجتماعية . ان العبادة كانت آنئذ قد تجذرت بقوة ، وغدت شعبية جداً في العصر النيوليتي ، وكما رأينا فإنها كانت تشكل جزءاً لايتجزأ من النموذج الديني «المصاغ حول مفهوم الدورة البشركونية anthropcosmique) للمزارعين القدماء . إن تفوق ورفعة الملك ، كان يفترض تحدر جده من تي ، الذي أوصل وظيفته السياسية بهذه العبادة التي تعود لزمن لا يمكن تحديده .

الملك يقوم بسلسلة من الأضحيات : للأجداد وإلى تي وللآلهة الأخرى أحياناً ، والخدمة الطقوسية تمتد على ٣٠٠ إلى ٣٦٠ يوماً ، وإن كلمة «أضحية» تعين «السنة» لأن الدورة السنوية مدركة كمهمة تامة . وهذا يؤكد على الأهمية الدينية للتقويم ، الذي يضمن العودة الطبيعية للفصول . في المقابر الملكية الكبرى بالقرب من (آنيان) ، وجد إلى جانب الهياكل العظمية للحيوانات ، العديد من الضحايا البشرية ، المضحى بها ، على الأرجح ، كي ترافق الملك في العالم الآخر . إن اختيار الضحايا (الأصحاب ، والخدم ، والكلاب والخيول) يدل على الأهمية المعتبرة للصيد (صيد شعائري ؟) بالنسبة للارستقراطية العسكرية والعشيرة الملكية[١٧] . إن عدداً من المسائل المحفوظة في النقوش الكهنوتية تحمل على فرصة وحظوظ النجاحات لغزوات الملك .

وكانت المقابر ، كالمساكن تماماً ، تتوازع ذات الرمزية الكونية وتملأ ذات الوظيفة : كانت منازل للأموات . وإن معتقداً مماثلاً يمكن أن يفسر الأضحية البشرية . بدءاً من بنيان الانشاءات ، وبخاصة المعابد والقصور . فأرواح الضحايا كانت تضمن طهارة البناء ، ويمكن القول بأن الأثر الذي كان يرفع ، كان يخدم (جسداً جديداً) لروح الضحية[١٨] .

غير أن الأضحيات البشرية كانت طبقت كذلك في أهداف أخرى ، لم ترد معلومات كافية عنها ، ويمكن الافتراض بأنه كان يقصد بها تجديد الزمن أو إعادة تجدد الأسرة الملكية .

رغم النواقص الكبيرة يمكن فك رموز السطور الكبرى للدين في عصر الشانج . فأهمية اله سماوي وعبادة الأجداد ليس موضع شك . وعقدة النموذج التضحوي (المتضامن مع تقويم ديني) وتقنيات تنبؤية يفترض وجود طبقة من (المتخصصين بالمقدسات) متنبئين ، كهنة أو شامانات . وأخيراً فإن الايقونات تكشف لنا تركيبات رمزية هي كونية وكهنوتية في آن واحد ، وهي مازالت غير واضحة ، ولكنها تبدو مقدمة للمفاهيم الدينية الرئيسية في الصين الكلاسيكية .

١٢٨ ـ الأسرة المثالية : التشو .

في سنة ١٠٢٨ ق.م غلب آخر ملك شانغ من قبل دوق تشيو Tcheou ، وفي اعلان شهير[١٩] ، أثبت هذا تمرده ضد الملك بالأمر الذي كان تلقاه من رب سماوي لأن ينهي حكماً فاسداً مكروها . وهذا هو أول اعلان للنظرية الشهيرة (وكالة السماء) . وأصبح الدوق المنتصر ملكاً للتشيو ، وأقام أطول اسرة ملكية في تاريخ الصين (١٠٢٨ ـ ٢٥٦ق.م) . ويكفي هنا التذكير بأنه في القرن الثامن وحتى الثالث قبل المسيح ورغم الحروب وعدم الأمان العام ، تفتحت الحضارة الصينية التقليدية ووصل الفكر الفلسفي إلى أوجه[٢١] .

في بداية الأسرة الحاكمة ، تجلى بملامح إله انساني الشكل وشخصي ، الاله السماوي تيين t'ien (سماء) أو شانج تي (السيد في العلى) . إنه يقيم في الدب الأكبر grande ourse في كبد السماء . وتبرز النصوص بنيته السماوية : يرى ، يراقب ويسمع كل شيء ، إنه بصير ، وكلي المعرفة ، وقراره لا راد له . تين ، وشانج تي مطلوبان في المواثيق وفي العقود . وبعد زمن طويل كرَّم كونفوشيوس وفلاسفة اخرون من الأخلاقيين واللاهوتيين من كافة المدارس كلية العلم وكلية الرؤية للسماء . ولكن اله السماء بالنسبة للاهوتيين يفقد تباعاً طبيعته الدينية ، ليصبح المبدأ للنظام الكوني الحافظ للقانون الأخلاقي . وهذه العملية من التجريد والتجذير لاله أعلي أمر شائع في تاريخ الأديان (ر . براهمان ـ زوس ـ اله الفلاسفة في العصر الهلنستي ـ في ايهود المسيحية ـ الاسلام) .

غير أن السماء (تيين) يبقى الحامي للأسرة الحاكمة . فالملك هو ابن (تيين) ووصي على عرش شانج - تي[٢٢] ولأجل هذا ، فالملك وحده هو المكلف بتقديم الأضاحي له ، من حيث المبدأ . انه مسؤول عن الانتشار المألوف للايقاعات الكونية وفي حالة الكارثة - جفاف - طوفان - خوارق - نكبات . فإن الملك يخضع لطقوس تكفيرية . لأن كل اله سماوي يحكم (الفصول) ، وتيين له كذلك دور في العبادات الزراعية . كذلك ، على الملك ان يحضر خلال الفترات الأساسية من الدورة الزراعية (و١٣٠ ع).

إن عبادة الأجداد تحدد في شطر كبير منها التركيبات الموضوعة في عصر الشانج . (ولكننا لم نتلق معلومات سوى عن الشعائر المطبقة من قبل الارستقراطية) . ان الجرة - البيت قد ابدلت برف ، كان يضعه الابن في معبد الأجداد . وان احتفالات معقدة كانت تحصل اربع مرات في السنة ، وكان يجري تقديم اللحوم المطبوخة ، والحبوب ، والمشروبات وكان يتضرع لروح الأجداد . وهذه كانت مشخصة بعضو من العائلة ، حسب العادة واحد من احفاد الميت ، الذي كان يقاسم التقدمات . ان احتفالات مشابهة شائعة كثيرة في آسيا وأمكنة اخرى ، وان شعيرة تبرز النائب عن الميت كانت على ماهو راجح مطبقة في عصور الشانج ، إن لم يكن في ماقبل التاريخ» .

وللآلهة المحليين وعبادتها ، تاريخ طويل لم تردنا الايضاحات الكافية عنه ، فمعلوم ، انه قبل ان تمثل الأرض كأم ، كانت معتبرة كقوة خلاقة كونية خنثى أو ثنائية الجنس[٢٤] . وحسب رأي مارسيل غرانيه marcel Granet ، إن صورة الأرض - للأم تظهر بدئياً (تحت مظهر حيادي لمكان مقدس) . وبعد مدة قصيرة (أدركت الأرض مستخدمة تحت ملامح قوة أمومية وارضاعية»[٢٥] . في العصور القديمة ، كانت الأموات تدفن في الحظيرة الأهلية حيث كانت تحفظ البذور هنالك ، وعليه فإن حارسة البذور بقيت المرأة ، لزمن طويل . «ففي زمن التشيو ، لم تكن الحبوب المعينة لبذرها في الحقل الملكي تحفظ ابداً في غرفة ابن السماء ، وإنما في جناح الملكة» . وبعد وقت متأخر ، ومع ظهور العائلة الأبوية والسلطة الملكية فقط ، أصبح التراب الها . وفي عصر التشيو كان يوجد العديد من آلهة التراب Sol ، منظمة تراتبيا : آلهة تراب عائلية ، إله

القرية ، آلهة التراب الملكي والأمراء . وكان المذبح مكشوفا ولكنه كان يتضمن رفا من حجر وشجرة ـ بقايا عبادات أصلية مكرسة للأرض بصفتها قوة كونية . ان عبادات الفلاحين ، المتمفصلة حول أزمات فصولية ، تمثل على الأرجح الأشكال الأولى لهذا الدين الكوني ، لأن الأرض كما سنرى (ف ١٣٠) لم تكن مدركة فقط كمصدر للخصب الزراعي بل قوة متممة للسماء ، وكانت تتكشف كجزء لا يتجزأ من الكلية الكونية .

ويقتضي ان نضيف ان البنى الدينية التي ذكرناها لا تستنفذ التوثيق الغني عن عصر التشيو (مواد من حفريات اثرية ، وبخاصة عدد كبير من النصوص) . وسنكمل الاطروحة بتقديم بعض الأساطير التشكونية والأفكار الميتافيزيكية الأساسية . ولنذكر هنا انه منذ فترة غير بعيدة اتفق الباحثون على إبراز العقدة الثقافية والدينية للصين القديمة ، وكما هي الحال في العديد من قوميات أخرى ، فإن الإتنية الصينية لم تكن متجانسة . واضافة لذلك ، فلا لغة الصين ولا ثقافتها ولا دينها لم تشكل ، في البدء ، نماذج موحدة . وقد أوضح ويلفرام ايبرهارد Wolfrram Ebrhard اسهام عناصر إتنية متعلقة بوسط خارجي ـ تهاي ، تونغوز ـ شركو ـ موغول ـ تيبيتي الخ . . . في التركيب الصيني[٢٦] . وبالنسبة لمؤرخ الاديان ، فإن هذه الاسهامات ثمينة جداً : إنها تساعده ، مع غيرها ، لفهم الأثر الحاسم للشامانية الشمالية على التدين الصيني ، و«الأصل» لبعض التطبيقات التاوية .

لقد كان المؤرخون الصينيون الرسميون معنيين بالمسافة التي كانت تفصل ثقافتهم التقليدية عن معتقدات وتطبيقات البرابرة ، وعلى ذلك ،يصادف لمرات كثيرة بين هؤلاء البرابرة إتنيات تم تمثلها كلياً أو جزئياً وانتهت ثقافتها لتكون جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الصينية . ولنذكر مثالاً وحيداً . التشو . فقد سبق لمملكتهم أن اقيمت حوالي ١١٠٠ ق.م ومع ذلك فإن هؤلاء التشو ، الذين تمثلوا ثقافة الشانغ كانوا من أصل منغولي وكانت ديانتهم مميزة بالشامانية وبتقنيات النشوة[٢٧] . ان توحيد الصين تحت سلطة الهان وان كان قد حرض على تخريب ثقافة التشو فإنه سهل نشر معتقداتهم وممارساتهم الدينية عبر كل الصين . ومن الراجح أن عدداً من اساطيرهم المتعلقة بالعلوم الكونية وممارساتهم

الدينية قد تم تبنيها من قبل الثقافة الصينية ، أما بالنسبة لتقنياتهم الوجدية فهي توجد في بعض الأوساط التاوية .

١٢٩ اساس وتدبير العالم .

إن أية اسطورة متعلقة بنشأة الكون strictosensu لم يحافظ عليها . ولكنه يمكن كشف الآلهة الخالقة المتجسدة بالبشر والمتحولة للدنيا ، في التقليد التاريخي الرسمي وفي العديد من الأساطير الصينية . وهكذا يروى أن يان ـ كو متجسد بانسان أولي ، وقد ولد «في زمن حيث كانت السماء والأرض عماء مشابهة لبيضة» وعندما مات يان ـ كو «أصبح رأسه قمة جبل مقدس واصبحت عيناه الشمس والقمر وشحمه الانهار والبحار ، وشعره واهدابه الأشجار والنباتات الأخرى»(٢٨)

ويعرف الأساس في هذه الاسطورة والذي يفسر الخلق بتضحية كائن أولي : تيامات (٢١٥) بوروشا (ب٧٥/ ، ايمير (ف ١٧٣). وثمة اشارة من شوكينج تثبت ان الصينيين القدامى كانوا يعرفون مسألة تشكونية اخرى ، مؤكدة لدى شعوب متعددة وعلى مستويات مختلفة من الثقافة : «الرب العظيم l'augus te seigneur هوانج ـ تي كلف تشاونغ ـ لي بتحطيم الاتصال بين الأرض والسماء وذلك بغاية ان توقفا هبوطات الآلهة(٢٩) . إن التفسير الصيني للأسطورة ـ بصورة خاصة الآلهة والأرواح التي كانت تنزل على الأرض لمضايقة البشر ـ هو تفسير ثانوي ، وان اكثرية النصوص المتنوعة تمجد ، على العكس من ذلك ، الصفة الفردوسية للعصر الأولي ، عندما كانت المسافة القصوى بين الأرض والسماء تسمح للآلهة بالنزول والاختلاط مع البشر ، وللبشر أن يصعدوا للسماء بتسلقهم جبلاً أو شجرة أو سلماً ، أو أيضاً بتركهم يحملون من قبل الطيور ، وعلى أثر حدث اسطوري (غلطة شعائرية) انشقت السماء بعنف عن الأرض ، فقطعت الشجرة ، وتسطح الجبل الذي كان يلامس السماء . مع ذلك فإن بعض الكائنات المتمتعة بامتيازات ـ شامانيون ـ صوفيون ابطال ـ اسياد ـ قادرون للارتقاء بنشوة إلى السماء معيدين هكذا الاتصال المنقطع(٣٠) . ويوجد على طول التاريخ الصيني

ما يمكن أن يسمى بالحنين إلى الفردوس أي الرغبة بالعودة بواسطة الوجد إلى «حالة بدئية» : وهي الحالة المعاد تمثيلها بالوحدة/ الكلية ، الأصولية (هوين - ثوي) أو الزمن الذي يمكن فيه ملاقاة الآلهة مباشرة .

وأخيراً وفي اسطورة ثالثة ، هنالك مسألة زوج أخ - أخت ، فوهي ونيوكوا ، كائنان بجسم تماسيح ، غالباً ما يمثلان في الايقونات. متشابكين بذنبيهما . وبعد حصول طوفان «أصلحت نيوكوا السماء الزرقاء بحجارة من خمسة ألوان ، وقطعت مقادم سلحفاة كبيرة لتنصب اربعة اعمدة في الأقطاب الأربعة ، فقتلت التنين الأسود كونغ - كونغ لتنقذ العالم ، وجمعت رماد القصب لتوقف المياه الطامية[٣١] وهنالك نص آخر يقرر أنه بعد خلق السماء والأرض قولبت نيو - كوا البشر ومن طين أصفر صنعت(النبلاء)ومن الوحل (الناس الفقراء والتعساء)[٣٢] .

ويمكن كذلك حل رموز النغمة التشكونية في التقليد المعطى طابعاً تاريخياً ليو الكبير yu le grand. ففي حكم الامبراطور الاسطوري ياو «لم يكن العالم بعد قد انتظم ، فالمياه الغزيرة كانت تسيل بطريقة غير منظمة وتغرق العالم» . وعلى العكس من والده الذي كان قد صنع سدوداً لتطويع المياه ، فإن يو «حفر الأرض وجعل المياه تسيل صوب البحار ، وطرد الافاعي والحيتان ودفعها إلى المستنقعات»[٣٣] . وكل هذه البواعث - الأرض المغمورة بالماء ، وتكاثر الأفاعي والحيتان - لها بنية نشكونية : يو يقوم بدور خالق وبطل محضرٍ. وبالنسبة للمتعلمين الصينيين ، ان تدبير الكون وبناء المؤسسات البشرية يعادل علم الكون . وإن العالم قد «خلق» عندما استقر الرب في الوسط واكمل تنظيم المجتمع ، بعد ترحيل قوى الشر إلى الآفاق الاربعة .

ولكن مشكلة الأصل وانشاء العالم كان أشغل لا وتسو والتاويين الأمر الذي يقتضي قدم التأملات التشكوينة . وفي الواقع ان لاوتسو وزملاءه اقتبسوا من التقاليد الميتولوجية القديمة ، وواقعة أن الجوهر من المفردات التاوية هوين توين ، واليانغ واليين ، والتاو - هي موزعة بين المدارس الأخرى ، وتثبت خاصيتها القديمة ومما قبل الصينية . وعليه ، وكما سنرى فإن أصل العالم حسب لاوتسو يأخذ في لغة ماوراء الطبيعة ، النغمة القديمة التشكونية للعماء (هوين توين) المشابه من حيث مجموعه للبيضة[٣٤] .

وفيما يتعلق ببنية وايقاعات الكون ، يوجد وحدة تامة واستمرارية بين مختلف المفاهيم الرئيسية منذ الشانج حتى ثورة ١٩١١ . ان الصورة التقليدية للعالم هي صورة المركز المجتاز بقطب عمودي سمت ـ نظير Zenith- Nadir ومحاط بالجهات الأربع . والسماء دائرية (لها شكل بيضة ، والأرض مربعة ، والسماء تغطي الأرض كقبة . وعندما مثلت الأرض كصندوق مربع لعربة ، فإن عموداً مركزياً يسند القبة ، المدورة كالسماء . ولكل واحد من الأعداد الخمسة الكوزمولوجية ـ أربع اتجاهات ومركز ـ تناسب لونا ، وطعما ، وصوتا ورمزا خاصا . والصين تقع في مركز العالم ، والعاصمة توجد في وسط المملكة والقصر الملكي في وسط العاصمة .

ان تمثيل العاصمة ، واجمالاً ، كل مدينة بصفتها (مركزا للعالم) لا يختلف مطلقاً عن المفاهيم التقليدية المتأكدة في الشرق الأدنى القديم ، والهند القديمة وفي ايران الخ[٣٥] وبعبارة أخرى ، إن المدينة هي بامتياز (مركز للعالم) ، لأنها تجعل ممكنا الاتصال مع السماء والأقاليم تحت الأرض .

إن العاصمة الكاملة يجب لها أن تقع في مركز العالم ، هنالك حيث ترتفع شجرة عجائبية تسمى (الخشب المتصب) ، وهي توصل الأقاليم السفلى لأعلى سماء ، «عند الظهيرة لاشيء ، مما يقف مستقيما ، بالقرب منها ، لا يستطيع اعطاء ظل»[٣٧] .

حسب التقليد ، يجب لكل عاصمة ان تحوز قصراً طقوسياً هو في ذات الوقت صورة كونية وتقويماً ـ وإن القصر الطقوسي (المينغ ثان) مبني على قاعدة مربعة (= الأرض) ومغطى بسقف من قش دائري (= السماء) . في كل سنة يدور الملك تحت هذا السقف ، متخذاً مكانة من الجهة المطلوبة بالتقويم ، ويحتفل على التوالي بالفصول والشهور . إن الوان ثيابه والأطعمة التي يتناولها ، والحركات التي يقوم بها ، هي بتناسق تام مع مختلف فترات الدورة السنوية . وبنهاية الشهر الثالث من الصيف يستقر الملك في وسط(المينغ تان)كما لو أنه كان محور السنة[٣٨] . والملك تماماً كالرموز الأخرى المركز الكون ، (الشجرة ، الجبل المقدس ، البرج ذو الطوابق التسعة الخ) يجسد بنوع ما قطب الكونl'aximundiويحقق الصلة بين الأرض والسماء . إن الرمزية الفضائية الزمنية (لمراكز العالم) منتشرة جداً ، وقد تأكدت في العديد من الثقافات القديمة كما هو أيضاً في

العديد من الحضارات المدينية[٣٩] . ويضاف إلى ذلك ، ان اكثر البيوت البدائية المتواضعة في الصين هي تماماً كالعاصمة أو القصر الملكي ، متمتعة بذات الرمز الكوني ، وتشكل في الواقع صورة كونية[٤٠] .

١٣٠ ـ تناقضات ، تناوب ، واسترجاع منصب .

كما لاحظنا سابقاً ، إن الاعداد الخمسة الكوزمولوجية ـ الآفاق الأربع والمركز ـ تشكل النموذج المثالي لتصنيف ولتشابه شامل في ذات الحين . فكل مايوجد ينتمي إلى صنف أو فئة محددة جداً وبالنتيجة يتقاسم الصفات والفضائل الخاصة للحقائق المتجمعة في هذا الصنف . وعلى هذا فنحن اذن في معرض انبثاق جريء لنموذج من الموافقات بين الأكبر والاصغر macrocosme.microcosme أي النظريات العامة للمتشابهات التي لعبت دوراً بارزاً في كل الديانات التقليدية . إن أصولية الفكر الصيني توجد في واقعة أنه ادخل هذا المخطط للأكبر والأصغر في نموذج متسعاً جداً للتصنيف ، وبصورة خاصة لدورة المبادىء المتضادة ، وإنما المتكاملة ، والمعروفة تحت اسم اليانغ والين yang et yin . وان النماذج الجذورية المفصلية بدءاً من مختلف الأنواع للانشطار الثنائي أو التعددي ، ومن الازدواجية أو التناوب ، ومن ازدواج متضادة ، ومن توافق المتضادات ، تصادف في كل مكان من العالم ، وعلى كل المستويات من الثقافة[٤١] . وتأتي اهمية الزوجين من الأضداد يانغ ويين من واقعة ، انها لم تخدم نظاماً للتصنيف الشامل فحسب ، ولكن من كونها اضافة إلى ذلك ، قد تطورت في علم كوني (كوزمولوجيا) ومنهجت وصححت عدداً كبيراً من تقنيات الجسد ونظامات الروح من جهة ، وحثت على التأملات الفلسفية الأكثر فالأكثر دقة ومنهجية ، من جهة أخرى .

إن رمزية التناقض والتناوب ، كما رأينا (و ١٢٧ ع) قد اشتهرت كثيراً في الرسم الايقوني من البرونز لعصر الشانغ . وان الرموز المتناقضة مجهزة بطريقة ليستخرج منها ما تتصل به ، على سبيل المثال ، إن البومة ، أو وجهاً آخر مرمزاً للظلمات ملائمة لعيون شمسية ، في حين ان رموزاً أو شعارات من النور تكون معلّمة باشارة

«ليليلية»)[٤٢] . وحسب كارل هينتز فإن الرمز يانغ - ين قد تأكد بالأشياء الطقوسية الأكثر قدماً ولزمن طويل قبل النصوص الأولى المكتوبة[٤٣] .

ويذكر مارسيل غرانيه marcel Granet ان كلمة ين في الشوِ كينغ تستدعي الفكرة لزمن بارد ومغطى ، وتطبق على ماهو داخلي في حين ان العبارة يانغ تومي بفكرة الشمس والحرارة، وبعبارة أخرى ان يانغ وين يدلان على مظهرين محسوسين ومتضادين للزمن[٤٤] . وفي موجز عن نبوءة يُحكى عن «زمن من نور» وعنى «زمن من ظلام» ومقدمة الأمثال المأثورة لتشو انغ تسو : «زمن امتلاء ، زمن تداعي زمن نقاء ، زمن تهدئة ، زمن حياة ، زمن موت [ر.غارنيه الفكر الصيني ص ١٣٢] . فالعالم يمثل اذن «كلية نظام دوري (تاو بين تونغ) مشكًّل بتزاوج مظهرين متناوبين ومتكاملين» [ذات المرجع ص ١٢٧) . ففكرة التناوب تبدو محمولة على فكرة التعارض . وهذا ما تظهره بنية التقويم . وحسب رأي الفلاسفة ، في اثناء الشتاء : «اليانغ المخدوع بالين ، يتحمل ، في عمق الينابيع التحت الأرض ، تحت الأرض المتجمدة ، نوعاً من تجربة سنوية يخرج منها منتعشاً ، وانه يهرب من سجنه في بداية الربيع ضارباً الأرض بكعبه : وانه عندئذ ينشق الجليد من ذاته وتستيقظ الينابيع» (ذات المرجع ص ١٣٥) ان الكون يتكشف اذن بأنه مكون بسلسلة من الأشكال المتضادة والمتناوبة بطريقة دورية .

ويوجد تناظر تام بين الايقاعات الكونية المحكومة بتفاعل اليانغ والين ، والتناوب المتكامل لنشاطات الجنسين . وبما أنه اعترف بطبيعة نسوية لكل ماهو «ين» وطبيعة ذكورية لكل ماهو «يانغ» فإن ايقاع الزواج hierogamie يكشف بعداً كونياً بأكثر مما هو ديني . إن التعارض الطقوسي بين الجنسين يفصح في الواقع في آن واحد عن التضاد المتكامل للصيغتين من حياة ولتناوب مبدأين كونيين ، اليانغ والين . ففي الأعياد الجماعية للربيع والخريف ، التي تشكل مفتاح القبة للعبادات الفلاحية القديمة ، تثار الجوقتان المتضادتان والمتقابلتان وجها لوجه ، بالشعر . «اليانغ يدعو ، اليين يجيب ، الأولاد يدعون ، البنات تجيب» . وهاتان الصيغتان قابلتان للتداول ، وهما تدلان على الايقاع الكوني والاجتماعي معاً[٤٥] . إن الجوقات المتضادة تتقابل كالظل والضوء . والحقل الذي يتم فيه التجمع يمثل كلية الفضاء ، تماماً كما يرمز الحضور

لكلية جماعة بشرية وأشياء من الطبيعة [غرانية ص ١٤٣٠] . وفي زواج مختلط hiérogamie جماعي كانت تتوج الأفراح ، وهذا الطقس كان منتشراً في كل العالم . وإن التناقض المقبول كقاعدة للحياة خلال ما تبقى من العام ، زال أو تصَاعد ، في القران بين الأضداد .

«(مظهر) يين ، (مظهر) يانغ ، هنا ، هو التاو» ، كما كتب في رسالة صغيرة[٤٦] . فالتحول المستمر للعالم بتناوب اليانغ والين ، يبرز كما يقال ، المظهر الخارجي للتاو Tao ولكنه ما أن نحاول تفهم البيئة الإنطولوجية للتاو ، حتى نصدم بصعوبات لا حصر لها . ولنتذكر ان المعنى الأصلي للكلمة هو (طريق = ممر» كما يقال ، ومن هنا فإن معنى المذهب تاو «يثير قبل كل شيء الصورة لطريق يتبع» و «الفكرة لاتجاه سلوك ، ولقاعدة اخلاق» ولكن ايضاً «الفن بوضع السماء والأرض على اتصال ، والقوى المقدسة والبشر» ، والقوة السحرية والدينية للكاهن ، وللساحر وللملك[٤٧] . بالنسبة للفكر الفلسفي والديني الشائع ، إن التاو هو مبدأ النظام المنبثق في كلِ ميادين الواقع ، وهكذا يجري الكلام عن تاو سماوي وتاو أرضي (اللذان يتعارضان قليلاً كاليانغ والين) وتاو الانسان (أي مبادىء السلوك التي ، في حالة الملك ، تجعل وظيفته ممكنة ، كوسيط بين السماء والأرض) .

ان بعض هذه الدلالات تتفرع من المعنى القديم للوحدة/ الكلية الأصولية ، وبعبارة أخرى ، من معنى نشكوني. وإن تأملات لاوتسو حول أصل العالم مرتبطة باسطورة نشكونية تحكي قصة الخلق بدءاً من كلية يمكن مقارنتها ببيضة . وفي الفصل ٤٢ من تاو- تو- كينغ قال : «التاو ولد واحداً ، الواحد ولد اثنين ، الاثنان ولد الثلاثة ، الثلاثة ولدت عشرة آلاف كائن - العشرة آلاف كائن حملوا الين على عاتقهم واحتضنوا اليانغ»[٤٩] . ويبدو في أي معنى ، استعمل لاوتسو اسطورة تشكونية تقليدية مضيفاً إليها بعداً ميتافيزيكياً جديداً . «الواحد هو المكافىء للكل» . انه يرجع للكلية البدئية ، وهو المذهب المألوف في العديد من الميتولوجيات . ويوضح التفسير ان اتحاد السماء والأرض (أي «اثنان») أولد كل مايوجد ، حسب سيناريو ميتولوجي معروف كذلك جيداً . ولكن بالنسبة للاوتسو « واحد »، الوحدة الكلية البدئية ، تمثل فيما سلف مرحلة من « الخلق »، لأنها تولدت بمبدأ غامض ولا يمكن ادراكه ، التاو .

وفي فقرة تشكونية أخرى (فصل ٢٥) ، يشار إلى التاو وكأنه «كائن حيادي وكامل ، ولد قبل السماء والأرض . . ويمكن اعتباره كالأم للعالم . . ولكنني أجهل اسمه ، إنني اسميه تاو واذا أوجب اعطاءه اسما فإنه سيكون : اللانهاية (تا)[50] الكائن الحيادي والكامل» . وهذه الفقرة قد فسرت في القرن الثاني ق.م من قبل أحد المفسرين وكأنه : «الوحدة الخفية للسماء والأرض التي تشكل ، بطريقة عمائية (هوين - توين) الشرط لكتلة من الصخر الغير مصنع»[51] . فالتاو هو اذن كلية بدئية ، حية وخالقة ، ولكن دون شكل ودون اسم . «الذي هو بدون اسم هو أصل السماء والأرض . والذي له اسم هو أم عشرة آلاف كائن» - كما كتب في فقرة تشكونية اخرى [فصل ١ - ٣٠ - ٧) . مع ذلك ، فإن الأم ، التي تمثل بداية التشكونية ، في هذه الفقرة ، تدل من جهة أخرى على التاو ذاته . «الوهية الفال Val لا تموت : إنها الانثى الغامضة ، باب الأنثى الغامضة ، هاهو أصل السماء والأرض»[53] .

إن عدم امكانية وصف التاو قد جرى التعبير عنها كذلك بنعوت ومعاني أخرى تحدد ، مع التنوع في فروقها والوانها ، الصورة التشكونية الأولى . العماء . ونذكر هنا أكثرها أهمية : الفراغ (هسو) ، العدم (وو) ، الكبير (تا) الواحد (اي)[53] . وسنعود إلى بعض هذه المصطلحات في تحليلنا لمذهب لاوتسو . ولكنه يحسن من الآن أن نذكر ان الفلاسفة التاويين ، كما هو الأمر بالنسبة للرهبان والباحثين المهتمين باطالة العمر وبالخلود ، قد بحثوا باعادة ادخال هذا الشرط الفردوسي) وبصورة خاصة كمال الصفة والعفوية الأصلية . ويمكن اكتشاف الحالة البدئية في هذا الحنين وهذا تعبير جديد لسيناريو زراعي قديم ، كان يستدعي طقوسيا «التجميع» باتحاد جماعي «عمائي» للأولاد والبنات ، ممثلين اليانغ واليين . وان العنصر الاساسي ، الشائع في كل المدارس الطاوية ، كان التمجيد للشرط البشري البدئي الذي كان يوجد قبل انتصار الحضارة . وعلى ذلك ، لقد كان بحق ضد هذه «الرجعة للطبيعة» التي كان قد رفعها كل أولئك الذين ارادوا احياء مجتمع سليم ومتحضر ، محكوم بالضوابط وملهم بأمثلة من الملوك الخرافيين والأبطال المحضرين .

١٣١ - كونفوشيوس : قوة الطقوس .

يمكن القول ، إن كل اتجاهات الفكر الديني ، في الصين القديمة ، كان لها

قاسم مشترك عدد من الأفكار الأساسية . ونذكر بدئياً مفهوم التاو بصفته مبدأ ومنبعاً للحقيقة ، وفكرة التناوب المحكوم بايقاع البين - اليانغ ، ونظرية التشابه بين الأخضر والأكبر ، وهذه النظرية الأخيرة كانت قد طبقت على كافة المستويات من الوجود والتنظيم البشري : التشريح ، الفيزيولوجيا ، علم النفس الفردي ، المؤسسات الاجتماعية ، المساكن والساحات المكرسة (مدينة ، قصر مذبح ، معبد بيت) . ولكن ، وفي حين أن البعض (في المقام الأول التاويين) كان يقدر أن وجوداً متشراً تحت اشارة التاو بانسجام كامل مع الايقاعات الكونية ، كان ممكناً في البداية فقط «أي في مرحلة تسبق التنظيم الاجتماعي ونهضة الثقافة» . فإن البعض الآخر كان يعتبر هذا النموذج من الوجود ممكن التحقيق بصورة خاصة في مجتمع صحيح ومتحضر .

ان الأكثر شهرة من بين هؤلاء الأخيرين ، والأكثر تأثيراً ، كان بالتأكيد كونفوشيوس (٥٥٩ - ٤٧٩ ق.م)(٥٤) . وكونفوشيوس باعتباره كان يعيش في مرحلة تاريخية من الفوضى والظلم ، ومتألماً من التعاسة والشقاء العام ، قد ادرك ان الحل الوحيد كان اصلاحاً جذرياً للحكم ، المنجز من قبل رؤساء متنورين والمطبق من قبل مسؤولين موظفين . ومع ذلك لم ينجح هو بالحصول على وظيفة هامة في الادارة ، وقد كرس حياته للتعليم ، وكان أول من مارس مهنة المعلم الخاص . وبالرغم من نجاحه تجاه عدد من تلاميذه ، فإن كونفوشيوس لم يكن أقل اقتناعاً ، قبل قليل من موته ، بالاخفاق التام لمهمته ، ولكن التلامذة نجحوا في نقل ماهو اساسي من تعليمه ، من جيل إلى جيل . وبعد ٢٥٠ سنة من وفاته ، قرر ملوك اسرة الهان [٢٢٠ - ٢٠٦ق.م] تكليف الكونفوشيوسيين بادارة الامبراطورية ، ومنذئذ قاد مذهب المعلِّم الخدمات العامة خلال الفي سنة .

بصريح العبارة ، ان كونفوشيوس ، ليس رئيساً دينياً(٥٥) . فأفكاره وبصورة خاصة ، افكار الكونفوشيين الجدد ، قد درست بصورة عامة في تاريخ الفلسفة . ولكن بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، أثر كونفوشيوس بعمق على الديانة الصينية ، وفي الواقع ، ان ذات المنبع لاصلاحه الاخلاقي والسياسي هو ديني . ومن جهة أخرى ، انه لم يطرح أية فكرة تقليدية هامة ، لا التاو ، ولا رب السماء ، ولا عبادة الأجداد . واكثر من هذا ، إنه مجد وقيم الوظيفة الدينية للطقوس والمعطيات العرفية ، المعتادة .

وبالنسبة لكونفوشيوس ، فإن تاو أقيم بقرار من السماء : «إذا طبق التاو ، فإن هذا بسبب قرار سماوي»[لوين يو ١٤ ـ ٣٨] . وان يسلك الانسان في حياته حسب التاو ، فإنه يتلاءم مع ارادة السماء ، فكونفوشيوس يقر بأولوية السماء [تيين] ولا يتعلق ذلك بالنسبة له ، بإله مفارق ، إن (تيين) مهتم بكل فرد على حدة ويساعده ليصبح أفضل . «السماء هي التي تنتج الفضيلة (تو) فيّ» [ر٢٢٠]ـ كما يعلن : «في سن الخمسين ، فهمت ا ارادةالسماء»[١١، ٤] . وفي الواقع فإن المعلم اعتقد أنه مكلف برسالة من قبل السماء . وكغيره من بين أقرانه ، كان يقدر أن طريق السماء مضاء بطريقة مثالية بالأبطال المحضَّرين ، ياو وشون وبالملوك من اسرة تشيو ، وين ، و ، وو[٢٠ ـ ١٠] .

وقد صرّح كونفوشيوس بلزوم اتمام الاضحيات وبقية الطقوس التقليدية ، لأنها تشكل جزءاً من الحياة « لانسان سام» (شين ـ تزد)، ولرجل شريف . والسماء تحب تلقى الاضحيات ، ولكنها تحب ايضا السلوك الاخلاقي ، وبخاصة الحكم الجيد . ان التأملات الميتافيزيكية والثيولوجية حول السماء والحياة بعد الموت غير مفيدة [٧، ١٢ـ ٨ـ ٩/٢] . والانسان الأعلى ، يجب أن يهتم ، بدئياً بالوجود الانساني المحسوس ، كما يعيش هنا ومنذ الآن . اما فيما يتعلق بالأرواح ، فإن كونفوشيوس لم ينكر وجودها ولكنه عارض في أهميتها . ومع احترامه لها أمر «احتفظوا بها بعيداً وهذه هي الحكمة» [٦ ـ ٨ ـ ١] . أما بالنسبة للانصراف إلى خدمتها «إذا لم تستطيعوا خدمة البشر ، فكيف تستطيعون خدمة الأرواح ؟؟» [٢ ـ ٦] .

إن الاصلاح الاخلاقي والسياسي المعلن من قبل كونفوشيوس يشكل (تعليماً كاملًا) ؛ أي طريقة قادرة لتحويل الفرد العادي إلى «رجل أعلى» (شون ـ تزو) ، لا يهم من يستطيع أن يصبح «الانسان الحقيقي» بشرط أن يتعلم السلوك الاحتفالي بالتوافق مع (التاو)، وبعبارة أخرى ، أن يطبق بدقة الشعائر والعادات (لي) . والتطبيق ، مع ذلك ، ليس من السهل اتقانه . انه لا يتعلق بشعائرية ، خارجية تماماً ، ولا بتمجيد انفعالي مثار عندما تكمل الشعيرة . فكل سلوك احتفالي صحيح يثير قوة سحر ـ دينية لا يمكن ردها(٥٦) . ويستذكر كونفوشيوس الملك العاقل الشهير شون : «كان يجلس بكل بساطة ، بوقار ، واحترام ، ووجهه نحو الجنوب (الوضعية الشعائرية للملوك) ـ وكان هذا

كل شيء (أي : أن اعمال المملكة كانت تجري بتوافق مع النظام) [١٥ ـ ٤] . لأن الكوزموس (الكون) والمجتمع يداران من قبل القوى السحر ـ دينية نفسها الفعّالة في الانسان «مع سلوك منضبط لا حاجة لاصدار الأوامر» [٨: ٦] «الحكم حسب الفضيلة (تو) هو مثلما لو كانت النجمة القطبية : تبقى في مكانها في حين ان كل النجوم الأخرى تدور في تمجيد حولها» [٢ ـ ١٠] .

إن الاشارة التي تتم طبق القاعدة تشكل تجليا جديداً للانسجام الكوني . ومن الواضح ان من هو مؤهل لسلوك من هذا النوع ليس هو الفرد العادي الذي كانه قبل تعليمه ، فطريقته في الوجود تغيرت جذرياً ؛ وهي «انسان كامل» . إن تأديباً يتابع «تحول» الحركات والتصرفات إلى شعائر ، مع حفاظه على عفويتها ، له ، بالتأكيد هدف وبنية دينية(٥٧) . ومن هذه الوجهة النظر يمكن مقارنة طريقة كونفوشيوس بالتعليمات والتقنيات بما كان لاوتسو والتاويـون قد حسبوا ان في مكنتهم استرجاع العفوية الأساسية . إن أصولية كونفوشيوس هي بمتابعته (التحول) في طقوس عفوية لحركات وسلوكيات لابد منها في مجتمع معقد ومتراتب على مستوى عال .

وبالنسبة لكونفوشيوس ، إن النبالة والامتياز ليسا فطريين : انه يتم الحصول عليهما بالتربية . فيصبح الانسان نبيلاً بالتأديب وببعض المؤهلات الطبيعية [٥٤ ـ ٦ ـ ٥] وإن الطيبة ، والحكمة ، والشجاعة هي الفضائل المميزة للنبالة . وأسمى الارتياح هو انماء الفضائل الذاتية . «ان من هو طيب حقاً ، لن يكون تعيساً مطلقاً» [٩ ـ ٢٨] . مع ذلك فإن الدور الحقيقي لرجل نبيل هو أن يحكم [٧ ـ ٣٢] . وبالنسبة لكونفوشيوس كما هو بالنسبة لافلاطون ، فن الحكم هو الوسيلة لضمان السلام والسعادة لأكبر عدد . غير أننا «سنرى» ان فن الحكم ، شأنه شأن غيره من الصفات ، سلوك أو تصرف له دلالته ، وهو النتيجة لتعليم من نوع ديني . ولقد مجّد «الأبطال المحضرين والملوك العظام من اسرة تشيو ، فكانوا امثلته النموذجية «لقد علمت واعلموني اياه دون أن اضع فيه من عندي ، لقد كنت أميناً للقدماء وقد اجبتهم» [٧ ـ ١] . وقد استخلص بعضهم من هذه الاعلانات ، الحنين لعصر متطور بما لا يعوض . ومن ذلك ، ففي تقويم الوظيفة الشعائرية للسلوك العام ، دشّن كونفوشيوس طريقاً جديدة ، فقد أظهر الضرورة والامكانية ، لاحياء المحيط الديني لعمل دوري ولنشاط اجتماعي .

١٣٢ - لاوتسو والطاوية .

روى المؤرخ الكبير (سزو- ماتسين) في كتابه شي - كي («ذكريات تاريخية») سنة ١٠٠ ق.م انه عندما ذهب كونفوشيوس ليستعلم عن الشعائر بالقرب من لاوتان(اي لاوتسو) ، فإن هذا قال من جملة ماقال : «استبعد طبعك المتكبر، وكل الرغبات ، ومظهر المعجب بنفسه ، والحماس المتجاوز الحد . . ففي كل هذا لا ترجي فائدة لشخصك . . وهذا كل ما استطيع ان اقوله لك» . وخرج كونفوشيوس واجماً . وأقر لاتباعه انه عرف كل الحيوانات - طيور - اسماك - ذات الاربع - وعرف كل طباعها ، «ولكن التنين ، لم استطع معرفته : انه يرتفع للسماء على الغيم وعلى الريح ، لقد رأيت اليوم لاوتسو إنه مثل التنين»(٥٨) .

هذا اللقاء ، هو بالتأكيد مزيّف ، كما هي من جهة أخرى كافة التقاليد المسجلة من قبل سزو- ماتسين . ولكنه ، يوضح ببساطة ودعابة ، تنافر الطباع بين المفكرين الكبيرين الدينيين . ويضيف المؤرخ ، ذلك لأن «لاوتسو استثمر التاو والتو ، وحسب مذهبه ، يجب . التعود على العيش خفية وبشكل مغفل» . وعليه فإن العيش بعيداً عن الحياة العامة واحتقار الامجاد ، كان بالتأكيد ضد الفكرة المثالية (الانسان الاسمى) المقترح من قبل كونغوشيوس . إن «وجود لاوتسو خفية وغفلاً» ويفسر غياب كل إعلام رسمي يتعلق بشكله . وحسب التقليد .

كان لفترة من الزمن موثقاً فيّ قصر تشيو ، ولكنه وقد ثبط عزمه بانهيار البيت الملكي ، تنازل عن وظيفته وتوجه إلى الغرب . وعندما اجتاز ممر هيين - كو ، حرر ، بناء على طلب الحارس «كتابا في قسمين عرض فيه افكاره حول التاو والتو tö واشتمل على اكثر من خمسة آلاف كلمة ، ثم ذهب ولم يعد أحد يعرف ماذا حصل له» . ويعد أن روى سزوم - ماشين كل ما تلقاه استنتج : «لن يقول أحد في العالم ، ما اذا كان هذا صحيح أم لا : إن لاوتسو كان حكيما مستتراً» .

هذا وان الكتاب المتضمن (اكثر من خمسة آلاف كلمة) هو تاو تو كينج الشهير، النص الأكثر عمقاً واكثر تلغيزاً في كل الأدب الصيني . أما بالنسبة إلى مؤلفه وإلى تاريخ كتابته ، فإن الآراء متباعدة ومتضادة في ذلك[٥٩] . وربما اتفق على أن واقع النص كما يمثل اليوم ، لا يمكن أن يكون قد كتب من قبل معاصر لكونفوشيوس ، وعلى الأرجح أنه يعود بتاريخه إلى القرن الثالث . إنه يتضمن حكما ، وامثالاً ترجع لمختلف المدارس الما قبل التاوية وعدداً من جوامع الكلم (أمثال) بأبيات من الشعر ترجع إلى القرن الرابع[٦٠] ، ومع ذلك ، ورغم الخاصية اللامنهجية ، فإن التاتوكينج يعبر عن فكرة متماسكة وأصولية . «يجب اذن القبول بوجود فيلسوف ، إن لم يكن هو المؤلف المباشر ، فعلى الأقل المعلم الذي كان تأثيره حاسما في الأصل . ولا يوجد أي محذور من الاستمرار بتسميته لاوتسو»[٦١] .

ويشكل متناقض ، يشتمل التاتوكينج على عدد كبير من النصائح الموجهة إلى الحكام والرؤساء السياسيين والعسكريين . وتماماً ككونفوشيوس ، فإن لاوتسو يؤكد أن أعمال الدولة يمكن لها أن توجه بنجاح فقط ، اذا اتبع الأمير طريق التاو ، وبعبارة أخرى ، اذا طبّق طريقة وو ـ وي (عدم العمل ، أو عدم الفعل) . لأن «التاو يبقى دائماً بدون عمل ولا شيء لم يعمله» [٣٧ : ١]ـ [٦٢] . ولهذا فإن التاوي لا يتدخل مطلقاً في مجرى الاشياء» . «إذا كان الأسياد والملوك قادرين للبقاء ، في احتذاء للتاو ، على هذه الوضعية من عدم التدخل ، فإن العشرة آلاف كائن لن يتخلفوا ابداً عن اتباع مثاله من ذاتهم» [٣٧ : ٢] . كما أن التاوي الحقيقي «الأفضل (بين الأمراء) هو الذي يجهل وجوده» [١٧ : ١] وبما أن التاو السماوي ينتصر بدون صراعات» [٧٣ : ٦] فإن الوسائل الأكثر فعالية للحصول على السلطة هي عدم العمل (وو ـ وي) وعدم العنف[٦٣] «ان السلس والضعيف يتغلب على القاسي والقوي [٣٦ : ١٠ ـ ٤٠ : ٢) «ان الضعف هو وظيفة التاو» .

وإجمالاً ككونفوشيوس تماما ، الذي كان طرح مثله الأعلى (بالانسان الكامل) للحكام كما هو بالنسبة لأي فرد راغب بأن يتثقف ، فإن لاوتسو دعا الرؤساء السياسيين والعسكريين لأن يتلاءموا مع التاوية ، وبعبارة أخرى لاتباع ذات النموذج المثالي : ألا وهو التاو . غير أن هذا ، هو فقط الشبه الوحيد بين المعلمين . إن لاوتسو ينتقد ويرفض

النموذج الكونفوشيوسي أي أهمية الطقوس ، واحترام القيم الاجتماعية والعقلانية «لنتنازل عن الاحسان ، لنطرح العدالة ، فإن الشعب سيجد الفضائل الحقيقية المألوفة» . [٩٠١]

بالنسبة للكونفوشيوسيين ، ان الاحسان والعدالة هما اسمى الفضائل ، ولكن لاوتسو اعتبرهما مع ذلك كأوضاع مصنّعة ، اذن غير ذات فائدة وخطيرة . «عندما يهمل التاو ، يرجع الى الاحسان ، عندما يهمل الاحسان ، يرجع الى العدالة ، عندما تهمل العدالة يرجع للشعائر . . ان الشعائر ليست سوى غطاء رقيق من الشرعية والضمير والبداية للفوضى» . [٣٨ . ٩ - ١٤] كذلك فإن لاوتسو يدين القيم الاجتماعية ، لأنها مخادعة وضارة في آخر المطاف . أما بالنسبة للعلم الاستدلالي ، فإنه يدمر وحدة الكائن ويشجع الفوضى باعطائه قيمة مطلقة للمفاهيم النسبية[٦٤] . «لهذا فإن القديس ينصرف لعدم العمل وو - وي ويوزع الارشاد بدون كلام» [٢ : ١٠] . وفي آخر المطاف ، إن التاوي يتبع دوماً نموذجاً مثالياً : التاو : مع ذلك فإن التاو يدل على أن الحقيقة الكلية، غامضة ولا يمكن ادراكها fons et erigo لكل خلق ، أساس كل وجود . وبتحليل وظيفة النشكونية ، كنا اشرنا للخاصية الفائقة الوصف للتاو . وان اول سطر من التاو تو كينج يؤكد : «التاو الذي يمكن الكلام عنه تاو ، ليس التاو الدائم» [(تشانغ ناو)١ -١] . هذا ما يعيد إلى القول بأن التاو الذي تكلم عنه لاوتسو ، النموذج للتاوية ، ليس هو التشانغ - تاو (تاو دائم أو سام)[٦٥] . فهذا التاو المشكل بكلية الحقيقة ، يصعّد كيفيّات الكائن ، وبالتالي فهو غير ممكن ادراكه بالمعرفة . فلا لاوتسو ولا تشوانغ تسو حاولا البرهان على وجوده، حالة موزعة ، كما هو معلوم ، بعدد من الصوفيين . وبوضوح ، «فإن المظلم أكثر عمقاً من الظلمة ذاتها» ينعكس على التجربة التاوية الخاصة للوجد ، والتي سنعود إليها .

فلاوتسو يتكلم اذن عن (تاو) (ثاني) محتمل ، غير أن هذا ايضا لا يمكن ان يدرك . «اتعمق بالنظر ولا أرى شيئاً . . اتنصت واصغي ولا اسمع شيئاً . . لا أجد سوى وحدة غير متميزة . . متعذرة التمييز ، لن تعلم لها تسمية» [فصل ١٤][٦٦] . غير

أن بعض الصور والمجازات تكشف بعض البنى ذات الدلالات . وكما أشرنا إليه آنفاً فإن التاو(الثاني)، يسمى «أم العالم» [فصل ٢٥ و ٥٢] . ويرمز إليه بألوهية «الفال Val» والانوثة الغامضة «التي لا تموت»(٦٧) . إن صورة الوادي تستدعي فكرة الفراغ ، وبذات الموقف حوض المياه ، اذن الخصب ، والفراغ متشارك ، من جهة ، مع مفهوم الخصوبة والامومة ، ومن جهة أخرى ، غياب الصفات الحساسة (نوعية مميزة للتاو) . إن صورة الثلاثين شعاعاً التي تتقارب نحو فراغ الثقب - (ثقب في وسط البكرة أو الدولاب) توحي برمزية غنية ، وعلى الأخص : «فضيلة الرئيس الذي يجذب إليه كل الكائنات ، من الوحدة العليا التي تنظم حولها التعددية» ولكن التاوي ايضاً ، «عندما يكون فارغاً ، أي مطهراً من العواطف الجيَّاشة ، ومن الرغبات ، فإنه مسكون كليا بالتاو [كالتنهارك ص ٥٥] .

وبالتلاؤم مع طريقة التاو «الثاني» ، فإن التلميذ المبتدىء يعاود انعاش وتقوية (كموناته) أو امكانيات فعله النسوية ، وفي الدرجة الأولى منها (الضعف) ، التواضع ، وعدم المقاومة . «اعرف الذكورية ، ولكن فضِّل الانوثة : ستصبح وادي الكون . لتكون وادي العالم ، وأن لا يتركك التاو الأعلى ، وستستطيع العودة لحالة الطفولة» [٢٨ : ١-٢] من وجهة نظر ما ، يجبر التاوي بالحصول على طبيعة خنثى ، المثل الأعلى القديم للكمال البشري (٦٨) ، ولكن عملية التكامل للجنسين تسهل العودة لحالة الطفولة أي لبدء الوجود الفردي ، وعلى ذلك فإن مثل هذه العودة تجعل من الممكن التجدد الدوري للحياة . ويفهم الآن بشكل افضل رغبة التاوي باعادة تملك الحالة البدائية ، تلك التي كانت توجد «في البداية» . وبالنسبة له ان الكمال الحيوي والعفوية والسعادة ، البالغة ، والغبطة قد اعطيت فقط في بداية خلق او تجلي جديد للحياة(٦٩) .

ان نموذج عملية التكامل للاضداد هو دائما التاو ، في وحدته الكلية يتوحد اليانغ واليين . وعلى ذلك ، وكما رأينا منذ عصر ماقبل التاريخ ، فإن الزواج المشترك والجماعي للشباب والفتيات ، ممثلاً لليانغ واليين ، كان يحقق دورياً الوحدة/ الكلية الكونية والاجتماعية . وفي هذه الحالة أيضاً تستلهم التاوية معطيات دينية قديمة . ويجب ان

نضيف أن وضع التاويين بالنسبة للنساء كان مضاداً جذرياً للفكرة السائدة في الصين الاقطاعية .

ان الفكرة الما قبل الصينية للدورة الكونية تلعب دوراً هاماً في التاو توكينج . إن التاو (يجري في أي مكان في الكون ، دون أن يتوقف مطلقاً) [فصل ٢٥] . وان الحياة والموت للكائنات يفسر ايضاً بتناوب اليانغ واليين : الأول ينشط الطاقات الحيوية ، ولكن اليين يجلب الراحة . مع ذلك ، فإن القديس يحلم بالخلاص من الايقاع الشامل للحياة والموت ، بتحقيقه الخواء في كينونته ذاتها ، انه يضع نفسه خارج الدورة . وكما يعلن لاتسو «لا يوجد فيه (في القديس) محل من أجل الموت» [٥٠ : ١٣]. «ان من انعم عليه بكمال التو To ، يمكن مقارنته بالوليد الجديد» [٥٥ : ١] . والتاويون يعرفون العديد من التقنيات المؤهلة لتمديد الحياة إلى مالانهاية ، وحتى الحصول على (خلود طبيعي) . وان البحث عن حياة طويلة يشكل جزءاً من البحث عن التاو . ولكن لاوتسو لايبدو أنه اعتقد بالخلود الطبيعي ولا باستمرار حياة الشخصية البشرية . والتاو توكينج ليس واضحاً حول هذه النقطة[٧٠] .

ومن أجل وضع المسألة في نصها الحقيقي ، نذكّر بأن التقنية التاوية للوجد هي من أصل دينية شامانية[٧١] . فمعروف أن روح الشامان اثناءالرعشةتترك الجسد وتسافر في الأقاليم الكونية ، وعليه ، وحسب حكاية صغيرة مروية من قبل (تشوانغ تسو) وجد كونفوشيوس يوما لاوتسو «فاقد الحركة تماما وليس له مظهر كائن حي» . وبعد أن انتظر بعض الوقت ، وجه إليه الكلام : «هل خانتني عيناي ، أو هل ان ذلك حقيقي . فمنذ هنيهة ، كان جسدك أيها المعلم يشبه قطعة خشب جافة ، كنت تبدو كأنك تركت العالم والبشر واستقريت في عزلة لا يمكن الوصول إليها» . وأجاب لوتان: «نعم ، لقد مضيت ارتع بمصدر الاشياء كلها» [فصل ٢١] . وكما يلاحظ كالتنهارك [ص ٨٢] فإن عبارة «سفر لمصدر الأشياء» تلخص الجوهري في التجربة الصوفية التاوية . فهذا السفر الوجدي يشكل عودة «لبداية» كل الأشياء ، وبالتخلص من الزمان والمكان ، ستجد الروح الأزل ماثلاً يصعد الحياة كما يصعد الموت . ويتعلق هذا باعادة تقييم وتعميق الوجد الشاماني . فالشامان اثناء ارتعاشه : يطير في وسط العالم ، ويعيد احياء العصر ، الفردوسي) لما قبل السقوط ، أي عندما كان البشر يستطيعون الصعود إلى

السماء ويتحادثون مع الآلهة . ولكن سفر لاوتسو إلى مصدر الأشياء يشكل تجربة صوفية من نوع آخر ، لأنه يصعد الشرائط التي تميز الشرط البشري ، وبالتالي تغير جذريا النظام الانطولوجي .

لا يعرف سوى القليل عن حياة تشوانغ تسو ، المعلم الثاني الكبير للتاوية ، وعلى الأرجح إنه عاش في القرن الخامس ق.م ، وفي هذه الحالة ، فإن بعض أقواله المأثورة apherimes سابقة لاصدار (التاو توكينج) . ان تشوانج تسو ، مثل لاوتسو ، يرفض أيضاً الآراء الشائعة بأن العلم استدلالي discursive فالمعرفة الوحيدة الكاملة هي من نظام وجدي لأنها لا تدخل ثنائية الحقيقة . ولهذا السبب فإن تشوانغ تسو يماهي الحياة والموت : انهما النموذجان ، أو المظهران ، للحقيقة الشاملة[٧٢] . وهذه النغمة للوحدة حياة موت معتمدة باستمرار من قبل المؤلفين التاويين[٧٣] . وهنالك قصة صغيرة شهيرة توضح مفهوم تشوانغ تسو حول نسبية حالات الشعور . «في سالف الزمان ، أنا تشوانغ تسو ، حلمت انني كنت فراشة تتطاير ، وكنت أشعر بالسعادة ، لم أكن أعلم بأنني (تشيو) ، فجأة استيقظت وكنت أنا ذاتي تشيو الحقيقي . ولم أعلم فيما اذا كنت تشيو الحالم بأنه كان فراشة أو فراشة حالمة بأنها تشيو»[٧٤] . وفي الواقع ، ان حالات الضمير ، داخل دورة التاو ، هي قابلة للتبادل .

ان القديس الذي أفرغ نفسه من كافة التجهيزات وغرق في الوحدة/ الكلية للتاو ، يعيش في وجد غير متقطع . وكما هو الحال بالنسبة لبعض اليوجيين فإن هذه الطريقة المضادة للوجود في العالم تترجم احياناً بعبارات خارقة لكلية قدرة الهية . «الرجل الكامل هو روح نقية . لا يشعر بحرارة الدغل المحترق ولا ببرودة المياه الطامية ، وان الصاعقة التي تشق الجبال ، والعاصفة التي ترفع المحيط لن تخيفاه . إن هذه الغيوم اقرانه ، والشمس والقمر مطاياه . انه يهيم ماوراء البحار الاربع ، وتناوبات الحياة والموت لا تعنيه ، كذلك ايضا مفاهيم الخير والشر»[٧٥] . وحسب بعض المؤلفين التاويين فإن هذه التجوالات الشطحوية هي في الحقيقة سفرات داخلية[٧٦] . وكما يحصل لدى شعوب أخرى تحكمها الشامانية ـ على سبيل المثال لدى الترك ـ المغول ـ ولقد

الهمت التجارب ومغامرات الشامان خلال سفره الشطحوي الشعراء ، فمجدت في القصائد الملحمية .

١٣٣ ـ تقنيات الحياة المديدة .

ان اللغة الصينية تميز عادة التاوية الفلسفية (تاو ـ كيا ،ـ التي تعني لغة «مدرسة تاوية» عن التاوية الدينية أو الديانة التاوية (تاو ـ كياو ، التي تعني لغويا مذهب تاوي»[٧٨] .

وبعض المؤلفين يرى ان هذا التمييز صحيحاً وضرورياً ، وبالنسبة لهم ، ان تاوية لاوتسو وتشوانغ تسو هي (فلسفةنقية) تتعارض جذريا مع بحث الخلود الطبيعي ، الهدف المركزي «للديانة التاوية»[٧٩] وهنالك جماعة اخرى من الباحثين تعتمد الوحدة الاساسية لكل الاشكال التاريخية للتاوية[٨٠] . وفي الواقع ، إن «علماء ماوراء الطبيعة» والصوفيين مثلهم مثل انصار البحث عن الخلود الطبيعي ، يتوازعون ذات المفهوم المتناقض للتاو ويتبعون ذات الهدف : ان يجمعوا في شخصهم التجليات للحقيقة الكلية «يانغ ويين ، مادة وروح ، حياة وموت» غير أن التمييز بين «التاوية الفلسفية ، والديانة التاوية ، مفيد ويمكن المحافظة عليه» .

إن الهدف الكلي للأنصار كان الحصول على الخلود الطبيعي . وان رمز الفكرة بالنسبة للخالد (مصوراً) ، وممثلاً انسانا وجبلاً ، يوحي براهب ، ولكن الاشكال الأكثر قدماً كانت تمثل رجلاً راقصاً مصفقاً بذراعيه كالطائر . وإن المريد على أهبة الحصول على الخلود ، كان يغطي بريش طائر ، وأجنحة كانت تثبت في كتفيه[٨١] . «اصعد للسماء في وضح النهار» تلك كانت العبارة المكرسة للتمجيد النهائي للمعلم ، وان صنفاً كان يضم المريدين الذين كانوا يعيشون خلال عصور في نوع من الفردوس الأرضي : الجزائر الفاخرة أو الجبل المقدس كوين ـ لوين» .

وكانت ترجع من وقت لوقت إلى العالم من أجل ان تنقل الصيغ للخلود الطبيعي لبعض الحديثي القبول الجديرين بتلقيها ، وأخيراً الصنف الثالث ويشمل اولئك الذين

لن يصلوا للجنان الأرضية الا بعد موتهم . ولكن هذا الموت كان ظاهراً : كانوا يتركون في اللحد ، عصا ، أو نعال يعطونها مظهر أجسادهم . وهذا ماكان يدعى (تحرير الجثة) وكان الخالدون أحيانـاً بجماجم متطورة إلى أبعد حد ، علامة على انهم اختزنوا في ادمغتهم كمية كبيرة من الطاقة يانغ .

ان عدداً من تقنيات الحياة المديدة بتصرف المريد . وان مبدأهم الأساسي يقتضي «تغذية القوة الحيوية» (يانغ - هزينغ) . وبما أنه يوجد تضامن كامل بين الأكبر macrocome والجسم البشري ، فإن القوى الحيوية تدخل وتخرج بواسطة الفتحات التسع للجسم ، فيقتضي اذن السهر عليها بحيوية . ويميز التاويون في الجسم ثلاثة أقسام تسمى حقول كبريت الزئبق champs de cinabres : الحقل (الأعلى) متوضع في الدماغ ، والثاني بالقرب من القلب والثالث تحت الرحم .

وللتطبيقات الغذائية هدف محدد ، تغذية الأعضاء بأغذية وبأعشاب طبية تحتوي (الطاقات) التي هي خاصة بها . ولنذكر أن المناطق الداخلية للجسم هي مأهولة ليس بالآلهة والأرواح الحارسة فحسب ، وإنما أيضاً بكائنات شريرة : الديدان الثلاثة التي تستقر في الحقول الثلاثة لاكسيد الزئبق ، تفترس رجولة المريد . ولكي يتخلص منها فإن عليه أن يتنازل عن الغذاء العادي (حبوب ، لحم ،خمر،إلخ . .)وان يتغذى بالنباتات الطبية والمواد المعدنية المؤهلة لقتل الشياطين الثلاثة[٨٥] .

وبالتحرر من الشياطين الداخلية الثلاثة ، فإن المريد يبدأ بالتغذي من الندى أو النفخات الكونية ، إنه لا يتنشق مطلقاً هواء الجو لوحده ، وإنما أيضاً التصاعدات الشمسية ، والقمرية والكوكبية . وبحسب بعض القصص المؤكدة في القرن الثالث ق.م ، يتوجب استنشاق التصاعدات الشمسية عند الظهر (عندما يكون اليانغ في القمة) وتلك العائدة للقمر المحتوية (الیين) في وسط الليل . ولكنه يجب بصورة خاصة اعادة الامساك بالنفخة ، وبواسطة رؤى داخلية ومتعلقة بفكرتها ، نصل إلى رؤية النفخة عيانا وإلى قيادتها عبر الحقول الثلاثة لاكسيد الزئبق ، وإذا أرجعنا النفخة الزمن المناسب لحد ١٠٠٠ زفرة ، يمكن الحصول على الخلود[٨٦] .

وثمة اجراء خاص يدعى [التنفس الجنيني] تيه - سي ، يتعلق «بنفخة» داخلية في دائرة مغلقة مماثلة للجنين في البطن الأمومي[٨٧] «بالرجوع الى الأساس ، بالعودة للأصل ، تطرد الشيخوخة ، ويعاد إلى حالة الجنين»[٥٨] . و «التنفس الجنيني ، ليس كالبرانایاما اليوجية (ف . ١٤٠ع) ، تمريناً أولياً للتأمل . ومع ذلك فإن هذه الممارسة تجعل من الممكن حصول تجربة وجدية . وحسب تاي بينغ شاين (القرن الثالث ق.م) يمكن الوصول ، ببصيره داخلية لادراك الآلهة المقيمة في الاعضاء الخمس . فهم ، من جهة أخرى ، نفسهم الذين يسكنون العالم الأكبر macrocosme . وبالتفكير والتأمل يتمكن المريد من الدخول في اتصال معهم ويجعلهم يزورونه ويقوون جسده[٨٩] .

وهنالك طريقة أخرى للحصول على طول العمر ، تتطلب تقنية جنسية هي في آن واحد طقوسية ووسيلة للتأمل . ان التطبيقات المسماة «مخدع النوم» (فانج شونغ) تعود الى زمن قديم جداً ، واهداف هذه الممارسات كانت زيادة الحيوية وضمان طول الحياة وانجاب الاولاد الذكور . ولكن التقنية التاوية ، (طريق البين) للخالد يانغ - تشين (القرن الأول ب . م)وتتضمن (استعادة المني semence من أجل وقاية الدماغ) . وفي الواقع ، انها تتعلق بنفس الفكرة عن راحة الضمير ataraxie المميزة للتاوية : تجنب تبديد الطاقةالحيوية، فالعزل يجعل من الممكن للمني أن يسير صوب الجسد ويختلط بالتنفس ، وبعبارة اكثر دقة ، يجعل صعوده من الحقل الأدنى من اكسيد الزئبق الى الحقل الكائن في الرأس لاعادة تنشيط الدماغ : في العادة يستفيد القرينان من هذه الشعيرة . وهنالك نص من القرن الخامس ق.م يؤكد على أنه «بالتأمل الكامل يستطيع الرجال والنساء تطبيق طريقة الخلود» . وبالتأمل ، على المشاركين «اضاعة الشعور بجسدهما والشعور بالعالم الخارجي» . وبالتالي ، وبعد تلاوة الصلوات على الرجل ان يفكر ملياً حول الكليتين والمرأة حول القلب . «هذه هي الطريقة لعدم الموت»[٩٠] . ان الخالد جونغ تشينغ قد عرف تماما طريقة (الاصلاح والقيادة) . «لقد امتاح الجوهر في الانوثة الغامضة ، وكان مبدؤه أن النفوس الحية التي تقيم في الوادي (فال) لا تموت ابداً ، لأن الحياة تتغذى بواسطتها كما يتغذى التنفس . ان شعره الأبيض سيصبح اسود ، وستنبت اسنانه التي سقطت . وقد كانت ممارساته مماثلة لممارسات لاوتسو . ويقال أيضاً أنه كان معلم لاوتسو»[٩١] . ان بعض المريدين قد طبَّق طريقة معروفة باسم

«هاموية» : (الايمان بالهامة) [كالتنهارك] وهذه الطريقة ادينت بأنها غير اورثوذكسية (أصولية) وطريقة ممارستها تقتضي امتصاص الطاقة الحيوية من النسوة اللواتي يجامعن : «هذه الطاقة ، المتأتية من مصادر الحياة ذاتها ، وهي تحقق طول عمر معتبر»[٩٢] .

إن واحداً من الأهداف الرئيسية للتقنية الجنسية التاوية هو خلط المني مع التنفس في حقل اكسيد الزئبق الأدنى وتكوين «الجنين السري» هنالك تحت الجنين ، لجسد جديد لايفنى . وهذا الجنين المغذى بالتنفس فقط ينمو في «جسد طاهر» والذي ينفصل في الموت الظاهري للمريد ، عن جثته وينضم للخالدين الآخرين . وعلى المريد بهدف (اصلاح الدماغ ، ان يمتص كمية كبرى من الين Yin ، وذلك هو السبب الذي من أجله كان يغير مراراً المشارك . وقد افسحت هذه الممارسة المجال فيما بعد لاتحاد (الانفاس) الجماعية ، وهي حفلة انتقدت مراراً كثيرة ، وبصورة خاصة من قبل البوذيين . غير أن مثل هذا التهتك كان طقوسيا وعلى نطاق ضيق ، ويرجع في واقعه للحفلات الزراعية مما قبل التاريخ (ف ١٣٠ ع) .

وفي الممارسات الجنسية التاوية يمكن اكتشاف بعض التأثير الهندي ، وبخاصة ما يسمى بالتانتارية (لليد اليسرى) التي احيت طريقة يوجية للحصول على التوقف في آن واحد للقذف المنوي Emission seminale وللتنفس[٩٣] . وكما في التانتارية تماماً ، فإن اللغة الجنسية التاوية تنعكس كذلك عن عمليات عقلية وتجارب صوفية .

١٣٤ ـ التاويون والكيمياء .

إن بعض الطقوس وميتولوجيات المعدنين والسباكين والحدادين قد أعيد الأخذ بها وأعيد تفسيرها من قبل الكيميائيين . وان المفاهيم القديمة بصدد نمو المعادن في بطن الأرض ، وتحول المعادن الطبيعي إلى ذهب ، والقمية الصوفية للذهب ، كذلك العقدة الشعائرية «حدادين» ـ اخوية مسارية ـ اسرار «مهنة» كلها توجد في تعليمات الكيميائيين .

إن الاختصاصيين ليسوا متفقين على الأصول للكيمياء الصينية ، وان تواريخ النصوص الأولى المشيرة للعمليات الكيميائية مازالت موضع نقاش ، وفي الصين ، كما في غيرها ، تعرف الكيمياء بعقيلة مزدوجة : ١) تحويل المعادن إلى ذهب و ٢) القيمة الغذائية ـ السحرية لعمليات منجزة بهدف الوصول لهذه النتيجة . وقد تأكدت المراجع الدقيقة لهذين المعتقدين في الصين بدءاً من القرن الرابع ق.م . واتفق على اعتبار تسو ـ ين المعاصر لمنشيو ، وكأنه المؤسس للكيمياء(٩٤) . وفي القرن الثاني ق.م كانت العلاقة بين تحضير الذهب الكيميائي والحصول على طول العمر ـ الخلود معروفة بوضوح من قبل ليو ـ آن ومن قبل مؤلفين آخرين(٩٥) .

ان الكيمياء الصينية تتكون بصفتها علماً مستقلاً باستعمال : ١) المبادىء الكونية التقليدية ٢) الاساطير ذات العلاقة من اكسير الخلود والقديسين الخالدين ، ٣) التقنيات المتبعة في اطالة العمر والنعيم والعفوية الروحية معاً . وان هذه الاقانيم (العناصر) الثلاثة ـ مبادىء ، اساطير ، تقنيات ، كانت تنتمي لتراث ثقافي مما قبل التاريخ ، وسيكون من الخطأ الاعتقاد أن تاريخ الوثائق الأولى التي تؤكدها تعطينا ايضا مدى عمرها . ان التضامن واضح ، بين (تحضير الذهب) والحصول على (شراب الخلود) و (استحضار الخالدين) : لوا ـ تيه يحضر امام الامبراطور وو ، ويؤكد له أنه يستطيع فعل هذه المعجزات الثلاث ولكنه لم ينجح سوى في ان يجسد الخالدين(٩٦) . ان الراقي (الساحر) لي شاو ـ كيون يوعز للامبراطور وو من الأسرة الملكية هانا : «ضحي للقرن» وتستطيع ان تحضر كائنات (مما فوق الطبيعة)، وعندما تكون قد احضرت الكائنات (فوق الطبيعية) فإن رماد اكسيد الزئبق يمكن له ان يتحول الى ذهب أصفر ، وعندما يكون الذهب الأصفر قد تم انتاجه ، يمكنك ان تصنع منه ادوات للشرب وللأكل ، وعندئذ سيكون لك عمر طويل مديد . وعندما يتمدد عمرك الطويل، ستستطيع رؤية السعداء في جزيرة بونجلي التي تقع وسط البحار ، وعندما ستراها ، وعندما تكون قد اقمت الاضاحي فونغ وشان ، وعندئذ لن تموت(٩٧) .

ان البحث عن الاكسير كان مرتبطا اذن بالبحث عن الجزر البعيدة والخفية ، حيث كان يعيش فيها الخالدون : ملاقاة الخالدين ، كانت هي التجاوز للشرط البشري والمشاركة بوجود غير زمني وفردوسي(٩٨) .

ان البحث عن الذهب اقتضى ايضاً بحثاً عن الطبيعة الروحية ، والذهب كانت له خاصية امبريالية : كان يوجد في «مركز الأرض» وكان في علاقات صوفية مع الشو chue (الزرنيخ الأحمر أو الكبريتور realgare ou sulfure)، ومع الزئبق الأصفر والحياة المستقبلة ، («الينابيع الصفراء») . هكذا ظهر في نص يعود ل ١٢٢ سنة ق.م، هوى - نان - نزو حيث نراه مؤكداً ايضاً لعقيدة في مسخ متسارع للمعادن[٩٩] . فالكيميائي لا يفعل اذن سوى التسريع في نمو المعادن . وكمثيله الغربي ، فإن الكيميائي الصيني يساهم في عمل الطبيعة بتعجيل ايقاع الزمن . إن الذهب والجاد من واقع كونهما يساهمان بمبدأ اليانغ، يقيان الاجساد من الفساد ، ولذات السبب فإن الأواني من ذهب كيميائي تمد في الحياة الى مالانهاية ١٠٠٠ . وحسب نص محفوظ في لي هزين فإن شو (الألواح الكاملة للخالدين) ، فإن الكيميائي وي بويانغ نجح في تحضير «حبيبات الخلود» : وبابتلاعه هو وكلبه وواحد من تلامذته بعض هذه الحبوب ، تركوا هذه الأرض بلحمهم وعظمهم وذهبوا جميعاً للالتحاق بالخالدين الآخرين[١٠١] .

ان التماثل التقليدي بين الاصغر والأكبر كان يقرب العناصر الخمسة لعلم الأكوان (ماء ، نار ، خشب ، هواء ، تراب) من اعضاء الجسم البشري : القلب لجوهر النار ، والكبد لجوهر الخشب والرئتين لجوهر الهواء ، والكليتين لجوهر الماء ، والمعلة لجوهر الارض . وان العالم الاصغر micra'come الذي هو الجسد البشري ، هو بدوره قد فسر بعبارات كيميائية : (نار القلب حمراء كأكسيد الزئبق وماء الكليتين اسود مثل الرصاص» الخ[١٠١] . وبالنتيجة فإن الانسان يملك في جسده الخاص ، كل العناصر التي تشكل الكون (كوزموس) وكل القوى الحيوية التي تضمن تجدده الدوري . ويقتضي تقوية بعض العناصر فقط . ومن هنا أهمية اكسيد الزئبق cinabre على الأقل للونه الأحمر (لون الدم مبدأ الحياة) ومن واقع أنه بوضعه في النار ، فإن اكسيد الزئبق ينتج الزئبق . إنه يكشف اذن سر اعادة التجدد بواسطة الموت (لأن الاحتراق يرمز للموت) . وينتج من هذا ان اكسيد الزئبق يمكن له ان يضمن اعادة التجدد المتكرر للجسم البشري وفي آخر المطاف ، يستطيع ان ينتج الخلود . ان الكيميائي الكبير كوهنغ (٢٨٣ - ٣٤٣) ق.م يكتب ان عشرة حبات من مزيج اكسيد الزئبق والعسل تتناول خلال سنة تعيد السواد للشعر الابيض وتنبت الاسنان الساقطة ، واذا توبعت العملية لأكثر من سنة يمكن الحصول على الخلود[١٠٣] .

غير أن اكسيد الزئبق يمكن له أيضاً أن يتكون داخل الجسد البشري خاصة بواسطة تقطير المني في (حقل الزئبق) . وهنالك اسم آخر لهذه الحقول من الزئبق ، المنطقة السرية للدماغ الموصول (بالغرفة المشابهة لمغارة) هي كوين - هوين . وعليه فإن الكوين هوينهو جبل خرافي من بحر الغرب محل لاقامة الخالدين . «ولكي يدخل اليه بالتأمل الصوفي ، يدخل في حالة عمائية ، هوين ، تشبه الحالة البدئية ، الفردوسية الغير مشعور بها في عالم غير مخلوق»[١٠٤] .

ولنستعد هذين العنصرين : ١) التشابه بين الجبل الاسطوري ، كوين لوين ، والأمكنة السرية للدماغ والبطن . ٢) الدور المتوافق مع حالة (العماء) التي ما أن يتحقق مرة بالتأمل ، حتى تسمح بالدخول في حقول اكسيد الزئبق وتجعل من الممكن هكذا التحضير الكيميائي لجنين الخلود . ان جبل البحر الغربي ، مستقر الخالدين هو صورة تقليدية وقديمة جداً في عالم الأصغر من كون منمنم مصغر . وان جبل كوين لوين له طابقان : مخروط مستقيم يعلو مخروطاً مقلوباً[١٠٥] . وبعبارة أخرى ، شكل مطرة للماء أو (قرع يقطين) ، تماماً مثل فرن الكيميائي والمنطقة السرية للدماغ . أما بالنسبة للحالة العمائية المتحققة بالتأمل والتي لابد منها للعمل الكيميائي ، فيمكن مقارنتها بالمادة الأولية ، الكتلة المختلطة للكيمياء الغربية[١٠٦] . فالمادة الأولية لايسوغ لها أنتفهم كبنية أولية للمادة فحسب ، وإنما ايضا كتجربة داخلية للكيميائي . وان ارجاع المادة لشرطها الأول من اللا تميزية المطلقة يناسب ، على مستوى التجربة الداخلية ، الانكفاء إلى طور قبل ولادي ، جنيني ، وعلى ذلك ، رأينا ، نغمة تجديد الشباب أو النشاط وطول العمر بالتراجع للرحم regrressus ad uterum يشكل واحدا من أولى اهداف التاوية . وان الطريقة الأكثر استعمالا هي التنفس الجنيني تيه - سي ولكن الكيميائي ينال ايضا هذا الرجوع لطور الجنين بواسطة اذابة العناصر في فرنه[١٠٧] .

بدءاً من إحدى الفترات الزمنية ، كانت الكيمياء الخارجية وي - تان معتبرة كظاهرية وهي مقابلة للكيمياء الداخلية من نوع يوجي (نيتان) ومعلنة باطنية ، لوحدها . وإن النيتان تصبح باطنية لأن الاكسير هو معد في الجسد حتى للكيميائي بطرائق من «وظائف اعضاء بارعة» وبدون مساعدة مواد نباتية أو معدنية . ان المعادن النقية أو (ارواحها) متماهية في مختلف اجزاء الجسد ، وان العمليات الكيميائية بدلا من أن

نكون متحققة في المختبر ، تدور في الجسد وفي وعي المريد . وان الجسد يصبح البوتقة يدور ويذوب فيها الزئبق (النقي) و (الرصاص النقي) كما هو المنى الرجولي ، كما هو النفَس . وباختلاطها ، تحمل قوى اليانغ والبين «الجنين السري» («اكسير الحياة» و «الزهرة الصفراء») ، الكائن الخالد الذي سينتهي بهجر الجسد عن طريق الجمجمة . والصعود إلى السماء . ان النيتان يمكن اعتباره كتقنية مشابهة (للتنفس الجنيني) ، مع الفارق بأن العمليات موصوفة في اللغة الكيميائية الباطنية . ان التنفس قد شبه بالفعل الجنسي والعمل الكيميائي ـ والمرأة قد مثلت بالبوتقة(١٠٨) .

وان العديد من الأفكار والتطبيقات التي سنشير إليها بعدئذ قد تأكدت في النصوص بدءاً من عصور شين وهان (٢٢١ ـ ٢٢٠ق.م) الأمر الذي لا يعنى بالضرورة انها كانت مجهولة سابقاً . ولقد وضح انه من الملائم مناقشتها منذ الآن ، لأن تقنية الحياة المديدة وفي بعض المعايير ، الكيمياء تشكل جزءاً لا يتجزأ من التاوية القديمة . غير أنه يجب ان نضيف ، بأن لاوتسو قد كان تأله في عصر الهان ، وان التاوية ، المنظمة في مؤسسة دينية مستقلة ، قد ترأست بعثة مسيحانية وألهمت حركات ثورية . وهذه التطورات الغير منتظرة لحد ما ، لن تدوم لفترة متأخرة [الفصل ٣٥ من هذا الكتاب] . وهنا يكفي التذكير ان لاوتسو كان فيما سلف معتبراً في نص يعود إلى ١٦٥ ق.م كظهور من العماء البدئي ممثلا ببانكو pan-kou الكائن البشري الكوني cosmique (ف ١٢٩)(١٠٩) .

أما بالنسبة للديانة التاوية (تاو كياو) فقد تأسست حوالي نهاية القرن الثاني ق م. من قبل تشانغ رتاو لينج ، فبعد ان حصل على اكسير الخلود ارتفع تشانج للسماء وحصل على لقب (المعلم السماوي) . وقد أقام في إقليم شيتشوان (ادارة تاوية) تجمعت فيها السلطات الرفيعة والروحية . وان نجاح المذهب يرجع بالأكثر لعبقرية مطبب لرئيسهم . وسنرى (فصل ٣٥) ان ذلك يتعلق بصنعه معجزة نفسية ـ جسدية مدعّمة بوقعات من الطعام متخذة بطريقة مشتركة ، عندما كان يتم تقاسم فضائل التاو .

ان الحفلة التهتكية الشهرية «اتحاد الانفاس» كانت تتبع ذات الهدف . وعليه ، فإن أملاً مماثلاً لاعادة التجدد بواسطة التاو يميز حركة تاوية اخرى ، مذهب (السلام

الكبير). وقد سبق لمؤسس الحركة ان احضر للامبراطور في القرن الأول ق.م كتابا ذي رؤى اخروية . والكتاب مملى من قبل ارواح ، وكانَ يكشف الوسائل المؤهلة لاعادة تجديد عترة الهان الملكية . وقد أعدم هذا المصلح الملهم ولكن مسيحانيته استمرت تلازم المؤمنين . وفي ١٨٤ ق .م أعلن رئيس المذهب شانج شويه التجديد ، واعلن (ان السماء الزرقاء) يجب ان تبدل «بالسماء الصفراء» (ولهذا السبب لبس المؤمنون عمائم صفراء) . غير أن التمرد الذي اعلنه اخفق في وسط الاسرة المالكة . واخيرا خنق التمرد بواسطة الجحافل الامبراطورية ، ولكن الحميا المسيحانية امتدت خلال العصور الوسطى بكاملها . وان آخر رئيس «للعمائم الصفر» قد اعدم سنة ١١١٢م .

حواشي الفصل السادس عشر

١ - ٢ - بينغ - تي - هو the Cradle of the East ص ١٦ و Ho ص ١٢١
٣ - هو Ho ص ٢٧٩ يصادف تطبيقات ومعتقدات مماثلة في بعض ثقافات الشرق الأدنى لما قبل التاريخ وفي أوروبا الشرقية .
٤ - ح - اندرسون - اطفال الأرض الصفراء ص ٣١٥
٥ - ٦ طبعة جيدة في كتاب Ho ص ١٥٤ و ٢٨٢
٧ - هينتز ص ٤٩ . سيوجد في هذه المؤلفات عدد كبير من الموازيات المختارة في الثقافات المشتركة ، تاريخيا او بشريا ، في الحضارة الصينية القديمة .
٨ - يتعلق بطريقة التنبؤ المنتشرة في آسيا الشمالية : تطرح المسألة وتسخن العظام أو الصدف ويشرح المتنبؤون اشكال التشقق . ثم كان ينقش بجانب هذه التشققات السؤال والجواب .
٩ - برنارد كارلنجرين (اساطير ومعتقدات الصين القديمة)
١٠ - السلمندر والنمر والتنين الخ . . مازالت قيد الاستعمال في الايقونات والفن الشعبي الصيني . وهي رموز كونية مؤكدة آنئذ منذ عصر النيوليتيك .
١١ - هينتز ص ١٤
١٢ - ١٣ - Lichi بداية الحضارة الصينية ص ٣٢ - ٣٥
١٤ - العبارة : «أنا رجل وحيد ، أو ربما «أنا الرجل الأول» تأكدت في نقوش كهنوتية انظر - دافيد كيتلي .
١٥ - كما لاحظ كيتلي ص ٢٧٤ ان عبادة الاجداد ابرزت النسب الملكي باعتباره مصدراً للسلطة الدينية والسياسية . وان مبدأ وكالة السماء المعتبرة في العادة كاختراع للأسرة الملكية تشو ، تفرز جذورها لي لا صوت تشانج .
١٧ - لي تشي ص ٢١ - يلفت الكاتب الانتباه على البواعث الحيوانية (نمر - غزال) في تزيينات الفلزات

من البرونز (ص ١٣٣) وتضيف لذلك ان هذا ينطلق بحيوانات رمزية ، وتتصل برمزية كونية ومسارية معقدة .

١٨ ـ ١٩ ـ م ـ الياد ـ جنكيز خان ص ١٨٢

٢٠ ـ نذكر بعض التواريخ العامة : فترة التشيو الغربيين التي دامت حتى ٧٧١ ق.م تبعتها فترة التشيو الشرقيين ق ٧٧٠ ـ ٢٥٦ ق.م ومن ٤٠٠ ـ ٢٠٠ ق.م كان هنالك حروب لم تنقطع وهذا هو العهد المسمى عهد الملوك المحاربين الذي انتهى بتوحيد الصين حتى حكم الامبراطور هو وانغ ـ تي .

٢١ ـ أثناء هذه الفترة تم تحرير أو املاء الكتب الكلاسيكية وكما يلاحظ هينتر يشهد تحت حكم التشيو ابطال لهم صفة القداسة . والوظيفية الأولى للكتابة ـ تنظيم العلاقات اسماء ـ أرض ـ بشر قد ابدلت باشغال انساب وصور تاريخية وفي آخر المطاف ـ أصبحت الكتابة وسيلة للدعاية السياسية .

٢٢ ـ انظر شوكينج ـ ترجمة Legg ص ٤٢٨ : ان التشيو كانوا مشهورين انهم نزلوا من جو اسطوري هيولي امير ميليه ، وهو يمجد في التشبكنج (قصيدة ١٥٣)بصفاتهاعطى القمح والشعير حسب اوامر الاله ، ويضاف الى ذلك ان الاضاحي البشرية المؤكدة في القبور الملكية لعصر الشانج ، قد انقرضت تماما تحت حكم التشيو .

٢٣ ـ ان صور الاشخاص ، مع الزراعين المرتفعين المحززة على اشياء من الغضار تمثل على الأرجح اجداداً أو كهنة لعبادة ذات علامة بالاسلاف . وهذا التشكل الايقوني قد تأكد في عصر النيوليتك وفي عصرالشانج ان مثلا بارزامن الفولكلور لعبارة عن الحد قد توضحت على صندوق من البرونز من اواسط عصر التشيو : على الغطاء قد مثلوا في نموذج ساذج طبيعي امرأة ورجلا واقفين وجها لوجه .

٢٢ ـ الياد . الأمم الأرض والزواجات الكونية ـ احلام واساطيره» .

٢٦ ـ ٢٧ ـ انظر الثقافة الصينية جزين . s.migorse دراسات في ديانة الشو .

٢٨ ـ نصوص مترجمة من قبل ماكس كالتنهارك (ولادة العالم في الصين ص ٤٥٦

٢٩) هنري ماسيرو الديانات الصينية ص ١٨٦ الخ .

٣٠) م. الياد .ـ اساطير ـ احلام ـ اسرار ص ٨٠

٣٣ ـ هو . . . . القرن ٣ قبل المسيح ـ مترجمة من قبل كالتنهارن ص ٤٥٨

٣٤) ر. ن ج جيراردو اسطورة ومعنى في تلو تي تشينغ ص ٢٩٩

٣٥ ـ م ـ الياد ـ اسطورة العودة الابدية ص ٣٠

٣٦ ـ بول ، ديلتي ـ الجهات الاربع ٣٠ ص .

٣٧ ـ مارسيل غارنيه . الفكر الصيني ص ٣٢٤

٣٨ ـ غرانيت ص ١١٢ ويبلو واضحاً ان هذه المحطة الشعائرية في الوسط المنيع ثان تناسب «فترة من التراجع خلالها كانت يتوجب على الرؤساء القدامى ان يتجاوروا باعمق ما يمكن بمنازلهم» الأيام الستة او الاثني عشر «كانت تستعمل بطقوس وملاحظات كانت تسمح تحديد غوتربة الحيوانات ونجاح المحاصيل» الاثني عشر يوما كانت تشكل تمثلا مسبقا للاثني عشر شهرا للسنة التي ستأتي - مفهوم قديم تأكد في الشرق الأوسط وأمكنة أخرى .

٣٩ـ الياد مركز الدنيا ـ معابد مساكن ص ٦٨

٤٠ ـ شين ـ تزيينات وافكار دينية .

٤١ ـ م . الياد . ملاحظات حول الثنائية الدينية . ازواج وتناقضات

٤٢ ـ ٤٤ كارل هنتز ـ الفكر الصيني ص ١١٧ ـ ١٩٤

٤٥ ـ غارنيه ـ رقصات وخرافات الصين القديمة ص ٤٣

٤٦ ـ هو تو ـ ص ٣٢٠ وهذا اقدم تعريف علمي للتاو

٤٧ ـ ماكس كليتنهارك . لاوتسود الطاوية ص ٣٠٠

٤٨ ـ ماكس كليتنهارك «ان هذا التاو هو الذي مثل المثل الأعلى لكونفوشيوس والذي اعلن ان من يسمع الكلام عن التاو صباحاً يموت مساء بهدوء» .

٤٩ ـ ترجمة كالتنهارك (ولادة الصين ص ٤٦٣ . وهذا المخطط للتنامي بسلسلة مستعمل لتقرر بنا من طل المدارس الفلسفية من بتلينغ هو حتى الكونفوشين الجدد

٥٠ ـ ٥١ . ترجمة كالتينهارك ، لاوتسو (٣٩)بالنسبةلتشوانغتشو ، ايضا الشرط البدني لكمال الوحدة قد ضاع عندما تقيد الامبراطور هوين توين بهدف الحصول مثل كل البشر على وجه متمتع بسبع حفرات ولكن (العماء)ناءبه سابع يوم بعد الثقب السابع .

٥٢ ـ ٥٤ . اسم عائلته كان كونج kung (كونفوشيوس هي ترجمة لاتينية (k'un- fu- tzu) المعلم king

٥٥ ـ ولكنه سرعان ما اغدق على كونفوشيوس الفضائل والصفات المميزة للابطال المحضرين .

٥٦ ـ هذا المظهر وصف بتلاؤم من قبل هربرت فينغاريت ـ كونفوشيوس .

٥٧ ـ يعرف جهد مماثل في التنترية والكابال وبعض تطبيقات Zen

٥٩ ـ يميز على الأقل اربعة اوضاع ١/ لاوتسو هو ذات الشخص لاوتان من القرن الرابع ، الذي كان من الممكن ان يكون قد تلقى زيادة كونفوشيوس» لاوتسو عاش اثناء الفترة المسماة الربيع والخريف ولكنه ليس مؤلف التاوتوكينج ٣)انه عاش في عصر الملكيات المتحاربة ٤٠٤ ـ ٤٢١ ق.م ولكنه لا يمكن ان تكون متيقنين انه كتب التاوتوكينج ٤)انه ليس شخصية تاريخية (انظر وينغ ـ نينت تان) طريق لاوتسو ٣٠

٦٠ - ٦١ - ماكس كالتنهارك - يصادف ذات الحالة في آداب اخرى تقليدية ، المؤلف المنسوب لبعض القصاء أو المتأملين هو بصورة عامة قد اتم واغنى من قبل التلامذة بمعنى ما ، ان المؤلف قد اصبح شهيراً ، اصبح مجهولاً .

٦٢ - بدون اشارة مخالفة ، نثبت ترجمة ماكس كالتنهارك ، الترجمة الانكليزية لـ وي - تسيت تان طريق لاوتسو وهي ثمينة بملاحظاتها وشروحها . وترجمة ارترڤالي الطريقة وثوتها) تتميز بصفتها اللاوية

٦٣ - «الذي يتطلع الى القوة ويفكر بالحصول عليها بالعمل ، توقع فشله» [٢٩ : ١] «الرئيس الممتاز للحرب ليس شرساً ، المحارب الجيد ليس عنيفاً ، إن من يتغلب على لعدو يشكل أحسن هو من لا يتخذ أبداً موقف الهجوم .. وهذا ما اسميه فضيلة اللا عنف . هذا ما اسميه المساواة في السماء» . (والمساواة بالمساء كانت المثل الأعلى للقدماء [٦٨: ١-٢-٧]

٦٤ - «في هذا العالم ، كل واحد يؤكد ان ماهو جميل هو جميل ، من هنا قد عين القبح ، وكل واحد يؤكد ان ماهو خير هو خير ومن هنا عين الشر» طول وقصر لا يوجد الا بالمقارنة ، الأعلى والأوطى متضامنان»[٢ : ١]

٦٥ - «أو الأفضل ، الغوامض ، أو الافضل ايضا المظلم اكثر عمقاً من الظلمة ذاتها لأنه ليس ثمة عبارة للتعمق بالسر» كالتنهارك ص ٤٥

٦٦ - مشهد آخر يبرز التاو مثل (كائن غير مرئي ، غير متميز» الذي يخبىء في احشائه الصور ، الكائنات الجواهر المخصبة والجواهر الروحية (فصل ٢١)

٦٧ - عبارة الانثى الغامضة (يستدعي الخصب السري للتاو باعتباره ايضا ذو علاقة مع فكرة الوادي أو الحفرة في الجبل» (كالتنهارك ص ٥٤)

٦٨ - انظر . م. الياد الخنثى وميستوفيليس

٦٩ - مفهوم يتعلق بفكرة عامة موزعة بين كل المجتمعات التقليدية : الكمال يعود لبداية الدور (كوني أو تاريخي ، الانهيار بدئي به بالشعور به مؤخراً .

٧٠ - كالتنهارك ص ٨٤ ايلين ماري شيس ٣١ غارنية : الفكر الصيني ص ٥٠١

٧١ - ٧٢ نجد بعض الأمثلة المثيرة في الفصل ١٨

٧٣ - «أنا وهذه الجمجمة قال ليتسور لواحد من تلامذته (فعلم انه لا يوجد في الحقيقة حياة) انها مجرد ذهاب وعودة : الكائن الميت هنا ، هل أعلم اذا لم يكن كائن حي هنالك ؟

٧٥ - تشوانغ تسو . تشيو هو اسمه الشخصي

٧٦ - «بالتأمل الداخلي نجد مايرضينا بذاتنا» لي - تسو

٧٧ - كالتنهارك ص ١٢٠ -وم . الياد الشامانية ص ٣٥٠

٧٨ - حسب سيفين ، هذا التميز هو من خلق المؤرخين الرسميين الحديثين .

٧٩ - غراهام .. كتاب ليه تزو ص ١٠

٨٠ ـ الأكثر أهمية هم ماسبيرو وغرانيت كالتنهارك وشيير .

٨١ ـ حول العلاقة بين الأجنحة والزغب والطيران السحري والتاية . انظر والتنهارك وهو يعرف ان ريش الطائر هو واحد من الرموز الشائعة جداً «للطيران الشاماني»

٨٢ ـ انه يتعلق بالصورة المثالية للاقاليم الفردوسية الخارجة عن الزمن والممكن الحصول عليها فقط من قبل المسارين . وحسب المؤرخ سماما . تبين فان عدة ملوك من القرن الرابع والثالث ارسلوا حملات للبحث عن هذه الجزر المافوق طبيعية .

٨٣ ـ انظر . بعض الأمثلة في (التاوية) ماسبيرو ص ٨٢ ـ ٨٥

٨٤/٨٥ ـ نذكر بان السينابر cianabre اكسيد الزئبق) كان العنصر الاساسي لتحضير (اكسير الحياة الدائمة)

٩٦ ـ ماسبيرو (اجراءات التغذية ، المبدأ الحيوي في الديانة التاوية القديمة ص ٢٠٣

٨٧ ـ ماسبيرو ص ١٩٨ يضاف الى ذلك ان (التنفس العين والصامد) للوجد كان يشبه بتنفس الحيوانات اثناء الرعي ، ويعرف ان العفوية واكتمال الحيوانية كانت تشكل بالنسبة للصينيين النموذج الممتاز للوجود في انسجام كامل مع الكون .

٨٨ ـ ٨٩ ـ مقدمة اطروحة ماسبيرو و (على البانتيون التاوي يسكن الجسد البشري .

٩٠ ـ ٩٤ ـ ر. اليوجا جزء فصل ٣٢ وانظر هـ . دويز بداية الكيمياء ص ٧٧

٩٦ ـ ٩٧ ـ ادوار شافان ذكريات تاريخية ص ٤٩٠ و ٤٦٥

٩٨ ـ البحث عن الخالدين الساكنين في الجزر البعيدة اشغل الاباطرة الأول من اسرة تسين ٢١٩ ق.م

٩٩ ـ فقرة مترجمة من قبل Dubs ص ٧١ ـ ٧٢ ومن الممكن ان هذا النص ورد من مدرسة شورين من المعلم ذاته ، المعاصر لمنشور القرن الرابع . . والعقيدة في التحول الطبيعي للمعادن قديمة جداً في الصين .

١٠٠ ـ حدادون وكيمياتيون ـ م الياد ص ٩٦

١٠١ ـ ليونيل جيل ـ خلود الصينيين ص ٨٧ . الخلود الجسدي كان من المعتاد الحصول عليه بامتصاص الاكسير المحضر في المخبر (فيلهام) ص ٩٣

١٠٢ ـ نصوص الذكورة في جداوين وكيمياتيين مرجع سابق ص ٩٩

١٠٣ ـ جيمس ر. وار ص ٧٤ اكسيد الزئبق كشراب لطول العمر قد ذكر منذ زمن في القرن الأول ق.م في مجموعة قصص خرافية عن الخالدين التاويين ـ لي ـ سن بعد ان شرب السينابر خلال بضع سنوات اصبح احد المعلمين مماثلا لمراهق وآخر اصبح مؤهلا لان يتحول من مكانه بالطيران» الخ . كالتنهارك ص ٢٧١

١٠٤ ـ روف شتاين (حدائق من غنمة الشرق الأقصى) ص ٥٤

١٠٥ ـ حول ماقبل تاريخية هذا الرمز . . كارل هنتز ص ٣٣

١٠٦ ـ ١٠٧ ـ النصوص مثبتة في كتاب حدادون وكيميائيون ـ الياد . و (هذا الرجوع الى الرقم) ليس سوى التطوير لمفهوم اكثر قدما واكثر انتشارا ، متأكداً سابقاً على مستويات قديمة من الثقافة : الشفاء بالعودة الرمزية لأصول العالم ، اي باعادة التحقيق للنشكنية . . ان التاويين والكيميائيين الصينيين قد اخذوا وأكملوا هذه الطريقة التقليدية : بدلاً من الاحتفاظ بها لشفاء مختلف الامراض ، وقد طبقوها قبل كل شيء من اجل شفاء الانسان من ظلم الزمان أي الشيخوخة والموت .

١٠٨ ـ ١٠٩ . (لاوتسو طوى جسده . عينه اليسرى اصبحت القمر ، رأسه اصبح جبل كوين هوين ، ذقنه اصبحت المذنبات عظامه اصبحت الحيتان لحمه اصبح ذات الاربع ، امعاءه الافاعي ، بطنه اصبح البحر الخ . . ترجمة (ماسبيرو)

الفصل السابع عشر

البراهمانية والهندوسية ، الفلسفات الأولى ، وتقنيات الخلاص

١٣٥ ـ الكل هو عناء . . .

إن اتساع البراهمانية ، وبعد بضعة قرون الهندوسية ، تلت عن قرب تأرين Arganisation شبه القارة . ومن المرجح ان البراهمان وصلوا الى سيلان قبل ذلك في القرن ٤ ق.م . ومابين القرن الثاني ق.م والقرن السادس ق.م دخلت الهندوسية الى الهند الصينية ، سوماطرا ، وجافا ، وبالي ، وبالتأكيد ان دخول الهندوسية في الجنوب الشرقي لعبت جميعها على مايبدو دوراً في اهتداء الهند الوسطى والشمالية . ان البراهمانيين بتنقلاتهم وجوبانهم في الأقاليم البعيدة ساهموا بقوة في التوحيد الديني والثقافي لكل شبه القارة . وفي بداية العهد المسيحاني ، نجح هؤلاء (المبعوثون) في ان يفرضوا على السكان الآريين وغير الآريين المحليين البنيان الاجتماعي ، والنموذج

الطقوسي ، ورؤية العالم الخاصة بالفيدا والبراهمانا . غير انهم اثبتوا في ذات الحين من التسامح والملاءمة ، في تمثل عدد كبير من العناصر الشعبية الهامشية والسكان الاصليين[٢] .

وبفضل موافقات منجزة على عدة مستويات (ميثولوجية، شعائرية ، لاهوتية الخ) تناقصت العقد الدينية الغير براهماتية الى مخرج مشترك ، وأخيراً امتصت من قبل الأصلية واستمر تمثل الآلهة المحلية والشعبية عن طريق الهندوسية كمظهر مازال قائما[٣] .

ان المرور من البراهماتية إلى الهندوسية غيـــر محسوس ، وكما أشرنا إلى ذلك ، فإن بعض العناصر المميزة (هندوسية) كانت قبل ذلك ماثلة في قلب المجتمع الفيدي [ف ٦٤ ع] . ولكن بما انها لم تكن موضع اهتمام كتاب الأناشيد والبرهمانات ، فإن هذه العناصر (الشعبية) لم يقيض لها قليلاً أو كثيراً لأن تثبت في النصوص ، ومن جهة أخرى فإن العملية المؤكلة سابقاً في العصر الفيدي ، وبصورة خاصة تخفيض بعض كبار الآلهة وابدالها بصور اخرى (ف. ٦٦ ع) قد امتـــد حتى العصور الوسطى ، فإندرا استمر بالمحافظة على شعبيته في الملحمة ، ولكنه لم يعد ابداً البطل والرئيس المفتخر لآلهة الأمس : ان الدهارما هو اكثر قوة منه ، وان النصوص المتأخرة تدل عليه وكأنه جبان ، وعلى العكس ، فإن فشنو وشيفا يحصلان على وضع استثنائي ، وتبدأ الآلهة النسوية دورها الاستعراضي .

ان التأرين arganisation والهندوسة hindaisation لشبه القارة قد انجز خلال الأزمات بعمق ويشهد على ذلك النساك والتأملات من عصر الأوبانشاد ، وبصورة خاصة نبوءة غوتاما بوذا . وفي الواقع ، وبالنسبة للنخبة الدينية ، كان الأفق قد تغير جذريا بعد الأوبانيشاد «كل شيء معاناة ، كل شيء مؤقت» . هذا ما أعلنه بوذا . وهذا ما يشكل لازمة لكل الفكر الديني قبل الاوبانيشادي . فالنظريات والتأملات كما هي ايضا طرائق التأمل والتقنيات المتعلقة بالخلاصsoteriologiqueتجد مبررات وجودها في هذا الألم الشامل ، لأنه لا قيمة لها ، إلا في المعيار الذي تحرر فيه الانسان من «المعاناة» . ان التجربة البشرية ، من أية طبيعة كانت ، تولد الألم . وكما عبر عن ذلك مؤخرا أحد المؤلفين ، «الجسد هو ألم ، لأنه مكان الألم ، والشعور ، وموضوعات الشعور

والاحساسات هي معاناة . لأنها توصل إلى الآلام ، والسرور ذاته معاناة ، لأنه متبوع بألم»[٥] . إن ايذفارا كريشنا مؤلف اقدم أطروحة ساخيا samkhya ، يؤكد على أنه في اساس هذه الفلسفة ، توجد رغبة الانسان بالتخلص من عذاب الآلام الثلاثة : التعاسة السماوية (مثارة من قبل الآلهة) والتعاسة الارضية (الناتجة عن الطبيعة) والتعاسة الداخلية أو العضوية[٦] .

مع ذلك ، فإن اكتشاف الالم الشامل لم يصل للتشاؤم ، وان اية فلسفة ، واية رسالة دينية هندية لم تسقطا في اليأس . ان الكشف (للألم) مثل قانون الوجود يمكن له ، على العكس ، ان يكون معتبراً كشرط اساسي sine quanon وكاف للتحرر ، فهذه المعاناة الشاملة لها اذن ، من حيث الجوهر ، قيمة ايجابية منشطة . انها تذكر بدون كلل بالحكيم وبالناسك الذي بقيت له وسيلة وحيدة لأن يصل الى الحرية والغبطة : ان ينسحب من الدنيا ، وان ينفصل عن الأموال والمطامع ، وان ينعزل جذريا ، ومن جهة أخرى ، فان الانسان ليس هو وحده الذي يتألم ، وان الألم هو ضرورة كونية . فالواقعة البسيطة للوجود في الزمان ، وللحصول على أجل ، تقتضي الألم . وعلى خلاف الآلهة والحيوانات ، فإن لدى الانسان امكانية تجاوز شرطه بفاعلية . ان اليقين بوجود وسيلة للحصول على الخلاص - يقين شائع لدى كل الفلاسفة والصوفيين الهنود - لا يمكن أن يؤدي لليأس ولا التشاؤم . ان الألم ، هو في الحقيقة شامل ، ولكن اذا عرفنا كيف نأخذ به لنتحرر ، فإنه ليس نهائياً .

١٣٦ - طرائق لأجل «اليقظة» القصوى .

«التحرر» من الألم ، هدف كل الفلسفات والتقنيات القروسطية الهندية . فأي علم لا قيمة له اذا لم يرم» لسلام «الانسان . «خارج هذا [أي . . الخالد الذي يقيم في الذات] لاشيء يستحق ان يعرف» . . [سفيتا - سفاتر او بانشاد . . ١ - ١٢][٧] . ان «السلام» salut يقتضي التصاعد عن الشرط البشري . والأدب الهندي يستعمل على السواء صور الربط ، والتصفيد ، والأسر أو النسيان والسكر والرقاد والجهالة

، للدلالة على الشرط البشري ، وعلى العكس ، فإن صور التحرر من القيود وتمزيق الحجاب (أو رفع العصابة التي تغطي العيون) أو اليقظة والاستذكار الخ .. يعبر عن فقدان أي (مفارقة) الشرط البشري ، الحرية الخلاص (موكشا، موكتي ، نيرفانا ، الخ) .

تتحدث [الشاندوجيا ١٦ - ١٤ - ١٢] عن رجل مرسل بعيداً عن مدينته، وعيونه معصوبة ، وملقى في مكان معزول . وقد أخذ الرجل يصرخ : «اقتادوني هنا ، وعيناي معصوبتان ، لقد تركت هنا ، وعيناي معصوبتان !!» . ورفع عندئذ أحدهم العصابة عن عينيه ودله على اتجاه مدينته . ويطلبه الاستعلام عن الطريق من قرية لأخرى ، نجح الرجل بالوصول الى بيته . ويضيف النص ، كذلك إن من له معلم قديرينجح بالانعتاق من عصائب الجهل ويصل بالنهاية الى الكمال . وبعد خمسة عشر قرنا فسر سانكارا (٧٨٨ - ٨٢٠) بوضوح هذا المقطع من الشاندوجيا . وبالتأكيد ، ان هذا الميتافيزيكي الشهير (المتخصص بالفيدا) يفسر الخرافة من منظور منهجه الخاص ، وحدة الوجود المطلقة . ولكن تفسيره لم يفعل شيئاً سوى احياء وتأكيد المعنى الأصلي Originelle ويكتب سانكارا ، هكذا تمر الأشياء ، فمع الانسان المختطف من قبل اللصوص بعيداً من الكائن (بعيداً من الاثمان ، براهمان) والمصاد بفخ جسده . إن اللصوص هي الافكار الخاطئة . («مزية ، قصور») . وان عينيه معصوبتان بعصابة من الوهم ، والانسان معاق بالرغبة التي يكابدها ، لأجل زوجته ، وابنه ، وصديقه وماشيته .. الخ . «انني ابن أحدهم ، إنني سعيد أو تعيس ، انني ذكي أو جاهل ، انني تقي الخ .. كيف يجب أن أعيش ؟ اين يوجد طريق للهرب ؟ اين خلاصي ؟» . هكذا يفكر ، وهو مصاد في شبكة كريهة حتى اللحظة التي يلاقي فيها من هو شاعر بالكائن الحقيقي (براهمان - اتمان) ، الذي انعتق من العبودية سعيداً ، وإضافة لذلك ممتلئاً باللطف من أجل الآخرين . انه يتعلم منه طريق المعرفة وعبثية العالم . وبهذه الطريقة ، فإن الانسان ، الذي كان أسيرأوهامه الخاصة ، يتحرر من تبعيته لأشياء دنيوية . إنه يعرف آنئذ «كينونته الحقيقية» ذاته الحقيقية ، انه يعرف بأنه ليس هو المتشرد على غير هدى الذي يظن أنه هو . بل على العكس ، انه يعرف ان ما اعتقد انه الكائن ، انه هذا هو ايضا . وهكذا ، فإن عينيه قد تحررتا من العصابة والوهم المخلوق

بالجهل ، وانه كالانسان الاسطورة العائد إلى منزله . أي واجداً الاثمان ممتلئاً سروراً وصفاء[٨] .

والميتري أو بانيشاد (٢ ـ ١٧) تقارن الذي مازال معلقاً بشرطه البشري بمن «هو مربوط بواسطة قيود ناتجة عن ثمار الخير والشر» أو بمغرق في الظلمات من «العشق» أو بضحية شعوذة مضللة ، أو ضحية حلم مشتمل على استشباحات أو مودع في سجن ، أو «مخمور بالكحول» («كحول الاخطاء») ـ وانه لهذا السبب لا يتذكر أبداً «الحالة الأكثر رفعة» . إن «المعاناة» التي تحدد الشرط البشري هي نتيجة الجهالة (آفيديا) . وكما تظهره الخرافة المفسرة من قبل سانكارا ، فإن الانسان يعاني من نتائج هذه الجهالة حتى اليوم الذي يكتشف انه لم يكن الا بحسب الظاهر مورطاً في الدنيا . كذلك بالنسبة للسمخيا واليوجا ، فليس للذاتLa soi ماتفعله مع العالم (ف ١٣٩ع) .

ويمكن القول ، ان الفكر الديني الهندي ، بعد الاوبانيشاد يطابق الانعتاق مع يقظة أو مع الوعي بحالة كانت موجودة منذ البدء ، ولكن لا يتوصل إلى تحقيقها . إن الجهالة ـ التي هي في الواقع ـ جهل الذات ـ يمكن تقريبها مع (نسيان) لذات حقيقية (اثمان ، بوروشا) . إن الغنوص أي العرفان ، (جانانا ، فيديا) بازالته للجهالة أو بتمزيقه حجاب المايا يجعل الخلاص ممكنا : «العلم» الحقيقي يعادل «اليقظة» . والبوذا هو «المتيقظ» بامتياز .

١٣٧ ـ تاريخ الأفكار وتسلسل تاريخ النصوص .

باستثناء الأوبانيشاد القديمة ، فإن كل النصوص الدينية والفلسفية الأخرى قد أُلفت بعد نبوءة بوذا . ويلاحظ احيانا تأثير بعض الأفكار المميزة للبوذية . ان عدداً من المؤلفات المحررة في القرون الأولى من التاريخ المسيحي تتابع ، بين أخرى ، نقد البوذية ، ومع ذلك ، لا يجوز المغالاة بأهمية تسلسل التاريخ . وبصورة عامة . ان كل اطروحة فلسفية[٩] هندية تتضمن مفاهيم سابقة لتاريخ تحريرها ، وعلى الأغلب قديمة

جداً . وعندما نصادف في نص فلسفي شرحاً جديداً ، فان هذا لا يعني انه لم يواجه سابقاً . واذا أمكن هنا تثبيت (غالبا ، بشكل تقريبي) تاريخ تأليف بعض الكتابات ، وهذا فقط بدءاً من القرون الأولى من العصر المسيحي ، فإنه من غير الممكن تقريباً بناء التسلسل التاريخي للأفكار الفلسفية ذاتها[١٠] . واجمالاً ، فإن واقعة ان الكتابات الدينية والفلسفيه ، المتضامنة مع التقليد البراهماتي ، كانت قد حررت بعد بوذا ببضعة قرون لا يعني القول انها تعكس المفاهيم المصاغة في العصر البوذي .

ان غوتاما ، خلال تدربه ، كان قد التقى بعض ممثلي مختلف (المدارس) الفلسفية ، التي يمكن التعرف فيها على الاشكال الجنينية للفيدانتا [أي مبدأ الاوبانيشالات] والسمخيا واليوجا (ف ١٤٨ ع) . ولا يجدي هنا اعادة رسم المراحل التي تفصل هذه المخططات الأولية ـ المؤكدة في الاوبانيشاد وفي الكتابات البوذية والجاينا ـ عن عباراتها النموذجية في العصر الكلاسيكي . ويكفي الدلالة على التحولات الأكثر أهمية ، والاشارة الى المتغيرات التي غيرت جذرياً التوجه الاصلي . غير أنه لا يجب نسيان ، ان كل الطرق وكل افكار الخلاص ، بعد عصر الأوبانيشادات ، تتقاسم لبوساً تصنيفياً عاما . ان التوالي séquence أفيديا ـ كارمان ـ سامسارا ، المعادلة الوجودية = ألم ، التفسير للجهل بكونه رقاد ، حلم ، سكر ، أسر ، ـ هذه المجموعة من المفاهيم ، ومن الرموز ومن الصور كانت باتفاق الآراء مقبولة . وقد اعلنت (الساتاباتا براهمانا) : ان الانسان مولود في عالم مصنع بواسطة ذاته [٦ : ٢٢] . ويمكن القول ان (الدارسانا) الثلاثة المتضامنة بالبراهمانية ـ فيدانتا ، سمخيا ، يوجا ، كذلك البوذية ، تطبق بالاجمال لتفسير هذه البديهية ولتليين نتائجها .

١٣٨ ـ الفيدانتا ماقبل المنهجية .

المصطلح فيدانتا (لغويا «نهاية فيدا») كانت تدل على الاوبانيشادات ، وفي الواقع ان هذه قد وضعت بنهاية النصوص الفيدية» . في البدء ، كانت الفيدانتا تدل على مجموعة المبادىء الماثلة في الاوبانيشادات . ولم يصبح هذا المصطلح تسمية مميزة لنموذج فلسفي معارض للدراسات الأخرى ، وبصورة خاصة للسامخيا ، واليوجا الكلاسيكية ، الا

تباعا وبعد فترة متأخرة (أول قرن بعد المسيح) . بتحليل المبادىء الأوبانيشادية ، عرضنا سابقا الأفكار الرئيسية للفيدانتا الماقبل منهجية . اما بالنسبة «لنوع الفلسفة» الفيدانتية بمعنى الكلمة ، فإنه من غير المعلوم أقدم تاريخ لها . إن أقدم مؤلف احتفظ به ، البراهما - سوتر ، المنسوب للريشي (الناسك) بادارايانا ، قد حرر على الأرجح في بداية عصرنا . ولكنه لم يكن ، تأكيداً ، الأول ، لأن بادارايانا يذكر اسماء وأفكار مؤلفين عديدين ممن سبقوه . وعلى سبيل المثال ، وبمناقشته للعلاقات بين الأتمانات الفردية ، وبراهمانا ، فإن بادارايانا يتكلم عن ثلاث نظريات مختلفة ، ويذكر الاسماء لأكثر مشاهير ممثليهم . وحسب النظرية الأولى ، ان آتمان وبراهمانا متماهيان ، وحسب الثانية ، إن آتمان وبراهمان ، مختلفين تماما ومنفصلين حتى الخلاص ، واخيرا حسب ثالث معلم فيدانتي ، فإن الاتمان هي من جوهر إلهي ولكنها غير متطابقة مع براهمان [بر - سوترا ١ - ٣ - ٢١] .

وبمناقشة النظريات المعروفة حتى ذلك الحين ، فإن بادارايانا كان له على الأرجح هدف تركيب مبدأ معلن براهمانا كأنه هو العلة المادية والفعّالة لكل مايوجد ، وفي ذات الوقت كانه اساس الاتمانات الفردية ، مبدأ قبل ، مع ذلك ، ان المعتقين يستمرون بالوجود بشكل خالد ككائنات روحية مستقلة . وبكل أسف ان المعرفة لـ ٥٥٥ مثلاً وقولاً مأثوراً والتي تشكل البراهما - سوتر هي صعبة جدا بدون تفسير . ولأن هذه السوترات المختصرة واللغزية بشكل متفرد تخدم كمذكرة - مساعدة ، وان معانيها يجب ان تجلى من قبل معلم . ولكن التفسيرات الأولى قد أهملت ، وأخيراً ، تلاشت ، بعيد الشرح العبقري من قبل سانكارا حوالي عام ٨٠٠ من هذا العصر . ويعرف فقط اسماء بعض الكتب وعدد من النسخ[١٢] .

مع ذلك ، ففي السفيتاشفاتارا ، وفي لاميتري اوبانيشاد وفي بهاكافا وجيتا ، وفي الموكشاوهارما [الكتاب ١٢ من ماهابهاراتا] ، يوجد عدد كاف من الاشارات المتعلقة بالخطوط الكبرى للفكر الفيدانتي قبل سانكارا . إن مبادىء المايا تكتسب اهمية على المستوى الأول . وانها بصورة خاصة العلاقات بين براهمات الابداع والمايا اللتين تثيران التأمل . ان المفهوم القديم للخليقة الكونية بصفتها مظهراً للقوة السحرية (مايا ، البراهمان ، يدع الخطوة امام الدور المتطور للمايا في تجربة كل فرد ، وبصورة خاصة

تجربة العماء . وفي آخر المطاف ، فإن مايا هي ممثلة بالجهالة (آفيديا) ومقارنة بالحلم . ان (الحقائق) المتعددة الاشكال للعالم الخارجي هي ايضاً خداعة كمضمون الأحلام . إن الميل (المؤكد سابقاً في الريغ فيدا ١٠ ـ ١٢٩) لجمع الحقيقة باله ، أي في الواحد / الكلي ، قد وصل إلى صيغ جريئة اكثر فاكثر . فاذا كان الكائن هو الأزلي وحدة/ كلية ، فليس الكون فحسب اي تعدد الموضوعات ، هو وهم (مايا) ، وإنما ايضا تعددية للأرواح . ومنذ جيلين قبل سانكارا ، يؤكد المعلم الفيدانتي جودابادا أن العقيدة في تعددية الاثمانات الفردية قد احتويت من قبل المايا [ر. ماندوكايا ـ كاريكا ٢ ، ١٢ ـ و١٩] . وبالفعل ، لايوجد سوى كائن وحيد براهمان ، وعندما يتأمل حكيم بطريقة يوجية ويدرك حكيم تجريبياً أثمانه الخاص (يتيقظ) في النور والنعيم لحاضر خالد .

إن الهوية براهمان ـ اثمان تشكل ـ كما رأينا الاكتشاف الأكثر اهمية للأوبانيشادات (ف ٨١٠ع) . الا انه بعد انتقادات الفقهاء البوذيين ، اكره المعلمون الفيدانيتون على بناء انطولوجيتهم بطريقة منهجية وضيقة وإجمالاخلاصية. وفي هذا الجهد من اعادة التفكير بالتراث الاوبانيشادي وصياغته تبعا لضرورات العصر ، فإن سانكارا بقي متفرداً لا مثيل له . ومع ذلك وبالرغم من جاذبية مؤلفه والتأثير الملحوظ لفكره في تاريخ الروحية الهندية ، فإن سانكارا لم يستنفذ الامكانيات الصوفية والفلسفية للفيدانتا . وخلال عدة قرون بعده ، فإن عدداً من المعلمين أحيوا انظمة موازية . ومن جهة اخرى ، ان الفيدانتا تتميز عن الدارسانات الأخرى بواقعة انها لم تستنفذ ابداعيتها في عصر السوترات وشروحها الأولى كذلك . في حين انه يمكن القول ان المهم في (الانظمة الفلسفية) سامخيا ويوجا كان قد اعلن بين القرنين الرابع والسابع ، ان الفيادنتا عرفت تفتحها الحقيقي بدءاً من سانكارا .

١٣٩ ـ الروح حسب السمخيا ـ يوجا .

تماماً قبل الصياغة النموذجية (لفلسفة) السمخيا ، فإن لفظها المميز قد تأكد في الكاتها او بانيشاد[١٢] . أي في القرن الرابع ق.م وان السافيتاسفاتارا او بانيشاد التي

هي على الأرجح اكثر حداثة ، تتضمن عدداً من المراجع حول مبادىء سمخيا ـ يوجا وتستعمل المفردات التقنية الخاصة لهاتين الدارسانا . غير أن تاريخ مبادىء السمخيا غير معروف جيداً حتى ظهور أول أطروحة نموذجية ، هي ايشعاراكريشنا (على الأرجح في القرن الخامس ق.م) وعلى كل حال فإن المسألة تعني تاريخ الفلسفة الهندية أولاً . ويكفي هنا القول بأن السمخيا ـ الماقبل النموذجية ـ كما امكن اعادة تكوينها على سبيل المثال ، تبعاً لبعض المقاطع من الموكشادهاما ـ قد أعلنت كمعرفة روحية ، غنوص ، انقاذية بامتياز ، إلى جانب اليوجا ـ كانتظام عملي غاية في الكمال . وباختصار فإن السمخيا تمدد الاوبانيشاد ، مؤكدة على الدور الحاسم للمعرفة في الحصول على التحرر . إن أصولية معلمي السمخيا الأوائل تقوم في اقتناعهم بأن العلم الحقيقي يفترض تحليلاً صارماً للتكوينات والبنى وديناميكيات الطبيعة ، وللحياة والنشاط النفسي ـ الفعلي المكتمل بجهد مدعوم لاستخراج القالب النوعي للنفس (بيروشا) ، وحتى في العصر الكلاسيكي ، أي اعتباراً من كتابة المباحث النموذجية الأولى ، فإن السمخيات ـ كاريكا ـ ايزفاراكريشنا واليوجات ـ سوترا باتانجالي كانتا اطارين نظريين (دارسانا) قريبين لحد ما . وثمة تمييز يمكن الاشارة اليه بفارقين أساسيين :

١) فبينما ان السمخيا التقليدية كافرة athé ، فإن اليوغا مؤلهة théiste لأنها تتلمس وجود رب (ايسغارا)، ٢) في حين ان الطريق الوحيد ، حسب السمخيا ، للحصول على الانعتاق هو المعرفة الميتافيزيكية ، فإن اليوجا تعطي أهمية بارزة لتقنيات التأمل . هذا وان الفوارق الأخرى ليست بذات قيمة . وبالنتيجة ، فإن مبدأ سمخيا ، الذي اشرنا إليه باختصار يمكن له ان يعتبر كذلك صحيحاً بالنسبة للاطارات النظرية لليوغا ـ سوترا باتانجالي(١٥) .

وفي السمخيا واليوجا ، إن العالم هو حقيقة «وليس هو وهما ، كما هو الشأن ، على سبيل المثال في الفيدانتا» . ومع ذلك ، اذا كان العالم يوجد ويدوم ، فإن ذلك يعود للجهالة بالروح (بيروشا) . إن الاشكال التي لا تحصى من الكون ، كذلك عملياتها من ظهور وتطور ، لا توجد الا في المعيار حيث الروح ، الذات ، تجهل نفسها ، وبفعل هذه «الجهالة» تتألم وتستعبد . وفي الوقت المحدد حيث ستجد آخر ذات الخلاص ، في هذا الوقت نفسه سيُمتص الخلق بمجمله في المادة الأولية (براكرتي) .

وتماماًمثل اثمان الاويانيشادات ، فإن البيروشا هي غير قابلة للتفسير . فصفاتها هي سلبية . الهو lesoi (هو الذي يرى (ساكسان ، لغويا . «شاهد») ، وهو منعزل ، حيادي ، مجرد مراقب بسيط غير فعال» [سمخيا كاريكا ١٩] . ان استقلالية وعدم مبالاة الروح ، صفتان تقليديتان ترددان في النصوص باستمرار وانالبيروشابصفتها لا تقهر ومجردة عن الصفات ليس عندها عقل طالما انها بدون رغبات . والرغبات ليست ابدية ، وهي لا تنتمي اذن للروح ، ان الروح هي حرة أبدياً ، و «حالات الشعور» ، ومد الحياة النفس ـ عقلية غريبة عنها(١٦) . وعليه فإن هذا المفهوم (للبيروشا) يثير على الفور الصعوبات . وفي الواقع ، اذا كانت الروح نقية ابديا ، وحيادية ، ومستقلة ولا تقهر ، فكيف يمكن لها ان تقبل بأن تترك لتتدنس في التجربـة النفس ـ عقلية ؟ . وكيف يمكن لمثل هذه العلاقة ان تكون ممكنة ؟. سنتفحص ، مع كثير من الفائدة ، الحل المطروح لهذه المسألة من قبل السمخيا واليوجا عندما سنعرف بشكل أفضل العلاقات التي يمكن أن تتعامل بها الذات والطبيعة . وهنا نحدد بدقة أنه لا الأصل ولا السبب لهذه الوضعية المتناقضة أي هذه «العلاقة» الغريبة التي تصل البيروشا بالبراكرتي ، يشكلان الموضوع لجدل أصولي في السمخيا ـ يوجا .

ان السبب والأصل لهذه المشاركة للنفس والتجربة ، هما مظهران لمسألة اعتبرهـا معلمو السمخيا ـ يوجا غير قابلة للحل لأنها تتجاوز الطاقة الحالية للادراك البشري . وفي الواقع ، إن الانسان يعرف ويدرك بوسيلة «القوة العاقلة ـ بودهي . ولكن هذه القوة العاقلة» نفسها ، ليست سوى حصيلة ـ مصفاة جداً ، وفي الحقيقة ـ من المادة الأولية (براكرتي) . إن ظاهرة القوة العاقلة ـ بودهي ـ بصفتها حصيلة من الطبيعة ، لا يمكن لها ان تحافظ على علاقات المعرفة الا مع ظواهر أخرى ، وفي أي حال لن تعرف الذات : لأنها لن تحافظ على علاقات من أي نوع من حقيقة تصور متعال . وان السبب ، وكذلك الأصل لهذه المشاركة المتناقضة للذات وللحياة (أي للمادة) هو وحده أداة لمعرفة غير مدخلة للمادة ابداً ويمكن الوصول لمعرفتها . وعليه فإن مثل هذه المعرفة هي غير ممكنة في الشرط البشري الحالي .

ان السمخيا ـ يوجا تعرف ان سبب المعاناة هو الجهالة ، وبعبارة اخرى اختلاط أو فوضى النفس مع الفعالية ـ النفسية العقلية . ولكن اللحظة المحددة ، حيث هذه الجهالة بنظام ماوراء الطبيعة اظهرت عدم امكانية اقامتها ، وكذلك استحالة تثبيت تاريخ الخليقة . فإرادة ايجاد حل لهذه المسألة هو أمر عبث ، ويتعلق بمسألة معروضة بشكل سيء، وحسب عرف براهماني قديم [سنكارا ـ فيدانتا سوتر ٣، ١٧٢] وحافظ عليه بوذا نفسه في العديد من المناسبات ، إن الصمت هو الجواب على سؤال مطروح بشكل سيء .

١٤٠ ـ معنى الخلق : مساعدة انعتاق الروح .

المادة ، براكرتر ، هي أيضاً حقيقة وهي أيضاً ابدية كالروح بيروشا ، ولكنها على خلاف بيروشا ، ديناميكية وخالقة . مع تجانس تام ، تملك هذه المادة الأولية ، ان صح القول ، ثلاثة «طرائق للتكون» تسمح لها بأن تظهر بثلاثة أنواع مختلفة تسمى (جوناس) gunas : ١) ساتفا (طريقة النورانية والذكاء) ٢) راجا طريقة الطاقة المحركة والنشاط العقلي) ٣) ثاما (طريقة الخمول السكوني والغموض النفس ـ عقلي . فالجوناس له اذن خاصة مزدوجة : موضوعية من جهة ، لأنها تشكل ظواهر الكون الخارجية وشخصية ، من جهة أخرى ، لأنها تتحمل ، وتغذي وتشترط الحياة النفس ـ عقلية .

وما أن تخرج المادة عن حالتها البدئية من الاستقرار الكامل وتأخذ خصائص مشروطة بواسطة «غريزتها الغائية» (التي سنعود اليها) ، حتى تمثل هذه المادة براكرتي تحت شكل كتلة مولدة للطاقة تسمى ماهات «الكبير». ومنجذبة باندفاع التطور (بارميناما) تمر البراكارتي = المادة ، من حالة الماهات (الكتلة) لحالة الآهامكارا التي تعني : كتلة موحدة مدركة محرومة ايضاً من التجربة (الشخصية) ولكنها متمتعة بشعور غامض لتكون أنا أو ذات ego «من هنا العبارة للآهامكارا ، أهام= الأنا)، وانطلاقاً من هذه الكتلة المهيأة للادراك ، فإن عملية

التطور تتشعب في اتجاهين متعارضين ، أحدهما يقود لعالم الظواهر الموضوعية ، والآخر لعالم الظواهر الذاتية (احساسات ونفس ـ عقلية) .

وبالنتيجة فإن العالم ـ موضوعي أو ذاتي ـ ليس سوى التحول من مرحلة بدائية للطبيعة الاهام كارا ، عندما ، ولأول مرة ، انبثق في الكتلة المولدة استشعاراً للأنا ego . وبعملية مزدوجة من التطور ، خلقت الأهامكارا عالمين : داخلي وخارجي ، وهذان «العالمان» لهما فيما بينهما تواصلات انتقائية . وبذات الأمر فإن جسد الانسان ، كذلك ، وظائفه الفيسيولوجية ، واحساساته و «حالاته من الشعور» وحتى «ذكاءه» كلها ابداعات لمادة واحدة : تلك التي أنتجها العالم الطبيعي ومكوناته (ف. ٧٥) .

وثمة مجال للملاحظة الأهمية الرئيسية التي تنيطها السمخيا ـ يوجا ، ككل الأنظمة الهندية تقريباً ، بمبدأ التفردية «بالشعور بالذات» . فتكوين العالم هو عمل شبه نفسي والظواهر الموضوعية والنفس ـ فسيولوجية لها رحم مشترك ، وان الفرق الوحيد الذي يفصل فيما بينها هو صيغة الغوناس والساتفا السائدة في الظواهر النفس ـ فسيولوجية (عشق ، نشاط الحواس الخ) . في حين ان ظواهر الكون المادي مشكلة بالمنتجات الأكثر فالأكثر ثقلاً والخاملة للتاما «الجزئيات les artomes ، والاعضاء النباتية والحيوانية الخ»[١٧] .

ومع هذا الأساس الفسيولوجي ، نفهم لماذا ان السمخيا ـ يوجا تعتبر أن كل تجربة فيزيائية ، كأنها عملية (مادية) بسيطة . وان الاخلاق تستشعر منها : فالطيبة ، على سبيل المثال ، ليست صفة للروح ، ولكنها (تطهير) للمادة البارعة الممثلة بالشعور . ان الغوناس تخصب كل العالم ، وتقيم جاذبية عضوية بين الانسان والكون . وفي الواقع ، ان الفرق بين الكون والانسان ليس سوى فرق في الدرجة وليس في الجوهر .

إن المادة بفضل «تطورها» المتقدم (بارينامًا) انتجت اشكالاً لا متناهية ، وهي مؤتلفة اكثر فأكثر ومفترقة اكثر فاكثر . وتعتقد السمخيا ان خليقة على هذه

الدرجة من السعة ، وإن بناء من اشكال وعضويات و (أجهزة) معقدة الى هذه الدرجة تقتضي تبريراً ومعنى خارج ذاتها . وان براكرتي اولية ، بدون شكل وثابتة ابديا يمكن انْ يكون لها معنى ، ولكن العالم كما نراه ، يظهر على العكس عددا بارزا من البنى والأشكال المميزة . وإن العقد الموروفولوجية للكون قد رفعت بالسمخيا لمصاف اثبات ميتافيزيكي ، لأن الحس السليم يعلمنا ان كل مركب يوجد في مقابل آخر . وهكذا على سبيل المثال ، ان السرير هو مجموعة مؤلفة من عدة اجزاء ، ولكن هذا التركيب المؤقت للأجزاء مصنوع من وجهة نظر الانسان [سمخيا ـ كاريكا ١٧] .

وهكذا ابرزت السمخيا ـ يوجا الخاصية الغائية للخليقة ، واذا لم يكن للخليقة في الواقع ، مهمة خدمة الروح فإنها ستكون محالا ، ومجردة من المعنى . ان كل مافي الطبيعة مركب ، وكله يجب له اذن ان يحصل على (مراقب) ، هو أحدهم ممن يمكن ان يستخدم لهذه المركبات . وهذا (المراقب) لن يكون النشاط العقلي ولا الحالات الشعورية «التي هي بذاتها ايضاً الحصيلة المعقدة جدا للبراكرتي» . وان هذا هو أول دليل لوجود الروح : «المعرفة لوجود الروح بالتنظيم من أجل منفعة الغير»[١٨] . ومع أن الذات بيروشا هي محجبة بالأوهام وباختلاطات الخليقة الكونية ، فإن البراكرتي متحركة بهذه (الغريزة الغائية ، المتجهة بكليتها صوب الانعتاق من البيروشا . ولأنه «من براهمان حتى آخر قشة من العشب ، فإن الخلق هو من أجل منفعة الروح إلى أن تدرك المعرفة الأسمى» [سمخيا ـ سوترا ٣ : ٤٧]

١٤١ ـ دلالة الانعتاق .

اذا كانت فلسفة السمخيا ـ يوجا لم تفسر السبب ولا أصل المشاركة الغريبة المقامة بين الروح و (حالات الشعور) ، فهي على الأقل قد حاولت تفسير طبيعة مشاركتها . انها لاتتعلق أبداً بصلات حقيقية بالمعنى الأصلي للكلمة ، كما

توجد مثلاً بين الموضوعات الخارجية والاحساسات ، انما ـ وهذا ، بالنسبة للسمخيا ـ يوجا ، المفتاح لهذه الحالة المتناقضة ـ الجزء الأكثر لطافة ، والأكثر صفاء للحياة العقلية ، أي الذكاء (بودهي) تحت نموذجه من نقاوة (التنوير) ساتفا وله خاصيته المميزة : هي التعبير عن الروح . ومع ذلك فإن الذات le soi ليست مفسدة بهذا الانعكاس ولم تفقد نموذجيتها الانطولوجية (خلود ، لا انفعالية الخ) . كذلك وكما ان الزهرة تنعكس صورتها في مرآة ، فإن العقل يعكس البيروشا [يوجا ـ سوترا ١ ـ ٤١] ولكن الجاهل وحده هو الذي يمكنه ان ينسب للمرآة خصائص الزهرة (شكل إبعاد لون» . فعندما يتحرك الموضوع ، تتحرك صورته في المرآة ، مع أن هذه تبقى غير متحركة .

من الأزل توجد الروح مساقة في هذه العلاقة الوهمية مع التجربة النفس ـ عقلية ، أي مع الحياة والمادة . وهذا مايرجع الى الجهل [ي . س . ٢ ـ ٢٤] . ومهما استطال الزمن ببقاء الآفيديا ، فإن الوجود هنالك باق بفضل كارمان ، ومعها الألم . ان الجهل يتكون في الخلط بين مالايتحرك (ثابت) وأبدية بيروشا وتمدد الحياة النفس ـ عقلية . إن القول : أنا أتألم ، أنا أريد ، أنا أكره ، أنا أعرف ، والظن بأن هذه (الأنا) تتعلق بالروح ، هو عيش في الوهم وتمديد له . وهذا يعني أن كل فعل يأخذ منطلقه في الوهم هو ، إما استهلاك لامكانية فعل مخلوقة بعمل مسبق ، وإما إسقاط لقوة أخرى تطالب بدورها بتحققها ، واستهلاكها في الوجود الحاضر أو في وجود مقبل .

ذلك هو قانون الوجود : إنه نقل عبر الذات ، ككل قانون ، ولكن صحته وشموليته هي في الأصل من المعاناة التي أنشأها الوجود . وبالنسبة للسمخيا كما هو بالنسبة للأوبانيشاد ، لايوجد سوى طريق واحد للحصول على الخلاص : هو معرفة الروح على نحو كاف ، وان المحطة الأولى في الحصول على هذه المعرفة المنقذة يقوم في الآتي : انكار الخواص عن الروح ، ويرجع هذا لانكار المعاناة بصفة انها تتعلق بنا ، واعتبارها كواقعة موضوعية ، خارج الروح ، أي مجردة عن القيمة ، بمعنى (ان كل «القيم» وكل «المعاني» هي مخلوقة بالعقل) . إن الألم يوجد

في المعيار الوحيد حيث ترتبط التجربة بالشخصية البشرية معتبرة كمتوحدة بالذات ، ولكن هذه العلاقة بكونها وهمية ، يمكن لها أن تحذف بسهولة . فعندما تكون الروح معروفة ومستعلية فإن القيم معدومة ، والألم لن يكون عندئذ ألماً ، ولا ألم ، وانما مجرد واقعة بسيطة . ومنذ اللحظة التي ندرك فيها ان الذات حرة ، خالدة وغير فاعلة ، فإن كل ما يحصل لنا : ألم ، عواطف ، ارادة افكار الخ . . لا ينتمي الينا .

إن المعرفة هي يقظـة ، بسيطة تكشف جوهر الذات . وهذه المعرفة لا يحصل عليها بالتجربة وانما بنوع من الكشف : يكشف الحقيقة الكلية في الحال . كيف ، ومنذئذ ، هل من الممكن ان الخلاص قد تحقق بتعاون الـ براكرتي ؟؟ . وتجيب السمخيا على هذا التساؤل بالدليل الغائي : المادة تعمل غريزيا بهدف التحرر من بيروشا . وان العقل (بودهي) بصفته المظهر الأكثر رقة للبراكرتي يسهل عملية الخلاص باستخدامه تدرجاً بدئيا للكشف . وما ان يتحقق تحرك الكشف ، حتى ان ، العقل ، وكذلك كل العناصر الأخرى النفس ـ عقلية (اذن المادية) ، التي وصف بها البيروشا بدون حق ، جميعها تنسحب ،وتنفصل عن النفس لكي تمتص في المادة ، مشابهة في هذا «راقصة تمضي لسبيلها بعد ان اشبعت رغبة سيدها»(١٩) . «لاشيء اكثر حساسية من ال براكرتي ، فمنذ قالت لنفسها : (لقد عُرِفت ، لا تظهر نفسها ابداً لعيون الروح» [سام .ـ كار. ٦١] . وتلك هي حالة «الناجي في الحياة» (جيفان ـ موكتا) : الحكيم مازال يعيش ، لأنه بقيت له البقية الكارمية ليستهلكها (تماما كدولاب الفاخوري يستمر في الدوران بسبب السرعة المكتسبة ، مع ان الاناء قد سبق واكمل : [سام . كار . ٦٧ ، وسام . سوترا ٣ ، ٨٢] ولكن عندما تترك الجسم في فترة الموت فالروح ، بيروشا ، تنعتق تماما . [سام . كار . ٦٨] .

وبالفعل ، ان السمخيا ـ يوجا قد ادركت ان الروح لا يمكن لها ان تولد ولا أن تتلف : وانها ليست مسخرة ولا فاعلة «أي باحثة بنشاط عن الانعتاق» وانها ليست لا متعطشة للتحرر ولا منعتقة [جودا بادا ، ماندوكيا ـ كاريكا ٢ : ٣٢]

«نموذجها هو كما استخلصت هاتان الامكانيتان» [سمخيا ـ سوترا ١ ـ ١٦٠] ، الذات هي نقية ، ابدية وحرة ، لا يمكن لها ان تستعبد ، لأنها لن تقيم علاقات مع شيء آخر غير ذاتها . ولكن الانسان يعتقد ان البيروشا هي مستعبدة ويظن انه يمكن لها ان تتحرر . وتلك هي أوهام حياتنا النفس ـ عقلية . فإذا كان الخلاص يظهر لنا كمأساة ، فذلك لأننا نضع أنفسنا من وجهة نظر بشرية . وفي الحقيقة ان الروح ليست سوى «متفرج» ، وكذلك الأمر فإن «الخلاص» (موكتي) ليس سوى استعادة الشعور بالحرية الأبدية . إن المعاناة تتلاشى من ذاتها منذ ان نعرف انها خارج الروح ، وانها لا تتعلق سوى «بالشخصية» الانسانية (ازميتا) .

ان السمخيا ـ يوجا ترجع التنوع اللامتناهي للظواهر الى مبدأ واحد ، المادة (براكرتي) وتشتق من رحم واحد العالم الطبيعي ، والحياة والشعور . وهذا المبدأ يلتمس مع ذلك تعددية الأرواح ، مع أن هذه بطبيعتها متطابقة في الأساس . ان السمخيا ـ يوجا توصل هكذا مايبدو مختلفاً ـ الطبيعي ، والحيوي والعقلي ـ وتعزل ماهو ـ في الهند بصورة خاصة ، يبدو وحيداً وكليا : الروح . ان كل بيروشا هي في الواقع معزولة كليا ؛ لأن الذات لا يمكن لها أن تحصل على أي تماس ، لا مع العالم ، ولا مع الأرواح الأخرى . ان الكوزموس مسكون بهذه البيروشات الابدية ، الحرة والغير متحركة ، مونادات (عناصر الوجود الاساسية) التي بينها أي اتصال هو غير ممكن . وباختصار انه يتعلق بمفهوم مأساوي ومتناقض للروح ، مفهوم كان من جهة اخرى قد هوجم ايضا بقوة من قبل الفقهاء البوذيين كذلك من قبل المعلمين الفيداتتين .

١٤٢ ـ اليوجا : تركيز على موضوع واحد .

ان المراجع الأولى الدقيقة لتقنيات اليوجا تظهر في البراهمانا و بصورة خاصة في الأوبانيشاد . غير أنه فيما سلف في الفيدا جرى التساؤل حول بعض النساك والوجديين ، الممارسين لعدد من التطبيقات الماقبل اليوجية ، والمتمتعين «بقدرات مدهشة» [ف . ٧٨ع] . وبما أنه منذ مدة قريبة كانت عبارة يوجا تدل

على كل ممارسة تنسكية وكل طريقة للتأمل ، فإن الممارسات اليوجية تصادف في كل مكان في الهند تقريبا ، وحتى في الأوساط البراهماتية كذلك لدى البوذيين والجانيين . غير أنه إلى جانب هذه اليوجا الما قبل المنهجية والماقبل الهندية تشكلت تباعاً يوجا ـ دارسانا ، اليوغا الكلاسيكية ، كما صيغت بعد زمن متأخر من قبل باتانجالي في اليونا ـ سوترا التي ألفها ويقر هذا المؤلف نفسه (ي ـ س ١ ـ ١) انه باختصار لم يفعل سوى اعادة جمع وتنظيم التقاليد المبدئيـة والتقنية لليوجا . أما بالنسبة لشخص باتنجالي ، فلا يعرف شيء عنه.. ولا يعرف حتى ما اذا كان قد عاش في القرن الثاني أو الثالث أو حتى الخامس ب . م . ومن بين الحصائل التقنية المحفوظة بالتقليد ، تناول تلك التي تحققت من صحتها بكفاية تجارب دورية . وفيما يتعلق بالأطر النظرية والأساس الميتافيزيقي التي اعطاها باتنجالي إلى هذه الممارسات ، فإن اسهامه الشخصي ضعيف جداً . إنه لم يفعل سوى معاودة تناول نظرية سمخيا في خطوطها العريضة وتنسيقها في توحيد سطحي .

إن اليوجا الكلاسيكية تبدأ من حيث تنتهي السمخيا . لأن باتنجالي لم يعتقد بأن المعرفة الماورائية تستطيع بذاتها لوحدها ، ان تقود الانسان الى الخلاص . إن المعرفة لا تفعل سوى تهيئة الأرضية بهدف انتصار الحرية : وهذه يمكن الحصول عليها بواسطة تقنية تنسكية وطريقة تأمل . وقد عرِّف باتنجالي اليوجا هكذا : «محو حالات الشعور [ي . س ١ ـ ٢] . هذه (الحالات من الشعور) سيتافرتي هي بعدد لا متناه ، ولكنها تدخل جميعها في اصناف ثلاثة ، وتتعلق على التوالي بامكانيات للتجارب : ١) الاغلاط والأوهام (احلام ـ هلوسة ، اخطاء في الادراك الحسي اختلاطات الخ» ٢) شمولية التجارب البسيكولوجية المعتادة وكل ما يحس به ، رؤية أو تفكير من لا يطبق اليوجا) ٣) التجارب الماقبل بسيكولوجية (ماوراء النفس ـ المتعلق بالظواهر النفسية الغير معروفة) والمطلقة بالتقنية اليوجية ، والمقبولة ، كما هو معلوم ، لدى متلقنيها فحسب . وهدف يوجا باتنجالي هو حذف الصنفين الأولين من التجارب (المبتدئين

---

* yainus = ديانة هندية تعتمد على تطهير النفس باللاعنف .

تباعاً من الخطأ المنطقي والخطأ الميتافيزيكي) وابدالهما (بتجربة) سكونية مافوق شعورية مافوق عقلية .

وخلافا للسمخيا ، فإن اليوجا تمنح نفسها مهمة افناء ، الواحد بعد الآخر ، لمختلف التجمعات ، انواع ومختلف (حالات الشعور (سيتافرتي) . وعلى ذلك فإن هذا التدمير ، لا يمكن الحصول عليه ، اذا لم نبدأ بمعرفة ، وبعبارة اخرى تجريبيا ، البنية ، والأصل والكثافة لما هو مقرر تدميره . و«معرفة تجريبية» تعني هنا : طريقة ، تقنية ، تطبيق . ولا يمكن اكتساب شيء دون عمل ودون تطبيق التنسك : انه هنا اللازمة للأدب اليوجي . إن الكتب (٢) و (٣) من اليوجا ـ سوترا مكرسة بصورة خاصة لهذا النشاط اليوجي (تطهيرات ، وضعيات الجسد ، لتقنيات التنفسية الخ) . إن السيتافرتي «في اللغة عواصف الشعور» لا يمكن لها ان تراقب ، وأخيراً ان تتلاشى ، اذا لم تكن معرضة للتجربة سلفاً وليس سوى بالتجارب يمكن الحصول على الحرية[٢٠] .

إن سبب هذه العواصف ، التي تشكل المسيل النفسي ـ عقلي هي ، الجهل ، كما هو معلوم [ي . س . ١ ـ ٨] . الا ان محو الجهالة الما ورائية بالنسبة لليوجا ، لا تكفي لالغاء حالات الشعور . لأنه ، عندئذ ، حتى (العواصف) الراهنة ستدمر ، وسيأتي غيرها بدون تأخير ليحل محلها جارفة مالاحصر له من تحفظات الكمونات (المستترة) فازانا ، المغلفة في ماتحت الشعور . ان مفهوم الفازانا ذو أهمية اساسية في بسيكولوجيا اليوجا ، وان العقابيل التي تنصبها القوى النصف واعية على الطريق الموصلة للتحرر هي من نوعين : فمن جهة ، إن الفازانا تغذي بدون انقطاع مسيل (مجرى) النفس ـ عقلي ، والسلسلة الغير متناهية للسيفافرتي ، ومن جهة اخرى ، فان الفازانا ، حتى بفضل نموذجيتها المميزة (النصف واعية) ، يصعب مراقبتها وتطويعها . وهكذا فإن اليوجي ـ حتى ولو ان له في نشاطه ممارسة متواصلة ـ فإنه يخاطر بأن يبدو ضالاً بغـــزو النهر القوي من (عواصف) نفسية ـ عقلية متهاوية بالفازفانا ولكي ينجح في تدمير السيتافرتي لابد من قطع دورة مافوق الشعور ـ الشعور .

إن نقطة الانطلاق للتأمل يوجا هو التركيز على موضوع واحد ايكارجاتا . وهذا الموضوع يمكن ان يكون لا على التعيين موضوعاً طبيعياً (النقطة بين الحواجب ، طرف الأنف شيئا مضيئاً الخ) ، أو فكرة (حقيقة ميتافيزيكية) أو إله (ايزفارا) . ان التمرين ايكارجاتا يكد بمراقبة المولدتين للسيولة العقلية : النشاط الحسي ، ونشاط ماتحت الشعور . وبداهة ان التركيز على موضوع واحد لا يمكن له ان يتحقق بشكل آخر سوى بتحريك عدد من التمارين والتقنيات حيث تلعب الفسيولوجيا دوراً رئيسيا . لن يحصل على الايكارجاتا اذا كان الجسد مثلاً ، في حالة من التعب أو بكل بساطة اذا كان غير مرتاح ، ولا اذا كان التنفس غير منتظم ، ولا اتساقي . ولهذا فإن تقنية اليوجا تقتضي مجموعة اصناف من التطبيقات النفس - فيزيولوجية والتمارين النفسية المسماة آنجا («عضو») . وهذه «الأعضاء» من اليوغا يمكن لها ان تعتبر في آن واحد مجموعة من تقنيات وكما لو انها محطات لخط السير التنسكي والروحي الذي مصطلحه الأخير هو التحرير . وان اليوغا - سوترا [الكتاب ٢ - ٢٩] تقدم قائمة أصبحت كلاسيكية : ١) الكبت (ياما) ٢) التأديبات (نياما) ٣) وضعيات الجسد (آسانا) ٤) رقابة التنفس (براناياما) . ٥) التحرر من النشاط الحسي للاستحواز على الموضوعات الخارجية (براتياهارا) ٦) التركيز (دهارانا) ٧) التأمل اليوجي (دهيانا) ٨) الانستاز enstase (سامادهي) .

١٤٣ - تقنيات اليوجا.

ان الصنفين الأولين الكبت (ياما) والتأديبات (نياما) تشكل الأوليات التي لابد منها لأي تنسك . ويوجد خمسة أنواع من الكبت (ياما) ؛ آهيما («لاتقتل»)؛ ساتيا («لاتكذب»)؛ آستيبا («لاتسرق») براهما كاريا («التعفف الجنسي»)؛ آباريجراها («لاتكن بخيلاً») [ي - س ٢ ، ٣٠] . ان الكبوتات أو القموعات لا تنتج حالة يوجية ، وانما حالة تطهيرية أسمى من حالات التدنس . وبالتوازي معها فإن على اليوجي أن يطبق (الميامات) أي مجموعة من التأديبات الجسدية

والنفسية «النظافة ، الصفاء ، الزهد ، (تابا) وإن دراسة ماوراء الطبيعة لليوجا ، والكد لأن يجعل من الاله (ايزفارا) الباعث لكل افعاله تشكلان التأديبات» كما كتب باتانجالي [ي ، س ٢ ، ٣٢][٢١]

ولا تبدأ التقنية اليوجية بمعنى الكلمة ، الا مع تطبيق الآزانا (وضعيات الجسد) . والآزانا تعين الوضعية اليوجية المعروفة جيداً والتي عرفتها [اليوجا ـ سوترا جزء ٢ ص ٤٦] «كثابت ومرغوب» . وهو يتعلق بواحد من التطبيقات المتميزة للتنسك الهندي ، المؤكد في الأوبانيشاد وحتى في الأدب الفيدي . والشيء المهم هو تثبيت الجسد في الوضعية ذاتها بدون اجهاد ؛ وعندئذ فقط تسهل الآزانا التركيز . «وضعية الجسم تصبح كاملة عندما يزول الجهد في تحقيقها» كما كتبت الفيازا [ي . س . ٢ : ٤٧] «إن الذي يطبق الآزانا ، سيتوجب عليه استعمال جهد يتكون من الغاء الاجهادات الجسدية الطبيعية» [ذات المرجع : فاكسباتي] .

ان «الآزانا» هي الخطوة الأولى التي تجري بهدف الغاء القوالب الخاصة للوجود البشري . وعلى مستوى الجسد ، ان الآزانا هي «تمرين» ايكاجراتا ، وتركيز في نقطة واحدة : الجسد «مركز» في وضعية واحدة . كذلك الأمر فإن التمرين ايكاجراتا يضع نهاية للترجرجات وإلى تشتت «حالات الشعور» ، كذلك فإن الآزانا تضع نهاية لتحرك ولشغور الجسد ، بردها تعدد الوضعيات الممكنة إلى وضعية واحدة ، غير متحركة ، وجامدة . ومن جهة أخرى ، فإن الصبوة نحو «التوحد» و «الكلية» خاصة بكل التطبيقات اليوجية . وان هدفها هو تجاوز أو الغاء الشرط البشري الناتج من رفض التوافق مع الميول الطبيعية .

اذا كانت الآزانا قد ابرزت الرفض للحركة ، فإن البرانایاما تأديب التنفس ، هو «الرفض» للتنفس كعموم الناس ، أي بطريقة لا اتساقية arythmique ان تنفس الانسان الدنيوي يختلف إما تبعاً للظروف وإما تبعاً للتوتر ـ النفس ـ عقلي . إن هذا «العدم الانتظام» وهذه الفوضى تنتج سيولة نفسية خطيرة ، وبالنتيجة عدم الاستقرار وتشتت الانتباه . ويمكن الوصول للانتباه

بالكد ، ولكن الاجهاد بالنسبة لليوجا هو اخراج* Extériorisation فيحاول اذن بوسيلة (البرانایاما) حذف اجهاد التنفس : ضبط التنفس يجب ان يصبح شيئاً آليا لكي يتمكن اليوجي من نسيانه .

ويلاحظ أحد الشراح المتأخرين (بهوجا Bhoja) «انه توجد دوما صلة بين التنفس والحالات العقلية» [ي . س . ١ . ٣٤]. إن هذه الملاحظة هامة ، فالعلاقة التي توصل ايقاع التنفس بحالات الشعور اثبتت تجريبيا بلا ريب من قبل اليوجيين من فترات قريبة جدا . وعلى الأرجح ، ان هذه العلاقة قد استخدموها كأداة لتوحيد الشعور . إن اليوجي بإيقاعه لتنفسه وبإبطائه له تباعاً يستطيع اختراق - بمعنى الاثبات تجريبيا وبوضوح - بعض حالات الشعور التي هي غير ممكنة الاكتساب ، في حالة اليقظة ، وبخاصة حالات الشعور المميزة للسهاد . ان الايقاع التنفسي لشخص ينام هو اكثر بطءاً مما هو لشخص متيقظ ، وبتحقيق هذا الايقاع بالسهاد ، بفضل البرانایاما ، يستطيع اليوجي اختراق «حالات الشعور» الخاصة بالسهاد ، بدون ان يتنازل عن وضوحه .

ان البسيكولوجيا الهندية تعرف اربعة نماذج من الشعور : الشعور النهاري ، وشعور الرقاد مع الاحلام ، والرقاد بدون احلام و «الشعور المتخشب» - توريا - وكل واحدة من هذه النماذج للشعور هي ذات علاقة مع ايقاع تنفسي مميز ، بواسطة البرانایاما أي بتمديد أكثر فأكثر للزفير والشهيق - والهدف من هذا التطبيق هو اعطاء فسحة طويلة بقدر الامكان بين هاتين الفترتين من التنفس[٢٢] يستطيع اليوجي اذن ان يمر بدون انقطاع من اللاشعور إلى حالة اليقظة في النماذج الثلاثة الأخرى .

إن الآزانا، والبرایانیاما، والايكاجراتا توصلت لتوقيف الشرط البشري، ولم يكن هذا الا اثناء الزمن الذي يدوم فيه التمرين . فبدون حراك ، موقعا تنفسه ، مثبتا نظره وانتباهه على نقطة واحدة ،- فإن اليوجي هو «مركز» و

* الاخراج في علم النفس هو اظهار الحالات الداخلية والتعبير عنها - (المعرب) .

«موحد» . . إنه يستطيع اثبات صفة التركيز بالبراتياهارا وهو تعبير يترجم عادة بـ (حبس الشعور) أو «تجريد» ، ولكنه من الأفضل ترجمته بـ «قدرة لتحرير النشاط الحسي من تأثير الموضوعات الخارجية» [بوهجا . . أو . ي . س ١ ـ ٥٤] إن البراتياهارا يمكن اعتبارها كالمحطة الشاملة للزهد النفسي ـ الفسيولوجي . وفي هذه النقطة ، فإن اليوجي لن يصبح « مضاعاً » أو «مضطرباً» بالنشاط الحسي وبالتذكر الخ . .

ان الاستقلال تجاه مظاهر des stimuli العالم الخارجي وتجاه دينامية ماتحت الشعور ، يسمح لليوجي بأن يطبق (التركيز) والتأمل . ان الدهارنا (من جذر دهر «أبقاه مقفلا» هي في الواقع «تثبيت الفكرة في نقطة واحدة» وهدفها الموضوعي هو المعرفة . أما بالنسبة للتأمل اليوجي دهيانا فإن باتانجالي يعرِّفها بـ «تيّار من فكرة موحدة» [ي . س ٣ : ٢] ويضيف فايازا التعليق التالي : «تتمة الجهد العقلي من أجل تمثل موضوع التأمل ، حراً من كل اجهاد لتمثل موضوعات اخرى» .

ومن غير المفيد التأكيد على ان هذا «التأمل» اليوجي يختلف بالكلية عن التأمل الدنيوي . ان الدهيانا يسمح «باختراق» الموضوعات ، «بتمثلها» سحريا . وان عملية«الاختراق»في جوهر الموضوعات هي بصورةخاصة صعبةالتفسير. ولا يجب ادراكها لا تحت اشكال الخيال الشعري ، ولا تحت أشكال حدس من نموذج برغسوني . إن ما يميز (التأمل) اليوجي هو تماسكه ، وحالة الوضوح التي ترافقه والتي لا تكف عن توجيهه . «فالتكامل العقلي» لا يفلت في الواقع أبداً عن ارادة اليوجي .

١٤١ ـ دور الاله

خلافاً للسمخيا ، فإن اليوجا تؤكد على وجود اله ايزفارا (لغويا : سيد) . ومعلوم جداً ان هذا الاله ، ليس خالقاً . ولكن (ايزفارا) يستطيع أن يعجل لدى بعض الناس في عملية الخلاص . ان السيد الذي وصفه براتنجالي هو على الأكثر

اله اليوجين . انه لن يأتي لمساعدة أحد الا ممن سبق له اختيار اليوجا . ويمكن على سبيل المثال لليوجي الذي اختار الاله موضوع تركيزه ان يحصل على الساما وهي ، (الوجد) . وحسب رأي بارتانجالي [ي . س . ٢ : ٤٥] إن هذا العون الالهي ليس نتيجة «رغبة» ، أو «شعور» ـ لأن السيد لا يمكن ان توجد عنده لا رغبة ولا انفعال ـ وإنما مجرد «تعاطف ميتافيزيكي» بين (ايزفارا) و(بيروشا) ، تعاطف يفسر توافق بنيتهما . إن ايزفارا هو بيروشا حراً من الأزل ، لم يمس مطلقاً «بالآلام» وعدم «طهارات» الوجود [ي . س . ١ ـ ٢٤] . وفيمازا في تفسيره لهذا النص ، يؤكد على ان الفرق بين «الروح المتحررة» وايزفارا هو الآتي : الأولى وجدت على علاقة مسبقة (حتى الوهمية) مع الوجود النفس ـ عقلي ، في حين ان ايزفارا كان حراً دائما . ان الاله لن يدع نفسه ينجذب لا بالشعائر ، ولا بالتقوى ، ولا بالايمان في «احسانه» ، ولكن جوهره المساعدة غريزيا للذات التي تود التحرر باليوجا .

سيقال بأن هذه المودة لنظام ميتافيزيكي يظهر اتجاه بعض اليوجيين ، قد استنفذ القدرة التي كانت لايزفارا بانه يهتم بمصير البشر . ويوجد الانطباع بأن ايزفارا دخل في الدارسانا يوجا بنوع ما من الخارج . لأن الدور الذي يلعبه في الخلاص هو مجرد عن الأهمية ، فالبراكرتي تحمل على عاتقها بذاتها تخليص العديد من «الذوات» المصادة في أحابيل وهمية من الوجود . مع ذلك فإن باتانجالي قد شعر بالحاجة لادخال الاله في جدلية الخلاص ، لأن ايسفارا توافق مع حقيقة نظام تجريبي . وكما قلنا فإن بعض اليوجيين حصلوا على الساما وهي «بالورع لايزفارا»[ي . س١ ، ٤٥]إن باتانجالي بعرضه جني وتصنيف كل التقنيات اليوجية ، المقومة (بالتقليد الكلاسيكي) لم يستطع ان يهمل كل سلسلة للتجربة التي جعلها ممكنة التركيز في ايسفارا وحده .

وبعبارات اخرى ، والى جانب التقليد ليوغا«سحرية» بمعنى انها لا تتطلب سوى الارادة وقوى التنسك ، كان يوجد تقليد آخر (صوفي) كانت فيه المحطات النهائية لممارسة اليوغا قد أصبحت على الأقل اكثر سهولة بفضل ورع ـ حتى مع انه

نادرجداًفإنه معقول جداً ـ نحو اله. ومن جهةأخرى ومع أنه يمثل أقل مايظهر لدى باتانجالي ولدى شارحه الأول فيازا ، فإن ايسفارا هو محروم من عظمة إله خالق كلي القدرة ومن التفخيم الخاص باله ديناميكي وخطير لمختلف الصوفيين .
إن ايسفارا ، ليس هو ، باختصار ، سوى النموذج القديم لليوجي : اليوجي الأكبر، ومن الراجح المعلم للعديد من المذاهب اليوجية . وفي الواقع ان باتنجالي يؤكد على ان ايسفارا قد كان ال غورو guru لحكماء العصور الموغلة في قدمها ، ويضيف ، لأن ايسفارا غير متصل بالزمان [ي . س ١ ـ ٢٦] . غير ان الشارحين المتأخرين وحدهما ، فاكاسباتي ميزرا (نحو ٨٥٠) وفيجنانا بهيكشو (القرن السادس عشر) هما اللذان منحا ايسڤارا أهمية كبرى . وعليه ، فإنهما عاشا في الفترة التي كانت فيها الهند بكاملها مغرقة بتيار من الورعية والصوفية[٢٣] .

١٤٥ ـ سامادهي والقوى العجائبية .

إن المرور من التركيز الى التأمل لا يتطلب استخدام أية تقنية جديدة . كذلك لا حاجة لأية ممارسة يوجية اضافية لتحقيق (السامادهي) بدءاً من اللحظة التي نجح فيها اليوجي بأن «يتركز» وبأن «يتأمل» . والسامادهي l'énstasis اليوجية هي النتيجة النهائية والتتويج لكل الجهود والممارسات الروحية للناسك[٢٤] . إن العبارة مستعملة سابقاً بمعنى غنوصي ، فسامادهي هي تلك الحالة المتأملة التي تعقل فيها النفس مباشرة شكل الموضوع بدون مساعدة المقولات وبدون الخيال ، حالة يكتشف فيها الموضوع (في ذاته) سفاروبا وفي ماهولديه من جوهري ، وكما لو «كان خالياً من ذاته» [ي . س ٣ ـ ٣] . يوجد توافق حقيقي بين معرفة الموضوع وموضوع المعرفة ، وهذا الموضوع لا يمثل أبداً للشعور في العلاقات التي تحدده وتعرفه بصفة ظاهرة ، وانما «كما لو أنه كان فارغاً من ذاته» .

ومع ذلك ، وبأكثر من كونها (معرفة) فإن السامادهي حالة قالب سكوني خاص باليوجا . وهذه (الحالة) تجعل ممكنا تحرك الكشف للذات بفضل تصرف

ليس منشئاً «لتجربة» . ولكن ليست أية ساما دهي تكشف الذات . وبالنتيجة ، تنجز الخلاص النهائي . فعندما يحصل على (السامادهي) في تركيز الفكر في نقطة من الفضاء ، أو في فكرة ، فإن الانستاد (حالة السامادهي) تسمى (مع دعامة) او (مميزة) (سامبراجناتا سامادهي) . وعلى العكس ، عندما يحصل على السامادهي خارج كل علاقة ، أي عندما تكون ببساطة معرفة كاملة للكائن فهي غير مميزة (آسامبر احناتا) . فالحالة الأولى هي وسيلة للخلاص في المعيار الذي يجعل معرفة الحقيقة ممكنة ويضع أجلاً للمعاناة . ولكن الشكل الثاني من السامادهي يدمر الانطباعات (سامسكارا)، لكل الوظائف العقلية السابقة» [فيجنانا بهيكشو] وينجح حتما في وقف القوى الكارمية التي سبق انطلاقها بالنشاط الماضي لليوجي . وهذه الحالة سامادهي تشكل في واقعها «خطفا» لأنها تحققت دون أن تستدعى .

ومن المؤكد ان السامادهي الغير مميزة تشكل محطات عدة ، لأنها قابلة للكمال ، وفي هذه المظاهر (مع الدعامة) تتكشف السامادهي عن كونها «حالة» متحصلة بفضل بعض «المعرفة». ويتوجب بدون انقطاع الابقاء في الذاكرة على حضور هذا المرور من (المعرفة) الى الحالة ، لأن هذا هو الخط المميز لكل التأمل الهندي .

وفي السامادهي يوجد (القطاع المستوي) الذي ترمي الهند لتحقيقه ، والذي هو الممر المتناقض من المعرفة الى الكينونة .

ان اليوجي عندما يصل الى هذا المستوى ، يكتسب (القوى العجائبية) سيدهي ، التي أوقف لها الكتاب الثالث من اليوجا ـ سوترا بدءاً من سوترا ١٦ . فاليوجي يكتسب بعض القوى الخفية المتعلقة بالموضوعات التجريبية ، بتركيزه وتأمله وبتحقيقه للسامادهي تجاه موضوع أو صنف كامل من الموضوعات . وهكذا وعلى سبيل المثال ، فإنه بالتركيز على بقايا ماتحت الشعور ، (سمسكارا) ، يعرف وجوداتها السابقة . [ي . س ٣ : ١٨] . وبمساعدة تركيزات أخرى يحصل على القوى الخارقة (طيران في الهواء ، يصبح غير مرئي الخ) . وكل ماجرى فيه

التأمل هو - بالفضيلة السحرية للتأمل - متمثل وممتلك . وفي المفهوم الهندي ، إن للتنازل قيمة ايجابية . وان القوة التي يحصل عليها الناسك بتنازله عن متعة معينة يتجاوز كثيراً المتعة التي تنازل عنها . فبفضل التنازل ، والتنسك (تابا) ، يستطيع البشر والشياصين أو الآلهة أن يصبحوا اقوياء لدرجة أن يصبحوا معها مهددين للعالم بكامله .

ولتجنب مثل هذا النمو لقوة مقدسة تجرب الآلهة (التنسك) . وقد أجرى باتنجالي نفسه تورية للتجارب السماوية [ي . س ٣ - ٥١]، وأعطى فياذ الايضاحات التالية : عندما يصل اليوجي لآخر الساما وهي المتميزة فإن الآلهة تتقرب منه وتقول له : «تعالى واغتبط هنا ، في السماء . فهذه المسرات مرغوبة ، وهذه الفتاة معبودة ، وهذا الاكسير يلغي الهرم والموت» الخ . . وهي تكمل ابتلاءه مع النساء السماويات ، ومع السماع والرؤية لما هو فوق الطبيعي ، مع الوعد بتحويل جسده إلى جسد من الماس ، وبكلمة ، تقدم له المشاركة بالشرط الالهي [فيازا أو . . ي . س ٣ - ١] . ولكن الشرط الالهي هو بعيد ايضا عن الحرية المطلقة . وعلى اليوجي ان يرفض هذه «الصور السحرية» «المرغوبة من الجاهلين فقط» كما عليه ان يثابر على مهمته : الحصول على الخلاص النهائي .

ولأنه ، سرعان ما يقبل الناسك ممارسة القوى السحرية المكتسبة ، سرعان ما تتلاشى الامكانية التي كان اكتسبها من قوى جديدة . وحسب كل التقليد لليوجا الكلاسيكية ، فإن اليوجي يستعمل مالايحصى من السيدهي (القوى العجائبية) بهدف استعادة الحرية الأسمى ، الآزابراجتاتا سامادهي ، وليس مطلقاً من أجل الحصول على مهارة العناصر . وفي الواقع ، يقول لنا باتنجالي [٣ - ٣٧] إن هذه القوى هي «كمالات» وهذا هو المعنى اللغوي لعبارة (سيدهي) في حالة اليقظة ، ولكنها تشكل عقبات في حالة السامادهي[٢٥] .

١٤٦ - الخلاص النهائي.

يلخص (فيازا) في هذه العبارات المرور من سامبراجناتا الى الأسامبرا حناتا سامادهي : بالتنوير (براجنا ، «حكمة») المتحصلة عفويا عندما يجد اليوجي نفسه

في آخر مرحلة من السمبراجناتاسامادهي ، يتحقق «العزل المطلق» (كايفاليا) ، أي تحرر بيروشا من سلطة البراكرتي . ومن الخطأ اعتبار هذه الطريقة بتكون الروح «كرعشة» بسيطة حيث سيكون الشعور فيها مفرغاً من كل محتوى . ان «الحالة» و «المعرفة» التي يعبر عنها هذا المصطلح في آن واحد ، ترجعان للغياب الكامل للموضوعات في الشعور ، وليس مطلقاً لشعور مفرَّغ بطريقة مطلقة . لأن الشعور هو ، على العكس ، مشبع ، في تلك اللحظة ، بحدس مباشر وشامل للكائن ، وكما يكتب مؤلف لعهد متأخر مادهافا «لايسوغ تصور النيرودها [التوقف النهائي لكل تجربة نفسية عقلية] كلا وجود ، وانما بالأولى كدعم لشرط خاص للروح» . وان حالة الخواء الكامل ، هي الحالة الغير مشروطة التي ليست «تجربة» أبداً (لأنه لايوجد هنالك مطلقاً علاقة بين الشعور والعالم) ، وانما «كشف» . إن «المعقول» بودهي باكماله لمهمته ينسحب منفصلا عن بيروشا ويعاود الالتحام في ال براكرتي . واليوجي المتوصل للخلاص : هو جيفاغوكتا ، «ناج في الحياة» . انه لا يعيش ابداً تحت سلطة الزمان ، وانما في خلود قائم ، في le nunestans (نونيستانس) الذي عرَّفه بويس Boèce بالأبدية .

وبالفعل ان حالته لا معقولة : انه في الحياة إلا أنه ناج délivéré وله جسد ومع ذلك يُعرف ، ومن هذا الواقع انه هو البيروشا ، يعيش لأجل ، وفي ذات الوقت يشارك في الخلود . ان السامادهي بطبيعتها ذاتها «حالة» متناقضة ، لأنها تفرغ وفي ذات الوقت تملىء لحد الاشباع الكائن والفكر . ان الحالة اليوجية تقع على خط معروف جداً في تاريخ الاديان والصوفيات : هو خط تطابق الأضداد . بواسطة السامادهي ، يصعد اليوجي الاضداد ويجمع الفراغ والامتلاء ، والموت والحياة والكائن واللاكائن . وحالة السامادهي تعادل اعادة ضم مختلف نماذج الحقيقة في نموذج واحد : عدم الثنائية البدئية ، الكمال الغير متميز لما قبل انشطار الواقع في موضوع ـ ذات .

وسيكون من الخطأ الجسيم اعتبار هذه الاعادة السامية كمجرد جمع بسيط في الغير متميز البدئي ، فالخلاص لا يمكن مقارنته «بسهاد عميق» من الوجود لما قبل الولادة : ان الأهمية المعطاة من قبل كل الباحثين للحالات اليوجية لما فوق

الشعور تدلنا على ان اعادة الضم النهائي يحصل في هذا الاتجاه وليس في نشوة اكثر أو أقل عمقاً . وبعبارة اخرى ان الاستعادة بالسامادهي لعدم الثنائية الأولية ينقل هذا العنصر الجديد بالنسبة للحالة التي كانت توجد قبل انشطار الحقيقة في موضوع ـ ذات : المعرفة للوحدة وللغبطة . وفي هذا يوجد «رجوع للأصل» ولكن مع هذا الفارق وهو أن (الناجي في الحياة) يستعيد المركز الأصلي المغتني بابعاد من الحرية والنشوة ـ الشعورية . انه يعاود جمع الكمال البدئي بعد أن أحيا هذه الطريقة في التكون الغير ممكن البوح به والمتناقض : الشعور بالحرية ، الذي لا يوجد في أي مكان في الكون ، ولا على مستويات الحياة ، ولا على مستويات «الألوهية الميتولوجية» والتي لا توجد الا عند الكائن المطلق (براهمان) . وسيكون ابتلاء أن يرى في هذا المثل الأعلى ـ النصر الواعي للحرية ـ التبرير المقدم من الفكر الهندي لواقع ، هو لأول نظرة عبثي ومعدوم الفائدة ، بأن العالم يوجد ، وان الانسان يوجد وان وجوده في العالم هو تتمة غير منقطعة من الأوهام والآلام . ولأن الانسان بتحرره يؤسس البعد الروحي للحرية و «يدخله» في «الكوزموس» الكون وفي الحياة ، أي في طرائق الوجود العمياء والمشروطة بكل تعاسة .

مع ذلك ، فإن هذه الحرية المطلقة كانت قد اكتسبت بمقابل نفي شامل للحياة وللشخصية البشرية . إن نفياً جذرياً هكذا تطلب وجود البوذا لكي يدرك النيرفانا ، ولكن هذه الحلول الأخيرة والاستثنائية لا تستطيع استنزاف مصادر العبقرية الدينية الهندية . وكما سنرى فإن ال مبهاجافادرجينا تقدم طريقة اخرى من اجل الحصول على الخلاص بدون التنازل عن الدنيا (ف ١٩٣ ـ ١٩٤ع) .

حواشي الفصل السابع عشر

١ـ٢ gonda ديانات الهند ص ٢٦٣

٣ ـ م. الياد . اليوجاجي ٣٧٧

٤ ـ عند جوندا ص ٢٧١ ـ ٢١٥ ـ ياما سيد مملكة الأموات حاز بعض التقدير
. اضافة لذلك تمثل بكاما ، الازمنة

٥ ـ anirudha (القرن ١٥ ـ يوجا ـ الياد ص ٢٣

٦ ـ adm khog a kariks ١ ـ يوتجالي ، مؤلف أول كتاب حول اليوجا وكتب : كل شيء مؤلم بالنسبة للحكيم

٧ ـ ثمة نصوص اخرى ـ مذكورة في اليوجا ـ من الياد ص ع

٨ ـ مظاهر الاسطورة (الياد) ص ١٤٥ حول المشابهات بين الرمزية الهندية للاسر والانعتاق من الروابط وبعض المظاهر للميتولوجيا الغنوصية (ر فقرة ٢٢٩)

٩ ـ نؤكد بأن السنسكريت لا يمتلك لغة تناسب بدقة التعبير الأوروبي (للفلسفة) ان نظاما فلسفيا خاصا يسمى دارسانا «وجهة نظر ، رؤية ، معرفة ، نظرية ، طريقة المراقبة) من جذر ويجد (رأى ـ راقب ، فهم»

١٠ ـ ١١ اليوجا ـ الياد ص ٢٠ـ

١٣ ـ وذلك هو السبب الذي من أجله أرجأنا للجزء الثالث من هذا المؤلف حضور مختلف انظمة الفيدانتا التقليدية

١٤ ـ ١١ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ و ٢٢ ـ ٢١ ـ الخ .

١٥ ـ ١٦ ـ اليوجا ـ الياد ص ٢١

١٧ ـ السمخيا ـ يوجا تقدم ايضا شرحاً شخصيا للغوانات الثلاثة عندما تراقب مظاهر الطبيعة فقد تكون : الساتفها هي التي تسود وان الشعور يكون ساكنا ، واضحاً مفهوما فاضلا ،

ومحكوما بالعقل فانه يضطرب غير متزن ، غير ثابت ، ومثقل بالتاما ، يكون مشوشا ، وحشيا ، مغفلا الخ . .

١٩ ـ هذه المقارنة شائقة جدا كذلك المابهارتا كما في اطروحات سمخيا

٢٠ ـ كذلك فإن الآلهة «فيديها ـ غير مجسدة» التي ليس لها تجاوب ـ لأنه لا يوجد لها اجساد ، فلها شرط من الوجود . . ولا يمس بالخلاص العام

٢١ ـ «نظافة» تعني كذلك التطهير الداخلي للاعفاء (التي يؤكد عليها بصورة خاصة الهاتاسوجا) والصفاء Sereinde تعني غياب الرغبة بمضاعفة ضروريات الوجود ، الثابا تقتضي تحمل المتضادات كالحر والقر . الخ . .

٢٢ ـ ايقاع التنفس يمكن الحصول عليه بتوقيع للفترات الثلاث ـ الشهيق الزفير ـ الاحتفاظ بالهواء ، وبالممارسة يصل اليوجي لتحديد كل واحدة من هذه الفترات لوقت طويل . وهدف البرانايا ما بصفته توقفا طويلا بقدر الامكان للتنفس يبدأ بوقف التنفس ١٦ ثانية ونصف ، ثم خمسة وثلاثين ، خمسين ثانية ـ ثلاث ـ دقائق ونصف ثم خمسة دقائق وهكذا دواليك . ان توقيع وحبس النفس يلعب كذلك دوراً هاما في الممارسات التاوية ولدى الصوفيين المسلمين وفي طرائق التضرع المستعملة من قبل رهبان الـ hergchastes (اليوجا ـ الياد ص ٦٨ ـ ٧٥) .

٢٣ ـ ان شارحاً آخر متأخر (فيلاكانتا) ، يؤكد ان الها مع انه غير فاعل ، يساعد اليوجين على طريقة المحب ، وينيط فيلاكانتا بايسفارا ارادة مؤهلة لسبق تقرير المصير لحيوات البشر: لأنه «يجبر اولئك الذين يريدون ان يرتفعوا لاجراء افعال طيبة ، والذين يريدون الغناء لاجراء افعال سيئة وهكذا يبتعد عن الدور المتواضع الذي اعطاه باتنجالي لايسفارا

٢٤ ـ معاني العبارة (سامادهي) هي : اتحاد ، شمولية ، امتصاص في ، تركيز شامل للنفس ، اتصال ، وتترجم عادة بتركيز corcentration ولكنها في هذه الحالة توجد في مخاطرة الخلط مع دهارما ولهذا وضعنا لها ترجمة enstans (لم نجد لها ترجمة في القاموس ـ الفرنسي العربي) ـ وكلمة stase ـ تعني ركود الدم أو وقوفه) . (المترجم)

٢٥ ـ مع أن الحنين (للشرط الالهي) يكسب قوة حيوية ، فإنه ، سحريا لم ينقطع عن ملازمته لليوجين والنساك . وبالأحرى انه لا يوجد حسب رأي فايزا (ي . س ٣ ـ ٢٦) وهنالك تشابه كبير بين بعض الآلهــة سكان الاقاليم السماوية في (البراهما كولا) واليوجيين في مرحلة السيدهي . وفي الواقع ان الطبقات الأربع لآلهة البراهما كولا لهم بطبيعتهم ذاتها «مركز روحي» يتناسب على التوالي مع اربع طبقات من (سامابرجناتا سامادهي) . بواقع ان هذه الآلهة توقفت عن مرحلة ولم تصل للخلاص الشامل .

الفصل الثامن عشر

البوذا ومعاصروه

١٤٧ - الأمير سيدهارتا

إن البوذية هي الديانة الوحيدة التي لم يعلن مؤسسها نفسه لا نبياً لاله ، ولا مرسلاً من قبله ؛ والذي رفض اضافة إلى ذلك ، حتى الفكرة عن اله - كائن أعلى . إلا أنه أعلن نفسه (المتيقظ) بوذا ، وبالتالي القائد والمعلم الروحي . إن تعليمه يهدف لخلاص البشر . وبالفعل ان هذا التقدير للمنقذ جعل من رسالته الفدائية sote´riologique «ديناً» وحوّل ، سراعاً ، الشخصية التاريخية سيدهارتا لكائن الهي . ولأنه ، بالرغم من الايحاءات اللاهوتية وتحريفات (الفقهاء) أحبار البوذية وبالرغم من بعض التفسيرات الأوروبية التي رأت في البوذا شخصية اسطورية ، أو رمزاً شمسياً ، فإنه لا يوجد مبرر لنفي تاريخيته .

إن أغلب الباحثين متفقون على القبول بأن البوذا المستقبل قد ولد على الأرجح في نيسان/ أيار ٥٥٨ ق.م . «أو حسب نص آخر في ٥٦٧ ق.م . في كابيلافاستو . ابنا لملك صغير سودهودانا من زوجته الأولى مايا ، وقد تزوج وهو ابن ستة عشر سنة ، وترك القصر وهو ابن ٢٩ سنة وحصل على «اليقظة الكاملة» في نيسان ـ أيار ٥٢٣ ق . م أو ٥٣٢ ق . م ، وبعد أن بشر خلال البقية من حياته توفي في كانون ثاني ٤٧٨ أو ٤٨٧ ق . م عن عمر ٨٠ سنة . غير أن بعض التواريخ والأحداث الأخرى التي سيرويها فيما سيأتي ، لا تستنفذ مطلقاً صورة بوذا ، كما فهمها المؤمنون به . لأنه ، ما أن أعلنت هويته الحقيقية ـ المتيقظ ـ على العموم وقبلت من تلامذته ، حتى تحولت حياته وتلقت الابعاد الميتولوجية المميزة لبعض المنقذين . وان هذه العملية في «تأسطره mythologisation» توسعت مع الزمن ، ولكنها في ماسلف كانت سارية خلال حياة المعلم . وعليه يقتضي أن تؤخذ في الحسبان هذه الصورة الخرافية ، لأنها هي التي كانت المبدعة في اللاهوت والميتولوجيا البوذية كما في الأدب الابتهالي وفي الفنون التشكيلية .

وهكذا قبل، إن بوذا المستقبل (بودهيزاتفا) «الكائن المتيقظ» اختار لنفسه أبويه ، في الحين الذي كان فيه إلها في سماء التوزيتا des tausita وقد كان الحبل به بلا دنس ، فبوذا المستقبل داخـل في الخاصرة اليمنى لوالدته تحت شكل فيل أو ولد لستة أشهر . (الترجمات القديمة تتكلم فقط عن حلم الأم : ان فيلاً دخل في جسدها) . مدة الحمل هي كذلك بلا دنس لأن بوذا المستقبل وجد في صندوق من حجر كريم وليس في الرحم . وولادته كانت في حديقة ، وتعلقت امه بشجرة ، وخرج الولد من خاصرتها اليمنى .

وما ان ولد البودهيساتفا (بوذا المستقبل) حتى جرى سبع خطوات متجها نحو الشمال واطلق «زمجرة» أسد ، هاتفا : «إنني الأعلى في العالم ، انني الأفضل في العالم ، إنني بكر العالم ، هذه آخر ولادة لي ، ولن يكون بعد منذ الآن بالنسبة لي وجود جديد»[1] . فأسطورة ميلاده تعلن اذن انه ، منذ ولادته ، يفارق

بوذاالمستقبل الكون cosmos و « يدرك ذروةالعالم»ويلغي المكان والزمان، إنه، اذن «الأول» و «الاقدم في العالم») . ان العديد من المعجزات تنبىء بالحدث . فبمثوله في معبد براهمـانـي ، «تزاح صور الآلهة من امكنتها وتسقط على اقدام البودهيزاتفا» . و (غنت نشيداً «على شرفه»[٢] . ولقد أخذ الولد من طريق والده اسم (سيدهارتا) : (هدف ـ مدرك) . وبتفحص جسده ، عرف المتنبئون الاثنين وثلاثين علامة الاساسية والثمانين علامة الثانوية (للرجل الكبير) ماهابيروزا ، فأعلنوا أنه سيصبح سيداً عالمياً (كاكرافارتان) أو بوذا .

ان شيخاً من الريشي المسمى آذيتا طار عبر الهواء بدءاً من الهملايا حتى كابيلافاستو ، وطلب رؤية الوليد الجديد ، وأخذه بين ذراعيه ، وعارفا انه سيصبح البوذا ، أخذ يبكي وذلك لعلمه انه لن يعيش ليلحق به .

وبعد سبعة أيام من ولادته ماتت مايا ، لكي تعاود ولادتها في سماء التوزيتا . وقد ربي الولد خلال سبعة أعوام من قبل خالته ، وبعدئذ تلقى التعليم ككل أمير هندي ، وتميز في العلوم كما في التمارين الطبيعية . وفي سن السابعة عشرة تزوج اميرتين من بلاد مجاورة ، غوبا ويازودهارا . وبعد ثلاثة عشر عاما ، انجبت منه هذه الأخيرة ولداً راهولا . إن كل هذه التفصيلات ، التي تعقد الطريق التنسكية البوذية ، هي على مايبدو رسمية . باعتبار ان السيد هارتا هرب من القصر بعد قليل من الوقت من ولادة راهولا توفيقاً مع العادة الهندية التي لا تسمح بالتنازل عن الدنيا الا بعد ولادة ولد أو حفيد .

وقد أقيم سيناريو متكامل حول الرحيل الكبير ، وحسب النصوص الأكثر قدماً فإن البوذا قد أعلن لتلامذته أنه بالتأمل حول الشيخوخة ، والمرض والموت ، فقد السرور في الحياة وقرر ان ينقذ البشرية من هذه الآلام الثلاثة . وتبرر الاسطورة الحدث بطريقة دراماتيكية مشبعة بنبوءة المتنبئين ، فقد نجح سيد هودانا بعزل الأمير الشاب في قصره وحدائقه المريحة . ولكن الآلهة افسدت مخطط الأب ، فخلال ثلاثة مخارج متوالية نحو حدائق السرور ، صادف سيد هارتا بدئياً شيخاً هرما مستندا على عصاه ، ثم ، صادف في الصباح (مريضاً هزيلاً شاحباً

متحرقاً بالحمى» وفي المرة الثالثة اخيراً شاهد ميتاً محمولاً الى المقبرة . لقد كشفت له الآية انه لا يوجد شخص يمكنه الفرار من المرض والشيخوخة والموت . وفي النهاية في خروجه الأخير ، شاهد الأمير راهباً مستعطياً هادئاً ورصبنا ، فأدخل هذا المشهد العزاء على نفسه مظهراً له ان الدين قادر على شفاء آلام الشرط البشري .

١٤٨ ـ السفر الكبير.

وبهدف تدعيم قراره بالتنازل عن الدنيا ، ايقظت الآلهة سيدهارتا في منتصف الليل كي يشاهد الأجساد العارية والمقرفة للإماء النائمات . وعندئذ ، استدعى سائس خيوله شانداكا وامتطى جواده ، ولكون الآلهة اهجعت كل المدينة ، خرج الأمير من الباب الجنوبي الشرقي . وبوصوله لمسافة تبعد عشرات الفراسخ من كابيلافاستو ، توقف واجتث شعره بسيفه وغيّر ثيابه بابدالها بثياب صياد واعاد الى القصر شانداكا مع حصانه . ومنذ توقفه رفض مجموعة الآلهة التي خفرته حتى هنا . ومن هنا فإن الآلهة لن تلعب أي دور في الصورة الخرافية لبوذا . انه يدرك هدفه بوسائله الخاصة ، دون أية مساعدة مما وراء الطبيعة ، وعندما أصبح ناسكا متنقلاً تحت اسم غوتاما (اسم عائلته في قبيلة السافيا) توجه نحو فيدالي (باتي : فيزالي) ، حيث ان معلماً براهمانيا يدعى آراد كالاما ، كان قد علمه نوعاً من السمخيا الما قبل الكلاسيكية .

فتعمق بسرعة بهذه العقيدة ، ولكنه رآها غير كافية ، وترك آرادا ووصل إلى راجاجرها عاصمة ناجادها . وقد عرض عليه ملك بيمبيزارا الذي افتتن بالناسك الشاب ، عرض عليه نصف مملكته ، ولكن غوتاما رفض هذه المحاولة وأصبح تلميذا لمعلم آخر (اودراكا) . وتعلم بذات السهولة التقنيات اليوجية الملقنة له من قبل اودراكا ، ولكن ذلك لم يرضه ، فتركه وسار يتبعه خمسة تلامذة متوجهين صوب جاريا . إن تدريبه الفلسفي واليوجي استمر لمدة سنة .

لقد أقام في مستقر مريح بجوار جايا حيث عكف لمدة ست سنوات على إماتة الجسد إماتته باقسى انواعها . فقد توصل الى ان يتغذى بحبة واحدةمن الذرة البيضاء (الدخن) في اليوم ، ولكنه صمم على صيام شامل ، وغير متحرك ، وقد رد تقريباً إلى حالة هيكل عظمى ، وانتهى الى التشبه بالغبار . وتبعا لهذه المجاهدات العنيفة حصل على لقب ساكياموني (ناسك بين الساكيا) . وعندما ادرك الحد الأقصى لاماتة الجسد ولم يبق له سوى جزء من ألف من قوته الحيوية ، ادرك عدم جدوى الزهد كطريقة للخلاص ، فقرر قطع صيامه . ومع وجود الاحترام الكبير للتابا في أي مكان في الهند ، فإن التجربة لم تكن غير مفيدة . منذئذ فان بوذا المستقبل كان بامكانه ان يعلن أنه اتقن الممارسات التقشفية ، كما انه كان قد أتقن الفلسفة (سمخيا) واليوجا ، تماما كما كان قد عرف كل لذات حياة الامارة قبل تركه الدنيا . فلا شيء مما شكل لا نهائية مختلف التجارب البشرية لم يكن منذئذٍ مجهولاً- المسرات والاحباطات من الثقافة، ومن الحب والقوة، حتى الفقر لمتدين متجول ، إلى تأملات وانتشاءات اليوجي ، مروراً بالعزلة والاماتات التنسكية .

وعندما قبل غواتاما هدية مؤلفة من رز مسلوق قدمتها امرأة تقية ، تركه خمسة من تلامذته وهم مذعورون وذهبوا نحو بيناريس . ان ساكياموني (بوذا) الذي جدد قواه بالغذاء باعجوبة ، توجه إلى غابة ، واختار شجرة (آزفاتها) وجلس عند جذعها مصماً ان لا ينهض الا بعد الحصول على (التيقظ) . بيد أنه قبل ان يستغرق في التأمل تحمل ساكياموني هجمة مارا «الموت» .

لأن هذا الاله الكبير قد تنبأ ان الاكتشاف الوشيك الوقوع للخلاص ، بتوقف الدورة الأبدية للولادة ، للموت واعادة الولادة ، سيضع نهاية لعرشه . وانفجرت الهجمة بجيش مرعب من الشياطين والاشباح ، والغيلان ، ولكن المزايا السابقة لساكياموني و «تصرفه الودي» (ميتري) رفعت حوله نطاقاً من الوقاية ، فبقي غير مزعزع .

فادعى مارا (الموت) عندئذ بالمكان تحت الشجرة ، بحجة مزايا كان اكتسبها فيما سلف ، على اثر تضحية اختيارية . وساكياموني كان اكتسب مزايا خلال وجوداته السابقة ، ولكن وبما انه لم يكن لديه أي شاهد ، استدعى «الأم المشتركة لكل الكائنات» ومع الاشارة التي اصبحت كلاسيكية في الايقونية البوذية ، لمس الأرض بيده اليمنى ، فبدت الأرض بجسم صغير وضمنت اقوال ساكياموني . إلا أن مارا وكاما والايروس Eros وفي آخر المطاف روح الحياة وهذه الحياة ذاتها هي المهددة بالخلاص الذي يتهيأ له البودهيزاتفا لينعم به على العالم . عندئذ ، أحاطت نساء لا يحصى عددهن بالناسك محاولات اغراءه عبثا بعريهن ومفاتنهن الكثيرة . ولكن ، مارا ، المقهور ينسحب قبل حلول الظلام .

١٤٩ - اليقظة . التبشير بالشريعة.

إن هذه الميتولوجيا لغزوة ومحاولة مارا تعلن الصفاء الخلقي المطلق لسكياموني فعندئذ امكن تركيز كل قواه الروحية على المسألة المركزية : الخلاص من المعاناة . ففي يقظته الأولى ، اجتاز المراحل الأربعة من التأمل ، التي سمحت له باحتضان ، وبفضل «عينه الالهية» (ب ١٥٨٠ع) ، كلية العوالم ومستقبلها الأبدي ، أي الدورة المرعبة للولادات ، والميتات وإعادة التجسيدات المحكومة بالكارما . وفي اليقظة الثانية ، اختصر حيواته السابقة التي لا تحصى وتأمل في لحظات الوجودات اللامتناهية للأغيار . واليقظة الثالثة تشكل البودهي ، التيقظ ، لأنه فهم القانون الذي يجعل من الممكن هذا الدور الجهنمي من ولادات واعادة ولادات ، القانون المسمى الاثنتي عشرة «تكاثرات بتبعية متوالية» [و ١٥٧٠ع) ، ويكتشف في ذات الوقت الشرائط الضرورية لوقف هذه «التكاثرات» منذئذ ، حاز «الحقائق النبيلة» الاربعة : اصبح بودها «المتيقظ» ، في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها النهار .

استمر البوذا سبعة اسابيع في «جو التيقظ» ونستعرض من بين الأحداث الخرافية المحافظ عليها في التقليد ، المحاولة الأخيرة لمارا (الموت) : ليدخل السعيد مباشرة في النيرفانا ، دون ان يعلن مبدأ الخلاص الذي اكتشفه . ولكن البوذا أجابه بأنه لن يدخل إلا بعد أن ينشيء جماعة متعلمة ومنظمة بشكل جيد . ومع ذلك ، وبعد قليل من الوقت ، تساءل البوذا اذا كان ثمة حاجة لتعليم مذهب على هذه الدرجةمن الصعوبة. وان تدخل براهما وبصورةخاصةالقناعة بوجود عدد من البشر مؤهلين لأن ينقذوا ، هو الذي قرر ذلك . فتوجه صوب بيناريس حيث مع «عينه الالهية» رأى التلامذة الخمسة الذين كانوا هجروه . لقد وجدهم في دير ، في موقع سارناث الحالي ، وأنبأهم بأنه أصبح بوذا . وعرض عليهم الحقائق النبيلة الاربعة حول الالم ، وأصل الألم ، وايقاف الألم ، والطريق الموصلة لقطع الألم (ف ١٥٦٠ع) .

إن هذاالعرض الأول«يهزدولاب الشريعة». فاهتدى الخمسةوأصبحوا «القديسين» (آرهاتس) . وبعد قليل من الوقت كان ثمة مجال لايمان ابن صاحب مصرف في ياناريس ، متبوعا بابناء عدد آخر من الاسرة . وسرعان ، ما اصبحت الجماعة (سامجها) تعد ٦٠ راهبا (بهيكهو) فأرسلهم البوذا للتبشير منفردين في البلاد . أما بالنسبة له ، فقد توجه صوب أوروفيلفا حيث ، بسلسلة من المعجزات ، نجح في اهتداء الاشقاء الثلاثة كازيايا ، البراهمانيين العابدين بصورة خاصة الاله آغني . وعندئذ توجه البوذا إلى الألف تلميذ لكاميزابا : فبرهن لهم ان العالم بكامله مضطرم بنيران العشق ، فقبلوا المبدأ وأصبحوا قديسين (أرهاتس) . ومنذئذ تكاثرت اعتناقات المذهب ، ففي راجاجرها ، قدم الملك الشاب لماجادها المسمى بيمبيزارا هدية ديرا للبوذا وللجماعة . وفي راجاجرها نفسها أهدى بوذا للايمان متدينين بارزين ، ساريبوترا ومودجالايانا ، وناسكاً ، ماهاكاسيابا ، وهؤلاء الثلاثة سيكون لهم دور بارز في تاريخ البوذية . وبعد بعض الوقت ، استجاب السعيد لدعوة والده وتوجه مع جماعة كبرى من الرهبان نحو كابيلافاستو . وكانت الزيارة مناسبة لعدد من المشاهد المأساوية ، والمعجزات الخرافية . فقد نجح البوذا باقناع والده وعدد من اقاربه . ومن بينهم اعمامه آناندا

و(تلميذه الخادم) الاساسي ، وديفاداتا ، الذي سيصبح بعد فترة قصيرة خصما له .

ولم يتأخر البوذا في كابيلافستو ، فرجع إلى راجاكراها ، وزار سرافاستي وفيزالي وتكاثرت الاهتداءات التلقينية . وعندما تلقى نبأ مرض والده الحاد ، رجع مجدداً إليه وقاده للقداسة . وإن الملكة وقد أصبحت أرملة ، طلبت من ولدها بالتبني ان يقبلها في الجماعة . ومع انه رفض ، فإن الملكة ، مع جماعة من الأميرات الراغبات جميعهن أن يصبحن راهبات ، تبعنه مشياً على أقدامهن حتى فيزالي . وقد عرضت أناندا قضيتها وأخيراً قبلها البوذا ، بعد أن فرض على الرهبات قواعد أكثر قسوة مما على الرهبان وذلك لأن هذا القرار متخذ ضد الرغبة ، وأعلن أنه بقبوله للنساء ، فإن الشريعة التي كان يجب لها أن تدوم الف سنة لن تدوم سوى خمسمائة سنة .

ونتيجة معجزات تمت من قبل بعض تلامذته ، فإن البوذا يقاوم عرض «القوى العجيبة» [ف . ١٥٩ع] ، مع ذلك فإنه ذاته قد استدرج لاتمام إحدى المعجزات الكبرى ، منذ مقاومته ضد «المعلمين الستة» خصومه : تارة ينبت شجرة منجا ضخمة وتارة يتنزه على قوس قزح من الشرق الى الغرب ، أو يضاعف إلى مالانهاية صورته في الأجواء ، أو يمضي ثلاثة اشهر في سماء اندرا بهدف تبشير امه . ولكن هذه القصص الخرافية لم ترتفع للتقليد البدائي ، فمن الراجح اذن ان منع السيدهي والأهمية المعطاة للحكمة (البراجنا) كوسيلة للايمان ، تشكل جزءاً من تعليمه الأساسي(٤) .

وكما توجب انتظار ذلك فإن المعلمين الخصوم الحاسدين لنجاحات السعيد ، جهدوا ، ولكن عبثا ، لافقاده سمعته بوشايات قبيحة . واكثر عنفا هي تلك الخصومات الشنيعة بين الرهبان ، كتلك التي اندلعت في كوزامبي بعد تسع سنوات من التيقظ بخصوص تفصيل القاعدة الرهبانية (كانت تتعلق بمعرفة ما اذا كان يتوجب املاء جرة تنظيف المراحيض ، مجدداً بعد استعمالها) .

وقد حاول المعلم مصالحة المتخاصمين ، الا انه طلب منه برجاء ان لا يهتم بمثل هذه الأعمال فترك كوزامبي(٥) . مع ذلك ، فإن غير المتدينين (اللايك) الساخطين قد رفضوا تقديم المعونة للرهبان الذين حرضوا على سفر السعيد، وان المعاندين اجبروا على الترك .

١٥٠ ـ انشقاق ديفاداتا . آخر الاهتداءات . البوذا يدخل في البارينيرفانا

ان المصادر لا تعلمنا الا بغموض زائد عن المرحلة المتوسطة من مجرى حياته . اثناء فصل الامطار ، كان البوذا يتابع تبشيره في الفيهارا («اديرة») قريبة من المدن . وبقية السنة ، كان يسافر مصحوباً بالمقربين من تلامذنه عبر البلاد مبشراً بالشريعة الجيدة . وفي سنة ٥٠٩ ق.م وبسن العشرين سنة ، تلقى ولده راهولا السيامة النهائية . وتقص التواريخ الرسمية بعض الاهتداءات الاستعراضية ، مثل اهتداء ياكزا واضع الاحاجي ، أو قاطع طريق مشهور ، أو ذلك التاجر الغني من البنغال ، الأمر الذي يثبت ان شهرة المعلم كانت قد انتشرت تماما لما بعد حدود البلاد حيث كان يبشر .

وعندما وصل البوذا الى سن ٧٢ سنة في (٤٨٦ق.م) طلب اليه عمه الحسود ديفاداتا ان يترك له توجيه الجماعة . وتجاه رفضه حاول ديفاداتا قتله ، بدئياً بواسطة قتلة مأجورين ، ثم بعدئذ بأن يسحقه بصخرة أو عن طريق فيل هائج خطير . لقد خلق ديفاداتا انشقاقاً مع جماعة من الرهبان ، بالتبشير بتنسك اكثر جذرية ـ ولكن ساريبوترا ومودغاليانا نجحا في اعادة الضالين ، وحسب عدد من المصادر فإن ديفاداتها قد ابتلع حياً في جهنم . ان السنوات الأخيرة للمبارك قد اظلمت بأحداث مؤلمة ، من بينها دمار قبيلته الساكيا وموت ساربو ترادمودغاليانا .

وخلال موسم الأمطار لعام ٤٧٨ ق.م استقر البوذا مصحوباً بأناندا في (قرية البامبوز) (فينوجراما) ، حيث وقع مريضاً بمرض خطير الديزانتاريا . وقد تجاوز الأزمة وفرح اناندا لأن «المبارك لن ينطفىء قبل ان يترك تعاليمه لموضوع الجماعة» . ولكن البوذا يجيبه بأنه علّم الشريعة بالكامل ، بدون ان يحتفظ بسر عن أية حقيقة ، كما يفعل بعض المعلمين ، وانه اصبح «شيخا هرما» وحياته وصلت لأجلها ، ومن الآن يتوجب على التلامذة ان يفتشوا عن الغوث في الشريعة .

ولكن بعض المصادر تضيف مشهداً له دلالته : بعودته الى فيزالي ، يستريح المبارك في غابة كابالا المقدسة ، وبثلاث مرات يمجد أمام آناندا سحر هذا المكان والجمال المتنوع «للقارة الهندية» مضيفاً ، انه اذا دعي ، فإن البوذا «لا يمكن له ان يستمر اثناء فترة كونية أو الباقي من فترة كونية» . ولكن اناندا ، التزم الصمت ، لثلاث مرات ، وطلب اليه المعلم ان يبتعد . وعندئذ اقترب مارا (الموت) وذكره بوعده للدخول في البارانيرفانا عندما ستكون السمجها samgha قد اقيمت بثبات . «لا تشغل بالك ، أيها الخبيث اجابه المبارك . لن تنتظر طويلاً» وتنازل عندئذ عما بقي له من الحياة ، وفجأة اضطربت الأرض . وطلب أناندا من معلمه سبب هذه الظاهرة الشاذة . وباعلامه عنها رجاه ان يستمر في الحياة حتى نهاية الدورة الكونية . ولكن البوذا لن يخالف العهد الذي قطعه لمارا . «هذا من غلطتك ياأناندا . . لو أنك دعوت المقدر ياأناندا ، لكان رفض أول وثاني مرة طلبك ، ولكنه كان أجابك في ثالث مرة . اذن فهذا هو خطأك ياأناندا»[٧] .

وطلب عندئذ من تلميذه ان يجمع الرهبان الذين كانوا يوجدون في فيزالي ، ورجع الاثنان الى بابا . وهنالك ، دعيا من قبل الحداد كوندا الى غداء التي كانت تشتمل على «أكلة لحم خنزير regaldepore» طبق من لحم الخنزير أو من بعض الفطر الذي تحبه الخنازير . وهذا الطبق يثير اسهالاً دمويا ، وحسبما يبدو عودة المرض الذي ماكاد يشفى منه (الديزنتاريا) . الا انه توقف في الطريق نحو كوزي ناجارا ، عاصمة مالاً . فنام البوذا على جانبه الأيمن وهو مرهق بعد مسيرة

صعبة ، بين شجرتين ، في أجمة ، ووجهه للغرب ورأسه للشمال وجنبه الأيسر ممدد على الأيمن . فأخذ اناندا ينشج بالبكاء ، ولكن المحتضر أخذ يعزيه : «يكفي ، ياأناندا ، توقف عن الحزن والنحيب . . كيف تقبل ان من يولد لن يموت ؟ ذلك شيء غير ممكن اطلاقاً»(٨) . وبعدئذ اثنى على تفاني اناندا أمام الجميع وأكد له انه سيتوصل الى القداسة .

وتجمع المالليون مسرعين لقرب المبارك بعد ان أعلنهم أناندا بالنبأ . وبعد أن كان البوذا أقنع المتدين سوبهادرا بالايمـان استـدعى المؤمنين به وطلب اليهم الافصاح عما اذا كان مايزال هنالك شك لديهم في موضوع الشريعة وفي العقيدة . فلزموا الصمت جميعهم ، عندئذ تكلم البوذا بهذه الكلمات : «اليكم اتوجه ايها الرهبان المتسولون ، ان قابلية الهلاك هي قانون الاشياء ، لا تضعفوا جهودكم» وأخيراً وفي اليوم الثالث والأخير من سهر الليل اجتاز المحطات الأربع من التأمل وانطفأ . لقد كانت ليلة القمر البدر لكارتيكا ٤٧٨ ق.م أو (٤٨٧ حسب نص آخر) .

وكما من أجل معادلة ميتة بشرية ، فإن جنازة البوذا اثارت العديد من الاساطير. خلال سبعةأيام،كرَّم المالاّ Les malla مع الموسيقى والرقصات الميت المكفن بالعديد من الأقمشة والموضوع في حوض من الزيت ، لأنه أجريت له جنازة ملك كاكرافارتان . وقبل الاحتفال على مقعد من خشب ذي رائحة جرى الطواف بالجسد في كوزيناجارا . ولكن المقعد لا يمكن له ان يحرق قبل وصول التلميذ ماهاكازيابا ، الذي اتبع نفس طريق معلمه ، لفترة ثمانية أيام . وكما ان ماهاكازيابا اصبح الرئيس الأول للجماعة ، توجب ان يكون حاضرا على الأقل اثناء حرق المبارك . وفي الواقع وحسب الاسطورة ، فإن رجلي بوذا خرجتا من نعشه «لكي يستطيع تلميذه تمجيدهما بملامستهما بجبينه ، وعندئذ اشتعلت المحرقة عفوياً . ولأن المبارك مات على ارض المالا فقد حمل هؤلاء بقايا عظامه . مع ذلك فإن الشعوب المجاورة طلبت نصيباً منها لأجل ان يقيموا ستوبات des stupas ورفض المالا في البدء ، ولكنهم بعد أن هددوا بالحصار والمقاطعة ، انتهوا الى

القبول باقتسام العظام الى ثمانية حصص . وعلى الرفات ، وعلى المبخرة وعلى الفحم من المحرقة رفعت الستوبات des stûpas .

١٥١ ـ الوسط الديني : النساك المشردون.

حوالي بداية القرن الرابع ، عرفت الهند الغانجية gangetique فترة من النشاط الديني والفلسفي الغزير ؛ وقد قورنت ، بحق ، بالازدهار الروحي في اليونان بذات الفترة . فإلى جانب المتدينين والصوفيين الذين كانوا يتبعون التقليد البراهماتي ، كان يوجد مالايحصى من جماعات السراماناس («الذين يبذلون الجهود» شاحب : سامانا) ، نساك مشردون (باريفراجاكا) والذين كان يصادف من بينهم يوجيون وسحرة ومجادلون («سوفسطائيون») وحتى ماديون وعدميون ومبشرون لكارفاكا ولوكاباتا . وان بعض النماذج من النساك المشردين يعود إلى الأزمنة الفيدية وإلى ماقبلها . ومن بين اغلبيتهم يعرف القليل عن الاشياء خارج اسمائهم . ان مذاهبهم معلنة بطريقة مجتزأة جدا في النصوص البوذية والجاينا ، ومن جهة أخرى ، فهم يكافحون من قبل الجانية والبوذية ، وهم على الغالب مشوهون وموضع ازدراء .

ومع ذلك فمن الراجح ، أن كل هؤلاء السرامانا قد تركوا العالم الممجوج في وقت واحد من صلف الوجود البشري والمبدأ الغامض في الطقوسية البراهمانية . لقد كانت آلية انتقالات الأرواح ومحركها الغامض ، هو الفعل (كارمان) الذي أجهد السراماناس أنفسهم لفهمه وتطويعه . لقد كانوا يستعملون وسائل متعددة ومختلفة ، من التقشف المتطرف ، والوجد الماقبل اليوجى ، أو التحليل التجريبي للمادة إلى ماوراء الطبيعة الأكثر صعوبة ، والممارسات التهتكية والعدمية الشاذة أو المادية العامية . وكانت الوسائل المختارة تتعلق في قسم منها بالقيمة المعطاة للفاعل المدان بنقلته بمقتضى كارمان : هل تعلق ذلك بتنظيم نفسي ، قابل للتلف ، أو بذات soi غير قابلة للفناء وخالدة ؟؟ . في الأساس

كان هذا هو ذات المشكلة المعروفة من قبل الاوبانيشادات الأولى (ف ٨٠٠ ع) والتي ستبقى دوما في مركز الفكر الهندي .

ان النصوص البوذية والجاينية تدل أحيانا فقط على مبادىء بعض المتدينين بدون ان تشير الى اسمائهم . وهكذا ، على سبيل المثال ، تقدم نموذجا طويلاً من المبادىء : «بعضها يعتمد على الدورات الماضية للمدة ، مؤكداً أبدية الذات (آتا - وبالسنكرية آثمان) والعالم ، ومكتسباً بتأديب نفسي (الذي كان في السابق ، يوجا مع سامادهي) قوى عجيبة مثل ذكرى وجودات سابقة . وبعضهم يؤكد تارة على أبدية وتارة لا أبدية ، عارضاً على سبيل المثال أنابراهمان أزلي لكل مخلوقاته الغير دائمة . وبعضهم يوحد الذات مع الجسد ويعتبرها منذئذ غير دائمة . وبعضهم يقبل اللانهاية ، وبعضهم النهاية للعالم [. . . .] . ولا أدريون des agnostiques يتجنبون كافة المسائل . بعضهم يرى الذات والعالم نتاجاً دون سبب ومجموعة أخرى تعتمد على الدورات التي ستأتي ، مواجهة مصير الذات بعد انحلال الجسد . وهذه الذات يمكن أن تكون معلومة ، أو حتى ذات شكل ، محدودا أو غير محدود ، مثبتات عريقة . أو أنها غير معلومة ، أو أنها لا معلومة ولا لامعلومة ويجهل عنها كل شيء الخ . . .» [تلخيص من قبل ج . فيلليوذا ، في كتاب الهند الكلاسيكية جزء ٢ ص ٥١٢] . هذا الكاتالوج قيّم إلى درجة أن بعض المذاهب المتهمة والمدانة سيعاد الأخذ بها وتطويرها من قبل مختلف المدارس البوذية .

وبأكثر من هذه المذاهب المغفلة ، فإن المصادر قد حفظت أسماء بعض المذاهب . ونشير لأكثرها أهمية : الآجيثيكا ، الذين كان معلمهم الأساسي ماسكارين غوزالا ثم النيجرانتا (بلا مكان - أي الجاينيين المؤمنين بماهافيرا . أما بالنسبة لمعلمي غوتاما ، آرادا كالاما ، وورودراكا ، مع أن بوذا قد فاقهما بالذكاء وقوة التركيز اليوجي ، فإن تأثيرهم على طريقته من التأمل كان بارزا .

ان السامانا فالازوتا [ديجها ١ ، ٤٧] ، تذكر إضافة إلى ذلك المعلمين الستة خصوم بوذا . وعن كل واحد منهم قيل انه هو (رئيس الجماعة) شهير (مؤسس

مذهب) محترم كقديس ، مبجل من قبل جماعة من الناس ، متقدم في السن .
فبورانا كاراسابا يبدو أنه بشّر بغياب قيمة العمل : آجيتا كيزاكامبالا علّم عن مادية قريبة من مادية الكارفاكا ، كاكودا كاتاتيانا ، أزلية (الأجسام) السبعة (كايا ، أي «أجساد» الأرض ، الماء ، النار ، الهواء ، السرور ، الألم ، والحياة) وسنجايا على الأرجح علم التشكيكية septicisme لأنه تملص من كل جدل . والاثنان الأخيران ماسكارين غوزالا ونيجانثا ناتابوتا ، أي ماهافيرا ، وهذا الأخير ، مايكاد يذكر في المصادر البوذية ، مع أنه ، من بين معاصري بوذا ، هو الشخصية الدينية الأكثر أهمية .

وفي العديد من السوتا sutta ذكرت اللقاءات مع الباريبافاكا ولكن النصوص تبرز أجوبة المبارك بالأولية عن مذاهب واخلاقيات هؤلاء المتحادثين معه . فهو يلومهم ، مثلاً ، لكونهم متبجحين بتنسكهم الخاص ، وباحتقارهم للآخرين ، ولاعتقادهم انهم قد وصلوا لهدفهم واستخلصوا الرضى ، لاقامتهم رأيا متجاوزا الحد من شجاعتهم[٩] الخ . . انه يعلن ، ان ما يميز السامانا الحقيقي أو براهمان ، ليس هو ابدا مظهره الخارجي ، وتوبته ، أو امانته لنفسه الطبيعية ، وانما التوازن الداخلي ، الاحسان ، والتثقيف للذات ، وتحرر الروح من الخرافات والمعتقدات الباطلة ومن الآليات .

١٥٢ ـ ماهافيرا و «منقذو العالم»

مع ان ماهافيرا معاصر لبوذا ، وانهما جالا في ذات الأقاليم ، وعاشرا الأوساط نفسها ، فإنهما لم يلتقيا . ولا تعرف الأسباب التي دفعته ليقرر تجنب لقاء اكبر خصم أساسي له ، والوحيد الذي نجح بتنظيم جماعة دينية استمرت في الحياة حتى أيامنا . وتلاحظ بعض المشابهات بين حياة واتجاهات المعلمين . فالاثنان ينتميان لمذهب ارستقراطي عسكري (كزاتريا) ويظهران نفس الاتجاه ضد

البراهماتية التي كانت تميز فيها سلف الأوبانيشادات الأولى . والاثنان «هرطقيان» بامتياز لأنهما ينكران وجود اله أعلى ، والخاصية المكتشفة للفيدا ويؤكدان على عدم جدوى وعلى قساوة الأضحيات . ولكنهما ، من جهة أخرى يتميزان بمزاجهما ، وفي نهاية المطاف ، فإن نظرياتهما لا يمكن ان تتوافق .

وخلافا للبوذية ، لم تبدأ الجاينية مع تبشير ماهافيرا . وهذا لم يكن سوى الأخير في سلسلة خرافية من التيتارماكارا ، لغوياً (صانعو السرور) وبعبارات اخرى «مخيفو الطريق» معلنو السلامة»[11] . ان الأول رسا بها أوادزيفارا «المعلـم البدئي» قد عاش الوف السنين ، بدئيا كأمير ثم فيها بعد كناسك ، قبل ان يصل للنيرفانا على قمة كيلازا . ان السير الخرافية للواحد والعشرين تيرتاماكارا تتبع عن قرب ذات النموذج ، الذي ليس هو من جانب آخر سوى حياة ماهافيرا المصورة في مثال نموذجي : كلهم من أصل أميري ، يتنازلون عن الدنيا ويؤسسون جماعة دينية . وقد اتفق على الاعتراف ببعض التاريخية للثالث والعشرين تيرتامكارا ، بارذفا . ابن ملك بيناريس ، وكان قد ترك العالم بسن ٣٠، وحصل على كلية العلم ، وبعد ان انشأ ثماني جماعات ، كان عليه ان يموت ، ابن مائة ، وعلى جبل ، قبل ماهافيرا بـ ٢٥٠ سنة . وحتى أيامنا ايضا ، يلعب بارذفا وضعاً استثنائياً في عبادة وميتولوجيا الجانثيين .

ان ماهافيرا كان ابن سيدهارتا ، رئيس قبيلة شريفة ، وتريزالا ، منتميا بالقرابة الى العائلات الحاكمة لماكادها . ولكن الاسطورة تدخل ولادته في النطاق التقليدي من الولادة (لمنفذي العـالم) : والذي يجب له ان يكون الرابع والعشرين وآخر تيرتاماكارا ، ويقرر النزول على ارض بهدف احياء المبدأ والكمال الاخلاقي للجماعات المؤسسة من قبل بارزفا . انه يتجسد في رحم ديفاناندا زوجة أحد البراهمان ، ولكن الآلهة عملت على نقل الجنين في اميرة من ماجادها . وثمة مجموعة من الاحلام النبوءية تعلن للوالدتين ولادة منقذ كاكرافارتان . وتماماً ، وكما حصل بالنسبة لبوذا وزرادشت فإن نوراً كبيرا يضيء ليلة ولادته .

لقد تلقى الولد اسم فاردهامانا «الناجح» وهو مثل البوذا ، عرف حياة الامارة ، وتزوج فتاة من الأشراف وحصل له منها ولد . ولكنه بموت أبويه ، عندما كان له من العمر ٣٠ سنة ، وبعد أن حصل على اجازة من شقيقه البكر ، فإن فاردهامانا وزع كل أمواله ، وترك الدنيا وارتدى ثوب الناسك المتشرد . وخلال ١٣ شهراً تنازل عن لبس الثوب ، وهذا أول تجديد فصله عن التقليد المنقول من قبل بارزفا . وانصرف خلال ١٣ سنة ، عاريا (مرتديا الفضاء) الى اقسى نوع من التقشف والى التأمل . واخيراً ، وبعد طول اماتة نفس وبعد يومين ونصف من الخشوع والتأمل ، وفي ليلة صيف ، تحت شجرة سالا ، على شاطىء نهر ، حصل على «كلية العلم» . وهكذا اصبح جينا (منتصر) وأخذ المؤمنون به فيما بعد اسم جاينا ، ولكنه بخاصة سمي ماهافيرا (البطل الكبير) خلال ثلاثين سنة استمر على حياة التشرد مبشراً بمبدأه في بلدان ماجدها ، انجا ، وفيدها من السهل الغانجي . واثناء الريح الموسمية ، مثل كل المتدينين الآخرين ، توقف ماهافيرا على اطراف مدينته . وفي بافا (بالقرب من باتنا الحالية) مات عن عمر ٧٢ سنة . وان تاريخ «دخوله في النيرفانا» هو ايضا موضع خلاف ٤٦٨٠ ق.م حسب رأي بعضهم و ٤٧٧ حسب رأي (جاكوبي وشومبرنغ) - وعلى كل حال ، بضع سنوات قبل نيرفانا بوذا .

١٥٣ - مبادىء وممارسات الجانيين

لا نعلم ، تقريبا ، شيئاً عن شخصية الماهافيرا . وان الميتولوجيا التي تمجد ولادته وبعض المشاهد من مجرى حياته هي كتلك التي صيغت حول بوذا ، الميتولوجيا التقليدية للهند . وشريعة جاينا دونت في القرن الرابع أو الثالث ق.م ولكن بعض المقاطع هي اكثر قدما وتحتفظ على الأكثر بذات العبارة المستعملة من قبل المعلّم . وان ما يبدو متميزاً في تعليم ماهافيرا هو الفائدة بالنسبة لبُنى الطبيعة ، وولعه بالتصنيفات والأعداد . وقد أمكن القول بأن العدد يحكم منهجه

(شوبريغ) . وفي الواقع ، يجري الكلام عن ثلاثة انواع من الشعور وخمسة انواع من المعرفة المستقيمة ، وسبعة مبادىء أو أصناف ، وخمسة انواع من الأجساد ، وستة صبغيات أو ألوان اليزيا ، التي تميز احترام أو عدم احترام الروح ، وثمانية انواع من مادة الكارميك ، واربعة عشر محطة للتكيف النفسي الخ . . ومن جهة اخرى فان ماهافيرا يتميز كذلك عن بارسفا كذلك عن بوذا بتقشفه الحاد الذي فرض على تلامذته العري الدائم والعديد من المحرمات .

وماهافيرا ينكر وجود الاله ، ولكن ليس وجود الالهة : فهذه الأخيرة تتمتع ببعض الغبطة ، ولكنها ليست خالدة . وان الكون والحياة لا بداية لهما كما أنه ليس لهما نهاية . وان الدورات الكونية تتكرر إلى مالانهاية . وعدد الأرواح ايضا لا نهائي . وكل ذلك محكوم بالكارمان ، باستثناء الروح الناجية . وان الخطأ المميز للجانية الذي يبرز بنيتها القديمة هو النفسية panpsychisme القائلة ان كل مايوجد في العالم يملك نفساً ، ليس الحيوانات فحسب ، وانما النبات ايضاً ، والحجارة وقطرات الماء الخ . . وبما ان احترام الحياة هو الأول والأهم ، وهو أمر وتوجيه جايني ، فإن العقيدة النفسية اثارت مالا يحصى من الصعوبات . ولأجل هذا فإن على الراهب ، اثناء مسيره ، ان يكنس أمامه ، وانه ممنوع عليه الخروج بعد غياب الشمس ـ وذلك بهدف ان لا يخاطر بقتل بعض الحيوانات الصغيرة .

ويبدو متناقضا ان مبدأ يتلمس «النفسية» ويعلن الاحترام المطلق للحياة ، يخرب جذريا الحياة البشرية ، ويعتبر ان المثل الأعلى ، هو الانتحار بالصيام . إن احترام الحياة ، أي لكل ما يوجد في الممالك الثلاثة للعالم ، لم ينجح مطلقا في اعادة تقديس الوجود البشري ، أو على الأقل ، ان ينيط به معنى دينيا . إن الجاينية وهي تتقاسم التشاؤم ، ورفض الحياة اللذين ظهرا مع الاوبانيشاد ، لم تدرك سوى غبطة روحية وعبر كونية trans- cosmique (ر. ف ١٩٠ ع): وفي الواقع : ان الروح الناجية من «المادة الكرمية» تنطلق «كسهم» نحو قمة الكون ، وهنالك ، في نوع من مواطن الآلهة Empyreé تلتقي وتتصل مع مثيلاتها ، مشكلة جماعة روحية محضة ، وحتى الهية . انه تشاؤم و (روحية) لا كونية تذكر

ببعض المدارس الغنوصية (رف ٢٢٨ ع)، ومع اختلافات هامة مع السمخيا واليوجا التقليديتين (ف ١٣٩ ع).

ان الكارمان يلعب دوراً حاسماً، لأنه يخلق المادة الكرمية، نوعاً من جهاز نفس - جسدي يلتصق بالروح ويجبرها على التناسخ. ان الخلاص موكسا يكتمل بالانقطاع عن كل تماس مع المادة، أي بطرح الكارمان الذي سبق ان امتص وبوقف كل مدٍّ كارمي جديد. وكما كان هذا متوقعاً، فان الخلاص يحصل عليه بسلسلة من التأمل والتركيز من نوع يوجي[١٢]. الذي يتوج حياة من التنسك والخشوع. وطبيعي، لا يوجد سوى الرهبان والراهبات الذين يمكن ان يكون لهم أمل في الخلاص. ولكن حياة الرهبنة مفتوحة لكل ولد من سن الثماني سنوات، شريطة ان يكون بصحة جيدة. وبعد بضع سنوات من الدرس، يلقن المريد من قبل معلم ويتلفظ بالنذور الخمسة: بأن يحافظ على كل حياة، وان يقول الحقيقة، وان لا يملك شيئاً، وان لا يكتسب شيئاً، وان يبقى طاهرا، وبهذه المناسبة يتلقى قدحاً للصدقة ومكنسة قصيرة لتنظيف الطريق امامه، وقطعة صغيرة من القماش الناعم، ليغطي فمه بها اثناء الكلام (على الأرجح تحاشيا لابتلاع الحشرات). ان حياة التجوال للرهبان والراهبات، باستثناء الشهور الأربعة خلال الريح الموسمية، تحتذى في كل نقطة من حياة ماهافيرا.

وحسب التقليد، عند موت الماهافيرا، كان يوجد خارج مجموعة اللاييك الواسعة ١٤٠٠٠ راهب و ٣٦٠٠٠ راهبة. وهذه الارقام مبالغ فيها على الأرجح، ولكن ما يدهش اكثر هو الزيادة الكبرى من النسوة بين المريدين وفي الجماعة اللا دينية، لاسيما أن الراهبات، حسب رأي بعض المعلمين الجانيين، لن تستطعن التوصل إلى الخلاص، باعتبار أنه ليس مسموحاً لهن ممارسة العري الرهباني. إلا أن العدد المرتفع للنساء الراهبات أو اللا متدينات قد تأكد بأقدم تقليد. ويظن بأن ماهافيرا قد توجه بصورة خاصة إلى أقرانه، أعضاء الارستقراطية، النبلاء والعسكريين. ويمكن الافتراض بأن النسوة المنتميات إلى هذه الأوساط قد وجدن في تعليم ماهافيرا تعليماً ماداً جذوره في الروحية الهندية

الأكثر قدماً ، وقد وجدن فيه طريقاً دينياً كان قد رفض بالنسبة لهن من قبل الأرثوذكسية البراهمانية .

١٥٤ الجيفيكاس والقدرة الكلية للقدر

لقد اعتبر البوذا ان غوزالا (ماكهالي) ماسكاران وكأنه اخطر خصم له . ان غوزالا التلميذ والرفيق لماهافيرا لعدد من السنين ، قد مارس التنسك ، وحصل على قوى سحرية وأصبح الرئيس للأجيفيكاس . وحسب بعض اشارات السير الذاتية المحفوظة بالكتابات البوذية والجاينية ، كان كوزالا ساحراً قوياً . وقد قتل واحداً من تلامذته (بنار سحره) ؛ وربما أنه على اثر مسابقة سحرية مع ماهافيرا وسوء تعليمات هذا قد مات (على الأرجح مابين ٤٨٥ - ٤٨٤) قبل المسيح .

ان الاشتقاق لعبارة اجيتيكا بقي غامضاً ، ولم يكن لها أن تعاود تكوينها بسبب الهجوم العنيف عليها من المبادىء البوذية والجاينية ، وخارجاً عن بعض الاشارات المحفوظة في كتب الخصوم ، فلا شيء منها استمر في الحياة من شرائعها . . وربما عرف انها تتعلق بحركة قديمة سابقة بعدة أجيال للبوذية والجاينية .

إن ما يميز غوزالا عن كل معاصريه ، هو قدريته الصارمة «الجهد البشري غير فعال» ذلك هو الأمر الرئيسي في رسالته ، ومفتاح القبة لمنهجه يمسك به بحكمة واحدة : نياتي ، «القدرية» ، «القدر» . وحسب نص بوذي ، ان غوزالا كان يعتقد ، بأنه لا يوجد سبب ، ولا يوجد باعث لفساد الكائنات ، فهي فاسدة بدون سبب ولا باعث . ولا يوجد سبب لطهارة الكائنات ، فالكائنات مطهرة بدون سبب ولا باعث . لا يوجد تصرف صنع من قبل الذات ، ولا يوجد تصرف صنع من قبل الغير ، لا يوجد تصرف بشري ، لا يوجد قوة [. . . .] لطاقة ، [. . . .] ، لقوة بشرية [. . . .] ، لشجاعة بشرية . كل الكائنات ، كل

الأفراد ، كل الخلائق كل الأشياء الحية هي بدون ارادة ، وبدون قوة وبدون طاقة ، انها تتطور بجهد القدر ، الاحتمالات لحالتها نفسها . . .» [سمانا فالازوتا ، ٤٥ ترجمة ل. رينو] . وبعبارة أخرى ، فإن غوزالا يرفض المبدأ الهندي القديم للكارمان . وحسب رأيه ان كل كائن يتوجب عليه ان يمر بدورته عبر ٨٤٠٠,٠٠٠ ايون eons = دهر (ماهاكالبا) ، وفي الأخير يتحصل الخلاص عفويا ، بدون كد . ولقد اعتبر البوذا ان هذه الحتمية تشكل جرماً لا يمكن القبول به ، وعلى هذا هاجم (ماكهالي غوزالا ، اكثر من أي واحد آخر بين معاصريه : معتبراً مبدأ القدرية اكثرها خطراً .

إن ماكهالي غوزالا يشغل وضعا أصليا في افق الفكر الهندي : فمفهومه عن الحتمية دفعه لدراسة الظواهر الطبيعية وقوانين الحياة[١٣] . ان الآجيفيكاس يمضون عراة تماما متبعين العادة السابقة لظهور الماهافيرا والماكهالي غوزالا . وككل النساك المتجولين ، فإنهم كانوا يتسولون الطعام ويتبعون قواعد تغذية قاسية جداً ، وكثيرون منهم وضعوا حداً لحياتهم بتركهم لأنفسهم يموتون جوعا . ان المسارة في النظام كانت تقدم خاصية قديمة : كان على المريد ان يحرق يديه بالقبض على شيء حام ، وكان يدفن حتى عنقه وينتف شعره شعرة فشعرة . ولكنه لم يبق شيء مما يتعلق بالتقنيات الروحية للاجيفيكاس . ويجب الافتراض ، أنهم كانوا يملكون تقاليدهم التنسكية وطروحاتهم التأملية ، وهذا ما يجعلنا نفهم بعض الاشارات لنوع من النيرفانا يمكن مقارنته بالسماء العليا لبعض المداس الصوفية[١٤] .

حواشي الفصل الثامن عشر

١ ـ majjhima nikuga ماجهيما نيكايا ٣ ـ ص ١٢٣ ـ حول رمزية الخطوات السبع . م ـ الياد احلام وغوامض ص ١٤٤ .

٢ ـ لاتيا ، فيتارا ص ٦١٨، أ ـ فوثر حياة بوذا ص ٥٥

٣ ـ مع ذلك ف إن مارا لم يدان بما لا يمكن اصلاحه ، لأنه في مستقبل يعيد ، سيؤمن وسينقذ

٤ ـ لأن التواريخ الرسمية تتكلم بشكل دائم عن سفرات بوذا في الهواء .

٥ ـ الحادث هو ذي دلالة ، يمكن ان يشير الى ان التعطيلات لسلوك الرهبانية ليست منظمة بالضرورة من قبل البوذا ، مع انه يوجد كثير من الأمثلة المعاكسة (انظر فبللوزا الهند التقليدية ص ٤٨٥ .

٦ ـ Dinyarwdona ص ٢٠٠ . مترجمة من قبل E, Burnf

٧ ـ ماشار بارينيبانا ـ سوتا ٣ ـ ٤٠ ترجمة فوشر ص ٣٣ . مشهد ذهول أناندا قد اقترع بالتأكيد من أجل شرح موت البوذا ، لأنه مع كونه اختار الظروف لولادته ، فإن البوذا كان يستطيع تمديد إلى مالانهاية وجوده . فليست خطيئة اذا لم يفعل . وفي كل الأحوال لا الخرافة ولا الجماعة البوذية لم توصم اناندا بالعار ، الأمر الذي يثبت انه يتعلق بمشهد مدسوس لأسباب دفاعية عن الدين .

٨ ـ ماها ـ بارينسبانا ـ سوتا ١٤

٩ ـ اوديمباريكا سيهاناداسوتا (ديجها ٣ ـ ٤٣

١٠ ـ كاسا بارسيها ناداسوتا(ديجها ١ ـ ١٦٩

١١ ـ ولكنه سرعان ما أعلن البوذيون هم ذاتهم سلسلة معتبرة من البودهاس

١٢ ـ بعض الصياغات تناسب تماما التقليد الكلاسيكي لليوجا ، المثبت فيما بعد من قبل باتانجالي (ف ١٢٣ ع) . وعلى سبيل المثال التركيز (دهيانا) يتكون بتثبيت النشاط النفسي ـ عقلي في (نقطة وحيدة)

١٣ ـ عرض تصنيفاً للكائنات حسب العدد والمعنى ، واختصر مبدأ من التكونات في قلب الطبيعة (بارينلامافادا) معتمداً على الملاحظات الدقيقة بالنسبة لدورية حيلة النباتات .

١٤ ـ حوالي القرن العاشر ق.م الاجيفيكاس ، كالهند بكاملها خضعوا للبهالتي ، وانتهوا بالذوبان مع مذهب فيشتوي البانكاراترا . انظر . أ . ل . باشام ـ تاريخ ومبادىء الاجيفكاس ص ٢٨٠ .

الفصل التاسع عشر

رسالة البوذا : من الرعب من الرجوع الأبدي الى السعادة التي تدق عن الوصف

١٥٥ ـ الرجل المصاب بسهم مسموم ..

إن البوذا لم يقبل مطلقا ان يعطى إلى تعليمه بنية منهج . وهو لم يرفض الاطناب حول المسائل الفلسفية ، فحسب ، وانما ايضا لم يدع مجالاً للتكلم حول كثير من النقاط الرئيسية عن مذهبه ، وعلى سبيل المثال حول نظام القديس الداخل في النيرفانا . وهذا السكوت افسح المجال لامكانيات ، ومنذ وقت مبكر ، لشروح متنافرة ، وأثار فيها بعد ظهور مختلف المدارس والمذاهب . إن النقل الشفهي لتعليم المبارك وتسجيل الشريعة يطرح عدداً من المسائل ، وسيكون من العبث الأمل بالوصول يوما ما الى حلها بطريقة مرضية . الا انه اذا بدا غير ممكن اعادة تكوين «الرسالة الرسمية لبوذا» بكل تكاملها ، فسيكون من المبالغ

فيه ، الاستنتاج أن النصوص الأكثر قدما ، قد مثلت فيما سلف مذهبه في السلامة المتغيرة جذريا .

فمنذ البداية ، نظمت الجماعة البوذية (سامجها) بقواعد رهبانية (فينايا) ، ضمنت لها وحدتها . اما بالنسبة للمذهب ، فإن الرهبان كانوا يتوازعون بعض الأفكار الرئيسية المتعلقة بالتناسخ والثواب عن الأفعال ، وتقنيات التأمل الذي كان يقود للنيرفانا وإلى «شرط البوذا» (وهو ما يسمى بعلم البوذية Le boudholagie) . اضافة لذلك ، ومنذ عصر المبارك كان يوجد سابقاً كتلة من العلمانيين (لاييك) المتعاطفين الذين ، مع قبولهم التعليم تماماً ، لم يتنازلوا عن الدنيا ، وبإيمانهم بالبوذا ، وبالاحسان تجاه الجماعة كسب العلمانيون احترامات ضمنت لهم وجوداً ثانياً في مختلف «الفراديس» متبوعاً باعادة تجسيد ممتاز . وهذا النوع من الورع يميز «البوذية الشعبية» . وان له أهمية كبرى في التاريخ الديني الاسيوي ، وبالميتولوجيات ، والطقوس والأعمال الأدبية والفنية التي أثارتها .

وأساساً ، يمكن القول ان البوذا قد قاوم إلى حد التفكير الكوني والفلسفي للبراهمان والسراماناس ، مما هو لمختلف الطرائق والتقنيات للسمخيا ولليوجا ماقبل الكلاسيكية . وفيما يتعلق بعلم الكون وعلم نشأة الانسان ؛ التي رفض مناقشتها ، فمن الواضح ان العالم ، بالنسبة لبوذا ، لم يخلق لا من قبل اله ، ولا من قبل صانع أولي كبير de´miurge ، ولا من قبل روح الشر (كما تعتقد به الغنوصيات والمانوية) (ف ٢٢٩ ع ع) ، ولكنه يستمر بالوجود ، أي أنه خلق باستمرار ، بالأعمال ، الخيرة أو الشريرة ، للبشر . وفي الواقع ، عندما تتزايد الجهالة ويتزايد الشر ، ليست الحياة البشرية فقط هي التي تختصر ، ولكن العالم نفسه يخرب . (الفكرة هي مما قبل الهندية ، ولكنها تشتق من مفاهيم عتيقة عن الانحطاط المتتالي للعالم الموجب لاعادة خلقه الدوري) .

أما بالنسبة للسمخيا واليوجا ، فإن البوذا استعار وطور تحليل معلمي السمخيا والتقنيات التأملية لليوجيين ، رافضاً مسلماتهم النظرية ، وبالدرجة الأولى فكرة الذات (بيروشا) . ورفضه لأن يساق في التأملات من كل الأنواع هو

رفض جازم . لقد تألق بإعجاب في المناظرة الشهيرة مع مالون كيابوتا . فقد كان هذا الراهب يأسف لأن المبارك ترك بدون جواب مسائل من نوع :: هل العالم خالد أم هو غير خالد ؟ وهل هو متناهي أولا متناهي ؟ وهل الروح هي ذات الجسد ام هل هي مختلفة ؟ وهل التاتهاجاتا توجد بعد الموت أم انها لا توجد ؟ الخ . . فطلب (مالون كيابونا) من المعلم ان يحدد فكره بدقة ، وان لم يفعل ، ان يعترف بأنه لا يعلم الجواب . وعندئذ اخبره البوذا بقصة الانسان المصاب بسهم مسموم . لقد جلب له الاصدقاء والأقارب جراحاً ، ولكن الرجل صرخ فيهم : «لن اسمح باستخراج هذا السهم قبل أن اعلم من الذي ضربني ، فاذا كان هذا كشارترياً أو براهمان [. . . .] فمن هي عائلته ، واذا كان كبيراً أو صغيراً أو ذا قامة متوسطة ، فمن أية قرية أو أية مدينة قد جاء ، ولن اسمح ابداً باستخراج هذا السهم قبل معرفة بأي نوع من الأقواس صُوِّب علي [. . . .] وبأية وتر استعمل في القوس [. . . .] وأية ريشة استعملت على السهم [. . . .] وبأية طريقة صنعت حربة السهم» . ان هذا الرجل سيموت قبل معرفته هذه الأمور» وأتـمل المبارك كلامه ، كذلك الأمر بمن سيرفض اتباع طريق القداسة قبل ان يحل هذه المعضلة الفلسفية أو تلك . لماذا رفض البوذا بدئياً مناقشة هذه الأمور ؟ «لأنه من غير المفيد ، لأنه غير مرتبط بحياة القداسة والروحية ، ولا يساهم أبداً بالنفور من العالم ، وبالانفصال ، وبانقطاع الرغبة ، وبالهدوء ، وبالنفاذ العميق ، وبالاستنارة ، وبالوصول للنيرفانا»(١) . وذكّر البوذا مالون كيابوتا بأنه لم يعلم سوى شيء واحد ، هو : الحقائق النبيلة الأربعة [ماجهيما نيكايا ١ ـ ٤٢٦] .

١٥٦ ـ «الحقائق النبيلة» الأربعة و «طريق الوسط»

هذه الحقائق النبيلة الاربعة تتضمن لـبَّ تعليمه . فقد بشر بها في أول موعظة في بيناريس ، بعد قليل من الزمن من تيقظه ، امام رفاقه القدماء الخمسة (ف ١٤٩) . وأول حقيقة تتعلق بالمعاناة أو الألم (باليدوكها) . فبالنسبة لبوذا ، كما

بالنسبة للمفكرين والمتدينين الهنود بعد عصر الاوبانيشاد ، كل شيء هو معاناة tout est souffrance . وعليه «الولادة الم ، والشيخوخة معاناة ، والمرض معاناة ، والموت معاناة ، وأن يوجد المرء مرتبطاً بمن لا يحب يعني المعاناة . والمرء المبتعد عما يحب [. . . .] وان لا يجد ما يرغب فيه ، يعني المعاناة . وباختصار ان كل تماس مع (الواحد أو أياً) من السكاندها الخمسة يدخل المعاناة» [ماجهيما . ١ - ١٤١] . ولنوضح بأن عبارة دوكها التي تترجم عادة بـ (ألم) أو (معاناة) لها معنى اكثر اتساعاً . فهنالك اشكال مختلفة من السعادة ، توصف كما لو كانت دوكها ، فبعد ان امتدح البوذا الغبطة الروحية لتلك الحالات اليوجية ، اضاف انها «متغيرات دوكها ، وخاضعة للتغيير» [ماجهيما . ١ - ٩٠] . انها دوكها حقاً لأنها خاضعة للتغيير[1] . وكما سنرى ، فإن البوذا يختصر (الأنا le moi) لخلط خمسة مجاميع (سكاندها) للقوى الطبيعية والنفسية . وهو يوضح ان الدوكها هي ، في نهاية المطاف الخمسة مجاميع[2] les cinq a gregads

والحقيقة النبيلة الثانية توحد أصل المعاناة (دوكها) في الرغبة ، والشهية أو «العطش» (تانها) الذي يحدد اعادات التجسيد . هذا «العطش» يبحث باستمرار عن متع جديدة : ويميز فيها الرغبة بمسرات الحواس ، والرغبة بالبقاء والرغبة بالمحق (auto- annihilation) ويلاحظ بأن هذه الرغبة بالمحق مدانة مع المظاهر الأخرى من «العطش» . وفي الواقع ، بصفة انها بذاتها «شهية» ، فإن الرغبة بالمحق ، التي يمكن ان تقود الى الانتحار ، لا تشكل ابداً حلاً ، لأنها لا توقف الدورة الأبدية للتناسخات .

وثالث الحقائق النبيلة تعلن ان الخلاص من الألم (دوكها) يوجد في حذف الشهوات (تانها) . إنها تعادل النيرفانا . وفي الواقع ان أحد اسماء النيرفانا هو «انتفاء العطش» (تانها كهايا) . وأخيراً ، فإن الحقيقة النبيلة الرابعة تكشف الطرق الموصلة إلى انقطاع المعاناة .

ان البوذا في صياغته للحقائق الأربع ، يطبق طريقة من الطب الهندي الذي يصف المرض بدئياً ، ثم يكتشف سببه ، ويقرر بعدئذ ازالة هذا السبب

واخيراً يحضر الوسائل القابلة لأن تزيله . ان التطبيب المعد من قبل البوذا يشكل ، في الواقع ، الحقيقة الرابعة ، انها تحدد الوسائل لشفاء ألم الوجود . وهذه الطريقة معروفة تحت الاسم «طريق الوسط» . وفي الواقع ، انها تتحاشى النهايتين : ملاحقة السعادة بلذائذ الحواس ، والطريق المضاد ، البحث عن الغبطة الروحية بتنسك حاد . ان «طريق الوسط» يدعى كذلك «طريق الاعضاء الثمانية» لأنه يتكون في : ١) رؤية او رأي صحيح (أو عادل) ٢) فكر صحيح ٣) كلام صحيح ٤) نشاط صحيح ٥) وسائل وجود صحيحة ٦) جهد صحيح ٧) انتباه صحيح ٨) تركيز صحيح .

ويرجع البوذا بدون كلل الى القواعد الثمانية «للطريق» فيفسرها بطرق مختلفة لأنه كان يتوجه الى مجالس مختلفة . وهذه القواعد الثمانية كانت احيانا مصنفة تبعاً لمنظوراتها . وهكذا ، على سبيل المثال إ ن نصاً من الماجهيما نيكايا [١ - ٣٠١] يعرف التعليم البوذي وكأنه : ١) سلوك اخلاقي (سيلا) ٢) مذهب عقلاني (سامادهي) ٣) حكمة (براجنا) . إن السلوك الاخلاقي المؤسس على الحب الكلي والشفقة من أجل كل الكائنات ، يقوم في الواقع في ممارسة القواعد الثلاثة (٢ - ٤) من (طريق الثمانية) أي الكلام الصحيح أو المضبوط ، ونشاط صحيح ، أي طريق حياة صحيحة . وهنالك نصوص عديدة تفسر ما يفهم من هذه الصياغات[٣] . فالمذهب العقلي (سامادهي) يقوم في ممارسة الثلاثة الأخيرة من التركيز الصحيح . وهو يتعلق بممارسات تنسكية من نظام اليوجا ، والتي سنؤكد عليها فيما سيأتي ، لأنها تشكل الجوهري في الرسالة البوذية . أما بالنسبة للحكمة (براخيا) ، فإنها النتيجة للقاعدتين الأوليتين : نظر أو رأي صحيح ، وفكر صحيح .

١٥٧ - تغير الأشياء ومذهب الآناتا

بالتفكير والتأمل حول الحقيقتين الشريفتين الأوليتين - الألم وأصل الألم - يكتشف الناسك عدم الثبات ، اذن عدم الجوهرية (آناتا) للأشياء ، وبذات الحين

عدم جوهرية كينونتها الذاتية . إنه يكتشف نفسه بأنه ليس تائها بين الأشياء «كما هو الأمر ـ مثلا ـ للفيدنتي ، للأورفي ، للغنوصي» وانما ، مشاركا قوالبها في الوجود . . لأن الشمولية الكونية كما هو كذلك النشاط النفس ـ عقلي تشكل عالما واحداً بذاته . ان البوذا باستعماله تحليلاً قاسياً ، أظهر ان كل ما يوجد في العالم يمكن تصنيفه في خمسة فئات أو مجموعات أو اصناف (سكاندها) : ١) مجموعة «الظواهر» او المحسوس (الذي يشمل كلية الأشياء المادية ، واعضاء الحواس وموضوعاتها) . ٢) المشاعر (المثارة بالتماس مع اعضاء الحواس الخمسة) ، ٣) الادراكات الحسية les perceptions والمفاهيم les notions التي تنتج منها (أي الظواهر الادراكية)، ٤) البنى النفسية (سامسكارا) شاملة النشاط النفسي الواعي وغير الواعي . ٥) الافكار (فيجيانا) أي المعارف المتحصلة بالقدرات الشعورية وبصورة خاصة ، بالنفس (مانا) التي تقيم في القلب وتنظم التجارب الشعورية . لا يوجد سوى النيرفانا التي ليست مشروطة ، ولا «مكونة» وبالتالي ، لا يمكن لها ان تصنف بين «المجموعات» .

إن هذه «المجموعات» أو «المشتملات» تصف ، بطريقة موجزة ، عالم الأشياء والشرط البشري . وثمة صيغة أخرى مشهورة تلخص وتوضح بطريقة اكثر دينامية ايضا ترابط المسببات بالأسباب الذي يحكم دورة الحياة والولادات . وهذه الصيغة معروفة تحت اسم «الانتاج المشترك المشروط» (باتيكاسموباكا) متضمنة اثني عشر عاملاً («عضواً») حيث أولها هو الجهل . إن الجهل هو الذي ينتج الافعال الارادية ، وهذه بدورها تنتج «البنى» النفسية (سامسكارا) التي تشرط المظاهر النفسية والعقلية ، وهكذا دواليك ـ حتى الرغبة ، وبتخصيص أكثر الرغبة الجنسية التي تولد وجوداً جديداً وتصل في النهاية الى الشيخوخة والموت . وبالأساس ، ان الجهل ، الرغبة والوجود ، كلها متعلقة ببعضها وتكفي لتفسير السلسلة الغير منقطعة من ولادات ، وميتات ، وتناسخات .

ان هذا الأسلوب من التحليل والتصنيف ليس من اكتشاف البوذا . فتحليلات اليوجا والسمخيا الما قبل كلاسيكية ، وكما سلف لتعليمات البراهماتا

والأوبانيشاد ، قد حلت وصنفت الشمولية الكونية والنشاط النفس - عقلي في عدد من العناصر أو الأصناف . وزيادة على ذلك ، فمنذ العصر ماقبل الفيدي ، اعلنت الرغبةوأعلن الجهل كأسباب أولية للمعاناة وللتناسخ . ولكن الاوبانيشاد ، مثلها مثل السمخيا واليوجا ، تعترف اضافة الى ذلك بوجود مبدأ روحي مستقل : هو الاثمان أو البيروشا . وعلى ذلك فإن البوذا يبدو منكراً ، أو على الأقل بقي ساكتا ، عن وجود مثل هذا المبدأ .

وفي الواقع ، ان عدداً من النصوص ، المعتبرة كعاكسة للتعليم الأصولي للمعلم ، تعارض حقيقة الشخص البشري (بودجالا) ، والمبدأ الحيوي (جيفا) ، او الاثمان . ويعلن المعلم في إحدى خطبه (تماما بدون شعور) المذهب الذي يؤكد : «هذا العالم هو هذا الاثمان ، بعد الموت سأكون هذا ، الذي هو ثابت ، والذي يدوم ، والذي يستمر ، والذي لن يتغير ، وسأوجد كذلك للأبد»(٤) . وتفهم النية والوظيفة التنسكية لهذا السلب :

بالتأمل حول عدم حقيقة الشخص ، ندمر حب الذات من جذورها ذاتها . ومن جهة أخرى ، فإن نفي الذات ، وموضوع التناسخات ولكن القابل لأن يتحرر وان يدرك النيرفانا ، قد طرح مسائل جمة . ومن أجل هذا ، وفي مناسبات عديدة رفض البوذا الاجابة على اسئلة حول وجود أو عدم وجود الاتمان .

وهكذا بقي صامتا عندما سأله ناسك متشرد قاشاجوتا حول هذه المسائل . ولكنه فسر لأناندا فيما بعد معنى سكوته : لو أنه أجاب بأن ذاتاً كانت توجد لكان قد كذب ، زد على ذلك فإن فاكشاجوتا كان صنف المبارك بين انصار «النظرية الخلودية» (أي الذين كانوا جعلوا منه «فيلسوفا» ، كما يوجد منهم العديد) . ولو أنه أجاب بأنه لا يوجد «ذات» لكان فاكشاجوتا اعتبره كنصير لنظرية «اللاعدمية» ، وماهو اكثر من ذلك ، ان البوذا كان ايضا افدح في تشويشه : «لأنه كان ظن أوقدر : في البدء كان عندي في الواقع اثمان ، ولكنها لا توجد عندي الآن» [ساميوتا نيكايا ٤ - ٤٠٠] . وبشرح هذا المشهد الشهير ، فإن

(فازوباندهو) [القرن الخامس د . م] استنتج : «الاعتقاد بوجود (ذات) يعني السقوط في هرطقة الديمومة ، وجحود الذات ، يعني السقوط في هرطقة الفناء بالموت»(٥) .

بإنكار حقيقة الذات (نيراتميا) يوصل الى هذا التناقض : مذهب يمجد أهمية العمل و «ثمرته» ، وثواب العمل ، وينكر الفاعل ، «الآكل للثمرة» . وبعبارات اخرى ، وكما قال فقيه متأخر بودها جهوذا : «المعاناة وحدها توجد ، ولكن لايوجد أي أحد يعاني . الأعمال موجودة ، ولكنه لا يوجد فاعل» [فيزودهيماجا ص ٥١٣] .غير ان هنالك بعض النصوص التي هي اكثر تباينا : «من يأكل ثمرة العمل في بعض الوجود ليس هو الذي فعل الفعل في وجود سابق ، ولكنه ليس غيره»(٦) .

من مثل هذه التناقضات والغوامض تنعكس المعضلة المثارة برفض البوذا لحسم بعض المسائل المتناقضة . فاذا كان المعلم قد انكر وجود الذات التي لا تجبر ولا تكسر ، فذلك لأنه علم ان الاعتقاد في (اثمان) يجر لخصومات ميتافيزيكية لا نهاية لها ويشجع الصلف العقلي ، وفي آخر المطاف الحصول على اليقظة . وكما انه لم ينقطع عن التذكير به ، فقد بشر بانقطاع المعاناة ووسائل اتمامها . ان المتناقضات التي لا حصر لها حول «الذات» وحول «طبيعة النيرفانا» وجدت حلولها في تجربة التيقظ : لقد كانت تلك المتناقضات غير قابلة للحل بالفكر وعلى مستوى التعبير بالألفاظ .

الا ان البوذا على ما يبدو قد قبل بعض الوحدة والاستمرارية «للشخص» (بودجالا) ففي موعظة حول الحمل والحمّال اكد : «ان الحمل ، هو السكندها الخمسة ، مادة ، احساس ، افكار ، ارادات ، معرفة ، وحمال الحمل هو البودجالا ، وعلى سبيل المثال ، هذا المتدين المحترم من تلك الأسرة وذلك الاسم الخ [ساميوتا ٣ ـ ٥٢] ولكنه رفض ان يتحزب في التناقض بين (انصار الشخصية (بودجالغادان) و (مناصري الجماعات) : لقد أخذ موقفا (وسطيا)(٧) . بيد أن العقيدة في استمرارية الشخص دعمت وليس فحسب في الأوساط الشعبية . ان

الجاتكاز يروون الوجودات السابقة للبوذا ، ولعائلته ورفاقه ، والهوية لشخصياتهم معترف بها دائما . وكيف تفهم الكلمات التي لفظها سيدهارتا ، اثر ولادته : «هذه آخر ولادة لي» (ف ١٤٧ع) ، اذا انكرت استمرارية «الشخص الحقيقي» (حتى ولو حصل تردد في تسميتها الذات أو بدجالا)؟؟

١٥٨ ـ الطريق الموصلة للنيرفانا

ان الحقيقتين الأخيرتين يجب لهما ان تفحصا سوية . فيؤكد بدئيا ان توقف الألم يحصل عليه بالانقطاع الكلي للعطش (تانها) اي «واقعة الابتعاد (عن هذا العطش) ، والتنازل عنه ، ورفضه ، والتحرر منه وعدم الارتباط به» [ماجيمها ١ ـ ١٤١] . ويؤكد بدقة ايضا على ان الطرق التي توصل لتوقف الألم هي تلك الطرق المعلن عنها في الطريق المثمن . وهاتان الحقيقتان الاخريان تؤكدان بوضوح : ١) ان النيرفانا توجد ، ولكن ٢) لا يمكن الحصول عليها الا بتقنيات خاصـــة من التركيز ، والتأمل . وضمنيا ، يعني هذا ايضا ان كل جدل متعلق بطبيعة النيرفانا والقالب الوجودي (للمنرفن) ´nirvane لا معنى له بالنسبة لمن لم يدرك على الاقل عتبة هذه الحالة الدقيقة عن الوصف .

ان البوذا لم يقدم مطلقاً (تعريفاً) للنيرفانا ، ولكنه يعود بدون انقطاع الى بعض صفاتها . إنه يؤكد ان الارهات (القديسين الناجين) «قد ادركوا السعادة الغير قابلة للزعزعة» [اودانا ـ ٨ ـ ١٠] ، وان النيرفـانـــا «هي طوبى» [انكوتارا ١٧ ـ ٤١٤] ، وانه هو المبارك قد ادرك الخلود ، وان النساك يستطيعون كذلك ادراكه : «ستجعلون من انفسكم حضوراً منذ هذه الحياة ، ستعيشون حائزين لهذا الخلود» [ماجيهتيما ١ ـ ١٧٢] . ان الأرهات «منذ هذه الحياة نفسها ، منبوذ (منرفن) (نيبوتا) ، شاعر بالسعادة في ذاته ، يمضي وقته مع براهمان»[٨] .

ان البوذا يعلم اذن بان النيرفانا هي «مرآية على هذه الأرض» ظاهرة ، حالية ، أو (من هذا العالم) . . ولكنه يؤكد على واقعه انه وحده من بين اليوجيين يرى ويملك «النيرفانا» . أي : «هو ومن يتبع طريقته» . ان البصيرة vision المسماة في الشريعة «عين القديسين» (آريا كاكهو) تسمح «بالتماس» مع الغير مشروط ، «الغير مبني» النيرفانا(٩) . وعليه فان هذه «البصيرة» «المتصاعدة» يحصل عليها ببعض تقنيات تأملية مطبقة سلفاً منذ الازمنة الفيدية والتي توجد موازيات لها في ايران القديمة .

واجمالا ، مهما كانت طبيعة «النيرفانا» فمن المؤكد انه لا يمكن الاقتراب منها الا باتباع الطريقة التي علم بها البوذا . ان البنية اليوجية لهذه الطريقة واضحة : انها تتطلب في الواقع سلسلة من التأملات والتركيزات المعروفة منذ عدة قرون . غير ان الأمر يتعلق بيوجا متطورة ومعادة التفسير بعبقرية المبارك الدينية . ان الناسك يجر بدئيا للتفكير باستمرار حول حياته الفيزيولوجية ، بهدف الوعي بكل التصرفات التي اكملها حتى ذلك الحين بصورة آلية وبدون وعي ، وعلى سبيل المثال «بالتأمل طويلاً يعرف حتى العمق لهذا الالهام الطويل ، وبالزفير باختصار يفهم الخ . . وانه يتدرب ليكون واعيا بكل زفراته [. . . .] وبكل شهقاته ، ويدرب نفسه لتبطئة شهقاته وزفراته [. . . .]» [ديجها ١ - ٣٩١] . كذلك الأمر فإن الناسك يكد ليفهم تماما ما يفعله عندما يمشي ، أو يرفع ذراعه . أو يأكل أو يتكلم أو يصمت . . ان هذه المرونة المستمرة تثبت له انسحاقية العالم الظاهراني وعدم حقيقة «الروح»(١٠) : تساهم بخاصة «بنقل» التجربة الدنيوية .

وان الناسك يمكنه ان يدنو الآن مع شيء من الثقة ، من التقنيات بكل معنى الكلمة . ويصنفها التقليد البوذي في ثلاث فئات : «التأملات» (جهانا) «الخشوعات» (ساماباتي) و «التركيزات» (سامادهي) . وسنصفها بدئيا باختصار محاولين بالتالي تفسير نتائجها . ففي أول تأمل (جهانا) يثبت الناسك بانفصاله عن الرغبة (سعادة) مصحوبة بنشاط عقلاني (محاكمة وتفكير) . وفي ثاني تأمل (جهانا) ينال التهدئة لهذا النشاط الفعلي ، وبالنتيجة ، يعرف الصفاء الداخلي ، وتوحيد الفكز (السرور والسعادة) الناتج عن هذا التركيز . وفي ثالث

(جهانا) ينفصل عن الفرح ويبقى غير مبالٍ ، وانما بتمام الشعور ويختبر الغبطة في جسده . وأخيراً في المرحلة الأخيرة ، بالتنازل عن السرور مثل التنازل عن الألم ، يحصل على حالة من الطهارة المطلقة ، ومن عدم المبالاة والفكر المتيقظ» .

ان الخشوعات الأربعة (ساماباتي) («اجتناءات» ، و «محصلات») تتلو عملية «التطهير» للفكر . هذا الفكر المفرغ من محتوياته ، يركز تباعاً على لا نهائية الفضاء ، وعلى لا نهائية الشعور ، وعلى «العدمية» . وفي رابع ساماباتي ، يدرك حالة هي «ليست لا شعوراً ولا لا شعوراً» . ولكن البهيكهو Bhikkhu يجب أن يذهب بعيداً أكثر في هذا العمل ايضاً من التطهير الروحي ، محققاً التوقف لكل ادراك حسي وكل فكرة (نيرودها سامباتي) .

إن الراهب يبدو وكأنه فيزيولوجياً في حالة تخشب ، ويقال بأنه «لمس النيرفانا بجسده» . وفي الواقع إن مؤلفاً متأخراً صرح بأن «البهيكهو الذي عرف ان يصنع هذا المكسب لم يبق لديه ما يفعله»[12] . أما بالنسبة للتركيزات (سامادهي) ، فهي تمرينات يوجية لمدة محدودة اكثر من تمرينات الجهانا والساماباتي ، وتستخدم بخاصة لانجذاب نفس ـ عقلي . ان الفكر مركز على بعض الموضوعات أو مفاهيم بغاية الحصول على توحد الشعور ومحو النشاطات العقلية . وتعرف أنواع مختلفة من السامادهي ، يتبع كل منها هدفاً محدداً .

بتطبيق وتطويع هذه التمارين اليوجية ، وتمارين غيرها أيضاً ، التي لا يمكن التوقف عندها هنا يتقدم البهيكهو على (طريق الخلاص) . ويميز في ذلك اربع اطوار : ١) «الدخول في التيار» هو الطور المدرك من قبل الناسك المتحرر من الاخطاء والشكوك والذي لن يولد سوى سبع مرات على الأرض ٢) «الرجوع الوحيد» ، الطور لمن انقص العشق ، والغضب والحماقة والذي لن يكون له سوى عودة ولادة واحدة ، ٣) «اللارجوع» ، عندما يتجاوز الناسك نهائياً وبشكل كامل الاخطاء ، والشكوك والرغبات ، سيولد في جسد اله وسيحصل بالتالي على الخلاص ، ٤) «المستحق» (أرهات) المطهر من كل التدنيسات والأهواء ، الموهوب بمعارف مافوق الطبيعة وبقدرات عجيبة خارقة (سيدهي) يدرك النيرفانا منذ نهاية حياته .

سيكون من السذاجة الظن بامكانية (استيعاب) هذه التمارين اليوجية ، حتى ولو بتكرار الاستشهادات بالنصوص الأصولية وبتقديم شروح لها . والممارسة وحدها تحت رقابة معلم ، هي القابلة لأن تكشف بنيتها ووظيفتها . وقد كان هذا فعلاً في ازمنة الاوبانيشاد ومازال كذلك حتى يومنا هذا .

ولنتناول مع ذلك بعض النقاط الأساسية :(١) بدئيا ، كل هذه الممارسات اليوجية مقادة بالحكمة (براينا) المعرفة التامة للحالات النفسية وماقبل النفسية المجربة من قبل البهيكهو . وان الجهد «لوعي» النشاطات الفيزيولوجية الأكثر شهرة (تنفس ، مشي ، حركة الأذرع الخ . . .) يتحدد في التمارين التي تكشف لليوجي «حالات» منيعة على شعور دنيوي .

٢) ان التجارب اليوجية ، وقد أصبحت غير معقولة انتهت لتحول الشعور الطبيعي فمن جهة ، الناسك هو متحرر من الأخطاء المتضامنة بالبنية حتى لشعور غير مستنير (مثلا الاعتقاد بحقيقة الشخص أو وحدة المادة . . الخ) ، ومن جهة اخرى ، يدرك بفضل تجاربه المافوق طبيعية ، مستوى من المعرفة خارج كل منهج مفهومي ، ومعرفة مماثلة ، مرفوضة بالاستعمال للالفاظ .

٣) وبالتقدم في الممارسة يجد الناسك موافقات جديدة للمبدأ ، وبخاصة الرضوخ «المطلق» «لغير مكون» يصعد كل القوالب المقبولة لشعور غير متنور ، ولحقيقة واضحة «لخالد» (أونيرفانا) ، الذي لا يمكن قول شيء سوى انه موجود .

ان خبراً متأخراً يلخص عن معرفة كبرى الأصل التجريبي (أي اليوجي) للاعتقاد في حقيقة النيرفانا . « يصـــر عبثا على أن النيرفانا لا توجد بسبب أنها ليست موضوعاً للمعرفة ـ بلا ريب ان النيرفانا ليست معروفة مباشرة بالطريقة التي يعرف بها اللون ، والاحساس الخ ، وليست معروفة بصورة غير مباشرة بنشاطها ، بالطريقة التي تعرف بها اعضاء الحس . مع ذلك فإن طبيعتها ونشاطها

[. . . .] هما موضوع للمعرفة [. . . .] . فاليوجي الداخل في الخشوع يشعر بالنيرفانا ؛ وبطبيعتها وبنشاطها . وعندما يخرج من التأمل ، يهتف : (آه النيرفانا ، تدمير ، هدوء ، ممتاز مخرج) . ان العميان ، لأنهم لا يرون اللون الأزرق والأصفر ، ليس لهم الحق بأن يقولوا ان المبصرين لا يرون الألوان وأن الألوان لا توجد أبداً»[١٤] .

ومن الراجح ان المساهمة الأكثر عبقرية للبوذا كانت في ترتيبه لطريقة للتأمل نجح فيها بادخال الممارسات التنسكية والتقنيات اليوجية لقواعد مميزة للمعرفة ، وقد صُدِّق هذا ايضا بالفعل الذي كان البوذا قد منحه قيمة مساوية للتنسك - التأملي من نوع يوجي ولمعقولية المبدأ . الا أنه ، كما توجبَ الانتظار في هذا الشأن ، فإن الطريقين ، اللذين يناسبان بوجه آخر اتجاهين متنافرين للنفس ، لم يُطوعا الا فيما ندر من قبل ذات الشخص . ومنذ وقت قريب حاولت النصوص الشرعية التي تتوافق معها . « فالنساك المستسلمون للتأمل اليوجي « جهين » يلومون النساك الذين يرتبطون بالمبدأ « الـ دهمايوجا » وبالعكس . ويتوجب عليهم ، على العكس من هذا ان يقيّم بعضهم الآخر . وفي الواقع إن الأشخاص الذين يمضون وقتهم ملامسين مع جسدهم (أي : محققين ، ومجربين) العنصر الخالد (أي النيرفانا) هم نادرون جداً . كذلك فإن الذين يرون الحقيقة العميقة باختراقها بواسطة البراجانا (بالعقل) هم نادرون ايضاً[١٥].

ان كافة الحقائق المكتشفة من قبل البوذا يجب لها ان تكون «محققة» على الطريقة اليوجية ، أي متأملة ، «ومجربة» . ولهذا فإن اناندا ، التلميذ المفضل للمعلم ، مع كونه لا مثيل له بالنسبة لمعرفة المذهب ، قد استثني من المجمع الديني le Concile (ف ١٨٥ ع) : لأنه لم يكن «أرهات» ، أي لم يكن عنده تجربة (يوجية) كاملة . وهنالك نص شهير من الساميولا [٢ - ١١٥] يضع وجها لوجه موزيلا دنارادا ، كل واحد منهما ممثلاً درجة ما من الكمال البوذي ، والاثنان يحوزان ذات المعرفة ، ولكن نارادا لم يعتبر ارهات أبداً ، منظور إليه بأنه لم يحقق تجريبيا «التماس مع النيرفانا»[١٦] . وان هذا التفرع الثنائي استمر ، وبتزايد طوال

تاريخ البوذية . وقد أكد بعض الأحبار بذاتهم ان الحكمة (براجنا) قادرة لتضمن لنفسها وحدها اكتساب النيرفانا . وبدون ان يكون هنالك حاجة لاستدعاء تجارب يوجية . ويظن ان في هذه العظة «لقديس جاف» ، وناج بالحكمة براجنا ، اتجاه «ضد الصوفية» وربما مقاومة «الميتافيزيكيين» ضد المبالغات اليوجية .

ويضاف الى ذلك بأن الطريق للنيرفانا ـ تماما كما في اليوجا التقليدية ، الطريق للسمادهي ـ يؤدي لحيازة قوى خارقة (سيدهي بالي ، ايدهي) . وقد كان هذا طرح لبوذا (كما لباتنجالي فيما بعد) مسألة جديدة . فمن جهة ، لأن «القوى» هي لا محالة مكتسبة اثناء الممارسة وهي تشكل ، لهذا السبب نفسه ، علامات دقيقة حول النشاط الروحي للناسك : انها حجة على ان هذا هو على أهبة «التحلل من الشرط» ، وانه علق قوانين الطبيعة التي كان سحق بها في الدوامة . ولكن القوى ، من جهة اخرى هي خطرة بشكل مزدوج ، لأنها تختبر البهيكهو مع «سلطة سحرية للعالم» عابثة وتخاطر اضافة لذلك بخلق اختلاطات بين المدنسات .

إن «القوى الخارقة» تشكل جزءاً من خمسة أصناف من العلوم العليا (أبهيجنا) هي : ١) سيدهي ٢) العين الالهية ٣) الاذن الالهية ٤) معرفة فكر الغير ٥) ذكرى الوجودات السابقة) . وان أي واحدة من هذه الابهيجنا الخمسة لا تختلف عن «القوى» القابلة للحصول عليها من قبل اليوجيين الغير بوذيين . وفي الديجهانيكايا [١ ، ٧٨] يؤكد البوذا ان البهيكهو في تأمله قادر لأن يتعدد ، ولأن يصبح غير مرئي ، ولأن يخترق الأرض الصلبة ، ولأن يمشي على الماء ، ويطير في السماء ، أو أن يسمع اصواتاً سماوية ، وان يعرف أفكار الغير ، وأن يعيد تذكر وجوداته السابقة ، بيد أنه لا ينسى أن يضيف ان حيازة هذه «القوى» تخاطر بحرف الناسك عن قصده الحقيقي ، النيرفانا . اضافة لذلك ، فإن عرض مثل هذه «القوى» لم يكن يخدم البتة انتشار السلامة ، وبعض اليوجيين والوجديين استطاع اجراء ذات الخوارق ، وماهو اكثر من ذلك ان الدنيويين ، اعتقدوا ان ذلك يتعلق بالسحر بكل بساطة . ولهذا فإن البوذا كان قد منع بحزم عرض «القوى الخارقة» امام اللامتدينين .

اذا أخذنا في الحسبان تحول الشعور الدنيوي المتحصل من قبل البهيكهو ، والتجارب الخارقة اليوجية وماقبل علم النفس التي ينجزها ، ندرك مدى التشويش ، والترددات لا بل التناقضات في النصوص القانونية فيما يتعلق بطبيعة «النيرفانا» و «حالة» المتحرر . ولقد نوقش كثيراً من أجل معرفة ما اذا كانت طريقة تكون «المنرفن» تعادل الاستئصال الكلي ، أو الوجود الطوباوي التالي الذي لا يوصف . لقد قارن البوذا الحصول على النيرفانا باطفاء شعلة . ولكنه لوحظ ، بالنسبة للفكر الهندي ، ان اطفاء النار لا يعني زوالها ، وانما العودة لحالة كمون (بالقوة)[١٧] . ومن جهة اخرى اذا كانت النيرفانا هي المطلقة او الغير مشروطة بامتياز ، فإنها تفارق ليس البنى الكونية فحسب ، بل اصناف المعرفة ايضا . وفي هذه الحالة يمكن الجزم بأن «المنرفن» Nirvané لم يوجد بعد «اذا فهمنا الوجود كطريقة للتكون في العالم» ولكنه يمكن التأكيد أيضاً انه «يوجد» في نيرفانا ، في المطلق أي في طريقة تكوّن من المستحيل تخيلها . ان البوذا قد ترك فعلاً هذه المسألة مفتوحة ، لأنهم وحدهم الذين يوضعون في الطريق la voie والذين حققوا ، على الأقل بعض الممارسات اليوجية ، والذين هم بعناية متنورون بالبراجنا ، وحدهم يعتبرون انه مع تحول الشعور ، والبنى الشفهية وبنى الأفكار قد فنوا . وعندئذ نصل الى مستوى متنافي ، ومتناقض بوضوح ، حيث يتحد الكائن مع اللاكائن ، ويمكن بالنتيجة التأكيد في آن واحد على أن الذات توجد أو أنها لا توجد أبداً ، وان الخلاص هو الاستئصال وفي ذات الوقت هو غبطة . وفي معنى آخر ، ورغم الخلافات بين السمخيا ـ يوجا وبين البوذية ، يمكن مقارنة (المنرفن) بالجيفان موكتا «الناجي في الحياة» (ف ١٤٦ ع) .

وعلى ذلك تقتضي الاشارة الى ان التشابه بين النيرفانا والتصاعد المطلق للكوزموس ، أي فنائه ، هو أيضاً قد اشتهر بالعديد من الصور والرموز . ولقد اشرنا سابقاً إلى الرمزية الكونية والمؤقتة للخطوات السبعة لبوذا (ف ١٤٧ع)

ويحسن أن نضيف المثل عن «البيضة المكسورة» المستعمل من قبل بوذا ليعلن انه كسر دولاب الوجودات (سمسارا)، وبعبارة اخرى انه صعّد كذلك الكون كما صعد الزمن الدوري . وليس أقل من ذلك استعراضية صور، «تهديم المنزل» من قبل البوذا و «السقف المتشقق» من قبل الأرهات، صور تترجم فناء العالم المشروط[١٨] . وعندما يعاد التذكير بأهمية المشابهة (كون - بيت - جسم بشري) بالنسبة للفكر الهندي (وبصورة عامة بالنسبة للفكر التقليدي «القديم» تقاس الثورية الجديدة للموضوع المطروح من قبل البوذا . فللمثل الأعلى القديم من «الاقامة في منزل ثابت» (بمعنى اعتلاء مركز وجودي في كون كامل)، أقام البوذا نقيضاً وهو المثل الأعلى للنخبة الروحية التي كانت معاصرة : فناء العالم وتصاعد كل «حالة» مشروطة .

ومع ذلك فإن البوذا لا يدعي أبداً أنه يبشر بمبدأ «أصلي» . إنه يكرر في الكثير من المناسبات انه اتبع «الطريق القديم» والمبدأ الترجيعي «أكاليكو» الموزع من قبل «القديسين» و «المتيقظين الكاملين» من العصور الماضية[١٩] . وهذه كانت طريقة أخرى للاشارة الى الحقيقة «الأبدية» وعالمية رسالته .

حواشي الفصل التاسع عشر

١ ـ التعليم الديني البوذي قد ميز الدوكها بصفتها معاناة عادية ، وبصفتها معاناة مسببة بالتغير وبصفته لحالة مشروطة . ولكن وبما ان كل شيء هو مشروط ، فهو اذن دوكها .

٢ ـ النصوص ذكرها راهولا ص ٤١

٣ ـ مثلا الكلام الصحيح يعني غياب الكذب ، الغيبة ، النميمة ، وكل كلام فظ ، وشتيمة أو غير مؤدب وأخيراً الثرثرة . ان قاعدة النشاط الصحيح تمنع على البوذي ان يهدم الحياة وان يسرق وان يحصل على علاقات جنسية غير شرعية» . . وطريقة الحياة الصحيحة تستبعد المهن المضرة بالآخرين) .

٤ ـ ماجهيمانيكايا . ١ ـ ١٣٨

٥ ـ ٦ ماجهيمانيكايا ـ ص ١٠٨ ـ ٤٠٩

٧ ـ من جهة اخرى فإن البوجالا فادان ذاتهم كانوا قد تقربوا من خصومهم بطرحهم تعريفاً متناقضاً للشخصية : «خطأ ان البيدجالا هو ذات الشيء للسكاندها ، ومن الخطأ انها تختلف عن السكاندها» ومن جهة اخرى فإن انصار dze agragach انتهوا بتحويل الشخصية الى مجموعة (سامنانا) للأسباب والغايات حيث ان الوحدة ، مع كونها متحركة فهي غير منقطعة . الأمر الذي يجعلها مماثلة للروح ، وسيعاد هذان الشرحان من قبل المدارس التالية ، الا انه في تاريخ الفكر البوذي ، فإن المستقبل ينتمي لمناصري الروح . مع ذلك فإن المدارس الوحيدة التي نملك الكتابات عنها والتي نعرف ان نعلم بشكل افضل النيراتاميا ، انظر nallée- ponnan النيرفانا ص ٦٦

٨ ـ انجوتارا ـ ٢٠٦ وغيرها . . نصوص ذكرها فاليه بوسان «ان من لا يجد السعادة والفرح والنور في داخله ، يوجده اليوجي مع براهمان ويدرك النيرفانا التي لبراهمانا» ونص بوذي آخر يصف القديس الناجي (عن هذا الناسك اقول انه لا يمضي للشرق ولا للجنوب ولا

للغرب [...] منذ هذه الحياة ، هو منفصل ، منزفن ، مجرد ، موحد مع براهمان) .

١٠ - في الواقع ان الشارح س - فازيلي يستخرج من التأمل على الاشارات الجسدية النتيجة التالية) «لايقولون ان هذه وحدة حية تمشي ، وحدة حية ترتاح ، ولكن هل يوجد فعلاً وحدة حية تمشي أو ترتاح ؟ لايوجد» أما بالنسبة للشهيق والزفير فإن البهيكهو اكتشف انها مثبتة على المادة ، والمادة هي الجسم المادي ، هي العناصر الاربعة . الخ .

١١ - dighe ١ - ١٨٢ - مهما كانت النجاحات الخارجية للبهيكهو فإن الجهات الاربع تؤله المادة ولادة بين الآلهة الذين هم دوماً غارقون في هذه التأملات .

١٢ - sandiduva القرن ٧ ق.م

١٣ - نذكر بالثمانية تحررات والثمانية تمرينات تطويعية

١٤ - ساجها مبهادرا - ذكرها فاليه بوسان ص ٧٣ - ٥٤ (لايمكن القول ان شيئاً لا يوجد لأن الجهلة لا يبصرونه» .

١٥ - الكوتارا ص ١٧٨

١٦ - ر . اليوجا - م . اليام - ص ١٩١

١٨ - انظر النصوص المذكورة في صور ورموز ص ١٠٠ و «كسر سقف البيت» باسيم .

١٩ - «لقد رأيت الطريق الموغل في القدم ، الطريق القديم المبني من قبل كافة المتيقظين الكاملين للزمن . هاهو المسلك الذي ادى اتباعه» [سميوتا - نيكاجا ٢ - ١٠٦] .

وفي الواقع «الذين ، في ازمنة مرت ، كانوا قديسين ، ومتيقظين كاملين ، كل هذه الكائنات السامية قادوا بحق تلامذتهم نحو مثل هذه الغاية ، وبالطريقة التي هم اليوم بالتأكيد يقادون فيها للتلامذة من قبل ، وأولئك الذين ، في الأزمنة المقبلة سيصبحبون قديسين ومتيقظين كاملين ، كل هذه الكائنات السامية لن تهمل ابداً قيادة تلامذتها فعلاً ، بالطريقة التي هم فعلاً يقودون التلامذة من قبلي بالذات» [ما جـ . ٢ - ٣٠٤] .

الفصل العشرون

الديانة الرومانية : من الأصول إلى ادعاءات الباشاناليين ١٠٨٦ ق.م

١٦١ - رومولوس والضحية القربانية

حسب المؤرخين القدامى ، كان بناء روما نحو ٧٥٤ ق.م ، وتؤكد الاكتشافات الحفرية صحة هذا القول: فموقع اوربس Urbes بدىء بسكناه منذ منتصف القرن الثامن . ان اسطورة بناء روما والخرافات حول الملوك الأول هي بشكل خاص هامة لمعرفة الديانة الرومانية ، ولكن هذه القيمة الميتولوجية تعكس كذلك بعض الحقائق الاتنوغرافية والاجتماعية . إن الاحداث الخرافية التي تتصدر ولادة روما تبرز : ١) من حشد من الهاربين من مختلف الأصول و ٢) من ادماج جماعتين عرقيتين متميزتين جداً ، وعليه ، فإن الاتنية اللاتينية ، حيث خرج الشعب الروماني ، هي الحصيلة لخليط بين السكان النيوليتيك من السكان

الأصليين والغزاة الهندو- اوروبيين النازلين من بلاد مابين الألب . وهذه التركيبة الأولى تشكل النموذج المثالي للقومية وللثقافة الرومانية . وفي الواقع إن عملية التمثيل والتكامل الإثني الثقافي والديني قد استمر حتى نهاية الامبراطورية .

وحسب التقليد المنتقل عن طريق المؤرخين ، فإن نوميتور Numitor ملك الألب ، قد عزل من قبل أخيه أميلوس Amulios . وبهدف تدعيم حكمه فإن اميليوس ذبح ابن نوميتور والزم شقيقتها رياسيلفيا Rhea Sylvia لتصبح كاهنة الألهة فيستالا Vistale . غير ان سيلفيا وجدت نفسها حاملا من افعال مارس Mars وولدت ولدين ، روميلوس وروموس . وقد وضعتهما على نهر التيبر ، وقد التقط التوأمان ، اللذان تغذيا باعجوبة بلبن ذئبة ، بعد فترة ، من قبل راعٍ وربيا من قبل زوجته . وعندما بلغا مبلغ الرجال ، عرف روموس وروميلوس من قبل جدهما و ، بعد ان ازاحا الغاصب ، اعادا نوميتور الى العرش . ومع ذلك تركا الألب وقررا بناء مدينة على الموضع ذاته حيث أمضيا طفولتهما . ولكي يشاورا الألهة ، اختار روميلوس البالاتان le palatian في حين أن روموس ، استقر على هضبة افنتان l'Aventin إن روموس هو الذي تلقى أول اشارة فألية : طيران ستة عقبان . ولكن روميلوس رأى اثني عشر وإليه يرجع شرف بناء المدينة ، فقد رسم بسكة الفلاحة خطا حول (بالاتان) : التراب الملقى كان يمثل الأسوار ، وخط الفلاحة كان يرمز للخندق وقد رفعت السكة لتدل على موضع الأبواب المقبلة . وازدراء بالألفاظ الشاذة لأخيه اجتاز روموس بقفزة واحدة السور والخندق ، عندها انقض عليه رومولوس وضربه على رأسه صارخا : «هكذا سيقضى في المستقبل على كل من تسول له نفسه اجتياز اسواري»[١] .

ان الخاصية الميتولوجية لهذا التقليد بارزة . ففيها نجد النغمة لوضعية المولود الجديد في اساطير (سرجون) و (موسى) و (سيروس) والأشخاص الآخرين المشهورين (٥٨٥ ـ ١٠٥ عع) . وان الذئبة المرسلة من قبل مارس لترضع التوأمين تنبىء بالنزعة الحربية للرومان . وان العرض والارضاع من قبل انثى حيوان كاسر يشكل التجربة المسارية الأولى التي يتوجب على ابطال المستقبل التغلب عليها . لقد أتبعت بتدريب المراهق الجاهل لهويته بين أقوام فقيرة وخشنة (على سبيل المثال

سيروس) . ان نغمة «الأخوين (التوأمين) الأعداء» كنغمة ازاحة العم (أو الجد) ، تعرفان كذلك انتشاراً واسعاً . أما بالنسبة لطقوسية انشاء المدينة بخط فلاحة فقد اشرنا الى موازيات لها في العديد من الثقافات . (بالمقابل فإن مدينة عدوة كانت تزال طقوسيا عند كانت تخرب أسوارها ويرسم خط فلاحة حول الانقاض)[٢] . وكما في تقاليد أخرى ، فإن بناء مدينة يمثل ، في الواقع ، التكرار لنشكونية . وان أضحية روموس تعكس الأضحية النشكونية الأولية من نموذج بيروشا ، يميــروبان ـ كو (ف ٧٥٠ع) ان ذبح روموس على موقع روما يؤكد المستقبل السعيد للمدينة ، أي الولادة لشعب روماني ولمجيء رومولوس للحكم[٣] .

من الصعب التحديد بدقة لتاريخية ، وبخاصة ، لتحولات هذا التقليد الميتولوجي قبل ان يسجل من قبل المؤرخين . فقدمها لا يمكن انكاره وقد ابرزنا بعض المشابهات مع النشكونية الهندو- اوروبية[٤] . وابرز مايبدو هنا الانعكاس لهذه الاسطورة في الضمير الروماني . «فمن هذه الاضحية الدموية الأولى التي قدمت لآلهة روما ، سيحتفظ الشعب دوما بذكرى مروعة . فبعد البناء باكثر من سبعمائة سنة سيعتبرها هوراس ايضا كنوع من خطأ بدئي يتوجب بالضرورة لنتائجه اثارة خسارة المدينة بدفع ابنائها للتذابح فيما بينهم . وفي كل فترة حرجة من تاريخها ستتساءل روما بألم ، معتقدة بشعور وطأة اللعنة عليها . واضافة لهذا أنها في نشأتها لم تكن بسلام مع الناس ، ولم تكن بسلام مع الآلهة . وهذا القلق الديني سينيخ بكلكله على مصيرها»[٥] .

١٦٢ - «تأريخ» الأساطير الهندو- اوروبية

تروى التقاليد عن سكنى المدينة من قبل الرعاة في الاقليم ، ومن ثم من قبل اللصوص والمتشردين من اللاتيوم . ومن أجل الحصول على نساء ، استعمل رومولوس حيلة : اثناء العيد الذي جذب اليه العائلات من المدن المجاورة ،

انقض رفاقه على الشابات السابينات sabines وجروهن الى منازلهم . وامتدت الحرب التي تفجرت بين السابيين والرومان دون أي حسم عسكري ، حتى اللحظة التي توسطت فيها النسوة بين اقاربهن ومغتصبيهن . وان الصلح أدى بعدد من السابيين للاستقرار في المدينة . وبعد أن نظم رومولوس البنية السياسية ، بانشاء السيناتور ، وجمعية الشعب اختفى اثناء عاصفة هوجاء فأعلنه الشعب اليها . وبالرغم من جريمته بقتل الأخ ، فإن صورة رومولوس ، أصبحت وبقيت مثالا في ضمير الرومان : لقد كان في آن واحد مؤسساً ومشرعاً . وقد كرس السابي الأول نوما Numa نفسه لتنظيم المؤسسات الدينية ، وقد تميز بصورة خاصة بتكريم الضمير الطيبة Fide piblica ، ربة تحكم كذلك العلاقات بين الافراد اضافة للعلاقات الدولية . ومن بين الملوك الذين خلفوه ، كان الأكثر شهرة السادس سيرفيوس توليوس ، الذي يرتبط اسمه باعادة تنظيم المجتمع الروماني ، وبالاصلاحات الادارية وتضخم المدينة .

ولطالما نوقشت صحة هذا التقليد ، الذي يقرر العديد من الحوادث الاسطورية ، منذ انشاء روما حتى سقوط آخر ملك ، الاتروسكي ثار كان المعظم ، والاحتفال بالجمهورية . ومن الراجح جداً ، ان ذكريات عدد من الشخصيات والأحداث التاريخية ، التي سبق تحويرها باندفاعات الذاكرة الجماعية ، قد فسرت ونظمت توافقاً مع مفهوم عمل مؤرخين خاص . وقد اظهر جورج دوميزيل في أي معنى أضفى الرومان الصفة التاريخية على كبرى التعبيرات من الميتولوجيا الهندو ـ اوروبية (ف ٦٣ع) ، وإلى أية نقطة يمكن القول عن أقدم ميتولوجيا رومانية ، والعائدة لما قبل التأثيرات الأتروسكية والاغريقية ، حيث تبدو مموهة في الكتابين الأولين لتيت ـ ليف .

وهكذا ، وبخصوص الحرب بين الرومان والسابين ، فإن دوميزيل يلاحظ التناسب المدهش مع مشهد مركزي للميتولوجيا السكاندينافية ، وبخاصة النزاع بين شعبين لآلهة الأزس والفانس . فالأولون تجمعوا حول اوذين Othin وتهور Thorr . واوذين ، رئيسهم ، هو الاله ـ الملك ـ الساحر ، وتهور ، الاله ذو المطرقة ، هو البطل السماوي الكبير . وعلى العكس فإن الفانس هي آلهة الخصب

والثروة . وان الفانس قاومت بثبات هجمات الأذس ، ولكنه كما يقول سنوري ستورلوسون Snorri sturluson «تارةانتصر بعضهم، وتارة انتصر البعض الآخر» . وقد عقد الأذس والفانس الصلح بعد أن تعبوا من هذا التناوب المكلف كثيراً لنصف نجاح : فاستقر الآلهة الفانس الاساسيون لدى الأذس ، مكملين بهذه الطريقة ، وبالخصب والثروة التي يمثلونها ، الضعف من الآلهة المتجمعة حول أوزين . وهكذا اكتمل دمج الشعبين الالهيين ، ولم يحدث بعده نزاع آخر بين الأذس والفانس (ف ١٧٤ع) .

ويبرز جورج ديميزيل المشابهات مع الحرب بين الرومان والسابيين . فمن جهة ، إن رومولوس ابن مارس والمحمي من قبل جوبيتر ، ورفاقه ، محاربون اشداء ولكنهم فقراء وبدون نساء ، ومن جهة أخرى ، ان تاتيوس والسابيين ، متصفون بالغني والخصب «لامتلاكهم نساء» . فهذان الطرفان هما في الواقع متكاملان وان الحرب لن تنتهي مطلقاً نتيجة انتصار ، وانما بفضل مبادرة الزوجات . أما وقد تصالحوا فإن السابيين قرروا الاندماج مع رفاق رومولوس ، حاملين لهم الثروة . وأصبح الملكان متحدين ، فأسسا العقائد : رومولوس لجوبيتر وحده ، وتاتيوس للآلهة ذات العلاقة مع الخصوبة والأرض ، ومن بينهم يظهر كويرينوس . «لن يسمع كلام مطلقاً عن انفصام بين التركيبة السابينية والتركيبة اللاتينية ، والالبينية والروميلية لروما ، لا تحت هذا الحكم المزدوج ولا فيما بعد ، وان المجتمع اصبح كاملا»[٦] .

صحيح ، إنه من الممكن ، كما يعتقد عدد من العلماء ، ان هذه الحرب التي انتهت بصلح تعكس إحدى الحقائق التاريخية ، وبدقة المزج بين «السكان الأصليين» والفاتحين والهندو- اوروبيين[٧] . ولكن مما له دلالته ان «الاحداث التاريخية» ، كان يعاد التفكير فيها ويعاد تنظيمها تبعاً لمخطط ميتولوجي خاص بالمجتمعات الهندو- اوروبية . ان التناظر المدهش بين مشهد ميتولوجي اسكنديناڤي واسطورة تاريخية رومانية يتكشف معناه العميق عندما نتفحص جملة التراث الهندو- اوروبي لروما . ولنتذكر بدئيا ان اقدم تثليث روماني - جوبيتر- مارس - كويرينوس - يعبر عن الايديولوجيا التثليثية التي تأكدت لدى شعوب

هندو ـ اوروبية اخرى ، أي : الوظيفة للسيادة السحرية والقانونية (جوبيتر ، فارونا وميترا ، اوذين) ، الوظيفة لآلهة القوة الحربية (مارس ـ اندرا ، تهور) وأخيراً الوظيفة لآلهة الخصب والوفرة الاقتصادية (كويرينوس ، التوأمان نازاتيا ، وفريتير) . ان هذا التثليث الوظيفي يشكل النموذج المثالي للتقسيم الثلاثي للمجتمعات الهندو اوروبية لثلاث طبقات : كهنة ، محاربون ومربو حيوانات ـ مزارعون (براهمانا ، كزاتريا وفيزيا اذا شئنا ان لا نذكر سوى المثال الهندي) (ف ٦٣ ع) . وقد تهشم التثليث الاجتماعي في روما بسرعة ، ولكنه يمكن كشف رموز الذكرى في التقليد الخرافي للقبائل الثلاثة .

مع ذلك ، فإن الجوهري من التراث الهندو ـ اوروبي قد حوفظ عليه تحت شكل اعطيت له صفة تاريخية بقوة . إن الاتجاهين المتكاملين للوظيفة الأولى ـ سيادة سحرية وسيادة قانونية ، البارزان بالزوج فارونا ـ ميترا ـ يصادفان لدى مؤسسي روما : رومولوس وتاتيوس . فالأول ، نصف اله ، عنيف وهو محمي من قبل جوبيتر فيريتريوس ، والثاني متزن وعاقل مؤسس للمقدسات والشرائع ، هو العابد لفايديس بوبليكا Fides publica وقد تلاهما او تبعهما ملك محارب حصرا هو توليوس هوستيليوس ثم انكوس مارسيوس ، الذي فتحت المدينة في عهده للثروة والتجارة إلى مدى بعيد[٨] . وبالاجمال ، فإن الممثلين الالهيين للوظائف الثلاثة مسخوا في «شخصيات تاريخية» ، وبدقة في سلسلة ملوك الرومان الأوائل . وان الصيغة التراتبية الأصلية ـ التثليث الالهي ـ قد عبر عنها بمصطلحات مؤقتة ، كإرث تاريخي للأشخاص .

وقد عرض ج . ديميزيل أمثلة أخرى من إضفاء الصفة التاريخية على الأساطير الهندو ـ اوروبية في روما ، ويذكر منها : انتصار هوراس الثالث على الثلاثي كورياس ، الذي نقل نصر اندرا وتريتا على التريسفال Tricephale (ذات الثلاثة رؤوس) أو خرافة المشوَّهين ، كوكليس وسكيفولا («السايكلوب» والـ «جوشير») وموازيها في الزوج الاله الأعور والاله مانشو للاسكندنافيين ، اي اوذين وتهور[٩] .

إن نتائج هذه البحوث المقارنة هي ذات نتيجة كبيرة . انها تظهر بدئيا ان أصول الديانة الرومانية لا يجوز ان يبحث عنها في المعتقدات من نوع «بدائي»[١٠] ، لأن الايديولوجيا الهند - اوروبية كانت ايضاً مؤثرة في عصر تكون الشعب الروماني . وان هذا التراث لا يشمل ميتولوجيا وتقنية طقوسية مميزة فحسب ، بل ايضا ميتولوجيا متماسكة ومصاغة بوضوح : ويكفي ان نقرأ التحليلات التي اجراها ديميزيل لكلمات maiestas, gravitas , mas, augur, augustus الخ . . حتى يتضح هذا[١١] .

إن تأرخة l'historicisation العبارات الميتولـوجية والسينـاريوهـات الاسطورية - الطقوسية الهندو اوروبية هام ايضا لسبب آخر . فهذه العملية تكشف واحدة من الملامح المميزة للعبقرية الدينية الرومانية ، وبخاصة اتجاهها اللاماورائي ودلالتها الواقعية . وفي الواقع ، يصدم المرء بالاهتمام المثير ، والديني ، للرومان ، بالنسبة للحقائق المباشرة للحياة الكونية والتاريخ ، وبالأهمية البارزة التي يعطونها للظواهر الغريبة (المعتبرة لحد ما بشائر) ، وبخاصة بالثقة البالغة بقوة الشعائر .

واجمالا ، فإن استمرار حياة التراث الميتولوجي الهندو- اوروبي المقنع في التاريخ الأكثر قدما للمدينة ، يشكل بذاته ابداعاً دينياً قابلاً لأن يكشف لنا البنية المميزة للتدين الروماني .

١٦٣ - الخصائص المميزة للتدين الروماني

إن الترتيب اللاماورائي amétaphysique والاهتمام اليقظ جداً (من طبيعة دينية !) بالنسبة لحقائق الأشياء المباشرة ، كونية أو تاريخية يظهر في وقت مبكر في موقف الرومان تجاه الأشياء الغير مألوفة ، عوارض أو تجديدات . فبالنسبة للرومان كما هو بالنسبة للمجتمعات الريفية بصورة عامة ، كان المعيار المثالي يظهر في نظامية الدورة السنوية ، وفي التتابع المنتظم للفصول . فكل تجديد جذري

كان يعادل المس بالقاعدة ، وهو في آخر لحظة ، يستدعي الخطر بالعودة إلى العماء (ف ٢٥ ع مفهوم مماثل في مصر القديمة) ، وعلى مايبدو ، ان كل ظاهرة غير مألوفة ـ معجزات ـ ظواهر طبيعة شاذة ، (ولادة مسوخ ، امطار من حجارة ، الخ) ـ كانت تنبىء بأزمة في العلاقات بين الآلهة والبشر . وكانت المعجزات تثير الانزعاج ، لا بل الغضب ضد الآلهة ، وكانت الظواهر الشاذة تعادل مظاهر لغزية للآلهة ، وهي من بعض وجهات النظر ، كانت تشكل «ظهورات سلبية» .

إن يهوه ، هو ايضا ، قد اعلن عن مقاصده بواسطة ظواهر كونية واحداث تاريخية : لم يتوقف الانبياء عن تفسيرها ، مشيرين الى التهديدات المرعبة التي تفوه بها (ف ١١٦ ع) . وبالنسبة للرومان ، فإن المعنى الدقيق للمعجزات لم يكن واضحاً ، فتوجب حل رموزها من قبل المختصين بالعبادة . وان هذا يفسر الأهمية المعتبرة للتقنيات التنبؤية والاحترام ، المقرون بالخوف ، الذي تمتع به العرّافون الاوتروسك les haruspices étrusques وفيما بعد ، الكتب سيبللين les Livres sibyllin ومجموعات أخرى تنبؤية . وكانت الكهانة تقوم على تفسير نبوءات بصرية auspicia أو سمعية omine وكان كبار القضاة والرؤساء العسكريون وحدهم مجازين في شرحها . ولكن الرومان احتفظوا لأنفسهم بحق رفض النبوءات [ر . inter abia ، شيشرون ، التنبؤ ١ ـ ٢٩] . وان أحد القناصل الذي كان كذلك عرافاً augure كان يحمل في محفة مغلقة ، بهدف ان لا يعرف الاشارات التي يمكن لها أن تعاكس مخططاته [التنبؤ ـ شيشرون ١١ ـ ٧٧] وعندما كانت تكتشف دلالة المعجزة ، كانت تجري تطهيرات وطقوس أخرى من التطهير ، لأن هذه «الظهورات السلبية» قد أعلنت عن وجود دنس ، وكان يقتضي له أن يدفع بعناية .

وللوهلة الأولى ، يمكن تفسير الخوف اللامحدود من الأعاجيب ومن العيوب وكأنه رهبة متولدة عن التطير . ومع ذلك فهو يتعلق بنوع خاص بالتجربة الدينية . لأنه عبر مثل هذه المظاهر المشينة يقوم الحوار بين الآلهة والبشر . وهذا الموقف تجاه المقدس هو النتيجة المباشرة للتقييم الديني للحقائق الطبيعية ، وللنشاطات البشرية وللأحداث التاريخية ، واجمالاً للمحسوس والخاص والمباشر .

وان تعدد الطقوس يشكل مظهراً آخر من هذا السلوك . فبما أن الارادة الالهية تظهر ذاتها في الحال ، في سلسلة غير محدودة من الأمّارات والحوادث المشينة ، يقتضي معرفة أية شعيرة أو أيَ طقس سيكون الأكثر فعّالية ، إن الضرورة 'المعرفة للمظاهر المميزة لكل الهويات الالهية ، حتى في تفصيلاتها ، شجعت عملية معقدة للتشخيص . وان التجليات المتعددة للألوهية ، وكذلك وظائفها المختلفة ، ترمي لأن تتميز بصفتها «اشخاصاً» مستقلة .

وفي بعض الأحوال لا تصل هذه التشخيصات أبداً لتبرز صورة إلهية حقيقية . إنها تستدعي الواحدة بعد الأخرى وإنما دائما في مجموعة . وهكذا ، على سبيل المثال ، ينتشر النشاط الزراعي تحت علامة عدد من الهويات entiteé تحكم كل واحدة منها فترة خاصة ـ من قلب الأرض المستريحة ، ومن الفلاحة بخطوط كبرى ، وحتى الحصاد والنقل بالطنابر والتخزين . وبذات الأمر ، وكما كان يذكٍر به بدعابة ، القديس اوغسطين [مدينة الله ٧ ـ ٣] ، كان يجري استدعاء فاتيكانوس وفابولينوس لمساعدة الطفل الوليد ليصرخ ، وليتكلم ، وكان يجري استدعاء ايدوكا وبولينا لمساعدته كي يأكل ويشرب ، وابيونا لتعلمه المشي ، وهكذا دواليك . غير ان هذه الهويَّات entités الما فوق الطبيعية كانت تستحضر فقط لعلاقاتها بالأعمال الزراعية والعبادة الخاصة . وهي تفتقد شخصية واقعية و «قدرتها» لا تتجاوز المنطقة المحددة لعملها(١٢) . وهذه (الهويات) لا تشارك ، مورفولوجيا ، في شرط الآلهة .

ان التصور الميتولوجي الضعيف للرومان وعدم مبالاتهم تجاه الميتافيزيك ، هما متوازنان ، وسنرى هذا من اهتمامهم الشغوف بالمحسوس ، والخاص ، والمباشر . وان العبقرية الدينية الرومانية تتميز بالبراغماتية ، وبالبحث عن الفاعلية ، وبخاصة التقديس للجماعات العضوية : اسرة ، شعب ، وطن . وإن الانتظام discipline الروماني الشهير ، الوفاء بالارتباطات (فايدس fides)(١٣) . والاخلاص للدولة ، والاحترام الديني للقانون ، تترجم بانتقاص الشخصية الانسانية : الفرد يحتسب في المعيار الذي كان ينتمي فيه لجماعته . وليس الا بعد زمن متأخر وتحت تأثير الفلسفة الاغريقية والمعتقدات الشرقية

للخلاص ، أن اكتشف الرومان الأهمية الدينية للشخص ، ولكن هذا الاكتشاف الذي ستكون له نتائج بارزة [ف ٢٠٦ع] قد مس بخاصة ، السكان المدنيين .

ان الخاصية الاجتماعية للتدين الروماني[١٤] ، وفي المحل الأول ، الأهمية المعطاة للعلاقات مع الغير ، قد عبّر عنها بوضوح بالمصطلح بيتاس pietas فرغم علاقاتها مع الفعل بيار piare (هدّأ ، ازال دناسة ، فأل سيء الخ) . فإن البيتاس la pietas تعني (المراقبة المتشككة للطقوس ، بل وايضا الاحترام للعلاقات الطبيعية (أي المنظمة حسب القاعدة) بين الكائنات البشرية . فبالنسبة للولد ، تتكون البيتاس باطاعته لوالده ، وعدم الطاعة يعادل تصرفاً مخزياً ، ضد النظام الطبيعي ، وعلى المجرم ان يكفر عن هذا الدنس بموته الخاص . وإلى جانب البيتاس نحو الآلهة ، يوجد البيتاس نحو اعضاء الجماعات التي تنتمي إليها ، ونحو المدينة ، وأخيراً نحو كل الكائنات البشرية . ان «حق الشعوب droit de gens ـ jus gentum كان يفرض الواجبات حتى تجاه الغرباء . وهذا المفهوم يتفتح كليا «تحت تأثير الفلسفة الهيللينية عندما انتشر بوضوح مفهوم الانسانيةhumanistas اي الفكرة بأن واقعة الانتماء وحدها للجنس البشري كانت تشكل قرابة حقيقية ، مشابهة للقرابة التي كانت تصل اعضاء شعب واحد أو مدينة واحدة منشئة واجبات التضامن والمحبة ، أو على الأقل الاحترام[١٥] . إن الايديولوجيات «المغالية في الانسانية humisnitaristes في القرنين ١٨ و ١٩ لم تفعل سوى اعادة تبني وانعاش ، المفهوم الروماني القديم للبيتاس le pietas مع ازالة القداسة عن هذا المفهوم .

١٦٤ ـ العبادة الخاصة : بيناتس ، لارس ، مانيس

حتى نهاية الوثنية ، حافظت العبادة الخاصة ـ الموجهة من قبل رب الاسرة patarfamilias على استقلاليتها وعلى أهميتها الى جانب عبادة عامة ، منجزة من قبل ممتهنين مرتبطين بالدولة . وخلافا للعبادة العامة ، التي تحورت باستمرار فإن

العبادة الاهلية ، المنجزة حول الموقد ، لا تبدو أنها حصلت على تغيير يذكر خلال القرون الاثني عشرة من التاريخ الروماني . وبالتأكيد انه يتعلق ، بنموذج **طقوسي** قديم ، لأنه تأكد لدى شعوب هندو- اوروبية اخرى . وتماما كما في الهند الآرية ، فإن النار الأهلية كانت تشكل مركز العبادة : وكان يقدم إليها اضاحي غذائية يومية وزهور ، ثلاث مرات في الشهر الخ . . . وكانت العبادة توجه إلى بيناتس penates والي لارس Lares وهي تجسيدات اسطورية ـ **شعائرية** للأجساد وللجنيوس genius نوع من حـــامٍ «مضاعف» للفرد . إن الأزمات المتفجرة بالولادة وبالزواج وبالموت كانت تتطلب طقوس مرور متميزة ، محكومة ببعض الأرواح والآلهة الأدنى . وقد ذكرنا آنفا الهويات entités التي كانت تدعى حول الوليد الجديد . وكانت حفلة الزواج الدينية تجري تحت رعاية الآلهة المحلية والأهلية (تيلوس Tellus وبعد ثذسيريس) . ورعاية جينون Junon بصفتها راعية لقسم الزواج ، وكانت تستوجب الأضحيات والدورانات حول الموقد .

إن الشعائر الجنائزية ، المنجزة في تاسع يوم بعد اللحد أو الدفن ، قد تحددت في العبادة النظامية «لاقارب المتوفي»(divi parantes) أو مانسmânes . وقد كرس لها عيدان : البارنتاليا les parentalia في شباط والليموريا les lemuria في أيار . وخلال العيد الأول لم يكن القضاة يحملون شاراتهم . والمعابد كانت مغلقة ، وكانت النيران تطفأ على المذابح ولم تكن تعقد عقود زواج [أوفيد ، فاستي ٢ ـ ٥٣٣ ، ٥٥٧ ـ ٦٧] . وكان الموتى يرجعون الى الأرض ويقتاتون من الطعام على المقابر [ذات المرجع ٢ ـ ٥٦٥ ـ ٧٦] . ولكن البيتاس le pietas بخاصة هو الذي يسكّن الأجداد [انيماس ، بلاكار باترناس . . ذات المرجع ٢ ـ ٥٣٣] . وبما أن شباط كان الشهر الأخير في السنة حسب التقويم الروماني القديم ، فإنه كان يشاطر في شرط الميوعة «العمائية chaotique التي تميز هذه الفترات بين دورتين زمنيتين . ولأن القواعد معلقة ، كان الموتى يستطيعون العودة على الأرض . ودائما في شباط كانت تجري شعيرة اللوبيركاليا Lupercalia (ف ١٦٥ ع) : تطهيرات جماعية كانت تعد للتجديد الشامل ، المرموز اليه بالسنة الجديدة (= اعادة خلق شعائري للعالم)(١٦) .

وخلال الأيام الثلاثة من الليموريا (٩، ١١، ١٣ أيار) كان الأموات يعودون مجدداً وكانوا يزورون منازل اخلافهم . ومن أجل تهدئتهم ومن أجل منعهم من جر بعض الأحياء معهم ، كان رئيس العائلة يملأ فمه بحبات الفول الأسود ، وبلفظه لها كلها ، كان ينطق تسع مرات بهذه العبارة : «بهذه الحبات من الفول ، اشتري نفسي ومن يلوذ بي» واخيراً يحدث ضجة بشيء من البرونز ليخيف الاشباح ويردد تسع مرات «مانس manes آبائي ، اذهبوا من هنا !» [ذات المرجع ٤٢٩ ـ ٤٤٤] . إن الطرد الطقوسي للموتى ، بعد زيارتهم الدورية على الأرض ، هي حفلة منتشرة على نطاق واسع في العالم (ر . الانتستيريا ف . ١٢٣) .

ونشير كذلك الى شعيرة ذات علاقة مع المانس les manes : النذر devotio وهذه الشعيرة وصفها تيت ليف [٨ ـ ٩ ـ ١٠] بتفصيل في معرض وصف معركة ضد السامينت . ان القنصل ديسيوس Decius وقد رأى كتائبه على أهبة الهرب «نذر» حياته من أجل النصر . وردد وهو مقاد من قبل كاهن عبارة شعائرية مستدعيا عدداً كبيراً من الآلهة ومبتدئا مع جانوس ، جوبيتر ، مارس ، كويرينوس ، ومبرما عقداً مع الآلهة مانس والربة تيلوس . وبذات الوقت الذي قدم دوتيوس حياته قدم إلى مانس وإلى الأرض جيوش الاعداء . ان شعيرة النذر توضح مفهوماً قديما من التضحية البشرية بصفتها «قتلاً خلاقا» واجمالاً ، فإنه يتعلق بتحول شعائري من الحياة المضحى بها لفائدة العملية المقصودة ، وهي في حالة دينيوس ، النصر العسكري . لقد استدعي مجمع الآلهة برمته تقريباً ، ولكن النذر للمانس ـ أي التضحية الذاتية من ديثيوس والذبح بالجملة للسامينتين ـ هو الذي انقذ الجيش الروماني .

وتجهل التمثيلات لمملكة الموتى الخاصة بقدامى سكان اللاتيوم ، وتلك التي نقلت إلينا تعكس تأثير المفاهيم الاغريقية والاتروسكية . ومن الراجح جدا ان الميتولوجيا الجنائزية القديمة للاتين كانت قد مددت التقاليد لثقافات نيوليتيكية اوروبية . ومن جهة اخرى ، فان المفاهيم للعالم الآخر المتوازعة بين الطبقات

الزراعية الايطالية قد تغيرت سطحياً بالتأثيرات الخارجية ، اغريقية ، اتروسك ، هيللينية ، وعلى العكس فإن الجحيم المذكورة من قبل فرجيل في النشيد الرابع من الانيادة والرمز الجنائزي للنواويس sarcophages من العصر الامبراطوري ، والمفاهيم الشرقية والفيتاغورية حول البدء ، والخلود السماوي ستصبح جميعها شعبية إلى اقصى الحدود بدءاً من القرن الأول ق.م في روما وفي مدن اخرى من الامبراطورية .

١٦٥ ـ اكليروس ، عرافون وجمعيات أخوية دينية

ان العبادة العامة ، تحت رقابة الدولة ، كانت تتم من قبل عدد من الموظفين والكونفريرات confréries الدينية . ففي زمن الملكية ، كان الملك يحتفظ بالمنصب الأول من التراتبية الكهنوتية : كان ملك القداسة rex sicrosum ومن المؤسف ان المهمات التي كان يحتفل بها معلومة بشكل ناقص . مع ذلك ، يعرف انه قد مورست في الريجيا Regia «منزل الملك» ثلاثة أصناف من الطقوس ، المكرسة لجوبيتر (أوجينون وإلى جانوس) ولمارس ولربة الخصب الزراعي أوبس كونسينا . وهكذا ، فإن دي ميزيل يلاحظ بحق ان منزل الملك كان مكان اللقاء ، وان الملك هو وكيل التوليفة ، والوظائف الثلاثة الأساسية ، التي سنشير اليها ، كانت يُديرها منفصلة كهنة ميورس les flamines maiores ومما يسوغ افتراضه ، انه فيما سلف في العصر ماقبل الروماني ، كان الملك محاطاً بجهاز كهنوتي ، تماما مثل الراجان الفيدي الذي كانت له كنيسته (بيروهيتا) والملك Ri الايرلندي الذي كان له كهنته ses druides . ولكن الديانة الرومانية تتميز بميل نحو التجزئة والتخصص . وخلافاً للهند الفيدية والسلت ، حيث الاكليروس قابل للتبديل وبالنتيجة لتدشين كل حفلة ، فإن كل كاهن وكل مجمع في روما كان له اختصاصه المميز[١٨] .

وبعد الملك يأتي في الترتيب الكهنوتي الـ ١٥ فلامين flamines ، وفي الدرجة الأولى الفلامين الكبار : أولئك الذين ينسبون لجوبيتر (فلامين دياليس)

ولمارس وكويرينوس . واسمهم قريب من السنسكريتي براهمان ، ولكن الفلامين لم يكونوا يشكلون طبقة ، واكثر من ذلك لم يكونوا يكوّنون حتى مجمعاً . فكل فلامين كان مستقلا ومرتبطا بالوهية يستقي منها اسمه . إن المؤسسة ، هي بالتأكيد قديمة ، والفلامين يتميزون بثيابهم الطقوسية وبالعدد الكبير من المحرمات . وبفضل اهتمام عالم الآثار اولوس جولوسAullus Gellusعرف بشكل افضل وضع الفلامن دياليس : لم يكن يستطيع الابتعاد عن روما ولا يمكنه ان يحمل عليه أية عقدة (اذا دخل انسان مقيد منزله ، كان يتوجب ان يفك قيده) ؛ ولا يجوز له ان يبدو عاريا تحت السماء ، ولا أن يرى الجيش ، ولا امتطاء حصان ، وكان عليه ان يتجنب التماس مع النجاسات والموتى أو ما يستدعي الموت الخ [نوكتس آتيكي ١٠ ـ ١٥ ر . بلوتارك مسائل رومانية ١١١] .

وبالنسبة لفلامين مارس وكويرنيوس ، كانت الالتزامات والممنوعات أقل قسوة ، ولم يصل إلى علمنا مباشرة شيء حول المهام الطقوسية للفلامين ماريتاليس ، ولكنه من الراجح انه كان يعمل في اضحية الحصان المقدم في ١٥ آذار و ١٥ تشرين أول . أما بالنسبة لفلامين كويرينااليس ، فكان يعمل خلال ثلاث حفلات ، الأوليتان منها (كونسواليا الصيف ٢١/آب وروبغاليا ، ٢٥ نيسان) كانت بالتأكيد ذات علاقة بالحبوب(١٩) .

ويعرف القليل عن أصل المجمع الكهنوتي . فحسب معلومات عن شيشرون [دي دومو ١٣٥ وها ـ. ريب . ١٢] . يمكن الاستنتاج بأن المجمع كان يحتوي ، اضافة للأحبار ، ملك التقديس والفلامين الكبار . وخلافا لرأي كورت لات (٢٠) ، أظهر ديميزيل أقدمية هذه المؤسسة . إلى جانب . فلامن دياليس ، كان الحبر يمثل ، في المحيط المقدس للملك ، وظيفة متممة . وكان الفلامين يكملون مهمتهم نوعا ما «خارج التاريخ»، فكانوا يقيمون بانتظام الحفلات المقررة ، ولكنه لم يكن لهم القدرة على تفسير ولا على حل الحالات المحظورة . ورغم علاقته الصميمية مع الآلهة السماوية فإن الفلامين دياليز لم يكن يترجم ارادة السماء . لأن هذا كان من مسؤولية العرافين augures وعلى العكس ، فإن مجمع الاحبار ، وبدقة اكثر الحبر الاكبر حيث ان الآخرين لم يكونوا سوى

الامتداد ، كان يحوز في آن واحد الحرية والمبادهة . لقد كان موجوداً في الاجتماعـات التي كانت تقرر الأعمال الدينية ، وكان يضمن الطقوس دون وصايات وكان يراقب الأعياد . وفي ظل الجمهورية ، كان الحبر الأعظم هو الذي «أنشأ الفلامين الكبار والفيستالات les Vestales الذين كان له عليهم سلطات تأديبية ، ومن هذه الأخيرة ، كان المشاور ، وأحياناً الممثل»[٢١] . ومن الراجح جدا اذن ان مؤسسات الفلامين الكبار والأحبار لم تكن ابداع روما الملكية ، و«ان النظام الصلب للأولى والحرية للثانية لا يمكن لها ان تفسر بابداعات متتالية ، وبتطورات ، ولكنها تناسب تعريفات ، ووظائف مختلفة ، ماقبل رومانية ، والتي تظهر ايضا في اسمائها ، وأخيراً كان طبيعاً أن اكبر نصيب من التراث الديني للوظيفة الملكية قد انتقل للحبر»[٢٢] .

إن الفيستالات الستة كانت مرتبطة بمجمع حبري . وان الفيستالات المختارات من قبل الحبر الأكبر مابين ست وعشر سنوات كن مكرسات لمدة ثلاثين سنة . إنهن كن يرعين الشعب الروماني بتغذية نار المدينة ، وكان عليهن أن لا يد عنها تنطفىء . ان قدرتهن الدينية مرتبطة بعذريتهـن : واذا فقدت فيستالة طهارتها ، كانت تدفن حية في قبر تحت الأرض ، وشريكها كان يعذب . وكما يلاحظ ديميزل ، فإن هذا يتعلق بنموذج كهنوتي أصلي ، «لم يكتشف علم الاجناس كثيراً من موازياته» [ص . ٥٧٦] وكان مجمع المتنبئين قديما ايضا ، وكان مستقلاً عن المجمع الحبري . ولكن سر النظام كان مجهولاً ، ومعلوم فقط ان العراف لم يكن يستدعى لحل رموز المستقبل ، وكان دوره محدداً باكتشاف ما اذا كان هذا المشروع أو ذاك (الاختيار لمكان العبادة أو لموظف ديني الخ) هو الأصلح . كان يطلب من الاله : «اذا هو أصلح . . . sifasest . . . ارسل لي آية ما!» مع ذلك وفيما سبق في نهاية الملكية بدأ الرومان بمشاورة مختصين آخرين محليين أو أجانب (ف ١٦٧ ع) . ومع الزمن ادخلت الى روما بعض التقنيات التنبؤية من أصل اغريقي أو اتروسكي . . فطريقة الهاروسبيس des haruspices (التي تتكون بتفحص احشاء الاضحيات) استعيرت بكاملها عن شعوب الاتروسك[٢٣] .

إلى جانب هذه المجموعات ، فإن العبادة العامة كانت تتطلب عدداً من جماعات مغلقة أو «رفاقيات sodalités» من (sodalis = رفيق) ، كل واحد متخصص في تقنية دينية خاصة . وان العشرين فيتياليس Fetiales كلها تبارك اعلانات الحرب ومعاهدات السلام . وكان الساليس les salic «الرافضون» لمارس وكويرينوس ، في كل مجموعة اثني عشر عضوا ، يعملون في آذار وتشرين أول ، عندما كان يوجد انتقال من السلام الى الحرب او من الحرب إلى السلام . وكان الفراترس ارفال les Fratres Arvales يحمون الحقول التي جنيت .

وكانت كونفريرية اللوبرسي des Lupereis تحتفل ، في ١٥ شباط باللوبيركاليا des Lupercalia . وكانت الشعيرة مقتصرة على احتفالات مميزة في فترة ازمة متفجرة بنهاية السنة (ف . ١٢، ٢٢ ع ع) . فبعد الأضحية بتيس في مغارة لوبانار ، كان اللوباركيون ، عراة باستثناء وزرة (تنورة) من جلد الماعز ، يبدأون المسيرة التطهيرية حول البالاتان . وكانوا وهم يركضون يضربون المارة بسيورهم المجدولة من جلد التيس . وكانت النساء تتقدم لتلقي الضرب للحصول على الخصب [بلوتارك ، روميلوس ٢١ ، ١١ - ١٢ الخ] . فكانت الشعائر في آن واحد تطهيرية وتخصيبية ، مثل العديد من الحفلات المقامة بمناسبة السنة الجديدة . وهذا يتعلق ، تأكيدا ، بشعيرة قديمة معقدة ، تتطلب ايضا علامات لمسارة من نموذج mamer bund مانيربوند ، ولكن دلالة السيناريو تبدو انها قد أهملت قبل الجمهورية .

وفي العبادة العمومية ، كما في العبادة الخاصة ، كانت الأضحية تتكون في تقديم مادة غذائية : باكورات الحبوب ، والعنب والخمر الحلو وبخاصة الاضحيات الحيوانية (بقريات ، اغنام ، خنازير وفي الخامس عشر من تشرين الأول الحصان) . وباستثناء حصان تشرين الأول ، كان قربان الاضحيات الحيوانية يتبع ذات السيناريو . فقد كانت تنجز تقدمات أولية على الموقد المتنقل foculus ، ممثلاً الموقد المتنقل للمضحي ، وموضوع امام المعبد الى جانب المذبح . وبعدئذ كان المضحى يذبح الضحية رمزيا ، فيمرر السكين التضحوية على الجسم من الرأس حتى الذنب . وفي الأصل ، كان يذبح الحيوان ، غير انه في الشعيرة

التقليدية كان بعض الكهنة يولج بهذه المهمة . ان القسم المخصص للاله ـ الكبد ، الرئتـان ، القلب وبعض قطع اخرى كان يحرق على المذبح . وكان اللحم يستهلك من قبل المضحى ورفاقه في عقيدته الخاصة ، ومن قبل الاكليروس في الاضاحي المحتفل بها بالنسبة للدولة .

١٦٦ ـ جوبيتر ـ مارس ـ كويرنيوس والثلاثي الكابيتولي

خلافاً للاغريق الذين كانوا نظموا منذ زمن مبكر مجمعاً للآلهة منظما بشكل جيد ، فإن الرومان لم يقيموا في بداية العصر التاريخي سوى جماعة تراتبية للآلهة ، وبخاصة الثلاثي القديم جوبيتر مارس كويرينوس المكمل بجانوس وفيستار . وبصفته إلها معلما dieu-patron فإن جانوس منذ «البدايات» وضع على رأس القائمة ، وفيستا vesta حامية المدينة في المؤخرة . ان المصادر الأوربية تتكلم مع ذلك عن عدد كبير من الآلهة المحليين أو المستعارين من اليونان أو الاتروسك . ولكن ، لا التصنيف ولا التراتب لهذه الآلهة كان مؤكداً[٢٥] . وبعض الباحثين القدامى كان يميز الآلهة الأصلية والآلهة الجديدة les di indigetes et les di novenciles ، فالأولى وطنية (patru) والثانية آلهة اتخذت فيما بعد [فارون ، اللغة اللاتينية ـ ٧٤٠ ؛ فيرجيل جورج ٠١ ، ٤٩٨] . واكثر قيمة هي الترنيمة التي أظهرتها عبارة النذر المنقولة من قبل تيت ليف : الآلهة الاربعة الكبار (جانوس ، جوبيتر ، مارس ، كويرينوس) كانوا متبوعين من بيللونا Bellona ومن اللارس les Lares (معلمو الحرب والأرض) ؛ ومن الآلهة الجديدة والأصلية وأخيرا من الآلهة مانس وتيلوس (ف ١٦٤) .

على كل حال ، لا يمكن الشك بالخاصية القديمة للثلاثي جوبيتر ، مارس ، كويرينوس ، ان حالة ووظائف الفلامين الثلاثة الكبار تدل بما فيه الكفاية على بنية الآلهة الذين يضمنون العبادة . فجوبيتر[٢٦] هو بامتياز الاله الأعلى ، سماوي وساطع ، مصدر القداسة والقائم على العدالة ، وضامن الخصب الشامل وهو

مدير كوني مع انه لا يدير الحرب . فادارة الحرب هذه هي ميدان مارس (مافورس ، ماميرس) ، الذي يمثل لدى كل الايتاليك الاله المحارب .

وأحياناً يشرك مارس كذلك بطقوس سلمية ، ولكنه يتعلق بظاهرة معروفة في تاريخ الأديان : الاتجاه الكلي ، التسلطي «imperialiste» لبعض الالهة بتجاوز محيط نشاطهم . وهذا ما يتحقق بخاصة في حالة كويرينوس[٢٧] . مع ذلك ، رأينا (ف ١٦٥ ع) ان الفلامن كويريتاليس يتدخل فقط في ثلاث حفلات ذات علاقة مع الحبوب . واكثر من هذا ، اشتقاقيا ، ان كويرينوس هو متضامن مع جماعة الفيري des viri تجمع الشعب الروماني ، واجمالا انه يمثل الوظيفة الثالثة في التقسيم الثلاثي الهندو- اوروبي . الا انه في روما كما هو في أي مكان آخر ، تحملت الوظيفة الثالثة تجزئة معلنة ، قابلة للتفسير بتعدد قيمتها وفعاليتها .

أما بالنسبة ل(جانوس) و (فيستا) فإن تجمعهما بالثلاثي القديم هو على الأرجح امتداد لتقليد هندو- أوروبي . وحسب رأي فارون Varron فإن البريما les prima تنتمي الى جانوس ، والسوما summa الى جوبيتر ، فجوبيتر هو الملك إذن ، لأن البريما متفوقون بالسوما ، فبعضهم ليس لهم ميزة الا في نظام الزمن ، والبعض الآخر في المنصب[٢٨] . مكانيا ، جانوس هو على **أعتاب** المنازل والأبواب . وفي الدورة الزمنية ، هو الذي يدير «بدايات العام» . وظاهريا في الزمن التاريخي ، جانوس يقع في البداية : لقد كان الملك الأول للايتوم والحاكم لعصر ذهبي ، عندما كان الآلهة والبشر يعيشون سوية [أوفيد- فاستي ١ - ٢٤٧ - ٤٨][٢٩] . لقد كان متخيلاً ذي وجهين bifrons ، لأن «كل مرور يفترض مكانين ، وحالتين ، ذلك الذي يترك ، وذلك الذي يدخل إليه» [ديميزيل ص ٣٣٧] . إن قدميته ليست موضع شك لأن الهندو- ايرانيين والسكاندينافيين يعرفون كذلك «آلهة أولى» .

وان اسم فيستا يشتق من جذر هندو- اوروبي يعني (حرق) ، وواقعة كون المعابد الأخرى جميعها مربعة الزوايا باستثناء معبد الفيستا ، الذي هو دائري ،

تفسر ، كما أوضح ديميزيل بالمذهب الهندي لرمزية الأرض والسماء . فالمعابد يجب لها ان تقام وتوجه حسب الاتجاهات السماوية الأربع ، ولكن بيت الفيستا لا يجب له ان يفتتح لأن كـل قـوة الربة هي على الأرض ؛ ومعبدها هو فكرة مقدسة aedes sacra وليس معبداً templum . ولم تمثل فيستا بصور ، فالنار كانت تكفي لاظهارها [فاستي ٤ - ٢٩٩] . وهذا ايضا هو برهان على القدمية والمحافظة ، لأن غياب الصور كان يميز أصوليا كل الآلهة الرومانية .

وفي ظل حكم الاتروسك ، اضاع التثليث القديم جوبيتر ومارس وكويرينوس فاعليته، وحل محله التثليث جوبيتر ، جينون ، مينيرفا . وهذا التثليث قائم منذ عهد التاركيين de Tarquins . وان التأثير الاتروسكي اللاتيني ، الحامل من جهة أخرى بعض العناصر الاغريقية ، هو واضح . فللآلهة الآن تماثيل ، وجوبيتر اوبتيموس مكسيموس كما أصبح اسمه منذ ذلك الحين ، هو ممثل للرومان تحت صورة بطابع اتروسكي لزوس اليوناني . وقد تحملت عبادته بعض التغييرات . واكثر من ذلك ، ان الانتصار الممنوح من قبل مجلس السينا للقائد المنتصر انتشر تحت علامة جوبيتر . وخلال الحفلة يصبح المنتصر المضاعف لجوبيتر : يتقدم بعربة ، متوجاً بالغار ، في ابهة الآلهة(٣٠) . ورغم حضور جينون ومنيرفا في معبده ، فإن السيد الوحيد هو جوبيتر ، وإليه توجه النذر وكلمة الاهداء .

«إن جينون كما يلاحظ ديميزيل هي اكثر الربات أهمية في روما ، ولكنها ايضا اكثرهن اضطراباً» [ص ٢٩٩] . ان اسمها جينو Juno مشتق من جذر يعني (القوة الحياتية) . ووظائفها متعددة : إنها تدير عدة اعياد ذات علاقة بخصب النساء (بصفتها لوسينا Lucina كانت تستدعى من أجل الولادات) ولكن ايضا مع بداية الأشهر ، ومولد القمر الخ . . مع ذلك ، كانت في الكابيتول ريجينا Regina لقب كان يعكس تقليداً قوياً بحيث انه قبل في ظل الجمهورية . واجمالاً ، فإن جينون كانت توجد مشاركة في ثلاثة وظائف من الايديولوجيا الهندو- اوروبية : الملكية المقدسة ، والقوة الحربية والخصب . وقد قرب ديميزيل هذه القيم المتعددة من مفهوم شائع في الهند الفيدية ، وفي ايران ، بخاصة ان الربة التي ترأس كل

الوظائف الثلاثة وتوفق بينها ، منشئة على هذه الطريقة النموذج للمرأة في المجتمع(٣٢) .

اما بالنسبة الى مينرفا ، فإنها كانت معلمة الفنون والصناعات اليدوية . واسمها هو على الأرجح ايطالي (مشتق من الجذر الهندو- اوروبي مين - الذين يعني كل نشاط للنفس) .

ومع ذلك فإن الرومان قد تلقوها عبر الاوترسكيين . ولكن مينيرفا كانت تمثل فيما سلف في ايترووريا تبنيا للبالاس - آتينا .

وفي آخر المطاف ، ان الثلاثي الكابيتوليني لم يمدد أي تقليد روماني . وان جوبيتر لوحده كان يمثل التراث الهندو- اوروبي . وان مشاركة جينون ومنيرفا كانت من عمل الاتروسك . وبالنسبة لهم كذلك ، ان التثليث الالهي كان يلعب دوراً في تراتب البانتون . ونعلم ، على سبيل المثال ، انها كانت ترأس انشاء المعابد [ر . سيرفيوس ١ - ٤٢٢] . ولكن كل مايعرف هو على وجه التقريب .

١٦٧ - الأتروسيكون : الغاز وفرضيات

كانت روما منذ وقت مبكر في مواجهة مع العالم الاتروسكي . ومع ذلك فإنه من الصعب التحديد بدقة للتأثيرات المتبادلة لثقافاتها . ان الدليل من الحفريات (قبور ، فريسك ، تماثيل ، اشياء مختلفة) تشهد بوجود حضارة متطورة الى درجة عالية ، ولكننا نجهل اللغة الاتروسكية . ومن جهة اخرى ، لم يوضح أي مؤرخ للأتروسكيين ديانتهم وثقافتهم وتاريخهم كما حصل بالنسبة للتراقين والسلت والجرمن . واكثر من ذلك ، ان المعلومات الرئيسية المتعلقة ببعض مظاهر الدين الاتروسكي لم تقدم من قبل الكتاب اللاتين الا بدءاً من القرن الأول ق.م عندما تحمل التراث الأصلي التأثيرات الهيللينية . وأخيراً ، فإن أصل الشعب الأتروسكي ذاته هو موضع خلاف ، الأمر الذي ينقص قيمة الاستقراءات المقارنة .

حسب التقليد المنقول من قبل هيرودوت [١ ـ ٩٤] يتحدر الاتروسك من الليديين les Lydiens وفي الواقع أن الأصل الآسيوي يبدو متطابقاً في بعض النقوش المكتشفة في لينوس Lenos .

غير أن الأشكال الثقافية المتطورة في اترووريا لا تعكس ابداً الوقائع الاسيوية . وما يبدو مؤكداً ، هو أن التكافل symbiose المتحقق بنضج بين الغزاة الآتين من وراء البحر وسكان البلاد الأصليين المستقرين بين نهر البو Po والتيبر Tiber، أي في الاقليم الذي كان ، في القرن الرابع ، يشكل ايترووريا . إن حضارة الاتروسك كانت بالتأكيد أعلى : كانوا يملكون اسطولاً بحرياً هاماً ، وقد مارسوا التجارة واستعملوا الحديد وبنوا مدنا محصنة . وكان تنظيمهم السياسي الاساسي (الفيدرالية للمدن ، واتحاد المدن) وكانت العاصمة تضم اثني عشر منها . وعليه فإن السكان لهذه المدن لم يكونوا اتروسك الا في قسم منهم ، وكان الباقي مشكلا من الاومبريان والفينيك والليغور وشعوب ايتالية اخرى .

ان التأثيرات الاغريقية يشعر بها منذ وقت مبكر ، سواء في الدين أو الفن . وكان الاله الاتروسكي فيلونس ممثلاً كديونيزوس ، إلى جانب سيملا (سيميليه) وآريتا (أريادم) . ومن جهة أخرى ، فان عدداً من الآلهة الاتروسكية الرسمية تحمل اسماء لاتينية أو فاليسك : saturmus- satres, mars- maris, Neptuns- Nethuns juno uni ان اسم البطل الاسطوري ماستارنا في الاتروسكية ميسترنا مشتق من اللاتيني ماجستر . وان تمثل آلهة الرومان بآلهة الاغريق له نموذجه الاتروسكي السابق : جينو ، مينرفا ، نيبتون اصبحت بوزيدون ، آتينا ، هيرا على نسق الاتروسك ، اونى Uni ومينرفا ونيتون . وباختصار ، ان الثقافة ، وبصورة خاصة الديانة الاتروسكية ، تتميزان بتمثل مبكر لعناصر ايتالية واغريقية(٣٣) . وهو يتعلق ، تأكيداً ، بتكافل أصولي ، لأن العبقرية الاتروسكية طورت الافكار المستعارة تبعاً لنزعتها الخاصة . غير اننا نجهل الميتولوجيا والتيولوجيا الاتروسكية . ولا توجد جرأة حتى لاعتبار حالة هرقل Hercle (Héraclis) كاستثناء ، لأنه ، بالرغم من جهود جان بابيه Jean Bayet يعرف فقط انه كان شعبياً إلى حد كبير جداً في ايترووريا وانه كان كانه يملك ميتولوجيا

أصولية ، مختلفة عن التقليد الاغريقي ومحتملاً زيادة على ذلك بعض العناصر من أصل شرقي[٣٤] . أما بالنسبة للميتولوجيا فسيكون من العبث الاعتقاد بأنها يمكن أن يعاد تركيبها أو انشاؤها بدءاً من بعض المعلومات المتأخرة حول الكتب الاتروسكية . وكما سنرى فإن هذه المعلومات تتعلق حصراً بمختلف تقنيات التنبؤ .

ومع فقدان النصوص ، فان العلماء ركزوا على الدراسة التفصيلية للمواد الاثرية . ان البنية القديمة لعبادة الموتى والربات الاخرويات تذكر بمقابر وتماثيل مالطة وصقلية وايجيديا (ف . ٣٤ ع) . وان المقابر الكبيرة nécropales ـ مدن حقيقية ـ كان ترتفع الى جانب المدن . وكانت القبور مزينة بسخاء ، خاصة ، بالسلاح بالنسبة للرجال والجواهر بالنسبة للنساء . وقد مورست الأضحية البشرية ، عادة أوجدت فيها بعد معارك المصارعين . وتشير التسجيلات الجنائزية للقرابة الأمومية فقط للمتوفي . وفي حين ان قبور الرجال كانت مزينة بعضو التذكير ، فإن قبور النساء كانت تبرز شواهد بشكل بيوت . فالمرأة كانت تجسد البيت ذاته ، حيث العائلة[٣٥] . وقد بحث (باخوفن) عن نظام القرابة الأمومية ، والذي يبدو مؤكداً هو الوضع البارز للمرأة في المجتمع الاتروسكي . ان النساء كن يشاركن على الموائد الى جانب الرجال . وقد لاحظ الكتاب الاغريق بتعجب أن الزوجات الاتروسك كن يتمتعن بحرية مباحة ، بينما هي في اليونان للهيتريات (العاهرات) فقط . وفي الواقع ، كن يظهرن للرجال بدون حجاب ، وتمثلهن الفريسك الجنائزية في ثيابهن الشفافة ، وهن يشجعن بهتافهن وحركاتهن معركة المصارعين العراة[٣٦] .

وفي نهاية الجمهورية ، عرف الرومان ان الاتروسك كانوا يحوزون «كتباً» موصلة من قبل شخصيات مافوق الطبيعة ، الحورية أو الجنية فيجوا أو تاجيه la nymphe Vegaie ou Tagés وحسب الأسطورة ان هذا الأخير انبثق يوما من خط فلاحة ، وكان له مظهر ولد ، وانما حكمة شيخ . وسرعان ما تجمع الجمهور حول تاجيه وتمكن بعناية من ان يكتب تعاليمه ، وان هذا هو أصل تنظيم العرافين l'haruspicinae dixiplina .

ان الباعث الاسطوري للكشف عن كتاب مقدس (أو محتوى مذهب سري) من قبل كائن فوق الطبيعة ، قد تأكد منذ المصرين وميزوبوتاميا حتى الهند القروسطية وفي التيبت . وهذا السيناريو أصبح شعبياً خاصة في العصر الهيلليني . وان ظهور Tages التاجي بصفته puer aeternus يذكر بالهرمسية (ف ٢٠٩ ع) ، الأمر الذي لا يقتضي بالضرورة «قراءة» كيميائية ، اذن متأخرة ، للتقليد الاتروسكي . والمهم هنا واقعة أنه الأتروسكيين منذ بداية القرن الأول ق.م كانوا معنيين في كتبهم بالمحافظة على بعض الكشوف من نظام مافوق الطبيعة ، وفي الأساس يمكن أن تصنف هذه النصوص في كتب أنوار libri fulgurales (نظرية الصواعق) ، وكتب شعائر libri rituales (ترتبط بها les acherontici) وكتب تنبؤية libri hiruspicini (المكتملة بكتب قدرية) .

ان مبدأ الصواعق ، كما نعرفه من اطروحات سينيكا وبلين[٣٨] ، كان يقتضي مرجعاً يعطي ، لكل يوم من السنة ، دلالة ضربات الرعد . وبعبارة اخرى ، ان السماء ، المقسمة الى ١٦ قسماً ، كانت تشكل لغة افتراضية محيّنة بالظواهر الارصادية . ان دلالة الصاعقة كانت تكتشف بالاجزاء من السماء حيث جاءت وحيث وصلت . وان الاحدى عشر نموذجاً متميزاً من الصاعقة كان يحرك من قبل الآلهة المختلفة . فالرسالة كانت اذن من أصل الهي ، ومع انها منقولة في «لغة سرية» يمكن لها ان تفهم فقط من قبل الكهنة المختصين ، العرافين . وقد أوضحت بعناية المشابهات مع المبدأ الكلداني[٣٩] . غير انه ، في الشكل الذي نقلت الينا فيه ، فان نظرية الصواعق تكشف بعض تأثير من العلم الهيلنستي ، منذ علوم الارصاد les meteoralogica لأريسطو- المزيف حتى مفاهيم «المجوس الكلدانيين»[٤٠] مع ذلك ، وفي نهاية المطاف ، ان هذه التأثيرات قد غيّرت بخاصة اللغة ، بتبنيها في اسلوب الزيج du Zeitgeint المعاصر . ان الفكرة الرئيسية ، وخاصة المشابهة بين الأكبر- الأصغر المعروفة macrocosme-microcosme هي قديمة جداً .

كذلك الأمر بالنسبة للعرافين haruspicine أي تفسير الاشارات المسجلة في احشاء الاضحيات ، كانت تفترض التوافق بين المستويات الثلاثة للمرجع :

الهي ، كوني ، بشري .**فخصوصيات** مختلف مناطق العضو كانت تدل على قرار الآلهة ، وبالنتيجة ، تنبىء بحركة الاحداث التاريخية التي هي وشيكة الوقوع . ان النموذج من البرونز لكبد خروف ، المكتشف في بليزانسة سنة ١٨٧٧ يتضمن عدداً من الخطوط المرسومة بإزميل واسماء اربعين من الآلهة[٤١] . ويمثل النموذج في آن واحد بنية العالم وتوزيع المجمع الالهي (البانتيون).

ان نظرية تشابه الاصغر ـ الأكبر تبين كذلك مايمكن تسميته بالمفهوم الاتروسكي للتاريخ . فحسب كتاب القدر librifatales ان حياة بشرية تنتشر على اثني عشر اسبوعاً ؛ وبعد الثاني عشر ، «يخرج الناس من روحهم» والآلهة لا ترسل لهم أية آية[٤٢] . وواضح ، ان الشعوب والدول ، وايتروريا كذلك روما ، لهم أجل مثبت بالقواعد نفسها التي تحكم الكون . وقد جرى كلام عن تشاؤمية الاتروسكيين ، بخاصة في موضوع عقيدتهم في حتمية كونية ووجودية شديدة . ولكنه يتعلق بمفهوم قديم ، تشارك فيه العديد من المجتمعات التقليدية : الانسان متضامن مع الايقاعات الرئيسية **للخليقة**، لأن كل **طرائق** الوجود ـ كونية ، تاريخية ـ بشرية ـ **تكرر** على مستواها المميز من المرجع ، النموذج المثالي المكتشف بالمدار الدوري للحياة .

انه لمن الصعب اعادة تكوين المعتقدات الاتروسكية حول الموت والوجود بعد الموت . وبدءاً من القرن الرابع ، أخذت الرسوم المقبرية تمثل مقرنفوس الأموات «مختلفة عن المقرات الاغريقية ، ولكنها مستلهمة منها : فالميت يسافر ، على حصان ، وفي عربة ، وهو يستقبل في العالم الآخر من قبل مجموعة من الناس الذين ربما كانوا اجداده ، وتنتظره وليمة يرأسها هادس وبيرسفونة اللذان يسميان هنا ايتا Eita وفيرسيباني»[٤٣] .

ومن جهة اخرى ان الصور تمثل ابليسية ليست من مصدر اغريقي . ان بطل الرواية ، شارون charun رغم اسمه الاغريقي ، هو ابداع اصولي للميتولوجيا الاتروسكية «اذا كان أنفه المعقوف يوحي بطائر مفترس ، واذناه **بحصان فإن اسنانه الصّارة** ، على الآثار التي تكشفها تكشيرة شفتيه الوحشية ،

تستدعي صورة آكل لحوم ، على أهبة افتراس ضحاياه»[٤٤] . وبعد أن قتله ، فإن شارون يرافق ضحيته في سفره لمقر نفوس الموتى . ولكن دوره ينتهي بالدخول الى العالم الآخر حيث ، بالحكم عليه بالمشاهد المرسومة على جدران المقابر ، يعرف الميت وجودا تالياً غنياً بالمسرات .

إن بعض الفقرات من كتاب الاشيرنوتيس libri Acherontici لا تسمح بأية مقاربة مع كتاب الموتى المصري . وحسب الكاتب المسيحي ارنوب (القرن ٤) : «في كتبها الأخروية Libri Acherontici ، تقدم الاترورية l'Etrurie انه ، بدم بعض الحيوانات المقدمة الى بعض الآلهة ، ستصبح الأرواح إلهية وتنجو من شرط الفناء» [Adversus Nationes ٢ ـ ٦٢] . ويضيف سيرفيوس معلومات هامة : على اثر بعض الاضحيات ، تتحول الارواح الى آلهة يُدل عليها كحيوانات للتذكير بأصلها [ذات المرجع ٣ ـ ١٦٨] . وسيتعلق اذن بتأليه متحصل على أثر طقوس دموية ، وهو ما يمكن تفسيره إما كعلامة للقِدَم ، واما كأضحية مقدسة مماثلة للمسارة في اسرار ميترا (ف ٢١٧ع) . وعلى كل حال ، ان «تأليه الارواح» يضيف بعداً جديداً للأخروية الاتروسكية .

وفي آخر المطاف ، فإن ماهو جوهري في الفكر الديني الاتروسكي يفوتنا . وان التقدير الذي كان يتمتع به ، منذ بدايات روما ، اسلوبهم بالتأليه ، وبالتوجه وبانشاء المدن والمنشآت المقدسة ، يدل على بنية كوزمولوجية للاهوت الاتروسكيين ويبدو انه يفسر جهودهم لاختراق لغز الزمن التاريخي . ومن الراجح جداً ، ان هذه المفاهيم قد اسهمت في نضج الديانة الرومانية .

١٦٨ ـ ازمات وكوارث : من السيادة الغالية الى الحرب القرطاجية

الثانية

في ٤٩٦ ق.م وبعد زمن قصير من اقصاء آخر ملك اتروسكي واقامة الجمهورية رفع معبد على اسفل الافنتان l'Aventin لثالوث جديد : سيرسي cérès

ليبر Liber وليبرا Libra . ومن الراجح ان السياسة قد لعبت دورها في انشاء هذه العبادة المكرسة لثلاثة آلهة حماة patronnes للخصب . ان المعبد هو مكان مكرس منذ زمن طويل للعبادات الريفية ، وكان يعود إلى ممثلي العامة de la plèbe (٤٥) . حسب الاشتقاق اللغوي ، سيرسي تعني النمو المجسدة . وان وجود فلامن سيرياليس flamen cerialis والصفة الخاصة لطقوس يحتفل بها بمناسبة السيرياليس (١٩ نيسان) ، يؤكد على قدم الربة .

أما بالنسبة لليبر Liber فإن اسمه يبدو مشتقاً من الجذر الهندو - أوروبي لوده leudh ، ومعناه «البذار ، الذي يضمن الولادة والحصاد»(٤٦) . وحسب القديس اغسطين [مدينة الله ٦ - ٣] ان الروح ليبر - ليبيرا كان يشجع الانجاب والخصب الشاملين ، «بتحرير» المني اثناء الوصال الجنسي [مدينة الله ٧ - ٩] ، وفي بعض الأماكن من ايطاليا كان عيدهم ، الليبيراليا la Liberalia (١٧ آذار) يتضمن عناصر تحليلية : طواف لقضيب ذكوري ، الذي يتوجب على العجائز الطاهرات تتويجه علنا ، مع كلام فاحش الخ [مدينة الله ٧ - ٢١] . ولكنه منذ وقت مبكر ، مثل الثلاثي ، ليبروليبريا وسيريس l'interpretio graeca) بالثلاثي ، ديميتر ديونيزوس (باخوس) وبيرسفونه) (بروزيربين)(٤٧) . وان ليبر الذي أصبح مشهوراً باسم باخوس سيعرف خطوة استثنائية على اثر نشر العبادة الديونيزية .

إن روما كانت متآلفة مع آلهة الاغريق منذ وقت سابق في القرن السادس تحت حكم الاتروسك . ولكننا بدءاً من العهد الجمهوري ، نشاهد التمثل السريع لآلهة اغريقية : الديوسكورس Les Diocures في ٤٩٩ ، وميركور mercure في ٤٩٥، وابولون في ٤٣١ (بمناسبة امراض الطاعون وهو اذن «الاله - الطبيب» الذي أدخل أولاً) . ان فينوس ، في الأصل اسم عام يعني فتنة سحرية ، قد وحدت بأفروديت الاغريقية ، ولكن بنية الربة ، تغيرت ، فيما بعد ، تحت تأثير الخرافة الطروادية . وعملية مماثلة تميز تمثل الآلهة اللاتينية والايتالية . فديانا قبلت من الآلبيين ومثلت فيما بعد بأرتميس . وفي ٣٩٦ ق.م دعيت جينون ريجينا ، الربة الشفيعة للفييس de véies احتفاليا لتستقر في روما . ويصف تيت ليف في مقطع شهير [٧ - ٢١ - ٣ - ٢٢] طقس الدعوة الايفوكاسيو

l'evocatio : الدكتاتور كاميل cammille توجه بالدعاء الى ربة المحاصرين assie'ge's : «وأنت ، ياجينون ريجينا ، التي تفضل الآن الفينيس ، اتضرع اليك بأن تتبعينا ، نحن المنتصرين ، في مدينتنا التي ستصبح قريبا مدينتك ، وحيث سيستقبلك معبد يليق بعظمتك» . ان الفينز les veins «كانوا يجهلون ان كهانهم الخاصون والعرافين الغرباء قد سبق ان تركوهم ، وان الآلهة كانت مدعوة لقسمة جلودهم وان آخرين ، مدعوين من مدينتهم بنذور ، كانوا ينظرون آنئذ من جانب المعابد والمقرات الجديدة التي كانت تنتظرهم عند الاعداء : باختصار انهم كانوا انفسهم يعيشون يومهم الأخير . . .»

ان غزوة السلت ، في الربع الأول من القرن الرابع اوقفت الاحتكاك مع الهيللينية . وان خراب روما (حوالي ٣٩٠) كان جذريا لحد ان بعضهم فكر بترك الخرائب نهائيا والاقامة في فييس vèies . وكما حصل في مصر بعد غزوة الهكسوس (ف . ٣٠ع) فان حرق المدينة قد زعزع ثقة الرومان في مصيرهم التاريخي . وليس الا بعد نصر السنتينوم sentinum (٢٠٠ ق.م) ان روما وايتاليا تخلصتا من السيادة الغالية المطلقة . فأعيدت الصلات مع العالم الاغريقي ، وعاد الرومان للأخذ بسياستهم بالغزو ، وحوالي نهاية القرن الثالث كانت روما الأكثر قوة في ايطاليا . ومنذئذ سيكون للتقلبات السياسية انعكاساتها القاسية جدا في بعض الاحيان على المؤسسات الدينية التقليدية . وبالنسبة لشعب حمل على أن يقرأ في كل الأحداث التاريخية انها تجليات إلهية ، فإن الانتصارات أو الكوارث العسكرية كانت مثقلة بالدلالات الدينية .

وبعد زمن قصير ، عندما وضعت الحرب القرطاجية الثانية وجود الدولة الرومانية ذاته في خطر ، تعرضت الديانة لتحول في صميمها . فاستدعت روما كل الآلهة مهما كان أصلها . إن العرافين وكتب سيبيلين كشفت اسباب الكوارث الحربية في اخطاء مختلفة للنظام الطقوسي . وباتباع تعليمات كتب سيبللين ، فرض مجلس السينا الاجراءات الصحية : اضاحي ، تطهيرات ، حفلات وطوافات غير اعتيادية وحتى اضاحي بشرية .

ان كارثة كانس cannes(٢١٦ ق.م)... التي انتصر فيها هانيبال ، جعلت ايضاً اكثر تهديداً بالعديد من الخوارق وبارتكاب المحارم للفستالتين devx vestales فقرر السينا sénat (مجلس الشيوخ) ارسال فابيوس بيكتور لمشاورة عرافة دلفي . وفي روما ، كانت كتب سيبللين تنص على اضاحي بشرية : اثنان من الاغريق واثنان من الفايين دفنوا أحياء [تيت ليف ٢٢ ، ٥٧ - ٦](٤٨) وعلى الأرجح أنه يتعلق بطقس ذي بنية قديمة : «الموت الخالق»(٤٩) .

وأخيراً ، في ٢٠٥ - ٢٤ ق.م ، في فجر الانتصار ضدها نيبال وحسب اقتراح كتب سيبللين ، أدخلت روما أول آلهة اسيوية ، سيبيل Cybèle، الأم الكبيرة للبسينونت de pessinonte (تيت ليف ٢٩ ، ١٠] . وقد حمل الحجر الأسود الشهير المرمز للربة من بيرغام pergame مع خفر روماني . واستقبل رسميا في اوستي ostie ، واستقرت سيبيل في معبدها على البالاتاين(٥٠) . مع ذلك فإن الخاصية التهتكية للعقيدة ، وفي المحل الأول ، حضور الكهنة المخصيين des pretres ennuques كانت تتعارض جداً مع التقشف الروماني . ولم يتأخر السينا عن تنظيم المظاهر الطقوسية بعناية . فكانت الاضاحي تقدم حصراً داخل المعبد ، باستثناء طواف سنوي كان يقود البيتهيل le béthyl إلى حمامه . وقد منع على المواطنين الرومان التضحية لسيبيل حسب الطقس الاناضولي . وحدد المِلاك (مجموعة الموظفين) بكاهن وكاهنة ومساعديها ولكنه لم يكن للرومان ولا لعبيدهم حق بممارسة هذه الوظائف . أما بالنسبة للعبادة الرومانية الرسمية ، فكانت مراقبة من قبل بريتور مديني .

مع ذلك ، رضي السينا في سنة ٢٠٤ ق.م بتنظيم هيئات تضم حصراً اعضاء من الارستقراطية ، وكانت وظيفتها الرئيسية اقامة حفلات على شرف سيبيل . واجمالاً ، فإن ادخال أول آلهة اسيوية كان من عمل الارستقراطية . وقد كان الأباطرة يقدرون أن روما كانت مدعوة لأن تلعب دوراً هاماً في الشرق . غير أن حضور سيبيل لم يكن له تالٍ . وسيكون لغزو العبادات الشرقية مكانه بعد قرن من الزمن . وبالتأكيد ، ان روما بعد الآلام الرهيبة والرعب من الحرب القرطاجية الثانية ، كانت منجذبة بشكل مزدوج بالالوهية الآسيوية .

غير أننا نصادف، هنا أيضاً، التعقيد الخاص بالرومان: في آن واحد الضرورة لمراقبة العبادات الغريبة والخوف من اضاعة فائدتها(٥١) . إلا أن نتائج هاتين الحربين والنصر النهائي الباهر لم تذهب سدى . فمن جهة ان عدداً مرموقاً من اللاجئين من كل الأقاليم الايطالية والعبيد الغرباء تجمعوا في روما ، ومن جهة اخرى ، انفصلت بعض قطاعات من السكان بشكل متزايد عن الدين التقليدي . وفي روما كما في كل عالم البحر المتوسط ، وبدءاً من القرن الرابع تكشفت الضرورة لتجربة دينية شخصية عن حاجة ماسة . ان مثل هذه التجربة الدينية كانت مقبولة بصورة خاصة في الجمعيات السرية المتآمرة على الدولة les conventicules وفي المجتمعات المغلقة من نموذج «ديانة الأسرار» ؛ وبعبارة أخرى ، في اتحادات سرية فلتت من رقابة الدولة . وان هذا هو السبب الذي من أجله منع السينا مساهمة المواطنين الرومان ، وحتى عبيدهم في العبادة الأناضولية لسيبيل .

وفي سنة ١٨٦ ق.م اكتشفت السلطات ، باندهاش وخزي ، وجود (عبدة باخوس) باشالي bacchanalie ـ أي اسرار تهتكية ليلية . ان عبادة ديونيزوس ، قد عرفت انتشاراً واسعاً في عالم البحر المتوسط وبخاصة في العهد الهيلليني (ف ٢٠٦ ع) . وبعد سيادة الرومان على اليونان الكبرى ، فإن الجمعيات الباطنية للنساك انتشرت في شبه الجزيرة ، وبخاصة في كامبانيا . وفي الواقع ان كاهنة بصيرة أصولية من كامبانيا هي التي كانت أدخلت لروما عبادة سرية ، محوّرة تبعاً لتصوراتها الخاصة ، أو متضمنة بعض الشعائر القابلة للمقارنة بالأسرار . وعلى أثر قرار ، أعلن على العموم مباشرة من قبل القنصل ، كشف التفتيش علاقات العبادة وخاصيتها التهتكية . وكان المنتمون اليها اكثر من ٧٠٠٠ متهمن بالعديد من أعمال الرجس المقززة : فلم يقسموا بأنهم لا يفشون شيئاً فحسب ، وإنما مارسوا اللواطة la péderastie ونظموا اغتيالات بهدف الحصول على الأموال . وكان الاحتفال بالطقوس يتم في منتهى السرية . وحسب تيت ـ ليف [٣٩ ـ ١٣ ـ ١٢] ، كان الرجال يحركون اجسامهم وكأن روحهم هائمة ، وهم يتنبؤون بكلمات نبوءة ، وكانت النساء بشعورهن المسبلة على طريقة عابدات باخوس ،

يركضن حتى التيبر «وهن يرقصن مشاعل متقدة» حيث كن يغرزنها في الماء ويعاودن سحبها وهي مشتعلة ، «لأن الكبريت الحي ممزوج بالكلس»[٥١] .

ان بعض الاتهامات تذكر بالكليشيهات المستعملة فيما بعد في كل دعاوى البدع الهرطقية والسحر . ان السرعة الحيوية وقسوة التفتيش ، وقسوة الضغط (عدة الوف اعدموا في البلاد) تظهر الخاصية السياسية للدعاوى . وتعلن السلطات الحظر على الاتحادات السرية ، حيث الخطر من مؤامرة قادر يحاول الانقلاب على الدولة . وبلا ريب ان العبادة الباخية لم تمح تماما ؛ ولكنها منعت على المواطنين الرومان من ان يشاركوا فيها . زيادة على ذلك ، ان كل حفلة باخية ، المحددة الزاميا بخمسة اعضاء ، يتوجب لها ان تجاز بقرار من السينا . وان المنشآت والموضوعات الطقوسية قد تخربت ، ماعدا تلك التي كانت تقتضي (بعض التقديس) .

ان كل هذه الاجراءات من الرعب تظهر إلى أي مدى كان السينا يشتبه بالجمعيات الدينية التي كانت تفلت من رقابته . وان السيناتوس ـ كونسولت ضد الباخيين لا يجب ان يفقد قيمته أبداً ، اذ أنه بعد ثلاثة قرون استخدم الاسلوب نفسه بإضطهاد المسيحيين .

حواشي الفصل العشرين

١ ـ تيت ليف (٣ ـ، لوفيد ـ ٣٨١ الخ

٢ ـ servins ـ ٦ ـ ٢١٢

٣ ـ Florus ـ و propertius ٦ ـ ٣١ ,١

٤ ـ puhvel ص ١٥٣ و Bruce Lincoln اسطورة الخلق ص ١٣٧

٥ ـ pierre Grimal الحضارة الرومانية ص ٢٧ ـ هوراس يثير نتائج قتل الأخ الأصلي في النشيد

٧ ـ ١٧ ـ ٢٠

٦ ـ جورج ديميتريل ، التراث الهندو اوروبي في روما .

٧ ـ سيكون من عدم الفطنة توحيد المركبات العرقية تبعاً للطقوس الجنائزية ، باضافة اللحد للسابين والحرق والترميد للاتين ـ النظر ـ موللر ـ كارب . ذكره ديميزيل .

٨ ـ ٩ ـ ج ـ ديمتريل ـ الدين الروماني .

١٠ ـ خطوة مميزة خاصة من قبل هـ ـ ج ـ روز الذي شبه نومن إلى مانا ، مهملاً واقعة انه (خلال قرون ان نومن لم يكن سوى الرب نومن ، الارادة المعلن لمثل الآله (ديمتريل

١١ ـ و . الافكار الرومانية ص ٣١ ـ ١٥٢ بالتأكيد الى جانب هذا النمط العام من الشرح النظري وبذات الوقت تطويع تجريبي للعالم ، كان يوجد عدد من المعتقدات والصور الالهية من أصل اجنبي ، ولكنه في عصر التكوين العرقي للشعب الروماني هذا التراث الديني الدخيل عني بخاصة الطبقات الزراعية .

١٢ ـ واكثر من ذلك في هذه المناطق المحدودة ، هذه الهويات ليست هامة ـ ديميتريل ص ٢

١٣ ـ حول الـ fides ر . ديميتريل ص ١٥٦

١٤ ـ سنرى اتجاها مشابها في جهد بعض الكنائس المسيحية لتصبح «متحينة» بالنسبة للمجتمعات المزال عنها صفة القداسة في القرن (٢٠) .

١٥ ـ ب . غريما ص ٨٩ ـ ضد النظرية «السياسية» للات حول البيتاس . ر . مذهب مزجيل Boyancés

١٦ ـ م . الياد ـ اسطورة العودة الابدية فصل ١١

١٧ ـ ١٨ ـ الدين الروماني القديم ص ٥٧١ ـ ١٨٤ ـ ٧١ .

١٩ ـ ج ديميزيل الدين الروماني القديم ص ١٦٦ ـ الفلاحين الوسط كانوا مرتبطين بآلهة سقطت بعدم الاستعمال في العصر الكلاسيكي ـ فولكانوس ، فوليتزنوس ، بالاتوا كارمنتا ، فلورا ، بومونا الخ .

٢٠ ـ هذا الكاتب يفترض ثورة «حملت لرأس التنظيم الديني في روما الحبر الأكبر والجماعة التي تتبعه) ص ١٩٥

٢١ ـ ٢٢ ـ ديمرال ص ٥٧٤ ـ ٥٧٦

٢٣ ـ بالنسبة للنشاط العرافي، المدخل للالهام المباشر من اله ، كان مشتبها فيه بالفعل البسيط الذي يخرج عن رقابة الدولة . ان المجموعة المعروفة تحت اسم كتب سيبلليين يجب ان تكون مقبولة طالما انها كانت مشهورة باحتوائها على أسـرار مستقبل روما . ولكنها كانت محروسة جداً من قبل الكهنة وكان يلجأ اليها في حالات الخطر الكبرى

٢٤ ـ Februm الذي اعطى الاسم لشهر فبراير ، ترجم من قبل قارون (اللغة اللاتينية ١ ص ١٣) ـ وفعل februare يعني تطهر .

٢٥ ـ قارون وزعها في rerti= محددة و incerte من بينها مثيز عشرين الها اساسيا ، اوغسطين ـ مدينة الله ٢ ،٧

٢٦ ـ نجد الاسم في ombriens osque وفي المتكلمين اللاتين .

٢٧ ـ هذا الاله يوجد احيانا مجتمعاً مع مارس جراديفوس : الاثنان يملكان التروس المقدسة (تيت/ ليف) رومولوس ابن مارس ، ممثلاً الملكية السحرية والعسكرية قد تمثل بعد موته بكويرانوس .

٢٨ ـ فارون ـ ذكره القديس اوغسطين . مدينة الله (٧) ـ ٩ ـ ١ انظر شرح ديميزيل

٢٩ ـ كذلك فإن جانوس يرأس بعض (البدايات) الطبيعية : إنه يضمن علوق الجنين انه معني بتأسيسه للديانة ، وقد شيد العابد الأولي ، وانشأ الساتورناليا .

٣٠ ـ ج . ديميزل ص ٣٢٣ ـ وذات الأمر في ايران آثار ، النار ـ كانت اقيمت في نهاية قائمة الأميشا سبينتا (ص ٣٢٩ ذات المرجع)

٣١ ـ سرخيوس ٢٧ ـ وبلوتارك وصف بالتفصيل الانتصار لبول اميل بعد نصر بيدنا ١٦٨ ق.م

٣٢ ـ ر . تحليل وظيفة سارسافاتي وآناهيتا . ص ٣٧

٣٣ ـ F. Altheim يلاحظ ان التراث الاسيوي والبحر المتوسط يمكن فهمه ليس في بداية وانما نهاية التاريخ الاتروسكي ر . تاريخ الديانة الرومانية ص ٥٠

٣٤ ـ j. Bayet «Héraclès- Herclé» في النطاق الاوترسكي ، ص ٧٩ ـ ١٢٠

٣٥ ـ Les phalli الجنائزية ظهرت بدءاً من القرن السادس في حين ان شواهد القبور بشكل منازل تأكدت كثيراً . بالأحرى ، ان الاتروسك ذكر والقب الأب وليس اسم العائلة للأم : «الأم كانت معتبرة أقله كشخصية فردية بأكثر مما كانت معتبرة كعضو في خط النسب» ((altheim الدين القديم ص ٤٦)

٣٦ ـ ذات المرجع السابق ص ٦١

٣٧ ـ شيشرون الالهيات ٢ ـ ٥١ و Lydus يؤكد ان الاغريق مثلوا الولد تاجيه بهرمس محلي .

٣٨ ـ انظرالمسائل الطبيعية ٢ ـ ٣١ ـ ٤١ . والمسائل التاريخية ٢ ـ ١٣٧ ـ ١٤٦ .

٣٩ ـ اخيراً ـ أ ـ بيجانيول ص ٣٤٠ ـ ٣٤٢ (الاتروسك شعب شرقي)

٤٠ ـ انظر S. Weinstoek (Libri Fulgurales) ص ١٢٦

٤١ ـ عصر النموذج هو ايضا موضع معارضة ، انه يحدد على الأرجح في القرن الثالث والثاني ق.م والمشابهات مع كتابات الاكباد الميزوبوتامية واضحة ، وهي مرجحة ومؤكدة بتأثيرات تالية .

٤٢ ـ قارون نصوص مذكورة ومشروحة من قبل بوشيه ـ لولكيرك ، تاريخ الحضارة ص ٨٧

٤٣ ـ ٤٤ ـ ح ـ ديميزيل ص ٦٧٦

٤٥ ـ حسب التقليد ، ان المعبد كان نتيجة مشاورة كتب سيبلين ، ولكنه يتعلق بمفارقة تاريخية

٤٦ ـ E. Benvenirte (Libereliberi) ديميزيل ص ٣٨٣

٤٧ ـ ج . بابيه (Les céralia ـ مزج طقس لاتيني باسطورة اغريقية) شعائر روما القديمة ص ١٠٦

٤٨ ـ في ٢٢٦ ق.م على اثر مشاورة كتب سيبلين زوج من الاغريق واحد الغالبين دفنوا أحياء بهدف ابعاد تهديد غزوة الفلوا (بلوتارك ، مارسيلوس ٣-٤) وتضحيات مماثلة حصلت في نهاية القرن الثاني (بلوتارك ٣٨) والاضحيات البشرية منعت من مثل السينا سنة ٩٧ ق.م .

٤٩ ـ من أجل ضمان النصر دفن كسرى تسع اولاد وتسعة بنات أحياء عندما حمل على الاغريق . ويعرف من جهة اخرى ان تيمستوكل على اثر عملية عرافة ، ضحى بثلاثة مساجين صباح معركة سالامين (بلوتارك) وحول هذه النغمة الطقوسية . انظر إلياد من زالموسكي ـ لجنكيزخان ص ١٧٨

٥٠ ـ من المناسب التذكير بأنه بفضل خرافة اينيه لم تعد سيبيل ربة أجنبية .
٥١ ـ لقد اتهموا اضافة لذلك بأنهم ابادوا بطريقة مرعبة كل الذين كانوا رفضوا المشاركة في جرائمهم وأعمالهم المنكرة وفي تحليل دقيق لنصوص تيت ـ ليف والسيناتوس كوشلت لـ ١٨٦ حالة خاصة بالباخيين انظر ـ اوريان بروهل ص ٨٥

الفصل الحادي والعشرين

السلت ، الجرمن ، التراس والجيت

١٦٩ ـ استمرارية عناصر ماقبل التاريخ

إن الأثر الحاسم للسلتيين des celtes في التاريخ القديم لأوروبا ظل محسوساً خلال أقل من قرنين من الزمن : من الغزوة لشمالي ايطاليا في القرن الرابع (سقطت روما في ٣٩٠ ق.م) إلى نهب معبد ابولون في دلفي ، في ٢٧٩ ق.م . وبعد قليل من الزمن ، ختم المصير التاريخي للسلت : فقوتهم المحاصرة بين توسع القبائل الجرمنية وبين ضغط روما لم تتوقف عن الانحدار . الا ان السلت كانوا ورثة ماقبل تاريخية غنية بشكل متفرد ومبدعة . وعليه ، وكما سنرى ، فإن المعلومات الواردة عن طريق علوم الآثار ذات أهمية لفهم الديانة السلتية .

فما قبل السلت ، على الأرجح ، هم صناع الثقافة المسماة «حقول الجرار» urnfiele - champs diurnes[1] . المنبثقة في اوروبا الوسطى مابين ١٣٠٠ - ٧٠٠ ق.م فقد كان هؤلاء يسكنون القرى ، ويمارسون الزراعة ، ويستعملون البرونز وكانوا يحرقون الموتى . إن أوائل هجراتهم (القرن ٩ - ١٠) قادتهم إلى فرنسا ، واسبانيا ، وبريطانيا العظمى . ومابين ٧٠٠ - ٦٠٠ ق.م انتشر استعمال الحديد في اوروبا الوسطى ، وهذه هي الثقافة المسماة هالستات de Hallstatt ، المتميزة بتفريع العينات stratification الاجتماعية المحددة وبالطقوس الجنائزية المختلفة . ومن الراجح ان هذه التجديدات هي حصيلة تأثيرات عقائدية ايرانية ، منقولة عن طريق السيمريين les cimmériens (من أصول البحر الأسود) . وانه عندئذ تشكلت الارستقراطية العسكرية السلتية . إن الأجساد (أقله اجساد الرؤساء) لم تكن تحرق ، ولكنها كانت توضع ، مصحوبة بأسلحتها والأشياء الأخرى الثمينة ، في عربة ذات اربع عجلات ، ثم تدفن بعدئذ في غرف جنائزية مغطاة بنشز ضريحي tertre . ونحو الـ ٥٠٠ ق.م ، خلال العصر الثاني الحديدي ، المعروف باسم لاتين Latène عرفت الابداعية الفنية للعبقرية السلتية أوجها . وقد وصفت الأعمال الجوهرية ، والمذهبات والموضوعات الكثيرة من المعدن ، المكتشفة عن طريق الحفريات ، وصفت «كمفخرة للعالم البربري ، وكمأثرة كبرى ، أكثر مما هي مساهمة محدودة للسلتيين في الثقافة الأوروبية»[2] .

ومع ملاحظة الجدب في المصادر المكتوبة حول الديانة ، فإن الوثائق الأثرية لا تحصى . وبفضل الحفريات عرف ان السلت أعطوا أهمية كبرى للفضاء المقدس ، أي للأمكنة المكرسة ، تبعاً لقواعد محددة ، حول مذبح كانت تمارس عليه الاضحيات . (كما سنرى ، فإن عدم التحديد الطقوسي للفضاء المقدس والرمزية «لوسط العالم» قررت من قبل الباحثين القدامى ، ونجدها في الميتولوجيا الايرلندية) . ودائما بفضل الحفريات ، عرف ان مختلف نماذج التقدمات كانت توضع في آبار طقوسية ، من مترين الى ثلاثة عمقاً . وهذه الحفر الطقوسية مثلها مثل البرازرس **Le brothros الاغريقي** والمندوس le mendus الروماني تماما ، **كانت تضمن الاتصال مع آلهة العالم تحت الأرض . وان مثل هذه الآبار قد تأكدت**

منذ الألفين ، وكانت تملأ أحياناً بأشياء من ذهب وفضة متكدسة في قِدر احتفالي مزين بفخامة . (توجد ذكرى لهذه الآبار ، ذات الصلة مع العالم الآخر ، والكنوز تحت الأرض ، في خرافات القرون الوسطى وفي الفولكلور السلتي) .

وليس بأقل من ذلك أهمية المصادقة المقدمة من الحفريات المتعلقة بانتشار واستمرارية عبادة الجماجم . فمنذ الاسطوانات من الحجر الكلسي المزينة برؤوس ذات نماذج ، المكتشفة في يوركشاير وترجع الى القرن الثامن عشر ق.م ، وحتى القرون الوسطى ، فإن الجماجم وتمثيلات «الرؤوس المقطوعة» تأكدت في كل الأقاليم المسكونـة مـن قبل القبائل السلتية . وقد اكتشفت جماجم موضوعة في أوكار للكلاب ، أو مدخلة في جدران المعابد ، رؤوس منحوتة من الحجر ومالايحصى من الصور من الخشب المعلقة في الينابيع ، وعليه فإن الأهمية الدينية للجماجم قد أبرزت من قبل الكتاب التقليديين ، وبالرغم من تحريم الكنيسة ، فإن تمجيد (الرأس المقطوع) يلعب دوراً هاماً في خرافة القرون الوسطى والفولكلور البريطاني والايرلندي[٤] . وهو بالتأكيد يتعلق بعبادة تمد جذورها في ماقبل التاريخ واستمرت تعيش في العديد من الثقافات الاسيوية حتى القرن التاسع عشر[٥] . ان القيمة السحر ـ دينية الأصولية (للرأس المقطوع) تدعمت فيما بعد بالمعتقدات التي تركزت في الجمجمة المصدر الأول لبذرة الرجولة semen virile والمقر «للروح» . وكانت الجمجمة عند السلت تشكل بامتياز الوعاء لقوة مقدسة ، من أصول الهية ، كانت تحمي الملك ضد كل نوع من الأخطار وتضمن له الثروة والنصر في ذات الوقت .

واجمالاً ، فإن الاكتشافات الاثرية ، اخرجت من جهة ، قدمية الثقافة السلتية ، ومن جهة اخرى استمرارية بعض الأفكار الدينية المركزية لما قبل التاريخ وحتى القرون الوسطى . ان العديد من هذه الأفكار والعادات كانت تعود إلى الأسس الدينية القديمة للعصر الحجري (النيوليتك) ، ولكنها تمثلت في زمن مبكر من قبل السلت وادخلت جزئيا في النموذج اللاهوتي الموروث من اجدادهم الهندو ـ اوروبيين . وان الاستمرارية الثقافية المدهشة المبرهن عليها بعلم الآثار تسمح لمؤرخ الديانة السلتية باستعمال مصادر متأخرة ، وفي الدرجة الأولى منها

النصوص الايرلندية المحررة بين القرن الرابع والثامن ، وايضا الاساطير الملحمية والفولكلور الذي استمر يعيش في ايرلندا حتى نهاية القرن التاسع عشر .

١٧٠ ـ التراث الهندو ـ اوروبي

ان قدم الثقافة السلتية تأيّد بمصادر أخرى ، ففي ايرلندا يوجد العديد من الأفكار والعادات المؤكدة في الهند القديمة ، فعروض الشعر la prosodee مشابه لما هو في السنسكريتية والحثية ، وكما يوضح ستيوارت بيجو stuart piygot انه يتعلق «بفقرات من ارث عام لما يعود للألفين سنة»[٦] . وكالبراهمانيين تماماً ، فإن الكهنة les druides كانوا يعطون الذاكرة اهمية معتبرة (ر. ف ١٧٢ع) وإن الشرائع الايرلندية القديمة كانت مؤلفة بالشعر لتسهيل تذكرها . ان التوازي بين المعالجات القانونية الايرلندية والهندية تتحقق ليس في شكلها وصياغتها فحسب ، وإنما ايضا واحيانا فيما يتعلق باملائها . ويذكر في هذا الصدد أمثلة اخرى عن التوازي الهندو ـ سلتي : الصيام كوسيلة لدعم طلب قانوني ، والقيمة السحر ـ دينية للحقيقة[٨] . والإدراج لمقاطع من الشعر في النثر القصصي الملحمي ، وبصورة خاصة في الحوارات ، والأهمية للشعراء الغنائيين des bardes وعلاقاتهم مع الحكام[٩] .

وبسبب التحريم الطقوسي للكتابة ، لا يوجد أي نص حول ديانة السلتيين القاريين محررة من قبل أحد السكان الأصليين . وان المصادر الوحيدة هي بعض الأوصاف من قبل بعض الكتاب الاغريق ـ اللاتين ، وعدد كبير من الآثار المصورة ، يرجع اكثرها الى العصر الغالي ـ الروماني . وعلى العكس ، فان السلتيين سكان الجزر ، المتمركزين في ايكوسيا وبلاد الغال وبخاصة ، ايرلندا ، قد انتجوا أدبا ملحميا غزيراً . وبالرغم من واقعة تمام تأليفه بعد اعتناق المسيحية ، فإن هذا الأدب يمدد في قسم كبير منه التقليد الميتولوجي لما قبل المسيحية ، وهذا يصح ايضاً على الفولكلور الايرلندي الغني .

ان ارشادات الباحثين الكلاسيكيين تأكدت في كثير من الأحيان بالوثائق الايرلندية . فسيزار في كتابه De bello Gallico [٤ - ١٣] يؤكد ان الغولوا Les Gaulois يعرفون طبقتين متميزتين - طبقة الكهنة druides وطبقة الفرسان - وطبقة ثالثة ، مقهورة ، هي طبقة «الشعب» . وان هذا هو نفس التثليث الاجتماعي العاكس لايديولوجيا هندو - اوروبية معروفة جداً (ف . ٦٣ ع) ، والتي توجد في ايرلندا لزمن قصير بعد اعتناق المسيحية : فتحت سلطة الريغ Rig (المشابه لفظيا للسنسكريتي راج raj ، واللاتين ريج Reg) ، كان المجتمع مقسماً بين طبقة الكهنة des druides ، والارستقراطية العسكرية (فليث la flaith ، وأصلها «قوة» ، المشابه الصوتي الدقيق للسنسكريتي كزاترا ksatra) ومربو الماشية «بو ايريج les bo airig ، ناس احرار (اريج airig) الذين يعرفون كحائزين للأبقار (بو bo»[١٠] .

وسيكون هنالك مجال للاشارة فيما بعد لبعض استمرارية حياة النظام الديني الهندو - اوروبي عند السلتيين . ولنحدد بدقة منذ الآن أن «المخلفات الشائعة في المجتمعات الهندو - ايرانية والايتالية - السلتية» تفسر ذاتها «بالوجود لجماعات قوية من الكهنة الخازنة للتقاليد المقدسة والتي كانوا يعتمدونها بصرامة شكلية»[١١] .

اما بالنسبة للاهوت التثليث الهندو - اوروبي فيمكن التعرف عليه في قائمة الآلهة المنقولة من قبل سيزار César واعطيت الصفة التاريخية جذريا ، وان هذا اللاهوت مازال قائماً في التقليد الايرلندي . وقد أظهر جورج ديمتريل وجان دفري ، أن رؤساء الشعب الاسطوريين تواتها دي دانان Tuatha Dé Danann ، يمثلون بالفعل ، الآلهة للوظيفتين الأوليتين ، في حين ان الثالثة مصورة من قبل شعب دي فيمور des Femores ، المعتبرين كسكان سابقين للجزيرة[١٢] .

ان سيزار يمثل مجمع الآلهة السلتي في تفسير روماني ، فيكتب هذا القنصل «ان الاله الذي يمجدونه اكثر ، هو ميركور mercure . ان تماثيله هي الأكثر عدداً . انهم يرون فيه مخترعاً لكل الفنون ، انهم يعتبرونه كالقائد للمسافرين على الطرقات ، والذي سلطته هي اذن الاكبر لكسب الأموال وتشجيع التجارة .

وبعده يعبدون ابولون ، مارس وجوبيتر ومنيرفا . ويحملون عن هذه الآلهة تقريبا ذات الفكرة التي تحملها شعوب اخرى . فأبولون يطرد الأمراض ، ومنيرفا تعلم عناصر الأعمال والمهن ، وجوبيتر يمارس سلطته على السماوات ، ومارس يدير الحروب» [ب . ج ٤ - ١٧] .

•

لقد نوقشت كثيرا رسمية ، وبالنتيجة ، قيمة هذا الشرح الروماني للبانتيون الغالي Gaulois . ومع ذلك ، فإن سيزار كان يعرف جيداً ، العادات والعقائد السلتية . فقد كان فيما سلف (القنصل الأول proconsul) للغال الألبية قبل أن يبدأ حملته في الغال عبر الألب . ولكن بما أننا نجهل الميتولوجيا السلتية القارية ، فإن لدينا منها القليل حول الآلهة المذكورة من قبل سيزار . ومن المدهش انه لم يضع «جوبيتر» على رأس القائمة . ومن المؤكد ان الاله السماوي السلتي الكبير قد أضاع أوليته لدى سكان المدن المعرضة منذ مالايقل عن قرنين لتأثيرات البحر المتوسط . ان الظاهرة عامة في تاريخ الأديان ، في الشرق الأدنى القديم (ف ٤٨ ع) . كما هو لدى الهنود الفيديين (ق٦٢ع) والدى الجرمن القدامى (ب١٧٦ع) ولكن الأعمدة المسماة «جوبيتر الجبار» التي توجد في اعداد كبيرة ، وبخاصة مابين الرين والموزيل والساون والتي كانت رفعت كذلك من قبل بعض القبائل الجرمنية ، فهي تمدد رمزية قديمة ، خاصة تلك المتعلقة بكائن سماوي أعلى : وسيلاحظ بدئياً ان هذه الأعمدة لا تدشن النصر الحربي كتلك الأعمدة العائدة لتراجان ومارك أوريل . انها لم تكن ابداً مرفوعة في الساحات (الفوروم) أو الشوارع ، وانما بعيداً عن المدن . وأكثر من هذا هو ، ان هذا الجوبيتر السلتي قد أبرز غالباً مع دولاب ، وعلى ذلك يلعب الدولاب دوراً مهماً في اللغة السلتية(١٤) . وكما لاحظ ورنر موللر ، فإن هذا الجوبيتر السلتي هو بالنتيجة الاله السماوي والمدير الكوني ، معلم السنة ، والعمود الرمزي قطب الدنيا l'axi mundi . ومن جهة اخرى فإن النصوص الايرلندية تتكلم عن الداغدا Dagda «الاله الجيد» وتتفق بتوحيده مع الاله الغالي الذي اشار اليه سيزار بتجلي (جوبيتر)(١٥) .

ان علم الاثريات قد وافق على تأكيد القنصل سيزار حول شعبية «ماركور mercure»: اكثر من ٢٠٠ تمثال ونصب وحوالي ٥٠٠ نقش . إن الاسم الغالي مجهول ولكن من الراجح انه كان ذات الشيء للاله لوغ Lug الذي يلعب دوراً هاماً لدى السلت سكان الجزر . فالعديدمن المدن يحمل اسم لوغ (مثلاً : ليغدوم - ليون . . الخ) ، وقد كان يحتفل بعيده في ايرلندا ، الأمر الذي يثبت ان هذا الاله كان معروفاً في كل البلدان السلتية . ان النصوص الايرلندية تمثل لوغ كرئيس للجيش ، مستعملاً السحر على ساح المعركة ، لكنه كذلك معلم شاعر والجد الاسطوري لقبيلة هامة . ان هذه الملامح تقربه من وودان - اودهان ، -Wdan Odhin الذي ، هو ايضا قد مثل من قبل تاسيت بمركور . ويمكن الاستنتاج من هذا بأن لوغ يمثل السيادة تحت مظهر سحري وحربي : انه عنيف وباسل ، ولكنه يحمي المحاربين كما يحمي شعراء البطولة Bardes والسحرة . وتماما كأودهان - ودولمان (ف ١٧٥ع) يتميز بقدراته السحرية - الروحية ، الأمر الذي يفسر لماذا شبه بمركوريوس - هرمز mercurius- Hermes[١٦] .

وقد كتب سيزار ان الغاليين ينذرون إلى مارس «في بدء المعركة ، كل ماسيحصلون عليه : وبعد النصر ، يضحون له بالسلب الحي ويجمعون كل الباقي في مكان واحد» . ان الاسم السلتي للاله الغالي للحرب غير معروف . وان النقوش الكثيرة الموقوفة لمارس تتضمن على الغالب القاب : البيوريز Abbioriz «ملك العالم» ريجيزاموس Rigisamos «ملكي جداً» ؛ كاثوريكس caturix «ملك المعركة» ، كامولوس camulus «قوي» ، سيغومو segomo «منتصر» الخ . . وبعض القابه هي غير مفهومة ، ولكن حتى لو أمكن ترجمتها ، لاتغني معارفنا . ويمكن القول ذات الشيء بشأن اكثر من مائة نقش موقوفة لهرقل ، تماما كذلك التي هي مكرسة لمارس ، تشير فقط لوجود اله للحرب .

وإذا أخذنا في الحسبان بعض المعلومات ، فإن بنية هذا الاله تبدو معقدة . وحسب المؤرخ الاغريقي لوسيان الساموزي (القرن الثاني ب . م) فإن اسم هرقل Héraclés كان اوغاميوس ogamios وقد رأى لوسيان صورة لهذا الاله : انه شيخ

أصلع ، ذي جلد مجعد ، يجر عدداً كبيراً من الرجال والنساء المربوطين بلسانه بسلسلة من ذهب وعنبر . ومع انهم مرتبطين بشكل واهٍ ، فإنهم لم يكونوا يريدون الهرب ، وإنما كانوا يتبعونه (مسرورين وفرحين في اغراقه المديح) . وإن رجلا من اهل البلاد قد فسر له الصورة : هم ، السلت ، لا يمثلون بفن الكلام بهرمس ، كالاغريق ، وانما بهرقل ، «لأن هرقل هو أقوى بكثير» [خطاب ، هرقل ، ١ ـ ٧] . وان هذا النص افسح المجال لتفسيرات متناقضة[١٧]. فقد قورن الاشخاص المربوطون بالسلاسل بالماروت marut الذين يرافقون اندرا ، وبجيش الاينهيرجار des Einherjar الحارسين أودهين ـ وودين [ج . دي فرايس] . ومن جهة أخرى قرِّب من فارونا «المعلم الموصل» [ف . لورو] . ومن الراجح ان «مارس» السلتي قد مَثَّل بعض الصفات الخاصة لاله سيد ـ ساحر ، مدعما وظيفته النفسية العصابية . (كما سنرى فقرة ١٧٥ ، كان اودهين عند الجرمن ، على العكس فد اضيف اليه في جزء منه اله الحرب) . وفي الأدب الملحمي الايرلندي يقابل الاله أوغميوس ، الاله أوغما البطل بامتياز . ولكنه يضاف اليه كذلك اختراع الكتابة المسماة (اوغامبيك) ؛ الذي يعيد القول بأنه يجمع القوة الحربية و «العلم» من نوع اودهينيك odhinique .

●

ويمثل سيزار «أبولون» كإله طبيب ، واسمه الغالي مجهول ، ولكن القابه البارزة في النقوش تثبت بصورة عامة خاصيته بالشفاء . وعليه فإن النصوص الايرلندية تتكلم عن ديانسشت Diancecht الذي يشفي ويعيد احياء التواثادي دانان le Tuatha Dé Danam انه يستدعى اضافة الى ذلك بصيغة قديمة من التعزيم exorcisme وان اسمه مذكور الى جانب غروبنيو Grobniu ، الاله الحداد . فيمكن اعتباره اذن كممثل لآلهة يعتبرها (ديميزيل) مخصصة «للوظيفة الثالثة» . اما بالنسبة «لمنيرفا» التي يجهل اسمها الغالي ايضا ، ولكن سيزار كان قد عرفها كربة للصناعات اليدوية والمهن (فهي تنتمي اذن للوظيفة الثالثة) . وقد قربت من الربة بريجانيتا Brigantia ، ابنة داغدا Dagda ، ومعلمة الشعراء ، والحدادين والأطباء .

١٧١ - هل يمكن اعادة تكوين مجمع الآلهة السلتي

إن البانتيون المستتر بالشرح الروماني لسيزار يموّه حقيقة دينية حيث ان مقارنتها بالتقاليد السلتية لسكان الجزر تجعلها ممكنة القبول في جزء منها . ففيما يتعلق بالاسماء اللاهوتية theonymes المرفوعة على الآثار وفي النقوش من العصر الغالي - الروماني ، تبدو في معظمها نعوت تفصيلية أو إرائية topagraphiques للآلهة اعضاء البانتيون : إن بعض العلماء اعتبرها (خطأ) كأنها تدل على آلهة مستقلة .

إن المعلومات الوحيدة حول الأسماء الغالية للآلهة قد نقلت إلينا ، في القرن الأول ب.م عن طريق الشاعر لوكين Lucain فهو يذكر «أولئك الذين يهدئون بتضحية رهيبة العنيف توتاتس teutates والمرعب ايزوس Esus على مذابح متوحشة وتارانيس Taranis ، مذبح ليس أقل قسوة من مذبح ديانا السيتيكية» [فارساليا ١ - ٤٤٤ - ٤٦] . إن رسمية هذه الأسماء مصادق عليها بالتسجيلات الغالو-رومانية التي تذكر ايزوس ، وثارانوكنوس (أوجوبيتر تارا نوكنوس) ومارس توتاتيس . وقد جرّب كاتب تعليق في القرون الوسطى(١٨) أن يشرحها ، ولكن شروحه متضاربة . ومع ذلك فإن الشرح يقدم معلومات دقيقة حول نوع الأضحية المقدمة إلى كل واحد من الآلهة : بالنسبة لتوتاتس ، **يخنق** رجل باغراقه في دن ، وبالنسبة لايزوس كانت الأضحية تعلق على شجرة وتذبح ، وبالنسبة لتارانيس - «معلم المعارك وأكبر آلهة السماء» - كان الرجال **يحرقون** في سلة من خشب .

ان واحدة من صور قدر غونديستروب Gundestrup تمثل شخصية مرتدية الثياب وهي تقذف الضحية البشرية ، ورأسها إلى الأسفل - في حلة . وعدد من المحاربين المشاة يتجهون صوب الحلة ، ومن فوقهم فرسان يبتعدون . ويظن جان دي فري [المرجع السابق ص ٥٥] انه يمكن ان يكون ذلك مسألة طقس

مساري ، ولكنه لا علاقة له مع توتاتس . (ان الشعر الملحمي الايرلندي يعاود مرارا عرض قصة الملك الذي ، في بيت محمي لدرجة البياض ، يغرق في دن حيث كان يسرع للنجاة من الحريق . إنه بالتأكيد يتعلق بطقس مدخل للأضحية البشرية)[١٩] . ومنذ القرن الثامن عشر جرت ترجمة الاسم توتاتس بـ «أب القبيلة» . فالاله قد لعب بالتأكيد دوراً هاماً في حياة القبيلة ، لقد كان معلم الحرب ، الا ان وظيفته كانت اكثر تعقيداً[٢٠] .

وفيما يتعلق بتارانيس فإن دلالة اسمه واضحة : الجذر هو تاران (رعد) . وتحت شكله الثاني ، ثاناروس ، هو قريب من إله الجرمن ، دونار[٢١] . وتماما كدونار تمثل بجوبيتر . ومن الراجح اذن ان اعمدة «جوبيتر الجبار» كانت مكرسة لتارانيس «المرعد» الاله السلتي القديم للسماء . ويوجد الاسم ايزوس في الاسماء الخاصة ، ولكن الاشتقاق اللغوي غير دقيق[٢٢] . وعلى قاعدتي المذبحين صُوِّر ايزوس ضارباً شجرة ؛ فهل يعني ذلك تضحية بالشنق ؟ ان جان دي فري يقدر ان ايزوس كان الها غالياً يمكن مقارنته بأودِهن السكندنافي[٢٣] . وفي الحقيقة ، لا يُعرف شيء دقيق في هذا الشأن .

ان المنحوتات والصور الايقونية والنقوش قد اظهرت الاسماء والصور لآلهة اخرى غالو- رومانية . وفي بعض الحالات تم التوصل الى كشف بنيتها والدلالة على وظيفتها الدينية بفضل الميتولوجيا المموهة في تقاليد السلت الجزريين . إلا انه ، وفعلاً بسبب اتجاه محافظ يميز العبقرية الدينية للسلتين ، كانت نتائج التحليل غالباً غير دقيقة . ونذكر بمثال شهير : النقش البارز الوضوح والحامل الاسم سيرنونوس Cernunnos والممثل بشيخ عجوز ، أصلع ، له اذنا وقرون غزال . وطبيعي أن يثار مشهد مصور على حلّة غوند يستروب Gundestrup : شخصية يعلو رأسها قرون أيِّل وجالسة في وضع سمي بالصدفة (وضع بوذا) وهي تمسك بيدها عقداً ، وباليد الأخرى افعى لها رأس كبش : وهي محاطة بحيوانات متوحشة وبأيل جميل جدا . وقد وجدت صور مماثلة في بريطانيا العظمى[٢٤] . ومعلوم ان الايقونة والرمز الديني للأيل هما قديمان جداً . وهنالك مشهد منقوش

لفال كامونيكا val cammonica يرجع الى القرن الرابع ق.م يمثل الها له قرون أيّل وحية ذات قرون . الا انه ، وكما رأينا (ف ٥ ع) فإن الساحر الكبير أو «رب الحيوانات» في مغارة الأخوة الثلاثة كان ايضا له رأس أيلٍ تعلوه قرون كبيرة جداً . وعليه يُمكن تفسير السيرونونوس كإله من نمط (رب الوحوش الكاسرة)(٢٥) .

مع ذلك فإن الرمزية الدينية للأيل معقدة إلى حد كبير جداً . فمن جهة ، وفي منطقة تمتد من عصر ماقبل التاريخ ، من الصين حتى اوروبا الغربية ، فهو بسبب التجديد الدوري لقرونه ، أحد رموز الخلق المتمادي والتجديد . ومن جهة اخرى فإن الأيّل كان يعتبر كجد أسطوري للسلتيين والجرمن(٢٧) . واضافة الى ذلك كان أحد الرموز الأكثر شهرة للخصب ، وأيضاً حيواناً جنائزياً وقائداً للموتى ، وكان بخاصة الطريدة المفضلة للملوك والأبطال : اماتته في الصيد ، كانت متضامنة رمزيا مع الموت المأساوي للأبطال(٢٨) . وبالنتيجة ، فإنه من المرجح ان سيرنونوس كان يقوم بوظائف اخرى الى جانب وظائف (رب الوحوش الكاسرة) . ويكفي التذكير بالمعركة الطويلة والقاسية التي خاضتها الكنيسة ضد التنكر الطقوسي بأيَّل (cervulo facere) للتحقق من الأهمية الدينية للأيل (الطريدة المفضلة للارستقراطية العسكرية) في الأوساط الشعبية .

ان مثال سيرنونوس يوضح الصعوبة لتفسير عقدة دينية متعددة القيمة تفسيراً دقيقاً في غياب نصها الاسطوري - الطقوسي المميز . فعند محاولة تحليل الوثائق الأثرية الخاصة بالآلهة النسوية جوبهنا بصعوبة مماثلة ، وكل ما يمكن التأكيد عليه هو ان العدد البارز من التماثيل D'EXvoto يقنع بأهميتها . ان الرسوم التشكيلية للماترس والماتروني des matros et matronae تبرز خاصيتها كربة للخصب والأمومة (سلة فواكه ، قرن الخصب ، اولاد في الحضن أو على الركبتين الخ .) . وكما كتب كاميل جوليان ، «ربما كانت آلهة مغفلة ، لم يكن لها اسماءولها مئة من الصفات»(٢٩) . غير أن النصوص السلتية لأهل الجزر تقدم تحديدات لها دلالاتها . ان أم الآلهة كانت ربة : دانو Danu في ايرلندا ، ودون Don في بلاد

الغال . واكثر من هذا : لا يمكن ان يكون ملك في ايرلندا (ايريو Eriu) الا بزواجه من الربة الوحيدة التي كانت تحمل ذات الاسم ، وبعبارة اخرى كان يضاف الى السيادة بزواج مختلط hieros gamas مع ربة الأرض . وان هذا السيناريو الاسطوري - الطقوسي يشكل احد النغمات الأكثر استعمالاً والأكثر ثباتاً في الادب الوطني Vermaculaire(٣٠) .

ومن الواضح ، انه يتعلق بمفارقة من السيناريو الاسطوري - الطقوسي القديم في الشرق الأوسط ، المتضمن الزواج المقدس بين السماء والأرض (أو العاصفة ، أو الشمس) والأرض - الأم ، مشخصة بالملك وبكاهنة .

ان هذا الزواج hiero gamos كان يضمن الخصب للبلاد والثروة للحكم لفترة من الزمن . وان استمرارية الحياة للتراث القديم في ايرلندا قد توضح بطقس التنصيب الملكي ، المؤكد في القرن الثاني عشر : على مرأى من رعيته ، يقترن الملك مع مهرة بيضاء يجري قتلها وطبخها بعدئذ ، ويقسم لحمها من قبل الملك ورجاله(٣٠) . وبعبارات اخرى ، فإن السيادة تجلب بالزواج Herogamos بين الملك والأرض الأم Terra mater تحت شكل فرس . وعلى ذلك ، فإن ربة غالية gauloise ايبونا (ريجينا) ، هي مرسومة على الآثار ، جالسة على حصان أو واقفة امام حصان أو بين مجموعة احصنة . وقد فسرت ايبونا كربةٍ أم وعصابية(٣٢) . وان تابعها الايرلندي رهيانون Rhiannun كان كذلك على علاقة بالخيل(٣٣) .

وتماما كما في الرسم الايقوني لبريطانيا الكبرى في العصر الروماني ، فإن الأدب الوطني يقدم بتفضيل الربات الامهات المجمعات في ثالوثات . وان اكثرها شهرة الماشا الثلاثة les troi macha المشخصة للربة الوصية للعاصمة اوليستر(٣٤) .

ولا يمكن الوصول للعرش الا بالنوم مع واحدة من الماشا . وأحياناً تظهر الربة كعجوز حيزبون وتطلب مشاركة النوم مع بطل شاب . غير أن الشاب ما أن يتمدد إلى جانبها حتى تتحول العجوز لفتاة متفردة بجمالها . وبتزويجها منه ،

يحصل البطل على الملك[٣٥] . وإن الفكرة الرئيسية للاسطورة ـ الطقسية للعجوز الممسوخة بقبلة ، التي توجد في قصص البريتون للغرال Graal كانت معروفة سابقاً ، في الهند ، في عصر البراهمانا[٣٦] .

وفي الملحمة ، يوجد للملكة ميدب medb العديد من العشاق ، وهذا ما يعود الى القول بأنها تعود لكل ملوك ايرلندا . غير انه يجب ان نضيف ، ان المرأة في المجتمعات السلتية كانت تتمتع بحرية وتقدير ديني واجتماعي معتبر . ان طقس **الكوفاد** couvade المؤكد في أوروبا لدى السلتين والباسك فقط (شعب ـ ماقبل ـ هندو اوروبي) ، ابرز الأهمية السحر ـ دينية للمرأة . فإلى جانب اعراف قديمة (مثل بعض الطقوس الجنائزية ، وميتولوجيا الموت الخ) يدل «الكوفاد» على استمرارية بقاء العناصر الماقبل الهندو ـ اوروبية ـ والعائدة على الأرجح الى سكان محليين من عصور النيوليتيك .

أما بالنسبة للربات ، فان وظائفهن المتعددة للألوهية الحاكمة للخصب والحرب والمصير والثـروة تأكـدت كذلك لدى الربات الجرمنية ، الأمر الذي يشير ، أقله في جزء منه على تراث هندو ـ اوروبي[٣٧] . وقد اضيف الى هذا التقليد الديني العائد لما قبل التاريخ الأوربي وما قبل التاريخ السلتي، أضيف إليه تباعاً التأثيرات من البحر المتوسط الروماني ، وبدقة اكثر ذلك التركيب من العصر الهيلليني ـ والمسيحي . ومن أجل قياس العبقرية الدينية السلتية يجب ان يؤخذ في الحسبان في ذات الوقت الاستمرارية التي حوفظ بها على بعض العناصر الأثرية ـ وفي المقام الأول العادات والمعتقدات ذات العلاقة مع (الاسرار) الخاصة بالأنوثة ، والقدر والموت والعالم الآخر ـ واعادة تقييمها المستمر منذ القدم وحتى العصر الماقبل الحديث .

١٧٢ ـ الكهنة الغاليون وارشادهم الباطني

ان الصفحات المكرسة من قبل جول سيزار للكهنة الغاليين (الدرويد) De bello Gallio [٦ ـ ٢] تشكل واحدة من المصادر الأكثر أهمية **حول الديانة** السلتية .

وان هذا البروكونسول يستعمل ، بدون ان يذكره معلومات بوزيدونيوس posidonius (القرن الثاني ق.م) الا انه كذلك كان قد حاز معلومات اخرى . فالكهنة الغاليون ، كما يقول سيزار ، (يسهرون على الأشياء الالهية ، ويهتمون بالأضاحي العامة والخاصة ؛ وينظمون كل الاشياء المتعلقة بالدين . وان عدداً كبيراً من الشباب يأتون إليهم ليتعلموا ويستفيدوا تقديراً كبيراً)

إن هؤلاء الدرويد (الكهنة) هم الذين «يفصلون في الخلافات ، العامة والخاصة» وكل من لا يقبل قرارهم كان يمنع من الاضاحي ، الأمر الذي يعادل نوعا من الموت المدني . إن رئيساً وحيداً يمارس السلطة العليا . «وعند موته اذا كان أحدهم يماثله بفضله فإنه يخلفه : وإذا كان هنالك مجموعة متساوين فإنهم يختصمون على الامارة وأحيانا يجري الاقتراع وأحيانا يتنازعون بالسلاح . في فترة ما من السنة ، يجتمعون في مكان مكرس من بلاد الكارنوت carnutes يعتبرونه مركز الغال» .

ان الدرويد معفون من الخدمة العسكرية ومن الالتزام بدفع الضرائب ، ويأتي الكثيرون لاتباع تعليمهم منجذبين بمكاسب كثيرة . ويقال بأنهم يحفظون هنالك ، عن ظهر قلب ، عدداً كبيراً من الأشعار : وبعضهم يبقى اذن عشرين سنة في مدارسهم . ومن رأيهم ان الديانة ممنوع تعليمها كتابة ، كما يمكن اجراء ذلك في علوم اخرى ، وفي الحسابات العامة والخاصة التي تستعمل فيها الأحرف الهجائية الاغريقية» . ويؤكد سيزار بأن الدرويد اقاموا هذا الاستعمال «لأنهم لم يريدوا نشر مذهبهم في الشعب» ، **وأيضاً** فإنهم بتهربهم عن استعمال الكتابة يهمل المتدربون ـ الدرويد المذاكرة . ان اعتقادهم هو «أن الأرواح لا تفنى أبداً ، ولكنها تمر بعد الموت من جسد لآخر ؛ وهذا ما يبدو لهم بصورة خاصة جدير باثارة الشجاعة وبالغاء الخوف من الموت . انهم يناقشون كذلك كثيراً في أمور النجوم وحركاتها وفي الطبيعة للاشياء ، وقدرة وقوة الآلهة الخالدة وينقلون هذه التأملات للناشئة» .

ان الدرويد هم كالبراهمان الكهنة (انهم هم الذين يمارسون الاضاحي) ، وكذلك ايضاً المعلمون والعلماء والفلاسفة(٣٨) : ، وان اجتماعهم السنوي في «مكان مكرس . . المعتبر لديهم كمركز للغال» هو على درجة عالية من الدلالة . انه بالتأكيد ، يتعلق بمركز احتفالي «كمركز للعالم» (٣٩) . وهذه الرمزية المؤكدة تقريباً في كل العالم (ف ١٢ ع) متضامنة مع المفهوم الديني للفضاء المقدس ولتقنيات تكريس الأمكنة : وعليه ، وكما رأينا فإن بناء حيز مقدس كان مطبقاً من قبل السلتيين مما قبل التاريخ ومن الواضح ان الاجتماعات السنوية للدرويد تفترض وحدة افكارهم الدينيــة ، بالرغم من التغيير الذي لا محيص عنه لاسماء الآلهة والمعتقدات المميزة لقبائل مختلفة ، ومن المرجح ان الاضحيات العامة المنجزة. من قبل الدرويد على ارض الغال كان لها كنموذج الدلالة الدينية للأضحية الكبرى المحتفل بها في (وسط) بلاد كارنوتوس(٤٠).

وقد طبق السلتيون الأضحيات البشرية ، وحسب معلومات بوزيدونيوس المستعملة من قبل ديودور الصقلي [٧ - ٣١٠] ومن قبل سترابون [٦ - ٤] فإنهم قد طبقوها بطرق مختلفة : تضرب الضحية بسيف صغير ويتنبأ بالمستقبل تبعاً لاختلاجاتها وسقوطها ، أو تخترق بسهم ، أو تخوزق . ويقرر سيزار [ب . ح/ ٦ - ٦١] ان «المصابين بمرض خطير أو الذين يتعرضون لخطر كبير في المعارك يذبحون ، اضحيات بشرية ، أو ينذرون بتقديمها ويرجعون في هذا لمشاورة الدرويد» . وقد شرح بعض المثقفين هذه الوقائع كبرهان على بربرية السلت والخاصية البدائية الوحشية والطفولية في آن واحد للاهوت الدرويدي . غير ان الاضاحي البشرية كانت **في كل** المجتمعات التقليدية تناسب رمزية كوزمولوجية واخروية هي بخاصة قوية ومعقدة ، الأمر الذي يفسر استمراريتها لدى الشعوب الجرمنية الجيت - داس والسلت والرومان (الذين منعوها في سنة ٩٧ ب.م) . وان هذا الطقس الدموي لا يدل مطلقاً على الدونية العقلية ولا القصر الروحي للشعوب التي طبقتها . وعلى سبيل المثال نذكر ان النجادجو داياك لبورنيو Les Ngadju Dayak du Bornéo الذين أقاموا واحدة من اكبر اللاهوتيات تماسكا ورفعة

معروفة في تاريخ الاديان ، كانوا صيادي رؤوس وكالسلت تماماً طبقوا الأضاحي البشرية[٤١] .

ان كل المصادر تؤكد على الأهمية المعتبرة للدرويد في تعليم الشبيبة . ومن المرجح ان التلامذة الذين يجهزون لمنصب الدرويدية والذين كان يتوجب عليهم الدراسة بعمق للميتولوجيا والعلوم ، كانوا يتبعون اثناء عشرين عاماً تعليم ارشادات معلميهم . وان رفض الكتابة (الذي يفسر جهلنا بمذهب الدرويديين) والأهمية المناطة بالذاكرة والنقل الشفاهي للتعليم يمدد التقليد الهندو - اوروبي (كما ذكرنا) . وقد كان التعليم سريا لأنه كان باطنياً ، بمعنى انه غير قابل للفهم من غير المتلقين . . وان هذا المفهوم يذكر بباطينة الأوبانيشاد (ف ٨٠٠ ع) والتانتراس Tantras .

اما بالنسبة للاعتقاد بالتقمص metempsycose فإن الايضاح التقدمي من قبل سيزار - مبدأ «هو أنه بصورة خاصة مناسب لاثارة الشجاعة مزيلاً الخوف من الموت» - هو بكل بساطة التفسير العقلي لعقيدة في استمرارية حياة الروح . وكتب لوكين Lucain [فارساليا ١ - ٤٥٠] ان السلت يرون «ان ذات الروح تحكم جسداً في عالم آخر» . ويذكر كل من بومونيوس ميلا pomponius mela [٣ - ٣] وتيماجين Timagéne مؤكدين أن في تعليمات الرويد تعتبر «الأرواح خالدة» . ويقرر ديودور الصقلي [٧ - ٢٨ - ٦] ان «أرواح البشر هي خالدة وترجع في عدد من السنين الى جسد آخر» . وقد تأكدت العقيدة بالتقمص في الأدب الايرلندي[٤٢] . وبغياب كل دليل مباشر ، يكون من الصعب التحقق فيما اذا كان الوجود التالي للروح يقتضي بالنسبة للدرويد «الخلود» وفي ذات الحين الروح والجسد سواءً (كما في الاوبانيشاد) ، او انه كان يتكون في «استمرارية حياة» غير محدودة للروح فحسب .

وبما ان بعض الكتاب القدامى قد اثار في شأن السلت ، النظرية الأورفية - الفيثاغورية للتقمص ، فإن عدداً من العلماء المحدثين استنتج ان الكتاب الاغريق - اللاتين فسروا المعتقدات السلتية في اللغة الفيثاغورية ، وبعبارة اخرى

انهم اخترعوا عقيدة مجهولة من قبل السلتيين . غير ان هيرودوت في القرن الخامس ق.م شرح بالطريقة ذاتها - أي بتأثير فيثاغورس - عقيدة الجيت des Getes «بخلود» الروح ، عقيدة ، لم ينكرها هذا المؤرخ اليوناني أصلاً (ف ١٧٩ع) . وبالفعل ، ان الكتاب القدامى استدعوا بحق فيثاغورس لأن مفاهيم الجيت والسلت كانت تذكر بمبدأ أورفي - فيثاغورسي .

وقد وضعت ايضا موضع الشك المعلومات الواردة من سيزار عن الاهتمامات العلمية للدرويد : « . . . لقد ناقشوا في الكثير عن النجوم وحركاتها وعظمة العالم والأرض» الخ . . ومع ذلك فإن قطعة من التقويم الذي وجد في كولونيا cologny يبرهن عن وجود معارف فلكية متقدمة . وفي الواقع تمكنوا من بناء دورة من ١٩ سنة شمسية معادلة الى ٢٣٥ شهراً قمريا ، الأمر الذي اجاز التوفيق بين النظامين (الشمسي والقمري) . وان عدداً من الباحثين قد اعتبر مع ذات الشبهة معلومات سترابون المتغلقة بالمعارف الفلكية للجيتو - داسيس Géto-Daces ولكن ، وكما سنرى (ف ١٧٩ ع) فإن الحفريات قد كشفت عن بقايا لمعبدين تقويميين في سارميزيتوزا sarmizecetuza وفي كوستستي costesti أي في المراكز الاحتفالية للجيتو - داسز .

هذا وان الضغط على الدرويد في عهد الاباطرة اوغست ، وتيبر وكلور انما كان يهدف للقضاء على الوطنية الغالية . ومع ذلك ، عندما نقص الضغط الروماني بشكل واضح في القرن الثالث تولدت نهضة فجائية للدين السلتي واستعاد الدرويد سلطتهم . وفي ايرلندا استمر الدرويد في الوجود حتى القرون الوسطى شأنهم في ذلك شأن البنى الدينية الأخرى . وماهو اكثر من ذلك ، ان ابداعية العبقرية الدينية السلتية ستعرف اوجاً جديداً في الأدب المنتعش بدءاً من القرن السابع حول الابطال المدخلين في الاستقصاء عن الغرال Graal كما سنرى في القسم الأخير من هذا الكتاب .

١٧٣ - يغدرازيل ونشكونية قدامى الجرمن

مع حيازة معلومات اكثر غنى من المعلومات عن السلتين ، فإن مؤرخي الديانة الجرمنية يصرون على صعوبة مشروعهم . ان المصادر هي من طبيعة مختلفة ومن قيمة غير متساوية : قطع اثرية ، كتابات من العصر الروماني (وفي المقام الأول منها جرمانياتاسيت) ، تفصيلات وصفية للمبشرين المسيحيين وبخاصة قصائد السكالوالايزلندية des shaldes islandais المتممة بالكراسة القيمة المقمشة من قبل سنوري ستورلوسون snorri sturluson في القرن الثالث عشر . زد على ذلك ، ففي ايسلندا فقط ، التي اخذت الصبغة المسيحية بوقت متأخر (في سنة ١٠٠٠) قد حوفظ على تقليد شفاهي متماسك بما فيه الكفاية لكي يسمح لنا باعادة تكوين الميتولوجيا والطقوس في خطوطها الكبرى . وهذا ما يعيد القول ، بأنه لا يمكن بدون أدلة اضافية ، اعتبار المعلومات المتعلقة بعقائد المهاجرين النروجيين في ايسلندا، صالحة لمجمل القبائل الجرمنية .

مع ذلك ، ورغم فراغات كبيرة جداً (أي معلومات حول القوط Coths والبرغوند bergondes) ، ورغم تنافر المعتقدات ، المتحصلة من تأثيرات مختلفة (سلتية ، رومانية شرقية شمال اسيوية مسيحية) والمتحملة من قبل مختلف القبائل اثناء تشتتها عبر نصف أوروبا ، لا يمكن الشك بوجود بعض الوحدة الأساسية في ديانة الجرمن . وبدئياً ، ان مجموعة عناصر مميزة للتراث الهندو-اوروبي قابلة لأن يعترف بها في تقاليد عدد من القبائل «بالدرجة الأولى التوزيع الالهي الثلاثي ، الزوج المتناقض والمتم للآلهة الأسياد الأخروية». اضافة الى ذلك ، فإن اسماء الأيام تدل على أن كل الشعوب الجرمنية كانت تقدس الآلهة الكبرى نفسها . وعندما تبنى الجرمن في القرن الرابع ، اسبوع السبعة أيام ، استبدلوا بأسماء الآلهة الرومانية اسماء الهتهم الخاصة . وهكذا على سبيل المثال الاربعاء mercredi (dies mercuri) أي يوم ميركوري قد ابدل باليوم اودهين - ودان «jour d'odhin-wodan الألماني - القديم - العالي woutanestac ، والانكليزي

wednesday ، والنيرلاندي woensday ، والاسكندنافي القديم odhinsdags .
الأمر الذي يثبت أن ميركور قد تطابق مع اله معروف في كل مكان في العالم الجرمني تحت اسم واحد هو نفسه : odhin wodan .

وقد لوحظ أن آخر مظهر للدين الجرمني قد حكم بالاهتمامات المعطاة لاسطورة نهاية العالم . والمقصود بذلك ظاهرة عامة ، مؤكدة منذ القرن الثاني ق.م في الشرق الأدنى وفي ايران وفلسطين والبحر المتوسط ، وبعد قرن من الزمان في الامبراطورية الرومانية . غير أن ما يميز الديانة الجرمنية ، هو واقعة ان نهاية العالم قد سبق اعلانها في التشكونية .

والقصة الأكثر اكتمالاً للخلق نقلت من قبل سنوري snorri [جيلفاجينين ، ٤ - ٩] ، وان منبعها الرئيسي هو قصيدة رائعة ، فوليسبا voluspa أي («نبوءة فولغا» بمعنى «العرّافة») . وهي مؤلفة حوالي نهاية العصر الوثني . وحسب هذه النبوءة (فقرة ٣) ، لم يكن هنالك في البدء «لا أرض ولا قبة سماوية» وانما «هوة جبارة»[٤٣] . وهذه الصورة ، المألوفة في النشكونيات الشرقية ، توجد في نصوص أخرى[٤٤] . وقد حدد سنوري بدقة أنه كان يمتد في الشمال اقليم بارد كثير الضباب ، نيفلهيمر Niflheimer ، متطابق مع عالم الأموات حيث يسيل نبع مولد لاحدى عشر نهراً صغيراً ، وفي الجنوب كانت توجد بلاد محترقة ، موزبل Muspell ، محروسة من العملاق سوسترا sustra (الأسود) . وبنتيجة تلاقي الجليد والنار ، تولد كائن بشري يمير ymir في الأقليم المتوسط . واثناء نومه ، تولد تحت ذراعه من عرقه ، رجل وامرأة، وان احدى رجليه حملت ولداً مع الأخرى . ومن الجليد الذي ذاب أتى للكائن بقرة ، اودهومبلا Audhumbla ؛ وان هذه البقرة هي التي غذت يمير من لبنها . وبلعقها الجليد المالح ، أعطته أودهو مبلا شكل انسان ، بوري Buri . وقد تزوج هذا ابنة جبار فكان له منها ثلاثة أبناء : اودهين ، وفيلي ، وفي odhin, Vili, et vé وقد قرر هؤلاء الاخوة الثلاثة قتل يمير ، فابتلع طوفان دم كل الجبابرة ماعدا واحداً انقذ باعجوبة مع زوجته . وبعدئذ ، جر الأخوة ، يمير الى وسط حفرة كبيرة ، وبتقطيعه انشأوا العالم من

جسده : من لحمه شكلوا الأرض ، ومن عظامه الجبال ، ومن دمه البحر ، ومن شعره الغيوم ، ومن جمجمته السماء .

إن النشكونية المبنية على اماتة وتقطيع كائن بشري تذكر بأساطير تيامات (ف ٢١ ع) وبيروشا (ف ٧٣ ع) وبانكو (ب ١٢٩) ، فخلق العالم اذن نتيجة أضحية دموية : هي فكرة دينية قديمة منتشرة بشكل واسع ، وهي عند الجرمن كما عند شعوب أخرى تبرر التضحية البشرية . وفي الواقع إن مثل هذه الأضحية تكرار للعمل الالهي الأولي ، وتضمن تجدد العالم ، واعادة تجديد الحياة ، وتماسك المجتمع .

إن يمير هو خنثى[٤٥] : حمل لوحده زوجاً بشرياً ، والخنثوية la bisexualite تشكل ، كما علمنا ، التعبير الممتاز عن الكلية . ولقد تدعمت فكرة الكلية البدئية لدى الجرمن القدامى بسنن وتقاليد ميتولوجية ، وبحسب هذه التقاليد ان يمير هو جد للآلهة وأوجد كذلك الجبابرة الشيطانية (الذين سيهددون الكون حتى الكارثة النهائية) .

بمتابعة عملهم النشكوني ، يخلق الأخوة الثلاثة النجوم والأجرام السماوية بدءاً من الشهب اللامعة ، ونظموا حركتها بتثبيت الدورة اليومية (الليل والنهار) وتتابع الفصول . إن الأرض ، على شكل دائري كانت محاطة من الخارج بالمحيط الكبير ؛ وعلى الجوانب ، أقام الآلهة مسكن الجبابرة . وفي الداخل بنوا ميدهجاره midhgardh (لغوياً «متراً في الوسط») ، عالم البشر ، المحمي بسور مصنوع من اجفان يمير . بمساعدة هونير Hoenir ، الاله الصامت ، وبمساعدة لودهور Lodhur ، الذي نجهل كل شيء عنه ، خلق اودهين odhin أول زوج بشري بدءاً من شجرتين ، اسكار وايمبلا Askr et embla[٤٦] وجدتا على الشاطىء : هو احياهما ، وهونير قدم لهما العقل ولودهور اعطاهما الحواس والشكل البشري . وهنالك اسطورة اخرى تتحدث عن كائنين بشريين متعلقين بالشجرة الكونية بجدرازيل yggdrasill ويعمران العالم . اثناء الشتاء الكبير لرغناروغ Ragnarok (١٧٧ع) سيجدان ملجأ في جذع يجدرازيل وسيتغذيان بندى

اغصانها . وحسب سنوري snorri ، ان هذا الزوج الملتجىء الى الشجرة الكونية سيعيش عند خراب العالم وسيعود لسكنى الأرض الجديدة التي ستجدد بعدئذ .

ان الشجرة يجدرازيل كائنة في وسط رمزي ، وهو يشكل العالم في الوقت نفسه . رأسها يلامس السماء وأغصانها تحتضن العالم ، وأحد جذورها ينغرز في بلاد الموتى (هال) Hel ، والأخرى في منطقة الجبابرة والثالث في عالم البشر(٤٧) . منذ انبثاقها (أي منذ ان نظم العالم من قبل الآلهة) أصبحت يجدازيل مهددة بالدمار ، وأخذ نسر على عاتقه افتراس اوراقها ، وأخذ جذعها بالتلف ، وبدأت الأفعى يندهوغ Nidohog تقرض جذورها . وفي يوم قريب ستنهار يجدرازيل وسيكون هذا نهاية العالم (راغنا روك Ragnarok) .

وبوضوح ، يتعلق هذا بالصورة المعروفة جداً عن الشجرة الكونية الكائنة في وسط العالم والرابطة للمستويات الكونية الثلاثة : سماء ، أرض ، وجحيم(٤٨) . وقد اشرنا في عدد من المناسبات الى القدم وإلى الانتشار البارز لهذا الرمز الكوني . وان بعض المفاهيم الشرقية والشرق اسيوية قد أغنت بالفعل صورة واسطورة يجيدرازيل . غير انه يقتضي الاشارة للملامح الجرمنية المميزة : الشجرة - يعني الكون - تعبر بظهورها حتى عن الانحطاط والدمار النهائي ، فالقدر (وردهر urdhr مختبىء في البئر تحت الأرض حيث تنغرز جذور يجدرازيل ، وبعبارة اخرى في مركز الكون ذاته . وحسب الفوليسبا (فقرة ب) la voluspa ان ربة القدر تحدد المصير لكل كائن حي ، ليس البشر فحسب ، وانما ايضاً الآلهة والجبابرة . ويمكن القول ان يجدرازيل تجسد القدر النموذجي والشامل للوجود كل طريقة للوجود - العالم ، الآلهة ، الحياة ، البشر - قابلة للفناء ، ومع ذلك قابلة لمعاودة نشأتها في بداية دورة كونية جديدة .

١٧٤ - الآذس والفانس . ادهن ومزاياه (الشامانية)

إن الآلهة بعد أن أقاموا زوج الاجداد في ميدهجارد midhgardh بنوا مقرهم الخاص ، ازجارد Asgardh ، دائما في مركز العالم وانما في الأعلى(٤٩) . وقد اعيد

توزيع البانتيون بين مجموعتين الهيتين : الآذس والفانس les Ases et les Vanes . وان الأكثر شهرة بين الآذس هم تير Tyr ، اودهن odhin وتهور thòrr ، والأولان يوافقان اقنوحا من إلهين سيدين (في الهند الفيدية ، ميترا وفارونا) ، بينما ان تهور الاله ذو المطرقة ، والعدو بامتياز للجبابرة ، يذكر بالصفة الأمومية لاندرا . ومن جهتهم ، فإن الأكثر أهمية بين الفانس ـ نيجوردر Nijordhr ، فراير Freyr وفريجا Freyja ـ متميزون بغناهم وعلاقاتهم بالخصب ، والسرور والسلام . وبتحليلنا للبنية الاسطورية للحرب بين الرومان والسابيين (ف ١٦٢ع) اشرنا سابقا للنزاع الذي واجه الآزس والفانس . فهذه الحرب الطويلة والقاسية والسجال ، انتهت بمصالحة نهائية . فالآلهة الرئيسيون الفانس استقروا لدى الآذس واكملوا بالخصب والثروة التي يتحكمون فيها المزايا الممثلة بالسيادة القانونية ، والبسحر والقوة العسكرية .

ان عدداً من الباحثين قد افرغوا جهدهم لتفسير هذا المشهد الخرافي ، كتذكار لنزاع تاريخي بين الممثلين لثقافتين متميزتين ، تتقاسمان معتقدات دينية مختلفة : المزارعون المحليون (بالنسبة لبعضهم «شعوب الميغاليس ») وقاهروهم «سكان السهوب» أو الغزاة الآريون) . ولكن جورج ديميزيل أظهر ان ذلك يتعلق بنغمة اسطورية هندواوروبية أعطيت صفة تاريخية في اقصوصة سنوري[٥٠] .

بالتأكيد ، ان غزوات اقاليم مسكونة من قبل السكان المزارعين من العصر الحجري النيوليتك ، واخضاع الوطنيين سكان البلاد من قبل غزاة اقدر عسكريا ، المتبوع بتركيب وتكافل بين هذين النموذجين من المجتمعات ، بل جنسين مختلفين ، هي وقائع قد تأكدت بعلم الآثار ، وهي تشكل من جهة أخرى ظاهرة مميزة لما قبل التاريخ الأوروبي الممتد ، في بعض الأقاليم ، حتى القرون الوسطى . ولكن النغمة الميتولوجية للحرب بين الآذس والفانس تسبق عملية الجرمنة ، لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من التقليد الهندو ـ أوروبي . ومن الراجح أن الاسطورة قد استخدمت كنموذج واثبات لعدد من الحروب المحلية ، المنجزة بالمصالحة بين الخصوم وبتكاملهم في مجتمع عام .

ونضيف ، مع ذلك إلى انه ، اذا كان الأذس الاساسيون ـ تير ، اودهن تهور ـ قد حافظوا على بعض الخطوط المميزة لآلهة الوظيفتين الأوليتين ، السيادة والحرب ، فإن صورهم تحملت تغييرات جمة وتقولبت من جهة ، بتوافق مع العبقرية الدينية الجرمنية ، ومن جهة أخرى تحت تماس تأثيرات من البحر المتوسط وشمال آسيا . ان اودهن ـ ودون الأكثر أهمية من بين الآلهة ، ابوهم وسيدهم ، وقد وضحت مشابهاته مع فيرونا : كلاهما السيدان بامتياز والمعلمان للسحر ؛ انهما «يربطان» ويشلان خصومهما ، إنهما اليفان للاضاحي البشرية[٥١] . ولكننا سنرى أن الفوارق بينهما ليست أقل تميزاً .

في مقطع من قصيدة هافامال Havamal («كلمات الرفيع الشأن» فقرة ١٣٩ ـ ١٤٢) يروي أودهن كيف حصل على الرونات les runes ، رمز الحكمة والقوة السحرية ، معلق لتسع ليال على الشجرة يجدرازيل ، «مجروح بالحربة ومضحّى لاودهن ، أنا ذاتي مضحى لذاتي ، دون غذاء ولا شراب ، هاهي الرونات les runnes ، تستجيب لدعوتي ، وتتكشف» . وهكذا حصل على العلم المستور وعلى هبة الشعر . انه على التأكيد ، يتعلق بطقس للمسارة من بنية ماقبل الشامانية . اودهين يبقى معلقاً بالشجرة الكونية[٥٢] ؛ يجد رازيل تعني من جهة اخرى «الحصان (درازيل) لـِ يج d'yog» ، أحد أسماء اودهين . ان المشنقة تدعى «حصان» المشنوق ومعلوم ان الضحايا المضحى بها لأوهدن كانت تعلق بالأشجار . وبجرحه نفسه بالحربة ممنوعاً من الماء والغذاء ، يتحمل الاله الموت الطقوسي ويكتسب الحكمة الخفية من نموذج مساري . ان المظهر الشاماني لأودهين مؤكد بحصانه ذي الثمانية مقادم ، سليبنير sleipnir ، وبالغرابين اللذين ينبئانه بكل مايجري في العالم ، وتماما كالشامانيين ، فإن اودهين يستطيع تغيير شكله ويمكنه ارسال روحه تحت شكل حيوانات ، إنه يفتش بالقرب من الأموات ، وانه يحصل ، على المعارف السرية ، ويعلن في قصيدة هافامال (فقرة ١٥٨) انه يعرف سحراً يمكن له ان يجبر مشنوقاً للنزول عن المشنقة ويتعامل معه ، انه خبير في فن السيدهر seidhr ، تقنيته سرية من نمط شاماني[٥٣] .

وثمة أساطير اخرى تظهر الحيل التي يرجع إليها اودهن والثمن الذي يقبل دفعه بهدف الحصول على الحكمة ، وكلية العلم والالهام الشعري . ان جباراً ، ميمير mimir كان مشهوراً بعلمه السري ، فقطع الآلهة رأسه وارسلوه لأودهن . وهذا حافظ عليه بمساعدة نباتات ، ومنذئذ كان يشاور رأس الجبار في كل المرات التي يريد فيها اكتشاف بعض الأسرار(٥٤) وحسب سنوري [جيلفاجينين ٨] ان ميمير mimir كان الحارس لنبع الحكمة على قاعدة يجدرازيل . وإن أدوهن لم يحصل على حق الشرب إلا بعد أن ضحى بعينه ، وإخفائها في النبع [فوليسبا فقرة ٢٥] .

وثمة أسطورة هامة تحكي قصة أصل (شراب الشعر والحكمة) : في الفترة التي تحقق فيها السلام بين الفانس والأذس ، بصقت الآلهة جميعها في قِدر ، ومن هذه البصقة الاحتفالية انبعث كائن ذي حكمة فوق المعتاد سمى كفازير kvasir(٥٥) . وقد قتله قزمان ، ومزجا دمه بالعسل وهكذا صنعوا نبيذ العسل Hydromel وان من يشربه يصبح شاعراً أو عالما . وقد اخبىء الشراب في العالم الآخر وفي مكان يصعب جدا الوصول إليه ، ولكن اودهن يتوصل للاستيلاء عليه ، ومنذئذ أصبح من الممكن الحصول عليه من قبل الآلهة . إن الإلهام الشعري معيّن أو معرّف بالسكالدس les scaldes «كأس ايج» «نبيذ عسل ايج» ولكن ايضا «بنبيذ عسل الأقزام» ، و «بدم كفازير» الخ(٥٦) . وباختصار : على اثر تلقيه (مسارته) والتي تسمح له بالحصول على الرونات les runes وتضحيته بعينه (التي اعطته الحق بالشرب من بئر ميمير) وسرقة نبيذ العسل ، يصبح اودهن السيد الغير منازع بالحكمة وكل العلوم الخفية . انه في آن واحد إله الشعراء والحكماء ، واله الوجديين والمحاربين .

١٧٥ ـ الحرب ـ الوجد والموت

خلافاً لفيرونا ، فإن اودهين ـ ووداين هو إله الحرب : لأنه كما كتب ديميزل «في الايديولوجيا والممارسات الجرمنية ، اجتاحت الحرب كل شيء وكل لون»

[الهة ص ٦٥] . غير انه في المجتمعات التقليدية ، وبخاصة لدى الجرمن القدامى ، تشكل الحرب طقساً مبرراً بلاهوت . فيوجد بدئيا التمثيل لمعركة حربية بتضحية : المنتصر كالضحية يقدم للاله تقدمة دموية . وبالنتيجة ، فإن الموت البطولي يصبح تجربة دينية متميزة . واضافة لذلك ، ان الطبيعة الوجدية للموت تقرب المحارب من شاعر ملهم باكثر مما تقربه من شامان ، ومن نبي وحكيم ـ عراف . وبفضل تمجيد الحرب ، والنشوة والموت اكتسب اودهن ـ ودان صفته المميزة .

ان الاسم ودان Wodan مشتق من المصطلح Wut ووت ، الذي يعني لغويا (الرعب) وهذا يتعلق بالتجربة المميزة للمحاربين الشباب : حولت انسانيتهم في مخرج من الهيجان العنيف والمرعب ، ومثلتهم بأكلة لحوم مسعورة . وحسب الانجلينغا ـ ساغا l'ynglinga- saga [فصل ٦] ، ان رفاق اودهن «ذهبوا بدون دروع» متوحشين كالكلاب أو الذئاب ، يعضون تروسهم وكانوا اقوياء كدببة وثيران . لقد ذبحوا الرجال ، ولا النار ولا الفولاذ ، لم يستطيعا شيئاً ضدهم . ولقد سمى هذا غضب البيرسكير des bersekir» (لغة . «المحاربون بغطاء ، سركر sercer دب») . وقد عرفوا ايضاً تحت الاسم اولف هيدهنر d'ulfhedhmar «رجل بجلد ذئب» .

يصبح بيرسركر berserke على إثر معركة تلقينية . وهكذا ، لدى الشاتي les chatti كما يكتب تاسيت [جرمانيا ، ٣١] ، فإن طالب الخدمة لا يقص شعره ولا يحلق ذقنه الا بعد ان يقتل عدواً . ولدى التيفالي les Teifali ، يتوجب على الشاب ان يقتل خنزيراً برياً أو دباً ، ولدى الهيرولي les Heruli ، يتوجب عليه ان يقاتل بدون سلاح[٥٧] . وعبر هذه التجارب ، فإن طالب الخدمة يتحقق من طريقة تكونه حيوانا كاسراً ، ويصبح محاربا شرسا في المقياس الذي يسلك فيه كآكل لحوم . ان العقائد في الليكانتروبي ly kan thropie المتحصلة بارتداء جلد

* ly dan thropie = جنون يجعل المريض يتخيل انه ذئب .

ذئب شعائريا ، اصبحت شعبية الى حد كبير في القرون الوسطى وفي الأقاليم الشمالية امتدت حتى القرن التاسع عشر .

إن إله الحرب أو دين ـ وودين هو ايضا اله الموتى . إنه يحمي الأبطال الكبار بوسائل سحرية ، ولكنه ينتهي إلى خيانة واغتيال من يحميهم . وتفسير هذا التلاؤم الغريب والمتضاد يبدو انه ضروري ليجمع حوله المحاربين الأكثر شراسة بهدف المعركة الأخروية لراغناروك Ragnarak (نهاية العالم) وفي الواقع ، ان المحاربين المرموقين ، الساقطين على ارض المعركة ، كانوا يقادون من الفالكيري Les Valkries الى القصر السماوي فالهالا Valhalla(٥٨)وكان أودهين يستقبلهم ، ثم يمضون أيامهم متحاربين ، متهيئين من أجل المعركة الحاسمة .

ولا يمكن لأودهن ـ اودان ان يكون إلها مفضلاً من قبل السكان المزارعين لأنه حامي المانريوند des mannerbunde الذين هم كل جماعة ذات بنية وجدية وعسكرية . كانت ترعب القرى . إن عبادته ، المتطلبة اضحيات بشرية بطريقة الشنق ، كان يحتفل بها بصورة خاصة من قبل عائلات الملوك ، والرؤساء العسكريين وفي محيطهم . وقد ابرزت مع ذلك عدة القاب مشتملة الكلمة أو دهن ، وحتى اسماء مؤلفة من الفاظ دالة على «حقل» «برية» ، الأمر الذي لا يثبت البنية الزراعية لأودهن وإنما خاصته التسلطية ، ونزعته لتملك الوظائف والصفات العائدة لآلهة اخرى .

إن الدور الرئيسي الذي لعبه اودين ـ وودهن في الحياة الدينية للجرمن يفسر بالمزايا المتعددة للسيادة السحرية . فأودهين هو المنشيء الأساسي للخليقة في العالم ، الآلهة والبشر .(وشخصيات الهية اخرى مغالين في الأزمنة الاسطورية للبدايات ، لم تحتفظ الذاكرة الجماعية سوى باسمائهم) . وقد كان ايضا يدعى للعب الدور الاساسي في المعركة النهائية للراغناروك (نهاية العالم) . ان صفته كاله أعلى وفي ذات الوقت اله الحرب والموت ، تجعل الخاصية المقدسة للملكية مفهومة ، كذلك التقييم الديني للموت على ساح المعارك الذي يميز ثقافة العصر الوسيط الجرماني الأعلى (.. ما سيأتي في الجزء الثالث) .

١٧٦ ـ الأزس : تير ، تهور ، بالدر

ان الأول بين الأزس ، تير(تيواز* Tiwaz ، زيو Ziu) هو اكثر شحوباً بكثير ، أصولياً كان الها أعلى(٥٩) ، لأن أحد أسماء الآلهة ، تيوار Tiwar هو جمع تير Tyr . بما أن الترجمة الرومانية كانت ماثلته بمارس mars ، فإنه ، على العموم قد صنف بين آلهة الحرب . وفي الواقع ، ان تير يمثل مظهراً عسكريا متطوراً الى حد ما ، ولكن ايحاءه الأصولي «اله قاضي» (مماثل لميترا) هو ايضا شفاف . ان له علاقات عضوية مع الثينغ le thing أي مع جمعيات الشعب التي كانت تحسم الدعاوى . صحيح ان الجمعيات في ازمنة السلم تذكر بأزمنة الحرب ، لأنها تجمع مسلحين ، وكانت المقررات تبرم بتحريك الرمح أو الفأس في الهواء ، أو بضرب الحربة على الترس(٦٠) .

إن المشهد الأسطوري الأكثر أهمية ، والذي يميز ايحاء (تير) كان له محله في بدايات الأزمنة . كانت الآلهة تعلم بأن الذئب فينرير Fenrir ، الذي حملت به جبارة من أعمال لوكي de Loki ، يجب أن يفترسها . وبإقناعه أن ذلك يتعلق

بلعبة ، نجحت بربطه بحبل سحري ، ناعم لدرجة أنه غير مرئي وقد قبل الذئب ، المغرر به ، اللعبة شريطة أن يضع أحد الآلهة يده في شدقه ، كرهن على انه لا يراد به شر . وتير وحده هو الذي تجاسر على اجراء هذه الحركة ، وفور شعور الذئب بأنه لا يستطيع أن يفلت ، قطع له يده [جيلفا جيني فصل ١٣ ـ ٢١] . ويلاحظ ج ديميزيل بحق أن مثل هذه الحركة ، ضرورية جداً وقد كانت من أجل انقاذ البانتيون ، وتشكل انتهاكاً لعهد ، وبالتالي ، تدل على انحطاط الاله الأعلى القاضي(٦١) .

وان تهور Thorr (دونار Donar) كان واحداً من الآلهة الأكثر شعبية . وان اسمه يعني الرعد وسلاحه المطرقة مجولنير mjollnir صورة اسطورية عن الصاعقة ، المماثلة لفاجرا Vajra أندرا (ف ٦٨٠ ع) . ان لحيته الحمراء وشهيته

الخرافية تقربه من بطل فيدي . وتهور هو المدافع عن الآزس ومقرها الالهي . وتظهره عدة حكايات مواجها للجبابرة ومبيداً لهم بمطرقته[٦٢] . وان خصمه الرئيسي هو الأفعى الكونية جورنولجان gornungan التي تلف العالم وستهدد الآلهة في المعركة النهائية راغنورك ragneork . وكثير من النصوص وبعض الرسوم تظهرها ساحبة التنين من البحر .

وهنالك صور متعددة لتهور تمثله دوماً مع مطرقته وكانت توجد في الكثير من المعابد . وتتكلم الشهود لهذه الصور اكثر من صور الآلهة الأخرى ، بصفته سيد الصواعق ، كان تهور شعبياً بين المزارعين ، مع انه لم يكن الها زراعيا . ولكنه كان يضمن المحاصيل ويحمي القرى ضد الشياطين . وفي وظيفته كاله محارب أبدل بأودهين .

إن الميل الجنسي erotique المميز (لاندرا) يمكن حل رموزه في الدور الطقوسي لمطرقة بمناسبة الزيجات . وقد لوحظ اعطاء الصفة الفولكلورية لبعض القصص الميتولوجية ، مبرزة تهور ، والمطرقة والجبابرة ، وعلى سبيل المثال تنكر تهور بخطيبة ، بهدف خداع الجبار الذي كان سرق المطرقة . إن دلالة الطقوس الغامضة غدت منسية ، وهذه القصص الميتولوجية استمرت في الحياة بفضل صفتها القصصية . وان عمليات مماثلة تفسر «الأصل» لكثير من القصص الأدبية العديدة .

أما بالدر Baldr فإنه بطهارته ونبله ، وبمصيره المأساوي هو الأكثر أهمية من بين الآلهةإنه ابن اودهين والربة فريج Frigg ، وهو ، كما كتب سنوري «الأفضل والكل يثني عليه . انه جميل في مظهره ومشرق يشع بالنور . وهو الأكثر حكمة من بين الآزس والأكثر كياسة عند التكلم ، والأكثر رحمة» [فصل ٢ جيلفا جينيين] . لا يعرف سوى القليل حول عبادته ، ولكنه معروف بأنه كان محبوباً بشكل عام . ومع ذلك فإن بالدر بموته قد كشف أهميته في مأساة العالم . وان اسطورته هي فضلاً عن ذلك الأكثر اثارة من كل الميتولوجيا الجرمنية .

وحسب ترجمة سنوري ، كـان لبالدر أحلام مشؤومة ، وقد قررت الآلهة

أن تجعله معصوماً . وقد جمعت والدته الأيامين من كل الأشياء في العالم أن لا توقع به شراً . ثم تجمع الأزس على محلة يتنغ thing (جمعية الشعب) حول بالدر ، وأخذوا يتسلون بضربه بالحراب وبقذف كل نوع من المقذوفات . «وعندما رأى لوكي هذا انزعج» . فذهب ليجد فريج Frigg تحت ملامح امرأة وسألها فيما اذا كانت كل الكائنات قد حلفت أن تحفظ بالدر .

وأجابت فريج : «يوجد نبتة صغيرة من الغابة تسمى ميستيتيم mistiteam نبتة من دبق ، وتبدو لي ضعيفة جداً لأطلب يمينها» . فاقتطعها لوكي وذهب الى التينغ . وكان هنالك هودهر Hodhr ، شقين بالدر ، وهو كائن أعمى ، يقف في الوراء ، ولكن لوكي أعطاه غصن النبتة وقال له : «افعل مثل الآخرين ، اضربه ، سأدلك على الاتجاه ، حيث يوجد» . ورمى هودهر المقاد من قبل لوكي ، رمى نبتة الدبق على شقيقه . «فاخترق المقذوف بالدر الذي سقط ميتا على الأرض . وقد كان هذا اكبر شقاء يمكن ان يحصل لدى الآلهة ولدى البشر» . ومع ذلك ولأنهم كانوا في ركن مقدس ، لم يستطع أحد معاقبة لوكي [جيلفا جينين فصل ٣٣ ـ ٣٥] .

«إن هذه الدراما ، كما يستخلص من البنية نفسها للفوليسبا voluspa ، هي المفتاح لقبة تاريخ العالم : بها ، أصبح قصر العمر الحالي دون علاج . بالتأكيد ان طيبة وحنان بالدر كانا حتى ذلك الحين غير فعالين ، لأنه ، بنوع من سوء الحظ ، «أي واحد من أحكامه لم يؤخذ به ولم يتحقق» ، على الأقل وجد ، وهذا الوجود كان احتجاجاً وتعزية»(٦٣) .

ان بالدر ، الذي لم يسقط على أرض معركة ، لم يتوجه صوب فاهالا valhalla وانما صوب مقاطعة هيل Hel . وللرسول المبعوث من قبل أودهن ، ليطلب إلى هل تحرير بالدر ، أجابت انها ستحرره بشرط ان «كل الأشياء في العالم» تندبه . وبإعلام من الآلهة ، ندبه البشر والحيوانات والحجارة والأشجار جميعها . وان ساحرة وحيدة رفضت ندب بالدر ، و «يفترض ان هذا كان لوكي» . أخيراً ، يترصد تهور لوكي وتقيده الآلهة الى حجر . ومن فوقه تعلق

أفعىٰ سامة تدع السم يسقط علىٰ وجهه . وان زوجته ، كما يكتب سنوري ، هي بالقرب منه وتمسك حوضاً تحت السائل السام . وعندما يمتلىء الحوض ، تذهب لافراغه ، ولكنه في هذه الفترة يتلقىٰ السم علىٰ وجهه ، فيتهالك وعندئد ارتجت الأرض . مع ذلك فإن لوكي سيتوصل لأن يتحرر في فترة الراغناروك ragnarok في فجر نهاية العالم .

١٧٧ ـ الآلهة فانس ـ لوكي ـ نهاية العالم

إن الفانس كلهم ، بقليل أوكثير علىٰ علاقة مباشرة بالخصوبة والسلام والثروة . ونجورد Ngordh الأكثر قدماً من بينهم تزوج من شقيقته وولد منها اولاداً التوأمين فري وفريجا . وبما أن الجرمن القدامى كانوا يمقتون الزواج بالمحارم ، فإن هذا التقليد الاسطوري يمكن تفسيره إما كعاكس لاخلاق السكان الأصليين[٦٢] ماقبل الهندو أوروبيين ، واما كمشير للخاصية التهتكية الخاصة بآلهة الخصب ، وبخاصة الخصب الزراعي . ان تاسيت في كتابه [جرمانيا ـ ٤٠] يتكلم عن الربة نيرسس Nerthus أي الأرض الأم terre- mère ، وهذا هو ذات الاسم لـ نجورده Njordh . والربة كانت تطوف عبر القبائل في عربة تجرها بقرة ، وكان يحتفل بعبادتها في غابة مقدسة في جزيرة المحيط ـ ويضيف المؤرخ الروماني « ان هذه هي الفترة الوحيدة التي كان السلام والهدوء يعرفان ويتذوقان » . ان العربة وتمثال الربة كانا يغرقان بعدئذ ، وكان العبيد الذين يتمون هذه الشعيرة يغرقون أيضاً في ذات البحيرة . ويبدو أن قصة تاسيت قد تأثرت على الأرجح بما كان يعرف من شعيرة سيبيل في روما ، ومع ذلك فإن تاريخاً محفوظاً، ملحمة الملك اولاف olaf يؤكد وجود هذا النوع من العبادة[٦٥] .

وفي المظهر الأخير من الوثنية السكاندينافية استعيض عن نجورده بفراير Freyr . وصورة هذا في معبد اوبسالا كانت قضيبية ، وتتضمن عبادته العديد من الحركات التهتكية والاضحية البشرية . ولكن ميثولوجيته لا جدوى فيها . أما بالنسبة إلى فريجا Fryja ، تماما مثل فريج Frigg (friyr) » والتي لم يكن اسمها على

مايظن سوى لقب اضافي - فقد كانت بامتياز ربة الحب والانسال ، وحسب سنوري ، كانت الالهة الوحيدة التي مازالت محترمة من قبل الشعب عندما يرقب عمله ، وان العدد الأكبر من الأسماء الموقعة المحتوية لاسم فريجا تؤكد هذا الرأي . ويضيف سنوري بأن فريجا كانت أصوليا راهبة للفانس وكانت أول من علم الآزس التقنية الالهية لسيدهر seidher وكانت لها قدرة الاتصال مع العالم الآخر ، كما كانت تستطيع ان تتخذ شكل طائر .

وان لوكي هو اله غامض ومعقد ،والإشتقاق اللغوي لاسمه غير يقيني ، وهو لم يتلق عبادة ولم يكرس له معابد . ومع انه نفسه كان آذس ، كان يسعى لالحاق الضرر بالآلهة وسيحارب ضدهم في نهاية العالم ، وهو الذي سيقتل هيمدللر Heimdallr . ان سلوكه محير ، فمن جهة ، هو رفيق الآلهة(٦٧) ويحب مصارعة اعدائهم ، الجبابرة ، وقد صنع عن طريق الاقزام بعض الموضوعات السحرية اشياء حقيقية تابعة للآلهة (الخاتم دروبنين Draupnin لأودهن ، والمطرقة لتهور الخ) .

ومن جهة اخرى ، فهو خبيث ، لا أخلاقي ومجرم : فهو مدبر اغتيال بالدر ، ويفتخر بذلك . ان طبيعته الشيطانية قد تأكدت بذريته : الذئب فنرير fenrir والافعى الكبيرة هما ونداه ، وهبل Hel ، رئيسة البلاد الكئيبة حيث يذهب الموتى الذين ليس لهم حق بالاقامة في القالها للاهي ابنته .

ان الاساطير كثيرة جداً حول لوكي ، ولكنها غالبا ماتشابه الحكايات الشعبية والتمثيليات المضحكة (الهرجات) farees . فهو يتباهى بغزواته : وقد انجب زوجة تير Tyr ولداً ، وأخذ مكان تهور قرب زوجته الخ . . انه يلعب دوراً في كافة الهرجات والقصص المشيرة للآلهة والجبابرة . وهنالك قصيدة شهيرة ومثيرة لوكازنيا La Kasenna ، تحكي كيف أن لوكي بدخوله الى القاعدة التي كان يعيِّد فيها الآلهة ، قد شتمهم بطريقة وقحة جداً . ولم يوقفه سوى ظهور تهور الذي وضع حداً لشتائمه .

ومنذ أكثر من قرن ، والعلماء يفسرون تباعا (لوكي) كاله للنار ، والرعد ، والموت ، انعكاساً للشيطان المسيحي أو الى بطل محضرٌ ، ويمكن مقارنته ببروميتية[٦٨] . وفي سنة ١٩٣٣ قرَّبه جان دي فري من تريكستر Tri eh,ster ، الشخصية المتناقضة المميزة في الميتولوجيات الشمال اميركية . وطرح جورج دوميزيل تفسيرا أكثر قبولاً لأنه أخذ في الحسبان في آن واحد لوكي وهودهر وبالدر ونهاية العالم .

ان الطبيعة المخادعة للوكي ، خبثه وحضوره بين خصوم الآلهة اثناء المعركة الأخروية جعلت منه المماثل للشخصية التعيسة لِ ماهابهاراتا ، ودوريودهانا ، التجسيد بامتياز لشيطان عصرنا (ف ١٩١ ع) . وحسب دوميزيل ، ان السعة والانتظامية للتنسيق بين الماهابهاراتا والايدا d'Edda تبرهن عن وجود اسطورية اخروية واسعة ، راوية للعلاقات بين الخير والشر ، وخراب العالم ، اسطورة سبق تشكيلها قبل شتات، الشعوب الهندو- أوروبية[٦٩] .

وكما لاحظنا (ف ١٧٣ع) في الفترة الأخيرة من الوثنية كان الجرمن مهتمين جدا بالاخروية . ونهاية العالم كان تشكل جزءاً لا يتجزأ من علم نشأة الكون ، وكما في الهند ، وفي ايران ، وفي اسرائيل ، كان يعرف السيناريو والممثلون الرئيسيون نهاية العالم l'apocalypse ، وان التفصيلات الأكثر كمالاً والأكثر مأساوية قد قدمت بقضيدة فوليبسيه volupsé وبالشرح المسهب لسنوري . وتوجد نماذج او كليشيهات معروفة جداً بكل الاداب المتعلقة بنهاية العالم : الاخلاق تنحدر وتزول ، البشر يتقاتلون ، الأرض تهتز ، الشمس تظلم ، النجوم تتساقط ، الغيلان المفلتة من اصفادها تتصارع على الارض ؛ الافعى الكبير يعوم من المحيط ، مثيراً طوفانات كارثية . غير انه يوجد ايضا تفصيلات اكثر تخصصا : شتاء طويل من ثلاث سنوات (fimbuluder) ؛ قوم رحل من الجبابرة سيصلون في قارب مبني من أظافر الموتى ، وغيرهم ، تحت قيادة سورتر surtr ، سيتقدمون على الأرض ويتسلقون قوس قزح ليهاجموا ويخربوا أسجارد Asgardl مقر الآلهة . وأخيراً يتلاقى جيش الآلهة والابطال وجيش الغيلان والجبابرة في سهل واسع من أجل المعركة الحاسمة . وكل واحد من الآلهة ينقض على خصمه . وتهور يواجه

الأفعى الكونية وصرعها ولكنه يسقط فوراً مسحوقاً بسمها . واودهين يفترس من قبل فنرير Fenrir ، وابنه الشاب ، فيدار vidar يصرع الذئب ، ولكنه يموت ، وبعد قليل من الوقت يهاجم هيمادللر Heimadallr لوكي ويفني أحدهما الآخر ، وفي الواقع ان كل الآلهة وكل خصومهم يسقطون في هذه المعركة الأخروية باستثناء سورتر surtr ؛ فهذا الناجي الأخير يشعل الحريقة الكونية - فيزول كل أثر للحياة ، وأخيراً تبتلع الأرض برمتها من قبل المحيط وتنهار السماء .

ومع ذلك ، ليست هذه هي النهاية ، فإن ارضاً جديدة ستنبثق خضراء جميلة ، خصبة كما لم تكن فيما سبق ، مطهرة من كل الآلام . وسيعود ابناء الآلهة الموتى الى مقرهم l'Argardh ، وبالدر وهودهري سيخرجان من الجحيم متصالحين . وشمس جديدة اكثر اشراقاً من السابقة ستأخذ مسيرتها في السماء . والزوج البشري الملتجىء يجدرازيل سيصبح الأصل لبشرية جديدة[٧٠] . وقد ظن بعض الكتاب ان اسطورة الراغناردك rugnarok يمكن مماهاتها بمختلف التأثيرات الشرقية (ايرانية مسيحية ، مانوية الخ) ولكن ديميزيل ابرز ان ذلك يتعلق بترجمة اسكندنافية لاسطورة اخروية هندو- اوروبية ؛ وان أحداث التأثيرات الخارجية لم تفعل سوى اضافة صورة اكثر تزويقاً وتفصيلات مثيرة للعواطف .

ان الديانة الجرمنية ، ببحثها أو بالحكم عليها تبعاً للمقاطع والفقرات المتناثرة المحفوظة كانت واحدة من اكثر الديانات تعقيداً أو أكثرها أصولية في اوروبا . وان الأمر الذي يصدم بدئياً ، هو قابليتها لانماء وتجديد التراث الهندو- اوروبي متمثلة العديد من الأفكار والتقنيات الدينية الدخيلة أو الطارئة ، من أصول متوسطية (البحر المتوسط) وشرقية أو هندو- اوروبية أو شمال اسيوية . وقد لاحظنا عملية مشابهة في التركيب الهندي (ف ١٣٠ع) وفي تشكيل الدين الروماني (ف ١٦١ع) . غير ان الابداعية الدينية لدى الجرمن لم يشلها اعتناق المسيحية ، إن واحدة من أجمل القصائد الملحمية بيوولف Beowulf المؤلفة في انكلترة في القرن الثامن تمثل الميتولوجيا البطولية الأكثر تكاملاً ، وبطريقة اكثر عمقاً ، من المؤلفات المماثلة القارية ، وفعلاً بفضل تأثير الافكار المسيحية[٧١] . وان واحدة من اكثر الأوصاف انطباعية عن فناء العالم ragnarok قد نقشت على

صليب من حجر في جوسفورت Gosforth (غمبرلاند) ، وعلى الوجه الآخر من الأثر صورت عملية الصلب[٧٢] . وفي الواقع ، ان بعض الابداعات الدينية الجرمنية تتفتح خلال القرون الوسطى العليا ، على اثر التكافل ، أو بالمعارضة ، مع المسيحية . ان المزية الدينية للملكية القروسطية مشتق في آخر المطاف من المفهوم القديم للجرمن والقائل بأن الملك هو الممثل للأجداد الإلهيين : (قوة الملك) ترتبط بقوة مقدسة مما فوق الأرض والتي هي في آن واحد الأساس والضمان للنظام الشامل[٧٣] أما بالنسبة للميتولوجيا البطولية ، فإنها تتمدد ، مغتنية ومعادة التقييم ، في مؤسسة الفروسية وفي خرافات القديس جرجس (الخضر) والسير جالهاد أو بيرسفال .

١٧٨ ـ التراسيون (كبار مجهولون) في التاريخ

إن أقدم ثقافة تراسية trace تبدو كتركيب لموضوع هام من عصر البرونز واسهام الشعوب النصف بدوية القادمة من اوكرانيا .

وان العرقية التكوينية l'ethnogenèse للتراس Thraces تستكمل في اقليم واسع ، بين الدينيستر ، والكاربات الشمالية والبلقان . ونحو نهاية القرن الثامن ، أدخلت غزوات السيمريين بعض العناصر القوقازية في الفن وفي التسليح . ومنذ القرن الخامس أكد هيرودوت في كتاباته ان التراس كان الشعب الأكثر عدداً بعد الهنود . ولكن دورهم في التاريخ السياسي قد امّحى .وقد كانت مملكة الأودريس des odryses «في وادي ماريستا» على درجة كافية من القوة لمهاجمة المقدونيين في ٤٢٩ ق.م وبعد أقل من نصف قرن اضاعت استقلالها تحت حكم فيليب الثاني . واكمل الاسكندر الكبير السياسة التوسعية لوالده: في سنة ٣٣٥ ق.م اجتاز الدانوب بهدف غزو واخضاع الجيتو ـ داس les Géto-Dace. ولكن فشل الحملة سيسمح لهذه القبائل التراسية بالبقاء مستقلة وان تعدل تنظيماتها الوطنية . في حين ان التراس الشماليون اندمجوا نهائيا في فلك الهيللينية ، ولم تصبح الداسي la Dacie مقاطعة رومانية الا في سنة ١٠٧ ب.م .

وكذلك فإن مصيرا معاكساً يبدو أنه قد لاحق الابداعات الدينية للتراسبي وللجيت ـ داسس ، فاعترف الاغريقيون باكراً بأصولية وقوة التدين التراسي . وان تقاليد متنوعة قد أقلمت في تراس (أو في فريجيا) أصل الحركة الديونيزيسية (ف ١٢٢ ع) وقسماً كبيراً من الميتولوجيا الأورفية (ف ١٨٠ ع) . وقد تكلم سقراط في الشارميد charmide (١٥٦ ٢) باعجاب عن أطباء (الملك التراس ذالموكسي) الذي كان مذهبه وممارسته أعلى مما هي لدى الأطباء الاغريق . ولكنه ، وخلافاً لبعض المعلومات القيمة ، الواصلة عن طريق هيرودوت حول السيناريو الاسطوري ـ الطقوسي لزالموكسي ، فإن المعلومات حول الديانات التراسية والتراس ـ جيتيه هي غير وافرة وهي تقريبية . صحيح ، وبخاصة في العصر الامبراطوري الروماني ، ان الآثار الدينية وافرة ، مع ذلك ، وبغياب الأدلة الخطية ، فإن تفسيرها غير يقين وموقت . وتماما كما هو لدى السلت ، فإن الاكليروس والرهبان التراسيين والجيتو ـ داس كانوا يتنكرون للكتابة . وان القليل الذي نعلمه حول الميثولوجيا ، واللاهوت والشعائر ، قد نقل الينا عن طريق الكتاب الاغريق واللاتين ، عبر شروحهم الاغريقية واللاتينية ، واذا كان هيرودوث لم يسجل بعض المحادثات الأغريقية من الهيلليسبونت Héllespont فإن السيناريو الاسطوري الطقوسي لزالموكسي وحتى اسم الجيبيليزيس Gébéléizis قد جرى تجاهله . وكما هو لدى السلاف والبلطيق ، لابل لدى الجرمن القدامى وأخلاف السلتيين ، فمن المؤكد ان التراث الديني للتراسبين قد حوفظ عليه ، مع بعض التعديلات ، التي لا مفر منها في العادات الشعبية وفي فولكلور الشعوب البلقانية والرومانية . ولكن تحليل التقاليد الفولكلورية الأوروبية في منظور التاريخ العام للأديان مازال في بداياته .

وحسب هيرودوت [٧ ـ ٧] ان التراسيين كانوا يعبدون «آريس ، ديونيزوس وأرتميس» مع ذلك ، فإن ملوكهم كانوا يبجلون (هرمس) الذي كانوا يعتقدون بتحدرهم منه . وبدءاً من هذه المعلومات المختصرة ، والتي غدت ايضاً اكثر غموضاً بالشرح الاغريقي ، فقد جرت محاولات لاعادة تركيب البانتيون الأصلي للتراسيين . فمنذ هومر [الالياذة ١٣ ـ ٣٠١ الخ] حتى فيرجيل [الانبياء

٣ - ٥٧ - ٣] ، أقلَم التقليد في تراس وطن آريس Arès ، اله الحرب . ومن جهة أخرىٰ فانَ التراسيين كانوا مشهورين بفضائلهم الحربية وعدم مبالاتهم تجاه الموت ، وبالنتيجة يمكن قبول ان إلهاً من نوع (آرليس) كان الرئيس لمجمع آلهتهم . مع ذلك ، رأينا (ف ١٧٦ ع) ، الاله القديم السماوي للجرمن تيواز Tiwaz وقد تمثل من قبل الرومان بمارس . وعليه يكون من الممكن اذن ان آريس التراسي كان أصلا الها سماويا وأصبح الها للعاصفة والحرب[٧٢] . وفي هذه الحالة فإن (ارتميس) كانت الهة محلية مشابهة للربات التراسية بنديس Bendis أوكوتيت (kottys) . وقد اختار هيرودوت تسميتها (آرتميس) (بدلاً - على سبيل المثال من «ديميتر») بسبب الطبيعة المتوحشة للغابات والجبال في تراس .

وإذا كانت هذه «القراءة» مقبولة ، فيمكن كذلك افتراض وجود اسطورة نموذجية ، لدى التراسيين القدامى ، حول الزواج بين اله العاصفة والأرض الأم .

وسيكون (ديونيزوس) ثمرة هذا القران . إن الاغريق كانوا يعرفون الاسماء التراسية لديونيزوس: كان اكثرها شيوعاً (سابوس) و (سابوذيوس)[٧٥] . وان عبادة (ديونيزوس) التراسية تذكر بالطقوس المذكورة من قبل او ريبيدس في مسرحية عابدات باخوس les Bacehantes (ف . ١٢٤ع) . فقد كانت الحفلات تجري اثناء الليل ، في الجبال على ضوء المشاعل ؛ والموسيقى المتوحشة (أصوات طناجر برونز وصنوج وناي) ؛ كانت تثير المؤمنين للصراخ من الفرح والرقص الدائري ، غاضبين وضاجين . «وكانت النساء خاصة اللواتي يستسلمن إلى هذه الرقصات الغير منتظمة والمنهكة ؛ وكان لباسهن غريباً ، فكن يرتدين ثياباً طويلة فضفاضة ، مصنوعة على مايبدو من جلود الثعالب ؛ ومنها وتحتها جلود صغار الماعز ، وعلى الأرجح كن يضعن قرونا على الرأس»[٧٦] . وكن يمسكن في ايديهن افاعي مكرسة إلى ساباذيوس ، وخناجر أو مزراق باخوس ذيرس Thyrses . وما ان يصلن إلى ذرة الحدة parosysme وإلى «الجنون المقدس» ، حتى كن يقبضن على الحيوانات المختارة لتضحيتها ويمزقنها قطعاً ، ويفترسن لحمها نيئاً . إن أكل اللحم النيء l'omophagie الطقوسي كان يتم التوحد مع الاله ؛

وكان المساهمون يسمون آنئذ سابوس أو ساباذيوس[٧٧] .

وبالتأكيد ، انه يتعلق ، كما عند الباخيين الاغريق (بتأليه مؤقت) . ولكن التجربة النشوية كان يمكن لها ان تثير الالهامات الدينية المميزة ، وفي المكان الأول المعطيات التنبؤية . وخلافاً للديونوزيسية الأغريقية ، فإن العرافية التراسية كانت على علاقة بعبادة ديونيزوس . وان بعض القبائل ، قبيلة البيسس des Besses كانت تمارس عرافة (ديونيزوس) وكان المعبد يقع على جبل عال[٧٨] . وكانت النبية تتنبأ بالمستقبل في حالة الانتشاء كما هو الشأن بالنسبة لعرافة دلفي .

إن التجارب الانتشائية كانت تدعم الاعتقاد بأن الروح ليست مستقلة فحسب ، وإنما هي قابلة للتوحد صوفياً مع الألوهية . وان فصل الروح عن الجسد ، المحدد بالانتشاء ، كان من جهة يكشف الثنائية الأساسية للانسان ، ومن جهة اخرى إمكان وجود روحي تال نقي ، كنتيجة «للتأليه» . ان المعتقدات القديمة باستمرارية حياة ، غامضة وتقريبية ، للروح قد تحورت تدريجياً ، لتصل في نهاية المطاف إلى فكرة التقمص ، أو إلى مختلف المفاهيم من عدم فناء الروح . ومن الراجح ان التجارب الوجدية التي مهدت الطريق لمثل هذه المفاهيم لم تكن دائماً من هذا النموذج (الديونيزيس) اي تهتكي . فالوجد يمكن ايضاً أن يثار ببعض الأعشاب أو بالتنسك (عزلة ـ صيام ، أو الحمية النباتية الخ) وبالصلاة[٧٩] .

وفي مثل هذه الأوساط ، تطورت في اليونان الممارسات والمفاهيم الدينية المعروفة تحت اسم الأورفية orphisme (ف ١٨٠ ع) . ان العقيدة بالخلود وتأكيد النعيم للروح غير المجسدة وصلت لدى بعض قبائل التراس ، إلى تمجيد شبه مرضي للموت وإلى انعدام الوجود . وان التراسيين كانوا يتألمون أو يندبون عند ولادة طفل ، ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم بفرح [هيرودوت ٥ ـ ٤] . وقد فسر عدد من الكتاب القدامى الشجاعة الاستثنائية للتراسيين في المعارك بإيمانهم الأخروي . هذا وان مارتيانوس كابيلا martianus capella (٦ ـ ٦٥٦) نعتهم حتى بأنهم «ذوو شهية حقيقية للموت» (appetitus, maximux mortis)، لأنه «كان يبدو

لهم جميلاً ان يموت المرء» . وقد اعترف بهذا التقييم الديني للموت في بعض ابداعات فولكلورية للرومان ولشعوب جنوب ـ شرق أوروبا[٨٠] .

أما بالنسبة «لهرمز» الذي حسب هيرودوت ، كان معبوداً حصراً من قبل (الملوك) أي الارستقراطية العسكرية فمن الصعب مضاهاته . وان هيرودوت لم يعط أية اشارة للاله الشمسي ، مع ان مثل هذا الاله تأكد بشكل واسع في مصادر اخرى[٨١] . ويمكن اذن ان نرى في (هرمس) التراسي ألوهية شمسية . وبعد بضعة قرون ، تتعدد في البلقان الآثار المسماة البطل الفارس (Héros-Cavalier) ، وان هذا قد توحد في ابولون[٨٢] . والمقصود ، مع ذلك ، مفهوم اكثر تأخراً ، والذي لا يوضح أبداً التيولوجيا «الملكية» التي **ذكرها** هيرودوت .

١٧٩ ـ زالموسكي والتخليد

وان المؤرخ ذاته يصرح بأن الجيت ، les Gétes «الاكثر حيوية والأكثر استقامة بين التراسين [٦ ـ ٩٣] «يعتقدون بأنهم خالدون» ، ولهذا ، وفي هذا المعنى : «يعتقدون انهم لن يموتوا ابداً وان من يفنى منهم سينضم إلى زالموكسي ، الكائن الالهي (ديمون daimon) ؛ والبعض من بينهم يسمي هذا الكائن الالهي ذاته جيبيليزيس Gébéléizis [٤ ـ ٩٢ ـ ترجمة ف ـ ا ـ لوغراند] . وان هذه هي المرة الأولى ـ والأخيرة ـ يظهر فيها اسم جيبيلزين في الأدب . وقد سبق لتوماشيك Tomaschek ان شخص في هذا الاسم الالهي موازيا للاله التراسي زبيلوردوس ، زبيلتيوردوس[٨٣] Zbelrus, Zbeltiurdos . وتماماً كزبيلسوردوس سيصبح جيبيليزيس إلهاً للعاصفة ، أو بالأحرى الهاً قديماً للسماء ، اذا وافقنا والد ـ بوكورني وديسيف اللذان اشتقا اسمه من الجذر guer بمعنى «لمع ، برقَ»[٨٤] . ويضيف هيرودوت ، بعد أن روى قصة تضحية مبعوث لزالموكسي ، وهو طقس سنشير اليه فيما بعد ، يضيف : «هؤلاء التراسيون الغابرون ذاتهم ، عندما ترعد وتبرق ، كانوا يطلقون سهاماً في الهواء باتجاه السماء مهددين هذا الاله ، لأنهم لا يفتكرون بوجود اله آخر غير الههم»[٤ ـ ٤٩] .

وبالرغم من شهادة هيرودوت (المعبرة، فعلا، نحوياً وانشائيا، مع إهمال بالغ)، فإنه من الصعب اعتبار زالموكسي وجيبليزيس كإله واحد وانه هو نفسه. إن بنيتهما مختلفة وعبادتهما لا تلتقي أبداً، وكما سنرى فيما سيأتي فإن زالموسكي ليس له شيء مما هو لإله العاصفة. أما بالنسبة للرمي بالسهم، فيرد التساؤل عما اذا كان هيرودوت قد فهم جيداً معنى الطقس. ومن الراجح جداً، إن هذا لم يكن هو الاله (جيبليزيس) الذي كان مهدداً وانما القوى الشيطانية الظاهرة في الغيوم. وبعبارة أخرى، ان ذلك يتعلق بعمل طقوسي ايجابي: يحتذى، بصورة غير مباشرة ويساعد فيه اله البروق باطلاق السهام ضد شياطين الظلمات[٨٥] ومهما يكن من أمر، يجب التسليم بأنه: لا يمكننا إعادة تكوين الوظيفة و «التاريخ» لجيليبزيس بمساعدة دليل واحد. وإن الواقعة في كون جيبيليزيس لم يذكر بعد هيرودوت لا تقتضي بالضرورة فقدان العقيدة. فيمكن تصور إما ارتباطها بالهة اخرى واما استمرارها تحت اسم آخر[٨٦].

ان المعلومات القيمة جداً التي جاء بها هيرودوت لها علاقة باسطورة وعبادة زالموكسي. وبناء على ما تلقاه من الاغريق ومن الهيلليسبونت Hellsport ومن البحر الأسود، فإن زالموكسي سيكون خادماً قديما لفيثاغورس: «عندما أصبح حراً، كان قد كسب ثروات واسعة، باغتنائه سيعود إلى بلاده. وكما ان التراسيين كانوا يعيشون ببؤس وكانوا بسطاء في تفكيرهم» فإن زالموكسي، أخذ على عاتقه مهمة تحضيرهم. «فصنع لنفسه قاعة استقبال كبيرة حيث أخذ يستضيف فيها كما لو انها فندقاً، الأعيان أو المهمين من مواطنيه؛ وخلال الوليمة، كان يعلمهم أنه، لا هو ولا مدعويه ولا ابناءهم يموتون، وانما سيذهبون لمكان حيث سيعيشون بشكل دائم ويستمتعون بسعادة تامة» وخلال فترة من الزمن «كان قد انشأ لنفسه مقراً تحت الأرض» حيث «كان ينزل ويعيش ثلاث سنوات مستمرة. وكان التراسيون يأسفون عليه ويبكونه كأنه ميت، وفي السنة الرابعة، كان يظهر لأعينهم: وهكذا أصبح مقبولا في اعتقادهم ماكان قاله زالموكسي [....]. ويضيف هيرودوت: وبالنسبة لي لا أرفض الاعتقاد بما روي عن المقر الأرضي، ولا اعتقد بذلك، ولكني أظن بأن زالموكسي هو أسبق

من فيثاغورس بعدد من السنين . ولنترك جانباً ما اذا كان رجلاً أو كائناً الهياً لبلاد الجيت» [٤ - ٩٥ - ٩٦ ترجمة ليغراند] .

وكما كان من الطبيعي ، فإن هذا النص قد أحدث انطباعاً كبيراً في العالم القديم ، منذ معاصري هيرودوت حتى آخر الفيثاغوريين الجدد والافلاطونيين الجدد . وان التاريخ المقرر والمتماسك : الاغريق الهيلليسبونت ، أو هيرودوت نفسه ، كانوا ادخلوا ماكانوا تلقوه عن زالموسكي ، وعن مبدأه وعبادته في افق روحي من بنية فيثاغورية . وعليه فإن هذا يعيد القول بأن عبادة إله جيتو - داسي اقتضت الاعتقاد بخلود الروح عنده ، أو عبر معلميه ، تستنتج الخاصية السرية للعبادة[٨٧] . وفي الواقع ، ان الجيت ، كما يكتب هيرودوت «يعتقدون بخلودهم» [١٧ - ٩٣] . «لأنهم يعتقدون بأنهم لا يموتون ابداً وان من يهلك منهم سيجتمع بزالموكسي» [١٤ - ٩٤] . مع ذلك فإن الكلمة athanatizein [٥٠ - ٤] لا تعني «اعتقد بنفسه خالداً» وانما «جعل خالداً»[٨٨] . وان هذا «التخليد» كان يحصل عليه بواسطة مسارة ، الأمر الذي يقرب العبادة المنشأة من قبل زالموكسي من اسرار الاغريق والهيللنستيك (ف ٢٠٥ع) . إن الحفلات بمعنى الكلمة ، هي مجهولة ، ولكن المعلومات المنقولة من قبل هيرودوت تشير الى سيناريو اسطوري - طقوسي «لموت» (احتجاب) و «عودة إلى الأرض» (بعث) .

ويروي المؤرخ الاغريقي كذلك [٩٤ - ٤] الطقس المميز لزالموكسي : ارسال مبعوث مكلف بأن يوصل الى الاله ، كل اربع سنوات «ما يرغبونه في كل حالة» . فكان بعض الرجال يمسكون بثلاثة حربات ومن يعين بالقرعة كان يُقذف في الهواء ، وبسقوطه ، كان يشك برؤوس الحربات . ان الاضحية كانت تجعل من الممكن التواصل بالمبعوث ، وبعبارة أخرى كان يعاد ترتيب العلاقات بين الجيت وإلههم ، كما كانت عليه هذه العلاقات منذ البداية ، وعندما وجد زالموكسي بينهم . ان الأضحية وإرسال مبعوث كانا يشكلان بنوع ما تكراراً رمزيا (ربما طقوسياً) لبناء العقيدة ، وكان يعاد ترتيب بعث زالموكسي بعد الثلاث سنوات من الاحتجاب ، مع كل ماكان يتطلبه ، بصورة خاصة ، ضمان الخلود والغبطة للروح .

ان بعض الكتاب القدامى ، وكذلك عدد من العلماء المحدثين ، قد أوصلوا زالموكسي مع ديونيزوس وأورفيه من جهة ،ومع شخصيات اسطورية أو مؤسطرة بقوة من جهة أخرى[٨٥] الأمر الذي كان اثره المميز اما تقنية شامانية ، واما عرافة ، واما هبوطات الى مقرات الاموات . ولكن ما يرويه لنا هيرودوث حول زالموكسي لم يدخل أبداً في نظام الميتولوجيات، والمعتقدات والتقنيات الشامانانية أو المعطاة صفة الشامانية . بل على العكس ، وكما سنرى ، فإن العناصر الأكثر تميزاً لعبادته (اندريون Andreon ، ومآدب احتفالية ، واحتجاب في (المقر تحت الأرض) والبعث بعد اربع سنوات (تخليد) للروح ، وتعليمات متعلقة بالوجود المبارك في عالم آخر ، كل هذا يقرب زالموكسي من الاسرار[٩٠] .

وقد قدم سترابون في بداية العصر المسيحي [الجغرافيا ٧ ـ ٣ ـ ٣] ترجمة جديدة لاسطورة زالموكسي ، معتمداً بصورة خاصة على الوثيقة المقدمة من ابوزيدونيوس) [١٣٥ ـ ب ـ ٥٠ ق.م] ان زالموكسي كان عبداً لفيثاغورس ، ومع ذلك فليس المذهب المتعلق بالخلود هو الذي تلقاه من معلمه ، وانما «بعض اشياء متعلقة بالاجرام السماوية» أي العلم بالتنبؤ بالاحداث المقبلة حسب الدلالات السماوية . واضاف استرابون ، إلى ذلك السفر إلى مصر البلد المتميز بالسحر . وانه بفضل معارفه الفلكية ومزاياه السحرية والنبوئية نجح زالموكسي في اشراك الملك في الحكم . . وبصفته كاهنا كبيراً ونبياً «للإله الأعظم والأكثر تقديراً في بلادهم» اعتزل زالموكسي في مغارة على قمة الجبل المقدس كوجينون Kogainon ، حيث لم يكن يستقبل سوى الملك وخدمه الخاصين ، وفيما بعد «أصبح يدعى كما يدعى اله» . ويضيف سترابون انه «عندما حكم بوريسبستا Boresbista على الجيت Gète فإن ذات المهمة تولاها قبل ديقاينـــوس Decainens وبطريقة او اخرى استمرت القاعدة الفيثاغورثية بالامتناع عن الكائنات الحية كما كانت قد عُلّمت من قبل زالموسكي»[٩١] .

وفي المرحلة الجديدة من ديانة الجيتو- داسيين التي أرشدنا عليه بوزيدونيوس وسترابون ، فإن صفة زالموكسي تبدو محورة بشكل ملموس . فيوجد بدئياً التطابق بين الاله زالموكسي وكاهنه الكبير الذي انتهى لأن يؤله تحت الاسم

ذاته . واكثر من هذا ، لا نجد أية اشارة لبنية سرية كما ابرزها هيرودوت . واجمالاً ، فإن عبادة زالموكسي قد سادها كاهن كبير يعيش منفرداً في قمة الجبل ، وبصفته الشريك والمستشار الأول للملك ؛ وان هذه العقيدية (فيثاغورية) لأنها تستبعد التغذية باللحم . ولا نعلم في أي معيار استمرت البنية المسارية والأخروية «لسر» زالموكسي استمرت في الحياة لزمن سترابون . ولكن الكتاب القدامى يتكلموت عن بعض النساك والمتدينين ، ومن الراجح ان هؤلاء «المتخصصين بالمقدسات» قد مددوا التقليد «السري» لعبادة زالموكسي[٩٢] .

حواشي الفصل الحادي والعشرين

١ ـ مسمى هكذا لأنه كان يجري حرق الأموات ووضع رمادهم في جرار تطمر بعدئذ في مقبرة تحت الأرض

٢ ـ Annc Ron الوثنية السلتية البريطانية الخ .

٣ ـ ستيوارث بيجو ـ اوروبا القديمة ص ٢١٥ ـ الدرويد ص ٦٢

٤ ـ آن روس ـ المرجع السابق

٥ ـ اليوجا ٢٩٩ والشامانية ص ٣٣٩ ـ م . الياد .

٦ ـ حسب ميل ديلون في كتابه الدرويد ص ٨٨ ان الدرويد والبراهمان حافظوا على ممارسات ومعتقدات هندو اوروبية استمرت في العيش في العالم الجايليك gaélique حتى القرن ١٨ وفي الهند حتى يومنا هذا . انظر كتابه ـ السلت والآريين ص ٥٠٢ وبدراسته للجنائز الايرلندية والهندية يقدر هانس هاترمان ان البنية العقلية الايرلندية هي اكثر قرباً من الهندية القديمة عما هي من الانكليزية والالمانية .

٧ ـ د. أ ـ بينستي (اللغة والقيمة التاريخية للايرلنديين وقوانينهم) ذكرها ديلوس ص ٢٤٧

٨ ـ انظر المراجع لدى ديلون (الحفريات) ص ٢٤٧ .

٩ ـ جورج ـ ديميزيل ـ فيوس والثروة ص ٢٢٢ . . الخ . ونؤكد انه يوجد كذلك مشابهات مع العالم السومري ـ الاكادي يمكن تفسيره باحتكاكات الهندو اوروبيين مع شعوب الشرق الادنى القديم .

١٠ ـ ح . ديميزيل ايديولوجيا التثليث للهندو اوروبيين ص ١١

١١ ـ E. Benvenine اللغة للمؤسسات الهندو ـ اوروبية

١٢ ـ ر. ر ديمتريل ـ واساطير وملاحم ـ وانظر ـ جان دي فري : ديانة السلت .

١٣ ـ انظر الدلالات المعطاة من قبل ورنر موللر . ص ٤٦

١٤ - ١٥ - ر. . الامثلة المذكورة من قبل ورنرموللر ص ٥٢ - تماثيل الأنوس بكائن يحمل دولاباً ذي اربعة او اثني عشر شعاعاً ، مؤكدة في القرون الوسطى : وانظر بعض الرسوم التي جمعها موللر

١٦ - جان دي مري . . الذي يضيف «ولكنه لا يجب ان ينسى ان هذا التمثل لا يدخل في الحساب الا من نقطة تفصيل لشخصية المعقدة جداً .

١٧ - بعضها قد نوقش من مثل نرانوا لمارو «الالهية السلتية ذات الصلات : من الأغميوس دي لوسيان الى لوغميوس دي دو» ص ٢١٦

١٨ - شرح بيرناتريا - المادة من قبل . زويكر . ص ٥١

١٩ - يذكر mL.Sjoertedt بعض الموازيات القارية - آلهة وابطال السلت ص ٧٥ بالنسبة الى س - رامنو ، هذه الاضاحي المنجزة في نهاية حكم ، أو دورة حكم ثابت تجديد الزمن للتحدر «وبالتالي اكملت لتاريخ معين تقويمي) . (الموت التضحوي للملك) ص ٢١٧

٢٠ - دوفال - «توتاتس ، ايزوس ، تارانيس» ص ٥٠ آلهة السلت

٢١ - في آخر مكان - هـ بيرخان الجرمن والسلت ص ٣٣

٢٢ - ٢٣ - حان دمي ثري ص ١٠٦

٢٤ - ٢٥ - آن روث - ص ١٠٢ - ١٨١

٢٦ - ٢٨ - من زالموسكي - إلى جنيكيزخان - الياد ص ١٤٦

٢٩ - تاريخ الغول - دوفال - ص ٤٢

٣٠ - انظر برواندياماك كان - (مظاهر قصة الملك والربة في الأدب الايرلندي)

٣١ - جيرالدوس كاميرينزيس - طيبوغرافيا هيبيرنيكا .

٣٢ - ق/ هربرت - اسطورة ايبونا

٣٣ - ٣٤ - ج - جريكور ايبونا - ريانون - ماشا ص ٢٥ - علاقة الماشا بالحصان

٣٥ - المصادر ، حللها أ . س - برادن في (أصل اسطورة الجريل)

٣٦ - أ . ك - كوماراسوامي (حول لوائلي بريد) ص ٣٩٣

٣٧ - بيركان - المانيا والسلت ص. ٥٤٢

٣٨ - اظهر فيندريس وحدة المفردات اللغوية الدينية (بخاصة المصطلحات التي تدل على كلمات مجردة) لدى الهنود الفيديين واللاتين والسلت . وهذا العمل يبرهن على امكانية تعليمية «المتخصصين بالمقدس» لدى هذه المجموعات الثلاثة الأرية لما قبل التاريخ .

٣٩ - انظر الأمثلة عند فرانسواز لي رور الدرويد ص ١٠٩

٤٠ - جها دي فري ص ٢١٨ . معلومات شيزار حول (الرئيس الوحيد) الذي يمارس السلطة العليا بين الدرويد غير مصادق عليه من قبل الكتاب الكلاسيك .

٤١ ـ الحنين للأصل ص ١٥٩ ـ هانس شير ـ
٤٢ ـ انظر بعض الأمثلة لدى فرانسواز دي رو . الدرويد ص ١٢٨ ويلاحظ الكاتب مع ذلك ان التقمص في ايرلندا محفوظ على بعض الكائنات الاسطورية أو الالهية .
٤٣ ـ جان دي فري يفسر الكلمة ginnunga بأنها تدل على فكرة خداع بالسحر
٤٤ ـ حسب (صلاة وسوبرون) قصيدة من أصل مسيحي كتب في القرن التاسع في المانيا الشمالية «لم يكن أرض ولا قبة سماوية ، لا شجر ولا جبل . الشمس لم تشرق ، والقمر لا يضيء والبحر المتكبر لن يوجد» .
٤٥ ـ الاسم (يمير) قد قرب من السنسكريتي بينما (ثنائي الجنس) وحسب تاسيت (جرمانيات) الجد الاسطوري للجرمن كان ثوسيتو ـ وعليه هذا الاسم قد اشترك بالسويدي القديم تفسيرا (المنفصل) ويعني كيمير ، كائنا خنثى .
٤٦ ـ آسكر يذكر بالفرين Frèn الكوني ، ايمبلا هو يمكن ان يكون ذات الكلمة لا سيملا (الدراد) ، وان بدءاً من الاشجار يشكل نقمة واسعة الانتشار في الميتولوجيا القديم وهو كذلك مؤكد لدى الهندو اوروبيين ـ بونفانت ـ الأكبر والاصغر . لدى الهندو اوروبيين ص ١
٤٧ ـ حسب سنوري ، كل واحد من الجذور الثلاثة ينغرز في بئر ، واشهر الآبار هو البئر الأكثر حكمة من الآلهة ميمير الذين سيوضع فيه اودهين عينه رها (١٧٤ع) وذلك العائد للقدر ولكنه من الراجح ان التقليد الأصولي كان يعرف مصدراً واحداً تحت الأرض
٤٨ ـ ذات الرمزية تظهر في الاسطوانة Trmisl التي هي في عقيدة الساكسون ، تدعم السماء
٤٩ ـ كما نعلم ان الدلالات الطبوغرافية لوسط الدنيا تعكس جغرافيا اسطورية منشأة حسب هندسة خيالية .
٥٠ ـ ٥١ ـ انظر ـ آلهة الجرمن ص ١٧ مرجع سابق ديميزيل
٥٢ ـ حول هذا الدور للشجرة الكونية في المسارات الشامانية لشمال آسيا ـ انظر الشامانية ـ الياد

٥٣ ـ من غير المستحسن تحديد المصدر للعناصر الشامانية في الديانات القديمة الجرمنية على الأخص في الميتولوجيا وعبادة اودهن ـ ودان . وبعضهم يصعد للتراث الهندو اوروبي ولكنه لايجوز استثناء تأثيرات الشمال . على كل حال فإن الأهمية المناطة بالتقنيات الوجدية والمعتقدات ذات البنية الشامانية تقرب الدين الجرمني من الشامانية الآسيوية .
٥٤ ـ الشامانيو يوكايير شاوروا جماجم اجدادهم ـ الشامانيين «الشامانين ص ١٨٠»

٥٥ ـ يتعلق بشراب مسكر يلصق الخيمة بين فئتين اجتماعيتين ـ واوضح ديميزل مشابها هندياً ر . لوكي ص ١٠٢ وآلهة الجرمن ص ٣٩

٥٦ ـ الينابيع مشار اليها من قبل نورفيل ـ بيتر ، اسطورة وديانة الشمال ص ٣٨

٥٧ ـ ر . الياد من زالموكس لجنكيز خان ص ١٧ ـ ووصف تاسيت les harri على المجرى الأعلى للأوندر والفيستولا مع تروسهم السوداء واجسادهم المدهونة بالأسود مثل جيش من الاشباح الذي لا يستطيع عدو النظر اليه .

٥٨ ـ فالدولا vaœldoll «غرفة من سقطوا» les Nalkrues الفالكريز (يعني اسمهم (أولئك اللذين اختاروا الموت على ارض المعركة وكانوا بدئياً أرواح تبصروا الموت مسبقاً .

٥٩ ـ اسمه تيواز مشابه لاسماء اخرى هندو اوروبية (لاله السماء) : دايوس ـ زوس ـ جوبيتر . من المرجح انه على الأقل لدى بعض القبائل الجرمنية ، الاله السماوي اكمل بقاءه مجداً تحت الاسم ايرمين ـ هيرمين irmin- hermin

٦٠ ـ كما لاحظ جان دي فري «من وجهة نظر جرمنية لا يوجد تضاديين المفاهيم (اله المعارك) و (اله القانون)

٦١ ـ ذات المرجع ـ الهة الجرمن ص ٥٥ (ماكسبه المجتمع الالهي هكذا بفاعلية اضاعه بقوة خلفية وصوفية : وليس اكثر من العرض الدقيق لعصابات أو دول ارضية . همهم الوحيد أن يربحوا وينتصروا الى حياة كل الجماعات البشرية بالتأكيد صنعت من عنف وخديعة ، على الأقل ، ان اللاهوت يصف ذلك كأمر الهي حيث ان الكل ليس ولن يكون اكثر كمالاً ، ولكن حيث ميترا او فيدس يسهر حارس يتلألأ نموذج الهي»

٦٢ ـ العلاقات بين تهور والشخصية التي تهز فأساً في الرسوم من عصر البرونز السكاندينافية هي من الصعب تحقيقها

٦٣ ـ ديميزل ـ آلهة الجرمن ص ٩٥ ـ ٩٦

٦٤ ـ سنوري يؤكد بان الزواج بين شقيقه وشقيقته كان شائعاً لدى الفانس

٦٥ ـ خلاصة من قبل فافيدسون ـ آلهة واساطير الشمال الأوروبي ص ٩٣

٦٦ ـ هيي ممثلة بفينوس

٦٧ ـ شاركت تهور بسفرة لبلاد الشياطين والعمالقة ورافقت اودهين وهونير وساعدتهما بسلخ القزم اندوري الخ

٦٨ ـ ٦٩ ر . النظريات المعروفة من جارويفري دو وميزال (الهة الجرمن ص ٩٧

٧٠ ـ هذا التفصيل الأخير يعارض السيناريو الأخروي الذي لخصناه بانهيار يمازيل يكتمل آخر الزمان

٧١ ـ مرغريت آرين (الاجداد الابطال) لـ ١٢٩

٧٢ ـ في ذات الكنيسة يوجد حجر مشابهة لقطعة حلب يظهر شهور على أهبة صيد الافعى الكبيرة

٧٣ ـ اوتو ـ هوفلر ـ عن المانيا ص ٧ ـ ٣٥٠

٧٤ ـ زد على ذلك ، فإم الاله زبيلسوردوس الذي ان القسم الثاني من اسمه سوردوس مشتق من الجذر سورزمجر ـ رعد ـ لقد كان اذن اله العاصفة سمي بشكل صحيح من قبل الاغريق زوس كيرونوس .

٧٥ ـ انظر المصادر المذكورة من قبل رودس . بسيشيه ص ٢٦٩ . لقب آخر كان بساروس بمعنى (لابس جلداً طويلاً لثعلب» حول شعائر ساباذيوس في آثينا انظر تاريخ المعتقدات الياد ص ٣٨

٧٦ ـ ٧٧ انظر المصادر التي رود ص ٢٧٥ حول الحماس الذي يتم الاتحاد النشوس مع الاله

٧٨ ـ هيرودوت [ب ٧٠ ـ ٣] يعتبر البس Isjenes كأسرة من قبيلة ساترس ، ولكن غيره (بوليب استرابون ـ بيلين) يعتبرها شعباً مستقلاً عن العراقة التراسية (رود) ص ٢٨١

٧٩ ـ بذور القنب عن التراسيين (بوجيونيوس ميلا ١١ ـ ٢١) وعند السيس (هيرودوت ٤ ـ ٧٣) في ودخان بعض (الثمار) عند المساحيث (هيرودوت ٧٣) وسترابون (٧ ـ ٣/٣) يقرر تبعاً لبوزيدون ان المسيسيين يمتنعون عن كل طعام من اللحم ، بما في ذلك العسل واللبن والجبن ، ولهذا السبب يسمون في آن واحد (الذين يخافون الله) «والذي يمشون في الظلام» . وهذين المصطلحين يعنيان على الأرجح بعض الشخصيات الدينية وليس مجموع الشعب . والهانبوباتي سيكونون رافصون وشامانيون كانوا يستعملون دخان القنب لاثارة الشهوات الوجدية . ويضيف سترابون انه لدى التراسيين كان يوجد معتزلين اتقياء معروفين تحت اسم كتيبراتي يعيشون بعيدين عن النساء ومكرسين انفسهم للآلهة «ويعيشون متحررين من كل خوف» [٨ ـ ٣]

٨٠ ـ من زالموسكي ـ لجينكيزخان ـ الياد ـ فصل ٧

٨١ ـ انظر بيتازيوني ـ دين التراسين القدامى

٨٢ ـ ٨٣ ـ والد ـ بوركورني ـ بوجهيرك الخ . .

٨٤ ـ من زالموسكي ـ لجينكيزخان ص ٨٥

٨٦ ـ واقعة ان الميتولوجيا الفولكلورية الرومانية للبنى يلي تشتمل على عدد من العناصر الخاصة باله العاصفة وتثبت على الأقل ان جيسبليريس كان ايضاً فعالا في فترة المسيحية في داسي ومهما كان اسمه في ذلك العصر. ويمكن القبول كذلك فإنه فيما بعد على اثرولاتوفيقية اندمج زالموكسي بجيسبليريس .

٨٧ ـ ٨٨ ـ هذا مايمكن ان يكون السبب الذي من اجله تردد هيردون باعطاء تفصيلات «اذا ـ

هذا ليس اكيدا . ان معلميه علموه ، الخ» وتقريره بموضوع الاسرار معروف ولكن هيرودوت اعترف بأنه لا يعتقد بزالموكس عبدا لفيثاغورس بل على العكس اعتقد باسبقيته له .

٨٩ ـ آباريس ـ آريستيس ـ هيماثيموس . . الخ . .

٩٠ ـ وفي هذا المعنى يمكن مقارنته بديونيزوس وللاسرار الديونورنية

٩١ ـ في مقطع آخر حيث يمثل مجرى حياة بيربيست (١٤ ـ ٧٠) يصف سترابوطن ديفانيوس كساحر . ولم يسافر فقط الى مصر ولكنه تلقى بجد بعض الاشارات ادعى بواسطتها معرفة الارادة الالهية وبعد قليل من الوقت المثير لها» .

٩٢ ـ ا. من زالموكس لجنكيزخان ص ٦٦٧ وهنالك تفصيلات اخرى تبدو هامة بالنسبة لسترابون : ان زالموكسي تماما مثل ديكانيوس ، قد حقق دوراً عجيباً بفضل معارفه الفلكية بصورة خاصة والسحرية . في القرن ٧٧ . ولكن معتمداً على مصادر اكثر قدما ، جوردانس ، وصف بعبارات حادة فائدة الكهنة الداس بالنسبة للفلك ، وبالنسبة للعلوم الطبيعية . وان الالحاح الموضوع على المعرفة بالاجرام السماوية يمكن ان يعكس معلومات دقيقة . وفي الواقع أن معابد سار مزيجونزيا وكوتيستي الذين يرمز لهما باورانوس ـ الشمس ، واضحة ويبدو أن لها طبيعة سرية (انظر هاوريان دي كومنيو) ص ١٦٩ .

الفصل الثاني والعشرين

أورفيه ، فيثاغورس ، والأخروية الجديدة

١٨٠ ـ اساطير أورفيه : مغني القيثارة «مؤسس المسارة»

يبدو أنه من المستحيل الكتابة عن اروفيه والأورفيه دون اثارة بعض الفئات من العلماء : إما الشكاكين و «العقلانيين» الذين لمسوا أهمية الأورفية في تاريخ الرومانية الاغريقية ، واما المعجبين و «المتحمسين» الذين ينظرون إليها كحركة ذات مضمون بارز[١] .

إن تحليل المصادر يسمح لنا بالتمييز بين مجموعتين الوقائع الدينية : ١) الاساطير والتقاليد الخرافية ـذات العلاقة مع اورفيه ٢) الافكار والمعتقدات والعادات المنظور إليها كأورفية . إن مغني القيثارة citharède قد ذكر لأول مرة في **القرن الرابع من قبل الشاعر ابيكوس دي ريجين Ibykos de Rhogin الذي تكلم**

عن «اورفيه ذي الاسم الشهير» . وبالنسبة لِبندار ، فهو «العازف أب الاغاني الميلودية» . [بيث ١٤٠ - ١٧٧] . وإيشيل Eschyle يدعوه كمن «يسحر الطبيعة برمتها بروائعه» [اغاممنون ١٨٣٠] . ولقد صور على طرف زورق ، والقيثارة بين يديه ، **ومعين بوضوح على واجهة افريز من القرن الرابع**عائد لمخبأ السيسيكونيين Sicyoniens في دلفي . ومنذ القرن الخامس أخذت الصور الايقونية لأورفيه تنمو باستمرار : يرى عازفاً على قيثارته محاطاً بالطيور ، والحيوانات المتوحشة ، أو بالتراسيين المؤمنين . وهو مقطعاً قطعاً من قبل الميناد les menades ، أو انه في الهاديس l'Hadès قرب الآلهة . ودائما في القرن الخامس تؤرخ الاشارات الأولى لنزوله إلى مقر الأموات ليستعيد زوجته اوريديس Eurydice [آلسيت ٣٥٧] . وقد فشل لأنه ادار رأسه بسرعة[٢] . أو لأن القوى الجهنمية عارضت مشروعه[٣] . وقد جعلته الاسطورة يعيش في تراس «قبل هومر بجيل من الزمن» ، ولكنه منذ القرن السابع أصبح يصور على السيراميك في هندام اغريقي على أهبة سحر الحيوانات المتوحشة أو البربر بموسيقاه[٤] . وفي تراس وجد منيته . وحسب القطعة الضائعة من إيشيل Eschyle ، البصاريدس les Basarides ، فإن اورفيه كان يصعد كل صباح على جبل بانجيوس Pangaios ليعبد الشمس ، المتمثلة بأبولون ، فأرسل ديونيزوس الغاضب ضده المينادات les Ménades وقد تمزق مغني القيثارة وبعثرت اشلاؤه[٥] . وان رأسه الملقى في الهيبرون Hébron طفا مغنياً حتى ليبسوس . وقد استقبل بتقوى ، واستخدم بعدئذ كوسيط وحي oracle .

وسنشير الى الأورفية في أداب القرنين الخامس والسادس ، ولكننا نعرض هنا أن تقدير اورفيه والمشاهد الأكثر أهمية للصورة المرسومة عنه تذكر لحد كبير بالممارسات الشامانية ، فهو كالشامان ، مطبب وموسيقي ، يفتن ويروض الحيوانات المتوحشة ، ينزل إلى مستقر الأموات ليستعيد أورديس ، رأسه المقطوع محفوظ ويستخدم وسيط وحي ، تماما كما تستخدم جماجم الشامان اليوكاجيرس yukagirs في القرن التاسع عشر . ان كل هذه العناصر قديمة وتناقض الاغريقية - الرومانية للقرنين السادس والخامس ، الا اننا نجهل ماقبل تاريخها في اليونان القديمة ، أي وظيفتها المؤقتة الاسطورية - الدينية قبل ان تندمج في الاسطورة

الأورفية . واضافة لذلك فإن اورفيه كان على علاقة مع مجموعة شخصيات خرافية ـ مثل آباريس Abaris وآرستيلس Aristeas الخ . متميزة كذلك بتجارب انتشائية من نمط شاماني أو ماقبل الشامانية .

كل هذا يكفي ليجعل المغني الاسطوري «قبل هومر» كما يقرره التقليد وكما كررته الدعاوة الأورفية . ولا يهم كثيراً ما اذا كانت هذه الميتولوجيا المقلدة للقديم ، في جزء منها ، حصيلة طلب مثار على ما يرجح بمشاعر مؤكدة . «ومن الممكن في الواقع ان تعين خارج الميثولوجيا الرغبة بوضع اورفيه في الأزمنة العظمى «للأصول» وبالنتيجة ، اعلانه «جداً لهومر» ، الأكثر قدماً والأكثر اعتباراً ممن يمثله ، والرمز **عينه** ، للديانة الرسمية) . فهامة هي اذن واقعة الاختيار بعناية للعناصر الأكثر قدما ، والتي يمكن منها الحصول على ممر لاغريق القرن السادس(٧) . ان الإصرار على استحضار وجوده ، ونبوءته وموته المأساوي في «تراس» سيؤكد البنية البدئية لشخصيته . ومما له دلالته ايضا انه من بين القلائل النازلين لمستقرات الأموات المؤكدين في التقليد الاغريقي ، اصبح الأكثر شعبية» .

إن الكاتاباز la catabase متضامنة مع طقوس مسارية . وعليه فإن منشدنا كان مشهوراً بصفته «مؤسسا للمسارات» و «الاسرار الخفية» . وحسب اوريبيد ، «انه اظهر مشاعل الاسرار الخفية» [ريزوس ٩٤٣] . إن مؤلف ضد اريستوجيتون **A. contre Aristorgiton أ (ف ١١ ع) أكد بأن اورفيه «قد أظهر لنا المسارات الأكثر قداسة» ، راجعاً في ذلك بالتأكيد إلى اسرار ايلوزيس .**

وأخيراً فإن علاقاته مع ديونيزوس وأبولون تصادق على شهرته «كمؤسس للاسرار الخفية» لتعلق ذلك بآلهة الاغريق وحدهم والذين كانت عبادتهم قد تطلبت مسارات و «وجدا» ، (معلوم ، بأنه وجد بأنواع مختلفة ، لا بل متضادة) . ومنذ القديم أفسحت هذه العلاقات مجالاً للتناقضات . فعندما يسحب ديونيزوس والدته سيميله من هادس ، يلاحظ ديودور [٤ ـ ٢٥ ـ ٤] التشابه مع نزول اورفيه للبحث عن اورديس . وتقطيع هذا الأخير من قبل المينادات يمكن له ان يفسر

ايضا كطقس ديونيزيس ، تمثيل الاله sparagmos تحت شكل حيوان (ف ١٢٤ ع) . ولكن اورفيه كان معروفا بخاصة كالأمين الممتاز لأبولون . وحسب احدى الاساطير ، كان الابن للاله نفسه من الحورية كاليوب . ويدين بموته العنيف للتفاني الذي أظهره تجاه ابولون . وان الأداة الموسيقية لأورفيه كانت القيثارة الأبولونية[١٠] . وأخيراً وبصفته مؤسس المسارة فإن اورفيه أعطى أهمية كبرى للتطهيرات وقد كان الختان Katharsis تقنية أبولونية بصفة خاصة[١١] .

وهنالك عدد من الملامح يمكن الامساك بها : ١) مع ان الاسم وبعض الاشارات للأسطورة قد تأكدت اعتباراً من القرن الرابع فقط ، فإن اورفيه هو شخصية دينية من نموذج قديم . ويمكن التصور بسهولة انه عاش (قبل هومر) ، مع فهمنا لهذه العبارة إما تاريخيا وإما جغرافيا (أي في اقليم «بربري» لم يمس بعد بالقيم الروحية المميزة **للحضارة** الهوميرية . ٢) «أصله» وماقبل تاريخه تفوتنا معرفته ، ولكن أورفيه لا ينتمي بالتأكيد للتقليد الهوميري ، ولا لتراث البحر المتوسط . وان علاقاته مع التراسيين غامضة جداً ، لأنه من جهة ، يتلاءم بين البربر كأغريقي ، ومن جهة اخرى يتمتع بمزايا سحر ـ دينية مما قبل الهيلينية (تدريب على الحيوانات ، كاثاباز شاماني) . وحسب علم الهيئة morphologiquement هو قريب من زالموكسي (ف ١٧٩ ع) فهو ايضاً مؤسس اسرار خفية (بواسطة كاثاباز) وبطل محضر للجيت والتراس «الذين اعتقدوا بأنهم خالدون» . ٣) إن أورفيه قد مثل كمؤسس لمسارات ممتازة . وإذا أعلن «جداً لهومير» **فذلك لابراز** الأهمية لرسالته الدينية . وهذا ما يقطعها جذريا مع الديانة الأوليمبية .

وان جوهر المسارة المعتبرة وكأنها مؤسسة من قبل اورفيه هي مجهولة ولا يعرف سوى بعض مقدماتها : نباتية ، تقشفية ، تطهير ، تعليم ديني ، وتعرف في ذلك الأطروحات اللاهوتية : التقمص وبالنتيجة خلود الروح .

ان مصير الحياة التالي للروح كان يشكل ، كما رأينا (ف ٩٧ ع) هدفاً للمسارات الايلوزية ولكن العبادات الديونوزية والأبولونية كانت هي ايضاً تشرك

مصير الروح . فيبدو مقبولاً إذن ، أنه قد رؤي في الصورة الأسطورية لأورفيه في القرنين الرابع والخامس وكأنه مؤسس لأسرار ، وهي باستلهامها لمسارات تقليدية ، طرحت مذهباً تلقينياً أكثر تحققاً لأنه كان يأخذ في الحسبان التقمص وخلود الروح .

ومنذ البداية ، فإن صورة اورفيه بعثت تحت علامات معبرة عن ابولون وديونيزوس ، ان «الارفية» ستتطور في ذات الاتجاه . وليس هذا هو المثال الوحيد فميلامب mélampe كاهن بيلوس paylos مع انه «المفضل لأبولون» ، كان في ذات الوقت «الذي يشرح للاغريق اسم ديونيزوس ، أضحيته وطواف عضو التذكير» [هيرودوت ٢ - ٤٩] . زد على ذلك ، فقد رأينا (ف ٩٠ ع) ، ان لأبولان علاقة مع هاديس . **ومن جهة** اخرى ، لقد انتهى بعقد الصلح مع ديونيزوس ، الذي غدا مقبولاً بين الأوليمبيين . إن هذا التقريب **للالهين** المتضادين ليس بدون دلالة . فهل يمكن ان الروح الاغريقية تعبر هنا عن أملها لأن تجد ، بالمواربة بمثل هذا التواجد للآلهين ، الحل لأزمات متفجرة بخراب القيم الدينية الهومرية ؟

١٨١ - النسب الالهي والإناسة الأورفيين : تقمص الروح وخلودها .

في القرن الرابع ، كان الفكر الديني والفلسفي محكوماً بمسألة الواحد والمتعدد . وكانت الأفكار الدينية في ذلك الوقت تتساءل : «ماهي العلاقة بين كل فرد والألوهة التي يشعر بالانتماء اليها ؟ كيف نستطيع تحقيق الوحدة الكامنة والخفية في الانسان كما في الاله» . ان نوعاً من الوحدة بين الالهي والبشري كان يتم اثناء التهتكات الديونيزية ، الا أنها مؤقتة ، ويتم الحصول عليها بتخفيض الشعور . وان «الاورفيين» بقبولهم للدرس الباخي - أي مشاطرة الانساني للالهي - استخرجوا نتيجة منطقية : الخلود ، وبالنتيجة ألوهية الروح وعليه

أبدلوا التهتك بالتطهير l'orgia par la katharsi الأورجيا بالكاتارسيس ، تقنية من التطهير التي علمها ابولون .

ان الغناء على القيثارة citharède غدا الرمز والمعلم الكامل لحركة ، هي في وقت واحد «مسارية» و «شعبية» عرفت تحت اسم الأورفية . وان مايكفي لتجهيز هذه الحركة الدينية ، هو بدئيا الأهمية المعطاة للنصوص المكتوبة في «الاسفار» . وافلاطون يرجع الى كمية من الكتب المنسوبة الى اورفيه والى موزيه **Musèe** الذي اعتبر كابن او تلميذ له) ومن ثم على التطهيرات والحياة بعد الموت . وهو يشير ايضا الى بعض المقاطع السداسية ، من طبيعة متعلقة بنسب الآلهة ، كما لو انها متعلقة«بأورفيه» . وأوربيد أيضا يتكلم عن «كتابات» اورفية ، واريسطو ، الذي لم يعتقد أبداً بتاريخية اورفيه ، كان متآلفاً مع نظريات الروح المتضمنة في «الأشعار الأورفية المزعومة»(١٣) . ويبدو معقولا ان افلاطون كان يعرف بعض هذه النصوص (يمكن شراؤها من المكاتب) .

وثاني المميزات هو التنوع الملحوظ للأورفيات المزعومة ، فإلى جانب كتاب انساب الآلهة ، أو النساك والمتنبئين كان يوجد ماكان قد دعاه ثيوفراست Théophraste فيما بعد ، في العصر الكلاسيكي ، بأورفيوتيليستات dcs orpheotélestes «ملقنين أورفين» . وبدون احتساب لصانعي المعجزات thaumaturgs العاميين المطهرين والمتنبئين ، الذين وصفهم افلاطون في مقطع شهير(١٤) . فإن الظاهرة معروفة في تاريخ الاديان : كل حركة تنسكية أو غنوصية أو متعلقة بالخلاص تثير مالايحصى من التشكلات الكاذبة والمسارات التي تكون أحيانا طفلية . وفي هذا نذكر بما أسمي بالنساك الكذابين الذين فرّخوا بسرعة في الهند منذ عصور الاوبانيشاد ، أو المقلدين الاجلاف لليوجيين والتانتاريك . ان المعارضات تتكاثر ، بخاصة عندما يصر على الخاصية المكتشفة والمسارية لعرفان متعلق بفكرة **دينية مخلِّصة** . ويذكر ، على سبيل المثال ، «بالمسارات» التي لا حصر لها و «بالجمعيات السرية» التي انبثقت في اوروبا الغربية بعد ظهور الماسونية أو ماله علاقة «بالسر الخفي للصلبان الوردية» . وسيكون من السذاجة ، بالنتيجة تسليم العنان للتأثر بالملقنين الأورفيين وصانعي المعجزات ، وان يشك

بحقيقة الأفكار والشعائر الأورفية . فمن جهة ، تأكد منذ الأزمنة القديمة وجود عدد من الانتشائيين ، والمتنبئين ، والمتطببين المشابهين للأورفيين وجميع هؤلاء يشكلون احدى مميزات «الديانات الشعبية» . ومن جهة اخرى ، فانه في الواقع بدءاً من القرن السادس ، أخذ يستند الى الأورفية عدد من صانعي المعجزات ، متنبئون ، ومطهرون ، كما ثبت وجود بعض المعارف الروحية (غنوصيات) وتقنيات دينية متعلقة بوجود منقذ sotéreologiques وانه حصل اكراه لاحتذائها ، أو على الأقل ، لتحقق ألقها المرتبط باسم شخصية خرافية .

ان بعض اشارات افلاطون تسمح لنا بادراك نص المفهوم الأورفي للخلود . فنتيجة قصاص عن جرم بدئي ، ادخلت الروح في الجسد (سوما) كما لو أنها ادخلت في قبر (سيما)[١٥] . وبالنتيجة فإن الوجود المتجسد يشبه بالأحرى موتا ، وان الموت يشكل البداية للحياة الحقيقية . مع ذلك فإن هذه (الحياة الحقيقية) لا يمكن الحصول عليها آليا ، فالروح تحاكم حسب اخطائها أو مزاياها ، وبعد بعض الوقت تتجسد مجدداً . وكما في الهند بعد الأوبانيشاد ، يتعلق بالاعتقاد بعدم فناء الروح ، المحكوم عليها بالتقمص حتى خلاصها النهائي . وفيما سبق بالنسبة لامبيدوقليس Empédocle الذي كان يتبع «الحياة الأورفية» ، كانت الروح سجينة في الجسد منفية بعيداً عن الطوباويين مرتدية «القميص الغريب من اللحم» [فر . . ب . ١١٥ و ١٢٦] . وبالنسبة لامبدوقلس كذلك ، **فإن الخلود أدخل التقمص métempsycose . وقد كان هذا تبريراً لنباتيته (الحيوان الذي يقتل يمكن ان تكون فيه روح واحد من اقرب اهلنا) .**

ولكن المزاولات النباتية كان لها تبرير ديني اكثر تعقيداً واكثر عمقاً . فبرفض التغذية على اللحوم ، كان الأورفيون و «الفيثاغوريون» يمتنعون عن الاضحيات الدموية الالزامية في العبادة الرسمية . وقد ترجم مثل هذا الرفض ، في الحقيقة ، القرار بالانفصال عن المدينة وفي نهاية المطاف (الانعزال عن العالم) ؛ ولكنه كان أعلن بصورة خاصة طرح النظام الديني الاغريقي ، في جملته ، هذا النظام المبني على التضحية الأولى المقدمة من بروميثية **prométhée** (ف ٨٦٠ ع) . محتفظا للبشر باستهلاك اللحم ، ومعينا العظام كتقدمة للآلهة ، استجر بروميثية

غضب زوس ، وفجّر بالتالي ، العملية التي وضعت نهاية للعصر «الفردوسي» ، عندما كان البشر يعيشون متشاركين مع الآلهة[١٦] . ان الرجوع الى المزاولات النباتية يدل في آن واحد على القرار بمحو خطيئة الأجداد وعلى الأقل باسترداد ، في جزء منها على الأقل ، الطوبى أو النعيم الأول .

إن ما أسمي «بالحياة الاورفية» [شرائع ٧١ - ٧٨٢] كان يتضمن تطهيراً تنسكياً وعدداً من القواعد المميزة ، ولكن السلامة كان يحصل عليها بصورة خاصة «بمسارة» أي بكشوفات النظام الكوني واللاهوتي . وبتجميع وتلصيق بعض الشهادات والاشارات للكتاب القدامى (أخيل ، امبيدوقلوس ، بندار ، افلاطون ، اريسطوفان الخ . .) وكذلك الوثائق التالية ، تم التوصل لاعادة تركيب الخطوط الكبرى لما يمكن تسميته ، طالما لم يوجد أفضل **«المذهب الأورفي» . ويُميز فيه نسب آلهة محدداً في نشكونية ، وإناسة متفردة . وإن هذا هو في الأساس الاسطورة الإناس كونية anthropogonique التي تقيم الأخروية** الأورفية ، المتناقضة في ذات الحين مع أخروية هومير وأخروية ايلوزيس .

إن نسب الآلهة المسمى رابسوديات des rhapsodies[١٧] لا يعتمد سوى بعض التفصيلات لشجرة النسب المنقولة عن طريق هزيود . فالزمن (كرونوس) ينتج في الايثر l'Aither البيضة الأولية حيث خرج أول الآلهة ، ايروس ، المسمى ايضاً فانيس phanèsوان ايـروس ،، هو مبدأ التوالد ، الذي يخلق الآلهة الأخرى والعالم . ولكن زوس يبتلع فانيس وكل الخليقة ، وينتج عالما جديداً . إن النغمة الاسطورية لابتلاع آلهة حية من قبل زوس معروفة جداً . فهزيود يروي ان الأوليمبي قد بتلع زوجته ميتيس زوجته ميتيس metis قبل الولادة العجيبة لآثينا (ف ٨٤ ع) . غير ان دلالة المعنى في نسب الآلهة الأورفي متباينة : اعترف فيها بالجهد لانشاء اله مديركوني الخالق لعالم يحكمه . اضافة الى ذلك ، فإن المشهد يعكس الايحاء الفلسفي المتعلق بانتاج عوالم متعددة بدءاً من الوحدة[١٨] . وهذه الاسطورة لها ايضاً بنية قديمة رغم معالجات عديدة لها ، وقد أشير بحق لمشابهاتها ، النشكونية المصرية والفينيقية .

وتطرح تقاليد أخرى كمبدأ أول نيكس = الليل ، الذي حمل بأورانوس وجيبا ؛ أو اوكينوس okeanos ، الذي انبثق منه الزمن (كرونوس) الذي ، بالتالي ، انتج الإيثر l'Aither والعماء ؛ أو الواحد l'un ، الذي أولد النزاع ، والذي بفعله انفصلت المياه عن السماء . وقد كشفت بردية ديرفيني papyrus de Derveni منذ وقت قريب نسبا اورفياً جديداً للآلهة ، مركزاً حول زوس . وان بيتا من الشعر منسوباً الى اورفيه أعلن ان «زوس هو البدء ، والوسط والتتمة لكل شيء» [كون : ١٥ ـ ٧ ـ ٥] وقد عين أورفية موارا (القدر) وكأنه من فكرة زوس . «عندما يقول البشر : (موارا قد نسج) فإنهم يفهمون ان فكر زوس قد حدد ماهو قائم وماسيكون ، وما يتوقف عن ان يكون» [كول ١٥ ـ ٥ ـ ٧] . وان اوكينوس ليس سوى أقنوم Hypostase لزوس ، وتماما فإن الأم ريا Rhea كجيا (ديميتر) وهيرا ، وكل هذه الأسماء المختلفة هي لذات الربة [كول . . ١٨ ـ ٧ ـ ١١] . وإن للنشكونية بنية جنسية sexuelle وواحدية moniste في آن واحد : زوس يصنع الحب في «الهواء» (أو : «في الأعالي») وهكذا خلق العالم . ولكن النص لم يذكر الشريك[٢] . ويعلن المؤلف وحدة الوجود مؤكداً ان الكلمة (لوغوس) للعالم مماثلة (للوغوس) زوس [كول ١٥ ـ ١٣] . ويستتبع هذا ان الاسم الدال على العالم هو (زوس) [هيرقليط فر . . . ب١ ـ ب٣] . ان النص المحفوظ في بردية ديرفني هام من عدة وجوه ، فمن جهة يقر ، لعصر متقدم ، بوجود جمعيات سرية أورفية حقيقية ، ومن جهة اخرى ، يوضح الاتجاه الواحد ، لا بل التوحيدي لبعض نسب الآلهة الأورفي .

أما بالنسبة لأصل الانسان بدءاً من رماد التيتان ، فغير مؤكدة بوضوح سوى لدى بعض الباحثين المتأخرين (أول وثاني قرن ب . م)[٢١] . ولكن كما حاولنا اظهاره بصدد النغمة الاسطورية ـ الطقوسية الديونيزوسية ـ الزاغروسية (ف ١٢٥ ع) ، نجد اشارات في مصادر اكثر قدما . وبرغم شكوك بعض العلماء ، فإنه يمكن رؤية إحالات لطبيعة تيتانية للانسان في عبارة بندار : «التكفير لحزن قديم» [فر ـ شر ١٣٣] وفي مقطع من des lois [٧٠١ ـ س] حول اولئك الذين «يظهرون الطبيعة القديمة للتيتان» . وحسب معلومات اوليمبيودور ، يمكن

الافتراض بأن كزينوقراتيس ، تلميذ **أفلاطون** ، شارك بفكرة ان الجسد بصفته «سجنا» مع ديونيزوس والتيتان» .

ومهما يكن التفسير المعطى لمثل هذه الاشارات الغامضة ، فمن المؤكد ، ان اسطورة التيتان كانت معتبرة ، في القديم وكأنها «اورفية» . وبحسب هذه الاسطورة ، إن الانسان كان يشارك في وقت واحد في الطبيعة التيتانية وفي الألوهية ، نظراً لأن رماد التيتان كان يتضمن كذلك جسم الطفل ديونيزوس . مع ذلك ، وبتطهيرات (كازارموا) وبطقوس مسارية (تيليتية) ، وباتباع «الحياة الأورفية» تم التوصل لالغاء العنصر التيتاني والتحول الى باخس Bakhos ، وبعبارة اخرى ، تم الفصل والوصل للشرط الالهي ، الديونيزي .

ومن غير المجدي الاشارة الى جدة وأصولية هذا المفهوم . ونعيد إلى الذاكرة بأن الفكر الميزوبوتامي السابق كان قد رأى : خلق الانسان من قبل ماردوك بدءاً من الأرض (أي من جسم غول بدئي ثيامات) ومن دم الشيطان القديم كينغو l'archide´mon (ف ٢١) إلا أن الخلق البشري الأورفي ، هو اكثر غموضاً ومأساوية كما يبدو من تكونه ، وهو يتضمن ، بالتضاد ، عنصر أمل ، مفقود ليس في التكوين الميزوبوتامي ، وانما أيضاً في المفهوم الهوميري . لأنه بالرغم من أصله التيتاني ، فإن الانسان يساهم ، بطريقة تكوينه الخاصة به ، في الألوهية . إنه مؤهل حتى للتحرر من العنصر «الشيطاني» الظاهر في كل وجود دنيوي (جهالة ، نظام اكل اللحوم . . الخ) . ويمكن التفريق بين من جهة ، ثنائية (روح ـ جسد) قريبة جداً من الثنائية الافلاطونية ؛ ومن جهة اخرى ، مجموعه من الأساطير ، والمعتقدات والسلوك والمسارات التي تضمن فصل «الأورفية» عن مثيلاتها ، وفي آخر المطاف ، فصل الروح عن الكوزموس (الكون) وكل هذا يذكر بالعديد من مذاهب الخلاص والتقنيات الهندية (ف ١٩٥) ويتقدم على مختلف الأنماط الغنوصية (ف ٢٢٩ ع) .

١٨٢ ـ الأخروية الجديدة

أما بالنسبة للأخروية الأورفية ، فإنه يمكن اعادة تركيب خطوطها الكبرى بدءاً من بعض المراجعات الافلاطونية ، وامبيدوكلس وبندار . فبعد الموت ،

تتجه الروح نحو الهادس l'Hades ـ الجحيم . وحسب فيدون [١٠٨أ] أوغورغياس [٥٢٤] ، إن الطريق «ليس وحيداً ولا بسيطاً ، ويوجد عدة رجعات وعدة اجتيازات» . وتؤكد الجمهورية [٦١٤ـ س د] على أنه من المسموح به للعادل أن يأخذ طريق اليمين ، في حين ان الخبثاء سيرسلون نحو الشمال . ويصادف وجود اشارات مشابهة في الشعر المكتوب على أوراق ذهبية مكتشفة في قبور ايطالية شمالية وفي كريت وهي ترجع على أقل تقدير للقرن الخامس : «سلام لك أنت الذي تسافر بطريق اليمين نحو البراري المقدسة وغابات بيرسفونة» . وهذا النص يتضمن اشارات دقيقة : «إلى الشمال من مقر هادس ، ستجد نبعاً ترتفع إلى جانبه شجروة سرو بيضاء ؛ فلا تقترب من هذا النبع كثيراً ، ولكنك ستجد آخر : من بحيرة الذاكرة (منيموزين mnémosyne) ينساب ماء عذب وهنالك حراس عاملون ، قل لهم : انني ابن الأرض والسماء المرصعة بالنجوم ؛ هذا ما تعلمونه ، ولكنني جاف من العطش وأكاد أموت ، جودوا علي سريعاً بالماء العذب الذي يسيل من بحيرة الذاكرة : ومن ذاتهم سيعطيك الحراس الماء لتشرب من النبع المقدس ، وبعد هذا ستحكم بين الأبطال الآخرين»[٢٣] .

وفي اسطورة إر ER ، يقرر افلاطون ان كل الأرواح المعينة لمعاودة التجسيد مجبرة لتشرب من نبع ليثيه Léthé كي تنسى تجاربها في العالم الآخر . غير أن الأرواح «الأورفية» كان مقدار لها أن لا تعاود التجسد ، وذلك هو السبب الذي من أجله توجب عليها تفادي مياه ليثيه . «لقد قفزت من دورة العقوبات الثقيلة ومن الآلام ، وانطلقت بخطى سريعة نحو العرش المرغوب . لقد التجأت تحت حضن السيدة ، ملكة مقرات الأموات» . وترد الربة : «أيها السعيد ، أيها المبارك المحظوظ : لقد أصبحت الها بدلاً عن الانسان الذي كنته» [ترجمة بولانجية][٢٤] .

إن «دورة العقوبات الثقيلة» تتضمن عدداً من اعادة التجسدات ، فبعد الموت ، تحاكم الروح وترسل مؤقتاً إلى مكان المعاقبة ، أو الطوبى béatitude وترجع إلى الأرض بعد الف سنة . وعلى الفاني العادي أن يجتاز الدورة عشر مرات قبل ان ينجو . ولقد وصف الأورفيون كثيراً عذابات المذنبين و(الآلام التي

لا نهاية لها المخصصة للمدانين)[٢٥] . وان كيرن Kern أكد كذلك بأن الأورفية كانت أول من أبدع الجحيم[٢٦] . وفي الواقع ان (كاتاباز) المغني في بحثه عن اوريديس كانت حققت كل انواع الأوصاف للعالم الجهنمي . وهنا نصادف مجدداً العنصر «الشاماني» ، الخط السائد في اسطورة اورفيه : معلوم ان الشامان في كل آسيا الوسطى والشمالية ، هم الذين برواياتهمْ تفصيلات لا حصر لها عن هبوطاتهم الوجدية للجحيم ، قد أقاموا جغرافية جحيمية مشهدية واسعة وجعلوها شعبية تماما[٢٧] .

إن للمشهد ولخط سير الرحلة الملخصين بوريقات قليلة ـ النبع وشجرة السرو ، وطريق اليمين ـ كذلك الأمر (عطش الموت) ، موازياتها في العديد من الميتولوجيات والجغرافيات الجهنمية . وان بعض التأثيرات الشرقية لا يسوغ استثناؤها ، ولكن ذلك يتعلق عن الأرجح بتراث عام لا يمكن تذكره ، ونتيجة تأملات ألوف السنين ، ووجديات ورؤى وانتشاءات ومغامرات حلمية واسفار خيالية ، إنه بالتأكيد ، تراث قُوم باشكال مختلفة وبتقاليد مختلفة . فالشجرة بالقرب من نبع ، أو مجرى هي صورة مثالية «للفردوس» وفي الميزوبوتاميا ، كانت الاجابة في حديقة مع شجرة مقدسة ، ونبع ماء ، محروسين من قبل الملك ـ حارس الجنة ، ممثلاً للاله (ف ٢٢ ع) . ان الأهمية الدينية للوريقات ، تتكون ، اذن ، في واقعة انها تمثل مفهوماً آخر لوجود تالٍ للروح عما تأكد في التقليد الهوميري . ومن الممكن انه يتعلق بعقائد وميثولوجيات قديمة تعود لحوض المتوسط وشرقية ، محفوظة حتى ذلك الحين في أوساط «شعبية» أو منحرفة عن المركز ، والتي تمتعت منذ بعض الوقت ببعض الاحترام بين الأورفيين والفيثاغورين وكل اولئك الذين كانوا مسكونين باللغز الأخروي .

ومما له دلالته اكثر ، هو ، مع ذلك الشرح الجديد «لعطش الروح» . فالاضاحي الجنائزية لتهدئة عطش الموتى تأكدت في عدد من الثقافات[٢٨] . وان العقيدة بأن «ماء الحياة» يضمن بعث الابطال منتشرة في الأساطير والفولكلور . وبالنسبة للاغريق ، ان الموت يمثل بالنسيان ، وان الموتى هم أولئك الذين فقدوا الذاكرة .

ولا يوجد سوى بعض المتميزين، أمثال تريزياس أو امفيارس اللذين حافظا على ذاكرتهما بعد المنية. وان هرمس بهدف ان يجعل ابنه ايتاليد خالداً اعطاه «ذاكرة غير قابلة للفساد»(٢٩). ولكن ميتولوجيا الذاكرة والنسيان تحورت عندما رسمت مذهباً للتقمص. فأصبحت وظيفة نبع النسيان ليثية مقلوبة: لا تستقبل مياهه ابداً الروح التي تترك الجسد، بهدف ان تجعلها تنسى الوجود الأرضي، بالعكس، فإن ليتيه يحمي ذكرى العالم السماوي في الروح التي ترجع على الأرض بهدف التجسد مجدداً. إن «النسيان لا يرمز مطلقاً للموت وانما للرجوع إلى الحياة. وان الروح التي تتهور بالشرب من نبع ليثيه («المذبوحة بالنسيان والتعاسة»، كما وصفها افلاطون، [فيدر ٢٤٨]) تعاود التجسد وهي من جديد مطروحة في دورة المصير. وقد ادعى فيثاغور، وايمبيد وكل وغيرهم ايضا ممن يقولون بالتقمص أنهم يتذكرون وجوداتهم السابقة؛ وبعبارة أخرى، لقد نجحوا بالحفاظ على الذاكرة في العالم الآخر(٣٠).

ان القطع المنقوشة على صفيحات ذهب تبدو أنها تشكل جزءاً من نص قانوني، ونوعا من دليل للآخرة، قابل للمقارنة «بكتابي الموتى» المصري والتيبيتي. وقد انكر بعض العلماء خاصيتها «الأورفية» معتبراً اياها كما لو انها من أصل فيثاغوري. كذلك فقد اعتبر ان اكثرية الأفكار والطقوس المشهورة «اورفية» تمثل في الحقيقة ابداعاً أو معالجات فيثاغورية، والمسألة تبدو معقدة جداً لا يمكن تلخيصها في بضع صفحات. ومع ذلك يؤكد بأن الإسهام الاحتمالي لفيثاغورس والفيثاغوريين، مع كونه بارزا، إلا أنه لم يغير معرفتنا للظاهرة «الأورفية». وبالتأكيد، فإن المشابهات بين أساطير اورفيه وفيثاغورس واضحة، كذلك ان التوازي بين شهرتهما المتعلقة بكل منهما غير قابلة للانكار. ان فيثاغورس، تماما «كمؤسس المسارات» الخرافي، شخصية تاريخية وربما «رجل إلهي» بامتياز، يتميز بتركيب عظيم لعناصر قديمة (البعض منها «شاماني»)، وبإعادة تقييمات جريئة للتقنيات التنسكية والتأملية. وفي الواقع، ان اساطير فيثاغورس تشير الى علاقاته مع الآلهة والأرواح، وسلطته على الحيوانات، وحضوره في أمكنة متعددة في آن واحد. ويشرح بوركر Burkart «الفخذ

الذهبي» الشهير لفيثاغورس بمقارنته له بمسارة من نموذج شاماني . (معلوم ، في الواقع ، ان الشامانيين السيبريين اثناء مسارتهم ، يكونون معنيين بالحصول على اعضاء متجددة ، وتجمع العظام أحيانا مع حديد) . وأخيراً فإن كاثاباز catabase فيثاغورس يشكل عنصراً شامانيا . ويروى هيرونيموس الرودسي Hiéronymos de Rhodes ان فيثاغورس نزل في الهادس وهنالك رأى روحي هومر وهزيود مكفرتين عن كل ماقالاه من شر في الآلهة(٣١) . ومثل هذه الملامح «الشامانية» هي فضلا عن ذلك غير مستثناة من خرافات اورفية وفيثاغورس . إن أباريس الشمالي l'hyperbareén Abaris كاهن ابولون ، طار على سهم (ف ٩١ع) ، واريستياز البروكونيزي Aristéase de proconnèse كان مشهوراً بانتشائه القابل لأن يختلط مع الموت ، بتحوله لغراب ؛ وهيرموتيموس الكلازوميني ، الذي كان معتبراً من قبل بعض الكتاب كتجسد سابق لفيثاغورس ، كان قادراً على ترك جسده لوقت طويل(٣٢) .

ويضاف على المشابهات لتراجم الحياة الخرافية ، المشابهات بين المذاهب وتطبيقات «الأورفيات» والفيثاغورثية : الاعتقاد بالخلود ، التقمص ، القصاص في الجحيم ، عودة الروح الأبدية للسماء ، النباتية ، الأهمية المعطاة للتطهيرات ، التنسك . غير أن كل هذه المشابهات والمطابقات لا تثبت وجود «الأورفية» بصفتها حركة مستقلة . وقد يمكن ان بعض الكتابات «الأورفية» هي من تأليف فيثاغورسيين ، الا انه سيكون من السذاجة التخيل ان الاساطير الأخروية ، والمعتقدات والطقوس «الأورفية» قد اخترعت من قبل فيثاغورس او تلامذته . فالحركتان الدينيتان تطورتا بالتوازي ، كتعبيرين عن تصور واحد . ومع الفارق ، بأن «المذهب» الفيثاغوري ، تحت ادارة مؤسسه ، لم ينتظم في جمعية مغلقة ، من نوع باطني فحسب ، بل ان الفيثوغوريين زرعوا منهجاً «لتربية كاملة»(٣٣) . واكثر من هذا ، إنهم لم يزدروا السياسة العملية ، حتى انهم خلال فترة من الزمن توصلوا لاستلام السلطة في عدد من مدن ايطاليا الشمالية .

ولكن اكبر ميزة لفيثاغورس هي وضعه الأسس «لعلم شامل» ذي بنية متكاملة holistique ، أدخلت فيه المعرفة العلمية في جملة مبادىء اخلاقية ،

وميتافيزيقية ودينية ، ومترافقة بمختلف «تقنيات الجسد» . وبالجملة كان للمعرفة فيه وظيفة هي في آن واحد غنوصية ، وجودية ، ومتعلقة بالخلاص sotériologiqie وهذا هو «العلم الكلي» من نمط تقليدي[٣٤] ، الذي يمكن التعرف عليه في فكر افلاطون كما هو ايضاً عند الانسانيين في النهضة الايطالية ، وعند باركليس أو عند الكيميائيين في القرن السادس عشر ، «علم كلي» كما تحقق خاصة بالطب والكيمياء الهندية والصينية .

ان بعض المؤلفين يميلون لاعتبار الحركة الأورفية كنوع من «كنيسة» أو مذهب يمكن مقارنته بمذهب الفيثاغوريين . ومن المحتمل أن الأورفية تشكلت في «كنيسة» او في تنظيم سري مماثل لديانات الاسرار . الأمر الذي يميزها ـ حركة «شعبية» ومبهرة للنخبة ، وفي وقت واحد متضمنة «مسارات» وحائزة «لكتب» ـ ويقربها بالأحرى من التانتارية tantrisme الهندية والتاوية الجديدة . وان هذه الحركات الدينية ، لا تشكل ولن تشكل «كنائس» ولكنها تتضمن «مدارس» ممثلة لتقاليد متوازية مشهورة بسلسلة من المعلمين ، الخرافيين احيانا ، وحائزة لأدب موسع[٣٥] .

ومن جهة أخرى ، يمكن التعرف في «الأورفيين» الورثة لجماعات مسارية ، الذين في العصر القديم أشغلوا وظائف مختلفة تحت الاسم كابير kabires ، تيلشين telchines ، كوريت courètes، كوريبانت corybontes ، داكتيل dactyles جماعات حافظ اعضاؤها بحسد على بعض «اسرار المهنة» (كانوا معدنين وحدادين ، وكذلك مطببين ، ومتنبئين ، ومعلمي مسارات الخ) . وببساطة فإن «اسرار المهنة» ذات العلاقة مع مختلف التقنيات المتابعة للسيطرة على المادة ، كان لها محلها في «الأسرار» المتعلقة بمصير الروح بعد الموت .

ومع ان تقدير الأورفية قد انحدر بعد الحروب الميدية ، فإن افكارها المركزية ـ الثنائية ، الخلود ، واذن الوهية الانسان ، الأخروية ـ لم تنقطع عن اشغال الفكر الاغريقي ، وبخاصة عبر شرح افلاطون . وقد استمر التيار في

---

* يلفت النظر ـ الأسم الأول والثاني ومماثلتها باللفظ العربي خبير وتلقين .

الحياة على مستوى شعبي كذلك ، («الأورفيوتيلست les orpheotélestes» وبعد فترة متأخرة ، في العصر الهللنستي ، أمكن توحيد التأثير لبعض المفاهيم الأورفية في ديانات الاسرار ، بانتظار الموجة الجديدة التي ستعرف فيها الأورفية في القرون الأولى من العصر المسيحي ، وبخاصة بفضل الافلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة . وان هذه الامكانية للتطور والتجدد وللتدخل بطريقة خلاقة في عدد من التركيبات الدينية ، هي التي كشفت ، فعلاً ، مضمون التجربة «الأورفية» .

اما بالنسبة لصورة أورفيه فإنها استمرت لتكون موضعاً لاعادة تفسيرها باستقلال عن «الأورفية» من قبل اللاهوتيين اليهود والمسيحيين ، ومن قبل الهرمسيين = كيميائيين حتى بوب pope ومنذ نوفاليس حتى ريلكه وبيير ايمانوويل . وأورفيه هو واحد من الوجوه الاسطورية النادرة الاغريقية التي لم تنشأ أوروبا نسيانهم سواء أكانت أوروبا هذه مسيحية ، متنورة ، رومانتيكية ، أو حديثة (الجزء الثالث من هذا الكتاب) .

١٨٣ - افلاطون - فيثاغور والأورفيه

ان تاريخ الفلسفة الغربية ، حسب الصيغة الشهيرة لهوايت هيد A.N.Whitehead ليس في جملته سوى سلسلة ملاحظات ترقيمية لصفحات فلسفة افلاطون . وأهمية افلاطون في تاريخ الأفكار الدينية هو كذلك بارز : العصر القديم المتأخر ، واللاهوت المسيحي بدءاً من القرن الرابع بصورة خاصة ، والغنوص الاسماعيلي ، والنهضة الايطالية ، تميزت كلها بعمق بالرؤية الدينية الافلاطونية ، مع الخلاف فيما بينها . والواقعة التي لها دلالتها ولزومها اكثر من الأولى ، هي ان إلهام افلاطون لهذه الحركات لم يكن دينياً وإنما سياسياً . وفي الواقع ، إن افلاطون كان قد حلم بإقامة المدينة الفاضلة المثالية ، المنظمة حسب قوانين العدالة والانسجام ، المدينة التي يتوجب على كل فرد فيها ، ان يشغل

وظيفة محددة ومميزة . والحال أن آثينا فيما سلف كانت مع المدن الاغريقية الأخرى متآكلة بسلسلة من الازمات السياسية والدينية والاخلاقية التي كانت تهدد أسس البنيان الاجتماعي ذاتها . وقد كان سقراط عين المنبع الاساسي للتفكك في نسبوية السفسطائين وفي الشكية المعممة ، ولأن انكار السفسطائية وجود مبدأ مطلق غير قابل للتحول جعلهم يعارضون ضمنيا امكانية المعرفة الموضوعية ، وبهدف ان يبرز سقراط زيغ مقولتهم فقد ركز على طريقة التوليد maieutique أي الحوار المبنية على اشعار النفس بما تنطوي عليه من المعرفة الفطرية، الموصل إلى معرفة الذات والى مذهب قـدرات الروح . أما تقصي العالم الطبيعي فلم يكن يهمه في شيء . ولكن افلاطون أجهد نفسه لاكمال تعليم استاذه ، ولكي يؤسس علميا قيمة للمعرفة ، فقد درس الرياضيات . وقد بهره المفهوم الفيثاغوري للوحدة الكلية ، والنظام الثابت للكون والانسجام الذي ينظم مسيرة الكواكب كالسلم الموسيقي[٣٦] . وباحيائه لنظرية الأفكار ، المتعلقة بالمثل الخارج ـ أرضية والثابتة للحقائق الأرضية ، رد على السوفسطائية والمتشككين : المعرفة الموضوعية هي ممكنة اذن ، لأنها تستند على مثل سابقة الوجود وأبدية .

وفي موضوعنا هنا لا يهمنا إن افلاطون يتكلم أحيانا عن عالم افكار كمثال لذاتنا ـ حيث ان الاشياء المادية «تحتذي» الأفكار ضمن امكانية قدرتها ـ وانه يؤكد أحيانا بأن عالم الوقائع المحسوس «يساهم» في عالم الأفكار[٣٧] . ولكن هذا العالم من المثل الخالدة ما أن يقوم مرة ، حتى يتوجب تفسير متى ، وكيف توصل البشر لمعرفة الأفكار . ومن أجل حل هذه المسألة استعان افلاطون ببعض المبادىء الأورفية والفيثاغورية المتعلقة بمصير الروح . صحيح ، ان سقراط كان أصر سابقاً على القيمة التي لاتقدر للروح ، لأنها وحدها كانت منبع المعرفة ، وأشار إلى ضرورة «العناية بالروح» . وناهض الرأي التقليدي المبرم من هومر ، وبخاصة أن الروح هي مجرد شيء «مشابه للدخان» . غير ان افلاطون ذهب بعيداً اكثر : بالنسبة له ، الروح ـ وليست الحياة ! ـ كانت الشيء الأكثر قيمة ، لأنها كانت تنتمي لعالم مثالي وابدي . . فهو يستعير اذن من التقليد «الأورفي» ـ الفيثاغوري ، مع تطويعه تماما في نظامه الخاص ، مبدأ تقمص الروح واعادة

التذكر (anamnesis)

وبالنسبة لافلاطون ، ان المعرفة تعود ، في آخر المطاف لتتذكر [ر . خاصة مينون ٨١ ـ ٢٠٥] . فبين وجودين ارضيين تتأمل الروح الأفكار : تشارك في المعرفة النقية والكاملة . ولكن هذه الروح باعادة تجسدها ترتوي من نبع النسيان lethi وتنسى المعرفة المتحصلة بالتأمل المباشر للأفكار . إلا أن هذه المعرفة كامنة في الانسان المتجسد ، وبفضل العمل الفلسفي ، تكون هذه المعرفة قابلة لتنتقل من القوة إلى الفعل . والموضوعات الطبيعية تساعد الروح لأن تنطوي على ذاتها ، وبنوع من «النكوص» لتجد وتسترد المعرفة الأصلية التي كانت حازتها في شرطها الخارج ـ أرضي . والموت هو ، بالنتيجة ، العودة الى حالة بدئية وتامة ، مضاعة دوريا باعادة تجسد الروح[٣٨] .

إن الفلسفة هي «تهيئة لأجل الموت» في المعنى الذي تلقنه للروح ، كيف أنها بتحررها مرة من الجسد تبقى في الحالة نفسها باستمرار في عالم الأفكار ، وبالتالي تتجنب اعادة تجسيد جديد . واجمالاً فإن المعرفة صحيحة ، وان السياسة الوحيدة التي تستطيع انقاذ المدن الاغريقية من دمارها ، بنيت على فلسفة تلتمس عالماً مثالياً وخالداً وتقمصا للروح[٣٩] .

ان التعليمات الأخروية كانت في أوج شهرتها ، وفي الحقيقة ، ان مذهب خلود الروح وانتقالها والتقمص لم تكن تشكل مستحدثات . ففي القرن السادس ق.م كان فيريسيد السيروسي phérécide de syros أول من قال ، بأن الروح هي خالدة وانها تعود تباعاً للتجسد على الأرض[٤٠] . ومن غير المناسب مشابهة المصدر الظرفي لهذه العقيدة . ففي زمن فيريسيد لم تكن صيغت بوضوح الا في الهند . وكان المصريون يعتبرون الروح خالدة وقابلة لأن تتخذ مختلف اشكال الحيوانات ، ولكنه لا يوجد أي أثر لنظرية عامة لهجرة الروح وانتقالها . والجيت getes ايضا كانوا يعتقدون بامكانية «خلود المرء» الا انهم كانوا يجهلون التقمص وانتقال الروح[٤١] .

وعلى كل حال فإن اخروية فيريسيد لم يكن لها صدى في عالم الاغريق . وان الأورفية وبخاصة فيثاغورس ، وتلامذته ومعاصره امبيدوقليس هم الذين عمموا وبذات الوقت نهجوا مذهب انتقالات الروح والتقمصات . ولكن تأملات لوسيب Leucippe وديموقريط Démocrite الكوزمولوجية والاكتشافات الفلكية الحديثة ، وبخاصة تعليم فيثاغورس ، قد غيرت جذرياً مفهوم استمرار حياة الروح ، وبالتالي ، بنى الآخرة . لأنه عرف الآن بأن الأرض كانت كرة ، وانه لا هادس تحت الأرض الهومرية ، ولا «جزائر السعداء» التي كان يظن بأنها واقعة في اقصى الغرب ، لم يعد يمكن لها أن تؤقلم في اسطورة ـ جغرافية ارضية . وقد أعلن مبدأ فيثاغوري بأن «جزائر السعداء» كانت «الشمس والقمر»[٤٢] . وبالتدريج ، فإن أخروية جديدة وجغرافية جنائزية اخرى انتهتا لأن تتعارضا : الآخرة تأقلمت الآن في مناطق النجوم ، والروح اعلنت من أصل سماوي (حسب لوسيب وديموقريطس انها «من نار» مثل الشمس والقمر) ، وستنتهي بالرجوع الى السماوات .

ولهذه الأخروية قدم افلاطون اسهاماً حاسما . فقد ابتكر «ميثولوجيا للروح» جديدة واكثر تماسكاً ، مستخرجاً لها من التقليد الأورفي ـ الفيثاغوري ، ومستعملاً بعض المصادر الشرقية ، ولكنه ادخل كل هذه العناصر في رؤية شخصية . لقد أهمل الميتولوجيا الكلاسيكية المؤسسة على هومر وهزيود . وان عملية طويلة من التآكل انتهت لتفريغ الأساطير والآلهة الهوميرية من دلالتها الأصولية[٤٣] . زد على ذلك ، فإن «ميتولوجيا الروح» لم يكن ممكنا لها ان تجد أي سند في التقليد الهوميري . ومن جهة اخرى ، فإن افلاطون نفسه في محاوراته عارض اسطورة اللاغوس mythos au logos ؛ وفي أحسن الأحوال ، ان الاسطورة هي خليط من الخيال والحقيقة . مع ذلك ، فإنه في كتابه الرئيسي المأدبة Bunguet لم يتردد افلاطون في ان يجادل حول باعثين اسطوريين ، الايروس النشكوني وبخاصة ، الانسان البدئي المتخيل ككائن مزدوج الجنس بشكل كرة [سمب ١٨٩ ـ ١٩٣] . ولكن هذا يتعلق باساطاير من بنية قديمة جدا . فخنثوية الانسان الأول تأكدت في العديد من التقاليد القديمة (الهندو ـ اوردتية ، مثلا)[٤٤]

وان مغزى الاسطورة الخنثوية هو شفاف: كمال الانسان كوحدة بدون انفصام. مع ذلك يضيف افلاطون الى هذا دلالة جديدة: الشكل الكروي والحركات للتشكل البشري متشابهان بالاجرام السماوية، التي كان قد نزل منها هذا الكائن الأول.

إن الأصل السماوي للانسان هو الذي توجب شرحه بصورة خاصة. لأنه أسس «ميتولوجيا الروح». ونصادف في جورجياس [٤٩٣] لأول مرة اسطورة اخروية، الجسد هو قبر الروح. ويدافع سقراط عن هذه الاخروية بالرجوع الى اوريبيد وللتقاليد «الأورفية» الفيثاغورية. فالارتحال هو مضمر فحسب، ولكن هذا النغم، الرئيسي في الأخروية الافلاطونية، قد حلل، كما سنرى، في المينونه le Ménon [٨١ - أ - ي]. ففي فيدون [١٠٧ ي] حدد بدقة ان الروح تعود على الأرض بعد فترة طويلة.

وتعاود الجمهورية أخذ الرمزية القديمة «للأكبر والأصغر macro cosme-microcosum وتطوره في معنى افلاطوني مميز، مظهره التشابه بين الروح، والدولة، والكون. ولكن نغمة المغارة [الجمهورية ٧٠] بصورة خاصة هي التي تشهد على القوة الابداعية الميثولوجية لافلاطون.

وتلك الرؤية الأخروية قمتها في فيدر phédre: هنا، لأول مرة، يكون مصير الروح متضامن مع حركات السماوات [٢٤٦]. وقد أعلن ان المبدأ الأول للكون متطابق مع أول مبدأ للروح. ومما له دلالته ان الحوار نفسه يضع موضع العمل رمزين غريبين: الصورة الاسطورية للروح مقارنة بحوذي سائق عربته، وبأجنحة الروح. وتصادف الصورة الأولى في الكاثا اوبانيشاد [١ - ٣ - ٣ - ٦] وانما مع هذا الفارق وهو انه لدى افلاطون، ان صعوبة القيادة تعود للخصومة بين الحصانين. أما بالنسبة «لأجنحة الروح» فانها «تبدأ تنبت» عندما «يتأمل الانسان جمال الكون [و] يبدأ في التفكير بالجمال في ذاته» [٢٤٩] ان نبات الاجنحة على اثر المسارة تأكد في الصين، لدى التاويين، وفي التقاليد السرية للرجال المداوين الاستراليين(٤٥).

وان الصورة متضامنة مع مفهوم الروح بصفتها جوهر روحاني طيار ، يمكن مقارنتها بالطائر او الفراشة . والطيران يرمز للذكاء ، ومعرفة الاشياء السرية او الحقائق الميتافيزيقية(٤٦) . واستعمال هذا الرمز القـديم لا يعتبر مفاجأة لأن افلاطون «اعاد كشف» وتطوير ما امكن تسميته الانطولوجيا القديمة : نظريته في المثل، تحدد النماذج المثالية، المميزة للروحانية التقليدية. وان الأسطورة النشكونيةلطيماوس du Timée تقيم بعض اشارات من بروثاغوراس ومن المأدبة، إلا انه يتعلق بابداع جديد . وان مما له دلالته ان الفيثاغوري طيماوس هو الذي ، في هذه الرؤيةالنشكونية العليا لافلاطون، يؤكد ان الخالق Démiurge قد خلق ذات العدد من الأرواح مما يوجد من نجوم [طيماوس ٤١] . وان تلامذة افلاطون اكملوا فيما بعد نظرية «الخلود الكوكبي» . وعليه ، فإنها بالعناصر «الأورفية» والفيثاغورية التي امتزجت بها ستعرف انتشارها الواسع . وستصبح هذه النظرية ، التي يظهر فيها المعطى البابلي «إلهية النجوم» سائدة بدءاً من العصر الهيلليني(٤٧) .

ان الاصلاح السياسي الذي حلم به أفلاطون لم يتجاوز مطلقاً حالة المشروع . وبعد جيل من موته تنهار أمام التقدم المذهل للاسكندر الكبير كافة المدن ـ الدول الاغريقية . وان هذه هي إحدى الفترات النادرة في التاريخ العالمي حيث أن نهاية العالم تمتزج تقريباً مع البداية لنوع جديد من الحضارة ، ذلك الذي سيتفتح خلال العصر الهيلليني . ومما له دلالته ان اورفيه ، وفيثاغورس وافلاطون يمثلون بين مصادر الالهام للتدين الجديد .

١٨٤ ـ الاسكندر الكبير والثقافة الهيللنستية

عندما مات الاسكندر في بابل ، ٣ حزيران ٣٢٣ ق.م عن عمر يقل عن ٣٣ سنة ، كانت امبراطوريته تمتد من مصر حتى البنجاب . وخلال اثني عشر عاما وثمانية اشهر من حكمه كان قد اخضع المدن ـ الدول الاغريقية ، وآسيا

الوسطى وفينيقيا وفتح امبراطورية الاكاسرة الأخمينيين وغلب بوريس Porus . الا انه ، رغم عبقريته وهالة مجده النصف إلهية ـ لأنه كان اعتبر كابن لزوس ـ آمون ـ فإن الاسكندر تعلم ، في بيس Beas ، الحدود لقوته ، فالجيش كان تمرد ، رافضاً اجتياز النهر ومتابعة تقدمه في الهند ؛ و «معلم العالم» كان مجبراً على الرضوخ . لقد كانت هذه اكبر خيبة له وكانت الهزيمة لمشروعه الخيالي : فتح آسيا حتى «المحيط الخارجي» l'oceanex terieur مع ذلك وعندما أمر الاسكندر بالتراجع ، فإن المصير المباشر للهند ، وكذلك مصير العالم التاريخي بصورة عامة ، كان قد رسم : آسيا الآن اصبحت مفتوحة للتأثيرات المتوسطية ، ومنذئذ ، لم تنقطع الاتصالات بين الشرق والغرب بشكل كامل .

ومنذ السيرة الذاتية لـ ح .ج درويسن (١٨٣٣) G.G. Droysen وبخاصة منذ كتاب و. و تارن ١٩٢٦ W. W. Tarn شرح عدد من المؤرخين حسب تصورات مختلفة ، لابل متناقضة ، الهدف المقصود من الاسكندر في فتحه لآسيا[٤٨] . وسيكون من السذاجة محاولة تحليل المتناقضات التي دامت منذ قرن ونصف في بضع صفحات . إلا أنه مهما كان المنظور الذي يحكم من خلاله على حملات الاسكندر ، فمن المتفق عليه ان نتيجتين لها كانتا عميقتين ومحتومتين . فبعد الاسكندر وجدت الصورة الجانبية التاريخية للعالم متغيرة جذريا . وان البنى السياسية والدينية السابقة ـ المدن ـ الدول ودساتيرها الثقافية ، وان المدينة la polis بصفتها «مركز العالم» ومستودع النماذج المثالية ، والاناسة (الانتروبوجيا) المنبثقة بدءاً من اليقين بوجود اختلاف لا يردم بين الاغريق و «البرابرة» ـ كل هذه البنى انهارت . وتوضع بالتتابع في مكانها جميعها معنى مسكوني واتجاهات كونية (كوزموبولوتية) وعالمية . وبرغم المقاومات ، فإن اكتشاف الوحدة الأساسية للجنس البشري كان لابد منه .

إن اريسطو معلم الاسكندر ، كان يرى ان العبيد هم عبيد بطبيعتهم ، وان البرابرة هم عبيد بالطبيعة[٤٩] . . ولكن الاسكندر تزوج في سوزا suse من اميرتين اخمينيتين ، وزوج حسب الطقس الفارسي تسعين من رفاقه الصميمين من بنات العائلات الايرانية النبيلة . وبالتوازي مع ذلك ، احتفل بزواج عشرة

آلاف جندي مقدوني حسب الطقس الفارسي ايضاً . وفيما بعد ، نال الفرس الأمكنة الأولى في الجيش واندمجوا حتى في التجمع السياسي الكتيبة la phalange . وقد كان المقدونيون بعيدين عن مشاطرة مليكهم مفهومه السياسي هذا . فبما انهم منتصرون وفاتحون ، لم يكونوا يرون في البرابرة ، سوى شعب مغلوب . وعندما تمردالمقدونيون في أوبيس opis - لأنه كماكان عبّر عن ذلك واحد منهم : «جعلتم من الفارسيين أباءكم» - صرخ فيه الاسكندر : «ولكنني صنعت منكم جميعاً اقربائي !» . وانتهى التمرد بحفلة مصالحة ، اقيمت حسب التقليد ، ودعي إليها ٣٠٠٠ شخص . وفي نهايتها تلفظ الاسكندر بصلاة - دعاء - من أجل السلام ورجا أن تصبح كل الشعوب في امبراطوريته مشاركة في ادارة الجماعة . واضافة لذلك تمنى على كل الشعوب في العالم ان تستطيع العيش سوية في انسجام ووحدة القلب والنفس (homonoia) . وقد كان قال سابقاً ، ان كل البشر هم ابناء لأب واحد وان صلاته كانت التعبير عن عقيدته التي كان تلقاها رسالة من الاله من أجل ان يكون مصلح العالم[٥٠] .

ان الاسكندر لم يعلن نفسه مطلقاً انه ابن زوس : ومع ذلك فإنه قبل هذا اللقب من قبل الآخرين . ولكي يضمن الاندماج بين اليونان والفرس ادخل الاحتفال الايراني «طاعة» (Prosknesis) الملك . (وكان تبنى سابقاً العادة وقواعد السلوك (ايتيكيت) للاقيال الاخمينيين) . وبالنسبة للايرانيين فان حفلة «طاعة الملك» كانت تختلف حسب الصنف الاجتماعي الذي كان ينفذها . وثمة نقش من بيرسبيوليس يمثل داريوس الأول جالساً على عرشه ، ونبيل فارسي يرسل له قبلة باليد . ولكن هيرودوت يؤكد ان اتباع الصنف الأدنى كانوا يركعون امام الملك في خشوع عميق . مع ذلك ، فإن الاسكندر الذي فوجىء بمعارضة من رفاقه ، تنازل عن (حفلة طاعة الملك prosknesis) ؛ وفي الواقع قد تنازل في ذات الوقت عن الفكرة بأن يصبح إلها لامبراطوريته[٥٠] . ومن الراجح ان هذه الفكرة أوحيت إليه بمثال الفراعنة ، ولكنه يجب ان يؤخذ في الحسبان ايضا بعض الاتجاهات على أهبة التحقق في اليونان . ونقتصر على ذكر مثال واحد: كتب ارسطو - منكرا بالتأكيد بالاسكنـــدر - انه ، عندما سيعود ، فإن السيد الأعلى

سيكون الماً بين البشر [السياسة ٣ - ١٣ - ١٢٨٤] . وعلى كل حال ، فإن خلفاء الاسكندر في آسيا ومصر سيقبلون بدون تردد بأن يؤلهوا .

وبعد عشرين سنة من الحروب بين أولياء العهد اليونـان فإن مابقي من الامبراطورية كان مقسماً بين الأسر المالكة المقدونية الثلاثة : آسيا ، أصبحت للسلوقيين ، ومصر للبطالمة ، ومقدونيا للأنطونيين Antigonides . الا أنه بدءاً من ٢١٢ ق.م بدأت روما بالتدخل في أعمال العروش الهيللينية وانتهت بامتصاص عالم البحر المتوسط برمته . وعندما فتح اوكتاف مصـر في عام ٣٠ ق.م فإن المسكونية الجديدة كانت امتدت من مصر ومن مقدونيا حتى بلاد الأناضول ومابين النهرين . ولكن نهوض الامبراطورية الرومانية imperium Romanuns ميّز كذلك نهاية الحضارة الهيللنسية .

ان توحيد عالم تاريخي مطعم بالاسكندر انجز في أول وقت بهجرة كثيفة للهيلينيين نحو الأقاليم الشرقية ، وبنشر اللغة اليونانية والثقافة الهيلنستية . واللغة الاغريقية العامة (Koiné) كانت تحكى وتكتب من الهند وايران حتى سورية ، وفلسطين ، وفي ايطاليا ومصر . وفي المدن ، قديمة كانت أو منشأة حديثا رفع الاغريق معابد ومسارح واقاموا ملاعبهم الرياضية gymnasia . وتباعا ، فإن التعليم على النموذج الاغريقي تم تبنيه من قبل الأغنياء واصحاب الامتيازات من كل البلدان الاسيوية . ومن طرف لآخر من العالم الهيلليني مجدت قيمة واهمية «التعليم» و «الحكمة» . والتعليم - المبني دوماً على فلسفة - أفاد من احترام شبه ديني . ولم يوجد في التاريخ مطلقاً مثلما وجد في اليونان من بحث عن العلوم وفي ذات الوقت اعتباره وسيطا للسمو الاجتماعي وكأداة للكمال الروحي[٥٢] .

ان الفلسفات الرائجة ، وفي المحل الأول منها الرواقية stoicisme ، المؤسسة من قبل رجل سامي من قبرص ، زينون السيتومي Zénon de cittium[٥٣] ، ولكن ايضا مبادىء ابيقور Epicure والكلبيين Cyniques تعارضت في كل المدن وإن ما أسمي «بالتنوير الهيللنستي» شجع في آن واحد الفردية والعالمية cosmopolotisme . وان اضمحلال المدينة (بولبس) اعتق الفرد من

ارتباطاته القديمة بالنظام المدني والديني ، وعلى العكس ، فإن هذا الانعتاق كشفت له عزلته وانحلاله في كون مرعب بغوامضه ولا نهائيته . وقد بذل الرواقيون مافي وسعهم لدعم الفرد مظهرين له التشابه بين المدينة والعالم . وكان ديوجين Diogéne قبل ذلك ، والمعاصر للاسكندر ، قد أعلن انه «عالمي cosmopolits» ، و «مواطن للعالم»(٥٤) (وبعبارة اخرى ، لم يعترف بديوجين كمواطن لأية مدينة ، ولأي بلد) . ولكن الرواقيين هم الذين اعطوا الصفة الشعبية لفكرة ان كل البشر عالميون cosmopolites ـ مواطنون للمدينة ذاتها ، الكون ـ مهما كان أصلهم الاجتماعي ووضعهم الجغرافي(٥٥) . «في دولته المثالية ، قدم زينون أملاً باهراً الذي ، منذئذ ، لم يترك الانسان ؛ لقد حلم بعالم لن يصبح مقسماً بين دول متفرقة ، وانما عالم سيشكل مدينة كبيرة ، تحت سلطة قانون إلهي واحد ، حيث سيجتمع كل المواطنين ليس بشرائع بشرية وانما برضاهم الاختياري ، أو كما يعبر زينون ، بالحب»(٥٨) .

وان ابيقور هو ايضا قد كان نشر (العالمية) ؛ ولكن هدفه الاساسي كان خير الفرد . ولقد قبل وجود الآلهة ، مع ذلك ، فإن هذه الآلهة ليس لها ما تفعله لا مع الكون ولا مع البشر . ان العالم كان آلة machine أتت للكائن بطريقة آلية صرفة ، وبدون صانع وبدون قصد . وبالنتيجة ، فإن الانسان كان حراً في اختيار طريقة الوجود التي تناسبه بشكل أفضل . ان فلسفة ابيقور تتصدى للبرهان على ان الصفاء الروحي والسعادة المتحصلة براحة الضمير l'ataraxia تميزان الوجود الأفضل الممكن .

وان مؤسس الرواقية يعبر عن مذهبه بما يتعارض مع مذهب ابيقور ، وحسب زينون وتلامذته ، ان العالم قد تطور بدئاً من التجلي البدئي للاله ، والبذرة النارية التي أولدت «العلة المنوية Raison séminale» (logos spermatikos) أي القانون الكوني Loi universelle . وظاهريا ، ينبثق الذكاء البشري من شعلة الهية . في هذه الوحدة للوجود الموحدة الواضعة عقلا واحدا ، ان الكون هو «حي مليء بالحكمة» [الرواقية ـ قطع ـ ان ـ ١٧١ ـ ٢ن ن ٤٤٠ ـ ٤٤٤] . وعليه ، فإن الحكيم يكتشف في اعماق روحه ، انه يملك ذات (اللوغوس) الذي

ينعش ويحكم الكون (مفهوم يعيد الى الذاكرة اقدم الاوبانيشادات ، (ر ف ع ٤٨١). فالكون هو اذن معقول ومتلقي لأنه مخترق بالعقل . وبممارسة الحكمة ، يحقق الانسان التماهي مع الألوهة ويسود مصيره الخاص بكل حرية .

صحيح ان العالم والوجود البشري ينتشران تبعاً لمخطط مقرر بدقة . ولكن بالفعل البسيط الذي يزرع الفضيلة ويقوم بواجبه ، والذي يتم اجمالاً الارادة الالهية ، فإن الحكيم يثبت الحرية ويفارق الحتمية . وان الحرية (autarkes) تعادل اكتشاف عصمة الـروح . والروح معصومة تجاه العالم والغير ، ولا يمكنها فعل الشر الا لذاته . ان هذا التمجيد للروح يعلن في ذات الوقت المساواة الاساسية بين البشر . ولكنه من أجل الحصول على الحرية يجب ان يحرر الانسان نفسه من الهيجانات والتنازل عن كل شيء ـ «الجسد ، الملكية ، المجد ، الكتب ، السلطات» ـ لأن الانسان هو «العبد لكل مايرغب فيه» ، الانسان هو «عبد الآخرين» [ابيكتيت ٤ ، ٤ ، ٣٣] . ان المعادلة : ملكيات ورغبات = عبودية تذكر بالمذاهب الهندية ، وبخاصة اليوجا والبوذية [ف ١٤٣ ، ع ع ـ ١٥٦ع] . كذلك فإن مناداة ابيكتيت في توجهه للاله : «اشاطرك ذات العقل . . اني مثيلك» [٢ ـ ١٦ ـ ٢٤] تذكر بما لا يحصى من الموازيات الهندية . إن المطابقات بين الميثافيزيقيات والالهيات الهندية وتلك العائدة للبحر المتوسط تتكاثر في القرون الأولى قبل المسيح . وسنعود إلى دلالة هذه الظاهرة الروحية .

إن المستجدات الخاصة بالديانات الهيللنستية هي تماما مثل الفلسفات الجديدة ، كانت ترنو الى خلاص الفرد . وان التنظيمات المغلقة والمطبقة لمسارة وكشوف اخروية تتكاثر . والتقليد المساري لاسرار ايلوزيس (ر. فصل ١١) سيعاد الأخذ به وتوسيعه من قبل مختلف الديانات السرية ، المركزة حول /الهة مشهورة معروفة وقاهرة للموت (ف ٢٠٥ع) . ومثل هذه الآلهة كانت اكثر قرباً من الانسان وكانت مهتمة بنشاطه الروحي وتضمن له سلامته . وإلى جانب الآلهة والربات للاسرار الهيللنسية ـ ديونيزوس ، ايزيس ، اوزيريس ، سيبيل ، آتيس ، مثيرا ـ فإن آلهة اخرى اصبحت شعبية ، ولذات الأسباب : هيليوس ، هيراقلس ، آسليبيوس تحمي وتساعد الفرد[٥٧] . حتى الملوك المؤلهين يبدون اكثر

فاعلية من الآلهة التقليدية : الملك هو منقذ (سوتي soter) انه يجسد «الشريعة الحية» (nomos apocalypses) .

إن التوفيقية الاغريقية ـ الشرقية التي تميز الاديان الجديدة للاسرار توضح في ذات الوقت الانعكاس الروحي القوي للشرق المغلوب من قبل الاسكندر . ان الشرق قد مُجّد وكأنه الوطن للأوائل من الحكماء ولأكثرهم اعتباراً ، وانه البلاد التي حفظ فيها معلمو الحكمة المذاهب الباطنية وطرائق الخلاص . ان اسطورية المناقشات بين الاسكندر والبراهمانيين والنساك الهنود ، اسطورة ستصبح شعبية بصورة متفردة في العصر المسيحي ، وتعكس الاعجاب القريب من الديني بالنسبة للحكمة الهندية . وفي الشرق ستنتشر بعض اسفار الرؤيا حول نهاية العالم apacahypses (المتضامنة مع مفاهيم مميزة للتاريخ ، كذلك صيغ جديدة من السحر ومتعلقات الملائكة ، وعدد من الكشوف أو الظهورات المتحصلة على اثر سفرات انتشائية للسماء وللعالم الآخر) (ف ٢٠٢ ع) .

وسنشرح فيما بعد أهمية الابداعات الدينية للعصر الهللنستي (ف ٢٠٥ ع) ولنضف هنا ان توحيد العالم التاريخي المطعم من قبل الاسكندر والمتمم من قبل الامراطورية الرومانية ، هو من منظور تاريخ الاديان ، قابل للمقارنة بوحدة العالم النيوليتيكي ، المنجزة بانتشار الزراعة . فعلى مستوى الجماعات الزراعية ، كان التقليد الموروث من عهد النيوليتيك يشكل وحدة دعمت خلال الألوف من السنين ، وبالرغم من التأثيرات المتلقاة من مراكز مدينية ، وبمقارنة هذه الشكلية الواحدة الاساسية ، الواضحة لدى الشعوب الزراعية في اوروبا وآسيا ، فإن المجتمعات المدينية للألف الأولى ق.م قدمت تنوعاً دينياً بارزاً . (يكفي ملاحظة البنى الدينية لبعض المدن الشرفية ، والاغريقية والرومانية) . ولكن التدين المسكوني اثناء العصر الهيلليني انتهى ليستعير لغة مشتركة .

حواشي الفصل الثاني والعشرين

١ ـ حتى التقييم للمصادر يهدر من فئة لاخرى : ان الشكلين يشيرون لفقر الوثائق وتاريخها المتأخر ، والآخرون يقدرون انه لا يجب الخلط بين التاريخ والتحرير لوثيقة مع عصر محتواها ، لأنه ، بالنتيجة ، باستعمالنا مع الروح النقدية بدقة ، كل الأدلة الصحيحة ، تكون في حالة من ادراك مهمة اساسية للأورفية . هذا التوتر بين منهجيه يرد لتعارض فلسفي اكثر عمقاً ، مؤكداً في اليونان من القرن السادس وهوجساس ايضا حتى يومنا . «ان اورفيه و الاورفية» يشكلان بامتياز واحداً من موضوعات تفجر اوتوماتيكيا تقريبا الحروب الكلامية .

٢ ـ ان المصادر محللة من قبل W.K. Guthrie اورنس والديانة الاغريقية ص ٢٩ .

٣ ـ «لم يجرؤ أن يموت حيال كالسيت ، ولكنه حياً تحرك للدخول إلى هادس ، ولهذا فرضت عليه الآلهة عقاباً وأماتته بأيدي النساء» (أفلاطون سيمبوز ١٧٩)

٤ ـ Guthrie ـ اورفوس ص ٤٠ .

٥ ـ o. kern قطع اورفية ـ ربات الشعر les merseg تجمع الاعضاء وتدفنها في ليبثريا في سفح الاوليمب

٦ ـ الشامانية ـ م ـ الياد ص ٣٠٧

٧ ـ لفترة ما حيث كان يعرف بشكل أفضل السكان (برابرة ـ تراس وحتى السيس الذين يتجولون رحلاً في شمال البحر الأسود

٨ ـ اقامة عبادة اورفية في تراس في بيتيازوني .

٩ ـ الكاتابات في الاوديسة تلائم على الأرجح نص أورفي .

١٠ ـ Guthrie يذكر مقطعا من السيستو ص ٥٧٨ مظهر ابولون محاطاً بالفهود والاسود والكلبات التي كانت ترقص على نعم القيثارة (الاغريق والهتهم) ص ٣١٧

١١ ـ ابولون اعاد للصمت وسطاء العرافين المقدمين من قبل اورفيه الى ليسبوس ـ اشارة الى غيرة الاله او عدم التلاؤم بين التقنيتين العرافيتين ـ شامانية وبيتية .

١٢ ـ Gulhrie الهة الاغريق ص ٣١٦ ان الايونيين المنجدبين بالدين طرحوا المسألة الفلسفية «ماهي العلاقة بين مختلف تعدديات العالم حيث نعيش فيه والجوهر الوحيد والأصولي الذي استمد الكل منه اصله»

١٣ ـ افلاطون ـ الجمهورية ١٣٦٤ . . وان سويداس اعطى قائمة طويلة بالكتب المنسوبة لأورفيه

١٤ ـ «ـ المضحون الشحاذون ، والمتنبئون الذين يلازمون ابواب الاغنياء ، ويقنعونهم بأنهم حصلوا من الآلهة بواسطة الأغاني والاضحيات ، على القدرة لأن يدفعوا عنهم المظالم التي يمكن ان يكونوا قد ارتكبوها هم واجدادهم [. . .] ومن أجل تحقيق الطقوس يصنعون مجموعة من كتب مؤلفة من قبل musé وأورفيه ابن القمر وربة الشعر . حول هذه السلطات يقنعون ليس افراداً خاصين فحسب ، وانما دول يوجد فيها بالنسبة للاحياء والأموات غفرانات وتطهيرا [. . .] وهذه المسارات لأنهم هكذا اسموها ، تعتقنا من عذاب الضمير والجحيم» (الجمهورية ٣٦٤ كا ٣٦٥)

١٥ ـ كراتيل ـ ٤٠٠ ـ فيدوف ٢٦ ب حول سجن الروح ـ وهذه المشاهد اعطت مجالاً لتناقضات لا حد لها .

١٦ ـ ١٧ هزيود ـ الأعمال ـ ٩٠ ـ ١٠٠ حول القيم الصوفية والاخروية للنباتيين . النصوص المشروعة من قبل جويللري ص ١٦٧

١٨ ـ guthrie الهة الاغريق ص ٣١٩

١٩ ـ اكتشف في ١٩٦٢ بالقرب من مدينة ديرفني وهو مؤرخ من القرن الرابع ق. م ويتعلق بشرح لنص اورفي الأمر الذي يؤكد ويثبت قدم وسمو الصفة الايمائية التعبيرية لمثل هذه الكتابة .

٢٠ ـ هذا النموذج من النشكونية يذكر باللاهوت الموفيس (٢٦ ع) ونظام الابداع الذاتي لبراجاباتي (٧١ ع) .

٢٢ ـ olympiadore في فيدو ٨٤ ـ ٢٢

٢٣ ـ gulhoui صفيحات بيتيليه ص ١٧١ وشرح زونت .

٢٤ ـ بداية النص هي ذات دلالة هامة . المتلقي يتوجه للآلهة في الجحيم : «لقد أتيت من جماعةمن الطاهرين فياأيها الطاهر الأعلى في الجحيم (اوكليس ايبولوي) وانتم أيهاالآلهة الخالدون . لأنني قبل ان انتمي الى عنصركم المبارك ـ افترسني الحظ والآلهة الأخرى

الخالدون» . وتكشف لوحة اخرى تفصيلات هامة : (لقد تحملت عفوية تستحقها اعمالي الظالمة . . والآن آتي ضارعا بالقرب من المنورة بيرسفونه ، من أجل أن تشملني برحمتها وترسلني لمحل اقامة القديسين» الربة تستقبله برحمة) «سلام لك انت الذي تحملت المعاناة بما لم تتحمل مثلها سابقاً . . سلام سلام لك . خذ طريق اليمين نحو البراري المقدسة ونحو غابة بيرسفونة» .

٢٥ ـ مغطسين في مرجل ، وسيبدون معاقبين بعذاب مخصص لظلمهم وكما يقول افلاطون في الجمهورية «اما الفجار والظالمون فيغوصون في الوحال المستنقعات في هاوز ويقض عليهم بأن ينقلوا الماء بالغربال جزاء ما صنعت ايديهم ، وان يلتحفوا في حياتهم بفضيحة وعار . .» وهذه الصورة حسب وصف افلاطون عقاب اولئك الذين لم يتطهروا فيجب عليهم في هادس التحمل بشكل دائم . ولكن عبثاً بدون تطهير» .

٢٦ ـ gumont يميل لتوحيد أصل كل هذه الاداب بالهلوسة ، في الأورفية ، والتي عبر اساطير بلوتارك ورؤى بطرس الواصلة حتى دانتي ص ٢٤٦ .

٢٧ ـ ٢٨ ـ الشامانية ـ الياد

٢٩ ـ «حتى عندما اجتار أ١٠L'Acheronم فإن النسيان لم يغير روحه ومع انه يسكن تارة في مقر الظلمات وتارة مقر نور الشمس ، حافظ دوماً على ذكر ما رآه» (ابوليوس دي روزوس ص ٤٦٢)

٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ مظهر الاسطورة ـ الممارسة والثقافة للذاكرة كانت تلعب دوراً هاماً في الاخوات الفيثاغورية (ديودوره) وعبارة النسيان واعادة التذكر التي هي الشواهد الأولى ترتبط ببعض الشخصيات الاسطوريةالاغريقيةمن القرن الرابع وقد لعبت دوراًمعتبراًفي التقنيات التأملية والأفكار الهندية واعيد اطلاقها من قبل الغنوصين (١٣٠ع) (الياذ ـ من زالموسكي لجنيكيزخان

٣٣ ـ باتمامهم للقواعد التنسكية والاخلاقية بدراسة الموسيقى والرياضيات والفلك . ولكن مما هو معلوم ، ان الهدف الشامل لهذه المذاهب كان لنظام صوتي . وفي الواقع «اذا كان كل شيء عدداً ، وكل شيء انسجام الاضداد فإن كل ماهو حي بما في ذلك الكون ، لأنه هو ايضاً يتنفس ، هو نسيب يمت له بصلة .

٣٤ ـ بعد ارسطو هذا النموذج من (على شامل) يفقد تقديره ، والبحث العلمي اتجه نحو منهجية ستعطي نتائجها الباهرة في اوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر ، ولا تتبع البتة عدم كفاية المسيرة ، انه ببساطة يتعلق بمنظور جديد . والكيمياء مع المعارف ويتطلع لهدف آخر غير التحول الكيميائي .

٣٥ ـ وتماما في حالة التانذاريم ، فإن بعض النصوص الأورفية لتاريخ حديث قد ظهرت كالاكتشافات لمذهب قديم ـ الأمر الذي يمكن أن يكون دقيقاً من جهة اخرى .

٣٦ ـ يكتب اريسطو بخبث ان الفارق الوحيد بين أفلاطون وفيثاغورس هو لفظي . وان الاشياء بالنسبة لفيثاغورس هي ارقام

٣٧ ـ Grulhene الآلهة الكبار .

٣٨ ـ مظاهر الاسطورة ـ الياد ـ بعض الملاحظات عن المشابهات بين نظرية الأفكار والمادة التذكر الافلاطونية ومعطى الانسان في المجتمعات القديمة .

٣٩ ـ لنذكر بأن الميتافيزيك الهندي قد طور بعناية مذهب انشغال الروح (سمساراً ، ولكن بدون حلها على نظرية المعرفة ، لكي لا يتكلم في السياسة (٨٠ ع)

٤٠ ـ شيشرون ـ رحب تقليد آخر فإن فيرسيد قد استعمل (الكتب المقدسة للفينيقيين) ولكن ذلك يتعلق بكليشيه غير ذات قيمة وثائقية . مع أن التأثيرات الشرقية على فكر فرنيسيد بارزة

٤١ ـ هيرودوت (لم ١٧٩)

٤٢ ـ ومع ذلك فإن تقليداً آخر وافق كاتاباز فيثاغورس وكان ادخل المعتقد بجهنم .

٤٣ ـ فيما سلف لم يترد كزينوفرن ٥٦٥ ق.م عن مهاجمة مجمع الآلهة الهوميري وبصورة خاصة التجسد البشري للآلهة وقد دعم وجود (اله فوق كل الآلهة والبشر شكله وفكره ليس فيه شيء مشترك مع فكر البشر الفانين) كذلك كانت متدين ايضاً بعمق مثل بندار رفض الاساطير التي لا تصدق .

٤٤ ـ هذا المفهوم سيعاد اخذه بتقدير منذ الافلاطونية الجديدة والغنوصيةالمسيحية حتى الرومانية الالمانية .

٤٥ ـ الطاويون يعتقدون بأنه عندما يحصل رجل على القاو فإن ريشاً يبدأ بالنبات على جسده . . الياد عن الاديان الاسترالية .

٤٦ ـ الذكاء (مانوس) هو الاسرع من بين الطيور كما تقول الريغ فيدا «ان من يعرف له جناحان» .

٤٧ ـ Burkat صورو علوم ص ٣٨ ـ الاعتقاد الذي تحده الروح بعلاقة مع السماء والنجوم ، وحتى الذي يأتي من السماء ويعود إليها ، هو مقتسم مع الفلاسفة الايونيين على الأقل منذ هرقل .

٤٨ ـ يكفي مثلا ـ مقارنة الدراسات للاحادية لبورت وغرين . . الخ .

٤٩ ـ اريسطو ـ ٦٥٣ وافلاطون جمهورية ٤٧ ـ على عكس ايزروقراط خصم اريسطو اعتمد على ان عبار هدليثين helléne تشير الآن لمن يملك بعض الثقافة وليس الابن لطبقة عرقية .

٥٠ ـ ثارن ـ الاسكندر الأكبر ص ١٢٧

٥١ ـ ان الفيلسوف الذي نصح الاسكندر بالاحتفال بهذا العرف المحصور بالنسبة للآسيوية قد اشرك بمؤامرة واعدم بعدئذ

٥٢ ـ في اوروبا الغربية والوسطى يجب الانتظار حتى القرن ١٧ لمصادقة تمجيد مماثل ، كذلك بصورة خاصة (العلم الجديد) أي طريقة جديدة للتعليم والبحث العلمي بالترجمة التي أمل منها اعادة اصلاح العالم المسيحي .

٥٣ ـ بوصوله الى اثينا نحو ٣١٥ ق.م افتتح عام ٣٠٠ مدرسة في رواق الرسامين . وايتصور ولد في سيموزا من أب أثيني وعلم في اثينا منذ ٣٠٦ . .

٥٤ ـ ديوجين ليرت ـ ولكن الكلبيين لم يعبأوا بالجماعة ـ وكانوا مهتمين فقط بتحسين الفرد

٥٥ ـ (هاذس) الثقافة الهلنستية

٥٦ ـ M.W.Tarun الثقافة الهلنستية ص ٧٩

٥٧ ـ carl schreicter الثقافة الهللينية ص ٨٠٠

الفصل الثالث والعشرون

تاريخ البوذية من ماهاكاسيابا إلى ناكارجونا

١٨٥ ـ البوذية حتى أول انشقاق

لم يكن للبوذا أن يحصل على خليفة ، وقد كان كشف الشريعة (دهارما) وأقام الجماعة (سانجها) : فتوجب الآن تقنين الشريعة ، اي اجتناء مواعظ المبارك وتثبيت القانون . وكان كبيرا التلامذة مودجالايانا وساريبوترا قد ماتا . أما بالنسبة لأناندا الذي كان خلال خمسة وعشرين عاما الخادم الأمين للمعلم ، فلم يكن ابداً أرهات : لم يكن عنده وقت لاتقان تقنيات التأمل . وان المبادهة بإقامة مجمع من ٥٠٠ أرهات اتخذت من قبل ماهاكاسيابا ، الذي كا ن هو ايضا على درجة عالية من التقدير من قبل بوذا ، إلا انه كان ذا طبع قاس لا يرحم ، على عكس المحبوب اناندا .

وحسب السنة المجمع عليها ، كان المجمع قد عقد في مغارة واسعة بالقرب من راجاكرها rujagrha اثناء فصل الامطار الذي تلى موت المعلم ، وتمدد سبعة أشهر . وتذكر غالبية المصادر عن مشادة عنيفة بين ماهاكازيابا واناندا . وبما ان هذا الاخير ليس أرهات فقد رفض من حق المساهمة في المجمع فانسحب عندئذ واعتذل وتوصل سريعاً للقداسة . وعندئذ قبل ، أو حسب نصوص أخرى ، اخترق المغارة بمعجزة ، مبرهنا بهذا على قدراته اليوجية ، وقد كان حضوره من جهة اخرى لابد منه لأن أناندا كان الوحيد الذي سمع وتذكر كل خطابات المعلم . وفي رده على ماهاكازيابا ، تلى اناندا خطاباته ، وان أجوبته تشكل مجمل السوترا des sutra اما النصوص التي تشكل «السلة» للنظام (بيتاكا) ، والڤفينايا winaya فقد وصلت من قبل تلميذ آخر ، أوبالي upali .

وبعد زمن قليل ، كان على ماهاكازيابا ان يتهم أناندا باخطاء متعددة (خمسة أو عشرة) ارتكبها عندما كان يخدم المبارك . وان افدح الاخطاء كانت تلك التي دعم فيها قبول راهبات وإهمال الطلب من المبارك لأن يمدد حياته حتى نهاية الفترة الكونية الراهنة [ف ١٥٠ ع] . وقد كان على اناندا أن يعترف علناً بأخطائه ، إلا أنه انتصر في النهاية ، واصبح الشخصية الرئيسية للسامجها ، وكان عليه أن يعيش بقية حياته (٤٠ ، أو على الأقل ٢٤ سنة بعد البارينيرفانا) متبعاً مثال معلمه ، أي مسافراً ومبشراً بالطريقة .

إن تاريخ البوذية بعد مجمع راجاكرها غير معروف بشكل جيد وان مختلف قوائم الآباء الذين كان عليهم قيادة السامجها خلال القرن التالي لا تتضمن معلومات ذات قيمة . ولكن مايبدو اكيداً هو اتساع وانتشار البوذية نحو الغرب ودخولها ديكان Dekkan . ومن الراجح كذلك ان اتساع شقة الخلافات المذهبية والفوارق في تطبيقات النظام قد تضاعفت . وبعد مائة أو مائة وعشر سنوات بعد البارينيرفانا ، أوجبت أزمة جديدة وجود مجمع جديد . وذلك لأن يازاس yasas تلميذ أناندا وقد غاظه سلوك رهبان فيزالي وبخاصة واقعة قبولهم الذهب والفضة ، نجح في دعوة لاجتماع سبعمائة ارهات في فيزالي نفسها . وقد أدان المجمع الممارسات موضوع الاتهام وأجبر المذنبون على قبول الحكم .

غير ان الخلافات استمرت بتفاقمها وظهر يقينا أن مذاهب مختلفة كانت قد وجدت آنئذ ، حوالي منتصف القرن الرابع ق.م. وبعد بضع سنوات من مجمع فيسالي ، أعلن الناسك ماهادينا في باتاليبوترا pataliputra خمس اطروحات غريبة متعلقة بشرط الارهات . لقد أكد بصورة خاصة : ١) يمكن للأرهات ان يغوى في الحلم (أي تستطيع بنات المارا de Mara استثارة انزال منوي عنده) ٢) انه مازال عنده جهالة . ٣) وشكوك ، ٣) وانه يمكن له ان يحرز تقدما في الطريق بمساعدة آخر . ٥) ويستطيع الحصول على التركيز بتلفظه لبعض الكلمات . ومثل هذه النواقص في الارهات يترجم عن ردة الفعل ضد الاحترام الذاتي لاولئك الذين كانوا يعتبرون وكأنهم «ناجون في الحياة» . وسراعا ما انقسمت الجماعات بين مؤيدين ومعارضين للماهاديفا ، ولم يستطع المجمع الذي التأم في باتاليبوترا تفادي انقسام الساجها بين انصار «النقاط الخمس» - الذين بادعائهم انهم الأكثر عدداً ، اتخذوا اسم ماها ساجهيا - وبين معارضيهم ، الذين بادعائهم انهم كانوا يمثلون العمداء (ستهافيرا) اتخذوا اسم ستهافيرا .

١٨٢ - بين الاسكندر الكبير وآذوكا

ان هذا الانشقاق الأول كان حاسماً ونموذجيا لأن انشقاقات أخرى ستتلوه . وقد تخربت وحدة الساجها بما لا يمكن اصلاحه ، ولكن دون ان يتعرض انتشار البوذية للخطر مطلقاً . وخلال الربع قرن الذي عقب الانشقاق كان هنالك حدثان هامان لا مثيل لهما بالنسبة الى مستقبل الهند . وكان الأول اجتياح الاسكندر الكبير الذي كانت له نتائج حاسمة بالنسبة للهند التي افتتحت منذئذ للتأثيرات الهللنستية . غير ان الهند اللا مبالية بالتاريخ والمجردة من السير التاريخية لم تحفظ أية ذكرى للاسكندر ولا لمشروعه الخارق : وليس سوى بالأساطير الخرافية التي انتشرت فيها بعد (المزعومة «قصة الاسكندر») ان الفولكلور الهندي اعترف بالمغامرة الخارقة للتاريخ القديم . ولكن نتائج هذا اللقاء الأول الحقيقي مع الغرب لم يتأخر عن الشعور به في الثقافة والسياسة الهنديتين .

وليس النحات الاغريقي - البوذي لقاندهارا Gandhara سوى مثال ، ولكنه مثال هام ، يعرض أول تمثيل انساني الشكل للبوذا .

والحدث البارز الثاني كان تأسيس الاسرة الملكية موريا Maurye من قبل كاندراجوبتا (٣٢٠ - ٢٩٦؟) ، الأمير الذي عرف الاسكندر في شبابه ، والذي بعد ان فتح عدداً من المقاطعات في الشمال الغربي ، غلب النانديين les Nanda وأصبح ملكا لماجادها . وقد وضع كاندراجوبتا هذا الأسس لأول امبراطورية هندية ، حيث ان حفيده آذدكا قدر له ان يوسعها ويدعمها .

وفي بداية القرن الثالث ، دافع فاتسيبوترا وهو ابراهمان آن بجماعة الستهافيرا ، عن مذهب استمرار الشخص (بودجالا) عبر انتقالات الروح (ف ١٥٧ ع) ونجح بتأسيس مذهب أصبح على درجة من القوة . وبعد زمن قصير وتحت حكم آذوكا عرفت جماعة الستهافيرا انقساماً جديداً بصدد النظرية المعتمدة من قبل البعض بأن «الكل يوجد» (سارفام آستي) ، الأشياء الماضية ، والحاضرة والمستقبلة . وقد عقد آذوكا مجمعاً ، ولكن بدون نتيجة، فاتخذ المجددون اسم سارفاستيفاديس sarvastivadis وبما ان الملك كان مخاصماً لهم ، فقد التجأوا الى كشمير مدخلين بذلك البوذية الى هذا الاقليم الهيمالائي .

إن الحدث الكبير من تاريخ البوذية كان اعتناق آذوكا هذا للدين ، والذي (حكم من ٢٧٤ حتى ٢٣٦ أو بحساب آخر من ٢٦٨ إلى ٢٣٤) . حسب اعترافه الخاص (المعلن في المنشور الثالث عشر) ، فإن اذوكا كان مضطربا في اعماقه على اثر انتصاره ضد الكالينجاس les kalingas ، الذي كلف مائة الف قتيل ومائة وخمسين الف اسير . ولكن آذوكا ، قبل ثلاثة عشر سنة ، كان قد اعتبر مجرما بجرم اكثر بشاعة . وبذلك عندما اتضح له ان موت أبيه الملك بندوسارا أمر لا مفر منه ، فأقدم على ذبح أخيه والاستيلاء على السلطة . مع ذلك ، فان هذا القاتل لأخيه وهذا الفاتح الذي لا يرحم «سيصبح اكثر ملوك الهند فضيلة وواحداً من اكبر الوجوه في التاريخ» . وبعد ثلاث سنوات من انتصاره ضد جماعة الكالنجاس اعتنق البوذية واعلن ايمانه بها على رؤوس الاشهاد وخلال سنوات

مارس الحج اكثر من مرة الى الأماكن المقدسة . غير أنه رغم عمق ايمانه ببوذا ، فإن أذكا أظهر انه متسامح كبير . فهو كريم تجاه الديانات الأخرى في الامبراطورية ، والدهارما التي علم بها هي في آن واحد بوذية وبراهمانية . ان المرسوم الثاني عشر المكتوب على حجر يؤكد ان «الملك صديق الآلهة وبنظرة حبية يحترم كافة المذاهب والمتدينين وغير المتدينين ، إن بالهبات أو بالتكريمات المختلفة . ولكن لا بالهبات ولا بالتكريمات يقيم صديق الآلهة أية قيمة إلا للتقدم في الجوهري من كل المذاهب». وفى آخر المطاف ، فإن هذه هى الفكرة القديمة للنظام الكوني التى كان الملك المدير الكوني هو ممثلها النموذجي[٣٠] .

مع ذلك ، فإن هذا الأخير من كبار الموريا ، الذي حكم على كل الهند تقريبا ، كان ايضاً ناشراً صارما للشريعة لأنه اعتبرها الأكثر توافقاً مع الطبيعة البشرية . وان نشره للبوذية في كل مكان ، بارساله بعثات تبشيرية حتى باكتريان وفي سوجديان وفي سيلان التي تشير النصوص التقليدية الى انها اعتنقت البوذية بواسطة ولده أو شقيقه الأصغر . وهذا الحدث كان له نتائج بارزة ، لأن هذه الجزيرة بقيت بوذية حتى يومنا هذا . وقد استمرت انطلاقة آذوكا بترويج في القرون التالية ، بالرغم من اضطهادات خلفاء الموريا وغزوات شعوب السيت Seytles البربرية . وقد انتشرت البوذية في كشمير وفي ايران الشمالية وآسيا الوسطى ووصلت حتى الصين (القرن الأول ب. م) واليابان (القرن الرابع) . ومن البنغال وسيلان دخلت الى الهند الصينية وانسوليند منذ القرون الأولى من العصر المسيحي .

«كل الناس هم ابنائي . وكما من أجل ابنائي ، أريد لهم كل خير وسعادة في هذا العالم وفي العالم الآخر ، كذلك هو ما أرغبه من أجل كل البشر» . هذا ماكان أعلنه آذوكا . ولكن حلمه بامبراطورية ـ أي بعالم ـ موحد بالديانة ، انطفأ معه ، وبعد موته سرعان ما اضمحلت امبراطورية الموريا . ولكن الضمير المسيحاني لأذوكا وحماسه في نشر الشريعة جعلا من الممكن التحول بالبوذية الى دين عالمي ، الدين الوحيد للسلام الذي ارتضته آسيا .

١٨٧ ـ توترات مذهبية وتوليفات جديدة

ان آذوكا بسياسته المسيحانية كان قد ضمن النصر الشامل للبوذية . ولكن الانطلاق والابداعية للفكر البوذي ، لهما مصادرهما في موضع آخر . فبدئيا ، يوجد التوتر بين (المتفكرين) وبين (اليوجيين) ، وهو ما شجع لدى بعضهم كما لدى البعض الآخر ، عملاً مرموقاً من التفسيرات والتعمق المذهبي . كما يوجد كذلك ، عدم التوافق لا بل التناقضات ، لأنظمة نظرية ماثلة في النصوص القانونية ، التي كانت أكرهت التلامذة للرجوع باستمرار الى المنبع ، أي إلى المبادىء الرئيسية لتعليم المعلم . وقد ترجم هذا الجهد التفسيري herme´neutique باغناء ملحوظ للفكر . وتشكل الانشقاقات والمذاهب ، في الواقع ، برهانا على ان تعليم المعلم لم يمكن استنفاذه بأرثوذكسية ، ولا تأطيره بصلابة في تعليم مدرسي[٤] .

وأخيراً ، يجب التذكر ، ان البوذية ، مثل كل حركة دينية اخرى ، كانت توفيقية syncrxtste في المعنى الذي كانت فيه قد تمثلت وادخلت باستمرار قيما ليست بوذية .

وقد كان المثال اعطي من قبل البوذا ذاته ، الذي كان قبل جزءاً كبيراً من التراث الهندي ، ليس مذهب الكارمان والسمسارا فحسب ، وانما ايضا التقنيات اليوجية والتحليلات من نوع براهمانا وسامكهيا ، وكذلك ايضاً الصور والرموز والموضوعات الميتولوجية لما قبل الهندية منساقاً لمعاودة تفسيرها تبعاً لمنظوره الخاص . وهكذا ، من المرجح ، ان الكوزمولوجيات التقليدية ، مع السماوات والجحيم ، التي لا حصر لها ، وسكانها ، جميعها كانت قد قبلت منذ زمن البوذا . وان عبادة رفات القديسين فرضت نفسها مباشرة من بعد البارينيرفانا ، وكان لها بالتأكيد سوابق في تمجيد بعض اليوجيين اللامعين وحول الستوبات des stupas (مكان حفظ الرفات) تألفت رمزية كوزمولوجية غير فاقدة للأصولية ولكنها في خطوطها الكبرى تسبق البوذية في وجودها . وواقع ان العديد من الآثار الهندسية

والفنية قد اختفى مضافا الى واقع ان جزءاً كبيراً من الأدب البوذي القديم قد ضاع ، يجعلان تسلسلات الأحداث تاريخيا تقريبية . غير انه مما لاشك فيه ان عدداً كبيراً من الرموز ، والأفكار والشعائر السابقة ، واحيانا منذ قرون عديدة ، هي الشواهد الدليلية الأولى التي تؤكدها .

وهكذا ، فإن الابداعية الفلسفية ، الموضحة من قبل «المدارس» الجديدة ، تناسب عملية اكثر بطءاً ولكنها ايضاً مبدعة «لتوفيقية» ولانماء ، تتحقق بخاصة في جمهور الغير متدينين (اللاييك)[٥] . وان الستوبا le stupa الذي افترض فيه الحفاظ على رفات البوذا او القدسين ، او اشياء مقدسة ، يتفرع على الأرجح من ركمة فوق القبر tumulus دفنت فيها الأرمدة بعد تحريق الأموات . ففي وسط مصطبة كانت ترتفع القبة ، محاطة برواق دائري ، كان يستخدم في الدوران الطقوسي . وكانت الكيتيا caitya معبداً صغيراً متضمنا عدداً من الأعمدة ومشكلة من ردهة ورواق في غرفة صغيرة لها جدران وكان يوجد فيها نصوص مكتوبة على مواد مختلفة . ومع الزمن اندمجت الكيتيا بالمعبد وانتهت الى الزوال . وكانت العبادة تقتضي ركوعاً وتحيات طقوسية وطوافات دائرية وتقدمات من الزهور والعطور ومظلات كبيرة الخ . . . ان المفارقة ـ تمجيد كائن ليس له اي علاقة مع هذا العالم نفسه ـ هي ظاهرية فحسب . لأن ، تقريب الملامح «للجسد الطبيعي» للبوذا المعاد تحيينه réactualisé في الستوبا ، أو «جسمه بشكل هندسي» المرموز في بنية المعبد ، هما معادلان لتمثل المذهب ، أي للامتصاص «لجسده النظري» ، الدهارما dharma . وان العبادة المحولة فيما بعد لتماثيل بوذا ، أو الحج الى مختلف الأماكن المقدسة بحضوره (بودها ـ جايا ، سارناس الخ) تبرر بذات الجدلية : الأشياء المختلفة أو النشاطات العائدة للسمسارا samsara هي قابلة لتسهيل خلاص المؤمن بفضل العظمة والعمل الانقاذي الذي لا مرد له للمتيقظ[٦] .

وأثناء قرون ، وعلى الأرجح مباشرة بعد موته ، فإن المبارك مُثِّل ـ ومُجِّد تحت شكل ايقوني : أثر قدمه ، الشجرة ، الدولاب . وهذه الرموز اعادت حضور الشريعة مثيرة للنشاط التبشيري للبوذا ، شجرة اليقظة ، (تحريك دولاب الشريعة) . وعندما صنعت التماثيل الأولى لبوذا في بداية العصر المسيحي

(التمثال الاغريقي ـ الهندي لفندهارا) ، فإن الوجه البشري لم يُعتّم مطلقاً الرمزية الاساسية . وكما اظهر ذلك بول موز pulmus ، فإن صورة البوذا ترث قيماً دينية من المذبح الفيدي . ومن جهة أخرى فإن الهالة التي تشع حول الرأس لتماثيل البوذا (وحول المسيح ، في الفن المسيحي لذت الفترة من القرن ١ ـ ٥) تشتق من نموذج مسبق من عصر الأخمينيين وبصورة خاصة الهالة المشعة لأهورا مزدا من جهة أخرى يحدد هذا النموذج المفاهيم القديمة الميزوبوتامية (ف٢٠٠ع). وفي هالة الايقونة البوذية ، يشير الرمز بخاصة لهوية طبيعة البوذا مع النور . وعليه وكما رأينا (ف ١٨٠ ع) ، فإن النور منذ عصر الفيدا كان معتبراً كتعبير مصور تام بالنسبة للروح .

لقد تحملت حياة النساك بعض التغييرات مع انشاء الاديرة (فيهارا) . والتغيير الوحيد الذي يعنينا هو تعدد المؤلفات في المذهب والمعرفة . ورغم العدد الكبير من الكتب المفقودة «الأمر الذي يجعلنا نجهل تقريبا كل شيء عن كثير من المدارس والمذاهب» فإن الأدب البوذي بلغات بالي pali وسنسكريت يؤثر بعلاقاته . والنصوص التي تشكل «المبدأ الأسمى» ، و «السلة» الثالثة والآبهيدها رمابيتاكا l'abhidharmapitaka كانت أعدت مابين ٣٠٠ ق.م و ١٠٠ ب.م وهي تتناقض مع نموذج السوترات des sutras ؛ انها تأليف عقلاني ، تعليمي جاف ، وغير شخصي . ان رسالة بوذا أعيد تفسيرها وقدمت تحت شكل نموذج فلسفي ، ولكن الكتاب جهدوا في شرح التناقضات التي تفيض بها السوترات les sutras .

ومن الواضح ، ان كل مذهب يملك ابهيدهارماكوزا خاصة له ، وان الفروقات بين هذه الترجمات «للفقه الأعلى» استدعت تناقضات جديدة . والمستجدات هامة أحيانا . والمثال على ذلك : أصوليا ، كانت النيرفانا الوحيدة «الغير مركبة» (اسما سكرتا) اما الآن ، ومع بعض الاستثناءات ، فإن المدارس ترفع الى مصاف «غير المركبات» الفضاء ، والحقائق الأربع ، والطريق (مارجا) والبراتيتا ساموتبادا ، أو حتى بعض «مجموعات» يوجية . أما بالنسبة للأرهات ، فإنه حسب بعض المدارس يمكن ان ينتقص ، بينما هو بالنسبة لبعض المدارس الأخرى سام رفيع طاهر حتى بجسمه ؛ وبعضهم يؤكد إمكانية ان يصير ارهات

مسبقاً في المرحلة الجينية (وفي حالة الحلم ، ولكن امثال هذه المذاهب قد انتقدت بشدة من قبل معلمين آخرين .

وبالنسبة لهذه النتائج فإن الأكثر أهمية ايضاً كان معاودة تفسير علم البوذية (بوذولوجيا) . فبالنسبة للستهافيرافاديين les Sthaviravadins ، أن ساكيا موني كان رجلاً جعل نفسه بوذا ، وبالنتيجة أصبح «الها» . أما بالنسبة لفقهاء آخرين ، فإن اضفاء الصفة التاريخية للبوذا ـ ساكياموني كان شائنا : من جهة ، كيف ان إلها كبيرا يمكن ان يصبح إلها ؟ ومن جهة أخرى ، توجب الرضوخ لقبول ان منقذا محسوب ان يُفقد في نيرفانته (علياته) . عندئذ أعلنت مدرسة لوكوتارا ، ان ساكياموني ، كان فيما سلف قد غدا بوذا منذ حقب كونية عديدة ، ولم يترك السماء التي سكنها . وإن من رؤي من الناس مولوداً في كابيلافاستو ، يبشر ويموت، لم يكن سوى شبح (ميرميتا) مخلوق من قبل الساكياموني الحقيقي . وهذه البوذولوجيا سيعاد الأخذ بها وتوسيعها من قبل الماهايانا .

والسيرفاديون السيلانيون لم يستثنوا من الانشقاقات المذهبية . وانما كان هذا بخاصة في الإقليم الذي استمر فيه التبعثر وتعدد المدارس مع كثافة اكبر . وكخصومهم فإن الستافيرا والماهازامكيتا قد عرفوا الانقسامات ايضاً ، بدئيا في ثلاث مجموعات ، وبعدئذ في عدد من المذاهب حيث ان تعدادها معدوم الفائدة . غير ان مما له اهميته واقعة كون الماهازمجهكا قد أثاروا ، أو جعلوا من الممكن قيام تجدد جذري في البوذية عرف باسم الماهايانا ، التي تعني لغويا : العربة الكبرى .

١٨٨ ـ طريق البودهيساتيغا

تأكدت البوادر الأولى للماهايانا نحو نهاية القرن الأول ق.م ، وهذه البوادر هي البراجنا باراميتا سوترا («مواعظ حول كمال الحكمة») ، وهي مؤلفات بأطوال مختلفة ، صعبة الفهم ، وتدخل انشاء جديداً في الفكر والأدب البوذيين . فالمصطلحات ماهيانا وهينايانا (لغوياً : «العربة الصغيرة» ، المعبران عن البوذية

القديمة تهيرافادا) هما من حيث الظاهر متأخران . وان المؤمنين بالطريقة الجديدة يسمونها «طريقة البودهيزاتفا» . وهم يتميزون بتسامحهم الكبير فيما يتعلق بالمؤسسة وبعلمهم للبوذية من بنية صوفية . ومتفق عليه عندهم الاعتراف بتأثير الورع العلماني (لاييك) . فالمثل الأعلى ليس أرهات منعزل باحث عن نيرافنته ، وانما البودهيساتفا ، شخصية علمانية ، نموذج للاحسان والشفقة ، الذي يضع نهائياً خلاصه من أجل تسهيل سلام الآخرين . وهذا البطل الديني ، الذي يشابه راما وكريشنا ، لا يطلب من المؤمنين طريقة الراهب الصارمة ، وانما الورع الشخصي من نوع بهاكتي . ويحسن ، مع ذلك التذكير ، بأن البوذية القديمة لم تغفل هذا النوع من الورع . فحسب الماجهيمانيكايا [١ ـ ١٤٣] ، ان البوذا نفسه كان أعلن بأن أي واحد يضع امام نظره «شعوراً بسيطا من ضمير وعاطفة ، سيذهب الى الفردوس»(٨) . أما الآن ، فيكفي اتخاذ القرار بأن يصبح بوذا «لأجل خير الغير» ، لأن الماهايانا غيرت جذرياً المثل الأعلى للمريد : لا تستوحى النيرفانا ، وانما يستوحى شرط البوذا .

إن كل المدارس البوذية تعترف بأهمية البودها ستغات. ولكن الماهانيين أعلنوا سمو البودهيساتفا على الأرهات ؛ لأن هذا الأخير ، لم يتخلص نهائياً من الذاتية (الأنا) : ولأجل هذا يبحث عن النيرفانا من أجله لوحده .

وحسب اولئك الذين انتقدوهم ، فإن الإرهات قد نشروا الحكمة وليس المرحمة . في حين أن جماعة البودهيزاتفا كما تردده نصوص البراجنايا رافيتا «لا يريدون ادراك نيرفانتهم الخاصة منفردين . وبالعكس فإنهم طافوا العالم متألمين لدرجة عالية من الوجود ، وراغبين ، مع ذلك باكتساب التنوير الاسمى ، ولم يرتعدوا ابداً أمام الولادة والموت . انهم في طريق المسيرة من أجل مصلحة العالم ومن أجل سعادة العالم وبالشفقة من أجل العالم . ولقد اتخذوا هذا القرار : نود أن نصبح ملجأ من أجل العالم ومأوى من أجل العالم ومكانا للراحة للعالم ، والسعادة النهائية للعالم والجزائر للعالم والانوار للعالم ، والهداة للعالم ، ووسائل الخلاص للعالم»(٩) .

هذا المذهب من السلامة هو لحد كبير جريء بحيث ان الماهايانا اعلنته بشرى ، وايضا فلسفة اكثر عقلانية ، فلسفة «الفراغ الشامل» سونياتا . وفي الواقع ، لقد قيل ان شيئين ضروريان للبودهيزاتفا ولتطبيقها من الحكمة : «لاتهمل أبداً الكائنات وانظر في الحقيقة ان كل الأشياء فارغة»[١٠] ويبدو مناقضا انه في الفترة ذاتها لانتصار المرحمة من أجل كل الكائنات ـ ليس البشر ، وانما ايضا الاشباح ، والحيوانات والنباتات ـ ان العالم برمته هو «مفرغ» من الحقيقة . ان البوذية القديمة قد اصرت على عدم واقعية حتى الروح (نيراتميا) . وان الماهايانا ، بتمجيدها لدرب البودهيزاتفا ، تعلن عدم واقعية ، وعدم وجود «الأشياء» في ذاتها ، الدهارمات (دهارما سونياتا) وعلى ذلك ، فهذا التناقض ليس واحدا . فمذهب الفراغ الشامل ، بتفريغه العالم من «الواقعية» يسهل انفصال العالم ويقود إلى محو الذات ـ هدف أول لبوذا ساكياموني والبوذية القديمة .

وسنصادف هذه المسألة في عرضنا لفلسفة سونياتا . اما الآن فنتفحص الابداعات الدينية الخاصة بالماهايانية . لأن ، مايميز العربة الكبرى هو ، من جهة ، الاندفاع الغير محدود للورع العلماني وللميتيولوجات الانقاذية التي تدخلها ، ومن جهة اخرى الماورائية الخارقة ، رؤية وفي ذات الوقت ذات صرامة قصوى ، من معلميها . ان هذين الاتجاهين ليسا في نزاع البتة ، بل على العكس ، انهما يتكاملان ويؤثران أحدهما على الآخر .

ويوجد العديد من البودهيساتفا ، لأنه منذ الأبد يوجد منقذون وهم بصيرورتهم بوذا نذروا انفسهم لادراك اليقظة من أجل خلاص كل الكائنات . ومن اكثرهم اهمية ميتريبا ، وافالوكيتسبارا ، ومانجوسرى . وان البودهيساتفا ميتريا (من ميتري = طيبة) هو القريب من بوذا ، وان خليفة سكاموني هو الأكثر شهرة ، افالوكتسبارا . وهذا مايشكل ابداعا اكثر حداثة ، مختصا بالورع «وليس بوذيا فقط» وقد فرض نفسه في بدايات عصرنا . ان افالوكتسفارا يظهر كتركيب من ثلاثة آلهة كبرى هندوسية ، فهو رب العالم ، والشمس والقمر تأتيان من عينيه ، وآتت الأرض من قدميه ، ومن فمه يأتي الريح : انه لا« يمسك العالم في يده» ، «كل مسامة من جلده تتضمن نموذجاً من العالم» ـ عبارات نجدها في

معرض فيشنو وشيفا . ان افالوكتسبارا يحمي ضد كل نوع من الخطر ، ولا يرفض أياً دعاء ، حتى ما يكافىء النساء العاقرات بالابناء . ومانجو سري «ثروة عذبة» هو متضامن مع بوذا أكسوبهيا ، يجسد الحكمة ويحمي المعرفة . وهو سيتمتع بوضع متميز في البوذية الصينية .

ان البودهساتفا افالوكيتسفارا مرتبط صوفيا ببوذا آميتابها ، ولكن هذا الأخير لم يصبح شعبياً في الهند الا متأخراً ، في القرن السابع ، وحتى ذلك الحين ، كان احترامه يتعلق بعلاقاته مع افالوكيتسفارا . وعلى العكس ، فإن اميثابها بعد القرن الثامن سينال حظاً فوق العادة ، في التيبت وفي الصين واليابان . ومن المناسب الاشارة إليه منذ الآن في نص الايمان الماها يانيستي ، لأن ميتولوجياه وعبادته تميزان تجديدا مدهشاً . فعندما كان مجرد ناسك بسيط ، نذر اميثابها نفسه ليصبح بوذا وليكتسب «ارضاً عجيبة» حيث ان السكان ، بقوة ماهم من مزايا ، سيتمتعون بسعادة لا مثيل لها حتى دخولهم في النيرفانا . إن هذه الأرض السعيدة (سوكهافاني) تقع على مسافة مدوّخة الى الغرب : إنها مغرقة في النور وتشبه فردوساً بسبب طرائفها وزهورها وطيورها . وسكانها هم في الحقيقة خالدون ، ويستمتعون فوق ذلك بالتلقي شفاها للعلم من أميثابها .

وامثال هذه الجنان سبق ان عرفت في الهند . والعلامة المميزة للأرض السعيدة سوكهافتي . هي في السهولة القصوى التي يدخل بها المؤمنون إليها . وفي الواقع يكفي أن يسمع اسم اميثابها أو ان يفكر به : في فترة الموت ، سينزل الاله وسيقوده بذاته الى الفردوس (سوكهافاني) . وذلك هو النصر المطلق للورع ،ومع هذا فإن التبرير المبدئي يمكن أن يوجد في البوذيةالأكثر قدما،ففي الترجمة الصينية للميليندا ـ بانها milinda-panha قيل إن «الناس الذين اثناء وجودهم فعلوا الشر حتى مائة سنة ، سيحصلون جميعهم بعد الموت ، على ان يولدوا في أعلى سماء ، اذا فكروا ببوذا في فترة الموت»[١٢] . وبالتأكيد إن الجنة سوكهافاني ليست نيرفانا ، ولكن اولئك الذين يصلون إليها ، بفضيلة فكرة واحدة ، أو كلمة واحدة ، مقدر لهم لأن يحصلوا في المستقبل ، وبدون أي جهد على الخلاص النهائي . واذا تذكرنا ضيق الطريق الأقصى ، الذي كان البوذا قد

بشر به وبشرت به البوذية القديمة ، يتقوم مدى الجرأة لهذا اللاهوت الجديد . غير ان ماهو واضح ، ان هذا يتعلق بلاهوت صوفي ورعي ، لا يتردد في ان يطبق في الممارسة وفي كل الأيام ، الاكتشافات الميتافيزيكية للمعلمين الكبار للماهايانا .

وبما انه يوجد مالانهاية من البوذات ، فإنه يوجد مالانهاية من «اراضي للبوذات» أو «حقول بودها buddha ksetra» . وسوكهافاني ليست سوى واحدة من اراضي البوذا هذه . انها جميعها عوالم متصاعدة ، مبدعة بمزايا وافكار المنقذين . وتصفها الآفاتاسكا «كذلك لا تعد ولا تحصى ، اكثر من ذرات الغبار» خارجةمن «فكرةاثيرةفي نفس بودهيساتافا عن الرحمة». كل هذه الأراضي للبودها«تخرج من التخيل ولها اشكال لامتناهية»[١٤]. وان الصفةالخيالية لهذه العوالم قد اشير اليها تباعا وباستمرار في النصوص . ان «حقول بودها» هي انشاءات عقلية متسامية في فكر البشر بهدف هدايتهم . وهذه المرة ايضا لم تتردد العبقرية الهندية عن تقييم التخيل المبدع مستعملة إياه كوسيلة للخلاص .

١٨٩ ـ ناجا ـ جونا ومبدأ الخواء الشامل

هذه التيولوجيات الميتولوجية ترافقت ببعض النظريات الجديدة ، المنبثقة ، هي أيضاً من ذات الهاجس لإلغاء الاندفاعات الانانية . وأولها نظرية تحويل الجدارة (بارناما) . وهي تبدو معارضة لقانون الكارمان ، مع ذلك فهي تمدد الاعتقاد الراسخ بالبوذية القديمة حيث ان نموذج البهيكو المجهد نفسه ليصبح ارهاتا ، يساعد ويلهم العلمانيين (اللاييك) . ولكن مبدأ تحويل الجدارة كما فسر من قبل الماهايانا هو ابداع مميز للعصر . فالأنصار مدعوون لتحويل أو تقديم جداراتهم لتنوير كل الكائنات . وكما يكتب سانتيايفا (القرن السابع) في كتاب اصبح مشهوراً ، بودهيكار يافاترا : «بالجدارة المنبثقة من كل تصرفاتي بحيرة اريد تهدئة المعاناة لكل المخلوقات ، واكون الطبيب ، الشافي ، المرضعة لمريض مضى

على مرضه زمن طويل [. . .] . حياتي مع كل عودة ولاداتي ، كل ممتلكاتي ، كل جدارة اكتسبتها او سأكتسبها ، كل هذا اتركه بدون أمل في ربح لأجل نفسي ، بهدف ان يكون خلاص كل الكائنات هو المفضل»(١٥) .

وفكرة جديدة أخرى تكشف ان «طبيعة البوذا» ماثلة في كل كائن بشري وحتى في كل حبة رمل . وهذا مايرجع إلى القول بأن «بوذيّتنا» الخاصة هي التي تجبرنا لنصبح بوذا . وان هذه هي فكرة متضامنة بالاكتشاف الاوبانيشادي (تطابق آثمان ـ براهمان) والبديهية الهندوسية ان الانسان لا يمكنه ان يعبد الألوهية إلا بصيرورته ذاته الها . وسيكون للنظرية تطورات هامة في الماهايانا ، وبخاصة في المبدأ الشهير «الجنين تاثاغاثا» (تاثاغاتاغاربها) . انه ايضا متضامن بتفسير آخر أصولي لطبيعة البوذات : مبدأ الاجساد الثلاثة (تريكايا) للبوذا . فأول جسم ، هو جسم الشريعة (دهارماكايا) ، وهو متصاعد ، مطلق لا نهائي أبدي ؛ فهو إذن الجسم الروحي لدهارما ، أي في آن واحد الشريعة المبشر بها من قبل بوذا والحقيقة المطلقة ، والكائن الطاهر . (يظن بجسم مراجاباتي ، مشكلاً ـ في بعض الأحوال ـ من مقاطع مقدسة وعبارات سحرية ؛ ف ٧٧ ع) . وثاني جسم ، السامبهوغاكايا أو «جسد المتعة» ، هو التجلي العظيم للبوذا الممكن ادراكه فقط للبودهيساتفات . واخيراً «جسد الابداع السحري» (نيرماناكايا) ، هو الخيال الذي يجابهه البشر على الأرض ، والذي يشبههم ، لأنه مادي وموقت ؛ ولكنه يشغل دوراً حاسماً ، لأنه فقط عبر هذا الجسم الشبح يكون البشر قادرون على تلقي الشريعة وادراك الخلاص .

وكما لاحظنا فإن هذه الاطلاقات النظرية والتركيبات الميتولوجية التي تميز الماهايانا تهدف الى تسهيل النجاة لغير المتدينين . وبقبول وادخال عدد من العناصر الهندوسية ، سواء «شعبية» (طقوس ، بهاكتي ، الخ) وسواء فقهية ، فإن الماهايانا جدد وأغنى التراث البوذي ، بدون التنكر له مطلقاً . وفي الواقع ، ان مبدأ الخواءالشامل (سونياتافادا) المحضّر بعبقرية ناجارجونا القرن الثاني ق.م) كان معروفا ايضاً تحت الاسم مادهياميكا «للوسط» ، يفسر «بطريق الوسط» المبشر به من قبل سكياموني . وبالتأكيد ، وكما من أجل موازنة الاتجاه نحو «السهولة» ،

الواضحة في الورع الماهاياني ، فإن مبدأ الخواء (سونيا فادا) يتفرد بعمقه وتعقيداته الفلسفية .

وقد أعلن الخصوم الهنود لنا غارجونا كما أعلن بعض العلماء الغربيين ، ان السونياتافادا هي فلسفة عدمية ، لأنها تبدو منكرة للمبادىء الأساسية لنبوذية . وفي الحقيقة انها علم الكائن (انطولوجيا) مبطنة بعلم متعلق بالمنقذ (سوتوريولوجيا) sotériologie ، الذي يجهد نفسه لأن ينعتق من تكوينات وهمية متعلقة بكلام : السونيافادا تستعمل اذن جدلية متناقضة واصلة لتوافق الأضداد ، الأمر الذي يذكر بنوع ما بنيقولا دي كاس Nicolas de Gues ، أو شيءمن هيجلو وتينجنستين .

ان ناجارجونا ينتقد ويرفض كل نوع من الفلسفة ، مبرهناً عدم امكانية التعبير عن الحقيقة الكلية (بارامارزاتا) باللغة . وبدئيا يعيد إلى الذاكرة بأنه يوجد نوعان من «الحقائق» : الحقائق الاتفـاقية ، أو «المستـترة في العالم» (لوكازامفرتيزاتيا) ، التي لها فائدة تطبيقية ، والحقيقة الشاملة ، التي هي وحدها يمكن ان تقود الى الخلاص . فالأبهيد دهارما ، الذي يدعي ايصال «العلم الأعلى» ، يعمل في الحقيقة من حيث النتيجة مع معارف اتفاقية . وماهو اكثر فداحة ، ان الابهيدهارما يعتم الطريق نحو الخلاص مع تعريفاته التي لا حصر لها واصناف وجودات (مثلاً ، سكاندهار ، دهاتوس الخ) التي ليست ، في الاساس ، سوى حصيلة التخيل . ويقترح ناجارمونا ان يتحرر وان يوجه الطاقات العقلية الاسيرة في شبكة الخطاب .

بالبرهان على الخواء ، أي عدم الواقعية ، لكل مايبدو موجوداً أو لما يمكن الشعور به ، فكراً أو تخيلاً ، يُستتبع العديد من النتائج . وأول هذه النتائج : كل الصيغ الشهيرة للبوذية القديمة ، كذلك كل اعادة تعريفاتها المنهجية من قبل المنشئين ابهيدهارما ، تتكشف انها مغلوطة . وهكذا ، على سبيل المثال ، ان المراحل الثلاث لانتاج الأشياء ـ «أصلا» و «مدة» و «انقطاعا» ـ لا توجد أبداً ؛ كذلك الأمر لا توجد السكندهات les skandhas ، ولا العناصر الغير قابلة

للنقصان (دهاتوس) ، ولا الرغبة ، ولا موضوع الرغبة أو الحالة لمن يرغب . كلها لا توجد لأنها محرومة من طبيعة خاصة . فالكرمان نفسه هو بنيان عقلي ، لأنه لا يوجد «فعل» بمعنى الكلمة ولا «فاعل» . وينكر ناغارجونا كذلك الفرق بين «عالم المركبات» (سمسكرتا) و «الغير مشروطة» (اسمسكرتا) . و «من وجهة نظر الحقيقة الكلية ، ان معنى عدم الدوام (آنيتيا) لا يمكن اعتباره كحقيقة اكثر من معنى الدوام» [مولامادهياما كاكاريكا ٢٣ ، ١٣ ـ ١٤] . اما بالنسبة للقانون الشهير «التعاون الانتاجي المشروط» (براتيتيا سامودبادا) فهو مفيد فقط من وجهة نظر تطبيقية . وفي الحقيقة ، «ان التعاون الانتاجي المشروط ، نسميه سونيا (فراغ)» [المرجع السابق ١٤ ـ ١٨] . كذلك الأمر ، الحقائق الأربعة المقدسة المعلنة من قبل بوذا ليس لها طبيعة خاصة : يتعلق بحقائق اتفاقية يمكن لها ان تستخدم ، على مستوى الكلام فقط .

وان النتيجة الثانية هي ايضا اكثر جذرية : ناجارجونا ينكر التمييز بين «المرتبط» و «الناجي» وبالتالي بين سمسارا ونيرفانا . «لايوجد شيء يفرق بين السمسارا عن النيرفانا» [المرجع السابق ١٥ ـ ١٩][١٦] . وهذا لا يعني ان العالم (سمسارا) والخلاص (نيرفانا) هما «ذات الشيء» ، ولكنهما غير مفترقين . فالنيرفانا «صنيعة الروح» . ويقول آخر ، من وجهة نظر الحقيقة الكلية ذاتها لا تتمتع بنظام انطولوجي مستقل وسليم .

وأخيراً فإن النتيجة الثالثة عن الخواء الشامل تؤسس واحدة من اكثر الانطولوجيات أصالة المعروفة بتاريخ الفكر . كل شيء فراغ ، مجرد من طبيعة خاصة، ومع ذلك لا يسوغ الاستنتاج من هذه وجود «جوهر مطلق» يرجع إليه سونيا (أو نيرفانا) فعندما يعلن ان «الفراغ» سونيا ، غير قابل للتعبير عنه ، وانه غير معقول ، وغير قابل للوصف ، فلا يقتضي انه توجد «حقيقة متصاعدة» مميزة بهذه الأوصاف . والحقيقة الكلية لا تتكشف عن «مطلق» من نموذج فيدانتي ؛ انها طريقة للوجود مكتشفة من قبل التابع عندما يحصل هذا على اللامبالاة الكاملة تجاه (الأشياء) وتجاه انقطاعها . «فالتحقيق» بالفكر ، للفراغ الشامل يعادل ، فعلا ، الخلاص . ولكن من يدرك

النيرفانا لا يستطيع «معرفتها» لأن الخواء يصعد في آن واحد الكائن واللاكائن وان الحكمة (براجنا) تبرز الحقيقة الكلية باستعمال «الحقيقة المستورة في العالم» : هذه الأخيرة غير مرفوضة ، ولكنها محوّلة الى «حقيقة لا توجد بذاتها»[١٧]

ان ناجا رجونا يرفض اعتبار السوياتاسفادا «كفلسفة» : انها تطبيق جدلي وتأملي معاً ، وانها بتخليصها للتابع من كل تركيب نظري للعالم كما للخلاص ، تسمح له بالوصول الى الصفاء الرصين والى الحرية . وهو يرفض بطريقة حاسمة الفكرة بأن دلائلها ، أو أي تأكيد فلسفي آخر ، هي صالحة بسبب تأسيس انطولوجي قائم خارج أو ماوراء اللغة . فلا يمكن القول عن الخواء سونيا بأنه موجود ، ولا انه غير موجود ، ولا انه يوجد وبذات الوقت لا يوجد الخ . . وعلى هذه الأقوال ترد انتقادات جمة : اذا كان كل شيء خواء ، عندئذ فإن النفي المعروض من ناجارجونا هو كذلك اطروحة فارغة ، إنه يرد بأن تأكيدات خصومه كذلك منفياتهم لا وجود مستقل لها : انها توجد فقط على مستوى الحقيقة الاتفاقية .

ان البوذية شأنها شأن الفكر الفلسفي الهندي بصورة عامة ، قد تغيرت بعمق بعد ناجارجونا ، ومع ان هذا التغيير لم يكن مباشرة واضحاً ، فإن ناجارجونا قد دفع الاتجاه الفطري للروح الهندية باتجاه الحد الأقصى لتوافق الاضداد . ومع ذلك فقد نجح في اظهار ان مجرى حياة البودهيساتفا احتفظ بكل عظمته بالرغم من واقعة ان «كل شيء هو فراغ» . وقد استمر المثل الأعلى للبودهيساتفا يستلهم الاحسان والغيرية مع انه كما تقول الافاتامساكا[١٨] «مع البقاء في النيرفانا ، اظهر السمسارا . يعلم انه لا توجد كائنات ، ولكنه اكره نفسه للاقرار بها ، انه في النهاية يسكن ، ولكنه يبدو مظهراً للعواطف . انه يسكن جسد الشريعة ، ولكنه يظهر نفسه في كل مكان ، تحت مالايحصى من اجساد الكائنات الحية ، انه مغرق دوماً في انتشاءات عميقة ، ولكنه يتمتع باشياء مرغوبة . . . » .

١٩٠ ـ الجاينية بعد ماهافيرا : تبحر في العلم ، علم الكون ،علم ما يتعلق بالانقاذ . .

كان ستهافيرا (قديما) سودرمان الخليفة المباشر لماهافيرا ، وقد حسب وكأنه المكلف بنقل كلمات المعلم لتلميذه جامبو . وكان هؤلاء آخر من هم كليو المعرفة والمقدسون . وكانت اسماء الستهافيرات dessthouvira ممن خلفوا جامبو معروفة . وكان الأكثر أهمية بادراباهو ، معاصراً للملك جاندراغوبتا ، وقد مات في عام ١٧٠ أو (١٦٢) بعد ماهافيرا أي في القرن الثالث ق.م . وبهادراباهو هو الذي ثبت قانون جاينا le canonjaina ، وحرر بذلك عدة كتب . ولكنه كان الشاهد ايضا ، ومن المحتمل واحداً من اسباب الأزمة التي ادت الى انقسام كنيسة جاينا .

حسب النصوص ، ان بهادراباهو ، وقد توقع مجاعة لمدة اثني عشر عاما ، هاجر مع قسم من الجماعة ديكان . وكلف تلميذه ستهولابهادرا ليشغل مكانه لدى من بقي من الجماعة . وبعد بضع سنوات ، انعقد مجمع في باتاليبوترا بهدف جمع كل النصوص المقدسة ، التي كانت تنقل شفاها حتى ذلك الحين . ووجد لها دراباهو نفسه في الطريق الى نيبال . وقد أرسل له مبعوثون من اجل ان يتلو أمامهم بعض النصوص القديمة حيث انه كان الوحيد الذي يعرفها . غير ان المبعوثين أصغوا إليه بشكل سيء، ولم ينجحوا في استيعاب سوى بعض المقاطع من هذه المؤلفات التي كانت تحافظ على المذهب الأصلي . وان ستهولاباهادرا وحده هو الذي تذكر عشر كتب من مجموع اربعة عشر ، وان هذا المشهد ، المرجح انه اسطوري ، يؤكد بعدئذ الفوارق بين نوعي القوانين .

وعندما رجع المهاجرون الباقون الى ماجادها متمسكين اوفياء بالعري ، صدموا بتخاذل النساك الباقين مكانهم ، وتمدد التوتر خلال عدة أجيال ، وتفاقم مع اختلافات حول بعض التفاصيل في الطقس والتباعدات المذهبية . وأخيراً وفي عام ٧٧ ق.م أصبح الانفصال أمر لا مفر منه فانقسمت الجماعة الى

سفيتامبارا وهم الذين «يرتدون الأبيض» والى ديغمبارا «يرتدون الفضاء» ، وهؤلاء الأخيرون كانوا ينكرون الخلاص على الذين لم يكونوا يحترمون العري الكامل «وبالنتيجة انكروه ايضاً على النساء» . واضافة لذلك ، كانوا قد رفضوا بعض عناصر السيرة الذاتية للماهافيرا (زواجه مثلا) ولأنهم كانوا يعتبرون كمضيعين للنصوص القديمة ، فإن النساك «المرتدون الفضاء» وضعوا موضع الشك رسمية القانون المقام من قبل السفيتامباريين وانعقد مجمع ثان في فالابهي في النصف الثاني من القرن الخامس : نظمه السفيتامبار بهدف تثبيت التسجيل النهائي للنصوص المقدسة .

ولا نناقش هنا مختلف أصناف الكتب التي تشكل الأدب العريض لقوانين جاينا ، وأما بالنسبة للنصوص التالية للقوانين فعددها كبير جدا[١٩] . وعلى خلاف البوذية ، فان الجاينية قد حافظت على بنياتها الأولية . ولا يوجد سوى القليل من الأفكار الجديدة والمبتدعة في الأدب الفلسفي والطقوسي الغني . وان الكتب الاكثر شهرة مثل برافاكاناسارا لكوندا كوندا (القرن الأول ب.م) وتاتغارتا لأوناسفاتي (غير مؤرخ ولكنه سابق لمؤلف كوندا كوندا) ، لا تفعل ، اساسا ، سوى تنهيج المفهومات المصاغة سابقا من قبل ماهافيرا أو خلفائه المباشرين ، بطريقة مدرسية[٢٠] . وان المذهب متعلق بوجود مخلص ومركز في «الطرقات الثلاثة» للجانية : الرؤية المستقيمة ، والسلوك المستقيم والمعرفة المستقيمة . والسلوك المستقيم تحقق بالمذهب او بالتنظيم التنسكي . وتميز اربعة انواع من «النظر المستقيم» حيث ان الأولى هي بكل بساطة بصرية والأخيرة تشكل ادراكا تصاعديا غير محدود . ولن نمضي في تحليل الأنواع الخمسة «للمعرفة المستقيمة» ويكفي ان نذكر اطروحتين متميزتين لمنطق جاينا : «مبدأ وجهات النظر» (نايا ـ فادا) و «مبدأ الامكانية» (سياد ـ فادا) . ويعتمد المبدأ الأول انه بصدد كل شيء ، يمكن اصدار عدة تأكيدات متكاملة . صحيح من بعض وجهة النظر ، ان مثل هذه المقولة ليست هي اذا تفحصناها في منظور آخر ، ولكنها تبقى قابلة للتوافق مع جملة الايضاحات . أما مبدأ «الامكانية» (سياد) فيدخل النسبية او غموض الواقع . ويشار اليه كذلك تحت اسم «القاعدة ذات السبعة

اقسام» ، لأنـه يتطلب سبعة اشكال من التأكيدات : ١) أيمكن لهذا ان يكون هكذا ، ٢) وأيمكن لهذا ان لا يكون هكذا ، ٣) وأيمكن لهذا أو لا يمكن له ان يكون هكذا ، الخ . . وقد أدين هذا المذهب من قبل المدارس الفلسفية الهندية الأخرى[٢١] . ومع ذلك فإن هاتين الطريقتين المنطقيتين تشكلان الابداعات الأكثر أصولية للفكر جاينا .

ان التحليلات للمادة ، وللروح ، وللزمن والفضاء (هذان الصنفان الأخيران كان معتبرين «كجواهر» من «المادة الكرمية» الخ . قد أعدت ومُنهجت ، بالاكثار من التصنيفات والتسميات . ان ملاحظة متميزة ، يمكن ان تكون معارة من قبل ماهافيرا الى ماكهالي غوزالا ، هي الاعتقاد بأن الأفعال تدفع الروح على شكل صبغة (ليزيا) وان هذه الألوان تغرق الأجساد كذلك ، وهكذا فإن الجدارة أو عدم الجدارة للروح معلمة بالألوان الستة للأجساد ° الأسود ، الأزرق ـ الاسود والاغبر يميزان سكان الأقاليم الجهنمية ، بينما ان الاصفر ، الوردي والابيض يدلان على الكائنات التي تعيش على الأرض ، والأبيض الناصع والباهر ينتمي فقط لأولئك الذين يرتفعون صوب قمة العالم . انه بالتأكيد ، يتعلق بمفهوم قديم ، متضامن مع بعض التطبيقات اليوجية . وعليه ، ففي تصنيف الكائنات حسب توصيفها الروحي ، إن المرحلة الثامنة ، عندما يتم «أول استقبال للروح في جوهرها الصافي» ، تسمى كذلك «الاستقبال الأول الابيض» . ويصادف المعادل للون ـ المرحلة الروحي في تقاليد هندية اخرى وخارج ـ هندية .

وكالطبيعة (براكرتي) في المفهوم سمخيا ـ يوجا ، فإن الطبيعة تنتظم عفويا وبدون وعي بهدف خدمة الروح . ومع انها خالدة وبدون بداية ، فإن الكون يوجد من أجل ان تستطيع الأرواح الانعتاق من تركيباتها . ولكن وكما سنرى فإن الانعتاق لايقتضي الهروب الشامل والنهائي من الكون . إن أصولية الكوزمولوجيا جاينا تعتمد بدقة على قدمها . فهي حفظت واعادت تقييم مفاهيم تقليدية هندية مهملة من قبل الكوزمولوجيات الهندوسية والبوذية . مالكون (موكا) يصور تحت شكل انسان واقف ، واليدان مكتفتان ، وقبضة اليد على الذراعين . وهذا العفريت macranthrope مؤلف من عالم أدنى (الأعضاء الدنيا) وعالم متوسط

(منطقة الزنار ـ الوسط) وعالم أعلى الصدر والرأس) . وانبوب عمودي يجتاز ، مثل قطب الدنيا l'aximundi ، المناطق الكونية الثلاثة . والعالم الأسفل يحتمل سبعة «أراضٍ» (بهومي) مرصوفة فوق بعضها ، ولكل منها لون مختلف ، من الأسود الأكثر كثافة حتى النور المتحصل ببريق ١٦ نوعاً من الجواهر . (المناطق العليا من «الأرض» الأول مسكونة بثمانية عشر صنفاً من الآلهة . و «الأراض» الستة الأخرى الجهنمات الحقيقية ٨,٤٠٠,٠٠٠ بعددها مسكونة بمختلف طبقات المدانين ، من لون أغبر ، وأزرق على أسود ، وأسود . أجسامهم ممسوخة ، والتعذيبات التي تطبق عليهم في انواع الجحيم المتقدة أو المتجمدة ، تذكر بالكليشيهات التقليدية . ان المذنبين بجرائم دون مغفرة يحشرون ابدياً في اكثر المغارات رعبا ، نيغرادا ، الكائنة تحت اقدام العفريت .

ان هذه الصورة لعالم بهيئة بشرية ، حيث مختلف اقاليمه ـ متمثلة باعضاء الانسان الكوني ـ مسكونة من قبل كائنات من مختلف الألوان ، هي صورة قديمة جداً . وزد على ذلك بأنه لا توجد جهة ، في الهند ، حافظت بشكل افضل ، وبكفاءة اكثر في التطابق مع تجارب (الأنوار الصوفية) عما فعلته الجاينية . فالعالم الوسيط يناسب لدرجة كبيرة ماجرى وصفه بالكوزمولوجيات الهندية والبوذية[٢٢] . والعالم الأعلى ، الواقع في اعلى قمة جبل ميرو mont mor ينقسم الى خمسة اقاليم طباقاً ، متناسبة مع اضلاع العفريت البشري ، مع عنقه ، ومع ذقنه ، ومع الفتحات الخمسة في وجهه ، ومع جديلة شعره . وان كل اقليم يلائم بدوره عدة «فراديس» مسكونة بمختلف انواع الآلهة . وبالنسبة للإقليم الخامس ، قمة العالم وجديلة العفريت . فهو مخصص للأرواح المتحررة . وهذا ما يعيد إلى القول بأن الناجي لا يفارق الكوزموس (كما هي الحالة «للنيرفانا» البوذية) وانما طبقاته المتعددة فقط . وإن الروح المتحررة تتمتع بطوباوية يعجز المرء عن وصفها وهي خالدة في السيدها ـ سكاترا «حقل الكاملين» برفقة أمثالهم ، ولكن داخل عالم بهيئة بشرية .

وفيما سلف ومن أيام بهادراباهوفإن الجاينية تدخلت في البنغال وأوريسا . وفيما بعد فإن جماعة الديغامبارا أقاموا في دِكّان وجماعة السفيتامبارا توجهوا صوب

الغرب ، مستقرين بخاصة في غوجيرا . وإن تقاليد الكنيستين ارتضتا لأن تذكرا من بين المهتدين أو المناصرين عدداً كبيراً من الملوك والأمراء . ومثل بقية الأديان الهندية الأخرى ، فإن الجاينية تحملت اضطهادات من المسلمين (نهب ، تخريب معابد ، منع العري) واصبح هذا الدريئة اضافة لذلك الهجوم المعاكس ضد الهندوسية . ومنذ القرن ١٢ اصبح انحدارها لا يمكن التغلب عليه . وخلافاً للبوذية ، لم تصبح الجاينية ديناً شعبياً في الهند سائداً ، ولم تنجح في اختراق الحدود للأقاليم الشمالية ـ ولكن وفي حين ان الهندوسية قد تلاشت تماما من بلاد منشئها، فإن الجماعة الجاينية ماتزال تعد اليوم ١,٥٠٠,٠٠٠ عضو وبسبب حالتهم الاجتماعية وتميزهم الثقافي فإن تأثيرها كان ملحوظاً .

حواشي الفصل الثالث والعشرون

١ ـ ساريبوترا مات قبل المبارك بستة اشهر فقط وقد كان مارس تأثيراً كبيراً على البهيكهو : وكان قد تجاوزهم جيعهم (بالحكمة) والتهذيب ـ بعض المدارس كانت تعتبره القديس الأكثر احتراما بعد البوذا .
٢ ـ هذا المجمع الثاني هو آخر حدث تاريخي مقرر في مختلف كتب التلامذة . ومنذئذ فإن ما يأتي من التاريخ البوذي سيروى من جهات اخرى وبطريقة جزئية وغير مثبتة في المؤلفات المتأخرة .
٣ ـ بصورة غير مباشرة ، وهذا هو اثبات ايضاً على ان البوذية كانت قبلت عدداً من الافكار الاساسية من الفكر الهندي التقليدي .
٤ ـ صحيح ان كل مدرسة وكل مذهب كان اعتبر نفسه ملزما باحياء مدرسة الخاصة . ولكن هذا التقدم بالمنهجية كان قد انطلق وتغذى بابداعات فلسفية رسمية .
٥ ـ لا يجوز اعتباره كمظهر او عنصر (شعبي) لأنه بخاصة مستوحى من قبل ممثلي الثقافة الهندية التقليدية .
٦ ـ ان التقليد الاكثر قدما يعني انه قبل ارثيرفانا ، كان البوذا وافق على كل الاعطيات والمدائح التي يجب تقديمها له من المؤمنين عبر قرون .
٧ ـ جزء فقط حفظ في ترجمات تيبيتية وصينية .
٨ ـ يمكن مضاعفة النصوص ـ (دهامرخادا تقول « يلتجيء في البوذا ، سيذهب لجماعة الآلهة) ص ٢٨٨
٩ ـ اشنازا كازريكا ١٥ ـ ٢٩٣ ترجمة E. Conze .البوذية ص ١٢٦
١٠ ـ ثارجا دشيكا ذكرها كونز ص ١٢٨ .
١١ ـ كما انه في الهينايانا احيانا يبدو يبدو البهيكهو مرتبكين بعض تجاوزات الورع الشعبي .

١٢ ـ من غير المتفق عليه حول معنى هذا الاسم : « سيد (ايزفارا) الذي ينظر من العلى » او الذي ينظر بعطف نحو الأسفل .
١٣ ـ شرجه ديميفيل ص ١١٦ ترجمة البالي palieعولجت مجددا تحت تأثيرا المانوية السنغالية وقدمت تفسيرات .
١٤ ـ افاتماشكا سوترا ذكرها كونز ص ١٥٤ .
١٥ ـ بودهي كاريافاترا ٣ ـ ٦ ترجمة Find .
١٦ ـ الفصل ٢٥ من مولامادهي ماكاكاريكا . مكرس بكامله لتحليل النيرفانا انظر فريدريك سترنغ ص ٧٤ .
١٧ ـ سترنغ ص ٩٦ .
١٨ ـ ترجمة صينية للسيكساناندا ، ذكرها إ . لاموت . تعليم فيمال كيرني ص ٣٦ .
١٩ ـ الى جانب الرسائل الفلسفية ، نوجد ملاحم (معتمدة تبعا للملاحم الهندوسية والبورناس) وسيرذاتية خرافية للترثاماكاراس ، وحتى حكايات ، وقصص ودراما ، والأصل ان لا يقال شيء عن الأدب التعليمي والعلمي . باستثناء الأدب الانشاء الذي هو ايضا غير مستشفى من تعليمية مملة ، فالانتاج الجهايني الضخم مميز بالرتابة والندب .
٢٠ ـ هذا النموذج من المحافظة مميز للهند التقليدية ، ولا يشكل بذاته فكاسلبيا . ولكن الكتابات الجانبية تتفرد بنسيجها الثقيل والمجدي .
٢١ ـ من الراجح ان بوذا كان قد رجع الى السايدا فاذا عندما هاجم بعض المتدينين الذين كانوا ينسحبون من كل سؤال يطرح عليهم .
٢٢ ـ يوجد شكل القرص ، اله في وسط جبل ميرو حيث تنفرز قاعدته في اقليم جهنم . وحول هذا الجيل الكوني توضع ١٥ قارة متركزة تسمى جزر ديفيا مفصولة بمحيطات دائرية . والقارة المركزية جامبو دفيسبا مقسمة الى سبعة مناطق مجتازة بسلاسل من الجبال ويعيش البشر في الاقليم الشمالي فقط (الهند) والجدر القارية الاخرى تشكل (ارض السرور) لأن السكانلا يعملون ليعيشيوا ، وان الاقامة للالهة كوكبية .

الفصل الرابع والعشرون

التوليفة الهندوسية : الماهابهاراتا والبهاجافا دجيتا

١٩١ ـ معركة الأيام الثمانية

إن الماهابهاراتا بأبياتها التسعين الفا ٩٠,٠٠٠ هي أطول ملحمة في الأدب العالمي . وما نقل إلينا منها ، النص المستجمع لبعض التنقيحات وعدد كبير من النصوص المحرفة ، وهذه الأخيرة هي بخاصة في الاقسام «الموسوعية» [انشودات ١٢ و ١٣] . وسيكون من العبث ، مع ذلك الاعتقاد بإمكانية اعادة تكوين «الشكل الأول» للقصيدة . أما بالنسبة للتاريخ «فإن الإلمام به لا معنى له بالنسبة للملحمة» [ب . رينو] . ويفترض أن القصيدة الملحمية قد اكتملت فيما سلف مابين القرن السابع والقرن السادس قبل عصرنا ، وأخذت شكلها الحالي مابين القرن الرابع ق.م والقرن الرابع ب.م [وينترنيتز] .

إن النغمة الأساسية هي النزاع بين خطي النسب للبهاراتيد : المتحدرين من الكورو Kuru (الـ ١٠٠ كورافا) والمتحدرين من الباندو pandu (الخمسة باندافا) . فدوريو دهانا Duryoudhana ، بكر الكورافا ، ابن الملك الأعمى دهرتاراسترا ، كان يتآكله غضب شيطاني نحو أعمامه ، وهو في الواقع تجسيد للشيطان كالي ، أي الشيطان من العصر الأكثر سوءاً للعالم . وإن النبدافا الخمسة ـ أي يودهيثيرا ، وأرجونا ، وبهيما ، وناكولا دساهاديفا ـ هم ابناء باندو ، الأخ التالي لـ دهرتاراسترا . وبالفعل ، إنهم ابناء الآلهة دهارما ، وفايو ، واندرا وأل أسفين الاثنين ، وسنقوّم فيما بعد دلالة هذه القرابة الالهية . عند موت باندو ، أصبح دهرتاراسترا ملكاً ، بانتظار ان يصبح يودهيثيرا في سن يؤهله لاعتلاء السلطة . ولكن دوريودهارما لم يرض ، ومن بين الأحابيل التي نصبها لابناء عمه ، كان اخطرها حريق بيت من خشب كان اقنعهم بسكناه . ولكن البندافا نجوا بواسطة ممر تحت الأرض ، ومع أمهم ، التجأوا متنكرين في الغابة . ومتابعين عدداً من المغامرات . وقد نجح ارجونا ، متنكراً ببراهمان بالحصول على الزواج من الأميرة دروبادي ، المجسدة للربة سري sri واصطحبها للدير الذي يقيمون فيه في الغابة . وبدون تبصر من دروبادي ومعتقدة أن أرجونا لم يحمل معه سوى الطعام الذي جمعه من الصدقة ، هتفت الأم : «تمتعوا بها جميعكم» . وهكذا أصبحت الصبية زوجة مشتركة للأخوة الخمسة .

إن الملك الأعمى دهراسترا ، وقد علم بأن البندافا لم يهلكوا في الحريق ، قرر أن يترك لهم نصف المملكة . فأنشأوا لأنفسهم عاصمة اندرا براستها ، حيث اجتمعوا فيها مع ابن عمهم كريشنا krishna ، رئيس قبيلة پادفا . فدعا دوريودهانا يودهيثيرا إلى مباراة في طاولة الزهر . ولأن حجرا كان مغشوشاً ، اضاع يودهيثيرا امواله تباعاً ، عرشه ، واخوته ، وزوجتهم . فأبطل الملك المباراة وأعاد الأموال للبندافا . إلا أنه بعد وقت قليل سمح بمباراة ثانية بالطاولة ، وتم الاتفاق على ان المغلوبين سيعيشون اثني عشر عاما في الغابة ، والسنة الثالثة عشر في التنكر . وقد لعب يودهيثيرا ، وخسر مجددا فنفى نفسه مع اخوته ودروبادي . والنشيد الثالث فانا بارفان («كتاب الغابة») الذي هو بأبياته من الشعر المؤلفة من

بيتين متكاملين distique والذي يشتمل على ١٧,٥٠٠ ديستيك منها ، هو النشيد الأطول والأكثر غنى بالمشاهد الادبية : يروي النساك للبندافا القصص التاريخية المأساوية لنالا وداهايانتي ، وسفيتري وراما ، وسيتا . ويثير النشيد التالي مغامرات السنة الثالثة عشرة ، التي نجح المنفيون باجتيازها دون ان يعرفهم احد . وفي النشيد الخامس («كتاب الاستعدادات») يظهر ان الحرب لا مفر منها . فيرسل جماعة البندافا كريشنا كسفير : طالبوا باعادة بعث مملكتهم ، وعلى الأقل ، لخمسة قرى ، ولكن دوريودهانا يرفض . وتجمعت جيوش لا حصر لها من هنا وهنالك وتفجرت الحرب .

ويضم النشيد السادس اشهر مشهد من الملحمة : إنه الـ بهاغافادجيتا ، والذي سيطالعنا فيما بعد . وفي الاناشيد التالية ، رويت بعناء مختلف فترات المعركة التي جاشت خلال ثمانية عشر يوماً . لقد غطيت الأرض بالقتلى والجرحى . وسقط رؤساء الكورو kuru واحداً بعد الآخر وآخرهم دوررودهانا . وقد نجا ثلاث كورافافا فقط ، من بينهم اسفاتهامان الذي سيأتي الاله شيفا ليدخل فيه . ومع قبيلة من الشياطين انتجهم شيفا ، تسلل اسفاتهامان ليلا في معسكر الباندافا النائمين وذبحهم بالجملة ، باستثناء خمسة اشقاء كانوا غائبين . وقد اراد يودهيشيرا الذي احزنه كثيراً العدد الكبير من القتلى ، التنازل عن العرش والعيش في تنسك ؛ ولكن اشقاءه الذين شد. كريشنا ، وحكماء كثيرون أزرهم ، نجحوا في ثنيه عن قراره و احتفلوا مزهوين بتضحية الحصان [الاسفاميدها . ر فقرة ٧٣ ع] . وبعد أن تعاون لمدة خمسة عشر عاما مع ابن أخيه دهرتاراسترا آوى مع بعض رفاقه الى الغابة . وبعد فترة قصيرة من الزمن ماتوا في حريق اثارته نارهم المقدسة الخاصة . وبعد ستة وثلاثين عاماً من المعركة الكبرى ، هلك كريشنا وشعبه بطريقة غريبة : تقاتلوا مع بعضهم مستعملين قصبات تحولت سحريا الى دبابيس فانهارت العاصمة وتلاشت في المحيط . ان يودهستهيرا وقد شعر بالشيخوخة ترك السلطة لابن أخيه الصغير باركسيت (الذي كان قد ولد ميتا واعاد كريشنا له الحياة) ، وتوجه مع اشقائه ، ودروبادي وكلب ، نحو الهملايا . وسقط رفاقه الواحد بعد الآخر على الطريق . ووحده يودهيسيرا مع كلبه (الذي

هو في الحقيقة والده الخاص ، دهارما) اللذين قاوما حتى الرمق الأخير . وتنتهي الملحمة مع وصف مختصر لنزول يودهيسرا الى الجحيم ، متبوعاً بصعوده للسماء .

١٩٢ ـ حرب اخروية ونهاية العالم

إن هذه الحرب الشنيعة كانت قررت من قبل براهما ، بهدف اراحة الأرض من سكانها الذين لم يتوقفوا عن التكاثر . وطلب براهما من عدد من الآلهة والشياطين لأن يتجسدوا بقصد تفجير حرب مرعبة للاستئصال . وقد وصفت الـ ماهابهاراتا نهاية العالم (برالايا) ، متبوعا بانبثاق عالم جديد تحت حكم يودهيستير او باريكسيت[1] . وتقدم القصيدة بنية اخروية : معركة جبارة بين قوى «الخير» وقوى «الشر» (مشابهة للمعارك بين ديفارآزوررالا(؛ تدمير العلاقات الكونية بالنار ، وبالماء ، واعادة انبثاق عالم جديد وطاهر ، مرموز اليه بالبعث الخارق للباركسيت parixsit* . وفي معنى آخر ، يمكن الكلام عن اعادة تقييم ضخم للسيناريوهات القديمة الاسطورية ـ الطقوسية للعام الجديد . مع ذلك ، ففي هذه المرة لا يتعلق ابداً بنهاية «سنة» ، وانما بنتيجة عصر كوني .

إن النظرية الدورية تصبح شعبية بدءا من البوراناس . وهذا لا يعني أن الاسطورة الاخروية هي بالضرورة ابداع هندوسي ، ان هذا المفهوم موغل في قدمه ويتمتع بانتشار بارز ؛ وماهو اكثر من ذلك ، أن اساطير مشابهة تأكدت في ايران واسكاندينافيا . وحسب التقليد الزرادشتي ، في نهاية تاريخ اوهرامزد ، سيقبض أهريمان الأميزياسبينتا الستة وكل منها تقبض في يدها على شيطان قديم ، وستصبح هذه التجسدات النهائية للشر محصورة في الظلمات (ف ٢١٦ع) . وكما رأينا (ف ١٧٧ع) ، نصادف اخروية مماثلة لدى الجرمن القدامى : اثناء المعركة النهائية (راغناروك) ، سيكلف كل اله بكائن شيطاني أو بغول ، مع الفارق بأن الآلهة وخصومهم سيقتلون بعضهم بعضا حتى الأخير ، وستحرق الأرض

* ر . قصة الغارقليط في الديانة المسيحية . الذي سيأتي ذكره .

وتغوص اخيراً في البحر . ومع ذلك ، فإن الأرض ستعاود انبثاقها من الكتلة المائية وتنشأ بشرية جديدة ستتمتع بوجود سعيد تحت حكم الاله الشاب بالدر Baldr .

لقد حلل كل من ستيج ديكاندر وجورج دوميزيل بوضوح المشابهات التكوينية بين هذه الحروب الثلاثة الأخروية . وعليه يمكن الاستنتاج بأن اسطورة نهاية العالم كانت معروفة من قبل الهندو- اوروبيين . وبالتأكيد ان التباعدات ملموسة ، ولكنها يمكن لها ان تفسر بالتوجهات المختلفة نحو الشرق ، والمميزةللديانات الثلاثة الهندو- اوروبية . صحيح ان الاسطورة الأخروية لم تؤكد في العصر القيدي . ولكن هذا لا يثبت مع ذلك انها لم تكن موجودة(٢) . وحسب عبارة دوميزيل [أسطورة وملحمة ص ٢١٨] ، ان المهامابهاراتا هي «النقل الملحمي لأزمة اخروية» ، ولما تسميه الميتولوجيا الهندوية النهاية ليوجا . وعلى ذلك فإن المهابهاراتا تحتوي بعض العناصر الفيدية لابل الماقبل الفيدية(٣) . ومسموح اذن احتساب الاسطورة عن نهاية عصر من بين هذه التقاليد القديمة الآرية ، واكثر من هذا لقد كانت معروفة من قبل الايرانيين .

ولكنه يجب أن يضاف مباشرة ان القصيدة تمثل تركيباً عظيماً ، يبرز اكثر غنى من التقليد الأخروي الهندو- اوروبي الذي يمدده . وان الماهابهارتا بوصفها لفناء الكتل البشرية الغير محدودة وللكوارث الأرضية التي ستتلو ذلك الصورة المتألقة للبوراناس . واكثر اهمية هو التطورات والتجديدات اللاهوتية . وان الفكرة المسيحانية للأفاترا معروفة بقوة وبحدة . ففي الظهور الشهير من الـ بهاغافادجيتا [٩ - ١٢] يظهر كريشنا لأرجوانا ، كأنه تجسيد لفيشنو . وكما لاحظنا(٤) فإن هذا الظهور يشكل كذلك (برالايا) تسبق «نهاية العالم» الموصوفة في الأناشيد الأخيرة من الملحمة . وعليه فإن اظهار «كريشنا» فيشنو كسيد للبرالايا أمر كبير بنتائجه اللاهوتية والماورائية . وفي الواقع ، خلف الاحداث المأساوية التي تشكل اللحمة للمهابهاراتا تفسح المجال لحل رموز التعارض والتكامل (فيشنو)-(كريشنا) وشيفا . ان الوظيفة «التدميرية» لهذا الأخير متوازية عكسياً بالدور «الخالق» لفيشنو (-كريشنا) . فعندما يكون واحد من هذه الآلهة - او واحد من ممثليهم - حاضراً

في عملية ، فإن الآخر يكون غائباً . ولكن فيشنو (كريشنا) هو ، ايضا الفاعل «للتدميرات» و «الانبعاثات» . وزيادة على ذلك ، فإن الملحمة والبورانا تبرزان المظهر السلبي لهذا الاله(٥) .

ونعيد القول إن فيشنو ، بصفته كائنا اسمى ، هو الحقيقة الكلية ، وبالنتيجة فهو يحكم الخليقة كما يحكم دمار العوالم . انه خارج الخير والشر ، كما هو من جهة أخرى كل الآلهة . لأن «الفضيلة والإثم يوجدان ـ أيها الملك ، بين البشر حصراً» [١٢ ـ ٢٣٨ ـ ٢٨] . وقد كانت الفكرة مألوفة منذ عصر الاوبانيشاد بين اليوجيين والمتأملين . ولكن الماهابهاراتا ـ وبدقة اكثر ـ وفي المكان الأول منها الكافادجيتا ـ جعلتها مقبولة ، وبالتالي شعبية في كافة المستويات من المجتمع الهندي . بتمجيد فيشنو تماما ككائن اسمى ، تشير القصيدة إلى تكاملية شيفا وفيشنو(٦) . ومن هذه الوجهة النظر ، فإن المهابهاراتا يمكن لها ان تعتبر كحجر الزاوية للهندوسية . وفي الواقع ، ان هذين الالهين بالارتباط مع الربة الكبرى (سهاكتي) ، كالي ـ دورجا) سادا الهندوسية منذ العصور الأولى المسيحية حتى الآن .

إن تكاملية شيفا ـ فيشنو تتفق بنوع ما مع تكاملية الوظائف المتعارضة المميزة للآلهة الكبرى (خلاقة/ مدمرة) الخ . . وفهم هذه البنية للألوهية يعادل كشفا ، ويشكل كذلك المثال الواجب اتباعه للحصول على الخلاص . وفي الواقع إن الماهابهارتا تصف وتمجد ، من جهة الصراع بين الخير والشر دهارماو ، أدهارما ، الصراع الذي يكتسب الثقل لمعيار شامل ، لأنه يحكم الحياة الكونية ، والمجتمع والوجود الشخصي ، ولكن القصيدة من جهة اخرى تذكر بأن الحقيقة الكلية ـ البراهمان ـ اثمان للأوبانيشاد ـ هي خارج الزوج دهارما/أدهارما وكل زوج آخر من الاضداد . وبعبارة اخرى ، فإن الخلاص يقتضي الفهم للعلاقات بين «الطريقتين» من الحقيقة : الحقيقة المباشرة ، أي المشروطة تاريخياً ، والحقيقة الكلية . وإن التوحيدية الاوبانيشادية قد انكرت صحة الحقيقة المباشرة . والماهابهارتا وبخاصة في اجزائها التعليمية ، تطرح نظرية اكثر اتساعاً : من جهة يعاد فيها تأكيد الوحدانية الاوبانيشادية ، المصبوغة بتجارب الوهية (فيشنوية) ؛

ومن جهة أخرى ، يقبل كل حل للخلاص ليس معارضاً بشكل واضح للتقليد المختص بالكتابة المقدسة .

١٩٣ ـ اظهار كريشنا

للنظرة الأولى ، يمكن ان يظهر متناقضاً أن العمل الأدبي الذي يصور حربا استئصالية مرعبة والنهاية ليوجا ، يشكل في ذات الوقت النموذج المثالي لكل تركيب روحاني منجز بالهندوسية . إن الاتجاه للتوفيق بين الاضداد يميز الفكر الديني الهندي منذ عصر البراهمانا ، ولكنه في المهابهاراتا جرى قياس أهمية هذه النتائج . وفي الأساس يمكن القول ان القصيدة : ١) تعلم تكافؤ الفيدانتا (أي مبدأ الاوبانيشادات) ، والسمكهيا واليوجا ٢) تقيم المقارنة «للطرائق» الثلاثة مارجا ممثلة بالنشاط الطقوسي ، والمعرفة الميتافيزيقية وممارسة اليوجا ، ٣) تبذل مافي وسعها لتثبيت طريقة للوجود في الزمان ، وبعبارة أخرى تقوّم تاريخية الشرط البشري ، ٤) تعلن سمو «طريقة» رابعة ، انقاذية : الايمان بفيشنو (ـكريشنا) .

إن القصيدة تظهر السمكهيا واليوجا في مراحلها الما قبل المنهجية . فالأول يعني «المعرفة الحقيقية» (تاتفا جنانا) أو «معرفة الذات» أتمابودها) ، ومن هذه الوجهة النظر ، فإن السمكهيا تحدد التفكر الأوبانيشادي . وان اليوجا تشير الى كل نشاط يقود الذات الى براهمان ، في ذات الوقت انها تمنح مالايحصى من «القوة» . وعلى الأغلب يعادل هذا النشاط التنسك . فعبارة يوجا تعني أحياناً طريقة واحيانا قوة أو تأمل[٨] . وان الدرسانا الاثنين معتبرين كما لو أنهما متكافئين . وحسب البهاجافادجيتا ، «وحدها الأرواح المحدودة تعارض سمكهيا ويوجا ، ولكن ليس الحكماء (بانديتاه) . والذي فعلا هو ان معلـم الواحــد، مضمون لثمرة الاثنين . فسمخيا ويوجا ليسا سوى واحد» [٥ ـ ٤ ـ ٥] .

كذلك فإن التطابق للطرق الانقاذية الثلاثة في الـ (بهاغافادجيتا) قد برهن عليها حصراً . فهذا المشهد الشهير يبدأ «بأزمة الوجود» لأرجونا وينتهي بكشف

نموذجي متعلق بالشرط الانساني و «طرق» الخلاص . إن البصير المكتئب بسبب من الحرب ، التي سيكون فيها ملزما بقتل اصدقائه وابناء عمه الخاصين ، كريشنا يكشف لأرجونا الوسائل للقيام بواجبه من كشاترا بدون ان يدع نفسه ليقيد بالكارما . وبالأكثر ، فإن كشوفات كريشنا تحمل على : ١) بنية العالم ٢) قوالب الكائن ٣) الطرق التي تتبع للحصول على الخلاص النهائي . ولكن كريشنا يبذل العناية ليضيف ان هذا «اليوجا القديم» [٦ - ٣] ، الذي هو «السر الأعظم» ، ليس تجديداً ، فقد علمه سابقا إلى فيفازفا ، الذي كشفه بعدئذ لمانو ، ومانو نقله الى ايكشافاكا [٤ - ١] .

«إنه بهذا التقليد عُرِف الملوك - الريشي ؛ ولكنه ، مع الزمن اختفى هذا اليوجا هنا» [٦ - ٣] . وفي كل مرة يتأرجح النظام (دهارما) يظهر كريشنا نفسه بذاته [٧ - ٦] ، أي يتكشف بطريقة معينة و «بفترة تاريخية» معينة هذه الحكمة الغير موقوته . (وهذا هو مبدأ الافاترا) . وبعبارات اخرى ، اذا مثلث البهاغافا دجيتا تاريخيا كتركيب روحي جديد ، فإنها لم تظهر «جديدة» سوى في عيوننا لكون هذه العيون مشروطة بالزمن وبالتاريخ[٩] .

ويمكننا القول بأن جوهر المذهب المظهر من قبل كريشنا يلخص في هذه العبارة الموجزة : افهمني واقتدي بي : لأن كل ما يكشفه حول كينونته الخاصة وحول «سلوكه» في الكون وفي التاريخ ، يجب ان يخدم بطريقة مثالية لأرجونا : هذا يجد المعنى لحياته التاريخية وبالاتحاد معه يحصل على الخلاص عارفا ماهو كريشنا ومايفعله . ومن جهة أخرى ، فإن كريشنا ذاته يصر على القمة النموذجية والانقاذية من نوع الهي : «كل ما فعله الرئيس ، يحذو البشر الآخرون حذوه : والقاعدة التي يقررها ، يتبعها العالم» [٣ - ٢١] . وهو يضيف ، بالرجوع إليه ذاته : «في العوالم الثلاث ، لا يوجد شيء سوى ما أنا ملزم باجرائه [. . . .] ومع ذلك ابقى أعمل» [٣ - ٢٣] . ويسرع كريشنا بكشف الدلالة العميقة لهذا النشاط: «اذا لم اكن دائما في عمل بدون تعب ، في كل الأمكنة ، فإن البشر سيتبعون مثالي . والعوالم تنقطع عن الوجود اذا لم اكمل عملي ؛ سأكون السبب للاختلاط الشامل ولنهاية الخلائق» [٣ - ٢٣ - ٢٤] .

وأرجونا يترتب عليه بالنتيجة ان يقتدي بسلوك كريشنا : أي ، في الدرجة الأولى ، يستمر في العمل ، كي لا يؤدي بسلبيته «للاختلاط الشامل» . الا انه لكي يستطيع العمل «على طريقة كريشنا» يتوجب عليه الفهم بشكل جيد لجوهر الألوهية باكثر ماهو لطرق مظاهرها . ومن أجل هذا ان كريشنا ينكشف : بمعرفة الله ، يعلم الانسان في ذات الوقت النمبوذج الواجب الاتباع . وعليه ، يبدأ كريشنا بكشف ان الكائن واللاكائن يستقران فيه وان كل الخليقة - من الآلهة حتى المعادن - تنحدر منه [٤ - ٤- ٦ ، ٩ - ٤ - ٥ أ] . انه باستمرار يخلق العالم بواسطة مادته براكرتيته son prakrti ، ولكن هذه الفاعلية الغير منقطعة لا تعوقه ابدا : انه ليس سوى المراقب لخليقته الخاصة [٩٠ - ١٠٨] . وعليه ، فإن هذا التقييم ، فعلا ، بمظهر متناقض ، من نشاط (الكارمان) ، الذي يشكل الدرس الرئيسي المعلن من قبل كريشنا : اقتداء بالاله الذي يخلق ويدعم العالم بدون المشاركة فيه ، سيتعلم الانسان ليعمل ذات الشيء . «لا يكفي ابداً الامتناع عن العمل للتحرر من الفعل : عدم العمل وحده لا يقود مطلقاً الى الكمال» لأن «كل واحد محكوم بالعمل» [٣ - ٤ - ٥] . حتى ولو امتنع عن ان يعمل في المعنى الضيق للكلمة ، فإن نشاط اللاشعور المثار من قبل الغونات les guna [٣ - ٥] يستمر في وصله بالعالم وبادخاله في الدورة الكارمية .

انه محكوم بالعمل - لأن «العمل اسمى من اللاعمل» [٣ - ٨] ، فعلى الانسان اكمال الأعمال المرسومة ، وبعبارات اخرى «الواجبات» . فالتصرفات التي تتحكم به ، مفروضة عليه بفضل مركزه الخاص . «ويفضل اتمام واجبه الخاص ولو كان بشكل غير كامل ، على اكمال واجب الغير ولو بشكل كامل» [بارادهارما ٣ - ٣٥] . وهذه النشاطات المميزة مشروطة بالجونات les guna [١١ - ١٠٠ - ٨] . ويعيد كريشنا ويكرر بمناسبات عدة ان الجونات تنبثق عنه ، ولكنها لا تقيده : «لا ولو أنا فيهم ؛ فإنهم هم الذين فيّ» [٧ - ١٢] . والدرس الذي ينطلق من هنا هو التالي : تماما بقبول «الوضعية التاريخية ، المبدعة بالجونات (ووجوب قبولها لأن الجونات ، هي ايضا مشتقة من كريشنا) وبالعمل تبعاً للضرورات لهذه «الوضعية» - على الانسان ان يرفض لذاته تقييم اعماله ، وبالنتيجة ، اضفاء قيمة مطلقة على شرطه الخاص .

١٩٤ ـ «تنازل الانسان عن ثمرات أعماله

في هذا المعنى يمكن القول ان البهاغافا وجيتا تجهد نفسها «لانقاذ» كل الاعمال البشرية و «تبرير» كل عمل مدنس : لأنه بالواقع ذاته أنه لا يتمتع بثمراتها ، فالإنســان يحول أعماله لتضحيات ، أي بآليات عبر اشخاص يساهمون في دعم النظام الكوني . وعليه ، فإن كريشنا يذكّر ، بأن الأفعال وحدها التي لها هدف التضحية لا تقيد أبداً . [٣ ـ ٩] . وقد خلق براجاباتي الأضحية ليستطيع الكون ان يظهر وليستطيع البشر ان يعيشوا وينتشروا [٣ ـ ١٠] ولكن كريشنا يكشف ان الانسان يستطيع المساهمة ، هو ايضا ، بكمال العمل الالهي : ليس بالأضحيات فحسب (التي تشكل الطقس الفيدي) ، بل بكل أفعاله ، مهما كانت طبيعتها . فعندما يضحي مختلف النساك واليوجيين بنشاطاتهم النفس ـ فيزيولوجية فإنهم ينفصلون عن هذه النشاطات ، وترد إليهم قيمة عبر الذاتية [٦ ـ ٢٥] ، وباجراء هذا «كلها لها المعنى الحقيقي للأضحية ، وبالأضحية تمحي قذاراتها» [٦ ـ ٣٠] .

إن هذه النقلة للنشاطات الغير مقدسة بطقوس تصبح ممكنة باليوجا . ويكشف كريشنا لأرجونا ان «إنسان العمل»(١٠) يمكن انقاذ نفسه ، وبعبارة اخرى ، ان يخلص نفسه من نتائج مساهمته بحياة العالم ، مع استمراره في العمل . ان الشيء الوحيد الذي يجب عليه ملاحظته هو هذا : يجب عليه ان ينفصل عن أعماله وعن نتائجها ، وبعبارة أخرى : «التنازل عن ثمار افعاله» (فالاترسنافيراجيا) والعمل بشكل لا شخصي ، بدون هوى ، ولا رغبة ، كما لو تعلق بتوكيل ، محل آخر . فاذا توافق بدقة مع هذه القاعدة ، فإن افعاله لن تزدرع بقدرات كامنة كرمية ، ولن تستعبده مطلقا بدورة كرمية . «فاللامبالي بثمرة العمل ، قانع دوما ، حر من كل ارتباط ، منشغل بما يمكن له ان يكون ، وفي الواقع لا يفعل شيئاً . . .» [٦ ـ ٢٠].

إن أكبر أصولية أل بهاجافادجيتا هي في اصرارها على هذه «يوجا العمل» التي تتحقق «بالتنازل عن ثمرة الأعمال» . وكذلك كان هذا هو الباعث الاساسي

لنجاحها دون سابقة في الهند . لأنه منذئذ سمح لكل انسان بأن يأمل بالخلاص ، بفضل فالاترزنا فيراجيا ، حتى انه ، لبواعث النظام المختلفة جداً ، سيكون ملزما بالاستمرار بالمشاركة في الحياة الاجتماعية ، للحصول على اسرة ، والاهتمامات ، ولاشغال وظائف ، وحتى لارتكاب اشياء «لا أخلاقية» (مثلما حصل لأرجونا ، الذي فرض عليه قتل خصومه في الحرب) . فإن يعمل بهدوء دون أن يتحرك برغبة «الحصول على الفائدة» ذلك هو تحصيل ثقافة ذاتية وصفاء تستطيع اليوجا وحدها ان تمنحه له . وكما قال كريشنا : «بالعمل دوما دون ضيق ، يبقى أمينا لليوجا» . فهذا التفسير لتقنية اليوجا هو متميز بجهد عظيم من تركيب البهاجافادجيتا ، التي ارادت التوفيق بين كل الالهامات : التنكسية ، والصوفية ، أو المكرسة للنشاط في العالم .

وزيادة على هذه اليوجا المقبولة لكل الناس ، والتي تتكون في التنازل عن كل «ثمرات الأعمال» . تعرض البهاغافادجيتا باختصار تقنية يوجية بكل معنى الكلمة محجوزة للتأملات [٤ - ١١] . يقرر كريشنا أن : «اليوجا هي اسمى من التنسك (ثابا)، أسمى حتى من العلم (جنانا)، أسمى من الاضحية [٤- ٤٦] . لكن التأمل اليوجي لا يدرك هدفه الكامل الا اذا تركز التلميذ في الاله : «الروح صافية وبدون خوف [. . . .] ، العقل ثابت وبدون انقطاع مفكر بي a moi ، يجب ان يطبق اليوجا متخذني هدفاً اسمى» [٤ - ١٤] . «إن من يراني في أي مكان ويرى كل شيء فيَّ ، هذا لن اتركه ابداً ، وابداً لن يتركني . إن من هو مثبت نفسه في الوحدة ، يعبدني ، أنا الذي اسكن في كل الكائنات ، هذا اليوجي يسكن في ، كيفما كانت طريقته في العيش» [٤ - ٣٠ - ٣١] .

إن هذا هو في آن واحد الظفر لتطبيقات اليوجا والتمجيد للورع الصوفي (بهاكتي) إلى مصاف «الطريق» الأسمى . واضافة لذلك فقد برز في البهاغافادجيتا مفهوم الرحمة منبئاً عن التطور الغزير الذي سيتخذه في الأدب الفيشنوي للقرون الوسطى . ولكن الدور الحاسم الذي كان له في انبثاق التوحيد لم يستنفد أبداً أهمية البهاغافادجيتا . هذا الكتاب الذي لا مثيل له ، هو مفتاح قبة الروحانية الهندية ، وهو قابل لأن يقيّم في نصوص متعددة . وبواقع لفتِه الانتباه

على تاريخ الانسان ، فإن الحل المقدم من قبل الجيتا Le Gita هو بالتأكيد الأكثر امكانية للفهم ، ويقتضي ان نضيف ، الأكثر ملاءمة بالنسبة للهند الحديثة التي سبق ادخالها في «دورة التاريخ» . ولأنها مترجمة بمصطلحات مألوفة للغربيين ، فإن المسألة المواجهة في الجيتا هي التاليـــة : كيف يحل الوضع المتناقض المنشأ بالعمل المزدوج من حيث وجود الانسان في الزمان من جهة ، منذور للتاريخ ، وإنه يعلم ، من جهة أخرى بأنه سيكون «مداناً» ، اذا ترك ليستنزف بالزمنية وبتاريخيته الخاصة ، والذي ، بالنتيجة ، يتوجب عليه بأي ثمن أن يجد ، في العالم ، طريقاً ينفذ على مستوى عبر تاريخي وغير موقوت ؟

وقد رأينا الحل المعروض من قبل كريشنا : عمل واجبه (سفادهارما : في الدنيا ، ولكن دون ان يدع نفسه تثار بالرغبة في ثمرات أعماله (فالاترسنا فيراجا) . وبما ان العالم برمته هو الخليقة ، لا بل التجلي ، لكريشنا (فيشنو) فإن العيش في الدنيا ، والمشاركة في تركيباتها ، لا يشكل «عملا سيئا» . (فالعمل السيء) هو بالاعتقاد ان الدنيا ، والزمن والتاريخ تتصرف بحقيقة خاصة ومستقلة ، أي انها لا توجد شيئاً آخر خارج لدنيا والزمنية . ان الفكرة هي ، بالتأكيد ، ماقبل - هندية ، ولكنها في البهاجافادجيتا ثالث أكثر تعبير متماسك لها .

١٩٥ - «افتراق» و «تجميع»

لكي نوضح الدور البارز للبهاجافادجيتا في التاريخ الديني للهند ، يجب تذكر الحلول المعروفة في السمكهيا واليوجا والبوذية . فبحسب هذه المدارس ان الخلاص يتطلب كشرط واجب ولازم sine qua non ، الانفصال عن العالم ، بل النفي للحياة البشرية بصفتها كطريقة للوجود في التاريخ[١١] . ان اكتشاف «الألم الشامل والدورة اللانهائية للتجسدات[١٢] . كان قد وجه البحث عن الخلاص في اتجاه محدد : فالخلاص كان يوجب تطبيق الرفض لاتباع غرائز الحياة والمصطلحات الاجتماعية . ان الانزواء في عزلة والممارسات التنسكية كانت تشكل الأوليات

التي لابد منها . ومن جهة اخرى فإن السلامة بالعرفان الروحي (غنوص) كانا مقارنا «بيقظة» و «انعتاق من العلاقات» وبرفع العصابة التي تغطي العينين الخ . [ف ٣٦ ع] . واجمالاً فإن السلامة كانت تفرض عملاً من الانقطاع : التحلل من العالم ، مكان المعاناة والسجن المخصص للعبيد .

إن انخفاض القيمة الدينية للعالم قد تسهل باضمحلال اله خالق . وبالنسبة للسمكهيا ـ يوجا إن العالم قد جاء ليكون بسبب «الغريزة الغائية» للمادة الأولية (براكرتي) . وبالنسبة للبوذا ، فإن المسألة لا تطرح نفسها كذلك ، لأن البوذا يعارض في وجود الاله . فانخفاض القيمة الدينية للعالم مصحوبة بتمجيد للروح أو الذات (اثمان) بيروشا) . وبالنسبة لبوذا نفسه ، مع أنه يرفض «الأتمان» بصفته جوهراً فرداً (موناد) مستقلاً وغير قابل للتخفيض ، فإن الخلاص سيتحصل بفضل جهد ذي طبيعة روحية .

ان التصليب durcinement المتمادي للثنائية ـ روح مادة ، يذكر بتطور الثنائية الدينية ، الواصلة للصيغة الايرانية للمبدأين المتضادين الممثلين للخير والشر . وكما لاحظنا في عدد من المناسبات وخلال فترة طويلة من الزمن فإن التعارض خير/ شر لم يكن سوى أمثلة متعددة من أزواج واقطاب ـ كونيات، اجتماعيات ، دينيات ـ ضمنت التناوب الايقاعي للحياة والعالم . واجمالاً ، فإن ماعزل في المبدأين المتضادين ، الخير والشر ، كان في البداية واحداً فقط بين العديد من الصيغ عبر بواسطتها عن المظاهر المتضادة وانما المتكاملة في الواقع : نهار/ ليل ، مذكر/ مؤنث ، حياة/ موت ، خصب/ جدب ، صحة/ مرض الخ[١٣] . وبعبارة اخرى ، ان الخير والشر يشكلان جزءاً من ذات الايقاع الكوني ، وبالتالي بشري ، صاغه الفكر الصيني في تناوب المبدأين يانغ وين (ث ١٣٠ ع) . ع) .

إن تخفيض الكون والحياة المذكور في الاوبانيشاد ، يعرف تعابيره الاكثر دقة في الانطولوجيات الثنائية وطرائق الفصل المعلنة بالسمكبها ـ يوجا والبوذية . ويمكن مقارنة عملية التصليب الذي يميز هذه المراحل للفكر الديني الهندي مع تصليب

الثنائية الايرانية لزرادشت في المانوية . وبالظاهر ، اعتبر زارادشت العالم «كخليط» من الروحي والمادي . والمؤمن ، بانجازه بدقة للأضحية فصل جوهره السماوي (مينون) عن المظهر المادي (جيتيه)[١٤] .

غير أنه بالنسبة لزرادشت وللمزدية ، كان العالم صنيعة أهورامزدا . وان العالم لم يفسد إلا بعد زمن متأخر ، بواسطة أهريمان . وعلى العكس فإن المانوية وبعض المذاهب الغنوصية كانت تصف الخليقة بقوى شيطانية . فالعالم ، والحياة والانسان ذاته هم حصيلة سلسلة من النشاطات المأساوية المحزنة أو الاجرامية . وفي آخر المطاف فإن هذه الخليقة البشعة والعبثية هي منذورة للتلاشي . وإن الخلاص هو النتيجة لجهد طويل وصعب من أجل فصل النفس عن المادة ، والنور عن الظلمات التي تأسره .

بالتأكيد ان الطرق المختلفة والتقنيات الهندية ، المتطلعة لخلاص الروح بسلسلة من الانقسامات اكثر فأكثر جذرية ، قد استمرت باستقطاب مهتدين جدد لزمن طويل بعد الباها غافادجيتا . لأن رفض الحياة وبخاصة الوجود المشروط بالبنى الاجتماعية ـ السياسية وبالتاريخ ، كان قد أصبح بعد الابانيشاد حلا محترما انقاذيا . ومع ذلك ، فإن الجيتا Gita كانت قد نجحت في ادخال كل الشرقيات الدينية الهندية في تركيب جريء ، كذلك الممارسات التنسكية المدخلة لترك الجماعة والالتزامات الاجتماعية . ولكن ، وبصورة خاصة ، انجزت الجيتا اعادة التقديس للكون ، والحياة الكلية وحتى الوجود التاريخي الانسان . وكما سنرى ، فإن فيشنو ـ كريشنا ليس الخالق وسيد العالم فحسب ، بل انه يعاود تقديس العالم برمته بوجوده .

من جهة اخرى ، فإن فيشنو يخرب دوما العالم دوريا في نهاية كل دورة كونية ، وبعبارة اخرى ان كل شيء مخلوق ومحكوم بالاله . وبالنتيجة فإن المظاهر السلبية للحياة الكونية ، والوجود الفردي والتاريخ تتلقى دلالة دينية . ان الانسان ليس الرهينة لسجن كوني ، خلق لوحده ، ولكن العالم هو عمل اله شخصي كلي القدرة . وماهو اكثر من ذلك ، انه لم يترك العالم بعد خلقه ، وانما استمر ماثلاً فيه وفعالاً على مختلف المستويات ، بدءاً من البنى المادية للكون حتى في شعور

الانسان . وان الكوارث الكونية والمصائب التاريخية ، لابل الدمار الدوري للعالم ، كله محكوم بفيشنو ـ كريشنا ، فهي اذن ظهورات . الأمر الذي يقرب اله البهاغافادجيتا من يهوه ، خالق العالم ، ورب التاريخ ، كما فهمه الانبياء (ف ١٢١ ع) . زد على ذلك ، ليس بدون فائدة اعادة التذكير بأنه كما في الكشف الموعود بالجيتا ، سيحصل اثناء حرب مرعبة فناء فإن الانبياء بشروا تحت «إرهاب التاريخ» ، وتحت التهديد بالتشتت الوشيك للشعب اليهودي .

ان الاتجاه لجمع الحقيقي الذي يميز الفكر الهندي ، يجد في البهاغادجفيتا واحدة من العبارات الأكثر اقناعا . وهذا التجميع المكتمل باشارة من الاله شخصيا يمنح قيمة دينية حتى لمظاهر غير منكرة «للشر»، و«الألم» ، كالحرب ، والخيانة ، أو الاغتيال[١٥] . ولكن هذا هو بصورة خاصة اعادة تقديس للحياة وللوجود البشري الذي له نتائج ملحوظة في التاريخ الديني للهند . إن التانتارية في القرون الأولى للمسيحية ستجهد بكل وضوح لتحويل الوظائف العضوية «تغذية غريزة جنسية الخ . .» الى تقديس . ومع ذلك ، فإن هذا النموذج من التقديس للجسم والحياة كان من الممكن الحصول عليه بتقنية يوجية معقدة جداً وصعبة . وفي الواقع ، فإن المبادهة التانترية كانت محفوظة للنخبة . في حين ان رسالة البها غافادجيتا كانت تتوجه لكل اصناف البشر وكانت تشجع كل الالهامات الدينية . ولقد كان هذا الامتياز لعبادة مقدمة لاله هو في آن واحد شخصي وغير شخصي وخالق ومدمر ، ومجسد ومتصاعد .

حواشي الفصل الرابع والعشرين

١ ـ جورج دوميزيل ـ أي في حكم يودهيشيرا اعادة بعث العالم (اساطير وملاحم) ص ٥٢) و Alf. Hiltebeitel ، متبعاً التفسير الهندي التقليدي ، يقدر ان «العصر الجديد» يبدأ مع حكم باركسيت (الماهابهاراتا والأخروية الهندية ص ١٠٢

٢ ـ «إن فكر الاناشيد القيدية مركز على الحاضر ، وعلى الخدمات الآنية للآلهية حيث ان المفاخر الماضية والاسطورية هي الضمانات : ان البعيد من المستقبل لا يهمهم» دوميزيل اساطير وملاهم ص ٢٢٢

٣ ـ stig wikankr لاحظ ان آباءالنبدار الخمسة ـ دهارما ـ فايو ، اندرا ، والتوأمين ، تناسب القائمة ثلاثية الوظائف للآلهة الفيدية ـ ميترا ـ فاردنا (=دهارما) ، اندرا (= فايوواندرا) والاسفين . هذه القائمة لا تعكس الوضع الديني للعصر حيث كانت القصيدة تحت (عصر محكوم بفيشنو وشيفا) ، ولا يعكس العصور الفيدية عندما كان سوما واجنى يتمتعان بدور هام ويتبع هذا ان الماهابهاراتا تقدم حالة عن اشياء قبل ـ فيدية وبعد فيدية ـ (دوميزيل) .

٤ ـ م ـ بياردو (دراسات للميتولوجيا الهندية) ص ٥٤

٥ ـ في البورانا les Puranas عادة يوصف فيشنو كمتوحش خطر ، غير مسؤول «مجنون» وعلى العكس ، شيفا يمثل في كثير من الحالات عن نجح في تهدئته . ر النصوص التي ذكرها دافيد كينسلي «عبر منظر زجاجي» ص ٢٧٦

٦ ـ من اجل مختلف المظاهر لهذه التكاملية j. Gonda ص ٨٧

٧ ـ بصورة خاصة في القطع (المزيفة من الملاحم) والتعاليم . (الكتاب ١٢ و ١٣ الخ)

٨ ـ هذه المنوعات في المعاني تناسب تشتت مورفولوجيا . . ر م . الياد ـ اليوجها ص ١٥٧

٩ ـ هذا ليس بدون تأثير على كل تفسير غربي للروحية الهندية : لأنه اذا كان لنا الحق باعادة تكوين التاريخ للمذاهب والتقنيات الهندية مع بذل الجهد لتدقيقها تحديداتها وتطورها وتحويراتها

المتابعة فانه لا يسوغ نسيان انه من وجهة نظر الهند ، ان النص التاريخي ـ الكشف ليس سوى مضمون محدود : (الظهور) او (الغياب) لصيغة انقاذية على مستوى التاريخ لا يستطيع ان يعلمنا شيئا بالنسبة لمصدره ـ وتبعاً للتقليد الهندي الذي اعيد التأكيد عليه بقوة بواسطة كريشنا ، فإن مختلف «الفترات التاريخية» التي هي في ذات الوقت فترات مصير كوني ـ لا تخلق المبدأ وانما تظهر فقط (صيغاً خاصة برسالة غير وقتية) .

. الياد . اليوجا .

١٠ ـ «رجل العمل» أي الذي لا يستطيع ان ينسحب من الحياة المدنية لأجل ان يصنع سلامه بواسطة المعرفة ، والتنسك أو الورع الصوفي .

١١ ـ بالتأكيد المحطات (الكلاسيكية) لدراسامات سمكهيا يوجا هلي سابقة بعدة قرون لتحريرالبها حادة جيتا ولكن اتجاهاتها المميزة ـ بصورة خاصة الطرائق المعلنة بهدف فصل الروح عن التجربة الفعلية ـ سبق تأكدها فى عصر الاوبانيشاد .

١٢ ـ نعيد إلى الذاكرة ان القدرية في التقمص جعلت عبثا الانتحار

١٣ ـ انظر الياد ـ العينين للأصول ص ٣٢٣

١٤ ـ ر . فقرة ١٠٤ع ـ لقد اتبعنا شرح ح ـ جنولي

١٥ ـ من بعض وجهات النظر يمكن القول ان البهاجافادجيتا تغطى مفهوما قديماً للحقيقة الكلية المتخيلة كتناوب لمبادىء متعارضة وانما متكاملة .



الفصل الخامس والعشرون

المحن اليهودية : من سفر الرؤيا إلى تمجيد التوراة

١٩٦ - بدايات الأخروية

إن الفصول ٤٠ - ٥٥ من كتاب اشعيا ، تشكل مؤلفا على حدة ، معروفاً تحت اسم (اشعيا الثاني) deutero-Isaüe وهذا النص حرر في السنوات الأخيرة من النفي البابلي ، من قبل كاتب مجهول ، ومن المرجح انه أعدم بعد محاكمة[اشعيا - ٥٢ - ٣ - ٥٣ - ١٢] . والرسالة تتناقض بقوة مع نبوءات اخرى ، بدءاً بتفاؤلها وايضاً بتفسيرها الجريء للتاريخ المعاصر . فالملك الكبير قورش أداة ليهوه [٤١ - ٤٢] ، يجيء لخراب بابل . وان اولئك الذين اعتقدوا بعظمة الآلهة البابلية سرعان ما يختلط الأمر عليهم لأن هذه الآلهة مجرد أصنام غير ذات حول وعاجزة [٤٠ : ١٩، ٤٤ : ١٢ - ٢٠ الخ) . ويهوه وحده هو الاله : «هكذا قال

الرب ملك اسرائيل وفاديه رب الجنود ، أنا الأول وأنا الآخر ولا اله غيري» [٤٤ ـ ٦ وكذلك ٤٥ ـ ٨ ـ ٢٢] «إنني إله لا مثيل له ، إله لا شبه له [٤٦ : ٩] .

انه يتعلق بتأكيد اكثر جذرية لوحدانية نموذجية ، نظراً لأن الوجود حتى لآلهة أخرى قد نفي . «استيقظي استيقظي ، البسي العزة ياذراع الرب ، استيقظي كما في أيام القدم واجيال الدهور ـ ألست انت التي قطعت رحاب Rahab وطعنت التنين . ألست انت التي جففت البحر ، ومياه الغمر العظيم فجعلت اعماق البحر طريقاً يعبر فيه المقتدون » [٥١ : ٩ ـ ١٠] . فالخليقة ، كما هو التاريخ ايضا ، هو اذن ، كالنفي والتحرير كذلك ، كلها من عمل يهوه . ان تحرير المنفيين قد فسر بخروج جديد . ولكنه يتعلق هذه المرة بعودة ظافرة : «لقد رسمت طريقاً في الصحراء ، وشعابا في القفر [٤٣ : ٢٩] «فإنكم بفرح تخرجون وبسلام ترشدون والجبال والتلال تندفع بالترنيم أمامكم ، وجميع اشجار الصحراء تصفق بالأيدي ـ عوض العليق ينبت السرو وعوض القراص ينبت الآس ويكون ذلك للرب اسما وآية أبدية لا تنقرض» [٥٥ ب ١٢ ـ ١٣] . [٤٠ ـ ٩ ـ ١١]

والخروج الجديد لن يكون سريعاً : «إنكم لا بعجلة تخرجون ولا كمن يهرب تسيرون بل امامكم يسير الرب ويجمعكم اله اسرائيل» [٥٢ : ١٢] . وبعض الشعوب الأخرى ستكون محصورة في الافتداء الذي يعد «توجهوا إلي ، فأخلصوا ياجميع أقاصي الأرض فإني أنا الله وليس آخر» [٤٥ : ٢٢] . ومع ذلك فإن اسرائيل سيتمتع دوماً بوضعه المتميز ، وهو أنه الشعب السائد .

إن سقوط اورشليم ، وانهيار مملكة جودا juda والنفي ، كانت جميعها الأحكام الالهية المعلنة من قبل كبار الانبياء ، والآن اكتمل العقاب ، ويهوه جدد الحلف . وفي هذه المرة سيكون الحلف ابديا [٥٥ : ٣] . «اسمعوا فتحيا نفوسكم ، فإني اعاهدكم عهداً ابدياً على مراحم داوود الأمينة» . والافتداء لا رجعة فيه [٤٥ : ١٧ : ٥ : ٦] لأنه «في سورة غضب حجبت وجهي عنك لحظة ، وبرأفة أبديَة ، أرحمك قال فاديك الرب» [٥٤ : ٨] . ان الاسرى المنفيين ، وقد حرروا من قبل الرب يهوه سيرجعون الى صهيون «فالذين افتداهم الرب

سيرجعون ويأتون الى صهيون بترنيم ، ويكون على رؤوسهم فرح أبدي ويثبتهم السرور والفرح وتنهزم عنهم الحسرة والتأوه» [٥١ - ١١] .

إن الحماس والتمجيد والرؤى الطوباوي المنبثقة من تأكيد السلامة الوشيكة الحصول ، لا مثيل لها في الأدب السابق ، فعوذيا ، وارميا ، وحزقيال ، كانوا أعلنوا ايمانهم بافتداء اسرائيل . غير أن كاتب اشعيا الثاني هو أول نبي يعد أخروية . فهو يعلن ، في الواقع ، عن فجر عهد جديد . وبين العصرين ـ ذلك الذي اكتمل ، والجديد الذي يجب له ان يبدأ من فترة لأخرى ـ يوجد فارق جذري . ولم يبشر الانبياء الآخرون بنهاية عصر مأساوي وقرب عصر آخر ، كامل وسعيد ، ولكن نهاية السلوك اللاأخلاقي لاسرائيل ، وتجديدها بعودة صادقة للرب . وعلى العكس ، فإن نبوءة إشعيا الثانية تمثل تدشين عصر جديد كتاريخ مأساوي ، متضمنا سلسلة من الأعمال المعجزة المحددة من قبل الرب : ١) خراب بابل من قبل يهوه [٤٣ : ١٤ - ١٥ الخ] وبواسطة اداته قورش [٤١ : ٢٤ الخ] أو بواسطة اسرائيل [٤١ : ١٤ - ١٦] ٢) فداء اسرائيل ، أي تحرير المنفيين [٢٩ : ٢٥ - ٢٦] ، واجتياز الصحراء [٥٥ : ١٢ - ١٣] والوصول الى القدس [٤٠ : ٩ - ١١] وتجميع كل أولئك الذين كانوا مشتتين في العالم [٤١ : ٨ - ٩] ورجوع يهوه لصهيون [٤٠ : ٩ - ١١] ٤) تحول البلاد بواسطة اعادة البناء [٤٤ : ٢٦] وتعدد الجماعات وتكاثرها [٤٤ : ١ـ٥] لا بل وحتى بتغيرات على اسلوب فردوسي [٥١ : ٣] ٥) اهتداء الأمم بيهوه ورفضها لآلهتها [٥١ : ٤ـ٥]الخ .[1] وهذا السيناريو الأخروي سيعاد أخذه وتطويره من قبل الأنبياء المتأخرين (ف ١٩٧ع) . ولكن أحداً منهم لم ينجح في مساواة القدرة الرؤية والعمق الروحاني لاشعيا الثاني .

ثمة اربعة قصائد مسماة اغاني الخادم [٤٢ : ١ـ٤ ، ٤٩ : ١ـ٦٥ ، ٥٠ : ٤٩ و ٥٢ : ١٣ - ٣٣ : ١٢] تعبر بطريقة أصولية ومأساوية عن آلام الشعب اليهودي . وقد اعطى تفسيرها مجالاً لخلافات لا حصر لها ، ومن الراجح جداً أن خادماً ليهوه (ايبهيدياهيفه) يشخص النخبة اليهودية المنفية ، وإن آلامه اعتبرت كتكفير عن ذنوب الشعب برمته . فقد تقبل هذا الخادم يهوه كل المصائب : «لقد

ادرت ظهري لأولئك الذين ضربوني . . ولم أبعد وجهي عن الاهانات والبصاق» [٥٠ ـ ٦] . إن محنة النفي هي أضحية ، بفضلها محيت ذنوب اسرائيل . «إنها كانت معا ناتنا التي تحملها وآلمنا التي قيدته [. . . .] . وقد اخترق بسبب من ذنوبنا ، وسحق بسبب جرائمنا . ان العقاب الذي اعاد السلام لنا هو عليه ، وأنه بفضل جراحه تم شفاؤنا» [٥٣ : ٥] .

إن العهد الجديد والتفسير المسيحي رأيا في «الخادم ليهوه» المقدمة للمسيح . وقد شجع عدد من المشاهد هذا التفسير لأن «يهوه أسقط على نفسه جرائمنا كلنا [. . . .] وكخروف يقاد الى السلخ [. . . .] ولا يفتح فمه من اجل ذنوبنا ، لقد ضرب حتى الموت» [٥٣ : ٦١ ـ ٨] انه اضحية متطوعة (الخادم) «حسب بين المذنبين في حين انه قد تحمل اخطاء الألوف ، وتشفع من أجل المذنبين» [٥٢ : ١٢] . الا انه بعد «المصائب لروحه ، سيرى النور وسيكون مغمورا [. . . .] ومع الأقوياء ، وسيتقاسم الغنائم ، [٥٢ : ١١ ـ ١٢] . اكثر من هذا ايضا : سيجعل يهوه من «خادمه» نور الأمم ، ومن أجل ان يدرك سلامي «اقطار الأرض» [٤٩ : ٦] .

إن هذه النصوص تصنف من بين قمم الفكر الديني العبري . فإعلان السلام الشامل عبر محن «خادم يهوه» تبشر بالمسيحية .

١٩٧ ـ حجاي ، وذكريا ، نبيان ـ أو خرويان

إن المنفيين المواجهين بمسائل مستعجلة ، بدءاً من عودتهم في ٥٣٨ ق.م كانوا مواجهين بمسألة اعادة بناء المعبد . والمعبد الجديد لم يعد ينتم ابداً للأسرة الملكية ، وانما للشعب ، الذي التزم بتحمل نفقاته . وقد وضعت حجر الأساس في ٥٣٧ ق.م ومع ذلك توقفت الأعمال بعد فترة قصيرة ، ولم يعاد العمل إلا في ٥٢٠ ق.م وبعد تغير سياسي . فقد اثارت الأزمة التي هزت الامبراطورية الفارسية موجة عارمة من الاعتقاد الأخروي . وقد ركز زوروبابل الذي سيسمى

المفوض الأعلى ، والكاهن الأكبر هوشع ،المدعو مين من النبيين حجاي وزكريا ، ركزا جهدهما على اعادة تشييد المعبد . وفي ٥١٥ ق.م دشن المعبد ، ولكن زوردبابل المعتبر غير موثوق من النظام الفارسي ، كان قد مضى .

وبالنسبة للمتحمسين الثملين بالتنبؤات الحديثة ، فقد كان هنالك بداية لسلسلة جديدة من الاحباطات . فطالما ان الحكم الالهي قد تم ، أخذ التساؤل يطرح متى سيظهر العصر الأخروي المعلن من قبل اشعيا الثاني . وبالنسبة لحجاي ، كان العهد الجديد قد بدأ عند وضع زوربابل لحجر الاساس [٢ : ١٥ - ١٩] . واعلن بالنسبة ليوم انتهاء الأعمال هزة ارضية ، وسقوط (ملوك الأمم) ومحق جيوشهم ، وبعث زوربابل كملك مسيحياني . «أليس البذر في الأهراء بعد . كذا الكرم والتين والرمان والزيتون لم تثمر بعد . لكن من هذا اليوم أبارك . وكانت كلمة الرب ثانية إلى حجاي في الرابع والعشرين من الشهر قائلا . كلم زوربابل حاكم يهوذا قائلاً انني ازلزل السماء والأرض واقلب عرش الممالك وادمر قدرة ممالك الأمم وأقلب العجلة وركابها وتسقط الخيل وركابها كل واحد بسيف أخيه» [نبوءة حجاي ٢ : ٢ - ٢٤][21] . ومع ذلك وعندما افتتح المعبدنهائيا ورد التساؤل عن ترك الوعد الأخروي ينتظر. وقد كان فسر أحد الأجوبة الأكثر اقناعاً ، التأخر بفساد الجماعة ، الا انه ، وكما حصل مراراً في التاريخ ، فإن تراجع التغيير العالمي المتنبأ به من قبل اشعيا الثاني غيّر مفهوم الخلاص وبالتدريج انطفأ الأمل الأخروي .

وسنقيّم فيما بعد نتائج هذا الاضطراب بالنسبة للتاريخ التالي لاسرائيل ، ومع ذلك ، لا يمكن بخس قيمة الأهمية لنبوءة أخروية . فأجاي وزكريا يؤكدان على الفرق الجذري بين العصرين ، القديم والجديد . فبالنسبة لزكريا ان الأول كان مميزا بارادة يهوه بالدمار ، والثاني برغبته في الانقاذ [١ : ١ - ٦ - ٨، ١٤ : ١٥] فسيكون في البدء تدمير للشعوب المسؤولة عن مأساة اسرائيل [١ : ١٥] يتبعه «فيض من الخيرات» الموزعة من قبل يهوه للقدس [١ : ١٧، ٢ : ٥ - ١٩] فسيستأصل الرب المذنبين من يهود [٥ : ١-٤] وسيبعد الظالمين من البلاد [٥ : ٥ - ١١] . وسيجمع المنفيين [٦ : ١ - ٨ الخ] وأخيراً سيحتفل بالحكم المسيحي في

اورشليم وستأتي الأمم «هكذا قال رب الجنود ، سيأتي شعوب ايضاً وسكان مدن كثيرة . ويسير سكان الواحدة الى الأخرى قائلين لنسر سيراً لاستعطاف وجه الرب والتماس رب الجنود ، وأنا ايضا اسير ، فيأتي شعوب كثيرون ، وامم أقوياء لالتماس رب الجنود في أورشليم واستعطاف وجه الرب» [٨: ٢٠ - ٢٢، ١٥] وتتلاقى نبوءات مماثلة في النص المسمى رؤيا اسرائيل [اشعيا فصل ٢٤ - ٢٧][٣] . وستعاد النغمات ذاتها في القرن الرابع من قبل زكريا الثاني Dentère zacharie [٩: ١١ - ١٧] ١٠: ٣ - ١٢] . ومن قبل النبي يوئيل Yoel[٤] . والسيناريو الأخروي يتضمن كلا أو جزءاً من هذه البواعث : اضمحلال الأمم ، وانعتاق اسرائيل ، وتجمع المنفيين في القدس ، والتحول الفردوسي للبلاد ، وبعث الملكية الالهية أو حكم مسيحياني ، والايمان النهائي للشعوب . ويمكن ان نميز في هذه الصور الفردوسية التحول الأخروي لرسالة «الأنبياء المتفائلين» قبل النفي[٥] . ومنذ اشعيا الثاني ، كان اعتبر فجر الآخرة وكأنه قريب الحدوث [اشعيا: ٥٦ : ١-٢] ٦٢ : ٢] «هكذا قال الرب حافظوا على الانصاف وأجروا العدل ، فقد اقترب خلاصي ان يجيء وبري ان يتجلى» . ويتجاسر النبي حيناً بتذكير يهوه الذي تأخر بانقاذ اورشليم «على أسوارك ياأورشليم أقمت حراساً لا يسكتون نهاراً ولا ليلاً ياذاكري الرب لا تفتروا . ولا تدعوه يفتر حتى يقر اورشليم وتجعلها تسبيحة في الأرض» [اشعيا : ٦٢: ٦-٧] . مع ذلك ، يعرف أن الخطيئة تفرض على المذنبين «ولكن آثامكم مزقت بينكم وبين الهكم وخطاياكم حجبت وجهه عنكم فلا يسمع ، [٥٩: ٢][٦] . وبالنسبة لاشعيا الثاني كما هو بالنسبة للأنبياء التالين على النفي ، ان تدشين او احياء عهد جديد سيكون مسبوقاً باضطرابات تاريخية كبرى «سقوط بابل» وغزوة الشعوب ضد القدس يتبعها تدميرهم) .

إن امتداد الفداء الأخروي لشعوب أخرى مثقل بالنتائج بالنسبة للتطور التالي لديانة اسرائيل ففي اشعيا الثاني [اشعيا ٥١ : ٤-٦] يتوجه يهوه الى كل الشعوب ، ويتكلم عن «سلامه» الذي «سيأتي مثل النور» . «في ذلك اليوم يلتفت الانسان الى صانعه وتنظر عيناه الى قدوس اسرائيل» [١٧-٧] .

والفداء الشامل بوضوح اكثر معلن من قبل صفنيا [٣: ٩] «لأني حينئذ اجعل للشعوب شفة طاهرة ليدعوا جميعهم باسم الرب وليعبدوه بكتف واحدة» . ومع ذلك ، وعلى الأغلب ، فإن الخلاص موعود به للجميع ولكنه سيكون مقبولاً في القدس فقط ، المركز الديني والوطني لاسرائيل [اشعيا : ٢ : ٢-٤ ، ٢٥ : ٦ ، ٥٦ ، ٧ ، ارميا ٣: ١٧ ، زكريا ٨: ٢] .

والى جانب امثال هذه النبوءات التي تهم العالم التاريخي فقط ، نصادف تنبؤات من نموذج اكثر قدماً (رف ١٢ ع) . متعلقة بالكون في مجمله . فأجاي [٢ : ٦] يعلن ان يهوه [سيهز السماء والأرض ، والبحر والتراب الثابت] . وان الدينونة الأخيرة ستكون مصحوبة بكوارث كونية ستدمر العالم [اشعيا ٣٤: ٤ ، ٥١ : ٦] ولكن يهوه سيخلق «سماوات جديدة وارضا جديدة ، فلا تذكر السالفة ولا تخطر على بال» . [اشعيا ٦٥: ٧] . ان الخليقة الجديدة ستكون غير قابلة للدمار [٦٦: ٢٢] وسيكون يهوه نوراً خالداً» [٦٠ - ٢٠] . حتى القدس ستجدد [زكريا : ٢ - ٩٥] وستسمى باسم جديد هو ما سينطق به فم يهوه [اشعيا ٦٢ : ٢] . وكما في السيناريوهات الأخروية الأخرى ، فإن تجديد الخليقة سيضمن بعض العناصر الفردوسية : ثروات لا تحصى ، خصب لا مثيل له ، زوال الامراض ، طول في الأعمار ، سلام ابدي بين البشر والحيوانات ، استئصال القذارة الخ . . ولكن محور العالم المبعث في كماله الأول سيكون القدس «المركز الحقيقي للعالم» .

١٩٨ - انتظار الملك المسيحاني

حسب النبوءات الأخروية ، فإن العالم المجدد سيكون محكوماً من قبل يهوه[٧] . . أو من قبل ملك معين من قبل الرب وسيحكم باسمه . وهذا الملك يسمى بصورة عامة المسيح (ماسياه masiah) = المدهون - oint ، ومن المفروض فيه أن يكون من احفاد داوود . ويتكلم اشعيا عن (ولد) «ابنا من أجل عرش

الرب» [٩: ١-٦] و«يخرج قضيب من جذر يسمى يَسّي وينمي فرع من أصوله» [اشعيا ١١ : ١] .وسيحكم بعدل في عالم فردوسي حتى «يسكن الذئب مع الحمل والنمر يربض بالقرب من الجدي ، ويكون العجل والشبل والمعلوف معا وصبي صغير يسوقها» . ويشارك زكريا في الكرامة المسيحانية بين السلطة المؤقتة والسلطة الروحية ، زوروبابل والكاهن الأعلى جوزييه (٤ : ١-٦) ١٠ - ٦ - ١٤] . وفي نبوءة اخرى يصف دخول الملك المسيحاني الى القدس «عادل ومنتصر متواضع وممتطيا حماراً» [٩: ٩ - ١٠] .١٠ «ابتهجي جداً يابنت صهيون واهتفي يابنت اورشليم ، هوذا ملك يأتيك صديقاً مخلصاً وديعاً راكبا على أتان وجحش ابن أتان» .

ويقتضي التأكيد بأن العبارة (الممسوح ليهوه) كانت في الأصل مطبقة على الملك الحاكم . فالشخصية الأخروية كانت اذن مقارنة بالملك . وبعد زمن متأخر ، جرى الكلام عن (دهن) ، مسح الكهنة ، والأنبياء والبطارقة (١٨) . فأن يكون ممسوحاً من قبل يهوه يدل على علاقة حميمية اكثر مع الرب . غير ان المسيح الأخروي في العهد القديم ليس كائنا مما فوق الطبيعة ، نازلاً من السماء لانقاذ العالم . فالغفران هو من عمل يهوه حصراً والمسيح هو فانٍ ، وفرع في ارومة داوودية ، وسيتربع على عرش داوود ويحكم بالعدل . وقد استنتج بعض المؤرخين بأن الانتظار المسيحاني انبثق في الأوساط المشبعة بالحماس الأخروي ، الباقية مع ذلك امينة على مملكة داوود . غير ان هذه المجموعات لم تكن تمثل سوى أقلية ، ولأجل هذا فإن الانتظار المسيحاني لم يمارس تأثيراً ذي دلالة هامة(٩) . والمسألة مع ذلك معقدة . فأصولية الفكر الديني العبري لاشك فيها ، ولكن الايديولوجيا الملكية التي احيتها كانت تتضمن مماثلات مع دور «الفادي» للملك في الممالك الشرقية القديمة(١٠) .

لقد قوبلت النبوءات الاخروية برسالة كبار الانبياء السابقين على النفي : الأولون منهم لم يكونوا يأملون بتحول جذري للانسان وبصفة جديدة للوجود ، وانما بعمر جديد ، وانطلاقاً من ذلك خليقة لعالم جديد ، وسيتحول الانسان

بشكل غير مباشر ، وبنوع ما آليا ، بهذه المعجزة من يهوه . ان النبوءات الاخروية ستخفي اذن سوء تفاهم لرسالة كبار الانبياء واشارة متفائلة متعلقة بارادة الرب لانفاذ اسرائيل[١١] . ومع ذلك يجب ملاحظة ان الأمل بتجديد كوني متضمن بعث الانسان في كماله الأول ، هو مفهوم مركزي للتدين القديم ، وبصورة خاصة تدين العصور الزراعية القديمة (ف ١٢ ع) . وان كل اخروية تتناول ، وتحدد وتعاود تقييم فكرة ان الخلق ، هي العمل الالهي بامتياز ، وانه وحده قادر لتجديد وتقديس الوجود البشري : بالتأكيد ان الانتظار الأخروي بعد النفي انبثق من تجربة دينية اخرى هي تجربة كبار الانبياء ، ولكنها لم تكن أقل في دلالتها . وفي آخر المطاف كانت تتعلق بالتنازل عن الآمال بالتطهر الروحي الممكن التحقيق بالجهود الشخصية وباعادة تأكيد الايمان في اله كلي القدرة وفي مواعيده للسلامة.

صحيح ان التأخير في مجيء الأخرة انتهى بتدعيم سلطة الاتجاهات المعارضة من نوع شريعي وطقوسي . ولكن الآمال الأخروية لم تغب مطلقاً بشكل نهائي (ف ٢٠٣ ع) .

١٩٩ ـ تقدم الشرعوية

خلال القرنين من السلام تحت السيادة الفارسية المطلقة ، تدعم بشكل نهائي الاصلاح الشرعوي الذي كان ابتدأ قبل النفي واستمر في الأسر . ففي بابل قُيِّم الختانCirconcisionكرمز ممتاز للانتماء الى شعب يهوه . واحترام السبت اصبح الرهان للايمان بالعهد (اشعيا ٥٦ : ١ـ٨، ٥٨ : ١٣ـ ١٤] . وقانون الاحكام الطقوسية المحتواة في تثنية الاشتراع lévitique [فصل ١٧ ـ ٢٦] أخذ شكله النهائي اثناء النفي . وبتسميته (قانون القداسة) ونسبته لموسى ، ينظم هذا القانون الأضاحي من الحيوانات ، والعلاقات والمحرمات الجنسية ، وتقويم الأعياد ، وتفصيلات العقيدة ، مؤكداً على التطهير وعدم النظافة الشعائرية . و

«قانون القداسة» كالبراهماناه les Brahmanas (ف ٧٦ع) يؤكد باصرار على جعل وظائف الحياة والمعطيات الاجتماعية طقوسية . ويبرز هدفه بالحفاظ على طهارة اسرائيل ، وبغاية التهيئة لمعركة جديدة للبلاد الموعودة من قبل يهوه . فاستمرارية حياة الشعب لن تكون ممكنة إلا في المعيار الذي ستكون هويته الإثنية والروحية مصانة وسط عالم غريب وغير طاهر .

إن اعادة بناء الحياة الوطنية لم يكن منتظراً ، كما لدى كبار الأنبياء ، بإيمان داخلي منجز بالروح ، وإنما بالتنظيم الفعال للجماعة تحت سلطان مطلق للقانون (توراة) . إن العقيدة تتركز بأقل حول تمجيد الرب مما هي حول «القداسة» لاسرائيل أي حول طهارته الطقوسية المهددة بالذنوب باستمرار . فكفارة الذنوب العامة تتخذ أهمية معتبرة ، ومقررة بمؤسسة الغفران الكبير (يوم كيبوريوم youm kippurium «إن الادارة الغفرانية مرتفعة إلى درجة انها لا تدع ابداً مكانا لأمل في نظام جديد وأفضل . ولا يوجد أثر لأخروية أو مسيحانية في القصص الكهنوتية . وبالنسبة لهم ، يملك اسرائيل كل المؤسسات الضرورية لسلامته ولاستمراره عبر العصور»[١٢] . وكان الكهنوت السلطة الوحيدة المؤهلة لحراسة تطبيق الشريعة . وإن التراتبية الادارية التي سادت الحياة الدينية خلال عهد الفرس ، تدعمت ببنياتها السابقة .

إن نحميّا يهودي كان يعيش في بلاط كسرى الأول وقد أصبح حوالي ٤٣٠ ق.م حاكم الجودى judée وحصل على الاجازة باقامة اسوار القدس وقد أجرى كذلك اصلاحات دينية «من بينها استئصال الكهنة المتزوجين من نساء غير اسرائيليات» . ويعرف القليل عن تاريخ رئيس ديني آخر هو ايزودراس، الذي تابع - على الأرجح في السنوات الأولى من القرن الخامس - مهمة نحميّا . وقد اعطى هو كذلك أهمية رئيسية «للطهارة الطقوسية» لاسرائيل وفرض فسخ الزيجات المختلطة ، وبالتأكيد لا يتعلق هذا باجراء جذري . والخطر كان بالنظام الديني ، لأنه عبر الزيجات المختلطة كان كمال اليهودية yahvisme مهدداً . ولم يمنع أن اصلاح ايزودراس قاد الى عزل عرقي والى تدعيم شرعوية سادت منذئذ ديانة اسرائيل . وحسب السنة (نحميّا - ٨) فإن ايزودراس نظم اجتماعاً كبيراً «رجال

ونساء وكل من كان في سن الرشد» وقرأ خلال الاجتماع «كتاب شريعة موسى» . واذا كان من المستحيل التأكيد بدقة فيها اذا كان يتعلق هذا بالاسفار الخمسة Pentateuque أو بجزء من هذا المؤلف فقط ، فإنه منذ القراءة الرسمية ، امتلك دين اسرائيل «رسميا» كتابات مقدسة .

وسرعان ما اختلط القانون (توراه) مع الأسفار الخمسة (البانتاتوك) . فحل محل النقل الشفهي ، الدراسة وشرح النصوص المكتوبة واعتبر ايسدراس أول كاتب أو فقيه في الشريعة docteur de la loi . وأصبح الكاتب نموذجاً حقيقياً للسلوك الديني . غير أنه برزت على التوالي فكرة جديدة ، تلك هي التوراة الشفاهية . فإلى جانب القانون المكتوب ، تلقى موسى من الرب تعليمات اضافية نقلت ، منذئذ شفاها . وهذه المدونة من التفسير كانت تشكل الميشنا la mishna «التكرار» .

وقد كانت في الاساس شكــلا من اضفاء الشرعية لما أمكن الاشارة إليه سابقاً «بالباطنية» ، أي النقل بالمسارة للمذاهب السرية[١٤] . ومع الزمن ، تمتع عمل الفقهاء بسلطة قربت من سلطة التوراة (ف ٢٠١ ع) .

وفي هذا الشأن سيكون من غير المفيد الاشارة الى كل الكتب الصادرة ، والمكتوبة في القرون التالية لمعالجة اصلاح ايساردس . واثناء هذه الفترة تم تأليف كتاب الحوليات Livre de chronique وبعض المزامير ، والكتابات التنبؤية والتي اعادت استعمال كمية من النصوص الأكثر قدما .

وكذلك فإنه خلال هذه الفترة برز التوتر بين اتجاهين دينيين متعارضين يمكن الاشارة اليهما على وجه التقريب تحت اسم «العالميين» و «القوميين» . وكان الاتجاه الأول قد مدد الأمل للأنبياء الاخرويين بأن يروا يوما «الأمم» وهي تعبد يهوه ، معترفة به كاله واحد . وعلى العكس من هذا «القوميون» الذين أعلنوا الخاصية المحصورة بالكشف . وكانوا يركزون جهودهم على الدفاع عن التكامل الاتني لاسرائيل . وفي الواقع كان النزاع اكثر تعقيداً واكثر تباينا .

٢٠٠ - تشخيص الحكمة الالهية

إن الحدث الأكثر أهمية ، والذي سيكون له نتائج بارزة في تاريخ اليهودية ، كان المواجهة مع الهيللينية . فمنذ زمن سبق من عصر البرونز المتأخر كان للاغريق علاقات متتابعة مع فلسطين . وخلال الألف الأولى تنامى فيضهم تباعاً وباستمرار وامتد حتى تحت السيادة الفارسية[١٦] . إلا أنه وبخاصة بعد انتصارات الاسكندر ، أخذ تأثير الثقافة الهيللينية يقيم علاقات قوية جداً . وقد انتشرت اللغة والثقافة والمؤسسات الاغريقية (مدارس ، جيمنازات الخ . .) في كل مكان ، ليس في الشتات فحسب ، وإنما ايضاً في فلسطين ، المحكومة بعد موت الاسكندر (٣٢٣ ق.م) من قبل السلوقيين وأقيال مصر[١٧] .

وتماماً ، كما بالنسبة للرومان ، فإن التاريخ كان مثقلاً ، بصورة خاصة منذ الأنبياء ، بدلالات دينية . وبعبارة أخرى ، فإن الأحداث التاريخية ، بتحويلها وقولبتها للمصير السياسي لاسرائيل ، كانت ايضاً قابلة لتكوين فترات هامة في تاريخ السلام . وبالنسبة للعبرانيين فإن السياسة الوطنية لم تكن تتميز عن النشاط الديني : الطهارة الطقوسية ، اذن انقاذ اسرائيل ، كان متضامنا مع الاستقلال السياسي . وقد بدأ الشعور بالتأثير المتعاظم للهيلينية ، في فلسطين ، في مختلف الاتجاهات السياسية والدينية والثقافية . وان الارستقراطية وبعض قطاعات البورجوازية أُكرِهت على ادخال الأفكار والمؤسسات الموعودة بالأفكلارون l'Aufklarung الهللنستي . وهذه السياسة (الليبرالية) والشعوبية cosmopolite التي هددت الهوية الوطنية ذاتها ، كانت مرفوضة من قبل اصناف اجتماعية اخرى ، وفي الدرجة الأولى من قبل الأوساط الديني المحافظة ومن قبل السكان الزراعيين . وان التوتر بين هذين الاتجاهين المتعارضين قاد إلى عصيان المكابيين (ف ٢٠٢ ع) .

ان مختلف الاتجاهات الايديولوجية والدينية التي مزقت الشعب اليهودي منذ غزوة الاسكندر (٣٣٢ ق.م) حتى تحول فلسطين لمقاطعة رومانية (٦٩ ق.م)

قد تركت طابعها في عدد من المؤلفات التي ألفت في اورشليم او في الشتات (دياسبورا) ويقتضي ان يحدد بدقة مع ذلك ، ان معطى الزيتجيست Zeitgeist كان كما توجد آثاره في المفاهيم الهيللينينة ، حتى في النصوص المحررة بهدف انتقادها ورفضها .

إن تشخيص الحكمة hokma يصنف بين الابداعات الدينية الأكثر اصولية لهذه الفترة . والفصول التسعة الأولى من الأمثال (كتاب يرجح انه كتب في منتصف القرن الثالث ق.م) تمجد الأصل الالهي للحكمة وتعدد خصائصها وصفاتها . «الرب حازني في أول طريقه قبل ماعمله منذ البدء . من الأزل مسحت من الأول من قبل ان كانت الأرض . ولدت حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه . قبل أن أقرت الجبال وقبل التلال ولدت . اذ كان لم يضع الأرض بعد ولا ما في خارجها ولا مبدأ أتربة المسكونة» [٨ - ٢٢ - ٢٨] . «الحكمة اخترعت علم الفطنة والدهاء بها يحكم الملوك [. . . .] والرؤساء يرأسون والعظماء يشترعون ماهو عدل والزعماء وجميع قضاة الأرض» [١٢:٨] . وقد رأى بعض الباحثين في هذا المفهوم تأثير الفلسفة الاغريقية ، مع ذلك فإن الحكمة (صوفيا) بصفتها كهوية إلهية ومشخصة ظهرت متأخرة نسبياً ؛ ولدى الافلاطونيين المحدثين[١٨] . وقد ابرز علماء آخرون موازيات سامية سابقة للتأثيرات الاغريقية ، وبصورة خاصة «حكمة احيقار»[١٩] . كذلك جرى البحث في سوابق الحكمة (Hokma) في عبادة الربات الامهات (ايزيس أو عشتار) ؛ ولكن الحكمة ليست ابداً رفيقة للاله ؛ متولدة من قبل الرب إنها تنبثق من فمه .

وفي الحقيقة ان بوسيه وغريسمان قد اشارا لأهمية ، كائنات وسيطة ، في الفكر اليهودي ، تتوسط بين الاله والانسان وبخاصة في العصر الهيلليني[٢٠] . وان بعض مدارس للحكمة اعتبرت الحكمة في مصاف السلطة العليا ، بصفتها وسيطة للكشف . ولكن وكما سنرى فإن التفسيرات والتقييمات للحكمة ، المتفرقة والمتناقضة ، تعكس ازمة في العمق يمكن لها ان تغير جذريا منظور اليهودية .

٢٠١ - اليأس من الوهية جديدة : الكوهلية والكنسية

إن سفر الجامعة (اكليزياست) او (كوهليت يعتبر بصورة عامة مع سفر أيوب كشاهد مثير للعواطف وللهزة المثارة بانهيار مذهب الثواب أو المكافأة . فضد تيولوجيا ادب الحكمة ، يؤكد مؤلف سفر الجامعة (كوهليت) على عدم امكانية تفسير افعال الاله . ليس فحسب ان ذات المصير ينتظر المجنون والحكمي [٢ : ١٥] ، والانسان والبهيمة «الأول يموت وهي كذلك» [٣ : ١٩] وانما ، «رأيت تحت الشمس في موضع العدل جوراً وفي موضع البر نفاقاً» [٣: ١٦] ، ويحكم الكاتب تبعاً لتجربته الخاصة : «يوجد صديق يهلك في بره ، ومنافق تطول أيامه في شره» [٧ : ١٦] . هادىء ، مترفع تقريباً . كفيلسوف يعود باستمرار حول هذه اللازمة : «يوجد باطل يجري على الأرض ، صديقون يصيبهم مايليق بعمل المنافقين ومنافقون يصيبهم مايليق بعمل الصديقين» [٨ : ١٤ ، ٩ : ٢] وفي آخر المطاف لا يمكن الكلام عن عدالة الاله «إن رأيت ظلم الفقير وعكس القضاء والعدل في بعض الأقاليم فلا تعجب من الأمر فإن فوق العالي أعلى منه يلاحظ وفوقهما من هو أعلى منهما» [٥ : ٧] الخ . وبما هو اكثر : لا يفهم مطلقاً دلالة الخليقة ، ولا معنى الحياة «رأيت من جهة ، أعمال الله كلها ان الانسان لا يتسطيع ان يدرك اسباب شيء مما يحدث تحت الشمس ومهما جد في الطلب فلا يدرك شيئاً ، حتى الحكيم وان زعم انه يعلم لا يستطيع ادراكاً» [٨: ١٧] . لأنه لا يمكن «ادراك ماصنع الله ، منذ البدء حتى النهاية» [٣: ١١] . إنه لا يسرف في غضبه ولا في رحمته . ان الشعور بالذنب كذلك الأمل بالرحمة كلاهما عبث . الاله هو مبتعد عن البشر ، انه لا يهتم بمصيرهم .

واللازمة التي أصبحت شهيرة «كل شيء باطل وقبض الريح باطل» تجد تبريرها في الاكتشاف للعرضية أو عدم الثبات وفي عدم عدالة الوجود البشري . والكاتب يغبط «الموتى اكثر من الأحياء» وبصورة خاصة «اولئك الذين لن يعيشون بعد» ويقول «فغبطت الأموات الذين درجوا من قبل على الاحياء الذين هم باقون

حتى الآن . وخير من كليهما من لم يوجد حتى الآن لأنه لم ير العمل الشرير الذي يفعل تحت الشمس» [٤:٢-٣] حتى الحكمة هي صلف وغرور [١: ١٦ - ١٧ ٢: ١٥ - ٩: ١١]

مع ذلك فإن الجامعة لا تتمرد ضد الرب . بل على العكس ، بما أن مصير البشر هو «في يد الرب» [٩ : ١] فإنه يجب الافادة «من الأيام التي يعطيها الرب لأن هذا هو نصيبه» [٥ : ١٧] . ان «السعادة الوحيدة التي توافق الانسان» هي من طبيعة متعية He´doniste «سافر ، كل خبزك بسرور واشرب خمرك برضى النفس [. . . .] خذ الحياة مع المرأة التي تحب [. . . .] لأن هذا هو نصيبك [. . . .] كل ماتجده لتتعلمه ، افعله بمقدار ما تستطيع لأنه لايوجد لا اعمال ولا حسابات ولا معرفة ولا حكمة في الجحيم (شيول) التي أنت صائر إليها» [٩-:٧ - ١٠] .

لقد قورنت هذه العقلانية المتشائمة مع بعض المدارس الفلسفية الاغريقية . ومنذ فولتير ، رأى عدد من المؤرخين والشارحين وجود تأثير الرواقيين ، وابيقور وانصار المتعة He´doniste السيرينيين de cyrène[٢٢] . وقد كانت تأثيرات الثقافة الهيللنستية على يهودية ماقبل النفي قوية ومتمادية (ف٢٠٢، ع) . ومع ذلك لا تصادف في (الكوهلت) سفر الجامعة . فقد انتقد الفلاسفة والكتاب الاغريق باسهاب الميتولوجيات والتيولوجيا التقليدية . وعليه ، وبعيداً عن نفي وجود الاله ، يعلن كاتب سفر الجامعة حقيقته وكلية قدرته[٢٣] : إنه لا يتوقف عن ترداد وجوب الافادة من منحه . واكثر من هذا ان الكوهلت لا يرفض أبداً الممارسات الطقوسية ولا التقوى والتدين . فليست هي اذن مسألة إلحادية وانما توتر بين يأس ورضى ، مثار باكتشاف لا مبالاة الاله . وقد جرى بحق تقريب هذه الدعوة للاستمتاع بالحياة بنشيد مصري لعازف قيثارة Harpiste(ف ٣٠ ع) وبنصيحة معطاة من قبل سيدوري siduri الى جلقامش (ف ٢٣ع) .

وأقل تأثيراً من سفر الجامعة (كوهلت) ، سفر يشوع بن سيراخ المعروف كذلك تحت الاسم الكنسي (سيراسيد) ، فهو مع ذلك اكثر كشفا عن الأزمة التي كانت تشغل اسرائيل . وهذا السفر مؤلف على الأرجح بين ١٩٠ ـ ١٧٥ ق.م من

قبل كاتب معلم مدرسة الحكمة ، والكتاب موجه الى الشباب العبرانيين المشدوهين بالأفكار روم l'Aufklarum الهيللنستية . وابن سيراخ قومي مقتنع بالأهمية الحاسمة (متدين ولكنه سياسي كذلك) لطهارة الشريعة . وهو يهاجم الأغنياء فيقول • «الغني يظلم ويصخب والفقير يُظلم ويتضرع» [سفر ابن سيراخ ١٣ - ٤] [٨ - ٢٣] ؛ وبما أن الانصار هم الاكثرية المشايعة للشعوبية وللعالمية ، فإن بن سيراخ منذ بدء كتابه ينهض ضد الايديولوجيا الدورية الهللنستية ويهتف : «كل حكمةفهي من الرب ولاتزال معه إلى الأبد»[١-١]،الأمر الذي سمح له بتوحيد الحكمة (السابقة الوجود في الاله) مع التوراة . وان مدح الحكمة ، النشيد الكبير للفصل (٢٤) يشكل قمة كتابه. فالحكمة تعلن في آن واحد وضعها الممجد «اني خرجت من فم العلي بكراً قبل كل خليقة» [٢٤ - ٦] ونزولها الى اورشليم : «وهكذا في صهيون ترسخت وجعل لي مقراً في المدينة المحبوبة وسلطنتي هي في اورشليم» [٢٤ - ١٥] .

وضد الرأي ، الذي يدافع عنه «الشعوبيون» الممثل للأنوار يصف ابن سيراخ معلم الحكمة ، بالكاتب المثالي ، وكعالم مركز في دراسة الكتابات : «انه يبحث عن حكمة جميع المتقدمين ويتفرغ للنبوءات . يحفظ احاديث الرجال المشهورين ويدخل في افانين الأمثال يبحث خفايا الأقوال السائرة ويتبحر في الغاز الاحاجي . يخدم بين ايدي العظماء ويقف امام الرئيس ، يجول في ارض الأمم الغريبة فيختبر في الناس الخير والشر الخ . .» [٣١ - ١ - ١٠] . «لأن كل الحكمة مخافة الرب وفي كل حكمة العمل بالشريعة» [١٩ - ٢٠] وفي الأدب المتعلق بالحكمة والأمثال وبصورة خاصة في الأمثال وفي بعض المزامير الحقيقية ، كان العادل والحكيم الذي يعرف الأصل الالهي للنظام الكوني والحياة الاخلاقية . فالحكمة اذن كانت مقبولة من رجال بالاستقلال عن ديانتهم . ولكن ابن سيراخ يرفض هذا التفسير (العالمي) . ويطابق الحكمة بالورع وبالعقيدة . إن التوراة (ليست شيئاً آخر سوى القانون المعلن من قبل موسى» [٢٤ : ٢٣][٢١] . وبعبارات أخرى ، إن الحكمة هي الأعطية الاستثنائية المصنوعة من قبل الرب لاسرائيل . لأن الرب قد وضع لكل شعب اميراً «ولكن اسرائيل هو حصة الاله» «لكل أمة أقام رئيساً . اما اسرائيل فهو نصيب الرب» [١٧ - ١٥] .

ويرجع ابن سيراخ في اللاهوت للوضعيات التقليدية . فهو ينتقد الرأي بأن الرب غير مبال بمصير البشر ؛ وبعبارة أخرى ، انه يرفض في آن واحد سفر الجامعة (كوهلت) والفلسفة الاغريقية الطافية في الأوساط الشعوبية من اورشليم . ويجهد بخاصة لتبرير مبدأ الثواب: يمجد كمال العمل الالهي [٣٩ : ١٦ ، ٤٢ : ١٥ ، ٢٢- ٢٥] ؛ ويعيد التذكير بأن الأتقياء لهم مصير آخر غير مصير الخبثاء لأن «الخيرات خلقت من أجل الأخيار منذ البدء وكذلك ، بالنسبة للشريرين ، الآلام» [٣٩ : ٢٥] وبعد ان فكر طويلاً استنتج «أعمال السيد كلها خيرة» [٣٩ : ٣٣] وفي آخر المطاف «إن السيد وحده سيعلن وحده الحق» [١٨ : ٢] .

إن هذا الانعاش الجسور للتدين التقليدي ترافق بنقد فظ من قبل (خصوم الحكمة) المتوحدين مع المرتدين والمتحررين الهيللينيين . ويدعو سيراخ من أجل خلاص اسرائيل (الأمم الأجنبية) : «الق رعبك على جميع الأمم الذين لم يلتمسوك ليعلموا أنه لا اله الا أنت ويخبروا بعظائمك . صب غضبك ، دمر الاعداء ، أبد الاعداء ، ليكن المعتدون على شعبك مهددين بالدمار . .» [٣٦: ٦: ٨] .

ومع ذلك ، وفي الفصل ٢٤ الشهير ، تذكر الحكمة : انا وحدي جلت في دائرة السماء وسلكت في عمق الغمار ومشيت على امواج البحر وداست قدمي كل الأرض وعلى كل شعب وكل الأمم حكمت . [٢٤ - ٥] . وبعبارة اخرى فإن الحكمة ممثلة «كقوة تملأ العالم بكامله ، الطبيعة والبشرية (وليس اليهود فقط)[٢٥] . الا ان ابن سيراخ كان ملزما لأن يضيق ، وفي آخر المطاف ، لينسى البعد العالمي للحكمة . وبالتلاقي مع الهيللنستية وحكمتها (صوفيا) ، «إن حكمة استطاعت فرض نفسها في اليهودية فقط في تقربها من عامل لعب الدور الحاسم في هذا الصراع : الشريعة . . . أهمية الحكمة من أجل تكوين الديانة اليهودية في هذه المعركة ضد الهيللنستية وحكمتها لا يسوغ ان يساء تقديرها»[٢٦] .

٢٠٢ - أوائل الرائين : دانيال وهينوخ الأول

إن المواجهة مع الهيللينية ادركت أوجها تحت حكم انطيوشوس ابيغان

(١٧٥ ـ ١٦٤ق.م) . فمنذ بعض الوقت فيما سلف ، كان التعارض بين الحزبين ـ الطوبياد les Tobiades والأونياد les oniades يهدد باتخاذ شكل عنيف . فكان اصدقاء اليونان philhéllènes يطالبون باصلاح جذري ، وبهدف تحويل اليهودية التوراتية لدين من نموذج (عصري) يمكن مقارنته بالابداعات الأخرى التوفيقية المعاصرة . وفي سنة ١٦٧ ق.م ، وبناء على قيام محاولة عصيان فاشلة من قبل فريق الأونياد ، نصح خصومهم انطيوشس بالغاء التوراة بقرار ملكي[٢٧] . فتحول معبد أورشليم إلى معبد توفيقي لزوس اوليمبوس المطابق ببعل الفينيقي ، ومنع القرار ، تحت طائلة العقوبة بالموت التقيد بالسبت وبالاعياد ، وبممارسة الختان وحيازة الكتب التوراتية . واقيمت في كل مكان من فلسطين مذابح لآلهة الشعوب وأكره السكان على تقديم قرابين لها .

ومنذ غزو كنعان ، بخاصة في ظل الملكية ، عرف الاسرائيليون التهديد وخطر التوفيقية الدينية (ف ١١٣ عع) . غير ان عدوان انطيوشوس ابيغان كان اكثر عنفاً . صحيح ان نية انطيوشوس لم تكن استبدال زوس اوليمبوس بيهوه ، وانما لاعطاء اسم لاله هو ، بالنسبة للوثنيين ، كان في الاساس مجهولاً[٢٨] . ومن جهة اخرى ، فإن عدداً من الباحثين الاغريق والرومان قد قربوا يهوه من زوس[٢٩] . ومثل هذه المقارنة ، الخارقة للقدسيات بالنسبة للتقليديين ، يمكن لها ان تكون مقبولة من قبل قسم كبير من النخبة الثقافية (الانتلجنسيا) المحبة لليونان ، والمبهورة بعظمة الرؤى الدينية والفلسفية للرواقيين . ولكن مثل هذا التفسير الفلسفي كان يفوت أغلبية الاسرائيليين : فهم لم يكونوا يرون في زوس سوى واحد من عدد من الآلهة المكرمة من قبل الشعوب . اضافة لذلك ، وكما اعترف فيما بعد المؤرخ فلافيوس جوزيف [اليهودية ـ ١٢ ، ٣٢٠ ، ٢٤٣] فإن انطيوشوس كان مسؤولاً عن عدد من التدنيسات (في المحل الأول منها صفة تعدد التعددية لآلهة العقيدة المزروعة في اورشليم) . والنهب ، وعدم التسامح ، وبخاصة اضطهاد اليهود[٣٠] .

وقد اعطى الكاهن ماتاتياس المنتمي لعائلة الهازمونيين الاشارة لعصيان مسلح . ومن البدء كان مدعوماً بجماعة من الزيلوط Zélotes «الأتقياء»

هاسيديم . وبعد موت ماتاسياس أخذ ادارة الحرب واحد من ابنائه جوداماكابي . وفي سنة ١٦٤ ق.م ، احتل المعبد وأحيا العقيدة . وقد اعتبر هذا النصر الديني كافياً من قبل الهاسيديم . ولكن المكابيين استمروا في كفاحهم من أجل الحرية السياسية ، التي نجحوا في الحصول عليها في سنة ١٢٨ ق.م . وبعد بضعة قرون ، كان يوجد آنئذ ملوك يهود ، منتخبين من عائلة الهازمونيين[٣١] . وقد كان حكمهم مفجعاً ، وفي سنة ٦٣ ق.م قبل السكان بعزاء سيادة الرومان المطلقة .

ان مدة القرن من الزمان بين استبداد انطيوشوس ايبيفان وتراجع فلسطين الى مقاطعة رومانية من قبل بومبي pompé كانت حاسمة بالنسبة لتاريخ وديانة الشعب اليهودي . ومن جهةأخرى فان المحاولة للاعادة الوثنية بالقوة أثارت صدمة لم يفلح يهود فلسطين بتناسيها : لم يكونوا يعتقدون ببراءة الوثنيين ، وفصلتهم منذئذ هوة كبيرة عن الثقافة الهيللينية[٣٢] . ومن جهةأخرى ، فإن النصر العسكري للمكابيين ، كان له كنتيجة تزايد مفاجىء من التأثير السياسي للملكة اليهودية وماهو اكثر من ذلك ، ان الوجه المسيحي لجودا ماكابيه شجع بعدئذ انتفاضات مسلحة اخرى ، كانت هذه المرة ضد الرومان ، غير ان العصيان من ٦٦ ـ ٧٠ قد اكتمل بتخريب المعبد الثاني واورشليم بكتائب طيطوس Titys وخنق التمرد الذي قاده باركوشبا في ١٣٢ ـ ١٣٥ بوحشية من قبل هادريان .

ومايعنينا بالنسبة لموضوع هذا الكتاب هو الابداعات الدينية بصورة خاصة . وكما توجب انتظارها ، فإن الأحداث التاريخية المعاصرة هي المتغيرة بشكلها ، والمثقلة برسالات مرموزة ، والمكتملة في رؤية خاصة بالتاريخ العالمي . ففي وسط الاتقياء (هاسيديم) أخذت تظهر أولى الكتابات الرؤية ، دانيال والقسم الأقدم من كتاب هنيوش Henoch (هوشع) . وشكل الاتقياء جماعة مغلقة جداً ، واصروا بالحاح على الاحترام المطلق للشريعة وعلى استعجال التوبة . وكانت الأهمية المعتبرة المعطاة للتوبة ، النتيجة المباشرة لمفهوم رؤوي للتاريخ . وفي الواقع كان التاريخ قد أدرك أومس علاقات مجهولة حتى ذلك الحين . وبالنتيجة ، فإن دانيال وهوشع الأول كانا تنبآءا ، أن العالم يقترب من نهايته ،

وان الأتقياء المتدينين يجب عليهم ان يحضروا انفسهم من أجل الدينونة العاجلة للرب .

ان كتاب دانيال في شكله الحالي قد اكمل حوالي ١٦٢ ق.م ووصف فيه كاتبه الأحداث المعاصرة أو الحديثة تحت شكل نبوءات معلنة قبل عدة قرون . وان هذا الاجراء (vaticiniexeventu) مميز للآداب الرؤوية[٣٣] . انه يدعم الايمان في النبوءات ، وبالنتيجة يساعد المؤمنين على تحمل المحن القائمة . وهكذا فإن سفر دانيال يروي حلما لنبوختنصر (٥٦٢ ـ ٦٠٥) ق.م . فالملك كان رأى تمثالاً : رأسه من الذهب ، وصدره وذراعاه من الفضة ، وبطنه فخذاه من البرونز ، وساقاه من حديد وفخار . وفجأة انفصلت حجر وضربت التمثال : «فانسحق الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعفى البيدر في الصيف ، فذهبت بها الريح ولم يوجد لها مكان . أما الحجر الذي خرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها . . هذا الحلم . . أما تعبيره فتحير به الملك» [٢ ـ ٣١ ـ ٣٦] .

وقد فسر دانيال الحلم: فالرأس الذهبي ، هو نبوختنصر ؛ وبعده سيقوم عرش آخر أدنى ، وعرش ثالث بعدئذ ، من البرونز ، الذي سيسود الأرض قاطبة . والرابع «صلب كالحديد» سيسحق الآخرين ، ولكنه سينتهي بالتلاشي . عندئذ «وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم اله السماء مملكة لا تنقضي إلى الأبد ، وملكه لا يترك لشعب آخر فتسحق وتفنى جميع تلك الممالك وهي تثبت الى الأبد» [٢ ـ ٤٤] . ان الممالك المتتالية للآشوريين (مملكة بابل الجديدة) ، الميدين ، والفرس ، وأخيراً مملكة الاسكندر ، تشير لعملية متسارعة بالانحطاط ولكنه بخاصة اثناء الرابعة (أي مملكة انطيونوس ابيفان) حيث هدد وجود شعب اسرائيل بشكل فادح . مع ذلك فإن دانيال يؤكد ، ان نهاية هذا العالم المتساقط تقترب ، وان الرب سيبني فيها بعد المملكة الخالدة . ويروى دانيال زيادة على ذلك واحداً من أحلامه الخاصة ، وفيه رأى اربعة حيوانات ضخمة خارجة من البحر، وان الحيوانات تمثل الممالك الأربعة المعينة للهلاك ، وبعدئذ «يعطي الملك والسلطان وعظمة الملك تحت السماء باسرها لشعب قديسي العلى وسيكون ملكه أبديا ويعبده

جميع السلاطين ويطيعونه» [٧ - ٢٧] .

واجمالا فإن كاتب سفر دانيال بتذكيرهم بالاحداث العظيمة للماضي ، وبخاصة متتالية أو ترنيمة المصائب التي اضعفت الامبراطوريا ت العسكرية ، رمى الى هدف محدد : تشجيع وتقوية اخوانه في الدين ، غير أن التراث المأساوي لأربعة ممالك يعبر في ذات الوقت عن مفهوم موحد للتاريخ العالمي . صحيح ان الصورة الميتولوجية تفشي مصدراً شرقياً . فنغمة الممالك الأربعة المتتالية ، المرموز اليها بالمعادن الأربعة تصادف عند هزيود وفي ايران .

اما بالنسبة للحيوانات الأربعة ، فيوجد لها عدد من السوابق ، بابلية ، ايرانية ، وفينيقية[٣٤] . كذلك فإن الدهر الكبير (grand éon) الذي تكلم عنه هينوش الأول [١٦ : ١] ، يمكن مقارنته بمذهب (العام الكبير)[٣٥] ومع ذلك فإن دانيال والرائين اليهود يمثلون عنصراً مجهولاً في التقاليد الأخرى . والأحداث التي تشكل التاريخ العالمي لا تعكس اكثر الايقاع الخالد للدورة الكونية ولا ترتبط بالنجوم ، إنها تتطور حسب مخطط الاله[٣٦] . ففي هذا المخطط المسبق اقامته ، يلعب اسرائيل الدور المركزي ، فالتاريخ يتجه بسرعة نحو نهايته ، وبعبارات اخرى فإن النصر النهائي لاسرائيل هو أمر وشيك الوقوع . وهذا النصر لن يكون بنظام سياسي فقط ، وفي الواقع إن اتمام التاريخ يعادل سلامة اسرائيل ، سلامة محددة دائماً من قبل الرب ومسجلة في مخطط التاريخ ، بالرغم من آثام شعبه .

٢٠٣ ـ الأمل الوحيد : نهاية العالم

كما في التقاليد الأخرى ، فإن نهاية العالم هي ، في الرؤى اليهودية معلنة بعدد من الكوارث الأرضية والظواهر الكونية الشاذة : ستضيء الشمس اثناء الليل ، والقمر اثناء النهار ، وسيجري الدم في الأنهر ، وستخرج النجوم من محاجرها ، وسيقزز الدم الاشجار ، وستسيل النار من احشاء الأرض ، وستصرخ الحجارة الخ . . [ايسدراس ٥٠ : ٤ ـ ١٢] وستقصر السنة ، وسيتقاتل البشر

ويميتون بعضهم بعضاً وسيكون هنالك جدب ومجاعة الخ[٣٧] . وكالتقليد الايراني لنهاية العالم ، سيكون هنالك دينونة شاملة ، اذن بعث للأموات .

وقد كان سبق لسفر اشعيا [٢٦ : ١٩] أن أشار الى البعث «امواتك سيحيون ، واشلاؤهم ستبعث» غير انه من الصعب تحديد تاريخ هذا المقطع . وأول مرجع لا جدال فيه يوجد في دانيال [١٢ : ١٣] «ستبعث من جانبك في نهاية الأيام»[٣٨] . ومن الراجح جداً ان ذلك يتعلق بتأثير ايراني ، الا انه يجب ان يؤخذ في الحسبان ايضاً مفاهيم العصور الحجرية الشرقية لآلهة الزراعة (ف ١١٨ع) . ان مذهب البعث سيكون معلنا باستمرار في الأدب الرؤوي [ر. ايزوراس ، هيوش ٥١ : ١٦ - ٥ - ٦١ - ٦٢] . والرؤيا السريانية syriaqre، لباروخ ، ومن قبل الفريزيين وقد كان مقبولاً منذ تنبؤ المسيح بشكل عام باستثناء الصدوقيين . أما بالنسبة للدينونة الأخيرة فإن دانيال [٧ : ٩ - ١٤] يصفها منطوية بحضور «قديم» «فبينما كنت أرى اذ نصبت عروش فجلس القديم الأيام وكان لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وعجلاته نار مضطربة . ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار وتخدمه الوف الوف وتقف بين يديه ربوات ربوات ، فجلس أهل القضاء وفتحت الاسفار وكنت أرى ما ذا يكون عن صوت الأقوال العظيمة التي ينطق بها القرن ، وبين كنت أرى اذ قتل الحيوان وتلف جسمه وجعل وقوداً للنار» . وفي حلمه الذهولي كذلك ، كان هينوش رأي بوضوح الرب جالساً على العرش ، ورأى «الكتب المختومة» وحضر محاكمة الملائكة المتساقطبن والعصاة المدانين بأن يقذف بهم في مغارة متقدة [٩٠ : ٢٠] وتعاود صورة «العلي الأعلى» ظهورها على «عرش الدينونة» في (الاسيدراس الرابع) : المذنبون مخصصون «لغرف جهنم والفاضلون يكافؤون في جنة النعيم» [٧ : ٣٣ - ٣٧] وبعيد المحاكمة (الدينونة) سيمحي الشر للأبد ، وسيهزم الفساد ، وفي كل مكان ستفرض الحقيقة نفسها [ايسدراس ١٧ : ٦ : ٢٦ - ٢٨] . ان مفهوم الدينونة الأخروية بالنار هي على الأرجح من أصل ايراني (ف ١٠٤ ع) .

وفي ذات الرؤية للقديم والدينونة ، يحضر دانيال نزول كائن من السماء

«كابن الانسان» : قيد الى حضرة القديم الخ . . . «ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن البشر آتيا على سحاب السماء فبلغ إلى القديم الأيام وقرب الى امامه . وأوتي سلطانا ومجداً وملكا بجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه وسلطانه سلطان أبدي لا يزول وملكه لا ينقرض» [٧: ١٣ - ١٤] . وفي «ابن الانسان» يرمز دانيال لشعب اسرائيل في فترة عليا من الظفر الأخروي . وسيكون لهذه العبارة نجاح منقطع النظير في القرن الأول قبل عصرنا ، ولقد كان هذا ، من جهةأخرى، اللقب الذي اعطي للمسيح ، وهو يتعلق بصورة اسطورية شائعة جداً في العالم الهيلليني هي الشكل البشري l'Anthropos أو الانسان الأول . وهذه الأسطورة هي من أصل هندي ايراني (. . .بيروشا ، غايمورد) ، الا ان السوابق المباشرة (لابن الانسان) = «الانسان» هي موضع بحث عنها في التوفيقية الدينية - ايرانية - كلدانية (ف ٢١٦ ع) . وان فكرة الانسان الأول الموظفة لكهنوت اخروي ليست توراتية وليس سوى في اليهودية المتأخرة ان جرى الكلام عن آدم سابق الوجود للخلق(٣٩) .

إن المفهوم الواحد للتاريخ العالمي سمح اذن بحل رموز المعنى الاخروي للزمان المعاصر . وخلافاً للعلوم الكونية القديمة ، التي كانت فسرت الانهيار المتمادي والغير ممكن انقاذه للعالم بنظرية من نموذج دوري (الذي يجد التعبير الأكثر تضييقاً له في المذهب الهندي لليوجات الاربعة) فإن الأتقياء (الهاسيد) كانوا أعلنوا يهوه رباً أوحد للتاريخ ، وفي كتاب دانيال وهينوش الأول يبقى الرب الوجه المركزي : الشر ليس مشخصاً بوضوح في عدو يهوه ؛ ان الشر متولد بعدم طاعة البشر [هينوش ١ - ٤ : ٨ - ٩] وبعصيان الملائكة المتساقطة .

ولكن القماشة للأساس تتغير بشكل محسوس في الأدب الرؤوي . فالعالم والتاريخ معتبران الآن وكأنهما مسودان بقوى الشر ، أي بالقوى الشيطانية المقادة بالشيطان . وان العبارات الأولى عن الشيطان satan [أيوب : ١ : ٦ ، ٢ : ١ زكريا ٣ : ١] كانت تمثله وكأنه منتم للبلاط السماوي ليهوه . لقد كان «العدو» لأنه كان الشخصيةالسماوية العدوللانسان (ر ف ١١٥ع). .والآن،فإن الشيطان يشخص مبدأ الشر : لقد أصبح عدو الاله . اضافة لذلك ، فإن فكرة جديدة

تتحقق : فكرة عصرين أو «مملكتين» : «هذا الحكم والحكم الآخر» وعليه لقد كتب : [٧ : ٥٠] «الأعلى الأعلى لم يخلق عصراً وحيداً ، ولكن عصرين» [٧ ـ ٥٠ ايسدراس][٤٠] . وفي هذا العصر ، «مملكة الشيطان» هي المقدر لها أن تنتصر . فالقديس بولس يشير إلى الشيطان وكأنه «اله هذا العالم» [رسائل الى الكورنثيين ٤ ـ ٤] . وقدرته تدرك أوجها باقتراب العصر المسيحياني ، عندما تتكاثر الكوارث والمظاهر المضللة المشار إليها آنفاً . إلا أنه في المعركة الأخروية ، سينتصر يهوه على الشيطان ، وسيبيد أو يستأصل كل الشياطين ، وسيجتث الشر ويشيد عرشه بعدئذ باسطا الحياة والفرح والسلام الأبدي[٤١] . وتتكلم بعض النصوص عن عودة للجنة وانطلاقاً من الغاء الموت [ايسدراس ٤ ـ ٧ ـ ٨ : ٥٢] . ومع ذلك ورغم كماله ودوامه فإن هذا العالم المخلوق مجدداً سيبقى عالما طبيعيا .

لقد تطورت صورة الشيطان ، على الأرجح ، تحت تأثير الثنائية الايرانية[٤٢] وهو على كل حال ، يتعلق بثنائية ملطفة ، لأن الشيطان لايوجد مقارنا منذ البدء مع الاله ، وهو ليس بخالد . ومن جهة اخرى ، يجب ان يؤخذ في الحسبان تقليد اكثر قدما ، ذلك الذي يدرك يهوه بصفته ككمال مطلق للحقيقة ، أي كأنه توفيق المتعارضات coineidentia oppositirum كانت تتواجد فيه كل الاضداد ، كذلك «الشر» اذن [ف ٥٩ ع] ونعيد إلى الذاكرة المثل الشهير لصموئيل : «روح يهوه كانت انسحبت من صموئيل وروح شريرة آتية من يهوه سبب له الرعب»*

وكما في ديانات أخرى ، تتحقق الثنائية على إثر أزمة نفسية تضع موضع التساؤل في آن واحد اللغة والمسلمات اللاهوتية التقليدية ، والتي تصل ، بين أخرى غيرها ، إلى تشخيص المظاهر السلبية للحياة للواقع وللألوهية . إن كل مافهم حتى ذلك الحين كفترة في العملية الشاملة (المبنية على تناوب الاضداد : نهار/ ليل ؛ حياة/ موت ؛ خير/ شر الخ) ، هو منذئذ معزول ، ومشخص

* ورد النص في سفر صموئيل [١ ـ ١٦ ـ ١٤] كالآتي « وفارق روح الرب شاوول وزعجه روح شرير من لدن الرب » ـ المترجم .

وموظف بوظيفة خاصة مميزة ومحصورة ، وبصورة خاصة وظيفة الشر (ف ١٩٥ ع) . ومن الراجح ان الشيطان هو النتيجة في ذات الوقت لانقطاع الصورة القديمة ليهوه (نتيجة التفكير حول غموض الالوهية) والتأثير للمذاهب الثنائية الايرانية . وعلى كل حال فإن صورة الشيطان ، بصفتها تجسيداً للشر ستلعب دوراً بارزاً في تكوين وتاريخ المسيحية ، قبل أن تصبح الشخصية الشهيرة إلى مالايحصى من التحولات في الآداب الأوروبية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وفيما يتعلق بالآخرة ، والخليقة الجديدة ، فإن الأدب الرؤوي لا يمثل مفهوماً موحداً . فالكتاب متفقون على تعيين المآسي وعذابات العصر الراهن وكأنها «آلام الولادة» أو «لآلام المسيحانية» ، لأنها تسبق وتعلن عن مجيء المسيح . وتماما كما هو لدى إشعيا وأنبياء ماقبل النفي ، فإن المسيح messie هو دائما معتبر ككائن بشري ، وهو بدقة ملك لشعب الله[٤٣] . وكمثال واحد على ذلك ، تقرر مزامير سليمان (مؤلف كتب في القرن الأول ق.م) صلاة من أجل الاسراع بمجيء المسيح ، ابن داوود لكي يسحق «الحاكمين الظالمين ويطهر اورشليم من حضور الوثنيين» [١٧ : ٢٢-٢٤]. «انه ملك عادل [وتحت حكمه لن يوجد ظلم ، لأن الكل سيصبحون مقدسين وملكهم سيكون المسيح» [١٧ : (٢٦ ، ٢٩ - ٣٠] .

وحسب بعضهم ، فإن مملكة المسيح تنتمي ايضا للدهر الحاضر ، انها تشكل بنوع ما حكما انابياً (بالنيابة) وبخاصة الألفية le millenium* فهذه المملكة المسيحيانية مخصصة لتدوم ٤٠٠ ، ٥٠٠ أو ألف سنة وستتبع بالدينونة الشاملة وخراب العالم . والمسيح بذاته سيموت وسيعود تماما «بصمت» أوليا primordial ، أي إلى العماء «لكنه خلال سبعة أيام ، سيستيقظ للدهر الذي ينام الآن» [ايسدرا ١٧ . . ٧ : ٢٨] وبعبارات أخرى ستكون هنالك الخليقة الجديدة ، البعث والطوبى الأبدية[٤٥] .

---

* le Millnarisme ، نظرية بعض الكتاب المسيحيين القائلين بملك المسيح على الأرض مدة الفا سنة قبل قيامة الموتى .

إنَّ العديد من النصوص تصنف المسيح بين الكائنات الأزلية ، إلى جانب هينوش ، ايليا، وشخصيات اخرى رفعت الى السماء من قبل الرب . وحسب بعض المصادر الربينية Rabbiniques ان المسيح سيخبأ في الجنة مباشرة بعد ولادته ، أو مع ايليا في السماء(٤٦) ويذكر عهد الاثني عشر بطريركا ونصوص قمران عن مسيحيين اثنين ، كاهن وملك ، والمسيح الكهنوتي له الأولية . ويؤكد عهد ليقى انه في ظل كهانته «سيزول كل ذنب . . وهو سيفتح بنفسه ابواب الجنة [. . . .] وسيعطي إلى القديسين ما يأكلونه من شجرة الحياة» [١٨ : ٩ ـ ١٢] . واجمالاً ، فإن المسيح الكهنوتي سيلغي النتائج للذنب الاصلي(٤٧) .

ويضاف الى ذلك أن نبوءة يسوع وبزوغ المسيحية متضامنان بذات الخميرة الروحية المميزة للآمال المسيحيانية والايحاءات الاخروية اليهودية بين عصيان المكابيين والخراب الثاني للمعبد (ف ٢٢٤ ع) .

٢٠٤ ـ ردة الفاريين : تمجيد التوراة

في اليهودية كما في غيرها من التقاليد ، دعمت التطلعات الرؤوية الدفاع ضد الارهاب التاريخي ، وقد حل المؤمنون الرموز في المصائب المعاصرة مستخلصين منها نبوءة تبعث على الراحة . فبمقدار مايزداد وضع الشعب اليهودي تأزماً ، بمقدار ماكانت القناعة تزداد بأن الدهر الحاضر يقترب من نهايته . وبصورة مجملة ، كان تفاقم الارهاب يبشر بسلام وشيك الحصول . وسيتكرر مستقبلاً التقييم الديني للمعاناة المثارة بالأحداث التاريخية ، في العديد من المرات وليس باليهود والمسيحيين فقط .

انه لا يتعلق أبداً بهروب أمام ضغط التاريخ ، ولابتفاؤل تغذية الأوهام . فالأدب الرؤوي كان يشكل علماً مقدساً ، من جوهر واصل إلهيين . وكما يكتب مؤلف سفر دانيال [٢ : ٢٠ ـ ٢٢] ان الاله «هو الذي يعطي الحكمة للحكماء» و

«هو الذي يكشف الاسرار ومافي الأعماق ، ويعلم مافي الظلمات» . إن هينوش شخصية خرافية ، وصورة مثالية للحكيم وللنبي من العصر البدئي[٤٨] ، وقد أصبح الآن شعبياً تماماً : لقد تنبأ بالدينونة القريبة لجيل ماقبل الطوفان والملائكة الساقطين . والآن يعلن كشفا جديداً ويطالب بالندم ، لأن ثاني دينونة تقترب . وكدانيال تماما يتلقى هينوش العلم المقدس في أحلامه ورؤاه [١٣: ٨-١٤ : ١٠] . لقد أدخل من قبل الملائكة في المخابىء السماوية ، وباشر بسفرات انتشائية للسماوات [فصل ١٢ - ٣٦] حيث سمح له الرب بأن يرى الألواح المحفوظة التي كتب عليها تاريخ العالم من البداية حتى النهاية .

في فجر الزمن كشف الاله العلم السري الى بعض الأشخاص المشهورين باحسانهم وتقواهم وقدراتهم على «اكتشاف المستقبل» وهذا التعليم كان باطنيا (مختوماً) ، وبعبارة اخرى لا يمكن ادراكه من قبل غير المقدسين . وقد نقل بعدئذ إلى بعض الكائنات استثناء . ولكن بما ان العصر الأولي يناسب نهاية الأزمنة (eschaton) فإن العلم المقدس قد كشف حضوريا من جديد، ودوما الى مجموعة محصورة من المسارين . وفي هينوش الأول [١ - ٦] وصف ابن الانسان بأنه الملقن بالسر بامتياز «سيد كل الأسرار» . وعندما سيتربع على عرشه «ستسيل كل اسرار الحكمة من فمه» . وصفاته الأكثر تميزاً هي الحكمة والذكاء[٤٩] . ويضاف الى ذلك ان نغمة «العلم المصون المستور» هي شعبية جداً حتى العصر الهيللنستي (ف ٢٠٩ ع) وهي تشكل التبرير لكل المدارس الغنوصية (ف ٢٢٩ ع)[٥٠] .

وقد طور مؤلفو الرؤيات بشكل واسع هذا المفهوم للحكمة المصونة في السماء والتي هي غير قابلة لأن تحتذى من قبل البشرية[٥١] فالرؤى والتجارب الوجدية كانت تلعب دوراً رئيسياً في الأدب الرؤوي «كما هو في أي مكان آخر في العالم الهلنستي» . والرؤى والوجديات تثبت رسمية وصدق «النبي والحكيم» . واكثر من هذا ، ان التجارب الوجدية اغنت تباعاً قيمة العلم المكتشف . فسفر دانيال كشف تاريخ العالم فقط ، في حين ان النصوص المعلنة من تقليد هينوش تلف العالم بكامله ، مرئي وغير مرئي : الجغرافية الأرضية والسماوية ، الفلك ، وعلم النجوم ، والتعدين والطب . وبالنسبة (لسنّة هينوش)

ان الاسرار المتعلقة بالعلوم الكونية اكتشفت ومجدت في آن واحد عمل الاله . وكما يلاحظ هينجل Hengel فإن معلمي الحكمة الهاسيديم كانوا مرتبطين بمعارضة ضد الهيللينية ايضاً بحدة اكثر من ابن سيراخ . لأنهم في الاساس ، وبواسطة «الكشوفات الرؤوية» كانوا يمتلكون علما اسمى من علم الاغريق . وفي الواقع ، كان علمهم يغلف الكوزموس والتاريخ والعالم السماوي ، ومع التوسع مصير الانسان في فترة الآخرة ، وهي معرفة غير ممكن حيازتها بالعقل . وهذا المفهوم لعلم باطني ، شمولي ومصون ، قابل لأن يكون مفهوماً في الرؤى الوجدية أو المنقولة عن طريق مسارة ، تأكد كذلك في سنن دينية اخرى وسيكون مشتركا مع المسيحية القديمة .

إن أي تيار آخر للفكر اليهودي لم يقتبس الأفكار الهيللنستية ـ الشرقية بهكذا مقدار من السعة للرؤوية ، وبالرغم من هذا فإن أساس الرؤية يبقى دوماً المفهوم السابق للعهد القديم من تاريخ الخلاص[٥٢] . ويعنينا هنا مظهر روحي هام جداً ، بخاصة الابداعية الدينية المثارة بالتوفيقية . ففي الواقع ان «معلمي الحكمة» (الهاسيد) وكتاب الرؤيات الأولى ، قد تلقوا وتمثلوا أفكاراً مشتقة من عدة انظمة توفيقية ، ولكن هذه الأفكار قد أغنت اليهودية ودعمت الأمل لشعب يهودي في فترة صعبة للغاية . ومن جهة اخرى ، ان عملية مماثلة قد حلت رموزها في تيارات دينية اخرى . وتحت قيادة معلم العدالة ، انفصلت مجموعة مؤلفي الرؤى «الاسينيين Esséniens» عن باقي الجماعة وقررت العيش في الصحراء ، حياة ذات خاصية تنسكية (ف ٢٢٣ ع) ، وعليه ، فإن الأكثر قرباً من التشابه مع التنظيم التنسكي للاسينيين هو الجمعية السرية المغلقة من نموذج اغريقي . حتى الفيريسيين pharisieus الجماعة الثانية المتنوعة من كتاب الرؤى هاسيديم ادخلوا عدداً من الأفكار الهيللينية في مذهبهم من الشريعة[٥٣] .

وفي آخر المطاف ، فإن الضغط التدنيسي لأنطيوشس ابيفان والعصيان الظافر للمكابيين ، أوجبا الاستشراق والبنى المستقبلية لليهودية . إن «الحماس ضد التوراة» الذي أنعش مناصري انطيوشوس شجع «الحماس من أجل التوراة» وانتهى بتدعيم انطولوجيا الشريعة[٥٤] . وقد رفعت التوراة الى رتبة من حقيقة

مطلقة ، وابدية ، ونموذج مثالي للخليقة . وحسب ر . سيمون بن لاكيش (القرن الثالث ق.م) يرتبط وجود العالم بواقعة ان اسرائيل تقبل التوراة ؛ وبدون ذلك سيرتد العالم للعماء[٥٥] . وكل واحد من ٢٤٨ أمر و ٣٦٥ نهي مماتتشكل منه التوراة يتلقى معنى كونيا . فالانسان ، يخلق مع ٢٤٨ عضوا و ٣٦٥ عرقاً ، تعكس في بنيتها نفسها في آن واحد عمل الرب (الكون) وظهوره (الشريعة)[٥٦] . وبصفتها كحقيقة مطلقة ، فإن التوراة هي منبع الحياة . وكما كتب هيلل Hillel «حيث يوجد كثير من التوراة يوجد كثير من الحياة» .

غير ان تمجيد التوراة حوّر مصير اليهودية جذريا . فمنذ الانبياء كان التدين العبري منعشاً بالتوتر بين الاتجاهات الشمولية والخاصة . وان سبب هذا التعارض الحاد والخلاق كان اساساً الصفة التناقضية للكشف . وعليه فإن كشف الرب في التاريخ ، أي تحديده للشعب اليهودي ، كان معلنا بأنه مقبول كونياً مع كونه معتبراً محصوراً بالاسرائيليين . وفي النصف الثاني من القرن الثاني ق.م وبفضل التطور المدهش للدياسبورا ، وفي قسم منه ، للدعاية التبشيرية ، كانت اليهودية على أهبة أن تصبح ديانة عالمية . غير ان الردة ضد تدنيس انطيوشوس وصلت الى مادعي «التركيز على التوراة»[٥٧] . وعليه فإن مثل هذا التركيز أعاق انطلاقة ديانة عالمية . بالتأكيد ان الشريعة لعبت دوراً حاسماً في الدفاع عن الهوية الوطنية ، ولكن الشعور برسالة عالمية لم يتمكن من الانتظام والتطور بحرية إلى جانب تيار وطني قادر وشعبي . وهذا مايفسر من جهة اخرى قرار الكنيسة المسيحية البدائية ، المنتعشة بروحية نبوية - يهودية ، لارسال بعثات لدى الساميين المكروهين جداً من قبل الاسرائيليين [اعمال الرسل ٨ : ٤] وبعد زمن قصير لدى غير اليهود في انطاكية [اعمال ١١ : ١٩] «لقد أخذ علم المسسيحية (كريستولوجيا) مكان انطولوجيا التوراة بصفته تعبيراً عن الكشف الحر والمصون للاله في التاريخ ، كشف لم يكن يعرف حدوداً لنظام قومي أو تاريخي»[٥٨] . ان ثبات التوراة وانتصار الشرعوية وضعا كذلك نهاية للأمال الأخروية . «فحتى الأدب الرؤوي زال تباعاً وحل محله التنسك اليهودي» [هيجل ص ١٧٥] .

ويحسن ان نضيف مع ذلك إلى أنه في المنظور اليهودي ، كان ترك الرسالة

العالمية هو الثمن الذي وجب دفعه لانقاذ الجماعة الاسرائيلية ، وفي آخر المطاف ، فإن الأمر الجوهري كان استمرارية التاريخية للشعب اليهودي . فهو لم يتعلق «بقومية» فقط وانما ، وقبل كل شيء ، بلاهوت مشاد على معنى «الشعب المختار» فاسرائيل كان قد اختير من قبل يهوه ؛ ليكون شعبه . وبالنتيجة ، فإن الشعب اليهودي كان يشكل حقيقة تاريخية مقدسة بارادة الرب . وكان الانحلال القومي يعادل الالحاد أو الكفر أي تدنيس بنية اخلاقية مرسة بأصلها ذاته . وكان الواجب الأول للشعب اليهودي اذن الحفاظ على الهوية دون ان تمس حتى نهاية التاريخ ، وبعبارة اخرى البقاء دائماً تحت تصرف الرب .

حواشي الفصل الخامس والعشرين

١ - فوهرر - تاريخ الديانة اليهودية ص ٣٠٨
٢ - سنجد افكاراً مماثلة عند زكريا ٨: ٩ - ١٣ الخ
٣ - سيحاكم الرب كل اعداء اسرائيل ، وعواصمهم ستدمر ، وغالباً ان من سيعيش منهم سيساهمون بالعيد المسيحياني بالقرب من يهوه على جبل صهيون (٢٤: ٢١ ٢٥: ١٢)
٤ - بعد المعركة الأخروية ضد الأمم المذنبة تجاه يهوه واسرائيل ، سيبدأ عصر فردوسي من الرخاء والسلام
٥ - فوهرر - ص ٣٤٠
٦ - ان النبي «ملاضخي» (القرن الخامس) يرفض تحديد التاريخ (ليوم يهوه) . والأساس هو الاستعداد الداخلي لأن يوم وصوله (٣-٢) يمكن ان يباغت في أي وقت شاء .
٧ - اشعيا : ٢٤ : ٢٣- ٣٩ و (عندئذ سيحكم يهوه عليهم في جبل صهيون) زكريا ٩: ١-٨ الخ
٨ - ١١ - مراجع متعددة فوهرر ص ٣٠٠ ويدنجرين ص ٢٤٥ وغيره
١٢ - أ- كاكو (اليهودية منذ الاسر البابلي) ص ١٤٣
١٣ - حسب مارثان سميث سيكون نحميا هو الذي استمر بالاصلاح المطعم من قبل عذرا ص ١٢٠ (احزاب الفلسطينيين في العهد القديم) ص ١٢٠
١٤ - ان شرحاً مماثلا اكد صحة المذاهب الماشايانا والتقنيات التاتارية كذلك الكشوفات الهرمسية والرؤى والعرفان ..
١٥ - يذكر ان كتاب ايوب مؤرخ من قبل عدد من المؤرخين من عصر ماقبل النفي .
١٦ - ١٧ - المراجع السابقة في فقرة ٨ - ١١) .
١٨ - ١٩ - هينجل - اليهودية - والهيللينية والمصادر السابقة .

٢٠ ـ هينجل وبوسيه غريمان ص ٣١٩ ـ ٣٤٤ .
٢١ ـ ٢٣ دلالة المصطلح غير مؤكدة ، كوهلت ترجع على الأرجح الى (معلم الجماعة) أو (الخطيب) ر. هينجل
٢٤ ـ في مديح الأجداد [٤٤ : ١-٤٩]: ١٦ بن سيراخ يمجد الوجوه الكبرى من التاريخ التوراتي هينوش ، نوح ، ابراهيم اسحاق يعقوب .. نص متفرد موازي له في الأدب المتعلق بالأمثال ويقربه هينجل من تمجيد الابطال في الأدب الهللنستي .. ولكن الكاتب ينقد نفسه والمديح يصبح تعليميا ورتيبا .
٢٥ ـ wschencke (ص ١٦٠) يذكر باللوغوس للفلاسفة الرواقيبه التي تدخلت واعطت شكلا في الكوزموس «القانون Loie (لوغوس) شامل . والذي هو الحكمة الحقيقية متدخلاً في كل مكان وهو مشابه لزوس .
٢٦ ـ ٢٧ ـ ٣٠ ـ المراجع السابقة وحسب بيكرمان ان المتطرفين انصار الهيللينية في القدس هم الذين دفعوا انطونيوشس للنصر .
٣١ ـ الاضطهاد وحرب المكابيين ـ حللت من قبل بيكرمان
٣٢ ـ ولكن الاتجاهات التوفيقية استمرت في التطور في ساماري في شرق الاردن وبصورة خاصة في الدياسبورا ، ذات اللغة الاغريقية .. هينجل ص ٣٠٨
٣٣ ـ انظر العرافة بوثيية المصري ـ عرافات هيستاسوب وسيبيل الخ
٣٤ ـ ٣٥ ـ المراجع المذكورة اعلاه
٣٦ ـ في سفره الانتشائي للسماء رأى هينوش الألواح التي كان عليها قد كتب التاريخ في مجمله (هينوس ٨١ : ١-٠) وانظر ويدنغرين .
٣٧ ـ انظر ـ اسطورة العود الأبدي لالياد ص ١٤٩ ـ وهذه الكليشيهات تشتق من سيناريو اسطوري قديم حول نهاية العالم . يتلوها خليفة جديدة .
٣٨ ـ من ذات الفترة هينوش الأول ٩٠ ـ ٣٣ .. كتاب جاسون دي سبريد المكتوب فيما بعد موت يهوذا كابا ر. هينجل ص ١٩٦
٣٩ ـ في الواقع ان اليهودية كانت تجهل ان ابن الانسان يشكل مفارقة لاسطورة الانسان البدئي فالرؤوية اليهودية تمجد الدور الأخروي لابن الانسان ولكنها لم تضع اية اشارة الى وجوده التالي و F.A. Borsch اوضع تلقائياً الميتولوجيا الشرقية للملك كابن للاله الأولي ـ انظر كتابه (ابن الانسان في الاسطورة والتاريخ)
٤٠ ـ في ذات المؤلف توجد فكرة قديمة للانحطاط الذي لا مفر منه للعالم «الخليقة سبق ان شاخت وسبق لها ان اجتازت قوة الشباب الخ .. اسيدراس [٧ : ٥٥]
٤١ ـ تاريخ آخر الزمان يمكن حسابه من قبل الحكماء (رص ٢٦٠) المراجع

٤٢ ـ اظهرت نصوص قمران روحان مخلوقان من قبل يهوه ـ خيراً وشراً (ف ٢٢٣ع) . وهو مذهب يذكر بالسير فانسيم (ف ٢١٣ ع)

٤٣ ـ المراجع السابقة

٤٤ ـ الفكرة ستنبثق بالارشادات الربانية ـ (المراجع ص ٣١٥)

٤٥ ـ ٤٥ ـ السنهدرية ٣٩ له اراء ربانية مختلفة

٤٧ ـ رينجرين ـ ديانة اسرائيل ص ٣٥٠ ان الارشادات حول العصر المسيحاني استمرت في الحلقات الربانية للعصور الأولى ب.م وذات البواعث تعود باستمرار . دمار الوثنيين ، انتصار اليهود ، النعم الممنوحة من قبل الاله للمؤمنين الخ . . وبعض النصوص تضيف في هذا اليوم ستصبح كل الشعوب مؤمنة بعبادة الاله الواحد يهوه . ولكن الايمان الاثير على كتاب الرؤيا حيث ان تاريخ الآخرة يمكن حسابه ، قد اهمل ، والمسيح سيصبح في الفترة المعينة من الرب وحتى ذلك الحين فان المؤمنين يجب ان يطبقوا التوبة وان يندموا ويطبقوا الشريعة .

٤٨ ـ ٤٩ ذات المراجع

٥٠ ـ في الهند ، تأكد مذهب الغنوص السري الذي يوصل بطريقة تلقينية ، منذ عصر الاوبانيشاد ولكنه سيعاود انبثاقه على الأخص في ادب التانتريك (الجزء الثالث)

٥١ ـ ٥٤ هينجل ـ ويرى رفع المعتقدات والأفكار المستعارة من قبل اليهود لوسط ثقافي شرقي هيلليني . ويرى. ان الجبهة الثانية في مواجهة الهيللينية كانت تشكل القوة الوحيدة القادرة لتحديد كلية الحضور للتوراة ، وفي الواقع ، ستنتهي التوراة لتسود في آن واحد الحاضر التاريخي والايقاعات الكونية .

٥٥ ـ اليعازر بن هيركانوس ص ١٠٠ ق.م رفض لقوله : «اذا لم تكن التوراة هنا فإن السماء والأرض لم توجدا . . نص نقله هينجل .

٥٦ ـ بعد قرنين ، فإن التانتاريسم ستحضر نموذجاً بشريا ـ كونيا وشعائر مشابهة

٥٧ ـ حتى في الدياسبورا فإن اولوية التوراة لم تكن موضع جدل ، ان الشرح المجازي لم يلغ المعنى الادبي للكتابات وقد قبل فيلون القوانين والموانع المنصوص عليها .

الفصل السادس والعشرون

توفيقية وابداعية للعصر الهيلليني : وعد الخلاص

٢٠٥ ـ ديانات الأسرار

كما لاحظنا سابقا (ف ١٨٤ع) ، فإن وعد الخلاص يشكل التجدد والتمييز الرئيسي للديانات الهيللنستية ، وهو بالتأكيد ، يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بالسلامة الفردية ، ولكن العبادات السلالية cultes dynastiques كانت قد اتبعت هدفاً مماثلاً[1] . إن الآلهة المشهورة التي عرفت الموت والبعث كانت اكثر قرباً من الانسان ، من الآلهة حامية المدن poliades . وإن عبادتها لاءمت مسارة معدة قليلاً أو كثيراً (تعليم ديني ، طقوسي ، ارشاد باطني) كان المريد على اثرها يقبل في الجمعية السرية . ولم يكن الانتماء إلى جمعية للأسرار ليمنع ابداً المسارة في جمعيات **أخوية** confréries سرية أخرى . وكما في كل التيارات الروحية المعاصرة ، فإن الأمل بالخلاص تطور تحت اشارة التوفيقية .

وفي الواقع ، إن التوفيقية الدينية هي العلامة السائدة للعصر . ان التوفيقية ، كظاهرة قديمة لا يعرف تاريخها ، والتي تأكدت بشكل واسع ، لعبت دوراً هاماً في تكوين الأديان الحثية ، والاغريقية والرومانية ، وفي ديانة اسرائيل وبوذية الماهايانا والتاوية . ولكن مايميز توفيقية العصر الهيلليني والروماني هو اتساعها وابداعيتها المدهشة . وهذه التوفيقية ، البعيدة عن الابتذال والجدب ، تبدو كأنها الشرط لكل ابداع ديني . وقد رأينا أهميتها في اليهودية لما قبل النفي (ف ٢٠٢ع) وسنكشف فيما بعد عملية مشابهة في بعض ابداعات التدين الايراني (ف ٢١٢ع) . والمسيحية البدائية تتطور كذلك في وسط توفيقي . صحيح ، ان ألهاً واحداً ، في العصر الذي نبحثه ، سيرابيس sèrapis هو نتيجة **دمج محسوس** لصورتين إلهيتين ، ولكن الاسرار الاغريقية الشرقية ، والارشادات الأخروية والرؤوية وعبادة الحكام ـ لكي نشير لبعض الأمثلة فقط ـ توضح الأهمية والحيوية للفكر التوفيقي .

ونستطيع القول بأن الوعود بالخلاص تجهد نفسها لتثير الاحترام الكبير جداً للربة تيشية Tyché «الحظ» ـ (فورثينا ـ باللاتينية) . وان تيشيه المتقلبة الأطوار والغير متوقعة تقدم السعادة أو سوء الحظ بلا مبالاة ؛ وهي تظهر نفسها مثل (انانك) Ananke (الضرورة) أو هيمارمين hemarmene «القدر» ، وتظهر قوتها بخاصة في حياة العظماء كالاسكندر(٢) . ان القدر ينتهي ليكون مشاركاً بالقدرية الكوكبية . فوجود الافراد كذلك أجل المدن والدول كله محدد بالنجوم . وهذا المبدأ ، والتنجيم ـ التقنية التي تطبق قواعده ـ يتطوران تحت تحريض ملاحظات البابليين المطبقة على ثورات الكواكب . بالتأكيد ، ان نظرية التوافقات ـ **الأصغر** والاكبر micro- macrosmique كانت معروفة منذ زمن طويل في مابين النهرين (ميزوبوتاميا) (ف ٢٤ع) وفي العالم الآسيوي ايضا . ومع ذلك فإن الانسان لم يشعر في هذه المرة بأنه متضامن مع الايقاعات الكونية فحسب ، ولكنه يكتشف انه محدود بحركات النجوم(٣) .

إن هذا المفهوم المتشائم لم يصل لافتقاد الثقة به الا باعتقاد ان بعض الكائنات الالهية مستقلة عن القدر ، بل وانها أعلى منه . فبعل Bel أعلن معلماً

للحظ ، (فورتينا ريكتر Fortina recter وفي اسرار ايزيس ، تؤكد الربة المسارة التي تستطيع ان تحدد لها الحياة خارج الأجل المحدد من قبل القدر . وفي مدائح ايزيس واوزيـريس تعلن الربة : (لقد غلبت القدر ، والقدر اطاعني» ان تيشيه أو (فورثينا) تصبح نعتاً لايزيس[٤] . وهنالك عدد من النصوص المتعلقة بالأسرار والهرمسيـةتؤكد ان المتلقين لم يعودوا محدودين بالقدر وبالمصير[٥] .

وعلى خلاف المسارة في اسرار ايلوزيس التي كان لها مكان استثنائي في التيليستريون telestrion ولأجل دقيق (ف ٩٧٠ع) ؛ فإن المسارات في الديانات الأخرى للسلامة كان يمكن لها ان تنجز في أي مكان وفي أي تاريخ . وان كل هذه العبادات المسارية كانت تعلن عن قدمية موغلة في قدمها ، حتى ولو ان ترتيبها لم يؤرخ ، في بعض الحالات ، ولو حتى بالقرن . إنه بالتأكيد ، يتعلق ، بنموذج خاص - لزيتجيست Zeitgeist من العصر الهيلليني - الروماني ، ولكن ، وكما سنرى ، فإن ديانات الخلاص تركب بعض العناصر الدينية القديمة . وباستثناء الديونوزيسية ، فإن كل الأسرار هي من أصل شرقي : فريجيه (سيبيل وآتيس) ؛ مصرية (ايزيس واوزيريس) ، فينيقية (ادونيس) ؛ ايرانية (ميترا) . غير انه في العصر الهيلليني وبخاصة في ظل الامبراطورية ، لم يكن لهذه العبادات الشرقية خاصية إتنية ، فبنياتها ، وتطلعاتها الدينية الانقاذية كانت أعلنت رؤية شمولية . ويعرف الشيء الجوهري من عباداتها الشعبية ، أما مايخص الطقوس السرية ، أي المسارة بمعنى الكلمة ، فقد انخفضت الى بعض الاشارات الموجزة واللغزية .

ويعرف ان المرشح كان يرتبط بقسم بأن يحفظ السر لكل ماسيرى ويسمع خلال الحفلات . ويتلقن ايضا التاريخ السري (Hieros logos) الراوي لأسطورة أصل العبادة . وعلى الأرجح ، كانت الاسطورة معروفة مسبقاً من قبل الناشىء المتلقي ، ولكنه كان يوصل إليه تفسير باطني جديد ، الأمر الذي كان يعادل الكشف عن المعنى الحقيقي للمأساة الالهية . وقد كانت المسارة تستبق بفترة من الصيام والنقيعة maceration ، وعلى إثرها كان المبتدىء يطهر بتطهيرات ، وفي اسرار ميثرا وآتيس ، كان يضحى بثيران وكباش على حفرة مغطاة بمشبك : وكان

الدم يقطر على المتلقي الموضوع في الاسفل . وبطريقة لم تتوضح كان الطالب يشارك طقوسياً في سيناريو ديني يقام عن الموت والبعث للألوهية . واجمالاً فإن المسارة كانت تحقق نوعاً من تقليد الالوهية imitatio dei . وان غالبية الاشارات أو الدلالات المجتزأة التي بحوزتنا ترجع للموت والبعث الرمزيين للمتلقي . فـ لوسيوس Lucius البطل في رواية ابولية Apulee ـ الممسوخون métamorphose ـ تحمل اثناء تلقينه باسرار ايزيس موتا تطوعيا و «قرب العرش ، من الموت» من أجل الحصول على «يوم من الولادة الروحية» [٢٩ ٢١ : ٢٤] . وفي اسرار سيبيل ، يعتبر التلميذ المريد موريتورس moriturus «على أهبة الموت»[٦] . وهذا الموت المجازي mystique تتبعه ولادة جديدة ، روحية . وكما كتب سالوستو sallusto عن الطقس الفريجي «كان التلامذة المسارون الجدد يتغذون باللبن كما لو أنهم كانوا قد ولدوا مجدداً» . وفي النص المعروف تحت اسم طقس ميترا Liturgie de mithru والذي داخله عرفان (غنوص) هرمسي يمكن أن نقرأ : «اليوم لكوني حامل بك مجدداً بين عدد لا يحصى «أصبحت خالداً» أو «مولوداً مجدداً بهدف اعادة التولد في هذه الولادة الخلاقة للحياة . .»[٧] .

وخلال الحفلات ، كان التلميذ الجديد يتأمل أو يمسك بعض الاشياء المقدسة . وكان يوصل إليه في ذات الوقت تفسير رمزيتها ، وعلى الأرجح كان يتعلق بتفسير باطني يوضح ويبرر قيمتها الانقاذية ، وخلال فترة من مسارته ، كان المتلقي يشارك في مأدبة طقوسية . وفي الفترة التي نبحثها ، كان لهذه الممارسة التي لا يمكن تذكرها ، بصورة خاصة ، دلالة أخروية وفي اسرار ميثرا ، كان يقدم الخبز والخمر للمتلقي ليعطيان القوة والحكمة في هذه الحياة ، والخلود السامي في الأخرة . وبفضل المسارة كان المتلقي يصبح المماثل للآلهة . فالتأليه والتعظيم لدرجة التأليه ، وعدم الموت . تلك هي المفاهيم المألوفة في كل ديانات الأسرار[١٠] .

٢٠٦ ـ ديونيزوس الروحاني

في العصر الهلنستي والروماني كان الإله الأغريقي ديونيزوس هو الأكثر

شعبية . وكانت عبادته العامة قد «تطهرت» واتخذت صفة روحانية ملغية الوجد (الذي استمر مع ذلك يلعب دوراً في الأسرار الديونيزية)[11] . يضاف الى ذلك ، ان ميتولوجيا ديونيزوس كانت أكثر حيوية . وكانت الفنون التشكيلية ، وبخاصة التزيينات المقدسة قد ألهمت على نطاق واسع مشاهد ميتولوجية شهيرة ، وفي الدرجة الأولى منها طفولات ديونيزوس («الولادة العجيبة ، «السلة») ، وفداء أريادن ، المتبوع بزواج مختلط Hieros gamos . فالميتولوجيا ، وأمكنة العبادة ، والآثار كانت تذكّر بتأمل الطبيعة المزدوجة لديونيزوس ، المتولد من زوس وامرأة فانية ، والمضطهد ومع ذلك الظافر ، والمقتول والمبعوث حيا . وقد أظهر قبره في دلفي ، ولكن قيامته كانت مرسومة على عدد من الآثار . لقد نجح بترفيع والدته لتكون بين الهة الاوليمب ؛ وبصورة خاصة ، سحب آريادن Ariadne من مقر الأموات وتزوجها . وعليه ، فإن صورة اريادن في العصر الهيلليني كانت ترمز للروح البشرية . وبعبارات أخرى ، ان ديونيزوس لم يعتق الروح من الموت فحسب ، وانما اقترن بها في اعراس روحانية [شنيدر ٢٠ ص ٨٠٢] .

إن شعبية ديونيزوس قد انتشرت كذلك بواسطة جماعات التخنيت Technites أو الفنانين الديونيزيين ، جماعات تأكدت في آثينا منذ ٣٠٠ ق.م . والمقصود بها جمعيات أخوية (كونفريرات) ماقبل دينية[12] ، ولكن بدون خاصية الأسرار . أما بالنسبة للاسرار الديونوذيسية بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد كنا أبرزنا جوهر المسألة (ف ١٢٥ ع) . ونعيد إلى الذاكرة أن ديونيزوس في عابدات باخوس les Bacchantes يعلن البنية السرية لعبادته ويوضح ضرورة السر التلقيني: «سرهم يمنع من تواصلهم مع من ليسوا باخيين» ـ «ماهي فائدتهم بالنسبة لأولئك الذين يحتفلون بها؟» كما يتساءل بنسيه penthe . «غير مسموح لك أن تتعلمها ، ولكنها اشياء جديرة بأن تعرف» [الاسطر ٤٧٠ ـ ٧٤] . وفي آخر المطاف ، ان السر التلقيني قد حوفظ عليه جيداً . وقد انقرضت كل النصوص المرتبطة بخدمة دينية تقريباً ، باستثناء بعض الترنيمات الأورفية المتأخرة . واذا كانت الوثائق الأثرية من العصر الهيللنستي والروماني عديدة جداً ، فإن تفسير رمزيتها ، حتى في حال قبوله من اكثر العلماء ، لم ينجح في توضيح المسارة بمعنى الكلمة .

ولايمكن الشك بالتكوين المغلق ، وبالتالي الطقوسي ، بمعنى مساري ، للجمعيات الأخوية الديونوزيسية des thiases dionysiaques وهنالك نقش كومس de cumes (بداية القرن الخامس) يثبت ان للأخويات confréries مقابرها الخاص حيث لم يكن مسموحا بالدفن فيها إلا للملقنين باسرار باخوس[١٣] . وقد أمكن إظهار (خلافاً لرأي بعض العلماء الذين لم يروا فيها سوى نطاق ملائم لمآدب واحتفالات مدنسة) أن المغارات الديونوزيسية ، كانت تشكل امكنة للعبادة . وتمثل الشواهد الايقونية الأكثر قدما والعائدة للقرن السادس ، ديونيزوس نائماً في مغارة ، أو تمثل حورية ménade راقصة أمام قناع للاله بقامة كبيرة قائمة داخل مغارة . وعليه فإن النصوص تشير الى الرقصات المقدسة والحفلات الطقوسية أمام المغارات الديونوزيسية ، ومن جهة اخرى ، انها تؤكد بدقة على ان الحفلات كانت تحصل اثناء الليل بهدف ضمان سريتها . اما بالنسبة للشعائر المسارية ، فنحن مضطرون للجوء إلى الافتراضات . وقد استخلص فريدريك ماتز Frédrick matz في بحثه حول المشاهد **التصويرية** متبعاً في هذا مثال علماء آخرين ، ان العمل المركزي للمسارة كان يتكون في الكشف عن عضو التذكير المخبأ في سلة (ليكنون liknon) ومن المرجح ان هذا المشهد ، الذي اشتهر على نطاق واسع ، كان له أهمية طقوسية ، غير ان بويانسيه Boyancé قد برهن بشكل ملائم على أن النصوص تذكر الليكنون le liknon بأنه ذي علاقة مع كل انواع المسارات وليس مع مسارة ديونيزوس وحدها .

ومن جهة أخرى ، ففي متحف اوستي ostie وعلى بروز من الجص أو المرمر ، يبدو ديونيزوس وثلاثة شخصيات أخرى معينين باسمائهم ، والسلة تحمل العلامة : سر mysteria . وعليه ، فإن السلة تحتوي الكريبونديا les crepundia أو سينيا signa ، بمعنى «اللعبات الروحانية» (الدوَّامة ، المعيَّن ، الكعوب ، والمرآة) والمؤكدة سابقاً منذ القرن الثالث ق.م في اوراق بردي غوريب Gorub وان التيتان Titans مع هذه الألعاب نجحوا بجذب الطفل ديونيزوس - زاغروس وذبحوه بعدئذ وقطعوه قطعاً (ف ١٢٥ع) ، وقد نقلت إلينا هذه الاسطورة من قبل بعض المؤلفين المسيحيين فقط ، ولكنها كانت معروفة من قبل الملقنين الاثنين بالاسرار -

بلوتارك وأبوليه ـ وكذلك من قبل الكونفريرية الأورفية في مصر الهيللنستية[١٥] . وبتفحصها حسب الآثار ، يبدو أن التباهي بالقضيب كان يشكل جزءاً من «هذه الشعائر الرهيبة التي تسبق المرور للحضرة الالهية»[١٦] . ويظن بويانسية Boyancé ان «من كان يستطيع ان يوجد الايمان في المتلقي ، واليقين بدعم إلهي ، قادر بأن يضمن له في الآخرة مصيراً متميزاً ، لم يكن يستطيع ان يحصل على رؤية شيء كهذا» ص (٤٥) فالعمل المركزي للمسارة كان الحضور الالهي الذي يغدو محسوساً بالموسيقى والرقص ، التجربة التي تولد «العقيدة برابطة صميمية تقام مع الاله»[١٧] .

وبالتأكيد ان هذه الملاحظات ، تأكدت على نطاق واسع ، ولكنها لا تعرفنا كثيرة بالطقوس المسارية . وعلى كل حال ، يحسن ان **نحدد** بدقة ان التباهي بالقضيب كان يشكل عملاً دينياً ، لأنه كان يتعلق بالعضو المولد لديونيزوس ، الذي هو اله وفانٍ غلب الموت . ونعيد التذكير هنا بقداسة لينغام شيفا lingam de shiva ، لكي نأخذ بعين الاعتبار انه ، في النصوص الثقافية والدينية ، لايرمز

العضو المولد لاله لسر الخلق فحسب ، وانما يعيد حضوره ايضا .

وان مثل هذه التجربة في العالم الغربي الحديث هي بالتأكيد غير مقبولة ، لأن المسيحية ، خلافاً للأسرار ، قد جهلت القيمة القدسية للجنسية sexualité . وقد أمكن اجراء ذات الاشارة بخصوص وجبات ديونيزية طقوسية ، عندما ، كان يترك الملقن بالاسرار وهو متوج بالزهور في حالة سكر مفرح معتبر كتملك الهي . ويصعب بالنسبة لنا تفهم القداسة لمثل هذه المسرة . ومع ذلك كانت سبقت الطوبى أو نعيم ماوراء القبر الموعود للملقن في الاسرار الديونوزيسية[١٨] .

وهنالك نصوص متأخرة ، تعكس الأخروية الأورفية ، وتؤكد على دور ديونيزوس بصفته ملكاً للأزمنة الحديثة . فمع انه طفلاً ، جعل منه زوس حاكما على كل الآلهة في العالم . ان تجلي الطفل الالهي يعلن عن الشباب الجديد للكون ، ويعلن عن تقمص كوني palin génésie cosmique[١٩] .

(الطفل بصفته علامة لتجدد الولادة واعادة تجديد يمدد الرمزية الدينية للقضيب) . ان الآمال المرتبطة بانتصار ديوزينوس ، واذن باعادة تجديد دوري للعالم ، يدخل العقيدة في رجعة وشيكة الوقوع للعصر الذهبي . وهذا ما يفسر الشعبية للقب ديونيزوس الجديد الذي اعطي لشخصيات مختلفة (أو الذين وصفوا انفسهم به) على مدارات عصرنا[٢٠] .

٢٠٧ - آتيس وسيبيل

إن عبادة سيبيل و «الأسرار» آتيس توضح ايضا وبشكل افضل الاشكال الدينية الأخرى المعاصرة للتشتت البنيوي للابداعات التوفيقية . فالربة الفريجية المدخلة إلى روما في ٢٠٥-٢٠٤ ق.م لانقاذ الجمهورية والمهددة بجدية من قبل الجيوش القرطاجية (ف١٦٨ع) كان لها قصة متعددة الألوف من السنوات. ، ويشهد الحجر الأسود الذي يمثل سيبيل طقوسيا بقدم العبادة: فالحجر واحد من أقدم الرموز للأرض الأم . وانها الحجر دائما ، وبعبارة اخرى الأم الكبيرة سيبيل ، هي التي توجد في الأصل لأتيس ولعبادتها . وحسب الاسطورة التي نقلها بوزانياس [بوزانياس ٧ - ١٧ : ١٠ - ١٢] إن غولا خنثى herma phrodite أجديتيس، ولد من حجر ملقح من قبل زوس[٢١] . وقد قرر الآلهة اخصاءه وتحويله الى ربة ، سيبيل . وحسب رواية مختلفة أخرى ، ان شجرة لوز انبثقت من دم الخنثى . وبإقدام نانا ابنة نهر سنغاريوس على أكل حبة لوز[٢٢] أصبحت حاملاً فولدت طفلاً (آتيس) وما ان كبر آتيس حتى احتفل بعرسه من ابنة الملك . وعندما دخلت أدجيتس التي احبته الى قاعة الاحتفال ، اعتبر حضورها عملاً جنونياً ، فاجتث الملك الأعضاء الجنسية المولدة وهرب آتيس ، واختتن تحت شجرة صنوبر ومات . وقد حاولت أجديتسي يائسة اعادة إحيائه ولكن زوس عارض في ذلك ، وسمح فقط ببقاء جسد آتيس غير معرض للفساد والاشارة الوحيدة لحياته ستكون نمو شعره وحركة اصبعه الصغرى[٢٣] . وبما أن ادجيتيس ليست سوى تجلٍ للأم الكبرى الخنثى ، فإن آتيس هو في آن واحد الابن ، والحبيب والضحية لسيبيل ، وقد حزنت الربة على غيرتها ، فندمت وبكت حبيبها .

ان هذه الميتولوجيا الموغلة في القدم والشعائر الدموية التي سنشير اليها تشكل الارومة لدين انقاذي اصبح شعبياً لدرجة كبرى في العصور المسيحية الأولى في كل الامبراطورية الرومانية . ومن المؤكد ان السيناريو الاسطوري الطقوسي كان قد اوضح «السر» للنبات (ف ١٢)

إن الدم والاعضاء الجنسية المقدمة لسيبيل كانت تضمن الخصوبة للأرض الأم . ولكن هذه العقيدة القديمة قد غذيت مع الزمن بدلالات دينية جديدة ، وهذه الطقوس الدموية غدت وسائل للغفران . ومن الراجح ان الوظيفة المتعلقة بوجود فادٍ في العبادة كانت معروفة منذ وقت سابق . ففي بسيونونت pessiononte كان يوجد (كونفريرية) مغلقة من نموذج ديانة الاسرار[٢٤] . وقبل ادخالها لروما بزمن طويل ، كانت عبادة آتيس وسيبيل قد انتشرت في اليونان ، حيث انها تحملت على ما يرجح العديدمن التغيرات. وفي اليونان كما في روما فإن نفور الكهنة الخصيان تجاه الشعائر الدموية جعل اعتماد آتيس في وضع تابع مرؤوس . وخلال زمن طويل ، لم يستفد هذا الاله في روما من أية عبادة عامة ، مع ان عدداً من التماثيل الصغيرة من الطين المشوي التي ترجع للقرن الثاني ق.م تؤكد وجوده . ولم يرتفع آتيس وطقوسه الى المستوى الأول الا تحت سلطة كلود وخلفائه وسنشير الى اهمية هذا الحدث .

ان الأعياد كانت تقام في الاعتدال الربيعي l'exquinoxe من ١٥ ـ ٢٣ آذار . وفي اليوم الأول للقصب (دخول القصب) ، كانت كونفريرية القصب تحمل الى المعبد قصباً مقطعاً ، وحسب الخرافة ، ان سيبيل وجدت الولد آتيس موضوعاً على ضفاف نهر سانفريوس . وبعد سبعة أيام تستقدم كونفريرية دندروفور من الغابة شجرة صنوبر مقطوعة . فكان جذعها يغطي بعصابة ، مثل الجثة ، وفي الوسط كانت ترتبط صورة لآتيس . وكانت الشجرة تمثل الاله الميت . وفي ٢٤ آذار (يوم الدم) كان الكهنة والمتلقنون يمارسون رقصات متوحشة على صوت الصنوج والطبول والمزامير ويجلدون انفسهم حتى تسيل دماؤهم ويقطعون اذرعهم بالمدي ، وفي أوج الهيجان ، كان بعض المتلقين الجدد يقطعون اعضاءهم الذكورية ويقدمونها كنذور للربة . ومع العويل والانتحابات الكئيبة

لليل ٢٤ ـ ٢٥ آذار كان يتوالى فجاءة انفجار الفرح ، ففي الصباح ، كان يعلن عن قيامة الرب[٢٦] . وكان هذا يوم فرح عظيم (هيراليا) Hiralia .

وبعد يوم من الاستراحة ، كان يجري في ٢٧ آذار الطواف الكبير للنهر حيث يغرق تمثال سيبيل (lavatio) وحسب رأي بعض الكتاب ، كان يحتفل بالمسارات الفردية في ٢٨ آذار ، فكان التلميذ المستجد يقدس بدم ثور أو كبش مضحى به (taurabolium et criobalium) وواضح ، ان الاضحية حلت محل القطع الذاتي للتلميذ ، لأن هذا كان يقدم للربة الأعضاء المولدة من الاضحيات . وكان مقبولاً في «غرفة الزوجية» (بانتوس ، كوبيكولوم) أو «تحت المذبح» بصفة زوج روحاني لسيبيل ، تماما كالكاهن الذي يدخل في هذا المكان السري ـ المقدس لكي يقدم للأم البقايا من ختانه[٢٧] .

وفيما يتعلق بالمسارة بمعنى الكلمة ، فإن الوثيقة الوحيدة التي نحوذها هي العبارة المذكورة من قبل كليمنت الاسكندري والتي استخدمت ككلمة مرور للملقنين : «لقد اكلت بالطبلة ، وشربت بالصنج ، وحملت بالكيرونوس ، لقد دخلت تحت المذبح» [٢ ـ ١٥ بروتريبت] وان المشابهة مع السنتيما le synthema لألوزيس هي واضحة (ف ٩٨ ع) ، ويمكن لها ان تفسر إما باستعارة من جانب أو آخر ، وإما بالاشتقاق بدءاً من صيغة عامة مستعملة في عدد من الاسرار في العصر الهللنستي . وهذه الصيغة تعود بالتأكيد للشعائر التلقينية . فالطبلة والصنج هما أداتان مفضلتان لسيبيل . وبما ان آتيس كان قد سمى «سنبلة القمح المحصورة خضراء» [فيلوز وفومينا ٥ ـ ٨] فمن المحتمل ان الوقعة أو الوجبة الطقوسية كانت تتألف أساساً من خبز وخمر ، وفي الواقع ان فيرميكوس ماتيرنوس قد فسرها كمشابهة وموازية شيطانية ومحزنة للعشاء السري المسيحي cènechrétienne . أما الكيرنوس kernos ، فمن الراجح في العبادة المسارية لآتيس ، ان هذا الاناء من الطين المشوي لم يكن يستعمل من أجل التقدمة الغذائية وانما من أجل تقديم أعضاء الثور الجنسية او اعضاء الكبش للأم (من تحت المذبح)[٢٨] .

وكما سنرى ، فإن اسرار أتيس وسيبيل ، أقله بدءاً من تاريخ معين ، كانت وعدت الملقنين بالخلود . وهنا يقتضي التفحص عن قرب لدلالات الطقوس الرئيسية ، أي المحرمات من الأغذية والختان للكهنة . فالأديان الهيللنستية للأسرار ، رغم روحانيتها حافظت على عدد من العناصر القديمة . ويتعلق الأمر من جهة أخرى بمميز لحركات دينية تفرض المسارة الفردية . فأكل اللحم النيء l'omophagie ، الشعيرة الديونيزية بامتياز ، كانت قابلة لاعادة تحيين تجربة دينية مميزة للصيادين البدائيين (ف ٩٩ع) . وبصورة عامة ، يمكن القول ان الحفلات ذات البنية المسارية تعيد اكتشاف بعض التصرفات القديمة وتعيد تقييم عدد من الأشياء الطقوسية البالية . ويمكن ان نعيد الى الذاكرة في هذا الصدد سكاكين الصوان المستعملة من أجل الختانات المسارية ، أو دور المعين (bull-roarer) Rhombe في الميتولوجيا والمسارة الأورفية ، أو الوظيفة الدينية للسر (ف ٩٩ع) .

إن الأسرار الهيللنستية تذكر بتصرفات طقوسية قديمة جداً - موسيقى متوحشة ، رقصات هيجانية ، انواع الوشم ، امتصاص نباتات للهلوسة - بهدف اجبار قرب الألوهية ، لابل الحصول على التوحد الروحي في اسرار آتيس ، وان الصيام المفروض على التلامذة يتألف أساساً في الامتناع عن الخبز[٢٩] . لأن الاله هو «السنبلة المحصودة خضراء» وان الوجبة المسارية الأولى ترد في مجملها لتجربة القيمة القدسية للخبز وللخمر ، تجربة قلما تكون مقبولة لدى السكان المدينيين . اما بالنسبة لختان الكهنة ذاتياً وبعض المؤمنين اثناء ارتعاشاتهم الوجدية ، فتؤكد طهارتهم المطلقة ، وبعبارة اخرى عطاءهم الشامل للألوهة[٣٠] . ان مثل هذه التجربة هي بصعوبة غير ممكنة التحليل ، وبأكثر من غرائز جنسية قل أو كثر عدم الشعور بها التي تحكم المتلقي ، فيجب ان يؤخذ في الحسبان الحنين الى خنثوية androgynie طقوسية ، أو رغبة في مضاعفة احتياط من «قوى مقدسة» برهبانية صارمة أو مشهدية ، أو حتى من الارادة بأن يشعر بنفسه مطروحاً خارج [illegible] التقليدية للمجتمع بإحتذاء ألوهية كلية . وفي آخر المطاف ، فإن عبادة آتيس وسيبيل جعلت من الممكن اعادة اكتشاف القيم الدينية للجنسية والألم الطبيعي والدم . إن الرعدات transes كانت تحرر المؤمنين من سلطة المعايير والاتفاقات ؛

وفي معنى آخر ، كانت الاكتشاف للحرية .

إن الاتجاه لاثبات تجارب قديمة جداً كان متوازنا بالجهد من أجل «اعلاء» الزوج الالهي آتيس ـ سيبيل واعادة تفسير طقوسهما . وفي هذه المرة ايضا يهمنا ظاهرة خاصة بالتوفيقات الدينية المعاصرة : الارادة باستعادة الفضائل من الماضي السحيق والتمجيد معها للابداعات الأكثر حداثة . ان التفسير الديني ، المطبق بعناء من قبل اللاهوتيين وفلاسفة القرون الأولى للمسيحية ، طابق آتيس مع المبادىء ذاتها للخلق وللعملية الجدلية حياة ـ موت ـ عودة ولادة . ومع المفارقة ، فإن آتيس انتهى ليكون متمثلاً بالشمس وليصبح المركز للاهوت شمسي ، وغدا شعبياً حوالي نهاية الوثنية . ان الدلالة الأولى للمسارة ـ التمثيل الصوفي لاللاه ـ قد أغني بقيم جديدة . وهنالك نقش روماني من ٣٧٦ يعلن «يعاود الولاة للأبد» ذلك الذي ينجز التوربول والكريوبول le Taurobole et le criobole[٣١] . انه يتعلق ، احتمالاً ، بتأثير مسيحي ، ولكن الوعد «بالقيامة» أو «معاودة الولادة» كان مستتراً في السيناريو الاسطوري ـ الشعاري للهيلاريا Hilaria ومن الراجح ان لاهوتيي الاسرار ، المجابهين بنجاح البعثة المسيحية ، قد اشاروا بالحاح لفكرة الخلود ، كنتيجة للغفران المنجز من قبل آتيس . ومهما يكن من أمر ، فمن المؤكد ان الأباطرة الرومان ، وبخاصة الانطونيين الأخيرين ، قد طرحوا بقوة العبادة الفريجية بأمل توقيف انطلاقة المسيحية .

٢٠٨ ـ ايزيس والاسرار المصرية

إن الأسرار المصرية تتميز عن التجمعات الدينية الأخرى المماثلة بواقعة معرفة أصلها ومراحل انتشارها في آسيا وأوروبا . ففي بداية القرن الثاني قبل المسيح قرر بطليموس سوتر ان يدعم حكمه بمساعدة ألوهة مقبولة كألوهة عليا في آن واحد من قبل المصريين ومن قبل الاغريق . وهكذا رفع سيرابيس = ساراريس الى مرتبة الشرف لاله وطني كبير ـ وحسب التقليد المنقول من قبل بلوتارك (ارسيد

٢ ـ ٨] فإن بطليموس رأى تمثال الاله في الحلم ـ وفي ٢٨٦ ق.م أو ٢٧٨ ق.م حُمل تمثال الاله من سينوب واقيم في المعبد الذي شيد في الاسكندرية . ان الاشتقاق اللغوي لسيرابيس ووطنه الأصلي متعارضان ايضاً . وعادة يشتق اسمه من اوزيرابيس أي «اوزيريس ـ آبيس»[٣٢] وفيما يتعلق بعبادته ، فإن بطليموس سوتير كلف مثقفين اثنين من اللاهوتيين لاقامة بنيته : الكاهن المصري مانيتون والاغريقي تيموتيه . الأول ، مؤلف لعدة مؤلفات ، من بينها تاريخ مصر ، وكان يعرف الثقافة الاغريقية جيداً ، والثاني عضو من اسرة شهيرة وكان ملقناً ومكرساً بعدة اسرار .

ان نجاح العقيدة الجديدة قد ضمن بفضل الاحترام المعتبر الذي كان يتمتع به ايزيس واوزيريس . وكما رأينا آنفا (ف ٣٣ع) ، فإن اللاهوتيين في الامبراطورية الجديدة قد أحيوا تركيبا دينياً كبيرا بجمع اوزيريس ورع ، المعتبرين كمتكاملين ، وهذان الالهان انتهيا بتوحيدهما . وإن شعبية اوزيريس لم تتوقف عن التنامي لأنه كان الاله المصري الوحيد ، الذي ، اغتيل ، وانتصر على الموت و «أعيد احياؤه» بفضل العنايات من ايزيس وحوريس . في أبيدوس وأي مكان آخر ، كانت السيناريوهات الشعائرية الممثلة لمختلف المشاهد الاسطورية . قد شرحت أمام المعابد . وكان هيرودوت قد حضر مثل هذه الحفلات في سايس sais ، وقد ماثلها بالاسرار الاغريقية . وذلك هو السبب الذي من أجله تمنع عن وصفها [٢ ـ ٦][٣٣] . وممالاشك فيه ان بعض الطقوس والشعائر الأوزيرية السرية ، المنجزة داخل المعابد كانت تتعلق بالحياة المستقبلية[٣٤] . إلا أنه من المخاطرة تفسير هذه الطقوس السرية كحفلات مسارية حقيقية مطبقة لمنفعة فرد حي بقصد «سلامته» . من جهة أخرى ، يصعب الاعتقاد بأن لاهوتيا معتبرا كمانيتون لم يدخل في اسرار ايزيس تقاليد دينية اكثر قدما . وعلى سبيل المثال ، أمكن اظهار أن اخلاقيات ايزيس لاتمثل تجديداً حديثا ، وانما اعادت على العكس ، أخذ الصيغ الطقوسية القديمة ، ذات العلاقة مع الايديولوجية الملكية[٣٥] . واضافة لذلك ، وكما سنرى ، فإن اسرار ايزيس تحدد عدداً من الحفلات المطبقة في مصر القديمة .

وغير مجد هنا تلخيص تسلسل الأحداث والطوارىء الفجائية لانتشار العبادة خارج الحدود المصرية ، منتشرة بدئياً في آسيا الوسطى وفي اليونان ودخلت إلى ايطاليا في القرن الثاني ق.م وإلى روما في القرن الأول . وقد اصبحت العبادة المصرية شعبية لدرجة ان الرومان عارضوها مرة بعد اخرى بوحشية وصدر قرار مجلس السينا بتدمير معابدها . وكبقية الاسرار من العصر الهللنستي والامبراطوري فإن اسرار ايزيس وسيرابيس تطلبت اعياداً عامة ،وعبادة يومية وطقوساً سرية ، مشكلة المسارة بكل معنى الكلمة . وفي خطوطها الكبرى يعرف النموذجان الاحتفاليان الأولان . اما بالنسبة للمسارة، فإن شهادة ابولية apulié في تاسع كتاب من المسوخات ، معتبرة بحق ، كأثمن وثيقة من كل الأدب القديم حول الاسرار .

ان العيدين العامين الكبيرين كانا يعيدان ترتيب بعض المشاهد لاسطورة ايزيس واوزيريس . الأول ، القارب Nvigium أو «قارب ايزيس» وكان يفتتح الملاحة في الربيع . والثاني ابداع اوزيريس l'inventio d'osiris وكان يجري في ٢٩ تشرين أول الى أول نوفمبر . وفي أيام الصيام الثلاثة ، انتحابات وتمثيلات ايمائية مصورة البحث عن اوزيريس المذبوح والمقطع ، والطقوس الجنائزية المطبقة من قبل ايزيس (ف ٢٩ ع) وكان يتبع ذلك السرور وابتهاج المؤمنين ، عندما كان يعلن إليهم ان جسد الاله قد وجد ، واعيد تكوينه ، وعاود حياته[٣٦] وكان يحتفل بالمهام اليومية من بعد الظهر . ومن الصباح كانت تفتح ابواب المقابر وكان المشاهدون يستطيعون تأمل تماثيل الآلهة ويشهدون العبادة المنجزة من قبل الكهنة .

وحسب ابوليه ، كان الكاهن في اليوم المحدد سلفاً من قبل الربة ينفح بالماء التلميذ المتلقي ويوصل اليه «بالسر بعض الارشادات التي لم تكن مصنوعة من أجل الصوت البشري الغير جدير بها» . وبعدئذ ، وأمام كل الحضور ، يأمره ، بأن يمتنع ، خلال ستة أيام عن طعام اللحم والخمر . ومساء المسارة ، تقدم له عصبة المؤمنين هدايا مختلفة ، وبعدئذ ، يقاد من قبل الكاهن ، مرتديا جبة من الصوف ، في المعبد الصغير المنعزل عن المعبد . «بدون ريب . قد تسألني

بحشرية ، أيها القارىء النابه ، لمعرفة ماذا يقال بالتالي ، وماصنع ؟؟ سأقوله لك ، اذا استطاعه هذا ، ستتعلمه اذا كان مسموحاً بسماعه [. . . .] مع ذلك ، ان هذا قد يكون رغبةو تقية تتملكك ، وكذلك لن اجعل عدم صبرك يدم طويلاً . اصغ اذن ، ولكن صدقني ، لأنني اقول الحقيقة ، لقد ادركت تخوم الموت ، داعسا برجلي عتبته ، لقد رجعت محمولاً عبر العناصر . وسط الليل رأيت الشمس تتلألأ ، لقد استطعت تأمل وجها لوجه ، آلهة الجحيم والآلهة السماوية وقد عبدتها عن قرب» [ميت ٩: ٢٣] .

تأكيداً ، انه يتعلق بتجربة موت وبعث ، ولكنه يجهل المحتوى المميز . ان التلميذ المتلقي ينزل الى الجحيم ويعود مجتازا العناصر الأربعة الكونية ، انه يرى الشمس مشعة في الليل ، صورة يمكن ان ترد الى اوزيريس - رع مجتازا اثناء الليل العالم ماتحت الارض ، انه يتقرب هكذا بالتالي من الآلهة الأخرى يتأملها ويعبدها عن قرب . لقد جرت محاولة للكشف في هذه الجملة الملغزة عن اشارات الى مسيرة المتلقي عبر غرف مختلفة مزينة بتماثيل آلهة وبصورة العالم الأرضي ، ومعلقة فجأة في غرفة مضاءة بقوة . وبعض العلماء أثار تجارب الظاهرات النفسية الغير معروفة para psychologiques أو التنويم المغناطيسي l'lsypnose . وفي الواقع ان كل مايمكن التأكيد عليه هو ان التلميذ ينتهي لأن يشعر بأنه متماهي باوزيريس - رع أو حوريس . لأنه في الصباح ، مرتديا اثني عشر ثوباً شعائريا مرمزة للأبراج الاثني عشر ، يصعد التلميذ على منصة في وسط المعبد ، ورأسه محاط بتاج من النخيل . «هكذا ، ظاهراً على مثال الشمس موضوعاً هنالك كتمثال» . ويبدو على أعين الجمهور ، من امام تمثال ايزيس . وبالنسبة لبطل المسوخات ، كان هذا اليوم «يوم الذكرى السنوية لاعادة ولادته في حضن الاسرار» .

وفي اليوم الثالث ، كانت المسارة تتم بمأدبة طقوسية . مع ذلك ، وبعد سنة ، بناء على طلب الربة ، كان المتلقي يقيم في «الاسرار الليلية للاله الأعلى» [٩ - ٢٨] حفلة هي على ما يحتمل ذات علاقة مع ابداع أوزيريس . وأخيراً فإن رؤية جديدة للربة ، تقضي بمسارة ثالثة ، ولكن أبوليه ، لم يكشف شيئاً ، حول هذه الامتحانات المسارية الأخيرة .

وكما رأينا (ف ٣٣ ع) ، في مصر القديمة كان يؤمل بتطابق بعد الموت مع اوزيريس . ولكن المتلقي بواسطة مسارته في الاسرار كان قد تلقى ، هذه المطابقة الروحانية مع الاله ؛ وبعبارة اخرى ، فان الفرد الحي هو الـذي كان قد «تأله» ، وليست الروح في شرطها بعد الموت . وكما ان اوزيريس أعيدت له الحياة بواسطة ايزيس ، فـإن «تأله» المتلقي كان في الأساس عمل الربة . اننا نجهل «الحالة الوجودية» للتلميذ . ومع ذلك يبدو مؤكدا إن أي ملقن لم يكن يشك بمصيره المتميز ، بقربه من الآلهة ، بعد الموت . وفيما يتعلق بالمسارة بمعنى الكلمة ، اذا عدنا فيها الى ادوات الوصل ، فإن معلومات أبوليه تسمح لنا بفهم البنية التوفيقية للعبادة الجديدة . وتلعب العناصر المصرية دوراً هاماً : السيناريو الاسطوري ـ الطقوسي لايزيس وأوزيريس يستلهم العيدين العامين وعلى الأرجح ، أقله في جزء منه ، الطقوس المسارية ، ورفع ايزيس الى صف الربة العالمية ، لا بل الوحيدة ، واوزيريس الى فضيلة الاله الأعلى ، يحدد الاتجاه ، المؤكد سابقاً في العصر القديم (ب ٣٣ ع) : بترقية آلهة مختلفة إلى أعلى مستوى . هذا من جهة ، ومن جهةت اخرى ، فإن هبوط التلميذ الى الجحيم وصعوده عبر العناصر الكونية يتنكر للمفهوم الهللنستي بصورة متميزة .

ان الشعبية الكبرى للأسرار المصرية في القرون الأولى من العصر المسيحي ، وواقعة ان بعض ملامح الايقونات وميتولوجيا العذراء مريم قد استعيرت من ايزيس ، تدل على تعلق ذلك بابداع ديني رسمي وليس بانبعاثٍ مصنع ومستهلك . ويجب اعتبار آلهة الأسرار كتجليات جديدة لايزيس وأوزيريس . وماهو اكثر من ذلك ، تلك التفسيرات الهيللنستية التي ستتطور من قبل اللاهوتيين الارفيين الجدد والأفلاطونيين الجدد . ان اوزيريس الممثل بديونيزوس (الذي هو ايضاً قد قتل وقطع وبعث) اوضحت باعجاب التيولوجيا الاورفية الجديدة : النشكونية المدركة كتضحية ذاتية للألوهة ، مثل تبعثر الواحد في التعدد ، المتبوع «بالبعث» أي بتجمع المتعدد في الواحد الأولي[٣٧] .

ان التطابق المتبادل لكافة الآلهة يصل الى «وحدانية» من نوع توفيقي ، اثير لدى اصحاب النزعة الصوفية التي ترمي للاتحاد بالرب في العصر القديم

الأخير . ومما له دلالته ان مثل هذه الشمولية «التوحيدية» تمجد بخاصة الآلهة المثيرة للشفقة بامتياز امثال ديونيزوس واوزيرس . وفيما يتعلق بإيزيس واوزيرس ، فإن تفسيراتهما الأخيرة واعادة تقييمهما من قبل لاهوتيي الأسرار ومن قبل الفلاسفة الافلاطونيين الجدد ، الذين كانوا معتبرين ، خلال قرون من الزمن ، كمنيرين للحقيقة ولأعمق ، عبقرية دينية مصرية[٣٥] .

٢٠٩ كشف هرمس المثلث العظمات

تحت اسم الهرمسية ، تدرك مجموعة المعتقدات ، والأفكار والتطبيقات المنتقلة في الأدب الهرمسي . والمقصود بذلك مجموعة النصوص ذات القيمة غير المتساوية المحررة بين القرن الثالث قبل وبعد المسيح . ويميز عادة بين صنفين منها : الكتابات العائدة للهرمسية الشعبية (فلك ـ سحر ـ علوم خفية ، كيمياء) والأدب الهرمسي العلمي ، وبالدرجة الأولى منه ، السبعة عشر اطروحة باللغة اليونانية ، للمدونة الهرمسية corpus Hermeticum[٣٩] . ورغم اختلاف القصد والمحتوي والانشاء ، فإنه يوجد بين المجموعتين نصوص فيها بعض الوحدة في القصد ؛ وهذا مايعيد الى الذاكرة العلاقات بين التاوية الفلسفية والتاوية الشعبية (ف ١٣٣ع) أو الاستمرارية بين العبارات «الكلاسيكية» و «الشاذة» baroques لليوجا . وحسب التسلسل التاريخي فإن النصوص الهرمسية الشعبية هي الأكثر قدما ، وبعضها يرجع حتى القرن الثالث ق.م . أما بالنسبة للهرمسية الفلسفية ، فقد تفتحت بخاصة في القرن الثاني بعد المسيح .

وكما كان متوقعاً ، فإن هذا الأدب ، يعكس قليلاً أو كثيراً التوفيقية اليهودية ـ المصرية (اذن بعض العناصر الايرانية كذلك) وكان يعرف اضافة لذلك تأثير الافلاطونية ، الا انه بدءاً من القرن الثاني ق.م أصبحت الثنائية الغنوصية هي السائدة .

«بممثليه ، وديكوره، وأساطيره ، يبدو الأدب الهرمسي مصرياً . هذا الادعاء ، أقله بالنسبة لبعض النصوص القديمة ، يرتكز على بعض المعرفة لمصر

البطلمية أو الرومانية ، معرفة لا يسوغ مطلقاً سوء تقدير حقيقتها»[٤٠] . فالشخصيات (توت ، اغاتوديمون ، وآمون الخ) والتزيينات (ديكورات لمفيس ، وطيبة ، وهرموبوليس ، وسايس واسوان الخ(وبعض بواعث التيولوجيا الفرعونية (على سبيل المثال ، بزوغ الأكمة البدئية في طيبة أو هيرموبوليس) ، والتآلف مع التقاليد المصرية القديمة[٤١] . كل ذلك يشكل علامات يجب اخذها في الحسبان . ان تطابق توت مع هرمس كان معروفاً سابقاً من قبل هيرودوت [٢ : ١٥٢] . وبالنسبة للكتاب من العصر الهللنستي ، فإن ثوت كان المعلم لكل العلوم ، ومخترع الهيروغليفية وساحر كبير . لقد كان خلق العالم بالكلمة ، وعليه طابق الرواقيون هرمس باللوغوس logos[٤٢] .

والكتابات الهرمسية الشعبية لعبت دوراً هاماً في العصر الامبريالي . بدئياً ، بخاصيتها «البضعية» opératoire: الى عصر مرعب بالقدرة الكلية للقدر ، كشفت هذه النصوص «اسرار الطبيعة» (مبدأ التشابه ، وعلاقات «التجاذب» بين مختلف المستويات الكونية) ، والتي بفضلها احتاز المجوس le magus قواهم السرية . حتى القدرية النجومية امكن لها ان توضع موضع الفائدة . وفي واحدة من الكتابات الفلكية ، الليبرالهرمسي le Liber Hermetis[٤٣] ، لا توجد أية اشارة لمسألة الموت ولحياة المستقبل ؛ وما اهتم به ، كان الوسائل للعيش سعيداً على الأرض . مع ذلك فالمعرفة ، اذن تطويع الطبيعة ، كان قد غدا ممكناً بالألوهة . «لأنه يتعلق باكتشاف شبكة تامة من التجاذبات والتنافرات التي تمسك بها الطبيعة بسرية ، وكيف تخترق هذه السرية اذا لم يكشفها إله ؟؟»[٤٤] وبالنتيجة فإن العلم من نوع هرمسي يشكل في آن واحد سراً ونقلاً مسارياً لهذا السر ، ومعرفة الطبيعة تتحصل بالصلاة والعبادة أو ، على مستوى ادنى ، بالاكراه السحري[٤٥] .

في هذا المجموع corpus العديم الشكل من متحصلات سحرية ومعالجات متعلقة بالسحر الطبيعي والعلوم الخفية ، تصادف أحيانا مفاهيم مميزة للأدب العلمي . وفي الكوركوزمو kore Kosmeu (١٤ ـ ١٨) ، ان خلق الأرواح موصوف كعملية كيميائية . والصلاة التي تحقق منها أسليبيوس Aslepius ستوجد ،

في الاغريقية ، في حصيلة سحرية . وان الأهمية لهذا الادب الهرمسي «الشعبي» لا يجوز ان يساء تقديرها . فقد ألهم وغذى التاريخ الطبيعي لبلين pline الكتاب الشهير في القرون الوسطى فيزيولوجيا physiologus وعلمه الكوني sa cosmalogie وافكاره الرئيسية (مبدأ التجاذبات والتواصلات وفي المحل الأول منها الصلة بين الأكبر والأصغر) عرفت نجاحا بارزاً منذ بداية القرون الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ونجدها ليس حسب لدى الافلاطونيين الايطاليين ولدى الباراسيلز paracelse وانما ايضا لدى علماء مختلفين امثال ، جون دي ، واشمول ، وفلود ونيوتن[٤٦] .

وتماما كمنظومة النصوص الشعبية ، اعتبرت الكتابات المؤلفة للأدب الهرمسي العلمية وكأنها مكتشفة من قبل هرمس مثلث العظمات . وتختلف هذه الاطروحات بنوعها الأدبي ، وبخاصة بمذهبها وقد لاحظ بوسيه Bousrt في سنة ١٩١٤ أن المجموعة الهرمسية corpus Hermelicum تقدم لاهوتين لا يمكن التوفيق بينهما ؛ أحدهما متفائل (من نوع توحيدي ـ حلولي moniste-pantheiste) والآخر متشائم ، مميز بثنائية قوية . فبالنسبة للأول ، أن الكون جميل وخير ، لأنه مخترق بإله[٤٧] فبتأمل جمال الكون ، يتوصل للألوهة . والاله ، الذي هو في آن واحد ، الواحد ، والكل ، هو خالق ، ويدعى «أب» والانسان يشغل المكان الثالث من التثليث ، بعد الاله الكون . ان رسالته هي «في تأمل وعبادة الأشياء السماوية ، ومعالجة وادارة الاشياء الأرضية»(axlepiens ٨ ع) . وفي آخر المطاف ، ان الانسان هو المكمل الضروري للخلق ؛ انه «الكائن الحي القابل للموت ، زينة الكائن الحي الخالد» [ك . هـ . ٤ ـ ٢] .

وعلى العكس من هذا ، المذهب التشاؤمي ، ففيه ان العالم هو بالأساس سيء ، «انه ليس صنيعة الاله ، وعلى كل حال الاله الأول ، لأن هذا الاله الأول كائن بلا نهاية فوق كل مادة ، انه خفي في سر كينونته : فلا يمكن اذن ادراك الاله الا بالهرب من الكون ، وعليه يتوجب السلوك هنا كغريب»[٤٦] . ونعيد الى الذاكرة ، على سبيل المثال ، تكوين العالم والمأساة المثيرة للشفقة للانسان حسب

الرسالة الأولى من المجموعة ، البوامندريس le poimandrès : العقل الأعلى خنثى نوس nous ، انشأ في البدء خالقاً Demiurge أنشأ العالم ، وبعدئذ الشكل البشري p'Anthropos الانسان السماوي ، وهذا الأخير نزل في المحيط الأدنى حيث «مخدوعاً بالحب» اقترن مع الطبيعة (فيزيس physis) وولد الانسان الأرضي . ومنذئذ ، انقطع الشكل البشري الالهي عن الوجود لشخص متميز ، لأنه أحيا الانسان : حياته تحولت للروح البشرية ونوره لنوس en nous .

ومن أجل هذا ، فالانسان وحده بين الكائنات الأرضية هو في آن واحد فان وخالد ، مع ذلك بمساعدة المعرفة ، يستطيع الانسان ان «يصبح الها» . وهذه الثنائية ، التي تبخس العالم والجسد ، تشير الى الهوية بين الالهي والعنصر الروحي للانسان ، وتماما كالألوهة ، تتميز النفس الانسانية (نوس nous) بالحياة وبالنور . وبما ان العالم هو «كلية الشر» [ن . هـ ٤ ـ ٤] فإنه يجب ان يعود «غريبا» للعالم [٨ ـ ١] بهدف إكمال «ولادة الألوهية» [٨ ـ ٧] ، وعلى ذلك ، فإن الانسان المجدد يحوز جسدا خالداً ، لأنه «ابن الله ، الكل في الكل» [٨:٢] .

هذا اللاهوت ، المتضامن مع تشكونية ومع نظرة انقاذية متميزتين ، هو ذو تكوين غنوصي (عرفاني) بامتياز (٢٢٩ع) . غير أنه سيكون من الغفلة ربط الاطروحات الهرمسية المتوازعة للثنائية وللتشاؤمية ، بالغنوصية . فبعض العناصر الميتولوجية والفلسفية من نموذج (غنوصي) تشكل جزءاً من زيتجيست Zeitgeist العصر : وعلى سبيل المثال ، احتقار العالم ، والقيمة الانقاذية لعلم أولي المكشوفة من قبل إله أو كائن فوق البشر ومنقولة تحت علامة السر . ويضاف إلى ذلك أن الأهمية الحاسمة المعطاة للمعرفة ، المنقولة بطريقة تلقينية سرية لبعض التلامذة تذكر بالتقليد الهندي (للأوبانيشاد ، والسامكهيا والفيدانتا ، تماماً كما ان «الجسد الخالد» للانسان المتجدد يمثل مشابهات مع الهاتهايوجا والتاوية والكيميائيات الهندية والصينية .

٢١٠ ـ مظاهر تقلينية للهرمسية

اعتبر بعض العلماء الهرمسية كأخوة Confrerie دينية بالمعنى الأصلي ، مع عقائدها وشعاراتها ، ولاهوتها ، بحيث أن المدونة الهرمسية تؤلف كتابها المقدس .

وبعد بوسيه Bouset وكرول وكيمونت يرفض فيستوجريير R.P.Festugrière هذه الفرضية ، بدئيا ، ان حضور المذهبين المتعارضين اللذين لا يمكن التوفيق بينهما متعارض مع دلالة أخوة مشكلة من قبل «جماعة من الناس اختاروا بحرية نظاماً للفكر والحياة» ، وبالتالي ، لا يوجد أثر ، في الأدب الهرمسي «لحفلات خاصة للمؤمنين بهرمس . ولاشيء يشبه تقديسات المذاهب الغنوصية : فلا تعميد ، ولا تناول قربان أو مشاركة ، ولا اعتراف بالذنوب ، ولا وضع الأيدي لتكريس كهنة لعقيدة . ولا رجال دين ولا أي مظهر لتنظيم التسلسل التراتبي لدرجات التلقين . وليس هنالك تمييز لسوى طبقتين من الأفراد : أولئك الذين يصغون للكلام وأولئك الذين يرفضونه . وعليه فإن هذا التمييز قد غدا مبتذلاً ، وأدخل في الادب ، أقله منذ بارمينيد parménide[٤٩] .

مع ذلك ، اذا لم تفرض فرضية الكونفريرية السرية ، المنظمة تراتبياً ، نفسها ، فإن الأبحاث الكبرى العلمية تفترض وجود مجموعات مغلقة ، مشاركة بمسارة يمكن مقارنتها بمجموعة الكيميائيين والتانتريكا des Tantrikas . وهو يتعلق ، فيما لو أخذنا عبارة اسلكيبوس Asclepius (ف ٢٥ ع) بديانة مكذوبة religio mentis : اله «يتلقى اضحيات روحية طاهرة» [ك . هـ ١ ـ ٣] . وعلى كل فقد كشف عن مناخ ديني مميز وعن بعض المعطيات الطقوسية : الزملاء يتجمعون في معبد ؛ انهم يحترمون قاعدة الصمت ويحافظون على السر حول الكشوفات ؛ والتعليم الديني بالحديث catéchese يكتمل مع رصانة احتفالية ، والعلاقات بين المعلم وتلامذته لها صدى ديني . واسطورة التعميد في باطية تدل على المؤالفة مع طقوس الاسرار[٥٠] . ويمكن كذلك افتراض المعرفة ببعض الممارسات الهادفة للوجد : هرمس يقص على تلميذه تات Tat تجربة وجدية ، يدخل من بعدها في «جسد خالد» وينجح تات في تقليده [ك . هـ ١٣ : ٣] .

ويمكن القول اننا امام نوع جديد من اتصال الحكمات الباطنية . فخلافاً للجمعيات المغلقة المتعلقة بتنظيم تسلسلي ، هنالك طقوس تلقينية وكشف متزايد لمذهب سري ، الهرمسية ، وتماما كالكيمياء ، يُدخل فقط عدد من النصوص المظهرة ، المنقولة والمفسرة من قبل «معلم» لبعض التلامذة المحضرين بعناية (أي

جعلوا «طاهرين» بالتنسك ، والتأمل وبعض الممارسات الطقوسية) . ولايجب اغفال ان الكشف المحتوى في الابحاث الكبرى للمدونة الهرمسية يشكل عرفانا (غنوصاً) أعلى ، هو بصورة خاصة العلم الباطني الضامن للسلامة ؛ والعمل البسيط ليفهم ويتمثل . معادلاً «المسارة»[٥١] . وهذا النموذج الجديد من «المسارة» الفردية والروحية بنقاء ، اصبح ممكناً بالقراءة الواعية والتأمل لنص باطني ، وقد انتظم في العصر الامبريالي ، وبخاصة بعد انتصار المسيحية . وهذه هي النتيجة ، من جهة ، للاحترام البارز الذي تمتعت فيه «الكتب المقدسة» المشهورة بأنها من مصدر الهي ، ومن جهة أخرى ، بعد القرن الخامس المسيحي ، لزوال الأسرار وانكساف تنظيمات سرية أخرى . وفي المنظور لهذا النموذج الجديد من المسارة ، لم يُدخل نقل المبادىء الباطنية أبداً «سلسلة مسارية» ؛ وربما كان النص المقدس قد نُسي خلال قرون ، ويكفي ان يكتشف من قبل قارىء جديد لكي تغدو رسالته غير معقولة وراهنة .

إن نقل الهرمسية يشكل فصلاً مثيراً في تاريخ الباطنية : لقد انجز عبر آداب سورية وعربية syria que etarabe ، وبخاصة بفضل السابيين في حران ، وفي ميزوبوثاميا (بلاد مابين النهرين) ، والتي استمرت في الحياة في الاسلام حتى القرن التاسع[٥٢] . وإن بحوثاً حديثة قد كشفت بعض العناصر الهرمسية في البارسيفال دي ولغرام فون ايزنباخ le parzival de Wolfrom von Eschenbach وفي عدة نصوص اسبانية من القرن الثالث عشر[٥٣] . مع ذلك فإن «النهضة» الحقيقية للهرمسية في اوروبا الغربية قد بدأت مع الترجمة اللاتينية للمدونة الهرمسية ، مشروع من قبل مارسيل فاسان marsile Ficin بناء على طلب دي كوزم دي ميديتشي ، وقد اكمل في ١٤٦٤ . ولكن ، وكما سنرى (جزء ٣) ان اعادة اكتشاف المدونة الهرمسية يشكل بالفعل تفسيراً جديداً ، جريئاً وخلاقاً ، للهرمسية .

٢١١ ـ الكيمياء الهيللنستية

يميز مؤرخو العلوم ثلاثة عهود في تكوين الكيمياء الاغريقية ـ المصرية[٥٤] :

١) عهد المحصلات التقنية المتعلقة بعمليات السبك للصباغة وتقليد الذهب (على سبيل المثال ، بابريات les papryai ليدن واستوكهولم ، التي ترجع في تاريخها للقرن الثالث ق.م) ؛ ٢) العهد الفلسفي ، المفتتح ، على الأرجح ببولوس دي منديس (القرن الثاني ق.م) والذي يبدو في الفيزيكا كي ميستيكا les physika kai myslika ، وهي بحث مزور منسوب الى ديموقريط ؛ ٣) واخيراً ، عهد الأدب الكيميائي بمعنى الكلمة ، وهو أدب ذوسيم Zosime (القرن ٣ ـ ٤) وشراحه (القرن ٤ ـ ٦) . ومع ان مسألة الأصل التاريخي للكيمياء الاسكندرانية لم تُحل بعد ، فإنه يمكن تفسير الظهور المفاجىء للنصوص الكيميائية حول العصر المسيحي وكأنه النتيجة للتلاقي بين التيار الباطني الممثل بالأسرار ، والفيثاغورية الجديدة ، والأورفية الجديدة ، والتنجيم ، «الحكمات الشرقية المكتشفة» والغنوصية الخ . . . تيار باطني كان بخاصة من عمل اشخاص مثقفين ، من الانتلجنسيا ـ وبين التقاليد «الشعبية» ، الحارسة لاسرار الصنعة وانواع السحر والتقنيات من عصور قديمة جداً . وثمة ظاهرة مشابهة تلاحظ في الصين مع التاوية والتاوية الجديدة ، وفي الهند مع التانتريسم والهاثا ـ يوجا . وفي عالم البحر المتوسط ، مددت هذه التقاليد «الشعبية» حتى العصر الهيللنستي معطى روحياً من بنية قديمة . وكما رأينا «ف ٢٠٩ ع» ، فإن الفائدة المتنامية بالنسبة للصياغات والعلوم التقليدية الخاصة بالمواد ، والحجارة الكريمة ، والنباتات ، تميز كل هذا العهد من العصر القديم .

فما هي الاسباب التاريخية التي يجب ان نعزو اليها ولادة التطبيقات الكيميائية ؟ لن نعرف هذا مطلقاً بلا ريب ، ولكن من المشكوك فيه ان الكيمياء قد تكونت في انتظام مستقل منطلقة من محصلات لتحويل المعادن الى ذهب أو تقليد الذهب . وقد كان الشرق الهيللنستي ورث كل هذه التقنيات المعدنية من بلاد مابين الرافدين ومن مصر ، ومعروف انه منذ القرن الرابع عشر قبل المسيح ، كان سكان مابين الرافدين أتقنوا معالجة الذهب . وإرادتهم بوصل انتظام دام الفي سنة في العالم الغربي ، بالجهود المبذولة لتزييف الذهب ، هو نسيان للمعرفة الخارقة التي كانت لدى القدامى عن المعادن وعن اعمال السبك ؛ وان هذا ايضا هو سوء تقدير لامكانياتهم العقلية والروحية . ان التحويل ، كهدف اساسي للكيمياء

الهيللنستية ، لم يكن ابداً ، في الحالة المعاصرة للعلم ، نوعاً من الضلال ، لأن وحدة المادة كانت منذ بعض الوقت عقيدة من الفلسفة الاغريقية . الا أنه من الصعب الاعتقاد ان الكيمياء قد خرجت من تجارب مشاريع لتصحيح هذه العقيدة وللبرهان تجريبياً على وحدة المادة . ويبدو سيئاً ان تتخذ تقنية روحية ومذهب ديني للانقاذ مصدرهما في نظرية فلسفية .

ومن جهة اخرىٰ ، عندما تطبق الروح الاغريقية علىٰ العلم ، فإنها تدل علىٰ معنى فوق العادة من الملاحظة والتعقل . وعليه ، فإن مايصدمنا بقراءة نصوص الكيمياء الاغريقية ، انما هو فقدانها للفائدة بالنسبة للعناصر الطبيعية ـ الكيميائية ، أي الغياب الفعلي للروح العلمية .

وكما لاحظ شروددتايلور sherwood Taylor : «كل الذين كانوا استعملوا الكبريت لم يستطيعوا ملاحظة الظواهر المثيرة التي تنتج بعد اذابته والتسخين المتتالي للسائل . وعليه ، ومع ان الكبريت مذكور مئات المرات ، لم تجر اشارة لواحدة من خصائصه خارج تأثيره على المعادن . وهنا يوجد هذا النوع من التضاد مع روح العلم الاغريقي الكلاسيكي ، الذي يوجب الاستنتاج منه أن الكيميائيين لم يكونوا معنيين بالظواهر الطبيعية التي لم تخدم أهدافهم . ومع هذا ، فإنه من الخطأ ان لا يرى فيهم سوى باحثين عن الذهب ، لأن اللهجة الدينية والصوفية ، وبخاصة في المؤلفات المتأخرة ، تتوافق بشكل سيء مع نفسية الباحثين عن الثروة [. . . .] . ولن نجد في الكيمياء أي طعم لعلم [. . . .] . فلم يستعمل الكيمياء أبداً اجراءات علمية»(٥٥) . ان نصوص الكيميائيين القدامى تظهر «ان هؤلاء الرجال لم يكونوا ابداً معنيين بصنع الذهب ولم يتكلموا في الحقيقة عن الذهب الحقيقي . إن الكيميائي الذي يتفحص هذه المؤلفات يتأكد له ذات الانطباع الذي يريد ماسوني استخراج معلومات عملية من مؤلف في الماسونية ـ الحرة» [شيرود دتايلور ، ص . ١٣٨] .

فاذا لم يكن من الممكن للكيمياء اذن ان تتولد عن الرغبة في تمويه الذهب (محاولة الذهب كانت معروفةعلى الأقل منذ اثني عشر قرنا) ولا من تقنية علمية

اغريقية (رأينا فقدان منفعة الكيميائيين بالنسبة للظواهر النفسية ـ الكيميائية بصفتها كذلك) ، فنحن مكرهون للبحث من جهة أخرى عن «الأصول» لهذا النظام الفذ . وأكثر من النظرية الفلسفية لوحدة المادة ، هي على الأرجح المفهوم القديم للأرض ـ الأم حاملة المعادن ـ الجنين (ف ـ ١٥ع) التي بلورت الايمان في تحول اصطناعي ، أي محدث في مخبر . فهذا هو التلاقي مع الرمزيات ، والميتولوجيات وتقنيات المعادن ، والسباكين ، والحدادين ، التلاقي الذي ، على الأرجح ، وقت العمليات الكيميائية الأولى . غير أن الاكتشاف التجريبي ، وبخاصة ، للمادة الحية ، كما كانت قد شعر بها من قبل الصناع ، أوجب لها ان تلعب دورها الحاسم . وفي الواقع ان المفهوم لحياة معقدة ومأساوية للمادة هو الذي يشكل أصولية الكيمياء بالنسبة للعلم الاغريقي الكلاسيكي . وهذا المفهوم مؤسس على افتراض ان التجربة للحياة المأساوية للمادة غدا ممكنا بمعرفة الاسرار اليونانية ـ الشرقية .

إن سيناريو «الآلام» ، «لموت» و «لبعث»للمادة تأكد منذ البداية في الأدب الكيميائي الاغريقي ـ المصري . وان تحول المادة l'opus magnuns الذي يصل الى الحجر الفلسفي ، يتحصل بإمرار المادة بأربعة اطوار ، معينة ، بوظيفة الألوان التي يأخذها المقومون ، ميلانزيس (اسود) ، ليكوزيس (ابيض) كزانتوزيس (اصفر) وايوزيس (أحمر) . فـ «الأسود» يرمز إلى «الموت» . ولكنه يحسن الاشارة: الأطوار الاربعة للأوبوس l'opus سبق ان تأكدت في الفيزيقاكي ميستيكا les physika kai mystika المزورة عن ديموقريطس ، اذن في أول الكتابة الكيميائية (القرن ٢ ـ ١ ق.م) . ومع مفارقات لا حصر لها ، فإن الأطوار الأربعة (أو الخمسة) للعمل (نيغريدو) ألبيدو ، سيترينيتاس ، روبيدو ، وأحياناً فيريديتاس ، واحيانا كودا بافونيس) استمرت عبر كل تاريخ الكيمياء العربية والغربية .

ويوجد اكثر ايضاً : ان الدراما الصوفية للاله ـ ألمه ، موته ، بعثه ـ هي التي طرحت على المادة لتحويلها . وبالإجمال ، فإن الكيميائي يعالج المادة كما كانت الألوهة تعامل في الأسرار : المواد المعدنية (تتألم) (تموت) (تعاود الولادة) بطريقة اخرى من التكون ، أي انها تتحول . ويقدم زوسيم (مؤرخ اغريقي من القرن

الخامس) في بحث له عن الفن [٣ - ١ - ٢] رؤية كان حصل عليها في الحلم : شخصية باسم إيون Ion يكشف بأنه كان قد اخترق بسيف ، وقطع الى قطع ، وقطع رأسه ، وسلخ وحرق في النار - انه تحمل كل هذا «من أجل ان يستطيع تغيير جسده الى روح» ويتساءل زوسيم بعد استيقاظه عما اذا كان كل مارآه في الحلم لا يتعلق بتقدم الكيمياء من خلط الماء ، وعما اذا كان إيون ليس هو الوجه ، والصورة النموذجية للماء . وكما أوضح جونغ yung فإن هذا الماء هو الماء الدائم l'aqua permanens للكيميائيين و «لعذاباتهم» بالنار المناسبة لعملية الفصل separatio[٥٦] .

ويلاحظ بأن وصف زوسيم يذكر ليس بتقطيع ديونيزوس «وآلهة اخرى ميتة» للأسرار (حيث «الألم» هو على مستوى ما ، قابل للمقارنة بمختلف حالات دورة نباتية ، خاصة عذابات ، موت وبعث «روح القمح»)، ولكنه يقدم مشابهات اخاذة مع الرؤى المسارية للشامان ، وبصورة عامة ، مع المخطط الأساسي لكل المسارات القديمة . ففي مسارات الشامانيين ، مع ان المحن التي تتحمل «بحالة ثانية» هي أحيانا على درجة بالغة من القسوة : يشهد شامان المستقبل في الحلم تقطيعه الخاص إلى قطع ، وقطع رأسه وموته[٥٧] . واذا أخذنا في الحسبان شمولية هذا المخطط التلقيني ، ومن جهة اخرى ، التضامن بين عمال المعادن ، والحدادين ، والشامانيين ، وإذا نظرنا ان الكونفريرات القديمة ، للبحر المتوسط والمعدنيين والحدادين كانوا يتصرفون ، على الأرجح ، باسرار خاصة بهم ، اذا لاحظنا كل هذا ، نصل الى اقامة رؤى زوسيم في الشمول الروحي الخاص للمجتمعات التقليدية .وللفور، يقاس التجديد الكبير للكيميائيين : لقد ألقوا على المادة الوظيفة المسارية للمعاناة . وبفضل عمليات كيميائية ، مماثلة «للعذابات» ، و «للموت» و «للبعث» للتلميذ ، فإن المادة متحولة ، أي تحصل على طريقة تكون متصاعدة : تأتي من «الذهب» . فالذهب ، كما هو معلوم ، هو رمز الخلود . والتحول الكيميائي يعادل اذن كمال اعادة[٥٨] . وبالنسبة للكيميائي ، لاكمال «مسارته» .

لقد كان ينظر للمعادن والركاز ، في الثقافات التقليدية ، كأعضاء

حية : وكان يجري الكلام عن حملها وغموها واعادة تولدها ، ويجري الكلام ايضاً حتى عن زواجها (ف ١٥ع) وتبنى الكيميائيون الاغريق الشرقيون كلّ هذه المعتقدات القديمة وقيموها . فالامتزاج الكيميائي للكبريت والزئبق قد يعبر عنه دوما بالفاظ «الزواج» . ولكن هذا الزواج هو ايضا اتحاد صوفي بين مبدأين كونيين . فههنا التجدد في المنظور الكيميائي : حياة المادة لم تعرف بمصطلحات حيوية كما في تصور الانسان القديم ، ولكنها اكتسبت بعداً روحيا ؛ وبعبارة اخرى : ان المادة بتسنمها المعنى المساري (التلقيني) للمأساة والمعاناة ، تتقلد ايضا مصير الروح . فـ «التجارب المسارية» التي هي على مستوى الروح ، تصل الى الحرية والتنور والخلود ، وتقود على مستوى المادة الى التحول للحجر الفلسفي . ويمكن مقارنة هذا التقييم الجريء بسيناريو اسطوري ـ طقوسي قديم جدا (حمل وغمو المعادن في رحم الأرض ـ الأم ؛ الفرن الممثل برحم طقوسي جديد ، حيث ان المعدن يكمل حمله ، ابدال المعدن والخبير بالمعادن بالأرض الأم لتسريع واكمال «النمو» للمعادن) . يمكن مقارنته «بتحول» الطقوس القديمة الزراعية بديانة اسرار ، وسنثمن فيما بعد نتائج هذا الجهد من أجل «اعطاء الروح» للمادة ، «لتحويلها»[٥٩] .

حواشي الفصل السادس والعشرين

١ ـ على سبيل المثال ، ان رفع إله تقليدي الى صف الهه حامية للاسرة المالحة : ابولون بالنسبة للسلوقيين ، زوس بالنسبة للابيدوس ، اتينا بالنسبة للآثينيين . وإن تألية الحكام والعبادات التوفيقية للدولة ـ على سبيل المثال ، سيرابيس في مصر البطلمية تطلعت لذات الهدف .

٢ ـ ثارن ـ الحضارة الهيللينية ٣٤٨٧

٣ ـ ان الرواقيين انهمكوا بتصحيح عدم الاخلاقية الفلكية ، وقد فسروا العناية الالهية كأنه الخير الذي يأخذ حسابه من الاخلاق وفي الواقع ان العناية الالهية هي التي خلقت النجوم . ومن جهة اخرى تجب الاشارة انه تبعاً لحسابات فلكية منجزة من قبل البابليين ، فإن تاريخ العالم كان منذئذ مقسماً لأدوار وازمات محكومة بالمذنبات ، وهذه الرؤية الجديدة الكوزمو ـ تاريخية تلهم بعض الايحاءات الآخروية (الرؤية اليهودية (٢٠٢٥)ع . العصر الذهبي المنعش من قبل اغسطس بنهاية الحروب الدينية الخ . .

٤ ـ ٥ الخط ليس له قوة ضد أولئك الذين يخدمون ويمجدون ايزيس ، والغنوصيون ليسوا أبداً بسجناء fatun لأن النفس (نرس nors هي سيدة القدر .

٦ ـ ١٦ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .

١٧ ـ بويانسيه ص ٤٤ مشاهد مسارية اخرى محللة من قبل توركان الساركوفاح ص ٤٠٢ . ان الفريسك الشهير (لفيلا دي ميثيري) في بومباي ترتبط بوضوح بعبادة ديونيزيسية . ولكن خلافاً لرأي أولئك الذين رأوا في الفريسكات مشاهد مسارية ، فإن بعض الكتاب يظن انها لا تكشف اسراراً ولا توضح الاسطورة للاله ولا المراحل للمسارة

١٩ ـ «مفهوم التقمص palingenesie وفكرة ان الها جديدا هو اله لاصلاح دوري لم تكونا ابداً مفاهيم واضحة القرابة مع تلك التي كانت ادخلت التناوب للتجليات وغيبات الاله الذي كان

قد تظاهر برجعاته ، السنوية وكل عدة سنوات . وعلى مخطط المدة الكونية يترك هذا المفهوم ليتوضع بسهولة تحت شكل دورة من الرجوع على درجات كونية كذلك» . . توركان - (النواويس sacrophages ص ٣٩٤

٢١ - هذا المشهد يذكر بالاسطورة الحورية - الحثية : كوماربي (أب الآلهة) لقح بمنية صحرة . (فقرة ٤٦)

٢٢ - نانا تجل آخر للأم (اي جاديثى)

٢٣ - تبعا لرأي آخر ، أتيس قتل من قبل خنزير بري ، تقليد قديم لأن هيرودوت [١ - ٣٤] رواه تحت شكل بشرية الآلهة

٢٤ - المراجع - هبدن . غايو . . الخ .

٢٥ - المعلومات المتعلقة بالتقويم للاعياد متأخرة (القرن ٣ - ٤ بعد المسيح) . . ويحسن تقديم بنية العقيدة في أوجها .

٢٦ - عدد من الكتاب روى لهذا المشهد مقطعاً من الكاتب المسيحي فيرميكوس ماثيرنوس (القرن ٤) واصفاً الانتحابات الليلية حول تمثال الهي موضوع على محفة . فجأة يحضر النور وكاهن يواسي المؤمنين : «أيها الشجاع ، النساك ، الاله منقذ ، بالنسبة لكم ايضا الالام تأتي لتحيته» . ولايحدد بدقة ماتيرنوس من أي عقيدة تتعلق ، ولكن وضعه يبدو اكثر توافقاً مع اوزيريس . ولا يسنى انها يوجد مشابهة بين عدد من الاديان في هذا الموضوع .

٢٧ - هيدينغ ص١٩٠ حسب شرح آخر البانتوس le pantos (لغويا «مخدع الربة» كان مغارة أو مكانا تحت الأرض في المعبد ذاته او في الجوار ، باختراق التلميذ له ينجز نزولاً للجحيم ، ويحسن ان يضاف بأنه في زمن الامبراطورية كان يمكن للتوربوليوم وللريبوليوم ان ينجزا في كل الفصول ، وكان يحتفل بها من أجل صحة الامبراطور .

٢٨ - ٢٩ اسماء المراجع

٣٠ - انظر الملاحظات لميشيل ميسلين (حقائق نفسية وقيم دينية في العبادات الشرقية ص ٩٧ ونؤكد بدقة ان الورع المطلق للآلهة لا يقتضي بالضرورة الختان الجنسي فالطهارة الاحتفالية كان يمكن لها ان تؤكد بزواج رمزي . والمرحلة الثانية من المسارة الاسطورية كانت تسمى nymphyme فالناسك يصبح الزوجة للاله ، غير ان الشعيرة روحية صرفة .

٣١ - ٣٢ - اسماء المراجع

٣٣ - اثبت المؤرخ بذات الوسواس والشك بخصوص اسرار ساموطراس والأورفية واليؤوس الخ . .

٣٤ - ٣٥ - اسماء المراجع

٣٦ - السوابق ترجع الى الاحضارات المقدسة المشهورة في Abydos منذ الاسرة الملكية الثانية

عشرة
٣٧ - ٣٨ - اسماء المراجع
٣٩ - يوجد ايضا ترجمات لاتينية معروفة تحت اسم اسكيليوس عن (خطاب كامل) فقد أصله
٤٠ - اسماء المراجع
٤١ - وفي الواقع ان البابيروس قد عوضت الترجمات الهيللينية الدقيقة لبعض الاساطير ، عبر سبيل المثال اسطورة الربة ثفتوت حيث يلعد ثوت هرمس دوراً ص ٤١٩
٤٢ - فوستيجير - كشف هرمس المثلث العظمة - ويذكر نص يرجع للبطالمة الأول ان ثوت هرمس الأول كان يعيش (قبل الطوفان) وهرمس الثاني المثلث العظمة ، تبعه ، ثم ابنه اغاتوديمون وحفيده تات . وهذه الشخصيات مذكورة في رسالة كاردكوزمان وشجرة النسب هي رسميا مصرية
٤٣ - يرجع الأصل الاغريقي الى ١١١ قرون ق.م
٤٥ - ٤٦ - المراجع
٤٧ - العالم (حي خالد) (المدونة الهرمسية) ١) هو مدعو (اله) او (اله كبير) وانه عبر العالم يظهر الاله «الغير مرأي» - (ك هـ . ٥ - ٢)
٤٨ - ٤٩ - فيستوجير - الهرمسية ص ٣٨
٥٠ - حسب رابع بحث من مدونة هرمس ، في بدء الزمان ملأ الاله بالنفس (نوس) باطية cratère : والذين غمسوها اصبحوا «رجالاً كاملين» واظهر فيستوجير ان المقصود خليطاً من الطقوس المطبقة في الأسرار ١) امتصاص مشروب مقدس متخرج من الجرة و ٢) حوض للتطهير والمسارة (تعميد في الباطية)
٥١ - فيستوجير حلل نموذجاً مميزاً للعصر الهيلليني : انتقال الاسرار الطقوسية العقائدية بصفتها تحولات في ما اسماه الكاتب (اسرار ادبية) ، ولكن مثل هذا الاستقال يحافظ دوماً على قيمة دينية : يثير النشاط الخيالي للقارىء ويكشف له المعنى العميق للأسرار .
٥٢ - كان للسابين نبي هو (هرمس) واغاثودايمون وكانوا يعرفون جيداً رابع بحث من المدونة الهرمسية التي كان عنوانها (الباطية) cratés وحسب هنري خان ان الباطية cratére هي ذات كلمة الغرال Graal
٥٣ - ٥٤ - ٥٧ - اسماء للمراجع
٥٨ - يتكلم جونغ في كتابه علم نفس وكيمياء عن الغفران بالعمل الكيميائي للروح de l'amimamundi الأسيرة في المادة . وهذا المفهوم من أصل وبنية غنوصية ، كان بالتأكيد مشتركا بين عدد منالكيميائيين : لقد ادخل من أهة اخرى في كل هذا التيار من الفكر الأخروي الذي توجب له ان يصل لمفهوم l'apocatastase للكوزموس . ولكن على الأقل لبداياته ، والكيمياء لم

تعوض اسر (الآينها موندي) في المادة ، مع أنها ، بغموض ، مازالت يشعر بها كأنها الأرض الأم .

٥٩ ـ انظر الجزء (٣) من هذا الكتاب .

الفصل السابع والعشرون

تركيبات ايرانية جديدة

٢١٢ ـ التوجهات الدينية تحت حكم الأكاسرة (٢٤٧ ـ ٢٢٠ق.م)

بعد سقوط الامبراطورية الأخمينية (٣٣٠ ق.م) انساقت الديانة الايرانية في الحركة الواسعة والتوفيقية المعقدة التي تميز العصر الهللنستي (فـ٢٠٥ ع) . فبعد استعادة جزء من ايران لاستقلاله من قبل الرئيس الفارسي أرشك Arsakés الذي باعلانه لنفسه ملكا في ٢٤٧ ق.م ، أسس الأسرة الملكية الوطنية الأرشكية(*) ، ولم يوقف هذه العملية . بالتأكيد ، ان الفرس قد حملوا معهم تماماً تقليداً دينياً وثقافياً نابعاً من فرسان السهب de la steppe . ومن الراجح جداً ، ان بعض

* الاسرة الارشكية : اسرة بارثية مؤسسها ارشك الذي اقتطع مملكته من دولة السلوقيين في ٢٥٠ ق.م ودامت حتى قضى عليها في ٢٢٦ ميلادية ازدشير مؤسس الدولة الساسانية ـ المترجم)

عناصر الايديولوجيا الملكية التي تأكدت بدءاً من الأرشكيين تمثل التراث لتلك القبائل الجموحة التي كانت تتجول منذ قرون على حدود الامبراطورية . ولكن جاذبية الهيللينية بدت غير قابلة للمقاومة ، وعلى الأقل حتى القرن الأول بعد المسيح فشجع الأرشكيون التهلنس l'hellenisation (نقشت الآلهة الاغريقية على نقودهم) ولنعيد الى الذاكرة مع ذلك ان النموذج الذي جرت محاولة تقليده هو الهيللينية الاسكندرية ، وهي ذاتها كانت قد امتصت عدداً من العناصر السامية والآسيوية .

ان الوثائق المعاصرة ، عديدة جداً وهي ذات انواع مختلفة : كتابات لكتاب من الفرس واللاتين ، وآثار ، ونقوش ، ونقود . . الخ . . ولكن المعلومات التي تقدمها حول العقائد والأفكار الايرانية الدينية هي على الأكثر مخيبة للأمل . فالابداعية الدينية تحت حكم الأرشكيين يمكن فهمها بشكل أفضل بمساعدة وثائق متأخرة : اظهرت البحوث الحديثة ان النصوص المتأخرة تعبر عن معتقدات وافكار مركبة أو مقيّمة في العصر البارثي . وقد كان هذا من جهة اخرى طراز العصر : تبعاً للمواجهة والتبادل الثقافي الذي لا حصر له ، للأشكال الدينية الجديدة التي انبثقت بدءاً من مفاهيم اكثر قدما .

وفي الأساس ، ان المصادر المعاصرة تظهر لنا : ١) ان ميترا معبود في كل الامبراطورية وان هذا الإله يوجد على علاقات خاصة مع الملوك[٢] ٢) ان المجوس les mageus يشكلون طبقة الكهنة المضحين ، الذين ينجزون على الأخص اضاحي دموية (ابقار ، خيول) ؛ وقد كتب (سترابون) ان المجوس كانوا يعبدون (آنا هيتا) ولكن توجد اشارات الى أنهم كانوا يشاركون في عبادة ميترا ايضا (كان لهم دور في اسراره) ٣) ان عبادة النار شعبية جداً ٤) وفي القرن الثاني والأول قبل المسيح كان يدور حول عنوان (عرافات هيستاسب oracles d'Hystaspe رؤيا مكتوبة بالاغريقية (هيستاسب هو الشكل الاغريقي لفيشتابا) الموجهة ضد روما (التي أعلن سقوطها) ، ولكن المتضامنة بالأدب الأخروي الايراني[٢] .

ومع ذلك فإن الابداعات الدينية الكبرى للعصر البارثي هي من نظام اخر .

ففي القرن الأول ق.م بدأت اسرار ميترا بالانتشار في عالم البحر المتوسط (ترجع أول الوثائق الى ٦٧ ق.م) ، مما يفسح مجالاً للظن بأنه حوالي نفس التاريخ تأكدت فكرة الملك المسيحاني ، التي هي دوما ذات علاقة مع السيناريو الاسطوري - الطقوسي المعد حول ميترا . وبالرغم من التناقضات ، يبدو مرجحا ، كما برهن ويدنغرين Widengren أن اسطورة المنقذ ، كما تظهرها الترنيمة الغنوصية للجوهرة ، قد تكونت في زمن الأرشكيين ، وأخيراً ، فإنه اثناء هذا العصر ايضا تطور لاهوت زورفانيت : ر Zurvanite الذي تعده الأفكار المتعلقة بالزمان ، والأبدية ، وسبق الخلق الروحي على الخلق الطبيعي ، والثنائية المطلقة ، وكل هذه مفاهيم ستنهج ، واحيانا تنظم بعناء ، وبعد بضعة قرون ستسود حكم الساسانيين .

ويقتضي أن لا يغفل عن التضامن الأساسي بين كل هذه الأشكال الدينية . وان تنوع العبارات يفسر بالفارق بين الأهداف المقصودة . وسيكون من العبث على سبيل المثال ، البحث عن عناصر الايديولوجيا الملكية في المظاهر الشائعة للدين الشعبي أو في الارشادات اللاهوتية . ان مميزات عامة لكل هذه الابداعات ، مع التحديد التام لكل المفاهيم الأكثر قدما ، والأثرية احيانا ، بقيت مفتوحة في المعنى الذي تتضمنه لأن تتطور خلال القرون التالية .

إن عـرّافـي هيستاسب ، يعاودون أخذ بواعث أخروية كلاسيكية ، والتي هي على الأرجح من أصل هندي - ايراني (تقصير السنة ، الانحطاط العالمي ، المعركة الحاسمة الخ) والتي ستعد في الرؤيات الفهلوية للعصر الساساني ، وفي المكان الأول في الباهمان يخت Bahman Yasht . ومن جهةأخرى فإن العرافين يحققون نبوءاتهم على قاعدة تقويم تاريخي أو خروي لـ ٧٠٠٠٠ سنة ، كل الف منها باعتباره محكوما بكوكب ، وهذا مايفشي التأثير البابلي « ر. السلسلة المعروفة جيداً : ٧ مذنبات ، ٧ معادن ، ٧ ألوان الخ» . ولكن تفسير هذا المخطط التاريخي المتسلسل هو ايراني : خلال الآلاف الستة ، يتصارع الاله وروح الشر من أجل السيادة ؛ ويبدو الشر منتصراً ، فيرسل الاله اله الشمس ميترا (= ابولون = هيليوس) الذي يسود الألف السابعة ؛ وفي نهاية هذا الزمن الأخير ، تتوقف قوة

المذنبات ويجدد العالم حريق شامل[٣] . وعليه ، فإن هذه الأساطير ـ التسلسلية للتاريخ ذات الرؤيا الأخروية ستعرف شعبية كبرى في العالم الغربي في بداية العصر المسيحي .

ان الأمل الأخروي سيمكن ايضاً حل رموزه في التقاليد المتعلقة بولادة ملك منقذ ممثلاً بميترا . والمفهوم التقليدي للملك الالهي المدير الكوني Kosmokrator البرزخ بين البشر والآلهة ، هذا المفهوم سيغتني بدلالات جديدة انقاذية ، عملية يسهل فهمها في عصر محكوم بانتظار المنقذ . ان الصورة الذاتية الخرافية للميثرادات أوباتور Mithratdate Eupator توضح باعجاب هذا الأمل الأخروي : ولادته معلن عنها بواسطة نجم مذنب comète ، والنور يسقط على الطفل فور ولادته ، ولكنه لا يترك سوى ندبة ؛ وتعليم الملك المقبل يشكل سلسلة من التجارب التلقينية ، فخارجا عن تتويجه ، يسرادات ، كالعديد من الملوك الآخرين ، يعرف بتجسد ميترا . وهنالك سيناريو مسيحاني مشابه يعلن الخرافة المسيحية للولادة .

٢١٣ ـ ذورفان وأصل الشر

ان المسائل المطروحة من قبل ذورفان والذرفانية مازالت بعيدة عن الحل . فالاله قديم بالتأكيد . ويأمل غريشمان Ghirshman بأنه ماثل ذورفان في قطعة برونز من لوريستان Louristan ممثلة الاله مجنحاً وخنثى مولداً للتوأمين (اللذان خرجا من كتفيه) ؛ وثلاثة مواكب ، رموز للأعمار الثلاثة للانسان ، تقدم له باحترام البرسوم le barsomm[٦] . واذا كان التفسير صحيحا ، فإنه يستخلص بأن اسطورة ذورفان بصفته أبا لأوهر مازد وأهريمان كان معروفاً سابقاً لعصر اكثر قدما من تاريخ الشهادات الأولى المكتوبة . وحسب ملاحظة اوديم الرودسي Eudéme de Rhodes (النصف الثاني من القرن الرابع ق.م) فإن «المجوس . . . يدعون . . . الكل واحداً . وقابلاً للادراك ، تارة ، مكان ، وتارة زمن ؛ ومن سيولد إما أوهرمازدوأهريمان ، واما النور والظلمات»[٧] . ان النبأ هام جداً : هو

يؤكد لنا انه ، حوالي نهاية عصر الاخميديين كانت التعاليم حول الزمن - المكان بصفته منبعاً مشتركاً لمبدأي الخير والشر المتجسدين في اوهرمازد واهريمان ، كانت مألوفة للايرانيين . ان المصطلح الافستيقي avestique «للزمن» هو ذوازا thwasa ، لغويا «المقدس» أو «الذي يسرع» ويظن ويدنغرين widengren انه منذ البدء كان يدل على القبة السماوية ، النعت الخاص لاله السماء سيد الأقدار(٨) . ومن الراجح اذن ان ذورفان كان في الأصل إلها سماويا ، مصدر الزمان وموزع الحظ والتعاسة ، وفي آخر الأمر سيد القدر(٩) . وعلى كل حال ، فإن بنية ذورفان قديمة جداً : انه يذكر ببعض الألهة البدائية التي تتواجد فيها الاقطاب الكونية والمتضادات من كل نوع .

وفي الأبستاق الحالية (نصوص كتبت على الأرجح في القرن الرابع ق.م) قلما يذكر ذورفان ، ولكنه دائماً على علاقة مع الزمن والقدر . وان نصاً [فيدفادا ١٩ - ٢٩] يؤكد بدقة ، أنه قبل الوصول الى جسر سينفا cinvat (ف ١٠٣ ع) «المخلوق من قبل مازدا» فإن ارواح الصالحين والكفار تتقدم على (الطريق المخلوق من قبل ذورفان) . وان الوظيفة الأخروية للزمن - القدر ، وبعبارة اخرى للمدة الزمنية الممنوحة لكل فرد ، قد اشير إليها بوضوح . وفي مقطع آخر فإن ذورفان ممثل وكأنه الزمن الذي لانهايةله [فيديفات ١٩ :١٣-١٦]، وفي موضع آخر يميز بين ذورفان أكارانا «زمن لانهائي» وذرفان داريفوكزادهاتا «زمن مستقل لفترة طويلة» [يافت ٧٢ : ١٠] .

كل هذا يفترض نظرية حول مسيل المدة الزمنية من قلب الأبدية . وفي المؤلفات الفهلوية «الزمن المستقل طويلاً» ينبثق من «زمن لانهائي» و ، بعد استمراره اثني عشر الف سنة عاد اليه [بونداهيشن ١ : ٢٠ ؛ دينارکت ٢٨٢] . إن نظرية الادوار المشكلة من عدد من الألوف من السنين هي قديمة ، ولكنها كانت معبراً عنها بشكل مختلف في الهند وايران ومابين النهرين . ونظرية الألوف مع أنها أصبحت شعبية حول نهاية العصور القديمة واستعملت في مالايحصى من الرؤى والنبوءات ، عرفت انطلاقة خاصة في ايران ، وعلى الأخص في الأوساط الذرفانية ، وفي الواقع ، إن التأملات أو الأفكار حول الزمن والمصير تتنامى في

الكتابات الذرفانية : انها مستعملة كذلك لتوضح مصدر الشر وسيادته الحالية في العالم ، بأكثر من أن تقدم حلا اكثر تضييقاً لمسألة الثنائية .

إن بلوتارك في مقالته إيزيس وأوزيريس [١٦ ـ ٤٧] يعزو تبعاً لمصادر من القرن الرابع ق.م مذهب «المجوسي ذرادشت» : «أوهرمازد ، التولد من أصفى نور» و «ارمانوس مولود في الظلمات» وكل منهما يمارس السلطة خلال ٣٠٠٠ سنة ويتحاربان خلال (٣٠٠٠) سنة ايضا . وان المعتقد بأن للعالم مدة مقدارها ٩٠٠٠ سنة مقسمة في ثلاثة مراحل متساوية (سيامة او هرمازد تفسح المجال لسيادة أهريمان متبوعة بـ ٣٠٠٠ سنة من الصراع) يصادف في كتابة متأخرة وغنية بعناصر ذورفانية ، المينوك إكـرات le menoki khrat [٧ ـ ١١] . وحيث ان الزرادشتية تحصر الفكرة لفترة محكومة بأهريمان ، فإنه من المحتمل أن المصادر المستعملة من قبل بلوتارك تنعكس على المفاهيم الذرفانية . واضافة لذلك ، يكتب بلوتارك ان ميترا ، الذي يوجد بين اوهرمازد واهريمان (لهذا يوصف (بالمتوسط») قد علّم الفرس ليقدموا الى آلهتهم اضحيات متميزة ، تقدمة من نموذج محلي ـ جنائزي بصفتها مخصصة «للشيطان السيء» ـ الذي ليس هو ولن يكون مفهوما زرادشتيا[١٠] .

إن ذورفان لم يذكر من قبل بلوتارك، ولكن اسطورة التوأمين والتفسير لسيادتهما المتناوبة ظهرتا في عدة مصادر متأخرة كما لو أنهما ذرفانتين أصلاً . وحسب أحد الآباء الأرمن ايزنيك دي كولب Eznik de kolb ، انه في الحين الذي لم يكن يوجد شيء ، قدم ذوفان (زوان ، الذي يعني قدر أو نصر) خلال ألف سنة اضحية بهدف أن يكون له ولد[١١] . وكما انه شك بفاعلية اضحيته «أية فائدة يمكن ان تكون للأضحية التي أقدمها ؟» فإنه حمل بولدين : اوهرمازد «بفضل الأضحية المقدمة» واهيرمان «بفضل الشك الذي خامره» . وقرر ذورفان بأن يجعل البكر من ولديه ملكاً . فعرف اوهرمازد قصد والده وكشفه لأهريمان ، وهذا الأخير مزق الرحم وخرج . الا انه عندما أعلن لذورفان انه ابنه أجابه هذا «ولدي معطر منور وأنت مظلم منتن» . وعندما ولد اوهرمازد «منوراً ومعطراً» فاراد ذورفان تكريسه ملكاً . ولكن أهريمان ذكره بنذره أن يجعل المولود الأول ملكاً . ولكي لا يرجع

ذورفان عن قسمه أناط به الملكية لتسعة آلاف سنة ، وبعدها سيحكم اوهرمازد . ويكمل ازنيك القصة بقوله . وعندئذ شرع اوهرمازد وأهريمان «شرعا بانشاء مخلوقات ، فكل ما خلقه اوهرمازد كان طيباً ومستقيماً وكل ما فعله أهريمان كان شريراً وسيئاً» . ويلاحظ ان الالهين خالقان ، مع ان خليقة اهريمان هي حصراً سيئة . وعليه ، فإن هذه المشاركة السلبية في العمل النشكوني (جبال ، وافاعي ووحوش مؤذية الخ) تشكل عنصراً جوهرياً في العديد من الأساطير والخرافات الشعبية النشكونية ، المنتشرة بدءاً من أوروبا الشرقية حتى سيبيريا[١٣] حيث يلعب خصم الاله دوره .

وكما تؤكده الرسالة الفهلوية الهامة البونداهيشن الكبيرة le grand Bundahishn [٣ - ٢٠] «بانجاز اضحية ، كل الخليقة أبدعت» . وهذا المفهوم ، كذلك الأمر اسطورة ذرفان ، هما بالتأكيد هنديتان - ايرانيتان ، لأنهما توجدان في الهند كذلك . فلكي يحصل براجاباتي على ولد ، قدم اضحية[١٤] داكسايانا ، وهو كذلك ، في الحين الذي كان يضحي فيه ، خامره شك («أيجب علي تقديمها ؟ لايجب علي تقديمها ؟») . وعليه فإن براجاباتي هو الاله الكبير الذي خلق العالم من جسده الخاص وصور السنة والدورة الزمنية كذلك (ف ٧٦ ع) . إن الشك ، مع كل نتائجه المأساوية يشكل خطأ طقوسيا . وهو إذن النتيجة لحادث تقني ، من إهمال المضحي الالهي . والخبيث لا يحوز أبداً نظاماً اونطولوجيا خاصاً : انه يرتبط بفاعله لا اراديا ، والذي يسرع من جانب آخر للحد مسبقاً من أجل وجوده .

ان النغمة الميتولوجية للنتائج المأساوية للشك لها العديد من الموازيات في الأساطير - المؤكدة تقريباً في كل مكان في العالم - والتي تفسر أصل الموت أو الشر بفقدان التيقظ أو البصيرة من جانب الخالق . ويؤخذ في الحسبان الفارق مع المفاهيم الأكثر قدما ، الموزعة كذلك من قبل زارادشت : أهورا مزدا أوجد الروحين ، ولكن الروح الشريرة اختارت بحرية طريقة تكونها (ف ١٠٣ع) . والاله العاقل ذاته ، في العديد من الديانات القديمة ، يوائم توافق المتضادات ، لأنه يشكل الكلية للحقيقة . ولكن في الاسطورة الزورفانية ، كما في أساطير مشابهة أخرى ، ان الشر حصل ، مع انه بدون تعمد ، من قبل الاله الكبير

نفسه . وعلى كل حال ، وأقله في التقليد المنقول من قبـل ازينك، لا يلعب ذورفان أي دور في الخلق الكوني : انه يعرف نفسه كإله متعالي deus otiosus ، لأنه قدم لولديه التوأمين رموز السيادة (البرسوم le barsomلأهورامزد و حسب الكتاب الفهلوي ذاتسبرام Zâtspram ، «أداة مشكلة من المادة الخاصة للظل» إلى أهريمان) .

٢١٤ ـ الوظيفة الأخروية للزمن

في المقياس الذي يمكن فيه التوجه في الأرومات المتتالية للنصوص الفهلوية والتعامل معها (منجزة عندما أصبحت المزدكية الكنيسة الرسمية للامبراطورية الساسانية [٢٢٦ ـ ٦٣٥] ، وحتى بعد انتصار الاسلام) ، تبدو الزورفانية وكأنها بالأحرى ثيولوجيا توفيقية معدة من قبل المجوس الميديين ، اكثر من أن تكون ديانة مستقلة . وفي الواقع ، لم تقدم تضحيات لزورفان مطلقاً ، وأكثر من ذلك ، أن هذا الاله البدئي مذكور دوما مع اوهرمازدواهيرمان . ولنوضح بأن نظرية الألوف من السنين كانت تدخل دائما ، بطريقة أو بأخرى ، ذورفان ـ إما بصفته إلهاً كونياً للزمن ، وإما بكل بساطة بصفته رمزاً أو تشخيصاً للزمن . وإن الـ ٩٠٠٠ أو الـ ١٢٠٠ سنة التي تشكل تاريخ العالم قد فسرت بالنسبة لشخص ذورفان ذاته . وحسب بعض المصادر السورية syriaque[١٦] ، فإن ذورفان محاط بثلاثة آلهة ، هي في الحقيقة أقانيمه ses hyspostases ، أذوفار وفرازوفار وزاروفار . وهذه الأسماء تفسر بأوصافهِ الأڤستية ارزوكار asrokara («الذي يجعل رجوليا») وفرازوكارا («الذي يجعل متألقاً») ، ومارسو كارا («الذي يجعل شيخاً»)[١٧] . بوضوح يتعلق ذلك بزمن معاش ، كما يمكن رؤيته في المراحل الثلاث من الوجود البشري : فتوة ، نضج ، شيخوخة . وعلى المستوى الكوني ، يمكن ربط كل واحدة من هذه الفترات الزمنية بفترة من ٣٠٠ سنة . وهذه «الصيغة لثلاثة أزمنة» توجد في الأوبانيشاد ولدى هومر[١٨] ومن جهة أخرى ، ان صيغة مشابهة مستعملة في النصوص الفهلوية ، ممثلة اوهرمازد (كائن ، كان ، وسيكون) ، ويقال بأن «زمن

اوهرمازد» zamân i ohrmazd «كان ، كائن ، وسيكون دائماً»[١٩] . ولكن ذورفان (= زامان zaman) أيضاً هو الذي «كان وسيكون كل الأشياء»[٢٠] .

وبالاجمال ، فان الصور والرموز الموقتة مؤكدة بلا خلاف في النصوص الزرادشتية أو الذورفانية . وذات الوضع فيما يتعلق بدورة الـ (١٢٠٠) سنة . فهي تلعب دورا في التعاليم الذورفانية . وزورفان يمثل كإله له اربعة وجوه ومربعات كونية (كوزمولوجية) مختلفة تستخدم لتحيط به ، الأمر الذي يتوافق مع اله سماوي قديم للزمان وللمصير[٢١] . واذا اعترف بالاله ذورفان في «الزمن اللا محدود» زامان إ أكناراك zaman i akanarak فيبدو أنه يصعد اوهرمازدوأهريمان ، لأنه يُعلن : «الزمن أقوى من الخليقتين . .»[٢٢] .

ويمكن تتبع المجادلات بين الأورثوذكسية المزدية التي صلَّبت تباعاً الثنائيـة، والتيولوجيا الذرفانية . والفكرة بأن أوهرامزد واهريمان هما شقيقان مستولدان من ذورفان ، هي مدانة بالطبع في مقطع من دينكارا denkart[٢٣] . ولهذا فإن مسألة المصير للخصمين لا تعرض في الكتابات الفهلوية الارثوذكسية . إن اهرمازد واهريمان موجودان منذ الأبد ، ولكن الضد سينقطع عن الوجود لفترة ما ، في المستقبل . ويعرف عندئذ لماذا لدى المزديين أيضاً ، إن للزمن وللمذهب الألوف أهمية رئيسية .

وحسب اللاهوت المزدي ، ان الزمن ليس لابد منه للخليقة ، ولكنه هو الذي يجعل من الممكن دمار أهريمان ونزع الشر[٢٧] . وفي الواقع ، ان اهرمازد خلق العالم ، بهدف قهر الشر وابادته . وتفرض النشكونية سلفا اخروية ومذهباً منقذاً . ولأجل هذا فإن الزمن الكوني ليس دورياً ولكنه ممتد خطياً : له بداية وسيكون له نهاية . ان المدة الزمنية هي النتيجة غير المباشرة لمهاجمة اهريمان . وان اوهرمازد بخلقه للزمن الممتد خطيا والمحدود كالفترة التي سيكون فيها مجال لمعركة ضد الشر ، قد منح في ذات الوقت معنى «اخرويا» ، وبنية مأساوية (حرب غير متوقعة حتى النصر النهائي) . وهذا ما يعيد القول بأنه خلق الزمن المحدود بصفته تاريخاً مقدساً . يضاف الى ذلك ان هذه هي الأصولية الكبرى للفكر المزدي لتفسير

النشكونية ، والنشأة البشرية ونبـوءه ذرادشت كفترات انشائية لذات التاريخ الوحيد والمقدس .

٢١٥ ـ الخليقتان : مينوك وجيتيك

حسب الفصل الأول من بونداهيشن Bundahishn يوجد اوهرمازد وأهريمان منذ الأزل ؛ ولكن في حين ، ان اهرمازد ، غير محدود في الزمن ، هو محدد بأهريمان في المكان ، واهريمان هو محدود في المكان كما هو محدود في الزمان ، لأنه في فترة ما سينقطع عن الوجود ، وبعبارة اخرى ، ان الاله ، في المزدية ، هو أصلا محدود لأنه محاط بضده أهريمان[٢٥] . وهذا الوضع سيتمدد إلى الأبد اذا لم يُهاجم اهريمان .

إن أوهرمازد يقاوم بهجوم مضاد بخلقه العالم ، الأمر الذي يسمح له بأن يصبح لا نهائياً ايضاً في المكان . وهكذا ، فإن اهريمان يساهم في كمال أوهرمازد . وبعبارات اخرى ، إن الشر بدون ادراك وبدون ارادة ، يساعد في انتصار الخير ، وهذا المفهوم غالباً ما يصادف في التاريخ ، وهذا ما شغف به جوته Goethe .

إن اوهرمازد في كلية قدرته تبصر المعركة فانتج خليقة «مثالية» أو «روحية» . إن التعبير المستعمل مينوك menok قابل للترجمة بصعوبة بالغة لأنه ينعكس على عالم تام مما هو جنيني . وحسب الداداستان إدينيك le Daṭastan i Denik [٣٧ : ٣] ، ماهو مينوك هو تام ، ويؤكد الدنكارت le Denkart [٩ : ٣٧ـ٥] ان العالم كان في البدء خالداً . ومن جهة اخرى يصف البونداهيشن le Bundahishn [١ ، ٦] الخليقة في حالة المينوك ، خلال الثلاثة آلاف سنة التي دامت ، كما لو أنها «دون فكر ودون حركة وغير محسوسة»[٢٦] . ولكن هذه بخاصة هي الصفة السماوية والروحية للحالة مينوك المشار إليها . «لقد أتيت من العالم السماوي (مينوك)» هذا ما ورد مكتوبا في نص من القرن الرابع ، «ليس في العالم الأرضي (جيتيك getik) أنني بدأت

التكون . لقد كنت ظهرت أصلا في الحالة الروحية ، حالتي الأصلية ليست الحالة الأرضية»(٢٧) . ومع ذلك لنؤكد بدقة ، ان المقصود ليس وجوداً مجرداً ، لعالم أفكار افلاطونية : الحالة مينوك يمكن تعريفها كطريقة للتكون روحية ومادية في آن واحد .

وفي الدراما الكونية لتاريخ العالم تميز اربعة مراحل . فأثناء الزمن الأول يحصل عدوان اهريمان والظلمات ضد عالم النور لأهورمازد . (انه يتعلق بثنائية من نوع لاكوني* acosmique ، لأنه في مذهب ذرادشت ، أهورامازدا هو الخالق للنور كما هو خالق الظلمات ؛ [ر ياسنا ٤٤ : ٥] . وقبل نقل الخليقة من الحالة الروحية ، مينوك ، للحالة المادية جيتيك ، طلب اوهرمازد من الفرافاشي Fravashi (أرواح سابقة الوجود مستقرة في السماء) فيما اذا كانت تقبل بوجود جسدي ، على الأرض بهدف مقاومة قوى الشر(٢٨) . فرضي الفرافاشي بذلك . وهذا ما يؤكد الارتباط لأجل الحياة المجسدة ، ولأجل العمل ، وفي آخر لحظة لأجل المادة ، خط مميز لرسالة ذرادشت وإن الفارق مع التشاؤمية الغنوصية والمانوية ، ظاهر(٢٩) . وفي الواقع ، ان الخليقة المادية جيتيك ، قبل هجوم اهريمان ، كانت بذاتها طيبة وكاملة . ولم يتلفها سوى غزوة اهريمان ، بإدخالها الشر . والنتيجة هي حالة «الخلط» (جوميسين gumecisn) التي توجد فيها منذئذ الخليقة برمتها ، حالة لن تزول الا على اثر تطهير نهائي . إن اهريمان وجحافله الشيطانية تفسد العالم المادي باختراقه وتوسيخه من قبل مخلوقاته الضارة ، وبخاصة باستقرارها في اجساد البشر . وفي الواقع ، ان بعض النصوص يفهم منها ان أهريمان لا يرد على الخليقة المادية لأوهرمازد بخليقة جيتيك من نظام سلبي : فمن أجل افساد العالم يكفيه ان يدخل اليه وان يسكنه . «وبالنتيجة ، عندما لا يكون له سكن في أجساد البشر ، فإن أهريمان سيزول من العالم قاطبة»(٣٠) .

إن هجوم أهريمان موصوف بعبارات عاطفية : إنه يمزق محيط السماء ، ويتدخل في العالم المادي جيتيك ، ويوسخ المياه ، ويسمم النبات ويثير بذلك موت

---

* Acosmique (مذهب قائل بأن الكون لا وجود له في ذاته لأن كل موجود انما هو في الله

الثور الأولي[٣١] . انه يهاجم جايومارت Gayomart ، الانسان الأول ، وتوسخه العاهرة ، وعبره توسخ كل البشر . (مع ذلك ، كان مقدرا على جايومارت ان يعيش ايضا ٣٠ سنة بعد الهجوم) . وبعدئذ يلقي اهرمان بنفسه على النار المقدسة ويوسخها باثارته الدخان . ولكنه في أوج سلطته ، غالبا ما يكون اهريمان اسيراً في العالم المادي ، لأن السماء بانغلاقها تحبسه في الخليقة كما لو أنها اوقعته في مصيدة[٣٢] .

٢١٦ - من جايومارت الى ساوشيان

جايومارت هو ابن اهودمازد وسباندرمات، الأرض، وكما كرانترويات (عمالقة) macranthropes اسطورية اخرى له شكل دائري و «يلمع كالشمس» [افلاطون symp ١٨٩] . وعندما يتوفي تنبثق المعادن من جسده ؛ منيه sa semence مطهر بنور الشمس ، وثلث منه يسقط على الأرض فينتج عشبة الراوند rhubarbe ، حيث يتولد أول زوج بشري ، مازي ومازيان masy et maayane . وبعبارة اخرى ، ان الزوج الأولي تولد من الجد الاسطوري جايومارت ومن الأرض الأم ، وشكلها الأول نباتي - مبدأ اسطوري منشر جداً في العالم . وقد أمرهما اوهرامزد بفعل الخير وبعدم عبادة الشياطين وبالامتناع عن الطعام . وفي الواقع ، ان مازي ومازيان اعلنا اوهرمازد كخالق ، ولكنهما خضعا لاغواء اهريمان وصرحا بأنه هو خالق الأرض ، والماء والنباتات ، وبسبب هذا «الكذب» ادين الزوجان وبقيت روحاهما في الجحيم حتى البعث .

وخلال ثلاثين يوماً عاشا بدون طعام ، ولكنهما رضعا بعدئذ لبن عنزة وتظاهرا بعدم الرضى ، وكانت تلك كذبة ثانية ، قوّت الشياطين . ويمكن تفسير هذا المشهد الاسطوري بطريقتين : توضحان ١) إثم الكذب أو ٢) اثم الأكل ، أي اقامة الشرط البشري ؛ وفي الواقع ، وكما في عدد من الأساطير القديمة ، لم يكن للزوجين الأول حاجة بالطعام ؛ واكثر من ذلك ، حسب المعتقد الايراني ،

سيقلع البشر ، في نهاية الزمان ، عن عادة الأكل والشرب[٣٣] . وبعد ثلاثين يوما أيضاً ذبح مازي ومازيان رأساً من قطيع وشوياه . وقدما جزءاً للنار وآخر للآلهة ، بطرحه في الهواء ، ولكن نسراً رفع هذا الجزء . (بعد وقت قصير ، أكل كلب ، الأول من اللحم) . وهذا ما يمكن ان يعني ان الاله لم يقبل التقدمة ، ولكن ايضاً ان الانسان لا يجب ان يكون آكل لحوم . وخلال خمسين عاماً ، لم يكن لمازي ومازيان أية رغبة جنسية . ولكنهما تزوجا وولد لهما توأمان «لطيفان» لدرجة ان الأم افترست واحداً والأب الآخر . عندئذ الغى اوهرمازد تذوق الأولاد لكي يبقي آباؤهم منذئذ على حياتهم[٣٤] . وفيما بعد حصلت مازي ومايزان على ازواج اخرى من التوائم ، التي اصبحت أجداد كل الاعراق البشرية .

ان اسطورة جايومارت (حسب الابستاق جايامارتيان gaya maretan «حياة فانية») هي ذات دلالة رفيعة لتحقيق عمل اللاهوتيين الزرادشتيين في اعادة شروحهم للميتولوجيا التقليدية . وكيمير ymir وبوروشا purusha فإن جايومارت هو شكل انساني عملاق macranthrope بدئي وخنثى ، ولكن اخضاعه للموت قيم بشكل مختلف . فليست كلية العالم ابدا هي التي خلقت من جسده ، ونما المعادن فقط ـ وبعبارات اخرى ـ الاجرام les planètes ـ ومن منيه عشبة الراوند التي حملت أول زوج بشري . وتماما كما في التعليم اليهودي المتأخر ، أن آدم قد منح في آن واحد صفات كونية ، وفضائل روحية بارزة ، كذلك جايومارت قد رفع الى مركز استثنائي في التاريخ المزدي المقدس، يصنف بالقرب من زرادشت وساوشيان. وفي الواقع ان جايومارت في الخليقة المادية جينك هو أول من يتلقى الكشف للديانة الجيدة[٣٥] . وبما انه عاش ثلاثين عاماً تحت ضغط اهريمان ، فيمكن له ان ينقل الكشف الى مازي ومازيان ، اللذان اوصلاه فيما بعد الى ابنائهما . وتعلن الثيولوجيا المزدية جايومارت وكأنه الانسان الكامل العادل بامتياز وانه المساوي لزرادشت وساوشيان[٣٦] .

إن عمل اللاهوتيين المتأخرين ، التمجيد لجايومارت قد انتهى بإعادة شرائه للشرط البشري . ففي الواقع ، ان الانسان كان خلق طيبا وموهوبا بروح وبجسد خالد ، تماما كجايومارت . وان الموت ادخل في العالم المادي من قبل اهريمان ،

على اثر خطيئة الأجداد . ولكن وكما يلاحظ ذهنر zaehner[٣٧] . فإن الخطيئة الأصلية ، بالنسبة للزرادشتية هي على الأقل عمل من عدم الطاعة اكثر مما هو خطأ حكم : الأجداد اخطأوا باعتبارهم اهريمان كالخالق . مع ذلك ، فإن اهريمان لم ينجح في قتل الروح لجايومارت ولا ، بالنتيجة ، روح البشر . وعليه ، فإن هذه هي الحليف الأقوى لأوهرامازد ، لأن ، الانسان وحده ، في العالم المادي ، يحوز التحكم الحر . ولكن الروح لا تستطيع ان تعمل الا بالجسد الذي تسكنه ؛ فالجسد هو الأداة أو «لباس» الروح . واكثر من ذلك ، لم يصنع الجسد من الظلمات (كما تؤكد عليه الغنوصيات) وانما من ذات مادة الروح ؛ وفي الأصل كان الجسد وضاء ومعطرا ، ولكن الشبق coneupiscence جعله نتنا . مع ذلك ، وبعد الدينونة الأخروية ، ستجد الروح جسداً مبعوثاً وماجداً[٣٨] .

وباختصار ، إن الانسان بفضل حريته بالاختيار بين الخير والشر، لا يضمن ألسلامة لنفسه فحسب ، بل يستطيع المساهمة بالعمل الغفراني لأهورمازد . وكما رأينا (ف ٤ : ١ع) كل مضحي يساهم «بظهور» العالم ، وهو يعيد ، في شخصه الخاص ، شرط الطهارة التي سبقت «الخلط» (جوميسيسن gumeisisn) الحاصل بغزوة اهريمان . لأنه ، بالنسبة للمزدكية ، ان الخليقة المادية ـ أي المادة والحياة ـ هي خيرة بذاتها وتستحق ان تكون مطهرة ومبعوثة . وان مذهب بعث الأجساد يبشر ، فعلا ، بالقيمة التي تسمو على التقدير للخليقة . وان هذا هو التقييم الديني الأكثر حدة والأكثر جرأة للمادة ، المعروف قبل «الفلسفات ـ الكيميائية» الغربية في القرن السابع عشر .

خلال الثلاثة الاف سنة التي تفصل مقتل جايومارت وانبثاق الزوج الأولي عن ظهور زارادشت ، وجدت سلسلة من ملكيات اسطورية ، والتي يبدو أن اكثرها شهرة هم يم (yima) وازدهاك وفريتون . ويبدو زرادشت في منتصف التاريخ على مسافة متساوية من جايومارت والمنقذ المقبل ساوشيان (حسب نص تقليدي من القرن الرابع ق.م ، سيتولد ساوشيان من عذراء ستطفو في بحيرة كاسنويا ، وستحفظ موجات البحيرة في زرادشت) . وكما رأينا (ف ١٠٤ و ١١٢ ع ع) ، فإن التجديد النهائي فرازا ـ كيريتي سيحصل على إثر تضحية منجزة من

قبل ساوشيانْ . وتصف الكتب الفهلوية بتفصيل كبير مشاهد هذا السيناريو الأخروي . بدئياً وخلال الألوف من السنين الثلاثة ، سيمتنع البشر تباعاً عن أكل اللحم ، وعن اللبن والنباتات لكي لا يتغذوا سوى بالماء . وحسب البونداهيشاس ، ان هذا هوما سيحصل بدقة للشيوخ المقتربين من نهايتهم .

وبالفعل ، وبهدف الغائها ، تعاود الأخروية اخذ اعمال وحركات الأجداد . ولأجل هذا فإن الشيطان Az (الطمع الذي لم يعدله سلطة على البشر ، سيكون مكرها لافتراس الشياطين . ولقتل ثور بدئي من قبل اهريمان يناسب التضحية الأخروية لثور هاذايوس Hathayos المنجزة من قبل ساوشيان واوهرامزد . والشراب المحضر من شحمه أو نخاعه الشوكي ، المخلوط بالهاوما- البيضاء ، سيجعل البشر المبعوثين خالدين . وبصفته انسانا أولا ، فان جايومارت سيكون المبعوث الأول . والمعارك التي حصلت في البدء ستعاد : التنين آذراهاك سيعاود الظهور ويُطالب ببعث فريتون ، الذي كان غلبه في ايلوتمبوري ixillo tempore (بداية الزمن) . وفي المعركة النهائية سيتواجه الجيشان ، ولكل محارب خصمه المحدد بدقة . آهريمان وآذهما آخر من يسقط تحت ضربات اوهرمازد وسروز sroz(٣٩) .

وحسب بعض المصادر فإن اهريمان قد تراجع دوما لعدم القدرة ؛ وحسب غيرها ، انه اعيد دفعه في الثقب الذي دخل منه إلى العالم ، أو انه تلاشى(٤٠) .
وقد اسال حريق جبار المعادن من الجبال ، وفي هذا النهر من النار ـ المحرق بالنسبة للأشقياء ، والمشابه للبن الساخن بالنسبة للمستقيمين (العادلين) justes ـ تتطهر الأجساد المبعوثة خلال ثلاثة أيام . وينتهي الحريق بازالة الجبال ، وتمتلىء الوديان ، والفتحات التي توصل مع الجحيم، ستغلق . «الأرض المسطحة هي »ـ كما هو معلوم ـ الصورة لعالم فردوسي أولي كما هو أخروي» . وبعد التجدد ، فإن البشر الناجين من خطر الخطيئة ، سيعيشون أبديا ، متمتعين بالسعادات التي هي جسدية وروحية ايضا .

٢١٧ ـ اسرار ميترا

حسب بلوتارك [بومب : ٥ ـ ٢٤] ، إن قرصان سيليسيا «كانوا يحتفلون سراً بالأسرار» لمثيرا ؛ وقد نشروا هذه العقيدة في الغرب بعد أن انتصر عليهم واسرهم

بومبيه pomp ée وهذا هو المرجع الأول المعلن لاسرار ميترا[٤١] . وقد بقيت مجهولة ، عملية تحويل الاله الايراني الممجد بالميهرياخت mihryacht (ف ١١١ع) في ميترا الأسرار . لقد تطورت عبادته تقريبا في الوسط المجوسي المقام في مابين الرافدين وآسيا الوسطى . وأصبح ميترا الاله البطل بامتياز حامي الملوك البارثيين . وان الأثر المأتمي لأنطيوش الأول لكوماجين Antioch L de commagéne (٦٩ - ٣٤ ق.م) يظهر الاله وهو يشد على يد الملك . غير ان العبادة الملكية لميترا لم تلائم ، على مايبدو ، أي طقس سري ؛ ومنذ عصر الأخمينيين كانت الحفلات الكبرى للميتراكانا تقام علنا .

إن الميتولوجيا والتيولوجيا للأسرار الميثرية مقبولة لدينا خاصة ، بفضل الآثار المصورة . فالوثائق الأدبية ليست كثيرة وهي ترجع أساساً إلى العقيدة وإلى التراتبية لدرجات تلقينية (مسارية) . وكانت إحدى الأساطير تروي ولادة ميترا من حجر (de patra natus) تماما كالشكل البشري او لليكومي (ف ٤٦ ع) ، وأجديتي الفريجي (ف ٢٠٧) وبطل شهير من ميتولوجيا الأوسيت ossète[٤٢] . وان ذلك هو السبب الذي من أجله كانت المغارة تلعب دوراً رئيسياً في اسرار ميترا . ومن جهــة اخرى ، وحسب تقليد نقله البيروني ، فإن الملك البارثي على إثر تنصيبه ، انزوى في مغارة فتقرب منه اتباعه وقدسوه كمولود جديد ، وبدقة اكثر ، كطفل من اصل مما فوق الطبيعة[٤٣] . وتتكلم التقاليد الأرمنية عن مغارة كان اعتزل فيها ميهير : MEHER (ميهر ، ميترا) حيث كان يخرج منها مرة كل عام . وعليه ، فإن الملك الجديد كان ميترا ، معاد تجسيده ، ومتولد مجددا[٤٤] . وتوجد هذه النغمة الايرانية في الأساطير المسيحية للولادة في مغارة بيت لحم المغمورة بالنور[٤٥] . وباختصار ، إن الولادة العجائبية لميترا تشكل جزء لا يتجزأ من اسطورة كبرى إيرانية - توفيقية للمدير الكوني - الفادي cosmocrate- Rédempteur .

إن المشهد الاسطوري الأساسي يلائم طيران الثور بميترا واضحيته المتخذة ، والمحققة حسب بعض الآثار بناء على أمر الشمس (sol) . ان تضحية الثور مصوّرة على مجموعة النصب والنقوش الميترية تقريبا . فميترا يحقق رسالته بدون رغبة ، فيقبض مشيحاً برأسه بيد على انفي الثور ويغرز باليد الأخرى السكين في

خاصرته . «من جسد الضحية المحتضرة تولدت كل النباتات والأعشاب الصحية [. . . .] ومن نخاعه الشوكي بذر القمح الذي يعطي الخبز ، ومن دمه ، العنب الذي ينتج الشراب المقدس للأسرار»(٦ ٤) . إن التضحية بالثور ، في النص الزرادشتي ، من قبل ميترا تبدو لغزا ، وكما رأينا ا (ف ٢١٥ع) ، فإن قتل الثور الأولي هو عمل أهريمات . ويقرر نص متأخر من بونداهيش [٤ ـ E] النتائج الخيرة لهذه الأضحية : فمن مني semence الثور الأولي ، المطهر بنور القمر ، تتولد انواع الحيوانات ، ومن جسمه تنبت النباتات . ومن وجهة النظر المورفولوجية (علم الهيئة)، يفسر هذا «القتل الخالق» في دين من نموذج زراعي بأفضل مما هو في عبادة تلقينية (مسارية)(٤٧) . ومن جهة أخرى ، وكما رأينا (ف ٢١٦ع) فإنه في آخر الأزمنة ، سيضحى بالثور هاتا يوس Hathayos من قبل ساوشيان وأوهرمازد ، وان الشراب المتحصل من شحمه أو نخاعه سيجعل البشر خالدين . فيمكن إذن تقريب مأثرة ميترا من هذه الأضحية الأخروية ، وفي هذه الحالة يمكن القول ان المسارة في الأسرار تساهم في التجدد النهائي ، وبعبارة اخرى خلاص التلميذ .

إن ذبح الثور كان يتم في المغارة ، بحضور الشمس والقمر . وان البنية الكونية للأضحية مشار اليها بالاثني عشر اشارة من الأبراج و الكواكب السبعة السيارة ورموز الرياح والفصول الأربعة ، وشخصيتان ، كوتس وكوتوباتس ، تلبسان كميترا ، وكل منهما يحمل مصباحاً متوقداً في يده ، وهما ينظران بانتباه لعمل الاله الباهر ؛ انهما يمثلان تجليان آخران لميترا بصفته إلها شمسياً (في الواقع ان بزودو دينيز ـ يتكلم عن «الثلاثي ميترا» [اييبست ٧] .

وتطرح العلاقات بين الشمس Sol وميترا مسألة لم تحل حتى الآن : فمن جهة ، يأمر Sol ميترا ، مع انه أدنى منه ، بأن يضحي بالثور ، ومن جهة اخرى ، فإن ميترا يدعى في النقوش الشمس التي لا تغلب sol invictus . وبعض الفصول المسرحية تظهر sol راكعاً امام ميترا ، وبعض الآخر تظهر الآلهة وهي تشد على يديه . ومهما يكن من أمر فإن ميترا و(سول)، وثقاصداقتهما بمأدبة حيث اقتسما لحم الثور . وكانت الحفلة في المغارة الكونية . وقد خدم الحضور الالهين ، وهم يلبسون الأقنعة الحيوانية . وهذه المأدبة تشكل النموذج لوجبات طقوسية ، حيث

يخدم النسك المزينون باقنعة مميزة لرتبهم المسارية ، الرئيس (الأب) للجمعية السرية . ويفترض انه بعد زمن قصير كان يحصل صعود الشمس solإلى السماء ، وهو مشهد مصور على عدة نصب . وبدوره يرتفع ميتراً للسماء ، وبعض الصور تظهره جارياً خلف عربة الشمس .

إن ميترا هو الاله الوحيد الذي لا يشارك في المصير المأساوي لآلهة الاسرار . ويمكن الاستنتاج اذن بأن السيناريو بالمسارة الميثرية لم يكن يقتضي تجارب تتطلب الموت والبعث . قبل المسارة ، كان المريدون يرتبطون بقسم sacramentum بالحفاظ على سر الاسرار وهنالك نص عن القديس جيروم ، وعدد من النقوش نقلت الينا مدونة الدرجات السبعة للمسارة : غراب (corax) ، متزوجة (nymphus) جندي (miles) أسد (leo) فرس (perses) ساعي الشمس (heliodromus) وأب (pater) . وان القبول في الدرجات الأولى كان مسموحاً به حتى للأطفال بدءاً من عمر سبع سنوات ، ومن المرجح انهم كانوا يتلقون بعض التعليم الديني ويحفظون اغاني واناشيد. وكانت جماعة التلامذة mystes مقسمة في مجموعتين : «الخدم» و «المشاركين» ، وهذه المجموعةالأخيرة مؤلفة من ملقنين بدءاً من درجة (الأسد) leo[٤٩] .

اننا لا نعرف تفاصيل المسارات في مختلف الدرجات . وقد أشار المنافحون المسيحيون عن الكنيسة في مجادلاتهم ضد «الاسرار» الميترية (المستوحاة من قبل الشيطان) ، الى التعميد ، الذي من المرجح انه كان يدخل المبتدىء في الحياة الجديدة[٥٠] كما أنه من المرجح ان هذا الطقس كان محجوزا للمبتدىء الذي يعد نفسه لدرجة الجندي (mils) ومن المعلوم أنه كان يقدم اليه تاج ، ولكنه كان يتوجب على التلميذ رفضه ، قائلاً ان ميترا «كان تاجه الوحيد»[٥٢] . وكان يعلّم بعدئذ على جبهته بحديد محمّى [ترتوليان ، دي براسكرهاريت[٤٠]] أو يطهر بمشعل متقد [لوسيان مينبوس ٧] . وفي المسارة برتبة أسد leo كان يهرق العسل على يدي المرشح وكان يطلى لسانه . وعليه ، كان العسل الغذاء للسعداء والمتولدين - مجدداً[٥٢] .

وحسب كاتب مسيحي من القرن الرابع ، كانت تعصب أعين المرشحين ، اثناء الاحاطة بهم من قبل جمع متهيج من الناس ، بعضهم يقلد نعيق غراب محركا جناحيه ، وبعضهم يزمجر كالأسد . وكان على بعض المرشحين المربوطة ايديهم بمصارين الدجاج ان يقفزوا فوق حفرة مملوءة بالماء . ثم ، كان أحدهم يحضر بعدئذ ويقطع المصارين ويُعلن محرراً[٥٤]. إن مشاهد المسارة المصورة في رسوم الميتروم mithreum لكابو تجعل بعض هذه التجارب المسارية محتملة . إن واحداً من المشاهد المحافظ عليها جيداً موصوفة من قبل كومونت كما يلي : «التلميذ جالس وهو عار من الثياب ، وعيناه معصوبتان ، ويداه مكتوفتان خلف ظهره . والملقن le mystagogue يقترب منه من الخلف ، كما لو أنه يود دفعه إلى الأمام . وفي مواجهته ، يتقدم كاهن بثوب شرقي ، معمم بطربوش عالٍ فريجي ، وماداً حربة صوب التلميذ . وفي مشاهد أخرى ، يكون التلميذ عاريا راكعاً أو حتى ممدداً على التراب»[٥٥] . ومن المعروف ايضاً انه كان على التلميذ حضور موت صوري ، ويعرض عليه حربة ملوثة بدم الضحية[٥٦] . ومن الراجح جداً أن بعض الشعائر المسارية كانت تقتضي معارك ضد فزّاعة. وفي الواقع ، ان المؤرخ آمبريد كتب أن الامبراطور كومود لوّث اسرار ميترا بقتل انسان حقيقي [نصوص وآثار ٢ ـ ٢١ ـ ٩] . ويفترض انه باتمام المسارة لدرجة جندي mile ولصنف أب كان كومود قد قتل المرشح ، في حين انه لم يكن يستوجب سوى تمثيل موته .

إن كل واحدة من هذه الدرجات كانت محمية بكوكب فدرجة الغراب محمية بعطارد ، والزوجة بالزهرة والجندي بمارس والأسد بجوبيتر ، والفارسي بالقمر ، وساعي الشمس بالشمس ، والأب بزحل . وان العلاقات الكوكبية هي بكل وضوح مبينة في الميثريات les mithrea للقديسة بريسكا وأوستيا[٥٧] de santaprisca et ostia ومن جهة أخرى ، فإن أورجين origéne في [contracelsun ٦ : ٢٢] يتكلم عن سلم من سبع درجات مؤلف من مختلف المعادن (رصاص ، قصدير ، برونز ، حديد ، خلطة ، فضة ، ذهب) ومتشاركة مع مختلف الآلهة (الرصاص بكرونوس ، والقصدير بأفروديت الخ) ومن الراجح جداً أن مثل هذا السلم كان يلعب دوراً طقوسياً ـ دوراً غير معروف ـ باستخدامه رمزاً للجمعية السرية الميثرانية .

٢١٨ - «لو أن المسيحية توقفت ....»

عندما تناقش اسرار ميترا ، يبدو انه لابد من ذكر الكلمة الشهيرة لأرنست رينان: «لو ان المسيحية توقفت في نموها بأحد الأمراض القاتلة ، لكان العالم اصبح ميثريا» [مارك . اورليوس ص ٥٧٩] ومن المحتمل ان رينان كان متأثر بالاحترام والشعبية التي تمتعت بها اسرار ميترا في القرنين الثالث والرابع ، فقد صدمه فعلاً انتشار هذه الأسرار في كافة المقاطعات من الامبراطورية الرومانية . وعليه ، فإن هذه الديانة الجديدة للأسرار قد فرضت بقوتها وأصالتها . فالعبادة السرية لميترا نجحت في جمع التراث الايراني مع التوفيقية الاغريقية - الرومانية . ففي مجمعه للآلهة ، جاور الأرباب الرئيسيون للعالم التقليدي ذورفان وآلهة شرقية أخرى . اضافة لذلك ، فإن اسرار ميترا تمثلت وأدخلت التيارات الروحية المميزة للعصر الامبريالي : علم التنجيم ، والتعاليم الأخروية ، والدين الشمسي (المشروح ، من قبل الفلاسفة ، بصفته توحيداً شمسياً) . ورغم التراث الايراني ، فإن اللغة الدينية كانت اللاتينية . وخلافاً لديانات اخرى شرقية للسلامة ، المدارة من قبل منظمات اكليروسية دخيلة (مصرية ؛ سورية ، فينيقية) فإن رؤساء الأسرار الآباء انضموا جنوداً بين السكان الاتياليك وسكان المقاطعات الرومانية . وإضافة لذلك ، فإن الميثرية كانت تتميز عن الاسرار الأخرى بغياب الطقوس التهتكية أو القبيحة . إنها ديانة بامتياز للجنود ، وقد طبعت هذه العقيدة الدنيويين بانتظامها ، ومزاج واخلاقية اعضائها ، وهي فضائل تعيد إلى الذاكرة التقليد الروماني القديم .

أما بالنسبه لانتشار الميترية ، فقد كان معجزة : من ايكوس في ميزوبوتاميا ، ومن افريقيا الشمالية واسبانيا حتى اوروبا الوسطى وفي البلقان . ان اكثرية المعابد قد اكتشفت في المقاطعات الرومانية من داسيا ، وبانونيا ، وجرمانيا . (يبدو ان العقيدة لم تدخل اليونان ولا اسيا الوسطى) . ومع ذلك يجب ان يؤخذ في الحسبان واقعة ان الجمعية السرية كانت تقبل مائة عضو على الأكثر .

وبالنتيجة ، حتى في روما ، حيث كان يوجد في فترة ما ، مئات المعابد ، فإن عدد المقبولين لم يكن يتجاوز العشرة آلاف[٥٨] . ان الميثرية كانت تقريباً محصورة بعقيدة سرية موقوفة على المحاربين ، وقد تبع انتشارها تحركات الفيالق العسكرية .
ان القليل الذي يعرف من الطقوس المسارية يذكر مقدما بمسارات «جمعيات الرجال» الهندو - اوروبيين (١٧٥ع) باكثر مما يذكر بالأسرار المصرية او الفريجية . لأنه وكما لاحظنا ، ان ميثرا كان الاله الوحيد للأسرار الذي لم يعرف الموت ابداً . وان الميثرية هي الوحيدة بين العقائد السرية التي لم تقبل النساء . وعليه ،وفي عصر من الزمن حيث مساهمة النساء في عبادات الخلاص وصلت لدرجة لم يسبق ان عرفتها سابقاً ، ان مثل هذا التحريم جعل من الصعب ، ان لم يكن بعيد الاحتمال ، ايمان العالم بالمثرية .
ومع ذلك ، فإن المنافحين عن المسيحيـة رفضوا «المنافسة» الظرفية مع المثرية ، لأنهم رأوا في الأسرار محاكاة شيطانية لسر القربان المقدس lénchariste . وقد اتهم جوستان «الشياطين الخبيثة» لأنها أمرت بالاستعمال التقديسي للخبز والماء ، وتكلم تيرتوليان عن «القربان من الخبز» . وعليه ، فإن الوجبة الطقوسية للمتلقين تحيي ذكرى مأدبة ميثرا والشمس بعد اضحية الثور . ومن الصعب التحديد بدقة فيما اذا كانت مثل هذه الحفلات تشكل بالنسبة للمتلقين الميثريين ، وجبة تقديسية أو اذا كانت تشابه بالأحرى مآدب طقوسية اخرى شائعة جداً في العصر الامبريالي[٥٩] . ومهما يكن من أمر ، لا يمكن انكار الدلالة الدينية للمآدب الميثرية (ولا انكار مآدب ومعتقدات ذات اسرار اخرى) ، لأنها كانت تتبع نموذجاً أو طريقة إلهية . فالفعل نفسه الذي اعتبره المنافحون عن المسيحية كتقاليد شيطانية لسر القربان المقدس يشير الى خاصيتها المقدسة . ففيما يتعلق بالتعميد التلقيني كان قد طبق ايضا في عبادات اخرى . ولكن التشابه مع الميثريين يتكشف بالنسبة للاهوتيين المسيحيين من القرنين الثاني والثالث ، واكثر ارباكا ايضا ، ان الاشارة المدموغة على الجبين بالحديد المحمى كانت تذكرهم بشعيرة تكمل التعميد المقدس signatio واضافة لذلك ، وبدءاً من القرن الثاني فإن الديانتين احتفلتا بميلاد إلههما في ذات اليوم (٢٥ كانون أول) وتقاسمتا معتقدات متماثلة حول نهاية العالم والدينونة الأخيرة وبعث الأجساد .

ولكن هذه المعتقدات ، وهذه السيناريوهات الاسطورية ـ الشعائرية تعود الى زيتجيست Zeitgeist من العصر الهلنستي والروماني ومن المحتمل ان اللاهوتيين من مختلف الديانات التوفيقية للسلامة لم يترددوا عن استعارة بعض الأفكار والصيغ التي عرفوا قيمتها ونجاحها (اشرنا سابقاً لحالة الاسرار الفريجية ف ٢٠٧ع) وفي آخر المطاف ، ان ماكان يهم هو التجربة الشخصية والتفسير اللاهوتي للسيناريو الاسطوري ـ الشعائري العلني بالايمان والتجارب المسارية «ويكفي التذكير بالتقييمات العديدة للقداسات لدى غير المسيحيين وفي تاريخ المسيحية»[٦٠] .

إن عدداً من الاباطرة قد اعتمد وادعم الميثرية بخاصة لاسباب سياسية . ففي كارنوتوم carnutum في ٣٠٧ أو ٣٠٨ كرس ديوكليسيان واغسطي وغيرهما مذبحا لميترا (المحسن للامبراطورية) . الا ان انتصار قسطنطين على جسر ميليفيوس في ٣١٢ ختم مصير الميثرية . وقد وجدت العبادة احتراماً تحت فترة الحكم القصيرة لجوليان ، فهذا الامبراطور الفيلسوف أعلن عن نفسه أنه ميثري . وبعد موته في ٣٦٣ وضعت نهاية للدعم الرسمي للميثرية . وككل الاديان المتعلقة بالسلامة والجمعيات السرية الباطنية ، فان العبادة السرية لميترا الممنوعة والمضطهدة زالت كحقيقة تاريخية . لكن ابداعات اخرى للعبقرية الدينية الايرانية تابعت تدخلها في العالم على وشك ان تصبح مسيحية . فبدءاً من القرن الثالث ، زعزع نجاح المانية manicheisme أركان الكنيسة ، وامتد تأثير المانية خلال القرون الوسطى . ومن جهة اخرى ، فإن عدداً من الأفكار الدينية الايرانية ـ بصورة خاصة بعض بواعث الميلاد ، وما يتعلق بالملائكة ، وقصة المجوس ، وتيولوجيا النور وبعض العناصر للميتولوجيا الغنوصية ـ ستنتهي بتمثل المسيحية والاسلام لها ، وفي بعض الحالات ، يمكن التعرف على ملامحها من العصور الوسطى العليا حتى النهضة وعصر الأنوار[٦١] .

ا

حواشي الفصل السابع والعشرين

١ ـ تأليه الملوك الأحياء ، ظاهرة مميزة في العصر الهللنستي ، وتأكدت لدى الارشكيين ، وتعرف على الأقل امثلة ثلاثة ـ (ر . ديانة الفرس ، غولميني ص ٢٥

٢ ـ ٤ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .

٥ ـ وفيد تغرين widogren (. . . اعتقد بمعرفة اسمه في الواح نوزي Nuzi للقرن ٣ ـ ١٢ ق.م) ولكن speiser اظهر ان الاسم يجب أن يكون قد قرىء zarwa اسم ربة حورية . . . . الخ .

٦ ـ ٨ ـ اسماء المراجع المعتمدة

٩ ـ بما ان زورفان حسب اودين eudon كان معبوداً من قبل المجوس ، أي اقليا في بلاد الميديين فانه من الصعب تقرير ما اذا كان سكوت ذرادشت يفسر باسباب نزاعات كلامية او ببساطة الأهمية المتواضعة ، ربما حتى فقدان ، هذا الاله للزمن والقدر في اوساط النبي الأهمية المتواضعة ، ربما حتى فقدان ، هذا الاله للزمن والقدر في اوساط النبي

١٠ ـ نوقش نص بلوثارك من قبل ويدنغريد ـ ديانة الايرانيين ص ٢٤٤.

١١ ـ ١٢ ـ ايزنك فهم جيدا ان ذورفان كان خنثى ، ولكن كتاباً اخرين متأخرين تكلموا عن أم ، او (زوجة) زرفان ـ المراجع المذكورة

١٣ ـ ٢٣ ـ اسماء المراجع لكل فترة ذكرت

٢٤ ـ في البوندا حسيم . . . (اوهرمازد له ايضا ثلاثة اسماء : الزمان ، المكان ، والدين معتمدة من الزوورفانية ولكنها ضرورية من أجل تفسير الخلق .

٢٥ ـ ٢٨ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف

٢٩ ـ ٣٠ ـ بالنسبة للمازدية فإن الثنائية الراديكالية فاني كانت تمثل الهرطقة بامتياز .

٣١ ـ من نخاعه تولدت النباتات الغذائية والطبية ومنيه نتجت الحيوانات المفيدة ، وقد عرفت ذكرى الاسطورة من مثل هذا النموذج حول قتل الثور .
٣٢ ـ اهريمان لا يستطيع مهاجمة السماء لأن الفرافاش المسلحين بالرماح يحمونها
٣٣ ـ ٣٨ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف
٣٩ ـ اسماء المراجع «والمقصود بالتأكيد لأسطورة اخروية هندو ـ اوروبية محافظ عليها ايضا في الهند البراهمانية ولدى الجرمن (رف ١٧٧ و ١٩٢ع)
٤٠ ـ ٤١ ـ المصادر المذكورة وكل المصادر الأخرى : ادبية ، ملحمية اثرية حول العبادة وتدخلها في الغرب ترجع فقط للقرون الأولى من الميلاد المسيحي .
٤٢ ـ ٤٦ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف
٤٧ ـ ويدنغرين يذكر ان سفيرة متأخرة بابلية kalu موافقة لتضحية بثور بهدف ضمان الخصب
٤٨ ـ ٥٠ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .
٥١ ـ Losy اسرار وثنية واسرار مسيحية ص ١٧٣ نجهل التجربة المسارية المميزة للغراب وحسب بورفير ان الغربان مساعدة «ويذكر ان الغراب هو الرسول الذي نقل الى ميثرا أمر الشمس بذبح الثور» وان الشعائر المميزة لدرجة الزوجة كانت (مشعل الزيجات) وتاج (اشارة لفينوس) وشمعة رمز النور الجديد) المقبول منذئذٍ .
٥٢ ـ ٥٣ ـ تروتوليان ص ٥٠ ـ وكان يوضع العسل على اللسان للمولود الجديد في التقليد الايراني ، ان العسل كان يأتي من القمر .
٥٤ ـ بعض الباحثين يشكون بأصالة هذه المعلومات . الا انه كما يقول لوزي «ان خاصيتها الغليظة تشهد برسمتها ، الأمر الذي جعل الكاتب يفترض اعطاء تفسير رمزي لم يفهم معناه ولم يهتم باعادة تكراره(ص ١٨٣)
٥٥ ـ ٦١ ـ اسماء المراجع التي ذكرها المؤلف .

الفصل الثامن والعشرون

ولادة المسيحية

٢١٩ - (يهودي غامض) : يسوع الناصري

في ٣٢ أو ٣٣ من عهدنا ، كان شاب فاريسي pharisien يدعى شاول ، وكان متميزاً بالحماس الذي كان يضطهد به المسيحيين ، وفي طريقه من اورشليم الى دمشق . «فجأة جلله نور آت من السماء ، قد سطع حوله ، فسقط إلى الأرض ، وسمع صوتا يقول له : «شاول ، شاول . لماذا تضطهدني ؟» فقال : «من أنت يارب ؟» قال : أنا يسوع الذي أنت تضطهده . فقم وادخل المدينة فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل» . وأما رفقاؤه فوقفوا مبهوتين يسمعون الصوت ولا يرون أحداً . فنهض شاول عن الأرض وهو لا يبصر شيئاً ، مع ان عينيه كانتا منفتحتين ، فاقتادوه بيده ودخلوا به دمشق . فلبث ثلاثة أيام مكفوف البصر لا

يأكل ولا يشرب» . وكان في دمشق تلميذ تلميذ اسمه (حنينا) ، فناداه الرب أثناء الرؤيا : (ياحنينا) قال لبيك يارب . ففرض عليه الذهاب الى شاوول ومضى (حنينا) فدخل البيت ووضع يديه عليه فقال «ياأخي شاول ، إن الرب أرسلني وهو يسوع الذي تراءى لك في الطريق التي قدمت منها ، أرسلنى لتبصر وتمتلىء من الروح القدس» فتساقط عندئذ من عينيه مثل القشور . فأبصر وقام فاعتمد ثم تناول طعاماً فعادت إليه قواه »[1]

هذا ما جرى بعد عامين أو ثلاثة من الصلب . (يجهل التاريخ الدقيق لموت يسوع : فيمكن ان يكون قد حصل في ٣٠ أو ٣٣ . وبالنتيجة ، فإن اهتداء بولس يمكن تحديده على الأكثر في ٣٢ أو فيما بعد في ٣٦) . وكما سنرى ، فإن الايمان بالمسيح المبعوث يشكل العنصر الاساسي في المسيحية ، وبخاصة مسيحية القديس بولس[2] . وهذه الواقعة ذات أهمية كبرى ، لأن رسائله تشكل الوثائق الأولى التي تروي تاريخ الجماعة المسيحية . وعليه فإن الرسائل جميعها مشحونة بحماسة منقطعة النظير : تأكيد البعث ، اذن الخلاص بالمسيح . «وأخيراً كتب الهللنسي الكبير ويلاموتيز ـ موالندورف ، أخيراً عبرت اللغة الاغريقية عن تجربة روحية حية ومتقدة»[3] .

ويقتضي ابراز واقعة أخرى : الزمن القصر ـ بضع سنوات ـ الذي يفصل التجربة الوجدية لبولس عن الحدث الذي كشف ارشاد المسيح . وفي السنة ١٥ من إمارة تيبير Tibère (اذن في ٢٨ ـ ٢٩ ق.م) ، بدأ ناسك ، يوحنا المعمدان ، يجوب اقليم الاردن ، «معلنا تعميداً للتوبة ومن أجل حط الذنوب» [لوقا ٣ : ١] وقد وصفه المؤرخ فلافيوس جوزيف «رجل شريف» كان يحض اليهود لممارسة الفضيلة ، والعدالة والرحمة [آنت . جود . ١٨ . ف،١١٦ ـ ١١٩] . وبالفعل كان نبياً حقيقياً ضد التراتبيات السياسية والدينية اليهودية . ان يوحنا المعمدان الرئيس لمذهب ألفي ، أعلن قرب قيام المملكة ، ولكن دون ان يدعي بلقب مسيح . وكان لدعوته نجاح بارز ، ومن بين الآلوف من الأشخاص الذين سارعوا من كل فلسطين ليتلقوا التعميد وجد يسوع ، من أصل من الناصرية في الجليل . وحسب التقليد المسيحي ، فإن يوحنا المعمدان عرف فيه المسيح ، ونجهل السبب

الذي من أجله عمِّد المسيح ، إلا أنه من المؤكد ان التعميد كشف له الكرامة المسيحيانية . وفي الأناجيل ، ان سر هذا الكشف قد ترجم بصورة روح الله ، النازلة كالحمامة والصوت الآتي من السماوات والقائل : «هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت» [متى ٣: ١٦ ومرقص ١ : ١١ ولوقا ٣ :٢٢] . وينسحب يسوع الى الصحراء ، حالاً بعد التعميد ، والأناجيل تؤكد انه «اقتيد للصحراء بالروح» لكي يجرِّب من قبل الشيطان [مرقص ١١ :١٢ ومتى ٤ :١-١٠ ولوقا ٤ :١-٣] . إن الصفة الاسطورية لهذه التجارب واضحة ، ولكن رمزيتها تكشف البنية المميزة للأخروية المسيحية . ومورفولوجيا (تشكليا) إن السيناريو مشكل من سلسلة من الامتحانات المسارية مشابهة لتجارب غوتاما بوذا (ب - ١٤٨ع) فيسوع يصوم اربعين يوماً واربعين ليلة والشيطان يجربه : طلب إليه بدئيا معجزات «مر أن تتحول هذه الحجارة الى خبز» ؛ ويقوده الى قمة معبد اورشليم ويقول له : «اذا كنت ابنا للرب ، ألقِ بنفسك للأسفل» ثم يقدم له السلطة المطلقة : «كل ممالك العالم مع امجادها» وبعبارة اخرى ، يقدم له الشيطان القوة لابادة الامبراطورية الرومانية «اذن الانتصار العسكري لليهود المعلن من قبل الرائين» شريطة ان يركع يسوع أمامه[٤] . وتماما كيوحنا المعمدان مارس يسوع التعميد ، خلال بعض الوقت ، وعلى الأرجح بنجاح اكثرمن يوحنا[يوحنا ٣ : ٢٢ - ٢٤ ، ٤ : ١٢] . إلا أنه وقد عرف ان النبي أوقف من قبل هيرودوت ترك جودا الى بلدته الأصلية . ويفسر المؤرخ فلافيوس جوزيف . حركة هيرودوت بالخوف : لقد خاف هذا من تأثير المعمدان على الجماهير وتدبير عصيان . ومهما كان من أمر ، فإن حبسه فجّر نبوءة يسوع . فمنذ وصوله الى الجليل ، أعلن يسوع الانجيل ، أي الخبر الطيب «حان الوقت واقترب ملكوت الله . . . فتوبوا وآمنوا بالبشارة»*[٥] . ان الرسالة تعبر عن الأمل الأخروي الذي ، مع قليل من الاستثناءات ، كان قد ساد التدين اليهودي منذ اكثر من قرن . وحسب الانبياء ، وحسب يوحنا المعمدان ، تنبأ المسيح بقرب تحول العالم : وهذا هو الجوهري في تنبؤه [ف ٢٢٠ ع] .

---

* البشارة: la Bonne Nouvelle - (التي اتى بها يسوع من عند الأب لخلاص الناس (هكذا يعرفها شراح الأناجيل)

وأخذ يسوع بالتبشير والتعليم محاطاً بتلامذته الأول ، في الكنس ، وفي الهواء الطلق ، متوجها بخاصة إلى المتواضعين وإلى الفقراء . وكان يستعمل الوسائل الارشادية التقليدية مستندا الى التاريخ المقدس وإلى الشخصيات التوراتية الأكثر شعبية ممتاحاً من مستودع لا تعيه الذاكرة من الصور والرموز ، ومستعملا بخاصة اللغة المصورة بالأمثال . وكالعديد من «الرجال الالهيين» الآخرين للعالم الهللنستي ، كان يسوع طبيبا وصانع معجزات thaumaturge ، شافٍ من كل الأمراض ومساعداً أو مواسياً من به مس من الشيطان . وقد اصبح مشتبهاً فيه بالسحر على اثر بعض المعجزات ، وتلك جريمة كان يعاقب عليها بالموت . «وكان يطرد شيطانا أخرس . فلما خرج الشيطان تكلم الأخرس فأعجب الجموع . على ان أناساً منهم قالوا : «إنه بيعل زبول سيد الشياطين يطرد الشياطين» . وطلب منه آخرون آية من السماء ليحرجوه»[٦] . فالشهرة بالراقي وصانع المعجزات لم تنس من قبل اليهود ؛ وهنالك تقليد من القرن الأول أو الثاني يشير الى ييشو Yeshu الذي «طبق السحر وضلل اسرائيل»[٧] .

ولم تتأخر نبوءة يسوع عن اثارة قلق الجماعتين ذات التأثير السياسي والديني ، الفريسيين les pharisiens والصدوقيين les sadduciens . وكانت الجماعة الأولى غاضبة للحريات التي اتخذها الناصري تجاه التوراة . أما بالنسبة للصدوقيين ، فكانوا قلقين تجنبا للاضطرابات القابلة للانفجار على اثر كل دعاية مسيحيانية .

وفي الواقع ان مملكة الرب المبشر بها من قبل يسوع كانت تعيد الى الذاكرة ، بالنسبة الى بعضهم ، التعصب الديني والتصلب السياسي للزلوطين des Zélotes فقد كان هؤلاء رفضوا الاعتراف بسلطة الرومان لأنهم بالنسبة اليهم «ان الاله وحده كان الحاكم والسيد» [يوسف : جودا . . ١٨ ، ٦١ (ف ٢٣)] . وقد كان على الأقل واحد من اثني عشر من الحواريين Apotres سمعان الغيور ، احد الزيلوط القدامى [مرقص ٣ : ١٥] . ويقرر لوقا ان احد التلامذة قال بعد الصلب : «وكنا نحن نرجو أنه هو الذي سيفتدي اسرائيل . . .» [٢٤ : ٢١] .

ومن جهة اخرى فان واحداً من المشاهد الأكثر استعراضية والأكثر غموضاً والمروية بالاناجيل توضح سوء التفاهم بشأن مملكة معلنة من قبل يسوع(٩) . فبعد أن وعظ شطراً من اليوم ، علم يسوع أن الـ ٥٠٠٠ شخص الذين اتبعوه على شطآن بحيرة طبريا قد فقدوا الطعام . عندئذ أجلسهم وزاد باعجوبة ، بعض الأرغفة من الخبز وبعض السمك فأكلوا جميعهم [يوحنا : ٦ : ١١] . ويتعلق هذا بطقس قديم جداً ، تعيد ترجمته تأكيد واحياء التضامن الصوفي للجماعة ، وفي هذه الحالة ، فإن الوجبة المشتركة يمكن لها ان تدل على الاستباق الرمزي للأخروية ، ولأن لوقا [٩ : ١١] يؤكد ان يسوع أتى ليتكلم لهم عن مملكة الرب . غير ان الجمهور المذهول بهذه المعجزة الجديدة لم يفهم دلالتها العميقة ورأى في يسوع «النبي الملك» المنتظر بحماس ، وذلك الذي سيحرر إسرائيل . «وعلم يسوع أنهم يهمون باختطافه ليقيموه ملكاً ، فانصرف وعاد وحده إلى الجبل» [يوحنا ٦ : ١٥] عندئذ فرق الجماعة ، وانسحب مع تلامذته في زورق واجتاز بحيرة طبريا .

إن سوء التفاهم يمكن له ان يفسر بعصيان مجهض . وفي كل حال ، فإن يسوع قد ترك من قبل الجمهور . وحسب يوحنا [٦ : ٦٦ : ٦٧] ان الاثني عشر وحدهم بقوا مخلصين له . وان يسوع قرر معهم الاحتفال بعيد الفصح في ٣٠ (أو ٣٣) في اورشليم . لقد اثير نقاش طويل ـ ومازال يثار ـ حول الهدف لهذه المهمة . فمن المحتمل ، ان يسوع أراد اعلان رسالته في وسط ديني لاسرائيل بهدف إقحام جواب حاسم في معنى أو آخر(١٠) . وعندما كان بالقرب من اورشليم فإن الناس «تصوروا أن عرش الرب سيظهر في ذات اللحظة» [لوقا ١٩ : ١١] لقد دخل يسوع في المدينة كملك مسيحاني [مرقص ١١ : ٩ـ١٠] . طرد البائعين والشارين من الهيكل ووعظ الشعب [١١ : ١٥] . وفي الصباح دخل مجدداً الى المعبد وأخذ يروي لهم مثل الكرامين القتلة ، الذين بعد ان قتلوا الخدم المرسلين من قبل معلمهم قتلوا ابن صاحب الكرم . وتساءل فماذا يفعل رب الكرم ؟ واستنتج يسوع ، «إنه يأتي ويهلك الكرامين ويعطي الكرم آخرين» [مرقص ١٢ : ٩] . وبالنسبة للكهنة وللكتبة ، فإن دلالة المثل كانت واضحة : الأنبياء قد

اضطهدوا ، وآخر مرسل يوحناالمعمدان، أوشك ان يقتل . وحسب يسوع ، ان اسرائيل كانت تمثل دوماً كرمة الرب ، ولكن سلطتها الدينية كانت مدانة ؛ إن اسرائيل الجديدة سيكون لها رؤساء آخرون[11] . واكثر من ذلك ، ان يسوع كان قد جعلهم يدركون انه هو الوريث للكرمة ، (الابن الحبيب) للمعلم ـ اعلان مسيحاني يمكن له ان يثير الانتقامات الدموية للمالك . وعليه ، وكما سيقول الحبر الأكبر قيافا : «انتم لا تدركون شيئاً ، ولا تفطنون انه خير لكم ان يموت رجل واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة بأسرها» [يوحنا ١١ : ٥٠] . ولقد توجب التدخل بسرعة ، دون تنبيه انصار يسوع ، والتوقف يجب ان يحصل خلال الليل بسرية . وفجر الفصح دشن يسوع آخر وجبة مع تلامذته . وهذه الوليمة الكاملة للاصدقاء ، ستصبح الشعيرة المركزية للمسيحية : سر القربان المقدس encharistie التي ستطالعنا دلالتها فيما بعد (ف ٢٢٠ع) .

«بعد التسبيحات ، ذهبوا لجبل الزيتون» [متى ٢٦ : ٣٠] . ومن هذه الليلة المؤثرة ، حفظ التقليد ذكرى حدثين لازما ضمائر المسيحيين . فقد خاطب يسوع بطرس : «الحق أقول لك: في هذه الليلة قبل ان يصيح الديك ، تنكرني ثلاث مرات» [متى ٢٦ : ٣٤] ومرقص ١٤ : ٢٦ـ٣١] . وعليه فإن يسوع كان يرى في بطرس تلميذه الأكثر ثباتاً ، ذلك الذي يجب ان يدعم الجماعة من المؤمنين .

وبالتأكيد إن إنكاره لم يفعل سوى التأكيد على سرعة عطب البشرية . ومع ذلك ، فإن مثل هذا التصرف لم يلغ أبداً الجدارة والفضائل اللدنية charismatiques لبطرس . وان دلالة هذا الحدث المعقد واضحة : في بنية الخلاص ، لا تحسب أبداً الفضائل البشرية وكذلك الآثام ، والذي يهم ، هو التوبة وعدم اضاعة الأمل . إن جزءاً كبيراً من تاريخ المسيحية سيكون من الصعب تبريره دون سابقة بطرس : فإنكاره وتوبته [متى ٢٦ : ٧٤] اصبحتا بنوع ما النموذج المثالي بالنسبة لكل حياة مسيحية .

وليس أقل مثالية هو المشهد التالي ، الذي يجري في ضيعة يقال لها

جتشمانية*: يصحب يسوع معه بطرس وتلميذين آخرين وقال لهم: «نفسي حزينة حتى الموت . امكثوا هنا واسهروا معي» . [متى ٢٦ : ٣٨] ثم ابتعد قليلا وسقط على وجهه يصلي ويقول . «يأبت إن أمكن الأمر ، فلتبتعد عني هذه الكأس ، ولكن لا كما أنا أشاء ، بل كما أنت تشاء» [٢٦ : ٣٩] . ولكنه عندما رجع ، وجد تلامذته على وشك أن يناموا . فقال لبطرس : «أهكذا لم تقووا على السهر معي ساعة واحدة : اسهروا وصلوا لئلا تقعوا في التجربة . الروح مندفع وأما الجسد فضعيف» [٢٦ : ٤٠] وأمرهم مرة جديدة بالسهر والصلاة ، وعبثاً ، فبرجوعه «وجدهم مجدداً على أهبة النوم ؛ لأن أعينهم كانت مثقلة» [٢٦ : ٤١ . ومرقص ١٤ : ٣٢ - ٤٢ ولوقا ٢٢ : ٤٠ - ٤٦] وعليه ، فمعلوم منذ مغامرة جلقامش (ف ٢٣ ع) ان الانتصار على النعاس ، والبقاء متيقظاً ، يشكل التجربة المسارية الأكثر قسوة ، لأنها ترمي لتحويل الشرط المادي ، ولانتصار «الخلود» . وفي جتشمانية ، بدت «اليقظة المسارية» - مع انها كانت محددة ببضع ساعات - انها فوق الطاقات البشرية . وهذه الخيبة ستصبح هي أيضاً ، نموذجاً مثالياً بالنسبة لأكثرية المسيحيين .

وبعد وقت قصير ، اوقف يسوع من قبل حرس الكاهن الأكبر ، المدعم على الأرجح بجنود رومان . ومن الصعب التحديد بدقة لنتيجة الأحداث . والأناجيل تقرر حكمين منفصلين ، لأنه ، وقد سئل من قبل كبير الكهنة : «أأنت المسيح ، ابن المبارك ؟ فقال يسوع : «أنا هو . وسوف ترون ابن الانسان جالساً عن يمين القدير وآتياً في غمام السماء» [مرقص ١٤ : ٦١ - ٦٢ . متى ٢٦ : ٥٧ - ٦٨ ، لوقا ٢٢ : ٥٦٤ ٦٦:١٧] .

لقد كان يعاقب على التجديف بالرجم ، ولكنه من غير المتيقن أنه في عهد السنهودرين كان له الحق بتطبيق العقوبة الرئيسية . وعلى كل حال ، فإن يسوع قد حوكم بعدئذ من قبل بونس بيلاطس ponce pilate حاكم يهودية judée . متهما بالتمرد «أأنت ملك اليهود ؟» وأدين بالموت بطريق الصلب ، وهي عقوبة رومانية

* كلمة عبرية معناها معصرة للزيتون ، والضيعة المذكورة في وادي قدرون في اسفل جبل الزيتون .

نموذجية . ومواجها بسخرية (مرتديا معطفاً ارجوانيا وتاجاً من الشوك) حياه الجنود : «سلاماً ، ملك اليهود !») . وقد صلب يسوع بين لصين . مع هذه العبارة ـ lestes = خليع ـ كان يشير جوزيف عادة الى المتمردين ، «وهكذا فإن نص التنفيذ ليسوع كان بوضوح قمع التمرد اليهودي ضد الحكومة الرومانية وانصارهم في يهودا . فكل اعلان عن مجيء مملكة الرب تقتضي في أعين سلطات اورشليم احياء مملكة يهودية»(١٢) .

وقد تشتت المؤمنون نتيجة القرار بعقوبة يسوع . وبعد زمن قصير من التوقيف انكره تلميذه المفضل بطرس ، ثلاث مرات . ومن المؤكد ان نبوءة يسوع ، وربما حتى اسمه ، قد طمسهما النسيان ، ماعدا مشهد متفرد وغير مفهوم خارج الدين : قيامة المعذب . فالسنة المنقولة من قبل بولس وبالأناجيل تضفي أهمية حاسمة لقبر فارغ ولعدد من ظهورات يسوع المنبعث حيا . ومهما كانت طبيعة هذه التجارب ، فإنها تشكل المصدر والأساس للمسيحية . فالايمان بيسوع المسيح المبعوث حولت قبضة من الهاربين المثبطي الهمة الى جماعة من الناس المصممين والواثقين بأنهم لن يغلبوا . ويمكن القول تقريباً ان الاحبار عرفوا ، هم أيضاً ، التجربة المسارية للقنوط والموت الروحي قبل ان يولدوا لحياة جديدة وان يصبحوا المبعوثين الأول للانجيل .

٢٢٠ ـ الخبر الجيد : مملكة السماء آتية قريبا :

لقد تكلم رودولف بولتمان عن «السطحية الغير محتملة» للسير الذاتية ليسوع . وفي الواقع ، ان الشهادات قليلة وغير موثقة . واكثرها قدما رسائل بطرس التي تهمل بالكلية تقريبا الحياة التاريخية ليسوع ، ان الاناجيل الاربعة المتوافقة المحررة مابين ٧٠ و ٩٠ ، تجمع التقاليد المنقولة شفاها عن طريق الجماعات المسيحية الأولى . ولكن هذه التقاليد تنسب ليسوع كما تنسب للمسيح المبعوث . وهذا لايلغي بالضرورة قيمتها الوثائقية ، لأن العنصر الأساسي

للمسيحية ، كما هو من جهة أخرى ، لكل دين منسوب لمؤسس ، هو فعلا الذكرى . فذكرى يسوع هي التي تشمل الأسوة لكل مسيحي . ولكن التقليد المنقول من قبل الشهود الأول كان «نموذجيا» وليس «تاريخيا» فقط ، انه حفظ البنى الموضحة للأحداث وللنبوءة ، وليس الذكرى الدقيقة لنشاط يسوع . وهذه الظواهر معروفة جداً وليس في تاريخ الاديان فقط .

ومن جهة اخرى يجب ان يؤخذ في الحسبان ، واقعة ان المسيحيين الأوائل ، يهود اورشليم ، كانوا يشكلون مذهبا رؤويا داخل اليهود الفلسطينيين ، لقد كانوا في انتظار وشيك الوقوع لرجعة ثانية للمسيح ، وقد كانت هذه نهاية التاريخ التي أشغلت بالهم ، وليس عمل المؤرخين للانتظار الأخروي . اضافة الى ذلك ، وكما توجب الانتظار ، فسرعان ما تبلورت ميتولوجيا كاملة ، حول صورة المعلم المبعوث ، والتي تعيد الى الذاكرة الآلهة المنقذين والانسان المأمول الهيا (theio anthropos) وهذه الميثولوجيا التي سنشير اليها فيما بعد (ف ٢٢٢ع) هامة بصورة خاصة : فهي تساعدنا لفهم البعد الديني المميز للمسيحية وكذلك تاريخها التالي . فالاساطير التي ألقت يسوع الناصري في عالم من نماذج مثالية وصور متصاعدة هي ايضا «صحيحة» كاشارته وكلماته : هذه الأساطير تؤكد في الواقع ، القدرة والابداعية لرسالتها الأصلية ، زد على ذلك ، فإنه بفصل هذه الميثولوجيا والرمزية الشاملتين ، اصبحت اللغة الدينية المسيحية مسكونية ومقبولة خارج بؤرتها الأصلية .

ومن المتفق عليه ، القبول بأن الأناجيل الأربعة المتوافقة synoptique قد نقلت الينا الجوهري من الرسالة ، وفي المكان الأول منها اعلان مملكة الرب ، وكما ذكرنا سابقاً ، فإن يسوع بدأ مهمته مبشراً في الجليل «بالعهد الجديد الآتي من الله : «لقد كملت الازمان ومملكة الله قريبة جداً» [مرقص: ١ : ١٥] والآخرة وشيكة : «الحق اقول لكم : في جملة الحاضرين هنا من لا يذوقون الموت ، حتى يشاهدوا ملكوت الله آتيا بقوة» [مرقص ٩:١/١٣-٢٤] «أما ذلك اليوم أو تلك الساعة فما من أحد يعلمها : لا الملائكة في السماء ، ولا الابن ، الا الآب . فاحذروا واسهروا ، لأنكم لا تعلمون متى يحين الوقت [مرقص ١٣-٣٢-٣٣] مع

ذلك فإن هنالك صيغاً أخرى عن يسوع تجعل معلوماً ان المملكة موجودة سابقاً . فبعد تعويزة قال : «واما اذا كنت باصبع الله اطرد الشياطين ، فقد وافاكم ملكوت الله» [لوقا ١١ : ٢٠] وفي مناسبة اخرى يؤكد يسوع انه منذ ازمان يوحنا المعمدان «منذ ايام يوحنا الى اليوم ملكوت السموات يؤخذ بالجهاد والمجاهدون يختطفونه» [متى ١١ :١٢]* . والمعنى يبدو هو : ان المملكة معطلة باعمال العنف ولكنها موجودة آنئذ وخلافاً لتناذر رؤوي مثار على نطاق واسع في أدب العصر ، فإن المملكة جاءت بدون كارثة أرضية ، لابل دون علامات خارجية . «لايأتي ملكوت الله على وجه يراقب . ولن يقال : هاهو ذا هنا أو هاهو ذا هناك . فها إن ملكوت الله بينكم» [لوقا ١٧ : ٢٠] في الأمثال ، وقال : «مثل ملكوت الله كمثل رجل يلقي البذر في الأرض ، فسواء نام أو قام ليل نهار فالبذر ينبت وينمي ، وهو لا يدري كيف يكون ذلك [مرقص ٤ـ٢٦ـ٢٩] «انه مثل حبة خردل : فهي حين تزرع في الأرض أصغر سائر البذور التي في الأرض . فاذا زرعت ، ارتفعت وصارت اكبر البقول كلها . . . [مرقص ٤ ـ ٢٨ ، متى ١٣ـ٣١] و«مثل ملكوت السماوات كمثل خميرة أخذتها امرأة فجعلتها في ثلاثة مكاييل من الدقيق حتى اختمرت كلها» [متى ١٣ـ٣٣] .

ومن الممكن ان هذين الاعلانين المتباعدين عن الملكوت ـ في وقت مستقبل قريب جداً ، وفي الحاضر ـ يناسبان صوراً متتالية عن مهمة يسوع[15] . كما يمكن الاعتقاد بأنها تعبر عن ترجمتين لذات الرسالة : ١ء) قرب الملكوت المعلن عنه من قبل الأنبياء والرائين ، وبعبارة اخرى «نهاية العالم التاريخي» و ٢ء) تقدم المملكة المكتملة بأولئك الذين ، بفضل توسط يسوع ، يعيشون مسبقاً في الحاضر التوقيتي للدين[16] .

وهذه الترجمة الثانية هي بصورة خاصة ممكنة لرسالة تبرز الجدارة المسيحانية ليسوع . وبعيد عن الشك ، ان تلاميذه قد اعترفوا به كمسيح ، كما

* اختلف المفسرون في معنى هذه الآية ، وقد يكون أحسن تفسير ماجاء في متى ٢٩/٥ و ١٣/٧ـ ١٤ أي : لابد للانسان من ان يجهد نفسه ويبذل أثمن ماعنده لكي يدخل ملكوت الله [العهد الجديد الدار الكاثوليكية بيروت طبعة ٩٧٩] . المترجم .

تثبت ذلك التسمية «المسيح christ» المعادل الاغريقي لكلمة المسح . ويسوع لم يستعمل مطلقاً هذا التعبير تجاه ذاته ؛ ومع ذلك قبله عندما لفظ به آخرون [مرقص ٨ : ٢٩ ، ١٢ : ٦١] ومن المرجح ان يسوع قد تجنب التسمية (المسيح) لكي يوضح الفرق بين النبأ السعيد (البشارة) التي بشر بها والأشكال القومية للمسيحانية اليهودية . فملكوت الله لم تكن الثيوقراطية التي اراد الزيلوط Zelotes احياءها بقوة السلاح . ويسوع قد عرِّف نفسه بخاصة ، بعبارة ابن الانسان . وهذا التعبير الذي لم يكن في البدء سوى مرادف «للانسان» (ر.ف ٢٠٣ ع) انتهى ليدل - بشكل مضمر في نبوءة يسوع ، وعلنا في الثيولوجيا المسيحية - على ابن الله .

إلا أنه ، في المعيار الذي يمكن فيه اعادة تشكيل ، «شخصية» يسوع أقله في خطوطها الكبرى ، فبصورة الخادم المتألم [اشعيا ٤٠ - ٥٥] (ف ١٩٦ع) يمكن مقارنته . «لاشيء يسمح برفض الآيات كزائفة حيث يتكلم عن التجارب التي تنتظره . وان كل مهمته هي التي ستصبح غير قابلة للتفسير اذا رفضنا قبول انه واجه وقبل ظرفية الآلام ، والاهانة وبدون شك الموت نفسه . فبصعوده لأورشليم ، تحمل اخطار مسيرته وربما دون ان يستبعد تماما إمكانية تدخل مظفر من قبل الاله»[١٧] .

«لاتظنوا اني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء ماجئت لأبطل بل لأكمل» [متى ٥ :١٧] وتماما كالأنبياء ، يمجد طهارة القلب على حساب الشكلية العلقوسية ، فيرجع بدون كلل الى محبة الاله القريب . وفي الموعظة على الجبل [متى ٥: ٣-١٢ ولوقا ٦: ٢٠-٢٣] يثير يسوع النعم التي تنتظر المحسنين وأصحاب القلوب الطاهرة والمسالمين والرحماء والمضطهدين والساعين الى السلام والمحزونين ولفقراء الروح . . وان هذا هو النص الانجيلي الأكثر شعبية لآخرة العالم المسيحي . ومع ذلك ، بالنسبة ليسوع ، فان اسرائيل يبقى دوماً الشعب المختار من الله . انه للنعاج الضالة من بني اسرائيل قد ارسل «لم أرسل الا الى الخراف الضالة من آل اسرائيل» [متى ١٥ : ٢٤] ولا يلتفت نحو الوثنيين الا بشكل استثنائي : انه يعلم تلامذته ليتجنبوهم [متى ١٠-٦] . ولكنه يبدو انه قبل «كل الأمم» بعد قيامته : «انني اوليت كل سلطان في السماء والأرض فاذهبوا وتلمذوا

جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا كل ما اوصيتكم به وها أنذا معكم طوال الأيام إلى نهاية العالم [متى ٢٨ : ١٨ ـ ١٩] مرقص ١٣ : ١١] على إثر الأنبياء ، ويوحنا المعمدان ، تابعت مهمة يسوع التحويل الجذري للشعب اليهودي ، وبعبارة اخرى ، انبثاق اسرائيل جديدة ، وشعب جديد للاله . فالآب [لوقا ١١ : ٢-٤ ومتى ٦ : ٩-١٣] يلخص باعجاب «الطريقة» للعودة إليه . عبارة من التقوى العبرية ، فالصلاة لا تستعمل ابد الضمير الشخصي المفرد وانما بالجمع فقط : أبانا ، أعطنا اليوم خبز يومنا واعفنا مما علينا ، نجنا من الشرير . والمحتوى يتفرع من صلاة قديس kaddish للكنيس القديم ، انه يعكس الحنين لاعادة ايجاد تجربة دينية بدائية : تجلي يهوه بصفته أبا . ولكن النص المعروض من يسوع هو اكثر ايجازا واكثر عاطفة[١٨] . ومع ذلك فإن كل صلاة يجب ان تدخل بالايمان الصحيح ، اي الايمان الذي شهد به ابراهيم (ف ٥٧ ع) . «لأن الله على كل شيء قدير» [مرقص ١٠ : ٢٧] كذلك «كل شيء ممكن لمن يؤمن» [مرقص ٩ : ٢٣] بفضل القوة الخفية للايمان الابراهيمي ، تغيرت جذرياً طريقة تكوّن الانسان الخائر القوى . «كل ما تطلبه في الصلاة ، آمن بأنك حصلت عليه وهذا ما سيأتيك» [مرقص: ١١-٢٤ ومتى ٢١ : ٢٢] . وبعبارة اخرى ، فإن اسرائيل الجديد ينبثق خفية بقدرة الايمان الابراهيمي . الأمر الذي يفسر من جهة اخرى نجاح الرسالة المسيحية المبشرة بالايمان بيسوع المسيح المبعوث .

وعندما احتفل يسوع في آخر مشهد مع تلامذته «أخذ الخبز وبعد ان قدسه ، قطعه واعطاه لهم قائلاً : خذوا ، هذا هو جسدي ؛ ثم أخذ قدحاً وشكر واعطاها لهم وشربوا جميعهم . وقال لهم : هذا دمي ، دم العهد الذي يراق من أجل الناس لغفران الخطايا»[١٩] . ولم يتردد أحد المفسرين المعاصرين عن ان يكتب : «لايوجد كلمات اخرى ليسوع مؤكدة بقوة اكثر»[٢٠] . ولوقا وحده يقرر ايعاز يسوع : «اجعل هذا ذكرى لي» [٢٢ : ١٨] . ومع ان بولس يؤكد رسمية هذا التقليد (رسالة الى الكورانتين ١١ : ٢٤] لاتوجد أية وسيلة لاثبات ان هذه الكلمات قد تلفظ بها يسوع . ان هذا الطقس يجدد الطقس الأهلي اليهودي ، وبخاصة تكريم الخبز والخمر . . وغالباً ان يسوع قد طبقه ؛ وعندما كان العشارون والصيادون حاضرين ، أعلنت الوليمة على الأرجح الملكوت[٢١] .

وبالنسبة للمسيحيين الأوائل ، فإن «قطعة الخبز» (أعمال الرسل ٢ : ٤٢) كانت تشكل العمل الطقوسي الأكثر أهمية . فمن جهة ، كان هذا اعادة تحيين حضور المسيح ، وبالنتيجة ، الملكوت الذي كان قد بعثه ، ومن جهة اخرى ، فإن الطقس كان يسبق المأدبة المسيحانية لنهاية الأزمنة . ولكن كلمات يسوع تكشف دلالات اعمق : ضرورة تضحيته ارادياً من أجل ضمان «العهد الجديد»[٢٢] . بناء اسرائيل الجديد . وهذا مايدخل القناعة بأن حياة دينية جديدة لا تنبثق الاعبر موت تضحوي ؛ وهذا المفهوم ، كما هو معروف ، قديم ومنتشر عالمياً . ومن الصعب التحديد بدقة فيما اذا كانت هذه المشاركة الطقوسية مع جسده ودمه معتبرة من قبل يسوع كتماهٍ صوفي مع شخصه . وهذا مايؤكد عليه بولس [رسالة ١ الى الكورنتيين ١٠ : ١٦ و ١٢ : ٢٧ والى الرومانيين ١٢ : ٥ ايفيزيين ٤ : ١٢] . ورغم اصولية فكره ولغته اللاهوتيتين ، يمكن انه يمدد تقليداً اورشليمياً رسمياً[٢٣] . وعلى كل حال فان الوجبة المتخذة بالمشاركة من قبل المسيحيين الأوائل تقلد التصرف الأخير ليسوع ؛ فقد كان هذا في آن واحد مشهداً يمكن تذكره ، وتكراراً شعائرياً لتضحية تطوعية من قبل الفادي .

تشكلياً morphologiquement يذكر سر القربان المقدس l'Eucharistie بولائم الاصدقاء agapes الطقوسية المطبقة في الأزمنة القديمة في حوض البحر المتوسط ، وبخاصة في ديانات الأسرار[٢٤] . وقد كان هدفها التكريس ، اذن الخلاص ، للمساهمين، بالمشاركة مع ألوهية من بنية سرية حكيمة mystériosophique . وان خط التقارب مع الشعيرة المسيحية له دلالته : إنه يبرز الأمل الشائع في ذلك العصر ، لتماهي صوفي مع الألوهة . وان بعض المؤلفين قد حاول تفسير سر القربان المقدس بتأثيرات الديانات الشرقية للسلامة ، ولكن الفرضية لا أساس لها . ففي المعيار الذي رمت فيه الى تقليد المسيح ، كانت الوليمة البدائية تشكل تقديساً فرضياً . ويمكن القول من الآن ان هذا الطقس المركزي - الأكثر اهمية في العقيدة المسيحية ، مع التعميد - قد ألهم عبر قرون اللاهوتيات العديدة والمختلفة ، وفي عصرنا مازال تفسير سر القربان المقدس يفصل الكاثوليكية

الرومانية عن الكنائس المصلحة . [الجزء ٣]

٢٢١ - ولادة الكنيسة

يوم عيد العنصرة (عيد الحصاد عند اليهود) le pantecole للسنة ٣٠ ، كان تلامذة المسيح قد وجدوا جميعهم ، «ولما أتى اليوم الخمسون(*) كانوا مجتمعين كلهم في مكان واحد ، فانطلق من السماء بغتة دوي كريح (**) عاصفة فملأ جوانب البيت الذي كانوا فيه وظهرت لهم السنة كأنها من نار قد انقسمت فوقف على كل منهم لسان ، فامتلأوا جميعاً من الروح القدس ، وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغتهم . . .» [أعمال الرسل ٢ : ١-٤] . إن التجليات النارية للروح الالهية تشكل نغمة معروفة جداً في تاريخ الأديان : فهي توجد في مابين النهرين (ميتروبوتاميا) (ف ٢٠٠ ع) وفي ايران (ف ١٠٤ع) وفي الهند (بوذا ، ماهافيرا الخ ١٥٢ع) . ولكن النص عن عيد العنصرة يرمي لهدف اكثر دقة ، فالريح العاتية ، والألسنة من النار ، ولغة المعتوهين تذكر ببعض التقاليد اليهودية المتعلقة بالظهور على سيناء[٢٥] . (ف ٥٩ع) . وبعبارات أخرى ، فإن هبوط الروح المقدسة قد فسرت كما لو أنها كشفت جديد للاله ، مماثل للكشف في سيناء . ففي يوم العنصرة ولدت الكنيسة المسيحية . فلم يبدأ الرسل بالتنبؤبالانجيل واكمال عدد من المعجزات والاشارات الا بعد تلقيهم للروح القدس [أعمال الرسل ٢ - ٤٣] . ففي ذلك اليوم وجه بطرس إلى الجمهور أول دعوة للايمان . واضطلع هو ورفاقه بعبء الشهادة لبعث يسوع - المسيح ، والله هو الذي بعثه [أعمال الرسل : ٢ : ٢٤و ٣٢ . . . الخ] . والمعجزة قد كان تنبأ بها داوود [٢ :٣١] ، فالبعث أو القيامة هو اذن الحدث الأخروي المعلن من قبل الأنبياء [٢ : ١٧- ٢١] . فبطرس يطلب إلى

---

* لقيامة يسوع

** هنالك صلة بين الريح والروح ، وجناس لفظي في الأصل اليوناني لأن الكلمة الواحدة تعني الروح وتعني الريح [العهد الجديد المطبعة الكاثوليكية بيروت لعام ٩٧٩] - المترجم

اليهود التوبة وان «يعتمد كل منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم فتنالوا موهبة الروح القدس» [٢ : ٢٨] وهذا الخطاب الأول ، الذي أصبح النموذج المثالي (للاعلان المسيحي) Kerygma ، اتبع باهتداءات عددية للمسيحية (٣٠٠٠ حسب اعمال الرسل ٢ : ٤١) وفي مناسبة اخرى (أشفى رجلا كسيحا منذ بطن امه يحمله بعض الناس . . .» [٣ : ١-٩] ونصح بطرس اليهود لأن يعترفوا بأنهم اخطأوا ، جهلاً ، بادانة يسوع ، وان يتوبوا متقبلين للتعميد [٣: ١٣-١٩] .

إن أعمال الرسل ، تدعنا نتبصر الحياة للجماعة المسيحية الأولى في اورشليم (التي اسماها المؤلف بالاسم الاغريقي ايكليزيا eclesia) وحسبما يبدو ، ان المؤمنين مازالوا يتبعون انتظاما دينيا تقليديا (ختان الأطفال الذكور ، التطهير الشعائري ، الراحة يوم السبت الصلاة في المعبد) . ولكنهم يتجمعون عادة للتعلم وكسر الخبز والصلوات [٢ : ٤٢] وقد استولى الخوف على جميع النفوس لما كان يجري على ايدي الرسل من المعجزات والآيات وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة يجعلون كل شيء مشتركا بينهم ، يبيعون املاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم ، يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز في البيوت ، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب يسبحون الله وينالون حظوة عند الشعب كله . وكان الرب كل يوم يضم الى الجماعة أولئك الذين ينالون الخلاص [٢ : ٤٧] مع ذلك فإن أعمال الرسل (التي تذكر عدداً من الأمثلة عن التبشير لغير المؤمنين) لا تقرر شيئاً حول التعليم المقدم لأعضاء الجماعة . أما بالنسبة للتنظيم الاقتصادي ، فإن الأعمال تؤكد بدقة ، أن «كل المؤمنين يجعلون كل شيء مشتركا - كما جاء في النص اعلاه [٢ : ٤٤ - ٤٥] لقد كانوا في انتظار المجيء الثاني للمسيح .

ورغم طاعتهم الدقيقة للممارسات الموسوية ، فإن المسيحيين في أورشليم أثاروا عداوة كبار الكهنة والصدوقيين [٤ : ١-٣] فقد اوقف بطرس ويوحنا عندما وعظا في الهيكل ، ومثلوا أمام السنهدرين ، ولكنهم أطلق سراحهم بعدئذ [٤ : ١-٣] ومرة اخرى اوقف كل الرسل ثم أطلق سراجهم من قبل السنهدرين [٥ : ١٧-٤١] . وبعدئذ ومن المحتمل في ٤٣ قبض الملك هيرودوس [٤١-٤٥م]

على بعض أهل الكنيسة ليوقع بهم الشر ، فقتل بحد السيف يعقوب أخا يوحنا الذي كان أراد التأكد من مساندة بيت آن . وان وضع الفريسين كان متباينا اكثر . فقد دافع جامالييل ـ معلم شاول ـ عن الرسل أمام السنهدرين . ولكن الفريسيين المفضلين لدى المؤمنين من أرومة اورشليمية (العبرانيين) كانوا اعداء للمهتدين حديثا المجندين بين يهود الشتات «الهيللنستين» . وقد لاموهم على انفصالهم عن المعبد وعن الشريعة [٦:١٣-١٤] . وانه بهذا السبب رجم في ٣٦ ـ ٣٧، اسطفانس أول شهيد للدين المسيحي [٧: ٥٨، ٦٠] «كان شاول موافقاً على قتله» [٨:١] وفي ذات اليوم طرد «الهلنستيون» من اورشليم فتشتتوا جميعاً من نواحي يهودا والسامرة [٨:١] ومنذئذ فإن الرسل ، ورئيسهم يعقوب (شقيق السيد) سيحفظون سيادة كنيسة اورشليم .

لقد كشف آنئذ بعض التوتر بين (العبريين) و (الهللنستيين) . فالأولون هم اكثر محافظة وشرعية ، رغم انتظارهم لظهور المسيح . وقد اتبعوا بأمانة ، القانون اليهودي للأنظمة الطقوسية ومثلوا بامتياز الحركة المعينة بالمصطلح اليهودي ـ المسيحي[٢٦] . وتلك هي طاعتهم الضيقة للشريعة التي رفض بولس قبولها . وفي الواقع ، تفهم بشكل سيء الشرعية الربانية الممارسة فعلا من قبل اولئك الذين كانوا أعلنوا قيامة المسيح واضطلعوا بعبء الشهود . وإن (الهلنستيين) كانوا قد شكلوا جماعة صغيرة من اليهود مستقرة في اورشليم ، وقد اعتنقت هذه الجماعة المسيحية . ولم يكونوا يكنون احتراماً كبيراً لعبادة تقام في المعبد . ويهتف اصطفان في خطابه : «. . . إن العلي لا يسكن في بيوت صنعتها الأيدي» [أعمال الرسل ٧ : ٤٨] : ان تشتت الهللنستيين عجّل في نجاح البعثة بين يهود الشتات ، وبخاصة في انطاكية بين الوثنيين [١١ : ١٩] . وفي الدياسبورا تطورت علوم المسيحية . وان اللقب (ابن الانسان) ـ الذي لا معنى له في اليونانية ـ ابدل «بابن الله» أو «السيد» كيريوس Kyrios وكلمة مسيح ترجمت في اليونانية خريستو christos ، وانتهت لتصبح اسماً علما : يسوع ـ المسيح .

واتجهت الرسالة بسرعة نحو الوثنيين ففي انطاكية في سورية ، تنظمت أول جماعة هامة من المهتدين من أصل وثني ، وهنا استعملت كلمة مسيحيين christiens لأول مرة «وفي انطاكية سمي التلاميذ أول مرة مسيحيين» [أعمال

الرسل ١١-٢٦][٢٧] . ومن انطاكية شعّت الرسالة المسيحية في العالم الهللنستي .
ان المواجهة لحركة مسيحانية يهودية مع التدين والفكر الاغريقي سيكون لها نتائج حاسمة بالنسبة لتطور المسيحية . وان الاحترام العالي للقديس بولس الذي أدرك جيداً معطيات المسألة ، والذي كانت له الجرأة بما لا وهن فيه لكي يفرض الحل الوحيد الذي كان يعتبره صحيحاً ومتماسكا .

إنه مولود على الأرجح في القرن الأول في تارس tarse في سيليسيا[٢٨] وجاء للدراسة في اورشليم مع (جملايل) «فقيه في الشريعة محترم من قبل الشعب [اعمال ٥ : ٣٤] وقد وصف نفسه «كعبري ابن عبري» ، أما بالنسبة للشريعة ، فهو فريسي ، وأما لجهة حميته فقد كان مضطهداً للكنيسة [رسالة الى اهالي غلاطية : ١-٣-٦ . ٤] . وعندما وجد نفسه في مهمة ضد المسيحية ، ظهر له المسيح على طريق دمشق . انه الوحيد بين اولئك الذين لم يعرفوا يسوع ليتلقى لقب الرسول ، لقد آمن ، فعلاً ، بالمسيح المبعوث : الانجيل الذي بشر به ، لم يتلقاه أو يتعلمه من انسان «وانما بكشف من يسوع المسيح» [غلاطية ١ : ١١-١٢ كورنثية ٢ : ١٦] . وبعد ان اصبح «رسولاً للمشركين l'apotre des Gentils» باشر بولس اسفاراً تبشيرية طويلة عبر آسيا الوسطى ، وقبرص ، واليونان ، ومقدونيا . وقد بشر في عدد من المدن ، وأسس كنائس وأقام لفترة طويلة في كورنثية وروما . ولقد لفظ من قبل اليهود وأوقف في أورشليم ، وبعد سنتين من السجن سلم لمحكمة الامبراطور . وفي روما عاش سنتين في حرية مراقبة ولكن الأعمال تقطع القصة فجأة ، وتجهل نهاية الرسول . وقد مات شهيداً في روما مابين ٦٢ ـ ٦٤ .

بالرغم من الفصول الخمسة عشر (على ثمانية وعشرين) المكرسة للأعمال ، وبالرغم من الأربعة عشر رسالة المنسوبة اليه[٢٩] فإن معرفتنا بحياة ومهمة وفكر القديس بولس بقيت مجتزأة . وان تفسيره ، العميق والشخصي ، للانجيل كان معروضاً شفاهاً وعلى الأرجح بطريقة مختلفة ، أمام المؤمنين وغير المؤمنين . إن الرسائل les Epitres لاتشكل ابداً فصولاً متتابعة لرسالة نموذجية ، إنها تحدد ، وتوضح ، وتحدد بدقة بعض مسائل مبدئية أو تطبيقية ، مسائل نوقشت بعناية في تعليمه ، ولكن مالايفهم بدقة من قبل الجماعة ، أو الحلول البولسية النموذجية

اذن ، قد انتقد ، ورفض احياناً من قبل مبعوثين آخرين . ومع هذا القول ، يجب ان يضاف مباشرة ان الرسائل Lettres تمثل الوثيقة الأكثر قدما والأكثر اهمية للكنيسة البدئية ؛ وهي تعكس أكبر الأزمات للمسيحية الوليدة ، وايضا الجرأة المبدعة لأول لاهوتي مسيحي .

٢٢٢ - رسول للمشركين

ان لاهوت وتبشير Kérygma القديس بولس ينبعان من تجربته الوجدية على طريق دمشق . فمن جهة ، اعترف بقيامة المسيح(٣٠) ، الابن المرسل من قبل الله بهدف خلاص البشرية من الخطيئة والموت . ومن جهة اخرى ، إن الايمان اقام علاقة من مشاركة صوفية مع المسيح . وقد فسر بولس تجربته كمشابهة للصلب [غلاطية ٢ : ١٩] «جعلت من نفسي عاصياً ، لأني بالشريعة مت عن الشريعة لأحيا لله* وقد صلبت مع المسيح» . . أو «روح الله» [٧ : ٤٠] . ولم يتردد عن الاعلان بأن «المسيح ينطق بلساني» [قورنثية ٢ : ١٣ : ٣] و [الرومان ٥ : ١٨] . انه يشير إلى انتشاء صوفي «حتى السماء الثالثة» وإلى الكشف الذي تلقاه من السيد [كورنثية ١٢-١٤] . وهذه الآيات والمعجزات ، منحت له من قبل روح الله «لكي يحصل على طاعة الوثنيين» [روميه : ١٥ : ١٨] . وبالرغم من هذه التجربة الممتازة . فإن بولس لم يقدم ابداً نظاما استثنائياً متميزاً عن الآخرين . فكل مؤمن يتم الاتحاد السري مع المسيح بسرية التعميد . لأنه «وقد اعتمدنا في يسوع المسيح انما اعتمدنا في موته فدمنا معه بالمعمودية ، لنموت فنحيا حياةجديدة كما اقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب فنعيش نحن ايضاً في حياة جديدة»

* اعتبر المفسرون المسيحيون هذه العبارة غامضة في جلاء معناها ، فقال بعضهم ان المسيحي يصلب بروحه مع المسيح فيموت معه عن شريعة موسى (روم) او ما بعده ، وما تقتضيه هذه الشريعة نفسها (١٣/٣) ليحيا حياة المسيح بعد قيامه من بين الأموات . وقال آخرون ان المسيحي تخلى عن الشريعة ليذعن للكتاب المقدس في عهده القديم أو انه مات عن شريعة موسى بشريعة اخرى هي شريعة الايمان أو الروح [روم ٢/٨] .

[رسالة الى اهل رومة ٦ : ٣]** . بالعماد يتحد به ويصبح خلقاً جديداً فيحيا حياة جديدة ، لقد أصبح عضوا من تنظيم ومن جسم سري . معمداً بذات الروح «وكما ان الجسد واحد وله اعضاء كثيرة وان اعضاء الجسد كلها على كثرتها ليست إلا جسداً واحداً ، فكذلك المسيح . إنا قبلنا المعمودية جميعاً في روح واحد لنكون جسداً واحداً ، أيهوداً كنا أم يونانيين عبيداً أم احراراً ، وانا ارتوينا من روح واحد» [كورنثية ١٢ ١٢-١٣]

إن الموت والقيامة بالتعميد في الماء تشكلان سيناريو اسطوري ـ طقوسي معروف جداً ، ومتضامن برمزية مائية مؤكدة عالميا[٣١] . ولكن القديس بولس يوصل سرية التعميد بحدث تاريخي راهن : موت وقيامة يسوع المسيح . واضافة لذلك ، فإن التعميد لا يضمن الحياة الجديدة للمؤمن فحسب ، وانما يكمل تحوله الى عضو من جسم سري للمسيح . ومثل هذا المفهوم كان غير معقول بالنسبة لليهودية التقليدية . وهو من جهـــة اخرى يتميز عن ممارسات تعميدية معاصرة ، وعلى سبيل المثال الاسينيين des Esséniens ، حيث ان التطهيرات المتعددة كان لها بصورة خاصة قيمة تطهيرية .

إن سر القربان المقدس هو كذلك غريب على اليهودية . وكالتعميد تماماً ، فإن القربان المقدس يدخل المؤمن في الجسد السري للمسيح ، الكنيسة . وبالمشاركة مع الأنواع القربانية المقدسة يتمثل جسد ودم السيد (كورنثية ١٠ : ١٦- ١٧ - ١١ : ٢٧ - ٢٩] «أليست كأس البركة التي نباركها مشاركة في المسيح ؟ أليس الخبز الذي نكسره مشاركة في جسد المسيح ؟ فنحن جسد واحد لأنه ليس هنالك الا خبز واحد ، ونحن على كثرتنا جسد واحد لأننا نشترك في هذا الخبز الواحد» [١٠ - ١٨] . وبالنسبة للقديس بولس ، ان الخلاص يعادل التشارك السري مع المسيح . ان من عندهم ايمان ، لديهم في انفسهم المسيح [كورنثية ١٣ : ٥] . ان الفِدَاء قد جرىٰ باعطية مجانية من الاله ، وبصورة خاصة التجسيد ، والموت والقيامة ليسوع المسيح .

** يرى كثير من المفسرين ان في هذه الآية اشارة الى العماد بالتغطيس فكان المعمد يموت مع المسيح فتموت معه خطاياه ثم يقوم معه ويحيا حياة جديدة.(الانجيل - طبعة بيروت ٩٧٩)

إن الأهمية الرئيسية المعطاة من القديس بولس للبر [٣ : ٢٤ - ٦ : ١٤ : ٢٣] الخ . تتفرع احتمالاً من تجربته الخاصة : فبالرغم من كل ما فكر به وما عمله - حتى موافقته على رجم اسطفان - منحه الإله الغفران عنه . وبالنتيجة فإنه من غير المفيد بالنسبة لليهودي ، اتباع النصوص الطقوسية والاخلاقية للتوراة : لا يستطيع الانسان ان ينال الخلاص بذاته لذاته . وبعبارة اوضح إن الانسان قد شعر بالذنب على اثر احياء الشريعة ، فقبل معرفة الشريعة لم يكن الانسان ليعرف ما اذا كان مذنبا أو غير مذنب [رومه ٧ : ٧] . ان يكون خاضعاً للشريعة يعادل ان يكون «مستعبداً لعناصر الكون» [غلاطية ٤ : ٣] وهذا مايعيد القول : «ان دعاة العمل بأحكام الشريعة لعنوا جميعاً» [غلاطية ٣ : ١٠] فالمسيح افتدانا من لعنة الشريعة اذ صار لعنة لأجلنا فقد ورد في الكتاب : «ملعون من علق على خشبة»* [١٢-١٤] . اما بالنسبة للوثنيين فمع انهم يستطيعون معرفة الاله عبر أعمال خلقه «قد اصبحوا مجانين في ادعائهم الحكمة» لقد استبدلوا بمجد الله صوراً تمثل الانسان الزائل والطير وذوات الأربع والزحافات» [رومية ١ : ٢١-٢٣] وبالجملة ، بالنسبة لليهود كما بالنسبة للوثنيين فإن الغفران قد جرى حصرا بالايمان وبالقداسة إن الخلاص هو «الهبة المجانية من الله» «الحياة الابدية في ربنا يسوع» [روما ٦ : ٢٣][٣٢] .

إن مثل هذا اللاهوت أوجب حتماً معارضة القديس بولس لليهود المسيحيين لأورشليم . فقد اوجب هؤلاء الأخيرون الختان المسبق على الوثنيين المهتدين ومنعوا حضورهم في المآدب المتخذة مشاركة والاحتفال بسر القربان المقدس . وعلى اثر نزاع رواه بولس [غرطية ٢ : ٧ - ١٠] وروته اعمال الرسل [١٥] بشكل متناقض ، اجتمع الفريقان في اورشليم ، وتوصلوا إلى حل تحكيمي . فالوثنيون المهتدون تمسكوا بالامتناع فقط «عن اللحوم المذبوحة على النصب ، وعن الدم ، ولحوم المخنوقات (الميتة) وعن الزنى» [أعمال الرسل ١٥ : ٢٩] . من الراجح ان هذا

---

* يقول المفسرون المسيحيون ان السيد المسيح انقذ الناس من لعنة الله لمخالفتهم الشريعة بأن جعل نفسه شريكاً لهم في تلك اللعنة لما ارتضى ان يطلب (روم ٨/٣ ١٠ كورنتسة ١٢/٥] فاستشهاد بولس كما جاء في سفر تثنية الاشتراع(٢١/٣تأييد لذلك القول [العهد الجديد طبعة بيروت] المطبعة الكاثوليكية ١٩٧٩

القرار قد اتخذ بغياب بولس ، الذي لم يقبل به تأكيدا ، لأنه احتفظ بجزء من النظرة اليهودية . وعلى كل حال فإن اجتماع أورشليم أقر النجاح الغير متوقع للبعثة المسيحية بين الوثنيين ، نجاحاً كان مناقضاً لنصف الفشل المتحمل في فلسطين .

ولكن القديس بولس جوبه كذلك ببعض الأزمات التي هددت كنائسه الخاصة ، والجماعات التي كان قد أسسها . ففي كورنثة رغب المؤمنون بالعطايا الروحية أو «الهبات اللدنية» ، المنالة من الروح القدس . وهي تتعلق من جهة أخرى ، بممارسة دينية شعبية في العالم الهللنستي : البحث عن الانتشاء «فالهبات اللدنية charisme» كانت تقتضي منحة الشفاء ، والقدرة على اجتراح معجزات ، والنبؤة ، ولغة المجذوبين ، ومنحة تفسير اللغات الخ . [كورنثية ١٢ : ٤] وان بعض المؤمنين السكرى بوجدياتهم وبقدراتهم اعتقدوا بحصولهم على امتلاك الروح وبالتالي الحرية ؛ وقد حسبوا ان كل شيء كان منذئذ مباح لهم [٦:١٢] وحتى الختان : «فما الختان بشيء ولا القلف بشيء ، وانما الشيء ان يكون الانسان خلقا جديداً . والسلام والرحمة على الذين يتبعون هذه الطريقة وعلى اسرائيل الله» [٦ : ١٥ - ١٦] فقد ذكرهم بولس أن اجسادهم هي : «اعضاء المسيح» [٦ : ١٥] . واضافة الى ذلك احيا تراتبية اللدنيات : واكثرها اهمية هي هبـة الحبر ، بعدها هبة النبي ، يتبعها في المحل الثالث ، بالأعطية الروحية للفقهاء أو علماء الدين [١٢ : ٢٨-١٤ : ١-٥] . واجمالاً فإن القديس بولس لم يطرح الالهام بالهبات العليا ، ولكنه أضاف : «سأريكم طريقاً يتجاوزها جميعا» [١٢ : ٣١] . اتبعوا التسبيح بالمحبة ، تلك هي واحدة من قمم افكار بولس : «لو تكلمت بلغات الناس والملائكة ، ولم تكن لدي المحبة ، فما أنا الا نحاس يطن أو صنج يرن . ولو وهبت لي النبؤة وكنت عالما بجميع الأسرار عارفا كل شيء ، ولي الايمان الكامل أنقل به الجبال ، ولم تكن لدي المحبة ، فما انا بشيء . ولو فرقت جميع أموالي وقدمت جسدي ليحرق ولم تكن لدي المحبة فما يجديني ذلك نفعاً الخ . . فالايمان والرجاء والمحبة هي الثلاثة الباقية اعظمها المحبة» [كورنثية ١٣ : ١-١٣] .

من المحتمل ، ان يكون بولس قد قبل البحث عن الهبات اللدنية لأنه فهم

الضرورة لترجمة رسالة الانجيل في لغة دينية مألوفة في الأوساط الهيللينسية . ومهما كان الأمر ، فقد عرف الصعوبة بالتبشير «بمسيح مصلوب عثار لليهود وحماقة للوثنيين» . [١ : ٢٣] . ان بعث الأجساد ، العقيدة الشائعة لدى اكثرية اليهود كانت تبدو غير معلومة لدى الاغريق ، المهتمين بخلود الروح فقط(٣٤) . ولا أقل من ذلك صعوبة ، العلم بأنه كان الأمل بتجديد أخروي للعالم ؛ وعلى العكس فقد بحث الإغريق ، عن الوسائل الأكثر ضمانا للانعتاق من المادة . فقد حاول الرسول أن يتكيف ، وكلما زاد تدخله بعمق في الأوساط الهللنستية كلما نقص كلامه عن الانتظار الأخروي . وتكشف اضافة الى ذلك التحديدات التي لها دلالاتها . وهو لم يستعمل فقط وبشكل مألوف المفردات الدينية الهللنستية (العرفان gnosis ، الاسرار mysterios الحكمة sophia ، المنقذ soter الخ) ولكنه يتبنى بعض المفاهيم الغريبة عن اليهودية والمسيحية البدائية . وهكذا ، على سبيل المثال ، يجعل الفكرة الثنائية خاصته ، هذه الفكرة الأساسية في الغنوصية ، من «رجل علم نفس» ادنى ومعارض «للرجل الروحي»(٣٥) . فالمسيحي يبحث لينسلخ عن الانسان اللحمي روحانيا صرفاً (بنوماتيكوس pneumatikos) وان خطأً ثنائياً آخر يقابل الاله بالدنيا ، المحكومة حاليا «بأمرائها» [كورنثية ١ ـ ٢ :٨] «انها حكمة ليست بحكمة هذه الدنيا ولا بحكمة رؤساء هذه الدنيا ولم يعرفها أحد من رؤساء هذه الدنيا» [كورنثة ١ ـ ٨] . وبعبارة اخرى «بالأركان» [غلاطية ٤ :٣،٩] . «فحين كنا قاصرين كنا عبيداً لأركان العالم . . اما الآن وقد عرفتم الله ، بل عرفكم الله فكيف تعودون الى ترك الأركان الضعيفة الحقيرة وتريدون ان تعودوا عبيداً لها كما كنتم قبلا» [٣-٩] مع ذلك ، بقي لاهوت بولس توراتياً . انه يرفض التمييز الذي يؤكد عليه الغنوصيون ، بين الله الأعلى والفادي ، والخالق السيء المسؤول عن الخليقة ، إن الكون محكوم بالشر اثر سقوط الانسان ، ولكن الغفران يعادل خلقاً جديداً والعالم سيعاود تغطية كما له الأساسي .

ان علم بولس بالمسيحية تطور حول القيامة ؛ فهذا الحدث يكشف طبيعة المسيح : انه ابن الله الفادي . وان المأساة الأخروية تذكر بسيناريو للخلاص معروف جداً في ذلك العصر ، ولكن العبارات الأولى هي اكثر قدما(٣٦) . فالمنقذ هبط من السماء على الأرض لمنفعة البشر ، ويرجع للسماء بعد اكمال مهمته .

في أقدم رسالة له ، الرسالة الأولى الى التسالونيين المحررة في عام ٥١ من كورنثه يعلمهم بولس «بكلام الله»(٣٧) المتعلق بالقيامة : «لأن الرب نفسه عند الصيحة وصوت رئيس الملائكة والنفخ في بوق الله ، سينزل من السماء ، فيقوم أولاً الذين ماتوا في المسيح * ، وبعدئذ ، نحن الأحياء ، الذين سيصيرون هنالك ايضاً ، سنجتمع بهم ونرتفع على غيوم علاقات السيد في الجو . وهكذا سنكون مع الرب دوماً أبداً» [تسالونيك ٤:١٦: ١٧] . وبعد سنوات في ٥٧ ، ذكر الرومان «. . . فإن الخلاص الآن أقرب منه يوم آمنا . . قد تناهى الليل واقترب النهار» [روميه ١٣ :١١ ـ ١٢] . مع ذلك ، فإن انتظار القيامة ، لا يجب ان يعكر الحياة للجماعات المسيحية . فهو يؤكد على ضرورة العمل لاستحقاق الخبز الذي يؤكل [تسالونيك ٣ :٨ ـ ١٠] . ويطالب باحترام الشرائع النافذة ، والخضوع إلى السلطة ودفع الرسوم والضرائب [رومه ١٣ : ١-٧] . إن النتائج لهذا التقييم المزدوج لحاضر (بانتظار القيامة ، يستمر التاريخ ويجب احترامه) لم تتخلف عن الشعور بها . فبالرغم من الحلول العديدة المطروحة منذ نهاية القرن الأول ، فإن مسألة الحاضر التاريخي ، تجاور ايضا الفكرة المسيحية المعاصرة .

ان السلطة المعتبرة للقديس بولس في الكنيسة القديمة ، هي في جزء كبير منها النتيجة لكارثة هزت اليهودية وشلت التطور لاتجاه يهودي ـ مسيحي . وخلال حياته ، كانت اهمية القديس متواضعة ، ولكنه بعد وقت قصير بعد موته انفجرت في عام ٦٦ حرب اليهود ضد روما ، وانتهت في عام ٧٠ مع خراب اورشليم وتدمير الهيكل .

---

* يرى شراح الانجيل ان الموتى اول من يلبي نداءالرب فيقومون ، ثم ينضم اليهم من لم يزالوا احياء ، وبعدئذ يذهبون جميعاً لملاقاة المسيح ويواكبونه للدينونة الأخيرة وهي فاتحة ملكوته الابدي . ولكن المقصود قبل كل شيء سواه هو ما ورد في آخر الآية : فتكون مع الرب دائماً ابداً . ذلك هو الخلاص والمحدد الملكوت وذلك ماينعم به السيد المسيح على الذين اختارهم [شرح الانجيل طبعة بيروت ١٩٧٩] .

٢٢٣ ـ الاسينيون في قمران

أثناء الحرب ، في بداية صيف ٦٨ ، هاجمت فصيلة عسكرية تابعة لفاسباسيان دير قمران ودمرته ، وهذا الدير كان قائماً في وسط الصحراء على ضفاف البحر الميت . ومن المحتمل ، ان المدافعين عنه قد ذبحوا ، ولكنهم وهم على شفير الكارثة كان لديهم الوقت لاخفاء عدد معتبر من الكتابات في آنية كبيرة من الفخار . وقد جدد اكتشاف هذه الجرار في عام ١٩٤٧ و ١٩٥١ معرفتنا بحركات تنبؤية يهودية وبأصول المسيحية . وفي الواقع ، ان الباحثين قد شابهوا في الحماسة الرهبانية للبحر الميت المذهب الغامض للأسينيين des Esséniens ، المعروف حتى ذلك الحين فقط بالمعلومات الشحيحة التي جاء بها فلافيوس جوزيف وفيلون وبلين لي جون[٣٨] . ومن بين المخطوطات التي حلت الغازها وكتبت حتى الآن يوجد ، الى جانب شروح بعض أسفار العهد القديم رسائل أصلية . ونذكر اكثرها أهمية : «لفيفة حرب ابناء النور ضد ابناء الظلمات» . و «رسالة الانتظام» و «مزامير الشكر» و «التقرير حول حبقوق» .

وبالاستعانة بهذه الوثائق الجديدة ، يمكن اعادة تكوين تاريخ المذهب في خطوطه الكبرى . فقد كان الحكماء الهاسيديم les Hassidim الذين نتذكر حميتهم الدينية ودورهم في حرب المكابيين (ف ٢٠٢ع) هم أسلافه . وان مؤسس جماعة قمران المسمى من قبل تلامذته «معلم العدالة» كان كاهنا صدوقياً ، منتمياً اذن للطبقة الكهنوتية الشرعية وأصولياً متطرفاً . وعندما أعلِن سمعان (١٣٤ ـ ١٤٢) «أميراً وكبيراً للكهنة للأبد» وتحولت مهمة الكهانة الكبرى بما لا رجعة فيه من الصدوقيين الى الهسمونيين ، ترك «معلم العدالة» اورشليم مع جماعة من المؤمنين والتجأ في صحراء يهودا . ومن المحتمل ، ان «الكاهن الشرير» الملعون في النصوص القمرانية سيكون سمعان ، فقد كان اضطهد «معلم العدالة»[٣٩] في منفاه وتوجه لمهاجمة قمران ، عندما اغتيل من قبل حاكم جرس yericho [مكابيين ١٦ : ١١] . ان ظروف «موت «معلم العدالة» غير معلومة[٣٩] ، وقد قدسه تلامذته

والمؤمنون به كرسول للرب .وكموسى تماما جعل الحلف القديم ممكنا ، وقد جدده «معلم العدالة» ؛ وبتأسيسه للجماعة الأخروية لقمران تقدم العهد المسيحاني .

ومنذ إشهار النصوص الأولى ، لاحظ الأخصائيون مشابهات ذات دلالة بين المفاهيم والممارسات الدينية الاسينية والمفاهيم والممارسات المسيحية البدائية . وبفضل هذه الوثائق الجديدة ، يعرف الآن الوسط التاريخي والروحي (le sitz im Leben) لمذهب رؤوي يهودي . فالموازيات الأسينية توضح بعض المظاهر لنبوءة يسوع ولعدد من العبارات الشائع استعمالها من قبل مؤلفي العهد الجديد . ولكنه يوجد ايضاً فوارق ليست قليلة الأهمية . ان جماعة قمران كانت رهبانية متشددة ؛ وأن المسيحيين الأوائل عاشوا في العالم ، وشكلوا جماعة ارسالية . وقد كان المذهبان رؤويان ومسيحانيان كذلك : الاسينيون كالمسيحيين تماماً ، اعتبروا انفسهم كشعب العهد الجديد . ولكنهم انتظروا نبياً اخروياً (الذي ، كان في العهد الجديد قد سبق مجيئه في شخص يوحنا المعمدان) ومسيحيين : المسيح الكاهن ، الذي يقدسهم والمسيح الملكي ، الذي سيقود اسرائيل في الحرب ضد المشركين ، حرب قرر الاله نفسه النصر فيها . و «لفيفة حرب ابناء النور ضد ابناء الظلمات» تشكل في الواقع ، مخطط معركة لهذا الانقلاب الأخروي . إن تعبئة لمدة ست سنوات سيتبعها تسع وعشرون سنة من الحرب . وان جيش ابناء النور سيكون مشكلا من ثمانية وعشرين الف مقاتل مشاة وستين الف فارس ، معززين بعدد ضخم من الملائكة[٤٠] . وكان المسيحيون ايضاً يأملون ، بمجيء ثان ظافر للمسيح ، كقاض ، وفادي للعالم ، ولكنهم باتباع تعليمات المسيح ، لم يشاركوا بايديولوجيا الحرب المقدسة .

وبالنسبة للأسينيين كما هو بالنسبة للمسيحيين ، سيظهر المسيح في نهاية الازمنة وسيحصل على عرش أبدي ، وفي المذهبين المسيحانيين تتواجد الاركان الكهنوتية الملكية والنبؤية ، متحدة . ومع ذلك ، فإن مفهوم مسيح سابق الوجود ، في ادب قمران (آدم الثاني ، ابن الانسان) لم يتأكد ، واكثر من هذا ، ان المسيح لم يصبح بعد الفادي السماوي ، والصورتان المسيحانيتان لم تتوحدا ، كما في الدراسة المسيحية للكنيسة البدائية[٤١] . وان «معلم العدالة» بصفته

شخصية أخروية قد افتتح العصر الجديد . لقد وصفه تلامذته برتبة مسيحانية : رتبة معلم يكشف المعنى الحقيقي ، الباطني للكتابات المقدسة ، والذي اضافة الى ذلك موهوب بقدرات نبؤية . ويفهم من بعض النصوص ، ان المعلم سيقوم بنهاية الأيام(٤٢) . ولكن البروفيسور بر . كروس الخبير في هذا الشأن يقدر «اذا كان الاسينيون انتظروا عودة معلمهم كمسيح كهنوتي ، فإنهم عبروا عن أملهم بطريقة غير مباشرة الى حد كبير ، الأمر الذي يتناقض مع التأكيد الذي طور معه العهد الجديد هذه الفكرة .

ان التنظيم والمنظومات الشعائرية للمذهبين الرؤيين تبرز جميعها مشابهات مدهشة ، ولكن بعض المفارقات التي ليست أقل أهمية تبرز ايضاً . فالاسينيون شكلوا جماعة هي في آن واحد اكليروسية وعلمانية . وكان النشاط الديني (تعليم، عقيدة، تفسير) موجها من قبل كهنة متوارثين؛ وكان العلمانيون (اللاييك) مسؤولين عن المصادر المادية . وكانت الجماعة الموجهة تدعى الربيين les Rabbin (لغويا ـ الكثيرون) ، وهو مصطلح يوجد في العهد الجديد «الجمعية» التي تنتخب ممثليها ؛ [انظر اعمال الرسل ١٥ : ١٢] . وكانت الدائرة الداخلية تتشكل من اثني عشر من اللاييك وثلاثة من الكهنة . وكانت المهمة الأكثر رفعة مهمة مراقب (mbaqqen) وهذا الرئيس الأعلى يجب ان يتصرف «كراع» («وثيقة دمشق» ١٣ : ٧ـ٩) . وتذكر وظيفته بوظيفة «راع» أو اسقف episkopos لدى المسيحيين .

وفي قمران ، كان العماد المساري ، الذي يضم التلميذ الجديد في الجماعة ، متبوعا بتطهيرات شعائرية سنوية . وتماما مثل «كسر الخبز» بالنسبة للمسيحيين ، فإن وجهتهم العامة كانت مفهومة من قبل الأسينيين كمقدمة لمأدبة مسيحانية(٤٣) . وكان اعضاء الجماعة يمتنعون عن الزواج ، لأنهم كانوا يعتبرون انفسهم جميعاً جنوداً في الحرب المقدسة . ولم يكن يتعلق ذلك بتنسك حقيقي ، وانما بتنسك مؤقت ، مفروض لقرب الأخرة(٤٤) . ويجب الاشارة لنقطة اخرى من التشابه : الطريقة التأويلية Rerméneutique المماثلة لدى الشراح الأسينيين ومؤلفي العهد الجديد ، دون مشابهة في اليهودية الربينية ولا لدى (فيلون) . وبتطبيق اجراء خاص ، اكتشف الأسينيون في نبوءات العهد القديم مراجع محددة للتاريخ

المعاصر وبالنتيجة نبوءات متعلقة ببعض أحداث وشيكة الوقوع . وكان الذين عندهم زيادة في «المعرفة» ، اي المتلقنين في العرفان الرؤوي المظهر من قبل «معلم العدالة» يعلمون ان الحرب القصوى هي على وشك الانفجار . ومن جهة أخرى فقد رأينا (ف ٢٠٢ ع) ان كل الأدب الرؤوي اليهودي كان يمجد المعرفة الباطنية . وبذات الأمر ، وبخاصة بدءاً من الجيل الثاني أعطى المسيحيون قيمة خاصة للعرفان الروحي (غنوص) : لقد كانوا متلهفين لحل رموز الاشارات المبشرة بعودة المسيح الثانية . وبالنسبة للأسينيين ، كانت المعرفة الدينية بامتياز معرفة مكشوفة ، لنظام أخروي . وقد توضح مفهوم مواز في رسائل بولس وفي الأناجيل متى ويوحنا . وكان التعليم لدرجة عليا ، وحتى اسرار الجماعة معتبرة باطنية ، لأن عرش الرب غير ممكن ادراكه با«للحم» وإنما بالروح فقط[٤٥] وباختصار ، إن المعرفة الروحية والسرية تشكلان عند اليهود كما عند المسيحيين جزءاً من «الطريقة» الرؤوية . وبعد خراب قمران وتشتت الأسينيين ، اعاد بعض الناجين ، على الأرجح ، جميع البؤر المسيحية في فلسطين . وعلى كل حال ، فإن التقاليد الرؤوية والباطنية اعتمدت في مسيحية القرنين الأولين ، وشجعت بعض الاتجاهات الغنوصية (ف ٢٢٨ ع) .

إن المشابهات بين لغة اللاهوتيات الاسينية ولاهوتيات انجيل يوحنا هي مميزة كذلك . فيوجد في نصوص قمران عدد من العبارات المميزة لعبارات يوحنا ، على سبيل المثال «نور الحياة» [٨ : ١٢] وابن النور [١٢ : ٣٦] ، «الذي يعمل في الحقيقة يأتي من النور» [٣ : ٢٥] «روح الحقيقة وروح الخطأ» [رسالة يوحنا ٤ : ٦][٤٦] . وحسب نظرية الأسينيين ، ان العالم هو الحقل لمعركة بين روحين خلقهما الرب منذ البدء : روح الحقيقة (المسماة ايضا «أمير النور» و «ملاك الحقيقة») وروح الشر أو الفساد ؛ وهذا الأخير ليس شيئاً آخر سوى بيليال Bélial «امير الظلمات» الشيطان . وتجري الحرب بين هذين الروحين وجيوشهما الروحية كذلك بين البشر وفي قلب كل «ابن للنور» [النظام الجديد ٤ : ٢٣ ـ ٢٦] وقد قُرِّب السيناريو الأخروي الأسيني من بعض النصوص اليوحنية . ويذكر موجز النظام manuel Discipline [٣ : ١٧ ـ ٢٣] ان ابناء العدالة رغم كونهم تحت قيادة أمير

النور ، يقعون أحيانا في الخطأ ، مدفوعين بملاك الظلمات . وعلى مايبدو ، فإن اول رسالة ليوحنا تتكلم عن «ابناء الله» و «ابناء الشيطان» وتحرض المؤمنين ان لا يضلوا بالشيطان [٣١: ٧: ١٠] ولكن في حين ان الاسينيين هم في انتظار الحرب الأخروية ، ففي الأدب اليوحني ، رغم واقعة استمرار الصراع ، فإن الأزمة تم تجاوزها ، لأن يسوع المسيح انتصر على الشر .

وتحسن الاشارة الى فرق آخر : في الأدب اليوحني ، إن الروح بصورة عامة مفهومة كأنها روح الله أو روح المسيح [رسالة ليوحنا ٤ :١٣] وفي موجز النظام ، أن أمير النور أو روح الحقيقة يبدو انه المساعد لأبناء النور . مع ذلك فإن صورة الفارقليط paraclet المثارة من قبل يوحنا «روح الحق» [١٤ : ١٧ ، ١٥ : ٢٦ الخ] تبدو مشتقة من لاهوت مشابه للاهوت قمران . فالمسيح موعود بإرساله بهدف الشهادةوالشفاعةمن أجل المؤمنين،ولكن الفارقليط لن يتكلم مطلقاً باسمه الخاص . ومثل هذه الوظيفة ، التي لم تنتظر من الروح القدس حيَّرت الشراح دائما . إن نصوص قمران تسمح لنا بفهم مصدر الفارقليط : فحسب علم الهيئة morphologiquement هو متضامن مع شخصية من البلاط السماوي ليهوه بخاصة الملاك أو المبعوث الالهي(٤٧) . غير ان التأثيرات الايرانية ؛ وفي المقام الأول منها الثنائية الدينية والملائكية ، حولت الملاكين من بلاط يهوه (ف ٢٠٣ ع) في تجسيد المبدأين المتعارضين : خير/شر، حقيقة/ كذب ، نور/ ظلمة . . ان الاسينيين ، كذلك مؤلف المجموعةاليوحنية ، تقاسما هذا اللاهوت وهذه الأخروية الفلسفيتين التوفيقيتين ، المتأثرتين ، بقوة ، بالثنائية الايرانية .

وبالرغم من المشابهات العديدة التي نذكرها فإن الاسينية والمسيحية تمدان جذورهما في النبوءة للعهد القديم . لقد كان الاسينيون يسندون ويدعمون الانفصالية الاكليروسية ، وكان المسيحيون يجهدون على العكس ، لنيل كل الطبقات الاجتماعية . وكان الاسينيون يستثنون من مأدبتهم المسيحانية كل اولئك الذين كانوا غير نظيفين والمشوهين طبيعيا او روحيا ، وبالنسبة للمسيحيين ، فإن واحدة من الملكوت كانت بحق الشفاء للمعاقين (العميان الذين يرون ، الخرسان الذين يتكلمون الخ . .) وقيامة الأموات . وأخيراً فإن قيامة يسوع وهبة

الروح القدس ، والحرية الروحية التي تتابعت لانتظام الشريعة ، تشكل «الحدث» المركزي الذي يميز هاتين الجماعتين المسيحانيتين messianiques[٤٨] .

٢٤٤ ـ خراب الهيكل ، وتأخر عودة المسيح

ان قسماً من اليهود ـ المسيحيين برفضهم الانخراط في الحرب المسيحانية ضد الرومان ، انكفأوا في عام ٦٦ إلى بيلا pella ، في شرقي الاردن ، والتجأ آخرون الى المدن السورية ، وآسيا الوسطى ، والاسكندرية . وان معنى الرفض لا يفوت الرافضين : فالمسيحيون[٤٩] تخلصوا من التضامن بمصير قومي لاسرائيل [اوزيلي تاريخ كنسي ٣ ـ ٣١٥] . وان الحدث يميز انفصام الكنيسة عن اليهودية . مع ذلك ، فإن اليهودية استمرت في العيش بفضل اشارة مماثلة . إن الرئيس الديني الأكثر أهمية في عصره ر. جوشانان بن زكاي ، الذي كان قاوم بشدة العصيان المسلح ، هرب اثناء حصار المدينة في تابوت . وبعد زمن قصير ، حصل على رخصة من تيثوس باقامة مدرسة ابتدائية في جبنه gabneh ، قرية بالقرب من يافا . وبفضل هذه المدرسة المؤسسة من قبل جوشانان ستنقذ القيم الروحية للشعب اليهودي ، المقهور على المستوى القومي والمهدد بالفناء .

إن خراب المدينة وخراب المعبد غير بقسوة التوجه الديني لليهود ، كذلك الأمر بالنسبة للمسيحيين ، فبالنسبة لليهود ، طرح خراب المعبد مسألة ماتزال اكبر من تلك التي واجهها اجدادهم قبل ستة قرون ، لأن الانبياء بتنبؤهم بالكارثة ، كانوا في ذات الوقت كشفوا سببها : ان يهوه كان يستعد لمعاقبة شعبه بسبب انعدام أماناته التي لا حصر لها . وهذه المرة ، على العكس ، أعلن الرؤويون ان نصر الرب النهائي في المعركة الاخروية ضد قوى الشر هو امر مؤكد . والجواب على هذه الكارثة الغير متوقعة والغير مفهومة أعطي الى يابنيه yabneh : اليهودية ، ستستمر ولكن ومصلحة أي خالصة من الآمال الرؤوية الباطلة ومن المسيحانية ، ومتبعة تعاليم الفريسيين حصراً (ر.ف٢٠٤ع) . وقد كانت نتائج هذا القرار البدئية تدعيم الشريعة والكنيس ، وتقييم الميشنا ، واخيراً التلمود . ولكن الخراب

الثاني للمعبد ميّز بعمق تطور اليهودية : فبحرمانهم من المعبد ، المكان المقدس الوحيد الذي كانت تمارس فيه العبادة ، انكفأ المؤمنون الى الصلوات والتعلم الديني[٥٠] .

واثناء الحرب ، عرف المسيحيون ، هم ايضا ، انبثاق الحماس الرؤوي : الأمل الذي لم يتأخر الرب فيه عن التدخل ، وبدقة بتسريع المجيء الثاني للمسيح . وانجيل مرقص يعكس ويمدد هذا الأمر الرؤوي[٥١] . ولكن تأخر المسيح كان أثار مسائل معقدة ، وفي الأساس يمكن تصنيف الاجابات المعطاة في ثلاثة فئات : ١) أعيد التأكيد ايضا بقوة اكثر على قرب مجيء المسيح الثاني (رسالة بطرس)
٢) ارجىء مجيء المسيح لمستقبل بعيد ، وقدم لذلك تبرير لاهوتي لهذا الأمل المحدد : وهذا هو العصر المحتفظ به لنشاط الارسالية الكنسية (متى ولوقا)
٣) ان مجيء المسيح حصل سابقاً ، لأن صلب وقيامة يسوع يشكلان في الواقع الحدث الحقيقي النهائي (الأخرة eschaton) و «الحياة الجديدة» هي مقبولة سابقاً للمسيحيين (انجيل يوحنا)[٥٢] .

وهذا التفسير الثالث هو الذي سينتهي ليفرض نفسه . زد على ذلك انه يمدد التناقضات المواجهة بالمؤمنين الأوائل : في الواقع ، ان يسوع المسيح لم يتميز ابداً عن الكائنات البشرية الأخرى ، مع انه ابن الله ، فقد اهين ومات على الصليب . ولكن القيامة اكدت الوهيته . ومع ذلك فإن هذه التجربة البراقة لم تكن في العادة مقبولة . (بالنسبة لأكثرية اليهود ، كان مجيء المسيح يقتضي بالضرورة الخلاص الوطني والتحول الظاهر للعالم) . ومنذئذ كان مجيء المسيح ينتظر لفرض الاذعان لغير المؤمنين . ان منشيء انجيل يوحنا وحلقته من المؤمنين يرد بطريقة جريئة لتأخر المجيء . ان مملكة الله سبق لها ان اقيمت ، ليس آليا وبشكل شامل واضح ، وتماما كالمسيح ، المتجسد في الشخصية التاريخية ليسوع ، لم يكن بالنسبة لأكثرية اليهود ـ والوهية المسيح لم تكن ايضا بالنسبة لغير المؤمنين . انه يتعلق باختصار ، بذات العملية الجدلية الموصوفة جيداً في كل تاريخ الأديان : ان تجلي المقدس في شيء غير مقدس يشكل في ذات الوقت تمويها ، لأن المقدس ليس واضحا بالنسبة

لكل اولئك الذين يقربون الموضوع في ماظهر فيه . وهذه المرة ايضا ، فان المقدس ـ ملكوت الله ـ قد ظهر في جمعية بشرية محددة تاريخياً : الكنيسة .

إن هذه الاعادة للتقييم لمجيء المسيح تفتح ، امكانيات متعددة من التجربة الدينية والارشاد اللاهوتي . ففي مكان السيناريو المألوف ـ مجيء المسيح بصفته ظهوراً مادياًومتألقاً بنصر الله المؤكد بانتهاء الشر ونهاية التاريخ ـ يعوم الاقتناع بأن الحياة الروحية يمكن ان تنمو وتتكامل في هذا العالم ، وان التاريخ يمكن له ان يغير صورته ؛ وبعبارة اخرى ، ان الوجود التاريخي قابل ليصل الى الكمال والسعادة لملكوت الله . وبالتأكيد ، ان الملكوت سيكون «بوضوح» للمتدينين في المقام الأول ، ولكن كل جماعة مسيحية يمكن لها ان تغدو النموذج المثالي لحياة مقدسة وإذن ، دعوة للاهتداء . ان هذا الشرح للجدلية المقدس المدشنة بتماهي الملكوت مع الكنيسة يمتد أيضاً حتى يومنا ، وبطريقة متناقضة ، ويظهر بخاصة «بإبطال القداسة» الكثيرة (عدم اسطرة الاناجيل والتقليد والحط من الرمزية الدينية ، واختصار الحياة التقديسية ، والاتجاهات ضد الصوفية والحط من الرمزية الدينية ، والفائدة الحصرية بالنسبة للقيم الخليقة والوظيفة الاجتماعية للكنائس الخ) «ابطال صفات القداسة» على أهبة ان تكون كاملة في العالم المسيحي المعاصر (الجزء ٣) .

حواشي الفصل الثامن والعشرين

١ ـ اعمال الرسل ٩، ٣ـ٥، ١٩ـ١٩ـ إن كاتب الأعمال يروي ايضا مرتين اللقاء مع المسيح المبعوث على طريق دمشق ١٢: ٤ـ٢١ و ٢٩: ١٢ـ٢٠

٢ ـ في الرسالة الأولى للكورنثيين (١٥ـ١ـ٢ يؤكد بعناية القائمة بكل اولئك الذين يظهر المسيح لهم مبعوثا

٣ ـ اسماء المراجع المعتمدة

٤ ـ بالتأكيد ان سيناريو (الاغراءات) قد أدخل فيما بعد في التقاليد الخرافية المجموعة في الاناجيل بعد سقوط العصيان المسلح لسنة ٦٦ ـ ٧٠ أي بعد خراب المعبد من قبل الرومان، ولكن في الأفق الرمزي الذي تطورت فيه الكنيسة، فالاغراءات مثلت مسبقاً معجزات يسوع (لأنه بعد قليل من الزمن سيغير الماء الى خمر وسيكثر الخبز والأتربة) وان انتصار المسيحية (لأنه مع ان الامبراطورية الرومانية لم تخرب بعصيان مسلح فإنها انتهت لتصبح مسيحية».

٥ ـ البشارة التي اتى بها يسوع من عند الآب بخلاص الناس ٥ ـ مرقص ١ : ١٥ متى ١٤ : ١٧ يتكلم عن مملكة السماوات ولكن الصيغتين مترادفتان.

٦ ـ لوقا: ١١ ـ ١٥ ـ ١٧ لقد رأى لوقا جيداً ان طلب الآية والاتهام بالسحر يشكلان وحدة قصصية. والاناجيل الأخرى اعتبرتهما منفصلتين مرقص ٣: ٢٢ متى ١٢: ٢٤

٧ ـ سندهرين ٤٣ ـ نفس النص يقدم معلومات اخرى ستتحقق من اهميتها فيما بعد لأنها مستقلة عن المصادر المسيحية. والمصادر الربانية ذكرت ونوقشت من قبل كلوسبر ص ٩٤

٨ ـ يسوع والزيلوط ص ٤٤ ـ ٤٧ المرجع اللسابق

٩ ـ ١١ ـأسماء المراجع

١٢ ـ يذكر كلوسبر. ان التقليد الربيني يقرر أن يسوع قد حوكم من قبل السلطات اليهودية وادين بان يشنق صباح الفصح

١٣ ـ ان الشارح المعاصر يقبل رسميا اربعة اعلانات متعلقة بمحاكمة الرب (مرقص ١ـ ١٥ لوقا ١١ : ٢٤ و ١٧ـ٢٠ ومتى
١٤ ـ ارنست كيزمان مسألة تاريخية يسوع ص ٤٢
١٥ ـ مارسيل سيمون اليهودية والمسيحية القديمة ص ٨٦
١٧ ـ سيمون ص ٨٧ حول دمج الصورتين المثاليتين للمسيح الخادم المتألم في شخصية يسوع
١٨ ـ يؤكد المفسرون كذلك على الفرق بين الصيغة الأكثر قدما للنص **kaddish** (يبني الرب ملكوته اثناء حياتك واثناء ايامك» والنص المستعمل من قبل يسوع بفضل حكمك
١٩ ـ ٢١ اسماء المراجع المعتمدة
٢٢ ! جماعة قمران كانت تعتبر كذلك منتفعة بالعهد الجديد (ف ٢٢٣ ع)
٢٣ ـ بولس يبعث هذه الفكرة بتعميمها ، انه يماهي الجماعة المسيحية باسرائيل الجديدة مع جسد المسيح ، كل مسيحي بصفته في المسيح تماما كأن المسيح هو فيه .
٢٤ ـ ٢٥ اسماء المراجع
٢٦ ـ نورمان بيران نسب لهم القصص الرؤوية واقوال يسوع المحفوظة في الأناجيل
٢٧ ـ بيترسون ـ اظهر الصدى السياسي لاسم : (اشياع المسيح) . سيدهون أول كاتب لاتيني يؤكد الذهب الجديد ، ويقرر ان الامبراطور كلود طرد اليهود من روما في ٤٩ لأنهم تحركوا (تحت تحريض المسيح)
٢٨ ـ يضاف لاسم التوراتي شاوؤل اللقب الروماني بول ابوه كان مواطناً رومانياً .
٢٩ ـ اتفق على الاعتراف برسمية ٥أ و ٦ من بينها الأكثر أهمية : الرسالة الى الرومان ـ الكورنثيين ، غلاطة ولكن بقية الرسائل توضح ذات الفكرة البولسية .
٣١ ـ رسالة في تاريخ الأديان ـ الياد . وصور ورموز ـ الياد ـ فصل ٧ .
٣٢ ـ يحسن التحديد ان الرسالة للرومان حيث ترتبت اللاهوت والبروربانية الصليب ـ هي الكتابة الأكثر اهمية للقديس بولس . وان عدداً من اللاهوتيين يعتبرون الرسالة للرومان وكأنها الأكثر اهمية من كتب العهد الجديد . وان التغير لهذا النص العميق الجريء والملغز اثار العديد من الايحاءات والتعليم واثار ازمات مزقت وفي آن واحد جددت المسيحية منذ الفرن الخامس عشر وان واحدة من اللاهوتيات المعاصرة الأكثر دلالة قد احتفل بها من قبل المعلق الشهير كارل بارت .
٣٣ ـ تأكد المظهر بشكل واسع في تاريخ الأديان الهندية (ف ١٤٦ع) والغنوصية (ف ٢٣٠ع) ويصادف كذلك في عدد من التيارات السرية المسيحية والاسلامية .
٣٤ـ قيامة الفادي تؤكد قيامة المسيحيين (كورنثيه ١٥ : ١٢)بولس يشاطر كذلك بالمفهوم من أصل اغريقي بالخلود الحاصل مباشرة بعد الموت (كورنثية ٥) مع ذلك فإن للوجود التالي لم يكن غير

مجسد ، انه الجسد (للروحي) الذي سيعيش بالموت و (لاستعمال عبارة) : الذي يبعث (كورنثية ١٥ : ٤٤) ان نظرية (الجسد الروحي) تأكدت في تقاليد اخرى (الهند - التيبت) وان اصولية بولس هي اشراكه الخلود بالقيامة ولكن هذا الحل قد اثار مشاكل أخرى .
٣٥ - (كورنثية ٢١ : ١٤-١٥) (الانسان الأول نبت من التراب وهو ترابي والثاني اتاه من السماء ١٤- ٤٧

٣٦ - الميتولوجيات القديمة عرفت نماذج عدة من كائنات مافوق الطبيعة (انباء للآلهة، مالقين ابطال محضرين صور مسيحانيـة وأورفـة الخ . .) نزلوا لتعليم أو انقاذ الانسان وعادوا بعدئذ للسماء وتعرف مفاهيم مشابهة في اميتولوجيات الهندو- اوروبية . . والبوذية .
٣٧ - كورنثية ١ - ١٥ - ٥١ «انني اكشف لكم سراً فأقول : اننا لا نموت جميعاً ، بل تتبدل جميعاً في لحظة وطرفة عين عند النفخ في البوق الأخير ، لأنه سينفخ في البوق ، يقوم الأموات غير فاسدين ونحن نتبدل وقد استعمل بولس في هذه الآيات عبارات اسفار العهد القديم لوصف القيامة واستعمل صيغة المتكلم فقال (تتبدل) كأنه سيكون من الأحياء يوم القيامة ، وتعبيره هذا وجه البيان لاغير حسب رأي شراح الرسالة

٣٨ - ان التناقض بين مجموعتي الوثائق - محفوظات قمران ، وشهادات المؤلفين التقليديين تفسر من جهة بالإعلام غير الكافي لهذه الأخيرة ، ومن جهة أخرى بالتعقيد لهذا المذهب الرؤوي ، إن جماعة قمران لا تشمل الاسينية في مجملها ، ويظهر مؤكدا انه كان يوجد بؤر أدنويات اسينية في مقاطعات اخرى من فلسطين .
٣٩ - بعض الباحثين يستنتج من وثائق قمران اتهام الكاهن الكافر بالتحريض على اغتياله . مع ذلك لم يتأكد عمله السيء بوضوح حسب تحليل الوثائق .
٤٠ - yadin حرب ابناء النور وابناء الظلام ص ٣٦٩

٤١ - كروس ص ٢٢ رسالة الى العبرانيين تمثل يسوع كمسيح في آن واحد كهنوتي وملكي . ويكشف لروس في هذا التفسير جهد الكنيسة البدائية تكليف المسيحية بانتظار مسيحاني للاسينيين او بدقة اكثر لاظهاره في صورة واحدة اتمام كل الحنين المسيحاني للماضي
٤٢ - الأكثر اهمية والأكثر عرضة للجدل ، هو مقطع من (وثيقة دمشق) مشترك الاعداد ٢١ : ١٨ انظر الترجمات والتحليلات لدى gupont-sommer
٤٣ - النصوص المذكورة مترجمة من قبل كروس
٤٤ - النصوص المذكورة محللة من قبل كروس «الزمن قصير . . ليعيش الذين عندهم نساء ، كما انه عند من لا يوجد عندهم . . .»

٤٥ ـ انظر يوحنا ٣ : ٥ «مامن احد يمكنه ان يدخل ملكوت الله الا اذا ولد من الماء والروح» بالنسبة للخاصية الباطنية للعرفان . في ادب قمران وفي العهد الجديد انظر ـ نوتشر والمراجع الأخرى

٤٦ ـ المشابهات في النصوص القمرانية مذكورة من قبل كروس ص ٢٠٧ الثنائية ـ نور ظلمه وبخاصة التمجيد للنور كالتجلي المحتار للروح ، يدل على تأثير الأفكار الايرانية . ولكنه لا يسوغ نسيان ان صورة مماثلة ستوجد في العهد القديم وفي ديانات سامية أخرى

٤٧ ـ ٤٨ . كروس ص ٢١١ يذكر النموذج الكنعاني للملك المرسوم

٤٩ ـ اربع سنوات سابقة في ٦٢ . يعقوب رئيس الجماعة اليهودية المسيحية في اورشليم ، كان قد مات شهيدا

٥٠ ـ انظر جوداه جولدين (حول التغيير والتبني في اليهودية ص ٢٩٠

٥١ ـ بعد الكارثة ٧٠ بدأ المسيحيون بتجميع وكتابة السنن الأورشليمية حول الحياة ، المهمة الموت والقيامة ليسوع ، وهذه هي الأناجيل الأولى .



الفصل التاسع والعشرون

وثنية ، ومسيحية وغنوصية في العصر الامبراطوري

٢٢٥ ـ العذراء تعود

إذا كانت عبادة الأم الكبرى سيبيل قد عضدت من قبل الارستقراطية الرومانية ، فإن نجاح الديانات الشرقية الأخرى المدخلة بعدئذ ، قد ضمنت من قبل البروليتاريا سكان المدن ومن قبل العدد الكبير من الغرباء المقيمين في روما . وخلال القرنين الأخيرين من الجمهورية ، كان الدين التقليدي ـ الى العبادات العامة ـ قد أضاع احترامه تدريجياً . فبعض الوظائف الاكليروسية وعدد من مؤسساتها سقط بعدم الاستعمال ، وكما في أي مكان اخر في العصر الهلنستي ، فإن التدين قد انتشر تحت علامة الربة (الحظ) فورتونا Fortuna (Tyché) والقدرية النجومية (ف ٢٠٥ ع) . وجذب السحر والتنجيم ليس الجماهير فحسب ، وإنما

بعض الفلاسفة(الرواقيون كانوااعترفوا بصحةالتنجيم). وأثناءالحرب الاهلية انتشرت اعداد من الرؤويات من مصدر شرقي ، وأعلن اولئك المعروفون تحت الاسم ، عرافو سيبلين السقوط الوشيك للسلطة الرومانية . واكثر من ذلك هو إن الوسواس القديم لنهاية روما(1) أخذ يظهر هذه المرةمؤكدا بالأحداث الدموية للتاريخ المعاصر . ولم يخف هوراس مخاوفه بالنسبة للمصير القريب للمدينة [إيبود ١٦] .

وعندما اجتاز قيصر الروبيكون Rubicon ، أعلن الفيثاغوري الجديد نيجديوس فيجولوس بداية مأساة كونية - تاريخية ستضع نهاية لروما وحتى للجنس البشري . ولكن حكم أغسطس الآتي بعد الحروب المدنية الطويلة والمدمرة ، بدا وكأنه يقيم سلاما داخليا . ولكن المخاوف الموحى بها بالاسطورتين - عمر روما والسنة الكبرى - بدتا منذئذ بدون قيمة - فمن جهة ، لأن اغسطس كان قد جاء لبناء روما من جديد ، وبالنتيجة لم يكن هنالك ما يوجب الخوف بالنسبة لمدتها ؛ ومن جهة أخرى لأن مرور عصر الحديد إلى العصر الذهبي كان قد تم بدون كارثة كونية . وعلى ذلك ، فإن فرجيل قد ابدل آخر سيكولوم saoculums المتعلق بالشمس - الذي كان يجب له ان يثير الحريق الشامل - أبدله بعصر ابولون ؛ وهكذا تجنب الاكبيروزيس l'ekpyrosis واعتبر الحروب المدنية كعلامة حتى للمرور من عصر الحديد إلى العصر الذهبي . وفيما بعد ، عندما حكم اغسطس ظهر باعثاً بالفعل لعصر لذهبي ، فأجهد فرجيل نفسه لطمأنة الرومان بالنسبة لدوام المدينة . وفي الانيادة [١ ، ٢٥٥] يتوجه جوبيتر لفينوس ويؤكد لها بأنه لن يثبت لرومة أية نوع من التحديد المكاني أو الزماني : «هذه الامبراطورية بدون نهاية هي التي اعطيتهالهم». وبعد اعلان الانيادة سميت روما اوربس ايتيرنا urbes aeterna وأعلن اغسطس المؤسس الثاني للمدينة . واعتبر تاريخ ولادته في ٢٣ أيلول «كنقطة انطلاق للعالم الذي انقذ اغسطس وجوده وغيّر وجهه»(2) . وعندئذ انتشر الأمل بأن روما تستطيع التجدد دوريا . وهكذا فإن روما المتحررة من اساطير الأثني شر نسراً والاكبيروزيس l'ekpyrosis ستستطيع التوسع ، كما يذكر فرجيل [الانيادة ٦ - ٧٩٨] ، حتى الأقاليم «التي تستقر خارج طرقات الشمس والسنة» .

ولذلك صلة بالجهد العالي لتحرير التاريخ من القدر الكوكبي او من قانون الدورات الكونية ، واعادة ايجاد ، باسطورة التجدد الدائم لروما ، الاسطورة القديمة للتجدد السنوي للكون بواسطة اعادة تجدد خلقه الدوري (بالمضحين أو الحاكم) . وهذه هي ايضا محاولة لتقييم التاريخ على المستوى الكوني ، أي اعتبار الأحداث والكوارث التاريخية كما لو أنها احتراقات او انحلالات كونية حقيقية يجب لها دوريا ان تضع نهاية للعالم من أجل ان تسمح بإعادة تجدده . فالحروب ، والخرائب ، والمعاناة المثارة بالتاريخ ليست أبدا العلامات المنبئة بالمرور من عصر كوني الى عصر كوني آخر ، ولكنها تشكل بذاتها هذا المرور . وهكذا ، لكل عصر من السلام ، يجدد التاريخ نفسه ، وبالنتيجة ، يبدأ عالم جديد ؛ وفي آخر المطاف (كما تظهره الاسطورة المشكلة حول أوغسطس)، فإن الحاكم يكرر خلق الكون[٣] .

ويعلن فرجيل في رابع محاورة له ان العصر الذهبي هو على وشك أن يبدأ تحت حكم القنصل اسينيوس بوليون (٤٠ ق.م أي قبل الظفر النهائي لاوكتاف) «ان هذه ولادة دورة جديدة للقرون . وهاهي العذراء تعود ، ويعود حكم ساتورن saturne» . «عرق ذهب» ينبثق في كل مكان في العالم ، وابولون هو حاكمهم (٥ ـ ١٠) . وعليه فإن فرجيل يجمع كل هذه الاشارات المميزة لصورة العصر الذهبي ، مع ولادة طفل تجهل هويته ، ولكن عدداً من العلماء يفترض انه سيكون ابن بوليون pollion . ولقد جرى نقاش مطول ومازال يجري ايضا حول دلالة هذه القصيدة الملهمة والملغزة . ويكفينا هنا الاشارة الى قوة تبصر فرجيل: وكنبي حقيقي ، فهم النص في آن واحد كونيا ودينيا لنهاية الحروب الأهلية ، وتنبأ بالوظيفة الأخروية للسلام المنبعث بنصر أوكتاف أوغسطس .

وفي الواقع ، ان حكم أوغسطس يميز نهضة خلاقة للدين الروماني التقليدي[٤] . وحسب سويتون suétone [اوغـ ٩٠ـ ٩٢] ، فإن اوغسطس تصرف كروماني حقيقي سلفي ، آخذا في الحسبان أحلاماً وتعليمات اخرى ، وآخذا بعين الاعتبار مظاهر الآلهة ، مطبقاً التقوى pietas تجاه الآلهة والبشرية . «وان هذا التدين وليس اللاهوت المتكبر ، هو الذي أملى دوما الأعمال الحاسمة للامبراطور . .

فبالتقوى والتدين ، أعيد بوعي اخذ وتجديد الوضعية الدينية والمثل العليا للماضي الروماني»[٥] . ان اوغسطس قرر احياء المعابد المدمرة، واشاد عدداً من المعابد الجديدة ، واعاد اقامة تكاليف اكليروسية بقيت شاغرة منذ وقت طويل ، واعاد احياء هيئات محترمة» . . ولم يشك المعاصرون برسمية التغيير . «مجيء العهد الجديد» احتفل به في اغاني الشعراء كما ايضاً في المظاهرات العامة . وان الأعمال الفنية كعصر اوغسطس تظهر بطريقة مشرقة التجدد لتجربة الفكر الديني .

ان التاريخ مثقل بانكار «العصر الذهبي» منذ موت اوغسطس وعاود الرومان العيش في انتظار كارثة وشيكة الوقوع . ولكن عصر اوغسطس بقي النموذج المثالي بالنسبة لحضارة الغرب المسيحي . وماهو اكثر من ذلك ، ان فرجيل ، وفي جزء شيشرون ، استلهما لاهوت الأدب ، وبصورة عامة ، لاهوت الثقافة المميزة للقرون الوسطى والتي استمرت في عصر النهضة . .

٢٢٦ ـ المحن والمصائب لديانة غير مشروعة

بعد موت يوليوس قيصر، جرى اعلانه الها بين الآلهة ، وفي ٢٩ ق.م كرس له معبد في الفوروم . وقد كان الرومان أظهر والتأليه بعد الموت لكبار الرؤساء ، ولكنهم كانوا يرفضون تأليههم اثناء حياتهم[٦] . وكان اغسطس قبل التكريمات الالهية في المقاطعات فقط ، أما في روما فكان ابن الاله فقط .

إن التأليه للأباطرة «الخيّرين» ، ومن هنا تعمم تنظيم العبادة الامبراطورية بعد اغسطس[٧] . ولكن تيبر لم يؤله لأن كاليجولا أهمل تقديم الطلب امام مجلس السينا ، وأما بالنسبة لكاليجولا ، فقد كان همه أن يتأله قبل موته ، ولكن ذكراه ادينت من قبيل الشيوخ sénateurs . وقد عرف كلوديوس ، وفيسباسيان وتيتوس التأليه ، ولكن جالبا وأوثون ونيثيليوس لم ينالوه ولم يكونوا يستحقونه وكذلك دوميثيان عدو مجلس الاعيان (السينا) . وما أن ضمنت آلية التوارث ، حتى ان كل اباطرة القرن الثاني تألهوا ؛ الأمر الذي لم يحصل في القرن الثالث ، عندما تتابع الاباطرة بسرعة فائقة[٨] .

وبدءاً من القرن الثاني ، كان رفض الاحتفال بالعبادة الامبراطورية القضية الأساسية لاضطهادات المسيحيين . ففي البدء ، باستثناء المذبحة المنظمة من قبل نيرون، فإن الاجراءات ضدالمسيحيين شجعت خاصةبمعادات الرأي العام . وخلال القرنين الأولين ، اعتبرت المسيحية دينا غير شرعي ، وكان المسيحيون يضطهدون لأنهم مارسوا دينا سريا بدون ترخيص رسمي . وفي ٢٠٢ اصدر سيبتيم سيفر القرار الأول ضد المسيحيين مانعاً التبشير . وبعد قليل من الوقت هاجم ماكسيمين التراتبية الكنسية وانما بدون نجاح . وحتى حكم ديسيوس تطورت الكنيسة بسلام . ولكن في ٢٥٠ اصدر ديسيوس قراراً يلزم كافة المواطنين بتقديم الاضاحي لآلهة الامبراطورية .

لقد كان الاضطهاد لمدة قصيرة ولكنه كان قاسيا جداً . وهذا ما يفسر العدد الكبير من الردات . ومع ذلك ، فإن الكنيسة خرجت ظافرة من المحنة بفضل شهدائها والمؤمنين بها . ان الضغط المقرر من قبل فاليريان في ٢٥٧ ـ ٢٥٨ تبعته فترة طويلة من السلام (٣٠٣ ـ ٣٦٠) . وقد نجحت المسيحية بالتسرب الى أي مكان في الامبراطورية وفي كل الطبقات الاجتماعية (حتى في عائلة الامبراطور) . .

ان آخر اضطهاد هو اضطهاد ديوكليسيان (٣٠٣ ـ ٣٠٥) الأطول مدة والأكثر دموية . وبالرغم من الحالة المأساوية للامبراطورية ، فإن الرأي العام ظهر ، هذه المرة ، أقل كراهية تجاه المسيحيين . وعليه فإن ديكلوسيان اتخذ قراره بابادة هذا الدين الدخيل وضد القومية . وفعلا من أجل تقوية فكرة الامبراطورية ، اراد اعادة احياء التقاليد الدينية الرومانية القديمة وبخاصة ، تمجيد الصورة شبه الالهية للامبراطور . ولكن تراث اصلاح اوغسطس كان بالتدريج قد تفتت . وأخذت العبادات المصرية وآسيا الوسطى تتمتع بشعبية مذهلة ، واستفادت اضافة لذلك من الحماية الامبراطورية . فكومود (١٨٥ـ ١٩٢) تلقن في اسرار ايزيس وميترا وكاراكلا (٢١٢ ـ ٢١٧) شجع عبادة الاله الشمسي السوري ، solinvictus . وبعد بضع سنوات ، ادخل الامبراطور السوري ايلاجابال Elagabal ، الذي هو نفسه كاهن الاله ايميز Dieu d'Eemès ، عبادته إلى روما . وقد اغتيل ايلاجابال في

٢٢٢ وابعد الاله السوري من المدينة . مع ذلك وكما سنرى فإن اورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) نجح في ادخال عبادة الشمس . فقد عرف اورليان انه من العبث تمجيد الماضي الديني لروما فقط الأمر الذي أوجب اضافة الى ذلك ادخال السنة الرومانية المحترمة في لاهوت شمسي من بنية وحدانية ، وهو الدين الوحيد الذي كان على أهبة لأن يصبح عالميا . وقبل الاضطهادات الكبرى في اواخر القرن الثاني حاول العديد من اللاهوتيين والمنافحين عن المسيحية التبرير والدفاع عن دينهم الجديد تجاه السلطات والانتلجنسيا الوثنية . ولكن مشروعهم تعرض للسقوط . وبسذاجة وطيش هاجم بعض المنافحين عن العقيدة عبادة الأصنام والثقافة الهللنستية (تاثيان ، تيرتوليان) ، والأكثر أهمية هو ان جوستان (استشهد حوالي ١٦٥) أجهد نفسه للبرهان على ان المسيحية لا تحتقر الثقافة الوثنية ، وقد مدح الفلسفة اليونانية ، ولكنه ذكر بأنها تستلهم الكشف التوراتي . وبأخذ جوستان لأدلته من اليهودية الاسكندرية ، أكد بأن افلاطون والفلاسفة الآخرين اليونان عرفوا المذهب المعلن ، منذ زمن طويل قبلهم ، من قبل (النبي) موسى . هذا ومن جهة اخرى فإن خيبة المنافحين عن الدين المسيحي كانت متوقعة ، فبالنسبة للسلطات ، لم تصبح المسيحية مدانة بالالحاد والقدح في الذات الملكية فحسب ، ولكنها كانت متهمة بكل انواع الجرائم ، بالتهتك ، وبنكاح المحارم ، وبقتل الاطفال ، وأكل لحم البشر . وبالنسبة للنخبة الوثنية ، فإن ماهو جوهري من اللاهوت المسيحي - تجسد المنقذ وآلام وقيامته - كان بكل بساطة غير معقول . على كل حال ، فإن العناد التعصبي لهذا الدين الجديد «للخلاص» جعل من الوهم الأمل بتواجد سلمي مع الأديان ذات الآلهة المتعددة .

وبالنسبة للبعثة المسيحية ، فإن الاضطهادات كانت تشكل الخطر الأكبر ؛ ولكن هذا لم يكن الخطر الوحيد المهدد للكنيسة . إن اسرار ايزيس وميترا ، وعقيدة الشمس ، والتوحيد الشمسي ، كلها كانت تمثل منافسة عنيدة ، لاسيما وانها كانت تستفيد من الحماية الرسمية لها . واضافة لذلك ، فإن خطراً اكثر دقة كان يهدد الكنيسة من الداخل ، مختلف الهرطقات ، وفي المكان الأول منها الغنوصية . إن الهرطقات والغنوصيات ظهرتا منذ بداية المسيحية . وبغياب القانون ، فإن الوسيلة

الوحيدة لتأكيد رسمية المعتقدات والممارسات الشعائرية كانت السنة الرسولية . وحوالي السنة ١٥٠ ، كان جميع الأحبار قد ماتوا ، ولكن الانتقال لشهادتهم كان قد ضُمِنَ بعدد من النصوص التي كانوا حبروها أو أوحوا بها والتقليد الشفهي .

مع ذلك ، فإن الطريقين للسنة الرسولية ـ شفاهية وكتابية ـ كانا قابلين لجني تجديدات غامضة قليلاً أو كثيراً . فإلى جانب الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل المقبولة من كل جماعات المسيحيين[٩] . هنالك نصوص أخرى كانت تدور حول اسماء الرسل : انجيل توما ، انجيل الحقيقة ، انجيل متى المزور . اعمال بطرس ويوحنا الخ . واكثرية هذه الكتب موصوفة بأنها مزورة (لأنها تحتوي على كشوفات بقيت حتى ذلك الحين «مخبأة» ومتضمنة لعلاقات بمذهب باطني ، واحل للرسل عن طريق المسيح المبعوث ومتعلق بمعنى سري لأحداث حياته . وإلى هذا التعليم السري ، المحفوظ والمنقول بالتقليد الشفاهي ، استندت الغنوصيات .

٢٢٧ ـ المعرفة الربانية المسيحية (الغنوصية المسيحية)

إن مشكلة الباطنية ، وانطلاقاً من المسارة سيثير مالايحصى من المتناقضات ، وبخاصة في البدء اثناء الأزمة المتفجرة بالغنوصية . فأمام الادعاءات الشاذة لبعض الكتاب الغنوصيين ، أنكر آباء الكنيسة ويتبعهم فيما بعد معظم المؤرخين ، انكروا وجود تعليم باطني ممارس من قبل يسوع ومستمر من قبل تلامذته . ولكن هذا الرأي قد نوقض بالوقائع . فالباطنية وبعبارات أخرى التحول التلقيني للمذاهب والممارسات المحتفظ بها لعدد ضيق من المؤيدين تأكد في كل الأديان الكبرى في العصر الهللنستي والمحيطةبالعهد المسيحي . وعلى درجات مختلفةيوجد السيناريو التلقيني «تعليم وشعائر سرية ، فصل أو عزل المؤمنين ، اليمين على السكوت أو الصمت الخ . . .» ففي اليهودية المعيارية وفي المذاهب اليهودية ، ولدى الاسينيين (على سبيل المثال التنظيم المختصر) [٩ ـ ٧١ ـ ١٣ ـ ٢٣] ولدى السامارتيين والفارسيين[١٠] .

وان الممارسة لبعض التعليم الباطني مذكور كذلك في انجيل مرقص «فلما اعتزل الجمع سأله الذين حوله مع الاثني عشر عن الأمثال ـ فقال لهم : «انتم اعطيتم سر ملكوت الله وأما سائر الناس فكل شيء يلقى إليهم بالأمثال» [مرقص ٤: ١٠ ٧: ١٧ ١٠-١٠] ومنذ بدايات الكنيسة يميز داخل الجماعة ثلاث درجات ، والتي يفترض انها التدريب التكريسي : «المبتدئون والمتقدمون والتامون . وحسب اوريجين origéne «ان الانجيليين حافظوا على ستر التفسير الذي كان اعطاه لهم يسوع عن اغلبية الأمثال [٢-١٦] واكثر وضوحاً هو كليمنت الاسكندري فقد دعا معلميه الذين حافظوا على «السنة الحقيقية للتعاليم المباركة الصادرة مباشرة عن الرسل المقدسين بطرس ، يعقوب ، يوحنا وبولس ، المنقولة عن الأب للابن والتي وصلت الينا بفضل الله» [ستروماث ١-١-١١١-٣٠] .

والمقصود بذلك تعليمات محجوزة لعدد من المؤمنين ، المنقولة شفاها [١٣-٢] ويتوجب لها ان تبقى سرية ، وهذه التعليمات تشكل التقليد الغنوصي [١٥-٢] وفي كتاب آخر يؤكد كليمنت «لجاك العالي ، وليوحنا ولبطرس أن الاله بعد قيامته اعطى العرفان الرباني (غنوص) وان هؤلاء اعطوه للرسل ، والرسل الأخرون اعطوه الى ٧٠ حيث ان برنابا كان واحدا منهم»[١١] .

ومن المستحيل التحديد بدقة للمعيار الذي كان قاد لانتخاب التلامذة الجديرين بالتلقين في المعرفة الربانية ، وبخاصة الظروف ومراحل التكريس . وان بعض التعليم من نموذج (باطني) كان معطى بالتسلسل لكل المؤمنين ، انه كان يحمل على رمزية التعميد ، وتناول القربان المقدس والصليب ، وعلى رؤساء الملائكة ، وعلى شرح الرؤيا . وفيما يتعلق بالأسرار المكشوفة ، الى المكتملين والى الذين هم على أهبة ان يصبحوا كذلك ، كان يرجع على الأرجح الى خفايا الهبوط والصعود للمسيح عبر السموات السبع المسكونة من قبل الملائكة [ايفيزيوس ٤ : ٩] والى الأخروية الفردية أي إلى التطواف الصوفي للروح بعد الموت . وعليه فإن هذا التطواف الصوفي متصل بـ le psevdo-Denys للتقليد الشفاهي للرسل . «وهكذا يظهر لنا وجود توالي للمعلمين الغنوصيين أو المعلمين الروحيين متميز عن توارث الاساقفة الذي نقلوا عقيدة الرسل [. . . .] ولكنهم اكملوا التقليد اللدني للازمنة

الرسولية وللرسل[١٢] - مع ذلك فإن التقاليد الباطنية للرسل تحدد باطنية يهودية متعلقة بسر الصعود للروح وأسرار عالم السماء . ولكن هذه المذاهب توجد كذلك لدى الماندبين . وماهو اكثر من ذلك ، انها مشابهة لبعض المفاهيم الأخروية المصرية (ف ٤٥٣ع) والايرانية . . وإلى جانب افكار ومعتقدات اخرى ، خلافاً للافكار والمعتقدات الموزعة بين المسيحية واليهودية ، نصادفها لدى عدد من الكتاب الغنوصيين ، والوثنيين وهراطقة المسيحية . ويعرف لماذا ابتداء من بعض الزمن اصبحت المعرفة الربانية والباطنية متهمتين بنظر السلطة الكنسية . ولقد امكن لبعض الغنوصيين مستندين لسنة رسولية شفهية وسرية ، ادخال نظريات في المسيحية .و ادخال ممارسات معارضة جذريا لمنطوق أو اخلاقية الانجيل . ولم تكن «الباطنية» و «الغنوصية» بصفتهما كذلك اللتان تكشف انهما خطرتين ، وانما «الهرطقيات» التي تدخلت تحت غطاء من «سر تلقيني» .

وبالتأكيد ، وبما انه لزمن طويل ايضاً ، لم تكن العقائد ولا «الكتاب» مثبتة ، كان يمكن ان يظهر متعسفا الوصف بالهرطيقية لبعض التفسيرات الجريئة لتعليم المسيح غير انه في عدد من الحالات كانت «الهرطقية» - أي التفسير المغلوط للرسالة الانجيلية - واضحة ، وعلى سبيل المثال ، عندما رفضت صحة العهد القديم واعتبر الاله - الأب كخالق شرير وبليد - كذلك الأمر ، عندما أدين العالم وعيبت الحياة بصفتها كابداعات صدفية أو شيطانية ، أو عندما انكر التجسد ، والموت والقيامة للابن . صحيح ان القديس بولس ، هو ايضا كان قد قدر هذا العالم المحكوم بالشيطان وان الرؤويين اليهود والمسيحيين كانوا تنبؤوا بالخراب الوشيك الوقوع للأرض ، ولكن لا القديس بولس ولاكتاب الرؤويا لم ينكروا الأصل الالهي للخلق .

٢٢٨ - مقاربات الغنوصية

من العسير التحقق بدقة من أصول التيار الروحي المعروف تحت اسم

(الغنوصية)* ولكن يجب تمييزه عن العديد من المعارف الربانية gnoses السابقة أو المعاصرة ، المشكلة جزءاً لا يتجزأ من مختلف ديانات العصر (الذرادشتية ، الأسرار ، اليهودية المسيحية ، المعـارف ، التي سنرى ، انها متضمنة تعليما باطنيا . ويضاف الى ذلك ان كافة القصص الميتولوجية والأخروية تقريباً التي وضعت موضع الاعمال من قبل الكتاب الغنوصيين هي سابقة للغنوصية بالمعنى الدقيق للكلمة strictosensu فبعضها تأكد في ايران القديمة وفي الهند من عصر الاوبانيشاد ، وفي الأورفية والأفلاطونية ، وبعضها الآخر يتميز بالتوفيقية من نوع هيللنستي ، واليهودية التوراتية ومابين العهدية ، او التعابير الأولى للمسيحية . ومع ذلك فإن مايحدد الغنوصية السابقة ليس هو التكامل العضوي قل أو كثر مع عدد من العناصر المتفرقة ، ولكن اعادة التفسير الجريء ، والشتائم بصورة خاصة ، لبعض الأساطير ، والأفكار والتيولوجات ذات الانتقال الواسع في ذلك العصر(١٣) .

إن صيغـة الغنوص الفـالنتيني* ، المنقـولـة من قبـل كليمنت الاسكندري ، تعلن بإمكانية الحصول على الخلاص بتعلم «ماذا كنا وماذا أصبحنا ؛ وأين كنا وأين ألقي بنا ؛ ونحو أي هدف نسير مسرعين إليه ، ومن أين تم استردادنا ؛ وماهي الولادة ، وماهو البعث» [مقتطفات من ثيودوت ٧٨ ـ ٢] . وخلافاً للأوبانيشاد ، وللسمكهيا ـ يوجا والبوذية ـ التي تتجنب بعناية الإطناب على العلة الأولى السقوط البشري ـ فإن المعرفة الغفرانية أو الفدائية المعلّمة من قبل الغنوصيين تتكون قبل كل شيء في «تاريخ سري» ، (وبدقة اكثر ، الباقي سراً

* في المعجم الفلسفي للدكتور صليبا جزء ٢ ص ٧٢: ان الغنوصية يطلق على المذهب الذي انتشر في القرنين الثاني والثالث للميلاد وامتد بطريق الافلاطونية الحديثة الى فلاسفة الاسلام وخلاصته ان العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الالهية ، وان الحقيقة واحدة وان اختلف تعليمها وان الموجودات فاضت عن الواحد ولها مراتب مختلفة اعلاها مرتبة العقول المفارقة وادناها مرتبة المادة التي هي مقر الشر والعدم ، اما لنفس التي هبطت إلى هذا العالم فإنه لا خلاص لها الا بالمعرفة بل الخلاص بالمعرفة افضل من الخلاص بالايمان والأعمال الصالحة وهي انواع . . كما ذكرها . . المرجع . . المذكور .

* نسبة لفالنتين (محبوب تختاره الفتاة في عيد القديس فالنتين ويتوجب عليه ان يقدم لها هدايا .

بالنسبة لغير المتلقين) : أصل وخلق العالم ، أصل الشر ، مأساة الفادي الهابط على الأرض بهدف انقاذ البشرية ، والانتصار النهائي للاله المتصاعد ، انتصار سيترجم بنتيجة التاريخ وبزوال الكون . انه يتعلق باسطورة كلية : يقرر كل الأحداث الحاسمة ، منذ أصل العالم حتى الوقت الحاضر ، ومبرهنا على استقلاليتها ، ويضمن مصداقية الآخرة ، وان هذه الاسطورة الشاملة معروفة لدينا في العديد من النصوص . وسنذكر بعضها فيما بعد ، مؤكدين بصورة خاصة على اكثرها عظمة ، تلك التي انشئت من قبل ماني (ف ٢٣٣ع) .

وللعودة إلى الصيغة الفالنتينية ، فإن الغنوصي يتعلم ان كينونته الصحيحة (كينونته الروحية) هي من أصل وطبيعة الهيتين ، مع انه ، حاليا ، يوجد اسيراً في الجسد ؛ انه يتعلم كذلك بأنه كان يسكن منطقة متصاعدة ، إلا أنه فيما بعد ، طرح في هذا العالم السفلي ، وانه يتقدم بسرعة نحو الخلاص وسينتهي بأن يتحرر من سجنه الجسدي ، وهو يكتشف أخيراً ، في حين أن ولادته كانت تعادل سقوطاً في المادة ، فإن عودة ولادته ستكون من نظام روحي صرف . ونعيد ذكر الافكار الرئيسية : الثنائية روح/مادة الهي (متصاعد)/لا الهي ، واسطورة هبوط الروح (=روح ، جزيء إلهي) ، أي التجسد في جسم (ممثلا بسجن) ؛ واليقين بالخلاص («السلامة») المتحصلة بفضل الغنوص la gnose .

وللوهلة الأولى ، سيقال إن هنالك صلة بتطور لاحد له ، ضد - كوني ، ومتشائم ، وثنائية اورفية - افلاطونية[١٤] . وفي الحقيقة ، ان الظاهرة هي اكثر تعقيداً . ان المأساة البشرية - بخاصة السقوط والفداء - تعكس المأساة الالهية . فالإله أرسل في العالم كائنا أوليا ، او ابنه الخاص ، من اجل انقاذ البشر . هذا الكائن المتصاعد يتحمل كافة النتائج المهينة للتجسد ولكنه ينجح بالكشف لبعض المختارين عن العرفان (الغنوص) الحقيقي المنقذ قبل ان يرجع نهائيا الى السماء . إن بعض المفارقات تسهب في اتجاه اكثر مأساوية نزول الإبن او الكائن المتصاعد : ان هذا مأسوراً بالقوى الشيطانية و ، مخبولاً بالانغماس في المادة ، ينسى هويته الخاصة . فيرسل الاله عندئذ رسولاً ، و «بإيقاظه» له يساعده على استرداد وعيه الذاتي . (تلك هي اسطورة «المنقِذ - المنقَذ sauveur-sauvé» . المروية ببراعة في

نشيد الجوهرة ؛ رف ٢٣٠ ع) .

وبالرغم من بعض الموازيات الايرانية ، فإن النموذج المباشر للمنقذ الرسول من قبل الاله هو بكل وضوح يسوع المسيح . إن النصوص المكتشفة في عام ١٩٤٥ في نجع حمادي ، وفي مصر العليا تبرهن عن الأصل اليهودي ـ المسيحي لبعض المدارس الغنوصية العامة[١٥] . ومع ذلك فإن لاهوتياتها واخلاقياتها مختلفة جذريا عن تلك التي علّمت من قبل اليهودية والمسيحية . بدئيا ، بالنسبة للغنوصيين ، ان الاله الحقيقي ليس الاله الخالق ، أي يهوه . لأن الخلق هو عمل قوى أدنى ، بل شيطانية ؛ أو ايضاً ، ان الكوزموس هو التشويه الشيطاني قل أو كثر لعالم أعلى ـ مفاهيم غير ممكنة الادراك بالنسبة لليهودية كذلك بالنسبة للمسيحيين . وبالتأكيد ، ان نشأة الكون ، في الوثنية المتأخرة ، اضاعت كل دلالتها الدينية الايجابية . ولكن الغنوصيات تذهب ايضاً بعيداً اكثر. فليس فقط ان خلق العالم هو غير دليل لكلية القدرة للاله ، انه يفسر بحادث متحصل في المناطق العليا ، أو كنتيجة للغزوة البدئية للظلمات ضد النور (ر. الاسطورة المانئية ف ٢٣٣ ع) . اما بالنسبة للوجود المجسد بعيداً عن ان يحاط في «تاريخ مقدس» كما فكر به المسيحيون واليهود ، فهو يقرر ويوضح هبوط الروح . وبالنسبة للغنوصي ، فإن الهدف الوحيد الجدير بالاتباع هو الانعتاق من هذه القطعة الصغيرة الالهية والصعود نحو الاقطار السماوية .

ولقد رأينا (ف ١٨١ع) ان سقوط الانسان ، أي تجسد الروح ، كان قد شغل فيما سلف اللاهوتيين الأورفيين والفيثاغوريين : لقد فسرت ، إما كعقاب عن إثم ارتكب في السماء ، وإما كنتيجة لاختيار مؤلم مصنوع من قبل الروح ذاتها . وفي القرون الأولى للمسيحية انتشرت هاتانالاسطورتان وتحورتا من قبل عدد من الكتاب الغنوصيين وغيرهم[١٦] .

فطالما ان العالم هو النتيجة لحادث عرضي أو كارثة ، وبما انه محكوم بالجهل ومدار بقوة الشر ، فإن الغنوصي يتكشف بكليته مغتربا بثقافته الخاصة ويطرح كل المعايير والمؤسسات ، والحرية الداخلية المتحصلة بالعرفان تسمح له بالتصرف

بحرية من ذاته والعمل على هواه . إن الغنوصي يشكل جزءاً من نخبة ، نتيجة اختيار مقرر بالروح . انه ينتمي لطبقة «الروحيين» ـ المكتملين «أبناء الملوك» ـ الوحيدين الذين سينقذون(١٧) . وتماما مثل الريش les richis ، والسانيازي les sannyasi واليوجيين ، فإن الغنوصي يشعر بنفسه متحرراً من القوانين التي تحكم المجتمع : إنه ينتمي لما وراء الخير والشر ، ولأجل متابعة المقارنة مع الأعمال الهندية ، والتقنيات الجنسية والشعائر التهتكية للمدارس التانتارية «لليد اليسرى» [ر. الفصل ٣٨ جزء٣] ، تقابل التهتكات للمذاهب الغنوصية المتحررة (في المقام الأول منها الفيبيونيست les phibionistes)(١٨) .

٢٢٩ ـ من سمعان الساحر الى فالنتين

ان المدافعين عن الكنيسة المسيحية يرون في سيمون الساحر أول هرطقي والسلف لكل الهرطقات . وحسب بعض المؤرخين ، فإن سمعان ليس غنوصيا بالمعنى الضيق للكلمة وانما أصبح تلامذته كذلك بعد كارثة الـ ٧٠ ـ ١٩ . وقد اصطدم الرسول بطرس بالحركة السمعانية في ساماري ، حيث أعلن سمعان نفسه «قوة الرب الذي أسمي كبيراً»(٢٠). وفي الواقع ، لقد عبد كأنه «الاله الأول» ، وان رفيقته «هيلين» المكتشفة من قبل سمعان في ماخور ، وفي صور ، كانت معتبرة كآخر وأحط تجسد «لفكر» الاله (ايناوا Ennoia) ؛ وقد أصبحت هيلين ـ ايناوا بعد شرائها من قبل سيمون وسيلة الغفران العالمي . ان سمعان الساحر يهم مؤرخ الاديان خاصة بالنسبة لتمجيد هيلين وبالنسبة للميتولوجيا التي أوحتها. ان اتحاد «الساحر» والعاهرة يضمن السلامة الشاملة ، لأن هذا القران ، هو في الحقيقة ، اجتماع الاله والحكمة الالهية .

إن ذكرى هذا الزوج المتنافر اثار على وجه الاحتمال اسطورة فاوست المثال النموذجي للساحر . وفي الواقع كان سمعان معروفاً في روما كفوستوس Faystus («المفضل») ورفيقته كانت ، في وجود سابق ، هيلين طروادة . الا انه ، في

القروون الأولى من العصر المسيحي ، اثيرت بخاصة المواجهة القصوى بين الرسول بطرس والساحر . وحسب الاسطورة ، فإن سيمون أعلن في روما ، صعوده للسماء أمام جمهور معتبر من المشاهدين ، غير ان الصلاة التي تلاها الرسول جعلته يسقط بحالة مؤلمة .

ومثال مارسيون marrcion هو تعليمي لعدة اسباب ، لقد ولد حوالي ٨٥، في الجسر le pont ابنا للأسقف دي سينوب ، وحافظ في قسم كبير على الممارسات الارثوذكسية . الا انه طور لحد الافراط معاداة ـ اليهودية البولسية . وقد رفض مارسيون العهد القديم وأقام قانونه الخاص ، راجعاً لأنجيل لوقا وإلى الرسائل العشرة لبولس . وأضاف اليها موجزا المتضادات les Antithèses التي قدم فيها مبادىء لاهوته . وفي روما ، حوالي ١٤٤ حاول مارسيون عبثاً الحصول على خضوع الكهنوتيين . وباعتبار انه قد فصل ، فقد أقام مذهبه في اتجاه راديكالي دوما وأسس كنيسة حقيقية . وكمنظم بارع ، نجح في اقناع عدد كبير من جماعات مسيحية في حوض المتوسط . وهذه التيولوجيا الجديدة نجحت نجاحاً بارزاً ، ولهذا فقد هوجمت بلا كلل من قبل الكتاب الارثوذكس . الا انه ، منذ منتصف القرن الثالث ، أخذت المارسيونية بالانحدار وانتهت في الغرب ، بأقل من سنة .

إن مارسيون يشارك في الجوهري من الثنائية الغنوصية ، بدون ادخال التطبيقات الرؤوية . ونظامه الثنائي يعارض الشريعة والعدالة المقامتين من قبل الاله الخالق للعهد القديم ، وبالحب وبالانجيل المكشوفين من قبل الاله الخير ، ارسل هذا الاله ابنه يسوع المسيح لكي ينقذ البشر من عبودية الشريعة . فيسوع اتخذ جسداً مؤهلا ، لأن يشعر ويتألم ، مع انه ليس مادياً وفي تبشيره يمجد المسيح الرب الكريم ، الا انه يتحفظ بأن يحدد بدقة ان ليس المقصود اله العهد القديم . ومن جهة أخرى فإن يهوه بتبشير يسوع علم بوجود اله متصاعد . وقد ثار بتسليم يسوع الى مضطهديه . ولكن الموت على الصليب يحمل السلامة ، لأن يسوع بتضحيته افتدى البشرية من اله خالق . مع ذلك ، استمر العالم ليكون تحت سيادة يهوه وسيبقى المؤمنون مضطهدين حتى نهاية الأزمنة . وليس الا عندئذ سيعرف الاله الكريم : سيتلقى المؤمنين في ملكوته ، بينما ان الباقين من البشر ، شأنهم شأن

المادة والخالق ، سيصبحون فانين نهائياً .

وهنالك ساماريتاني آخر ، ميناندر ménandre أدخل الغنوصية لانطاكية وقد مثل نفسه وكأنه الفادي الهابطمن السماء لانقاذ البشرية . وسيصبح الذين عمدوه أسمى من الملائكة . وخليفته ، ساتورنيل (الناشط في انطاكية مابين ١٠٠ و ١٣٠ تقريبا) ؛ عارض الرب المستتر برب اليهود ، الرئيس البسيط للملائكة الخالقة . لقد أدان الزواج ، المعتبر عمل الشيطان [ايرينيد ١ ـ ٢٤ ـ ٢] . ولاهوته محكوم بالثنائية ، وحسب ايرينيه ، كان ساتورنيل أول من تكلم عن صنفين من البشر ، اولئك الذين يشاركون وأولئك الذين لايشاركون بالنور السماوي .

وسيرانث cérinthe يهودي ـ مسيحي معاصر ليوحنا [ايرينيه ٣ ـ ٣ ـ ٤] يعلم ان العالم قد خلق من قبل خالق يجهل الاله الحقيقي : وهذه هي العبارة الأولى للغنوصية القديمة بالمعنى الضيق للكلمة . وحسب سيرانث ، ان يسوع هو ابن يوسف ومريم ؛ وبتعميده ، نزل عليه المسيح بشكل حمامة وكشف له الأب المجهول، ثم انه قبل الآلام عاود الصعود لقرب الاله الآب [ايرينيه ١ ـ ٢٨] .

والغنوصية اليهود ـ المسيحية المنتشرة في آسيا وسورية دخلت كذلك في مصر . وقد أقام سيرانث في الاسكندرية ، حيث انه حوالي عام ١٢٠ ، أعلن كاربوكرات مذهباً مشابهاً : يسوع هو ابن يوسف ، ولكن «قوة» قدسته [ايرينيه ١ـ٢٣٢] . والذي يتلقى قوة يصبح المساوي ليسوع وهو مؤهل لاكمال ذات المعجزات . وثمة خط مميز لغنوص كاربوكرات هو لاأخلاقيته الراديكالية ، «التي تبدو انها رفعت من التمرد الغنوصي ليس ضد الاله اليهودي فحسب ، وانما ضد الشريعة»[٢١] . وبازيليد ، اسكندراني آخر معاصر لكاربورات ، يعطي التركيب الأول للمذاهب المعلّمة من قبل تلامذة سمعان الساحر . لقد نشر «كوزمولوجيا»علم كون من نوع غنوصي واسع ومعقد ، معدداً بطريقة استعراضية السماوات والملائكة التي تحكمها : يعدد منها ٣٦٥[٢٢] ويرفض بازيليد الشريعة اليهودية بالكلية : فيهوه ليس سوى واحد من الملائكة الخلاقة للعالم ، مع انه يجهد نفسه للسيادة عليها ولاخضاعها جميعاً .

وبلا ريب ان المعلم الغنوصي الأكبر أهمية هو فالنتين ، الذي يظهر بين كبار اللاهوتيين ونساك عصره. وقد ولد في مصر وتعلم في الاسكندرية ، وعلم في روما مابين ١٣٥ ـ ١٦٠ . ولكن وكما أنه لم ينجح في الحصول على وظيفة اسقف ، فقد انفصل عن الكنيسة وترك المدينة[٢٣] . وفي اقامته لنظامه العظيم ، تعرض فالنتين لتفسير وجود الشر وسقوط الروح ، ليس في منظور ثنائي ـ بتدخل خصم للاله ـ وإنما بمأساة حصلت داخل الالوهية ذاتها . إن أية خلاصة لا تنصف جمال وجرأة التركيب الفالنتيني . ولكن خلاصة لها مع ذلك الميزة لابعاد مالايحصى من سلاسل النسب «فيوضات» و«اسقاطات» مثاره برتابة مؤثـرة بهدف تفسير الأصل وراواية المأساة لكل الحقائق الكونية ، الحيوية ، والنفسية والروحية[٢٤] .

وحسب فالنتين ، إن الآب أول مبدأ مطلق ، ومتصاعد وهو غير مرئي وغير ممكن فهمه ، إنه يتحد بقرينته الفكرة (Ennoia) ويولد الأزواج الخمسة عشرة للايون eons (فترات من الدهر) التي ، بتجمعها ، تشكـل البليروم pleirome[٢٥] . وان آخر الايونات صوفيا sophia العمياء برغبتها لمعرفة الآب ، تثير ازمة على اثرها يظهر الشر وتظهر الآلام . وان صوفيا والخلائق الضالّة التي وقتتها المترسبة من البليروم تنتج حكمة دنيا . في الأعلى ، خلق زوج جديد ، المسيح وشريكته المؤنثة ، روح القدس . وأخيراً ، معاوداً الحياة في كمالها الاساسي» يولد البليروم المنقذ ، المسمى كذلك يسوع . وبنزوله في الأقاليم الدنيا ، يؤلف المنقذ «المادة الغير مرئية» مع العناصر المادية الآتية من الحكمة الدنيا ، ومع العناصر النفسية ، انه يشكل الخالق ، اي ـ رب التكوين . وهذا يجهل وجود عالم أعلى ويعتبر نفسه الاله الوحيد . انه يخلق العالم المادي ، ويؤلف صنفين من البشر ، باحيائهما من نفخته ، «المادين» و«النفسيين» . ولكن العناصر الروحية ، الآتية من الصوفيا العليا ، تدخل بلا علمه في نفخة الخالق وتولد طبقات «الانسام الغازية»[٢٦] . وبهدف انقاذ اتباعه الروحيين الأسرى في المادة ، نزل المسيح على الأرض ، وبدون ان يتجسد في المعنى الأصلي للعبارة ، كشف المعرفة المحرِّرة . وهكذا فإن الانسام الغازية المتيقظة بالغنوص ، هي وحدها فقط ، تعاود الصعود نحو الآب .

وكما يلاحظ هانزجوناس ، في منهج فالنتين ، ان للمادة أصل روحاني ويفسر بالتاريخ الالهي . وعليه ، فإن المادة هي حالة أو «محبة» من الكائن المطلق ، وبدقة اكثر ، «التعبير الخارجي المتماسك» لهذه الحالة ، والجهالة («عمى» صوفيا) هو العلة الأولى لوجود العالم[٢٧] ـ وهذه فكرة تعيد الى الذاكرة المفاهيم الهندية (المتشاركة بعدد من المدارس فيدانتا وبالسمكها ـ يوجا» . وتماما كما في الهند ، فإن الجهالة والمعرفة تميزان نوعين من الانطولوجيا (معرفة الكائن) . إن المعرفة تشكل الشرط الأصولي للمطلق ؛ والجهالة هي النتيجة للبلبلة الحاصلة داخل هذا المطلق نفسه . ولكن السلامة المتحصلة بالمعرفة تعادل حادثا كونيا . وإن الغفران لآخر «نسمة غازية» سيكون مترافقا بدمار العالم .

٢٣٠ ـ اساطير واستعارات غنوصية

إن فقدان الذاكرة (وبعبارة اخرى نسيان هويته الخاصة) والرقاد ، والسكر ، والخبل ، والأسر ، والسقوط والحنين للوطن جميعها تصنف بين الرموز والصور الغنوصية المميزة مع إنها ليست من ابداع معلمي العرفان (الغنوص) . وبالعودة صوب المادة وبالرغبة لمعرفة ملذات الجسد ، تنسى الروح هويتها الخاصة . «إنها تنسى اقامتها الأصلية ، ومركزها الحقيقي ، وكينونتها الخالدة»[٢٨] . إن الحضور الأكثر مأساوية وإثارة لاسطورة عنوصية عن فقدان الذاكرة وسوابق المريض توجد في نشيد الجوهرة المحفوظة في أعمال توماس . يصل أمير من الشرق ليفتش في مصر عن «الجوهرة الوحيدة التي توجد وسط البحر محاطة بأفعى ذات صفير طنان . وفي مصر يؤسر الأمير من قبل رجال البلاد ، الذين يعطونه مايأكله من أطعمتهم ، وينسيى الأمير هويته . «لقد نسيت انني كنت ابن ملك وخدمت ملكهم ونسيت الجوهرة التي من أجلها ارسلني أهلي ، ومن ثقل طعامهم نمت نوماً عميقاً» . إلا أن أهل الأمير يعرفون ماحصل له فكتبوا له رسالة «استيقظ ـ وقم انت من رقادك ، واصغ الى كلمات رسالتنا ، تذكر انك ابن الملك . انظر في أية عبودية سقطت ، تذكر الجوهرة التي من أجلها ارسلت الى مصر» . وطارت الرسالة كنسر ، ونزلت عليه وأصبحت كلاماً «على صوتها وعلى حفيفها ، تيقظت وخرجت من رقادي .

لقد جمعتها ، وعانقتها . وكسرت ختمها وقرأتها [. . . .] . لقد تذكرت انني كنت ابنا لأقارب الملوك [. . . .] وتذكرت عن الجوهرة التي من أجلها ارسلت الى مصر وأخذت أعمل لرقي الحية ذات الصفير الطنان . لقدجعلتها تنام برقيها ، ثم عزمت عليها باسم والدي وحملت الجوهرة وأوجبت على نفسي العودة لمنزل والدي[٢٩] .

وهذه الأسطورة هي اسطورة «منقِذ منقَذ» salvator salvatus في ترجمتها الأكثر نجاحاً . ونضيف لذلك انه من أجل كل باعث اسطوري نجد موازيات في مختلف النصوص الغنوصية[٣٠] . إن دلالات الصور سهلة الفهم ، فالبحر كذلك مصر هما الرمز العام للعالم المادي التي سقطت فيه روح الانسان اسيرة ، والمنقذ مبعوث من أجل تحريرها . وبالنزول من الأقاليم السماوية يترك البطل «ثوب انتصاره» ويلبس «الثوب القذر» لكي لا يتميز عن سكان البلاد ؛ وهذا هو (الغلاف الجسدي الشهواني) ؛ لحسد الذي يتجسد فيه والى فترة ما خلال صعوده يستقبل بثوبه الفخم من النور «مشابها له ذاته» ويعرف ان هذا القرين هو ذاته الحقيقة . ان اللقاء مع قرينه المتصاعد يذكر بالمفهوم الايراني للصورة السماوية للروح (داينا) التي تواجه المتوفي في ثالث يوم بعد وفاته . (انظر الجزء ١). وكما لاحظ جوناس فإن اكتشاف هذا المبدأ المتصاعد داخل الذات نفسها يشكل العنصر المركزي للديانة الغنوصية[٣١].

إن نغمة فقدان الذاكرة المثارة بانغماس في الحياة = (المادة) والسوابق المرضية المتحصلة بالحركات والأغاني أو كلمات مبعوث ، تصادف كذلك في الفولكلور الديني لهند القرون الوسطى . وان واحدة من الأساطير الأكثر شعبية تحكي قصة فقدان الذاكرة لما ستيندراناث . فهذا المعلم اليوجي يهيم بملكة ويستقر في قصرها ، ناسيا هويته تماماً ، أو حسب رواية اخرى ، سقط سجين نساء في بلاد (الكادالي) . وان تلميذه غوراكناث الذي علم بأسر معلمه ، يمثل امامه ، تحت شكل راقصة ، ويبدأ بالرقص مع الغناء لأغاني (ذات الغاز) وشيئاً فشيئاً يتذكر ما تسيند رانات هويته الحقيقية . إنه يعرف ان الطريق الشهواني يقود الى

الموت ، وان نسيانه كان في اساسه نسيان لطبيعته الحقيقية والخالدة ، وان مفاتن كادالي تمثل سرابات الحياة الدنسة . ويشرح له غوراكناث ان الربة دوريا هي التي حرضت النسيان الذي كاد ان يكلفه الخلود ويضيف غوراكناث ، ان هذا السحر يرمز للعنة الخالدة الجهالة الملقاة من «الطبيعة» على الكائن البشري[٣٢] .

ان اصول هذه النغمة الفولكلورية ترجع الى عصر الاوبانيشاد . ويذكر في هذا الصدد الخرافية الحكمية للشاندوجيا اوبانيشاد (الانسان المأسور من قبل اللصوص والمبعد بعيداً عن مدينته وعيناه معصوبتان) وتفسير السمكارا : اللصوص والعصابة على العينين تمثل الجهل والضلال ، وان الذي يرفع العصابة عن العينين هو المعلم الذي يكشف له المعرفة الحقيقية ؛ ومنزله الذي نجح في اكتسابه يرمز لأتمانه ، لذاته ، المماثلة لكائن مطلق . . (. . ماسبق ذكره حول هذا) . وتمثل السمكهيا ـ يوجا وضعاً مماثلاً : فالذات (بيروشا) هي بامتياز «غريب» وليس له شيء ليفعله مع العالم (براكرتي) . وتماما كما هو بالنسبة للغنوصيين ، فإن الذات (بيروشا) معزولة لا مبالية مجرد مشاهد بسيط غير فاعل في مأساة الحياة والتاريخ (ف ١٣٦ع) .

إن التأثيرات ، في معنى أو آخر ، غير مستبعدة ، ولكنه من الراجح اكثر ، اننا هنا على صلة ببعض التيارات الروحية الموازية ، المتطورة بدءاً من الازمات المتفجرة منذ بضعة قرون سابقة في الهند (الاوبانيشاد) وفي اليونان والبحر المتوسط الشرقي (الأورفية والفيثاغورية) وفي ايران والعالم الهيللنستي . وان العديد من الصور والاستعارات المستعملة من قبل الكتاب الغنوصيين لها تاريخ ، لابل قبل تاريخ ، محترم ، ولها انتشار كبير .

وان واحدة من الصور المفضلة هي صورة الرقاد الممثل بالجهل والموت . ويرى الغنوصيون ان البشر لا ينامون فحسب ، وانما يحبون النوم . «لماذا ستحبون دائما النوم وتتعثرون مع اولئك الذين يتعثرون ؟» سؤال سأله الجينزا[٣٣] le Ginza «على من يسمع ان يستيقظ من رقاده العميق» . ذلك ما كتب في رؤيا يوحنا، كما سنرى فإن الباعث ذاته سيوجدفي المانوية. غير أن مثل هذه الصيغ

ليست احتكاراً للكتاب الغنوصيين . فرسالة القديس بولس الى اهالي افسس [١٤:٥] تحتوي على هذه الاشارات المغفلة «تنبه أيها النائم وقم من بين الأموات يضيء لك المسيح» . وان الرقاد (Hypnes) بصفته الشقيق التوأم للموت (تهاناتوس) Thanatos ، في اليونان كما في الهند وفي الغنوصية ، وفعل «اليقظة» كان له معنى «انقاذي» sotériologique (في المعنى الواسع للكلمة: سقراط «يوقظ» محدثيه أحيانا ضد رغبتهم) .

انه يتعلق برمزية قديمة ومنتشرة عالمياً . ان النصر المحرز على الرقاد واليقظة الممتدة تشكلان تجربة تلقينية نموذجية . ولدى بعض القبائل الاسترالية ، ان التلامذة الجدد في طريق تلقيهم الأسرار يجب عليهم ان لا يناموا خلال ثلاثةأيام ، أو يمنعون ايضاً من النوم قبل الفجر[٣٠] . وهذا ما يذكر بالتجربة المسارية التي يسقط فيها بأسى البطل الشهير جلقامش : لم ينجح لان يستيقظ وفاته حظه بالحصول على الخلود (ف ٢٣ع) . وفي اسطورة من اميركا الشمالية من نموذج اورفيه واوريديس يحصل أن رجلاً ينزل الى منازل الأموات (الجحيم) حيث يجد زوجته التي كانت قد ماتت ، ويعرض عليه سيد الجحيم بأنه يستطيع اعادة زوجته على الأرض اذا كان قادراً على اليقظة كل الليل . ولكنه لمرتين ، وحتى بعد ان نام خلال النهار كي لا يتعب ، لا يتوصل الرجل الى ان يستيقظ فعلاً الا في الفجر[٣١] . فيلاحظ اذن ان «عدم النوم» ليس انتصاراً على التعب الطبيعي فحسب ، وإنما هو خاصة اجراء برهان على القوة الروحية . فان يبقى «متيقظا» يكون واعيا تماما ، وهذا يعني : البقاء حاضراً في عالم الروح . إن يسوع لم يتوقف عن ان يفرض على تلامذته اليقظة [ر. على سبيل المثال متى ٢٤ : ٤٢] . وان ليل جيتسيماني جعل مأساويا بصورة خاصة بعدم قدرة التلامذه على اليقظة مع يسوع .

وفي الأدب الغنوصي ، ان الجهل والرقاد يعبر عنهما كذلك بمصطلحات «السكر» ويقارن انجيل الحقيقة الذي «يملك العرفان ـ الغنوص» بشخصه يصبح قانعاً زاهداً في الشرب بعد ان سكر ، وبرجوعه لذاته يؤكد مجدداً ماكانت في الاساس ذاته»[٣٧] . إن «اليقظة» تدخل السابقة المرضية ، واكتشاف الهوية

الحقيقية للروح ، أي المعرفة لأصله السماوي «استيقظي انت ، ياروح الاشراق ، من رقادالسكرالذي ترديت فيه[. . . .]،ذلك ماكتب في نص مانوي. اتبعيني للمكان الممجد حيث كنت تقيمين من البدء» وفي التقليد المانذى mandeénn، يتوجه المبعوث السماوي لآدم ، بعد أن ايقظه من ثباته العميق «لاترقد بعد الآن ولا تنام ، ولا تنسى ابداً ما ألقاه الرب على عاتقك»(٣٨) .

وفي آخر المطاف ، ان اغلب هذه الصور - الجهل - فقدان الذاكرة ، الأسر «الرقاد والسكر» - تصبح جميعها استعارات مجازية في التبشير الغنوصي لتدل على الموت الروحي . وان العرفان (غنوص) يصاحب حقيقة الحياة ، أي الغفران والخلود .

٢٣١ - البارقليط المستشهد

ولد ماني في ١٤ نيسان سنة ٢١٦ في سيلوسي - ستيزفون من بابل ، وحسب التقليد ، فإن والده ، باتيك ، سمع اثناء ثلاثة ايام متوالية صوتا يفرض عليه أن لا يأكل لحماً ، وان لا يشرب خمراً ، وان يبتعد عن النساء . وقد كان باتيك ، المضطرب ، مرتبطاً بمذهب غنوصي تعميد القسايط les Elkasaites(٣٩) . وقد جاء الطفل إلى العالم معاقاً (كان اعرجاً على الأرجح) وعندما بلغ سنته الرابعة من العمل ضمه والده إليه بهدف تربيته ضمن جماعة القسايط. وفي غضون أكثر من عشرين عاماً (من ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٤٠) كبر ماني وتربى في وسط يهودي مسيحي ذي ورع كبير . ومن حيث النتيجة لا يسوغ اساءة تقدير أهمية العناصر المسيحية في التركيب المانوي . ومع ذلك فإن الارشاد الديني لماني ظهر متعارضاً مع اللاهوت ، ومع الأخروية ، والشعائر المسيحية . وقد تلقى كشفين على التوالي في سن ١٢ و ١٤ . اوضحا له رسالته الخاصة ، واجبراه على قطع علاقته مع مذهب القسايط . وماني ذاته هو الذي نقل لنا فحوى هذين الكشفين . حيث أن ملاكاً أوصل إليه في الرسالة الأولى ترك جماعة والده .

وبعد اثني عشر سنة ، ٢٤٠ ، حضته الرسالة الثانية على العمل : «أتى الزمن بالنسبة اليك لأن تظهر علناً وان تعلن مذهب جهاراً»[٤٠] .

ونجهل تقريباً كل شيء عن العمل الروحي الذي حوّل الشاب الهزيل الى رسول لا يكل لمذهب جديد للخلاص . كذلك نجهل الاسباب التي جعلته يقرر اتخاذ أول سفر رسولي الى الهند ، ومن ٢٤٠ ـ ٢٤١ إلى بداية ٢٤٢ أو ٢٤٣[٤١] . وعلى كل حال ، فإن الاحتكاك مع بعض ممثلي الروحية الهندية كان له نتائج إن بالنسبة لماني أو بالنسبة الى الهند . وبناء على دعوة من شاهبور الأول أتى ماني الى فوندشهابور عاصمة الساسانيين . وقد كان شاهبور متأثر بعمق بالنبي ، فمنحه الحرية بأن يبشر ، هو ورسله ، في كل انحاء الامبراطورية ، وكان هذا الاعتراف الرسمي بالديانة الجديدة وكان تاريخها قد اعتمد بتقى : ٢١ آذار ٢٤٢ (او حسب حساب آخر في ٦ نيسان ٢٤٣) .

لانعرف شيئاً عن شخصية ماني خلال حكم شاهبور الأول من ٢٤٢ إلى ٢٧٣ . الأمر الذي يعني اننا نجهل تقريبا كل شيء عن حياة النبي ، ماعدا البداية (الكشفان ، و «ايمان» شاهبور) ومن الأخير (زوال الحظوة، الموت) . وان مايبدو مؤكداً ، اقامته لعلاقات جيدة مع الملك ، وأنه قام باسفار طويلة للتبشير عبر كل الامبراطورية الايرانية ، حتى نهايتها الشرقية . وقد ارسل اضافة الى ذلك عدداً من البعثات داخل الامبراطورية وفي الخارج (مصر ، وباكتريان . الخ) .

وفي نيسان ٢٧٢ مات شاهبور وتلاه ابنه هورميزد . واسرع ماني الى ملاقاته . وقد حصل من الملك الجديد على رسائل حماية واجازة للدخول الى بابل . ولكنه ماكاد يمر عام حتى مات هورميزيد وعاد العرش لشقيقه بهرام الأول . وقد وصل ماني أو فونديشابور بناء على اخبار من الملك وذلك بعد سفر يمكن اعتباره كأنه «عودته الرعوية الكبرى» ، أو «حجة وداع الرسول الى مراتع شبابه وإلى المدارس التي كان ولدها» .

وفي الواقع ، انه منذ وصوله ، اتهم من قبل رئيس المجوس العنيد مويبدكارتر : فإن تبشير ماني ، يشجع مؤسس التعصب المزدي ، ويحرف اتباع

الديانة الرسمية . وقد جرى اللقاء مع الملك في جو عاصف . وعندما أعلن ماني الخاصية الالهية لرسالته ، هتف بهرام : «لماذا أتى اليك هذا الكشف ، وليس لنا ، نحن أسياد البلاد ؟» ولم يستطع ماني ان يرد سوى بالقول : «تلك ارادة الله»[٤٣] . وكمذنب مدان قيِّد ماني والقي في غيابة السجن . وقد منعته الاصفاد (ثلاثة في يديه ، وثلاثة في رجليه ، وواحد في عنقه) ، وبوزن (٢٠ ك غ) عن كل حركة ، وسببت له آلاما مبرحة . وان الألم la passion الذي دل عليه المانيون بالمصطلح المسيحي «الصلب» ـ تمددخلال ٢٦ يوماً[٤٢] . مع ذلك استطاع النبي تلقي الزيارة من رفاقه في الديانة ، وحافظت السنة التقليدية ، مع بعض التعديل ، على عدد من المشاهد الموجبة للعبرة . وتوفي ماني في ٢٦ شباط ٢٧٧ ، عن عمر ٦٠ عاماً . فقطع جسده ، وعرض رأسه على باب المدينة والقيت بقايا جسده للكلاب .

ومباشرة بعد موت النبي ، أمر بهرام بعنف لارحمة فيه ضد الحركة . وبدت الكنيسة المانية على الفور وكأنها على شفير الانطفاء نهائيا . ولكنها مع ذلك لم تنقطع عن التنامي خلال قرون ، منتشرة صوب الغرب حتى في شبه الجزيرة الايبرية وصوب الشرق حتى الصين .

٢٣٢ ـ الغنوصية المانوية

المانوية هي قبل كل شيء عرفان رباني (غنوص) ، وهي تشكل بصفتها هذه جزءاً من تيار غنوصي كبير اشرنا اليه . ولكن على خلاف المؤسسين الآخرين للمذاهب ، أقحم ماني نفسه في محاولة خلق دين عالمي مقبول من الجميع ، وغير محدود بتعليم باطني محصور بالمتلقين . لقد اعترف بقيمة بعض الأديان السابقة ، ولكنه اعتبرها غير كاملة . وأعلن من جهة اخرى انه أدخل في كنيسته الجوهري من كل الكتابات وكل الحكم : «كما ان نهرا يجتمع الى نهر آخر لتكوين تيار قوي ، هكذا انضمت الكتب القديمة في كتاباتي ، وشكلت حكمة كبرى ، لدرجة انه لا يوجد مثلها في الاجيال السابقة» وفي الواقع ، ان ماني يعطي دوراً بارزاً ليسوع

ويجعل منه فكرة البارقليط . ويستعير من الهند نظرية «التقمص» او انتقال الارواح ، ويأخذ بخاصة الافكار المركزية الايرانية ، وفي المقام الأول منها الثنائية ، النور ـ الظلمـات ، والاسطورة الأخروية . . وان التوفيقية كانت تناذر الاعراض المميزة للعصر . وفي حالة ماني ، كانت ايضا ضرورة عملية . فقد اراد مد كنيسته الى طرفي الامبراطورية الفارسية ، وعلى ذلك اجبر على استعمال لغات دينية مألوفة في الأقاليم الشرقية كما في الأقاليم الغربية . وعلى كل حال ، وبالرغم من العناصر الذاتية الظاهرة ، فإن المانوية تمثل الوحدة الداخلية لابداع قوي وأصولي .

إن المانوية كديانة عالمية شأنها شأن البوذية والمسيحية ، كانت ملزمة باعتماد التبشير ، وحسب ماني ، على المبشر ان «يهيم باستمرار في العالم ، مبشراً بالمذهب وقائداً للاشخاص في درب الحقيقة»[٤٥] . وأخيراً ، فإن المانوية ، متفقة مع الزيتجيست zeitgeist هي «ديانة كتاب» . ولكي يتجنب ماني التناقضات والهرطقات التي زعزعت الزرادشتية،والبوذية والمسيحية،حبَّرَ الرسالات السبعة التي تشكل الشريعة . وماعدا الرسالة الأولى منها بهابوهريانا التي الفها بالفارسية ، فإن الرسالات الأخرى كتبت بالسريانية syriaque أو الارمنية الشرقية . ولم يحتفظ من هذا التأليف الضخم سوى النذر اليسير وبالترجمة فقط ، ولكن تعدد واختلاف اللغات التي وصلت الينا منها هذه القطع (قبطية : صفدية ، تركية ، صينية الخ» توضح النجاح المنقطع النظير للتبشير المانوي .

وكما في كل الغنوصيات ، وكما هي الحالة ايضا في السمكهيايوجا وفي البوذية ، فإن التوجه نحو الخلاص ينفتح مع تحليل دقيق للشرط البشري . ففي الواقع البسيط الذي يعيشه على هذه الأرض ، اي بانه مجهز بوجود متجسد ، فإن الانسان يتألم الأمر الذي يعيد الى القول بأنه فريسة الألم . والخلاص لا يمكن الحصول عليه الا بالعرفان (غنوص) العلم الحقيقي الوحيد ، الذي ينقذ . وبالتوافق مع المذهب الغنوصي ، فإن كونا محكوما بالشر لايمكن ان يكون من عمل الاله ، السامي والرحيم ، وانما من عمل خصمه . وإن وجود العالم يفترض اذن حالة سابقة ، قبل كونية ، تماما كالشرط المثير للشفقة ، الساقط ، للانسان يفترض

وضعاً بدئياً طوباويا . إن الجوهري في المذهب المانوي يمكن تلخيصه في عبارتين : المبدآن ، والفترات الثلاثة[٤٦] . وعليه فإن هاتين الصيغتين تشكلان كذلك اساس التدين الايراني . واذن يمكن القول بأن المانوية هي التعبير الايراني ، للعصر التركيبي للعرفان الالهي (غنوص) . فمن جهة اعاد ماني تفسير بعض المفاهيم التقليدية الايرانية ، ومن جهة اخرى ، ادخل في نظامه عدداً من العناصر ذات الأصول المختلفة . (هندية ، يهودية مسيحية ، غنوصية) .

ولم تكن المانوية ، تقدم بالنسبة للمؤمنين ، اخلاقاً وطريقة للخلاص solériologique فحسب ، وإنما ايضا ، وبخاصة ، علماً شاملاً مطلقاً . فالخلاص هو الأثر الذي لا مندوحة منه للعرفان . والمعرفة تعادل سابقة : فالمشايع يُعرف كجزيء من نور ، اذن من طبيعة الهية ، لأنه يوجد وحدة جوهر consubstantialité بين الاله والأرواح ، والجهل هو النتيجة لخلط الروح والجسد ، الروح والمادة (مفهوم سائد في الهند واماكن اخرى بدءاً من القرن الخامس ب.م) . غير انه بالنسبة لماني ، كما هو بالنسبة لكل معلمي الغنوصية ، يقتضي العرفان المخلص المعرفة بالتاريخ السري كذلك (أو المنسي) للكون . إن المشايع كان يحصل على السلامة لأن يعرف أصل العالم ، وسبب خلق الانسان ، والطرق المستعملة من قبل أمير الظلمات ، واضداد الطرق المعلنة من قبل أب النور . و «التفسير العلمي» لبعض الظواهر الكونية،وفي المقام الأول منهامظاهر القمركانت تثير شعور المعاصرين . وفي الواقع ، ان الطبيعة والحياة ، في الاسطورة الكونية الكبيرة والأخروية المعلنة من قبل ماني ، تلعبان دوراً هاماً : مأساة الروح تنعكس في الموروفولوجيا ومصير الحياة الشامل .

٢٣٣ ـ الاسطورة الكبرى : السقوط وخلاص الروح الالهية

في البدء ، وفي «الزمن السابق» ، تواجدت منفصلة بحد ، «الطبيعتان» او «الماهيتان» substances النور والظلمة ، الخير والشر ، الاله والمادة . في الشمال يحكم «أب العظمة» (ممثلا بالاله الآب للمسيحيين ، وفي البلاد الايرانية

بذورفان) ، وفي الجنوب ، «أمير الظلمات» (اهريمان؛ أو بالنسبة للمسيحيين ، الشيطان) . ولكن «الحركة غير المنتظمة» للمادة تقسر أمير الظلمات صوب الحد الأعلى لمملكته . وبرؤيته لعظمة النور ، تحرق برغبة الانتصار عليها . وعندئذ قرر الأب رد الخصم بنفسه . «فأثار» ، أي طرح بدءاً من ذاته ، «أم الحياة» التي طرحت بدورها اقنوما جديداً ، «الانسان البدئي» (اوهرميزد في الاطروحات الايرانية) . ومع أبنائه الخمسة ، الذين هم في الواقع «روحه» و «سلاح» مصنوع من خمسة انوار ، نزل الانسان الأول الى الحد ، فواجه الظلمات ، ولكنه هزم وافترس ابناؤه من قبل الشياطين (الأرخونات les Archontes) . وهذه الهزيمة تميز البداية «لخلط» كوني ، ولكنها تضمن في الوقت ذاته الانتصار النهائي للاله . ذلك لأن الظلام (المادة) تملك الآن جزئياً من النور ، أي جزءاً من الروح الالهية ، وفي تحضير الأب لخلاصه ، يدبر في ذات الوقت نصره النهائي ضد الظلمات .

وفي خليقة ثانية ، «يستدعي» الآب الروح الحية ، التي بهبوطها نحو الظلمة ، تمسك يد الانسان الأول[47] وترفعه صوب وطنه السماوي ، جنة الأنوار . وبقتلها للأرخونات الشيطانية تصنع النفس الحية السماوات من جلودها ، والجبال من عظامها ، والأرض من لحمها ومن برازها . (نتعرف في هذا على الاسطورة القديمة للخلق بالتضحية بجبار اوغول بدئي من نموذج تيامات ، يمير ، بوروشا) واضافة لذلك ، تكمل أول خلاص للنور ، وبخلق الشمس ، والقمر ، والنجوم وجزيئات لم تعاني كثيراً من الاحتكاك مع الظلمة .

وأخيراً ، يجري الآب استحضاراً كليا ويطرح بفيض منه «الرسول الثالث» . وهذا الرسول ينظم الكون في نوع من آلة للتفريغ ، وفي آخر المطاف ، لتخليص جزيئات النورالتي مازالت اسيرة.وفي الخمسةعشر الأولى من الشهرتصعد الجزيئات حتى القمر ، الذي يصبح بدرا ؛ وفي الخمسة عشر الثانية يتحول النور من القمر للشمس ، وأخيراً الى جزئه السماوي . ولكنه يبقي ايضا الاجزاء التي ابتلعت من قبل الشياطين . وعندئذ يظهر المبعوث نفسه الى الشياطين الذكور بشكل عذراء عارية باهرة الحسن ، بينما تراه الشياطين الأنثى كشاب جميل عار (تفسير كريه ، «شيطاني» للطبيعة الخنثوية للمبعوث السماوي) . وينشر الأرخونات

الذكور منيهم وهم متحرقون بالشهوة ، ومعه النور الذي كانوا قد ابتلعوه . وما يسقط من منيهم على الأرض يولد كل انواع النبَاتات . أما بالنسبة للشياطين الاناث (الشيطانات) التي كانت حملت ، من رؤيتها للشاب الجميل ، فقد ولدت اجهاضات ، وبطرح هذه الاجهاضات على الأرض ، أكلت براعم الأشجار متمثلة هكذا النور الذي تحتوي عليه .

إن المادة ، المتجسدة في «الشبق» قررت ، وهي منذرة بالخطر وبواسطة تكتيك المبعوث الثالث ، خلق سجن اكثر أمانا حول الأجزاء من النور التي مازالت اسيرة . وان شيطانين ، أحدهما مذكر ، والآخر مؤنث ، افترسا كل المجهضات بهدف امتصاص كلية النور ، وبعدئذ تزاوجا وهكذا تم حملهما بآدم وحواء . وكما يكتب هنري شارل بوش phuch «إن نوعنا تولد اذن اثر تصرفات مقرفة من توحش وجنسية . وانه يحافظ على وصمات العار لهذا الأصل الشيطاني : الجسد ، الذي هو الشكل الحيواني للأرخونات ، فالليبيدو ، والرغبة ، تدفع الانسان لأن يتزوج وأن ينتج بدوره ، أي وفقاً لمخطط المادة ، لتُبقي في اسرها إلى مالانهاية الروح المنيرة التي ينقلها التوالد من جسد لجسد» .

ولكن بما أن الكمية الكبرى من النور توجد الآن متجمعة في آدم ، فإنه هو مع هبوطه يصبح الموضوع الأساسي للخلاص . وان السيناريو الأخروي يتكرر : أما كما أن الانسان الأول قد انقذ بواسطة النفس الحية ، فإن آدم ، محقراً ، دون معرفة قد أعيد ايقاظه من قبل المنقذ ، «ابن الله» المتماهي «بأوهرمزد» أو «بيسوع النور» . وهذا هو التجسد للعبقرية المنقذة («اله النوس» ، النوس «Nous») الذي يأتي في آدم لانقاذ روحه الخاصة ، الهائمة والمكبلة في الظلمات . وكما في النماذج الغنوصية الأخرى ، فإن الخلاص يقتضي ثلاث محطات : اليقظة ، كشف العلم المنقذ ، والذكرى «آدم تفحص ذاته بذاته وعلم كأنه . . . » . «روح المبارك العائدة عاقلة وقد بعثت»[٤٦] .

إن هذا السيناريو الانقاذي اصبح النموذج لكل خلاص بالمعرفة ، حاضراً ومستقبلاً . وحتى نهاية العالم ، فإن جزءاً من النور ، أي الروح الالهية ،

ستجر نفسها «لتستيقظ» وفي آخر المطاف ، لتحرر الجزء الآخر ، المحبوس في العالم ، وفي جسد البشر والحيوانات وكل انواع النباتات . والأشجار بخاصة ، هي التي تحتوي على كمية قوية من الروح الالهية ، التي استخدمت صليباً للمسيح المعذب ، اليسوع باتيبيليس le yesus patibilis كما كان عبَّر عنه المانوي فوستس Faustus «يسوع الحياة والسلامة للبشر ، هو معلق على كل خشبة»(٤٩) . ان استمرارية العالم تحدد عملية الصلب واحتضار يسوع التاريخي . صحيح ان اجزاء النور ، أي ارواح الموتى المباركين ، منقولة باستمرار نحو الجنة السماوية عن طريق القوارب ، والقمر والشمس . الا ان الخلاص النهائي ، من جهة اخرى ، متأخر بأولئك الذين لا يتبعون الطريق المعين من قبل ماني ، أي لا يتجنبون الانجاب . وذلك لأن النور مركز في المني ، وكل طفل يأتي للعالم لا يفعل سوى تمديد أسر قطعة الهية .

وفي وصف «الزمن الثالث» ، الأخروية النهائية ، يجري ماني استعارات للصورة الرؤوية المألوفة في كل آسيا الغربية وفي العالم الهللنستي . تفتتح المأساة بسلسلة من تجارب مرعبة (تسمى من قبل المانوية «الحرب الكبرى») التي تسبق نصر كنيسة العدالة ، والدينونة الأخيرة عندما ستحاكم الأرواح امام محكمة (بيما Bema) المسيح . وبعد فترة حكم قصيرة ، يرتفع المسيح والنخبة وكل تجسدات الخير إلى السماء . وسينتهي العالم المحترق والمطهر بحريق من ١٤٦٨ سنة . وستتجمع الجزيئات الأخيرة من النور في «تمثال» سيصعد الى السماء(٥٠) . والمادة ، مع كل تشخيصاتها ، وشياطينها وضحاياها ، والمدانين ، ستحبس في نوع من «كرة» (le balos) وتطرح في عمق حفرة كبيرةجدا ، مختومة بصخرة . وفي هذه المرة ، سيكون انفصال الماهيتين substanees نهائيا ، لأن الظلمة لن تستطيع ابدا غزو مملكة النور

٢٣٤ ـ الثنائية المطلقة بصفتها mysterium Tremendum

لقد تعرفنا في هذه الميتولوجيا الكبيرة على النغمات الأساسية للروحية الايرانية والعرفان (الغنوصي) الهللنستي . وقد فسر ماني بعناء ومع الكثير من

التفاصيل اسباب الانحطاط البشري ، معاوداً رسم المشاهد المختلفة للسقوط ولأسر الروح الالهية في المادة . ومع مقارنتها ، على سبيل المثال بالمجازية ، بل بسكوت الغنوصيات الهندية (السمكهيا ـ يوجا والبوذية) تبدو التيولوجيا والنشكونية ، والنشأة البشرية المانوية مرضيةو مهما كانت المسألة المتعلقة «بالأصول» . ومعروف لماذا ان المانويين كانوا يعتبرون مذهبهم اكثر «حقيقة» أي اكثر «علمية» من المذاهب الأخرى : ذلك لأنه فسر كلية الحقيقي بسلسلة علل لنتائج . ويحق القول ، بوجود بعض التماثل بين المانوية والمادية العلمية القديمة والحديثة : فبالنسبة للأولى كما للأخرى ، ان العالم ، وحياة الانسان هما نتيجة صدفة . حتى النزاع بين المبدأين انفجر على اثر حادث : أمير الظلمات كان قد وجد قريباً جداً من النور بسبب ما اسماه اسكندر ليكوفرون «الحركة الغير منتظمة» للمادة . وسنرى ، ان كل «الخلائق» ببدايتها بتشكل العالم حتى ظهور الانسان ، ليست سوى اشارات دفاع من محرك أو آخر .

وقلما ادركت فلسفة أوغنوصية لا كونية التشاؤم المأساوي الذي يشكل النظام الماني . فالعالم أبدع بدئياً من مادة شيطانية ، اجساد الارخونات (ايضا ان العمل النشكوني ـ انجز من قبل كائن الهي) . والانسان هو عمل قوي شيطانية في اقذر تجسدها . وقلما توجد اسطورة اخرى عن نشأة الانسان اكثر مأساوية واكثر ضعة . (وهذه المرة ايضا ، تلاحظ المشابهة مع العلم الحديث ، فبالنسبة لفرويد ، على سبيل المثال ، ان اكل اللحوم ، (التوحش) وارتكاب المحرمات قد ساهما بشكل بارز في جعل الانسان كما هو) .

ان الوجود البشري ، تماما كالحياة العالمية ، ليس سوى وصمة فشل الهي . وعليه ، لو ان الانسان الأول قد غلب منذ البدء لما وجد الكوزموس (الكون) ولا الحياة ولا الانسان . فالنشكونية هي حركة يائسة للاله من اجل انقاذ جزء من ذاته وتماما كخلق الانسان الذي هو حركة يائسة للمادة كي تمسك بجزيئات النور أسيرة . والانسان بالرغم من أصله الغيرنبيل ، اصبح المركز والرهان للمأساة ، لأنه يحمل في ذاته جزءاً من الروح الالهي[٥١]. ومع ذلك ، فهو يتعلق بسوء فهم ، لأن الله لا يهتم بالانسان لكونه انسانا ، وانما بالروح ، التي هي من اصل

الهي وسابقة لظهور الجنس البشري . واجمالاً ، إنه يتعلق دائماً بجهد الاله لينقذ ذاته ، وفي هذه الحالة ايضاً يمكن الكلام عن «منقِذ منقَذ sauveur sauvé» . وتلك هي ، من جهـــة اخرى ، الفترة الوحيدة التي تظهر الألوهية فاعلة ، لأن المبادرة والعمل ، بصورة عامة ، تنتميان لأمير الظلمات . وهذا مايجعل الأدب المانوي مدعاة للشفقة ، خاصة ، الأناشيد التي تصف سقوط ومصائب الروح . هذا وان بعض المزامير المانوية ذات جمال كبير ، وان صورة يسوع باتيبليس تصنف بين الابداعات المثيرة للشفقة الانسانية .

بما ان الجسد هو من طبيعة شيطانية ، فإن ماني يقرر ، على الأقل بالنسبة للنخبة(٥٢) التنسك الأكثر تضييقاً ، مانعاً تماما الانتحار . فما ان قبلت المقدمات لمرة واحدة ـ المبدآن والعدوان الأول للشر ـ حتى بدا النظام بكامله مشكلا بقوة . ولايمكن ، ولا يجب التقييم دينيا ما يرجع الى عدو الله : الطبيعة ، الحياة ، وجود الانسان . إن «الديانة الحقيقية» تتكون في التهرب من السجن المقام من قبل القوى الشيطانية ، والمساهمة في الافناء النهائي للعالم او الحياة والانسان . ان «التنوير» المتحصل بالغنوص يكفي للخلاص ، لأنه يثير بعض الملاءمة التي تفصل المؤمن من العالم . ان الطقوس غير مجدية ، ماعدا بعض الاشارات الرمزية (قبلة السلام ، التحية الأخوية ، قبضة اليد) ، الصلوات والأناشيد . ان العيد الرئيسي ، البيما le bema مع انه يحيي ذكرى عذاب ماني ، يمجد «جسد» الرسول ، اي تعليم الغنوص الفدائي .

وفي الواقع ، فإن التبشير ، و «التعليم» يشكلان النشاط الديني الحقيقي للمانيين . وفي القرن الثالث ، ولكن خاصة في القرن الرابع ، تكاثرت البعثات في كل اوروبا وافريقيا الشمالية وآسيا الوسطى . وتميز القرن الخامس ببعض التراجع ، وفي القرن السادس بدت المانية مهددة بالزوال من اوروبا ، ولكنها استمرت في الحياة دائماً في بعض الأوساط (على سبيل المثال ، في افريقيا في القرن الثامن) . واضافة لذلك فإنها تلهم في الامبراطِورية الساساتية ، في القرن الخامس ، حركة مزدك ، ومن الراجح ان البوليسيين les pauliciens في ارمينيا في القرن السابع ، والبوغميلين Bougmiline في بلغاريا ، في القرن العاشر ، أخذوا

ببعض الموضوعات المانوية ، ومن جهة اخرى ، وبدءاً من نهاية القرن السابع ، فإن دفعة جديدة وقوية البشير في اسيا الوسطى والصين ، حيث تستمر المانوية في الحياة حتى القرن الرابع عشر[٥٣] . يضاف الى ذلك ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ان الافكار الكوزمولوجية المانوية قد مارست بعض التأثير في الهند والتيبت (ر. نص٣٦) وماهو اكثر من ذلك ان بعض «الاتجاه المانوي» مازال يشكل جزءاً لا يتجزأ من الروحية الأوروبية .

كل هذه النجاحات للتبشير لا تجعلنا نغفل عن واقعة ان المانوية ، قد اعتبرت كهرطقة بامتياز ، وأنها قد انتقدت بعنف ، ليس من قبل المسيحيين واليهود والمجوس والمسلمين فحسب ، وانما ايضا من قبل الغنوصيين كالمانديين mandeéns والفلاسفة ، وعلى سبيل المثال افلوطين .

حواشي الفصل التاسع والعشرين

١ - «في كل الأزمات التاريخية اسطورتان غسقيتان اقلقتا الشعب الروماني : ١) حياة المدينة ، التي انتهت مدتها بصفتها محدودة لعدد من السنين (العدد/ السري) المكتشف من قبل الاثني عشر نسراً المنظورة من قبل روميلوس و ٢ (السنة الكبرى) ستضع نهاية للتاريخ برمته وبالتالي روما بواسطة Ekpyrois عالمية . وان تاريخ روما بذاته قد اثقل بتكذيب هذه المخاوف حتى تاريخ متقدم جداً . فان ١٢٠ سنة بعد تأسيس روما اعلمت ان الاثني عشر نسراً التي رآها روميلوس لم تكن تعني ١٢ سنة من حياة تاريخية بالنسبة للمدينة ، كما رفض الكثيرون في بداية ٣٦٥ وامكن ملاحظة انه لم يتعلق ابداً (بسنة كبرى) حيث كل سنة من المدينة كانت تعادل يوماً وكان يفترض ان القدر منح روما مصيراً آخر من (سنة كبرى) مؤلفة من ١٢ شهرا لمائة سنة» (اسطورة العود الابدي صفحة ١٥٧ الالياذ)

٢ - ٥ - اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف

٦ - مع ذلك فإن قيصر كان له تمثاله في الكابيتول وتمثال آخر في المعبد الكورينوس مع نقش (اله لا يغلب) وفي ٤٤ ق.م تلقى رسميا لقب (يوليوس المقدس)

٧ - لايتعلق بتأثير من الشرق الهللنستي ، وسبق لشيشرون ان كتب ان (ارواح الرجال الشجعان والطيبين هي بصورة داخلية خاصية الهية)

٨ - اسماء للمصادر

٩ - مما له دلالته انه في النصف الثاني من القرن الثاني ، كانت هذه النصوص متبناة من قبل كل الكنائس الكبرى لذلك العصر لكتابات وحيدة ممثلة للسنة الرسولية . ومنذئذ فإن تاريخ المسيحية تملك قانونها العهد الجديد واصبحت (دين كتاب)

١٠ - انظر المصادر المذكورة والعشرة من مثل مارتون سميث . كليمنت الاسكندري وبدء من هذا التقليد للمذاهب والممارسات السرية لليهودية انبثق ادب الميركاباه وفي المقام الأول

النصوص هيكابات ص ١٨٨

١١ ـ قطعة من هيبوستات منقولة من قبل اوسيب تاريخ الكنيسة ـ ودانوليو ـ التقاليد السرية للرسل

١٢ ـ ح دانيلو ص ٢٠٨

١٣ ـ وهكذا على سبيل المثال ، فإن الفقهاء الغنوصيين قد اعادوا تفسيرالاسطورة من هبوط المسيح في العالم بفصله عن نصه التوراتي المسيح المرسل من قبل الاله الخالق ، وحمله الى (تاريخ سري) آخر «الخلق يشكل كارثة مأساوية» وبالنتيجة ، يجب له ان ينسب لخالق او كائن شيطاني ، المتجسد الحقيق للشر .

١٤ ـ فقرة ١٨١ نعيد الى الذاكرة انه بالنسبة لافلاطون ، ان الخالق ليس التجسيد للشر ، فالعالم هو كوزموس كامل ومتناسق وبالنسبة لافلاطون كما هو بالنسبة للرواقيين ، النجوم هي آلهة يسهل تأملها التقرب من الكائنات الذكية ، الاليازة ٩ ـ ١٧ ١٨ . وفيما يتعلق بتجسيد الروح فانهابالنسبة لافلاطون لايسقطه لأن الروح تطيع غبطتها الروحية واستقلالها [٤ ـ ٨ ـ ٥ ـ ١٠] ولكنها كذلك هبوط حر مقبول بهدف مساعدة الوجودات الكائنة في العالم الأدنى (١٧ ـ ٧٨] .

١٥ ـ وهكذا على سبيل المثال ، فإن الانجيل حسب ثوماس المكتشف في نجع حمادة يعكس الترجمة الكاملة المنسوبة ليسوع في البابيروس والمعروفة منذ ١٨٩٧ (d'oxyshynch)

١٦ ـ الفكرة الاورفية ـ الافلاطونية عن التجسيد باعتباره عقابا ، مخلوطة مع الاسطورة التوراتية لسقوط الملائكة . وقد استعيرت من قبل بعض الغنوصيين ونصف المسيحيين (فالنتين ، مارسيون ، بارديسان) ومن قبل ماني ومن قبل كاتب كاروكوزمو ومحتملاً من قبل اوريجين للسقوط الارادي للروح ، وقد اثيرت من قبل النرجسيين ـ الروح سقطت عاشقة لصورتها الخاصة المعكوسة في العالم المادي ، أو بالطمع وهذا المفهوم قد تأكد لدي نومينيوس الأفامي ولدى كاتب البوامامندر وعند افلوطين

١٧ ـ ان صنفاً آخر النفسانيين اولئك الذين عندهم نفس ، وكما هؤلاء هم قابلون لأن ينجذبوا نحو الأعلى ، ولكنهم محرومون من الروح (بنوما) واخيرا الصنف الثالث الجسديون وهم بالكلية معلقون في المادة ومدانون بالفناء ، وان الاضطراب العابث لهذه الاصناف من الافراد يوضح تحولا سريا باطنيا للتعليم .

١٨ ـ ان الكثير من النقود المعارضة يتعلق هنا بعصيان . . معاند وعنيف ذي مضمون واسع ونتائج جسيمة ضد الشرط الانساني (الوجود) العالم ، والاله ذاته . انها تستطيع كذلك ان تقود لتصور حدث غائي الذي سيصبح عودة وانكفاء للحالة الراهنة ، تعويض متبادل لليمين واليسار للخارج والداخل للأدنى والأعلى ، من العدمية : عدمية (الغنوصيات

زندقية ، التي باجتيازها كأي قانون طبيعي أو اخلاقي ، تستعمل وتسيء استعمال اجسادهم والعالم من اجل تدنيسها ، من اجل استنفاذها ، ومن أجل انكارها وتلاشيها ، عدمية ذات bunilib التي من اجلها كل كائن كل شيء ، والعالم مأخوذ في شمولية مصيره ، كلها مقدرة لأن تجد في الجهل الكبير ، وفي السلامة لعدم الكينونة ، كمالها النهائي . بيوس .(في البحث عن المعرفات جزء ١)

١٩ ـ ٢٠ (الأعمال ٨ : ١٠ مع ذلك من غير المؤكد ان الساحر وسمعان هما شخصية واحدة

٢١ ـ التاريخ الجديد للكنيسة ـ جان دانينيو

٢٢ ـ انظر النصوص المؤلفة والمعلق عليها من قبل لينانغ ـ العرفان ـ كذلك ملاحظات غرانت

٢٣ ـ حتى سنة ١٩٥٠ مصادرنا الوحيدة عن الفالنتية كانت الخلاصات والمقتطفات المحفوظة من قبل ايرينيه وكليمنت الاسكندراني : وهيوليت الذين استعملوا من جهة اخرى بصورة خاصة مؤلفات التلامذة ولكن انجيل الحقيقة المكتشف في نجع حمادة ، مع انه ليس مؤلف فالنتين يمثل بالتأكيد افكاره ونص آخر من نجع حماده (مثلا) رسالة الطباع الثلاث وكتاب رجيوس حول القيامة ، تتصل بالمدرسة الفالنتية .

٢٤ ـ ان الاغراء الممارس بمثل هذه التسلسليات للانساب وسلاسل المظاهر المتعرجة هي واحدة من الخطوط المميزة للعصر ، والاتجاه لتكاثر المحطات المتوسطة والوكلاء الوسطاء بين المطلق والاصناف المختلفة للحقائق وتوجد لدى الفلاسفة (افلوطين مثلا ولكن لدى الكتاب الغنوصيين ـ خاصة بازيليد ، فالنتين ماني وقد اصبحت في آن واحد وسواسا ومسطرة .

٢٥ ـ المصطلح pelerm - pelerome (نعيم) تعني العالم الروحي حول الألوهية الأولية ، انها مشكلة بكلية وشمولية الدهور

٢٦ ـ ٢٨ ـ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف

٢٩ ـ النص مترجم ومشروح ، مع غيره من نصوص من قيل ليسيغانج (الغنوص ص ٢٤٧)

٣٠ ـ جوناس ، عدد من الموازيات بالنسبة (للثوب القذر) و (الثوب السماوي) وبالنسبة للحية والرسالة والصعود ص ١٣٦

٣١ ـ في الانجيل حسب توباس ، قال يسوع لتلامذته : (عندما ستنظرون لصوركم الحاصلة قبلكم ، التي وان لاتموت ولا تظهر فكم هو كبير سيكون اما ستتحمله الصورة ، اي (الذات السامية) وهي موصوفة كملاك وان لقاء الأنا المتصاعدة مع (الملاك) يمكن مقارنته بالتجربة الفائقة الوصف لوحدة اثمان ـ براهمان

٣٢ ـ م. الياد . . اليوجا

٣٣ ـ مذكورة من قبل جوناس ص ٧٠ وفي نص آخر . يروي الجينزاكيف ان آدم تيقظ من

رقاده ورفع بصره نحو مكان النور (جوناس ص ٧٤

٣٤ ـ ج دوريس الكتب المقدسة والغنوصية المصرية «انني الصوت الذي يوقظ من الرقاد في دهر من الليل ، هكذا تبتدي قطعة غنوصية محفوظة من قبل همبولي

٣٥ ـ ٣٨ اسماء المراجع المعتمدة

٣٩ ـ مذهب مسيحي ـ يهودي ، هيتيرودوكس ، مؤسس سنة ١٠٠ في بلاد الباريسيين من قبل ايلوس

٤٠ ـ فيهرست ص ٥٠ ترجمة هـ بويش اغانوية ص ٤٣ حسب السنة المانوية ترك النبي مذهب التعميد لاختياره الحر . مع ذلك ظهر سريعاً انه ممنوع بالتراتبية

٤١ ـ «أكان ذلك من اجل الهرب من بعض اجراءات السلطة ، وان كبدايات للدعاية المانوية كانت مقلقة ؟ أكان ذلك لأصل تعلم المعتقدات البوذية ، أو على العكس ، لأجل اتباع خطى الرسول توماس والاكتساب من تبشيره الجماعات المسيحية التي سبق تأسيسها في البلاد ؟؟) بويش ص ٤٤

٤٢ ـ بويش ـ للمانوية ص ٥٠ حسب السنة ، ارسل ماني لرفاقه: (انظروا الي واقتنعوا مني ياابنائي لأنني بالنسبة لماهو من جسدي : اريد الابتعاد عنكم ـ فرانسوا ديكريه ماني والسنة المانوية ص ٦٧

٤٣ ـ المرجع السابق

٤٤ ـ في صلاة مؤثرة يتضرع ماني لربه : «لقد اظهرت الطريق للأبناء من الأعلى . لقد نفذت امرك ، الذي من أجله ارسلت لهذا العالم . والآن دعني انال سلام الخلاص لكي لا أرى بعد ذلك وجه الأعداء ولا اسمع اصواتهم القوية . هذه المرة اعطني التابع الكبير للنصر»

٤٥ ـ البيروني ـ تاريخ الهند ص ١٩٠

٤٦ ـ حسب نص من تورفان ترجمة بيليو ١٩١٣ ص ١٠٠ ان الذي كان يريد «الدخول في الدين» كان عليه ان يعلم انه يوجد بعد آن ، الطبيعتين متميزتين النور والظلمة ، وثلاث فترات : الفترة السابعة عندما لم يكن العالم قد اتى للكائن وان النور كان منفصلاً عن الظلمات ، والفترة المتوسطة ، بعد ان هاجمت الظلمات منطقة النور . وأخيراً الفترة التالية عندما سينفصل المبدآن مجدداً .

٤٧ ـ قبضة اليد ستصبح الشعيرة المانوية الممتازة

٤٨ ـ تيودور باركوناي في كومونت ـ بحث حول المانوية ـ ١ ـ ص ٤٧ قطعة من تروفان الخ

٤٩ ـ عبارة اورها القديس اوغسطين

٥٠ ـ مع ذلك ، وحسب بعض المدارس المانوية ، فإن كل اجزاء النور لن تكون منقذة ، وبعبارة اخرى ، ان عدداً من الأرواح ستبقى للأبد سجينة المادة

٥١ ـ بالتناقض ان هذه الشرارة الالهية مستقرة في المني . وان ماني اخذ الفكرة القديمة الهندو ـ ايرانية عن الهوية روح ـ نور ـ مني رجولي

٥٢ ـ تماما كالمذاهب الغنوصية الأخرى ، تقسم المانوية المؤمنين في صنفين ادى المستعمون الحرفيون والنخبة

٥٣ ـ جاكهان ديفور ـ اعتنق المانوية واصبحت دين الدولة في كل الامبراطورية الويفورية ، حتى تدميرها من قبل القرغيز في ٨٤ في الصين هنالك معابد مانوية اقيمت في القرن ٩ و (دين النور) كان ومازال على هامش التاوية والبوذية حتى القرن الرابع عشر (بويش ص ٦١ ـ ٦٦ .

الفصل الثلاثون

غروب الآلهة

٢٣٥ ـ هرطقات واورثوذكسية

إن اللاهوت الأول المنهجي هو النتيجة لأزمات هزت بخطر الكنيسة الكبرى خلال القرن الثاني . وبنقد «هرطقات» المذاهب الغنوصية ـ في الدرجة الأولى منها الثنائية المضادة للكونية ، ورفض التجسد ، والموت وقيامة يسوع المسيح ـ أقام الآباء تباعاً المذهب الارثوذكسي . وقد تكونت الارثوذكسية اساساً في الايمان بالتيولوجيا الايصائية القديمة . وكان الغنوصيون معتبرين الهراطقة بامتياز ، ذلك لأنهم رفضوا ، كلا وجزءاً ، حتى مبادىء الفكر العبري ـ وفي الواقع ، كان يوجد تعارض بين الأفكار الغنوصية ـ سبق وجود الروح في صدر الواحد الأصلي ، والخاصية العرضية للخليقة ، وسقوط الروح في المادة ، الخ ـ

واللاهوت ، والنشكونية والانتروبولوجيا التوراتية . ولايمكن القول بأنه مسيحي دون المشاركة في مبادىء العهد القديم المتضمنة تكوين العالم وطبيعة الانسان : بدأ الاله العمل النشكوني بخلق المادة واكملها بخلق الانسان ، الجسدي ، والذي يمكنه التناسل ، والحر ، على صورة شكل خالقه . وبعبارة اخرى ، فان الانسان خلق مع امكانيات فعل إله . وان «التاريخ» هو المدة الزمنية التي تعلم الانسان اثناءها ممارسة حريته ، وان يتطهر ، واجمالاً ، لأن يتدرب على مهنته من الله[1] . لأن عبارة الخلق هي انسانية مقدسة . وهذا مايفسر الأهمية للتوقيت وللتاريخ ، وللدور الحاسم للحرية البشرية ، لأن الإنسان لا يستطيع ان يكون الهاً رغماً عنه .

إن هذه المفاهيم قد ثبتتها المسيحية . فالقديس بولس يمجد الولادة الجديدة المضمونة بالمسيح : «اذا كان احد في المسيح فإنه خلق جديد» [كورنثية ٥ : ١٧] «فما الختان بشيء ولا القلف بشيء ، وإنما الشيء ان يكون الانسان خلقاً جديداً» [غلاطية ١٦ : ١٥] «انسانا جديدا او بشرية جديدة» [افسس ٢ : ١٥] . وكما كتب كلود تريسمونتان «لامشكلة ، في هذا المنظور ، للعودة لشرطنا السابق ، البدائي ، كما في الاسطورة الغنوصية ، ولكن على العكس للمد ، دون التطلع الى الوراء ، نحو ماهو الى الامام ، ونحو الخليقة التي تأتي والتي نضع . فالمسيحية ليست مذهب عودة ، كالغنوص أو الافلاطونية المحدثة ، وانما مذهبا للخلق»[2] .

بشكل متناقض ، وبالرغم من تأخر قيامة المسيح الثانية وفداحة الاضطهادات ، فإن المسيحية تأخذ صورة «ديانة متفائلة» . فاللاهوت المنشأ ضد الغنوصيات يمجد الخلق ، ويقدس الحياة ، ويقبل التاريخ حتى ولو انه ارجع هذا التاريخ للارهاب . وتماما كيوشنان بن زكاي ، الذي ضمن في مدرسته في يابنا استمرارية اليهودية ، كانت الكنيسة تنظر الى المستقبل بأمل وثقة . وتأكيدا ، سنجد بعد قليل ، بعض الأوضاع المخالفة المعبرة عن رفض الحياة (التنسكية ، الرهبنة ، مدح العذرية الخ . .) والتي هي مقبولة ، وممجدة احيانا في مختلف الكنائس . ومع ذلك ، ففي عصر محكوم بالقنوط ومميز بفلسفات هي تقريبا ضد الكونية ومتشائمة[3] كالفلسفات الغنوصية ، فإن اللاهوت والتطبيق العملي للكنيسة يتميزان بتوازنهما .

وبالنسبة للآباء ، فإن الارثوذكسية كانت متضامنة مع الارشاد الرسولي : فالرسل تلقوا التعليم مباشرة من المسيح ونقلوه للأساقفة ولخلفائهم(٤) أما بالنسبة لسبب الهرطقات ، فإن ايرينيه وهيبوليت يجدانه في الاحتكاك مع الكتابات الفلسفية الاغريقية .

وهذه الاطروحة قد انتقدت في عام ٩٣٤ من قبل والتربوير(٥) . فقد لاحظ هذا العالم الألماني بدئياً ان المعارضة الارثوذكسية ـ الهرطقية تتحقق متأخرة في بداية القرن الثاني . فلقد كانت المسيحية البدائية معقدة لحد كبير ، وتظهر عبارات متعددة ومختلفة . وفي الواقع ، كانت الأشكال الأولى للمسيحية اكثر قربا من تلك المعتبرة فيما بعد كهرطقة . وقد توصل والتربوير الى نتيجة ان ثلاثة مراكز مسيحية كبرى ـ اوديسة ، والاسكندرية ، واسيا الوسطى ـ كانت هرطقية في القرنين الأولين ؛ وان الارثوذكسية لم تدخل الا بعدئذ بزمن غير قصير . ولقد كان المركز الارثوذكسي الوحيد منذ البدء هو روما . وبالنتيجة فإن انتصار الارثوذكسية في الزمن القديم يعادل انتصار المسيحية الرومانية . «هكذا ، في مسيحية بدائية ذات أشكال متحركة ومتعددة ، وتيارات مختلفة وعلى الأغلب متعارضة ، نجحت روما في تثبيت شكل خاص أخذ اسم اورثوذكسية لأنها نجحت بفرض نفسها ، وفي مواجهتها ستكون الاتجاهات الأخرى موصوفة بالهرطقية»(٦) .

مع ذلك ، وكما يلاحظ اندريه بينوا ، فإن شرح بوير يبقى تاريخياً صرفا ؛ فهو لا يأخذ بعين الاعتبار المحتوى المذهبي المميز للارثوذكسية وللهرطقية . وتلك هي مزية هـ . اي ـ تورنر الذي قام بمشروع تحليلي لاهوتي لهذين الوضعين المتعارضين(٧) . وحسب تورنر ان الهرطقية «تتميز عن الارثوذكسية ، من جهة ، بطرحها المذاهب المعرفة بوضوح من قبل الكنيسة ، ومن جهة اخرى ، بافساد المحتوى الخاص من الايمان المسيحي ؛ واجمالاً ، انها تمثل انحرافاً بالنسبة للايمان التقليدي» [أ ـ بينوا ص ٣٠٣] . «ان الارثوذكسية تبدو كنظام للفكر متماسك ومتناسق جداً ، في حين ان الهرطقة ، بابتعادها تباعاً عن الاسس المذهبية البدئية وبادخالها عواملَ من تخفيف ، ومن تشويه ، ومن تحريف وقدمية ، تبدو كجملة من نظريات مجتزأة ، غير مكتملة واخيراً غير متماسكة» [ذات المرجع ص ٣٠٦] . ومن

وجهة نظر التاريخ ، للفكر المسيحي ، «انتصار الارثوذكسية هو انتصار التماسك على التفكك ، وهو انتصار الحقيقة المنطقية على الهذيانات الخيالية ، وانتصار اللاهوت المقام بطريقة علمية في مواجهة نظريات غير منظمة [. . . .] ، والارثوذكسية تبدو وكأنها مرتبطة بمؤسسة قانونية لمجتمع له تاريخه وسياسته ، ولكنها تبدو كذلك متصلة بنظام فكري ، وبمبدأ . انها تساهم بالمؤسسة القانونية واللاهوتية معا» [ذات المرجع ص ٣٠٧] .

وباختصار ، ان الارثوذكسية تعرف بـ ١) الايمان بالعهد القديم وبسنة رسولية مؤكدة بالوثائق ٢) المقاومة ضد الافراطات بالتخيلات الاسطورية ٣) بالتحفظ تجاه الفكر الممنهج (اذن الفلسفة الاغريقية) ٤) الأهمية المعطاة الى مؤسسات اجتماعية وسياسية ، وباختصار الى الفكر القانوني ، المنظومة المميزة للعبقرية الرومانية . وكل واحد من هذه الأركان أثار ابداعات لاهوتية مميزة ، وساهم في مقياس كبير ، قل أو كثر ، لنصر الكنيسة الكبرى . ومع ذلك فإن كل واحد من هذه الأركان أثار لفترة ما ، في تاريخ المسيحية ، ازمات كانت في كثير من المرات عنيفة ، وساهمت في انتصار السنة التقليدية البدائية .

٢٣٦ ـ الصليب وشجرة الحياة

بسبب الجدال ضد ـ الغنوصية ، كان التعليم الباطني وتقليد الغنوص المسيحي مخنوقين تقريباً في الكنيسة الكبرى . «بعد ذلك بفترة متأخرة ستظهر التراتبية الكنسية ارتياباً مماثلاً تجاه التجارب الصوفية ، وربما يكون هذا الثمن الأكثر غلاء الذي يتوجب على المسيحية ان تدفعه لانقاذ وحدة الكنيسة . والعرفان (الغنوص) المسيحي والتعليم الباطني سيعيشان منذئذ منقوصين ومموهين ، على هامش المؤسسات الرسمية . وستعرف بعض التقاليد الباطنية (في المقام الأول منها تلك التي حفظت في اسفار الرؤيا ونهايات العالم) وفي الأناجيل المختلقة ، ستعرف حركة كبرى في الأوساط الشعبية ، ولكن ذلك باجتماعها مع الأساطير والخرافات المتفرعة من انظمة غنوصية هرطقية ، وبخاصة المانوية .

وهنا سيكون من غير المفيد التأكيد على بعض المصاعب للكنيسة البدائية ، على سبيل المثال ، المناقضات حول المسألة الفصحية* (حوالي نهاية القرن الثاني) أو المسائل المذهبية (العفو عن المؤمنين المذنبين بذنوب جسيمة بعد تعميدهم الخ) .

واكثر دلالة واكثر جسامة بالنسبة للتاريخ العام للأديان ، المناقضات والازمات المثارة بالصياغات الدوغمائية لدراسة المسيحية وسيرة المسيح ، وهي مسألة سنعود إليها فيما بعد . ولنلاحظ هنا انه يمكن التمييز بين اتجاهين متوازيين ومتكاملين بهدف انماء التراث الديني لما قبل المسيح ؛ فيشاهد ، كما قيل ، الجهود المكررة والمتنوعة لتقديم بعد عالمي لرسالة المسيح . ان الاتجاه الأول ، والأكثر قدما ، يظهر نفسه في التمثل واعادة التقييم للرمزيات والسيناريوهات الميتولوجية من أصل توراتي ، شرقي أو وثني . والاتجاه الثاني الموضح بخاصة بالتعاليم اللاهوتية بدءاً من القرن الثالث ، يجهد نفسه «لتعميم» المسيحية بمساعدة الفلسفة الاغريقية ، وبخاصة ماورائية الافلاطونية المحدثة .

وقد سبق للقديس بولس ان وظف سرية التعميد برمزية ذات بنية قديمة : موت وقيامة شعائرية ، ولادة جديدة في المسيح . وقد أقام اللاهوتيون الأوائل السيناريو : التعميد نزول في لجة المياه من اجل مبارزة مع الغول البحري ، والنموذج هو نزول المسيح في الأردن . وتقييم آخر هو التعميد كضد لنموذج الطوفان . وحسب جوستان ، فإن المسيح ، نوح جديد ، الخارج ظافراً من الحياة ، أصبح رئيس جنس جديد . والعري التعميدي ، هو ايضا ، يتضمن دلالة وميتافيزيكية في آن واحد : ترك الثياب العتيقة من الفساد والخطيئة وهي التي ارتداها آدم بعد السقوط . وعليه ، فإن هذه الافكار توجد في كل مكان : «مياه الموت» هي لازمة لميتولوجيات الشرق للعصر الحجري ، والاسيوية والاوقيانوسية . والعري الطقوسي يعادل التكامل والطيبة : الجنة تقتضي فقدان «الثياب» أي «غياب «الابتذال» (صورة نموذجية للزمن) . وان غيلان الهوة (الغمر) تصادف في العديد من التقاليد ؛ والنزول الى عمق الغمر تجربة تكريسية

---

* المسألة الفصحية question pascal= (حمل يذبح في عيد الفصح

للأبطال . وبالتأكيد ، ان التعميد بالنسبة للمسيحيين ، هو سر لأنه أقيم من قبل المسيح . ولكنه لم يعاود أخذ أقل من الطقس التلقيني للتجربة (= صراع ضد الغول) والموت والقيامة الرمزيتين (= ولادة الانسان مجددا).

ودوما حسب رأي القديس بولس ، يمكن بواسطة التعميد الحصول على توفيق الاضداد : «لايوجد عبد ولا رجل حر ، لايوجد رجل ولا امرأة» [غلاطة ٣ : ٢٨] . وبعبارة اخرى فان المعمد يعاود اكتساب الشرط البدائي للخنثى . وهذه الفكرة معلنة بوضوح في انجيل توما : «وعندما تجعل من الذكروالانسان شيئاً واحداً ، لدرجة ان الذكر لايكون ذكراً وان المرأة لا تكون امرأة [. . . .] عندئذ ستدخل الملكوت»(٩) . ومن غير المفيد التأكيد على القدمية والانتشار العالمي لرمز الخنثى بصفتها تعبيراً مثالياً للكمال البشري . ومن الراجح ان هذا الرمز ، بسبب الأهمية المعتبرة والمعطاة من قبل الغنوصيين للخنثى ، كان مثاراً أقل فأقل بعد القديس بولس . ولكنه لم يفقد بتمامه من تاريخ المسيحية(١٠) .

واكثر جرأة ايضا هو التمثيل بالتصوير ، والطقس واللاهوت المسيحي لرمزية شجرة العالم . في هذه الحالة ايضاً نتوصل لرمزية قديمة ومنتشرة عالميا . فالصليب ، المصنوع من خشب شجرة الخير والشر متماهي أو يحل محل الشجرة الكونية ، وهي موصوفة كشجرة «ترتفع من الأرض للسماوات» شجرة لاتفني «تنصب في وسط السماء والأرض ، ثابتة تدعم الكون» ، «شجرة الحياة مغروسة للصلب aucalvaire» . وثمة نصوص عديدة لآباء الكنيسة patristiques وطقوسية تقارن الصليب بسلم أو اسطوانة أو حبل ، وهي عبارات مميزة «لمركز العالم» . وهذا ما يبرهن على ان صورة المركز كانت تفرض طبيعيا على التخيل المسيحي ، وبالتأكيد ، ان صورة الصليب بصفتها شجرة الخير والشر ، وشجرة كونية ، لها أصلها في التقاليد التوراتية . الا انه بالصليب (=المركز) يحصل الاتصال مع السماء وبذات الأمر ، ان العالم برمته «منقذ» ، وعليه ، فإن مفهوم الخلاص لم يفعل سوى معاودة أخذ وإكمال مفاهيم التجدد المستمر والتجديد الكوني ، والخصب الشامل والقداسة ، والحقيقة المطلقة وفي آخر المطاف الخلود ، وكل مفاهيم تتواجد في رمزية شجرة العالم» .

وثمة نغمات قديمة اخرى ادخلت تباعا في سيناريو الصلب فبها ان يسوع المسيح قد صلب في مركز العالم ، هنالك حيث خلق ودفن آدم ، فإن دمه السائل على «رأس آدم» قد عمَّده وافتداه من ذنبه[١٢] . وبما ان دم المنقذ قد افتدى من

ذنب أصولي ، فان الصليب (=شجرة الحياة) يصبح مصدر الأسرار (المرموزة بزيت الزيتون ، والقمح ، والكرمة ، التي اشرك بها الاعشاب الطبية)[١٣] . وان هذه النغمات الميتولوجية ، المقامة خاصة من قبل المؤلفين المسيحيين بدءاً من القرن الثالث لها تاريخ مسبق طويل ومعقد : من دم وجسد اله ، أو كائن اولي معذب أو منكل به ، تنبت اعشاب عجيبة ، الا انه تقتضي الاشارة منذ الآن ان هذه السيناريوهات وهذه الصور القديمة المعاد أخذها من قبل المؤلفين المسيحيين ، عرفت نجاحاً لا مثيل له في الفولكلور الديني لأوروبا . فما لا يحصى من الأساطير والأغاني الشعبية تتكلم عن زهور واعشاب طبية تنبت تحت الصليب أو على قبر يسوع . وفي الشعر الشعبي الروماني ، على سبيل المثال ، ان دم المنقذ ينتج القمح ، والزيت المقدس والكرمة . «. . . . وسقط لحمي / هنالك حيث سقط/ قمح جيد اتى . . .» «. . . مسامير غرسها/ سال دمي/ وحيث تقطرت/ سال خمر جيد . . .» «من الاضلاع سالت/ دم ومياه/ . /دماء ومياه ـ الكرمة . / من الكرمة ـ الثمار . / ثمار ـ الخمرة :/ دم السيد لأجل المسيحيين»[١٤] .

٢٣٧ ـ نحو مسيحية كونية

سندرس في أحد الفصول الأخيرة من الجزء الأخير من هذا الكتاب الفولكلور المسيحي وفائدته بالنسبة للتاريخ العام للأديان . ولكنه تقتضي الاشارة منذ الآن للدور الذي كنا أسميناه «العالمية» للرسالة المسيحية بواسطة الصورة الميتولوجية وبعملية مستمرة لتمثل التراث الديني الماقبل المسيحي . ويمكن التذكر بدئياً ان اكثرية الرموز المثارة (التعميد ، شجرة الحياة ، الصليب الممثل لشجرة الحياة ، أصول المواد السرية ، زيت خمر ، قمح ، من دم المنقذ) تحدد وتطور بعض رموز مؤكدة في اليهودية المعيارية أو في الأناجيل المختلفة مابين الايصائية .

والمقصود ، احيانا (أي الشجرة الكونية ، وشجرة الحياة) ، رموز قديمة ، حاضرة سابقاً في العصر الحجري ومقومة بوضوح في الشرق ـ الأدنى منذ ثقافة السومريين .

وفي حالات أخرى ، هنالك صلة بتطبيقات دينية من أصل وثني ، مستعارة من قبل اليهود في العصر الروماني ـ الاغريقي (الاستعمال الطقوسي للخمر ، رمز شجرة الحياة في الفن اليهودي ، الخ)[١٥] . وأخيراً ، فإن عدداً كبيراً من الصور ، والوجوه والأفكار الاسطورية المستعملة من قبل الكتّاب المسيحيين ، والتي ستصبح الموضوعات المفضلة للكتب الشعبية والفلكلور الديني الأوروبي ، المشتق من الأناجيل المزورة اليهودية . وباختصار ، فإن التصور الميتولوجي المسيحي يستعير ويطور بواعث وسيناريوهات مختصة بالتدين الكوني ، الا أنه سبق لها أن تحملت اعادة تفسير في النص التوزاتي . وبإضافة تقييمها الخاص ، فإن اللاهوت والتصور الميتولوجي المسيحي لم يفعلا سوى تحديد عملية كانت بدأت مع غزو أرض كنعان (ف ٦٠ ع) .

وفي لغة لاهوتية ، يمكن القول ، إن عدداً من التقاليد القديمة المدخلة في السيناريو المسيحي حصلت على فدائها . وفي الواقع ان ذلك يتعلق بظاهرة من تماثل العالم الديني المختلف والمتعدد الأشكال . وتعرف عملية مشابهة ـ سبقت في نهاية العصر القديم ، وخاصة في العصر الوسيط الأعلى ـ في تحول بعض الآلهة أو الأبطال الاسطوريين إلى قديسين مسيحيين . وسنحلل فيما بعد دلالة عبادة القديسين ورفاتهم (فصل ٣٢) . إلا أنه يجب ان نعيد إلى الذاكرة منذ الآن إحدى نتائج هذه العبادة : «تمسيح» christianisation التقاليد الدينية الوثنية ـ اذن استمرارية حياتها في نطاق التجربة والخيال المسيحيين ـ الذي ساهم في التوحيد الثقافي المسكوني . وكمثال على ذلك ، أن مالايحصى من الأبطال والآلهة قتلة التنينات ، من اليونان حتى ايرلندا ومن البرتغال حتى الأورال ، أصبحوا جميعهم نفس القديس : الخضر (سنت جورج) . وهذا هو الارشاد الرباني المميز لكل شمولية‌دينية متجاوز للاقليمية[١٦] . وبناءعليه،وفيما سلف في اثناءالقرن الثالث ، تلاحظ ، في كل انحاء الامبراطورية اتجاهات مختلفة للاكتفاء الذاتي

والاستقلال اللذان هددا وحدة العالم الروماني[١٧] . وبعد انهيار الحضارة المدينية ، استدعيت عملية المشابهة وتوحيد التقاليد الدينية الماقبل المسيحية لتلعب دوراً بارزاً .

إن هذه الظاهرة هامة جدا لأنها تميز الابداعية الدينية من نوع فولكلوري لم يجذب انتباه مؤرخي الأديان . وهو يتعلق بابداعية موازية لابداعية اللاهوتيين والنساك والفنانين. ويمكن التكلم عن «مسيحيةكونية» وذلك لأن سر العلم المسيحي قد طرح على الطبيعة بكاملها ، من جهة ، ولأن العناصر التاريخية المسيحية قد أهملت ، من جهة أخرى ، وبالعكس ، يؤكد على البعد الطقوسي للوجود في العالم . ان مفهوم كون مشترى بموت وقيامة المنقذ ، ومقدس بخطى الاله ، ويسوع ، والعذراء والقديسين ، كان يسمح بايجاد عالم مثقل بالفضائل والمحاسن التي جردته منها الحروب وارهابات العالم التاريخي[١٨] . وهذا لم يكن بالطبع سوى بتفرد وبشكل رمزي .

ومع ذلك نؤكد على ان الفولكلور المسيحي يستلهم كذلك من مصادر هرطقية ، قلت أو كثرت ، ويتجاهل احيانا اساطير ، وعقائد أو سيناريوهات ذات أهمية أولية بالنسبة للاهوت . وعلى سبيل المثال ، ومما له دلالته أن النشكونية التوراتية قد تلاشت في الفولكلور الأوروبي . وان النشكونية الوحيدة «الشعبية» المعروفة في اوروبا . من الجنوب ـ الشرق هي من بنية ثنائية : تضع في النشاط العملي الاله والشيطان[١٩] وفي التقاليد الأوروبية حيث ان هذه النشكونية غير مؤكدة ، لايوجد اية اسطورة نشكونية[٢٠] .

وسنعود إلى مسألة استمرار الحياة في الفولكلور الأوروبي ، وإلى الصور والسيناريوهات المألوفة في الرؤى والصور اليهودية والمسيحية والهرطقية . (القسم الأخير من هذا الكتاب) . وان استمرارية وجود هذا الصنف من التقاليد القديمة حتى القرن العشرين يشير الى أهميتها في العالم الديني للشعوب الزراعية .

وانه لذو دلالة كبرى ، مثلاً ، ان باعثاً اسطوريا مثاراً على نطاق واسع في الماندية والمانوية ، ولكن أصله على الأرجح هو سومري ، يلعب ايضاً دوراً اساسياً

في ميتولوجيا الموت والطقس الجنائزي للرومان وبعض شعوب اوروبا الشرقية . وتتكلم الكتابات الماندية والمانوية عن جمارك كائنة في كل واحدة من السموات السبعة ، وعن رجال «جمارك» يتفحصون «البضاعة» ، الروح (أي الأعمال والمزايا الدينية) اثناء سفرهم السماوي[٢١] . وعليه ، ففي هذا الفولكلور الديني والعادات الجنائزية للرومان ، هنالك مسألة «طريق الموت» عبر «جمارك الفضاء» . ونشير إلى بعض الرموز والسيناريوهات الايرانية التي تمثلت ايضا باللاهوت ، إن لم يكن بالميتولوجيا المسيحية . فالفكرة الايرانية لقيامة الأجساد تم تلقيها مع التراث اليهودي . «مقارنة جسد القيامة مع ثوب سماوي يذكّر بدون معارضة بالتنصيات التي تغرق اللاهوت المزدي . وواقعة ان اجساد المستقيمين ستشع تُفسر بشكل افضل بالديانة الفارسية للنور»[٢٢] . وان صورة الولادة - النجم أو اسطوانة النور التي تشع فوق المغارة - قد استعيرت من سيناريو ايراني (فارسي) لولادة مدير - كوني فادي . ان استهلال الإنجيل جاك [١٨ : ١] يتكلم عن نور مبهر ملأ مغارة بيت لحم . وعندما بدأ ينحسر ، ظهر الطفل - يسوع . الأمر الذي يعني ان النور كان مشاركا في الجوهر ليسوع ، أو انه كان احدى تجلياته .

غير ان الكاتب المجهول هو الذي ادخل العناصر الجديدة في الخرافة . وحسب قوله ، ان الملوك المجوس الاثني عشر كانوا يعيشون بجوار (جبل الانتصارات mont des victoires) وكانوا يعرفون الكشف السري للسيث seth المتعلق بمجيء المسيح ، وكانوا ، في كل سنة يتسلقون الجبل حيث كانت توجد مغارة مع الينابيع والأشجار . وهنالك ، تضرعوا إلى الرب خلال ثلاثة أيام ، منتظرين ظهور النجم . وأخيراً ظهرت النجمة تحت شكل ولد صغير، وقال لهم هذا أن يذهبوا ليهودا . وقد سافر ملوك المجوس مستدلين بالنجمة لمدة سنتين . وبرجوعهم إلى مكانهم ، رووا المعجزة التي كانوا قد شاهدوها ، وعندما وصل الآب توماس لبلادهم ، طلب اليه ملوك المجوس ان يعمدهم[٢٣] .

ومع بعض التطورات الموحية جداً ، توجد هذه الاسطورة في كتاب سوري ، تاريخ ذقنين la chronique de zuqnin ويؤخذ منه ان الاثني عشر (الملوك - الحكماء) جاؤوا من بلاد شير shyr تحريف شيز shyz ، مكان ولادة ذرادشت . وان

«جبل الانتصارات» هو ترداد للجبل الكوني الايراني هارابارزيتي أي قطب الدنيا l'Axis mundi الذي يربط السماء والأرض. فهو اذن في «وسط العالم» وان سيت seth أخفى الكتاب المحتوي للنبوءة ، حول عودة المسيح ، وان النجم هنالك اعلن ولادة المدير الكوني ، الفادي . وعليه ، حسب التقاليد الايرانية ، فإن الكزافنات les xvana المشعة تحت الجبل المقدس هي العلامة المعلنة لساوشيان ، الفادي المتولد بأعجوبة من منى زرادشت(٢٤) .

٢٣٨ - ازدهار اللاهوت

كما قلنا سابقاً ، تركب اللاهوت المسيحي خلال الأزمة الغنوصية للقرن الثاني ، وهو يعرف اساسا باخلاصه للعهد القديم . وقد شرح ايرينيه Eréne الذي هو واحد من الأوائل الأكثر اهمية من اللاهوتيين المسيحيين ، الفداء أي تجسيد يسوع المسيح ، كما لو انه استمرار واكمال للعمل الذي بدأ بخلق آدم ، ولكنه معاق بسبب السقوط . ويصلح المسيح المسيرة الوجودية منذ آدم بهدف انقاذ البشرية من نتائج الخطيئة . ومع ذلك ، وفي حين أن آدم هو المثال النموذجي للبشرية الساقطة وانه منذور للموت ، فإن المسيح هو الخالق والنموذج المثالي لبشرية جديدة مقدسة بوعد الخلود ويفتش ايرينيه - ويجد - موازيات متعارضة بين آدم والمسيح : فالأول خلق من الأرض البكر ، والمسيح ولد من عذراء ؛ وآدم عصى باستعماله الشجرة المحرمة ، والمسيح اطاع بتركه لنفسه يتعذب على شجرة الصلب الخ .

ويمكن تفسير نظرية المراجعة كجهد مضاعف بهدف تمثيل الكشف التوراتي بمجمله من جهة ، وبتبرير التجسيد وكأنه الاكمال لهذا الكشف عينه من جهة أخرى .

ان التركيبات الأولى للتقويم المقدس ، اي زمن شعائري ، تمدد المؤسسات اليهودية ؛ الا انه يوجد دوما التجديد عن العلم بالمسيحية . فجوستان يعيّن يوم الأحد وكأنه «اليوم الأول» مقرراً انه يوم القيامة ويوم خلق العالم معا .

وهذا الجهد بقصد الاشارة للخاصية العالمية للرسالة المسيحية ، باشراكها بالتاريخ المقدس لاسرائيل - التاريخ العالمي الوحيد حقا - قد تتابع بالتوازي مع الجهد بهدف تمثل الفلسفة الاغريقية . وان لاهوت «اللوغوس»، وبدقة اكثر سر تجسده ، ينفذ الى تعليم المنظورات الغير ممكن ادراكها في افق العهد القديم . ولكن هذا التجديد الجريء لم يكن مجرداً عن المخاطرات . فالظاهرية docétisme واحدة من الهرطقات الأولى ، من أصل وبنية عنوصية ، توضح بطريقة مأساوية المقاومة ضد فكرة التجسد . وبالنسبة للظاهرين docétes (من فعل dokéo أظهر) لم يكن المنقذ ليستطيع قبول الاهانة بالتجسد والعذاب على الصليب ؛ وحسب رأيهم ، ان المسيح «ظهر» رجلاً لأنه ارتدى مظهراً بشكل بشري . وبعبارة اخرى إن العذاب والموت قد تحملها واحد آخر (الرجل يسوع أو سيمون السيريني de syréne) .

وربما كان الآباء على حق بدفاعهم الضاري عن عقيدة التجسيد . ففي منظور تاريخ الأديان يمثل التجسيد آخر وأكمل Hiérophanie: تجسد الاله بالكلية في كائن بشري محسوس وتاريخي - أي فاعل في زمنية تاريخية محددة جداً وغير قابلة للانعكاس - وبدون أن ينغلق على نفسه في جسده(لأن الابن مشارك في الجوهر مع الآب) . وقد أمكن ان يقال حتى أن أقنمة la kenosis يسوع المسيح ، لا تشكل فحسب التتويج لكل التجسدات hiéorophanies المنجزة منذ بداية الأزمنة ، وانما تؤكدها ، أي تبرهن على صحتها . فإذا قبلت امكانية تجسد المطلق في شخص تاريخي ، يعترف في ذات الوقت بصحة الجدلية الشمولية للمقدس ؛ وبعبارات اخرى ، يعترف بأن الأجيال التي لا تحصى مما قبل المسيحية لم تكن ضحايا وهم باعلانها عن وجود المقدس أي الالهي في الموضوعات والايقاعات الكونية .

إن المسائل المطروحة بعقيدة تجسد اللاغوس، توجد مثقلة في لاهوت التثليث وبالتأكيد ان التعاليم اللاهوتية كان لها مصدرها في التجربة المسيحية ، فمنذ بدايات الكنيسة عرف المسيحيون الاله تحت ثلاثة صور ١) الآب ، خالق وقاض والذي كان ظهر في العهد القديم ٢) السيد يسوع المسيح المبعوث ٣) روح القدس

الذي كان له القدرة على تجديد الحياة واكمال الملكوت . غير انه منذ بداية القرن الرابع ، طرح كاهن الاسكندرية آريوس تفسيراً اكثر تماسكا واكثر فلسفة للتثليث . فلم يرفض آريوس التثليث ، ولكنه انكر المشاركة في الجوهر consubstantialité للأشخاص الالهية الثلاثة . وبالنسبة له ، ان الاله واحد غير مخلوق ؛ والابن والروح القدس خلقاً فيما بعد من قبل الآب ، اذن هما ادنى منه . وقد عاود آريوس ، من جهة ، الأخذ بنظرية المسيح ـ الملاك ، أي المسيح المتماهي برئيس الملائكة Archange القديس ميشيل (نظرية تأكدت في روما في بداية القرن ٢) ومن جهة اخرى ، فإن بعض اطروحات اوريجين origène ممثلة الابن كألوهية ثانوية . ولقد كان لتفسير آريوس بعض النجاح ، حتى بين الأساقفة ، غير انه في مجمع نيسيه سنة ٣٢٥ تم تبني الرمز الذي يرفض الاريوسية . مع ذلك فإن لاهوت آريوس كان له ايضاً المدافعون الأقوياء عنه ، وتمددت معارضته خلال نصف قرن[٢٥] . ولكن اثناز (المتوفي ٣٧٣) هو الذي أحيا نظرية المشاركـة في الجوهر (homoousios) للآب والابن ، وهو مبدأ لخصه اوغسطين في العبارة : جوهر واحد ـ ثلاثة اشخاص Unasubstanitia ـ tres personae ولم يكن يتعلق بتعارض بين لاهوتيين : عقيدة التثليث كانت أشغفت الجماهير . لأن المسيح اذا لم يكن سوى الوهة ثانوية ، فكيف يمكن الاعتقاد بأن لديه القدرة لانقاذ العالم ؟!

ولم ينقطع لاهوت التثليث ابداً عن اثارة المشكلات ، فمنذ عصر النهضة عرف الفلاسفة العقلانيون انفسهم بدئياً بأنهم خصوم التثليث . ومع ذلك فإن لاهوت التثليث له مزية تشجيع التعاليم الجريئة ، مجبراً المسيحي لأن يتحرر من نطاقات التجربة والمنطق اليومي[٢٦] .

إن التقديس المتنامي ، وفي آخر المطاف ، تأليه مريم ، هما بخاصة من عمل الورع الشعبي . ففي نهاية القرن الأول ، تاريخ انجيل يوحنا ، كانت الكنيسة قد اعترفت بالدلالة الدينية لمريم . فعلى الصليب ، قال يسوع لأمه : «أيتها المرأة ، هذا هو ولدك [. . . .] ثم قال للتلميذ : هذه أمك» [يوحنا ١٩ : ٢٥] .

إن أهمية مريم تنبع من أمومتها : إنها ديبارا Deipara «تلك التي تلد الاله» . ولقد تأكدت العبارة لأول مرة في بداية القرن الثالث ؛ ولكن عندما استعملها القائلون بطبيعة واحدة les monophysites[٢٧] في معنى هرطقي ، استبدلت كلمة ديبارا بعبارة اكثر وضوحاً ، تيوثوكوس Theotokos «أم الاله» . ولكنها كانت دائما أما عذراء . وعقيدة العذرية المستمرة لمريم أعلنت بمجمع أفسس[٢٨] وفي هذه الحالة أيضاً يؤخذ بكثير من الواقعية عمل التمثل واعادة التقييم لفكرة دينية ، قديمة جداً ، ومنشترة عالميا . وفي الواقع ، ان لاهوت (مريم)، الأم العذراءتعاود وتكمل المفاهيم القديمةجداً، الآسيويةوللحوض المتوسط ، وللتوالد الذاتي parthénogénése للربات الكبرى (ر. على سبيل المثال هيرا ف ٩٣ع) . إن اللاهوت المريمي يظهر تمثيلاً أقدم واكثر دلالة لمديح مقدم ، مما قبل التاريخ ، للسر الديني للانوثة . فالعذراء مريم ستتماهى في المسيحية الغربية ، مع صورة الحكمة الالهية . وعلى العكس ، فإن الكنيسة الشرقية ستطور إلى جانب لاهوت أم الاله ، نظرية الحكمة السماوية صوفيا sophia التي تتفتح فيها الصورة الانثوية الروح القدس ، وبعد عدة قرون ستلعب الحكمة الصوفية sophianologie بالنسبة للنخبة المثقفة من المسيحيين الشرقيين ، دوراً مماثلاً في التوماسية الجديدة néo-thomisme في تجديد الفلسفة الكاثوليكية .

٢٣٩ - بين شمس انفيكتوس وإن هوك سيغنوفنيس

كما رأينا ؛ أن اورليان (٢٧٠ ـ ٢٧٥) أوضح أهمية اللاهوت الشمسي ، من بنية توحيدية لضمان وحدة الامبراطورية ، وقد أعاد ادخال الاله ايميز Emèse الى روما ، ولكنه غير جذريا بنية العبادة . وان العناصر السورية حذفت بعناية ، وانيطت الخدمة بالسيناتورات الرومان . وقد اثبت العيد السنوي لاله الشمس الغالب Deus sol invictus في ٢٥ كانون أول (يوم الميلاد) لكل الآلهة الشمسية الشرقية .

ان الخاصية الشمولية للعبادة واللاهوت الشمسيين كانت معترفاً بها أو متوقعة من قبل المؤمنين الاغريق والرومان بأبولون ـ هيليوس ، كما هو من قبل عبدة ميترا والبعل السوريين . واكثر من هذا ، ان الفلاسفة وفلاسفة اللاهوت كانوا بعدد كبير منهم متبنين وحدانية ذات بنية شمسية . وفي الواقع ، ان الاتجاهات التوحيدية والشمولية التي تميز نهاية القرن الثالث ، اصبحت سائدة في القرن الرابع . وان التوفيقات الدينية الكثيرة والاسرار ، وانطلاقة اللاهوت المسيحي للوغوس ، والرمزية والشمسية المطبقة على الامبراطور والامبراطورية معا ، توضح الابهار الممارس بمعنى الواحد l'un وباللاهوت للوحدانية .

وقبل اعتناق قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧) للمسيحية كان مؤمنا بالعبادة الشمسية وكان يرى في الشمس الغالبة solinvictus الأساس لامبراطوريته. فالشمس مثلث بغزارة على الآثار المصورة ، وعلى النقود ، وفي النقوش . ولكن خلافا لأورليان الذي كانت الشمس بالنسبة له الاله الأعلى ، فان قسطنطين كان يعتبر الشمس وكأنها الرمز الأكثر كمالاً للاله . ان تبعية الشمس للاله الأعلى كانت على الراجح جداً النتيجة الأولى لاعتناقه المسيحية ، ولكن الفكرة كانت آنئذ موضحة من قبل الافلاطونية البورفيرية المحدثة[٢٩] .

لا تتفق الشهادات حول الاشارة المنظورة من قبل قسطنطين قبل المعركة الحاسمة على جسر ميليوس ، والتي لاقى فيها خصمه ماكسنس حتفه . وحسب لاكتانس ، ان قسطنطين «قد انذر اثناء نومه لأن يعلِّم التروس بعلامة سماوية وبذلك يربح المعركة : فأطاع ونقش على التروس اسم المسيح» . ولكن اسقف قيصرية (اوزيب) في كتابه «حياة قسطنطين» [١ ـ ٢٨ ـ ٢٩] يروي قصة مختلفة : «ففي وسط النهار بدأت الشمس بالانحدار ، فرأى بأم عينه ـ نفسه قسطنطين اكد ذلك ـ علامة الصليب تشع بالنور وسط السماء واكثر من ذلك ايضا الشمس مع هذه الكلمات : بواسطتها ستنتصر . وعلى هذه الرؤية اضطرب هو وكل جنوده من الدهشة [. . . .] فتساءل قسطنطين ماذا يمكن لهذه الرؤية ان تكون ، وفي الليلة التالية ، تراءى له مسيح الله اثناء نومه مع ذات العلامة التي كان رآها في السماء

وأمره لأن يجعل شعاراته العسكرية على نموذج هذه الاشارة المرئية في السماء ، من أجل استعمالها في المعركة كسلاح للنصر» .

ومازالت رسمية هذه الشهادات موضع نقاش ، ومازال النقاش لمعرفة ما اذا كانت العلامة المنظورة من قبل قسطنطين مسيحية او وثنية(٣٠) . ومهما يكن من أمر ، فإن اعتناق قسطنطين للمسيحية ضمن التمسيح الرسمي للامبراطورية . وأخذت الرموز المسيحية الأولى بالظهور على النقود منذ ٣١٥ وزالت آخر الصور الوثنية في ٣٢٣ .

لقد تلقت الكنيسة نظاماً قانونياً متميزاً ، أي أن الدولة ، اعترفت بصحة محاضر المحاكم الاسقفية épisocapule ، حتى في الأمور المدنية . وتسلم المسيحيون أعلى مستوى المسؤوليات ، وتعديلات الاجراءات الشديدة ضد الوثنيين . واصبحت المسيحية تحت حكم تيودوس théodose الكبير (٣٧٩ ـ ٣٩٥) دين الدولة وحرم الدين الوثني نهائيا وهكذا أصبح المضطهدون مضطهدين .

وفي الواقع ان المسيحية قد اظهرت قوتها وحيويتها قبل اعتناق قسطنطين لها . فحوالي ٣٠٠ ، في انطاكية وفي الاسكندرية ، كانت الجماعة المسيحية ، هي الجماعة أو التنظيم الديني الأكثر اتساعاً والأكثر تنظيماً . وأكثر من هذا ايضاً ان الخصومة كنيسة ـ امبراطورية اضاعت تباعاً من تصلبها . وان آخر المنافحين عن المسيحية ، لاكتان (حوالي ٢٤٠ ـ ٣٢٠) وأوزيب من قيصرية (حوالي ٢٦٣ ـ ٣٣٩) اعلنا بأن المسيحية كانت الأمل الوحيد لانقاذ الامبراطورية .

إن اسباب النصر النهائي للتبشير المسيحي هي اسباب عديدة . فبدئياً ، الايمان الذي لا يتزعزع والقوة الخلقية للمسيحيين ، وشجاعتهم أمام التعذيب والموت ، شجاعة تثير الاعجاب حتى من قبل اعدائهم العتاة ، لوسيان الساموساتي ، ومارك أوريبوس وغالييه سيلز . ومن جهة أخرى فإن تضامن المسيحيين لم يكن له مثيل ؛ وقد كانت الجماعة اخذت على عاتقها ، رعاية الأرامل ، واليتامى والشيوخ ، وافتدت السجناء من قطاع الطرق . وكان المسيحيون اثناء الأوبئة وحصار المدن ، الوحيدون الذين يعتنون بالجرحى

ويدفنون الأموات ، وبالنسبة لكل من ليست لهم جذورهم في الامبراطورية ، وبالنسبة لكل الجماهير التي تعاني العزلة ، وبالنسبة لكل ضحايا الاغتراب الثقافي والاجتماعي ، كانت الكنيسة الأمل الوحيد للحصول على هوية ، وايجاد ، أو معاودة ايجاد ، معنى في الوجود . وبما انه لم تكن توجد حواجز ـ اجتماعية ، عرقية ، ثقافية ـ كان أي شخص يستطيع ان يصبح عضوا في هذا المجتمع المتفائل والمتناقض ، حيث يستطيع مواطن ، حارس الامبراطور ، ان يركع امام اسقف ، هو عبده القديم . ومن الراجح جداً، إن أي مجتمع آخر تاريخي لم يعرف ـ لا قبل ولا بعد ـ وجود مثيل لهذه المساواة ولهذا الاحسان ولهذا الحب الأخوي المعاش في الجماعات المسيحية في القرون الأربعة الأولى .

ان التجديد الغير منتظر مطلقاً ، والذي كان له نتائجه البارزة في التاريخ الديني ، والثقافي والاجتماعي لأوروبا ، كان الرهبانية ، المميزة بالفصل بين العالم وبين تنسكية حادة جداً[٣١] . وقد برز المظهر بشكل مستقل في القرن الثالث ، ليس في مصر فحسب ، كما كان يعتقد حتى وقت قريب ، وانما ايضا في فلسطين وسورية . ومابين النهرين[٣٢] . فالقديس انطوان أسس الرهبنة المصرية ، ولكن باكوم ، (حوالي ٣٤٧ ـ ٣٩٠) هو الذي نظم حياة الرهبنة في صحراء طيبة في ٣٢٠ (حيث ؛ انه حوالي نهاية القرن الرابع كان يوجد حوالي ٧٠٠٠ راهب) . وكما يلاحظ بيتر براون ، كان الرهبان قد اختاروا بملء حريتهم المضادة للثقافة ـ الصحراء والمغاور[٣٣] . وإن تقديرهم البارز هو النتيجة لانتصارهم ضد الشياطين ، من جهة ، ولدربتهم على الوحوش الكاسرة من جهة أخرى ، وقد رأت النور فكرة جديدة ! الرهبان ، هؤلاء «القديسون» الحقيقيون ، هم على درجة من القوة لقيادة الشياطين وثني ارادة الله بصلواتهم . وفي الواقع ، ان الرهبان وحدهم ، كانت لديهم الشجاعة لمقاومة بعض مقررات الامبراطور . فالقديس سمعان ستيليت الجاسم على عموده تفحص الدعاوى ، وتنبأ ، وشفى المرضى ، ولام ونصح كبار الموظفين .

وحوالي نهاية القرن الرابع ، من مابين النهرين إلى افريقيا الشمالية ، شوهدت موجة من العنف المنجزة من قبل الرهبان : ففي ٣٨٨ أحرقوا كنيساً في

كاللينيكوم ، بالقرب من الفرات وارعبوا القرى السورية حيث كانت توجد معابد الوثنيين ؛ وفي ٣٩١ دعاهم بطريرك الاسكندرية تيوفيل «لتطهير» المدينة سيرابوم ، من المعبد الكبير سيرابيس sérapis . وفي ذات الفترة ، دخلوا بالقوة في بيوت الوثنيين ليفتشوا فيها عن الاصنام . وفي ٤١٥ ، ارتكب جماعة من الرهبان المتعصبين اكبر وابشع جرم عرف في التاريخ : فقد اعدموا بدون محاكمة par lynchage* هيباسيا فيلسوفة الاسكندرية النبيلة ، التي دعاها تلميذها ، الاسقف سينيزيوس كَ «أم ، وأخت ومعلمة ومحسنة» [ايب .. ١٦] هـ

وفي الشرق ، اسبغ الاساقفة حمايتهم على الرهبان لتدعيم مركزهم الخاص ؛ فجميعهم ، اساقفة ورهبان وضعوا انفسهم في المقام الأول من الشعب وأملوا عليه ارادتهم . وكما يلاحظ بيتر براون «هذه الانحرافات عن المركز حولت المسيحية الى ديانة جماهيرية» . وبأكثر من هذا مفاجأة ظهر العمل المتحقق ، خاصة في الغرب ، من قبل خلفائهم ، رهبان القرون الوسطى العليا .

٢٤٠ ـ الحافلة التي توقفت في ايلوزيس

إن أي حدث تاريخي لم يترجم بشكل افضل النهاية «الرسمية» للوثنية سوى الحريق لمعبد ايلوزيس ، ففي ٣٩٦ من قبل آلاريك alaric ، ملك القوط . الا انه ، من جهة اخرى ، أي مثال آخر لا يوضح بشكل افضل العملية الغامضة لستر واستمرارية التدين الوثني . في القرن الخامس ، روى المؤرخ اونابيوس Eunapios ذاته المتلقن باسرار ايلوزيس نبوءة آخر كاهن شرعي . فبحضور اونابيوس تنبأ الكاهن بأن خليفته سيكون غير شرعي ومدنس ؛ وحتى انه لن يكون مواطناً لأثينا ؛ واسوأ من هذا ايضا ، سيكون هذا أحدهم الذي «بتكريسه لآلهة أخرى» سيكون مرتبطاً بقسمه «بأن يرأس حصراً احتفالاتهم» . وبسبب هذا التدنيس ، فإن المعبد سيدمر. وعباده الربتين تزول الى الأبد .

* par lynchage (تلنيش) اعدام عسفي من hynch قانون لنش (قانون الاعدام من غير محاكمة قانونية وهو منسوب الى قاض اميركي بهذا الاسم (القاموس المنهل)

ويتابع اونابيوس ، وعليه ، فإن متلقنا باسرار ميترا (حيث يكون له مرتبة الأب) يصبح كاهناً Hierophante . وكان آخر هيروفانت لأيلوزيس . لأنه بعد زمن قصير تسربت قوط آلاريك عبر ممر تيرموبوليس ، متبوعين «برجال يرتدون السواد» ، الرهبان المسيحيين ـ فخربت أقدم وأهم مركز ديني لأوروبا ودمرته نهائياً .

مع ذلك ، اذا كان الطقس التلقيني زال من ايلوزيس ، فإن ديميتر لم تهجر المكان من تجليها المأساوي . صحيح ، ان القديس ديمتريوس قد كان أخذ مكانها في بقية اليونان ، وأصبح هكذا معلما للزراعة . الا ان الكلام في ايلوزيس جرى ومازال يجري ، عن القديسة ديمترا ، قديسة كانت مجهولة سابقاً والتي لم تقنن ابد اً . وحتى بداية القرن التاسع عشر كان هنالك تمثال للربة يغطى طقوسيا بالأزهار من قبل فلاحي القرية ، لأنها كانت تضمن الخصب الى الحقول . وبالرغم من مقاومة السكان المسلحة ، رفع التمثال من قبل ا . د. كلارك في عام ١٨٢٠ وقدم الى جامعة كمبردج[٣٥] . وفي ايلوزيس روى كاهن في سنة ١٨٦٠ للمنقب الأثري ف. لينورمان قصة القديسة ديميترا ، بأنها كانت امرأة عجوز من اثينا ، واختطف رجل تركي ابنتها ، ولكن حارسا يقظا نجح بتحريرها ـ وفي ١٩٢٨ سمع ميلوناس ذات القصة من رجل في التسعين من عمره في ايلوزيس . والمشهد الأكثر اثارة للميتولوجيا المسيحية لديميتر جرى في بداية شباط ١٩٤٠ وروي على نطاق واسع ونوقش في الصحافة الأثينية[٣٧] . ففي واحدة من محطات الأتوبيس ـ أثينا ـ كورنثة ، صعدت امرأة عجوز «نحيفة ومكرنشة ، ولكنها ذات عينين كبيرتين تنبضان بالحياة» . وبما أنه لايوجد معها دراهم لتدفع ثمن تذكرة الحافلة انزلها المراقب في المحطة التالية ؛ وكانت هذه فعلا محطة ايلوزس . ولكن السائق لم ينجح مطلقاً في الاقلاع بالباص ؛ وفي آخر المطاف قرر المسافرون التعاون لدفع ثمن بطاقة العجوز . فصعدت الى الحافلة التي عاودت سيرها هذه المرة . وعندئذ قالت لهم العجوز : «كان عليكم ان تجروا هذا قبل الآن ، ولكنكم انانيون ، وبما انني بينكم أود أن أقول لكم أيضاً شيئاً : ستعاقبون من اجل الطريقة التي تعيشونها ، ستحرمون

حتى من العشب ، حتى من الماء !» «ولم تكمل تهديدها ، كما روى كاتب الخبر المنشور في صحيفة هيستيا ، حتى اختفت [....] . لا أحد رآها تنزل . وأخذ ينظر بعضهم للبعض الآخر ، ونظر مجدداً إلى أرومة البطاقات لكي تدخل القناعة بأن بطاقة قد انتزعت فعلا» .

ونذكر ، لاستخلاص النتيجة ، الملاحظة الذكية لشارل بيكارد : «اعتقد بأن الهللنستينن ، بصورة عامة ، سيعمدون بصعوبة ، أمام الحكاية القصيرة فيستدعون عن قرب بعض الذكريات عن النشيد الهوميري الشهير ، حيث أن أم كورية coré المتخفية بامرأة عجوز في مخدع الملك الايلوزي سيليوس ، تنبأت ايضا وأعلنت ـ في ازمة غضب مقرعة الناس على عدم رحمتهم ـ أعلنت سلفاً بكوارث عنيفة تصيب كل الاقليم .

حواشي الفصل الثلاثين

١ ـ نتبع الشرح التفسير الرائع للفكر العبري الذي أتى به كلود تريسموثان . (ميتافيزيك المسيحية ص ٣٣)

٢ ـ مما له دلالته أن الآباء اتبعوا بصورة عامة مبادىء اليهودية المعيارية ، متجاهلين التعاليم اليهودية من نوع غنوصي .

٣ ـ يذكر هذا التناقض ، الذي يمر غالباً بصمت من قبل المؤرخين : المعلمون الأكثر أهمية الغنوصيين كذلك مارسيون وكتاب فلاسيكيون آخرون (ابيكتيت ، بلوتارك ، نشروا فلسفتهم المأساوية والمتشائمة جداً في عصر من سلام ورفاهية (عصر الذهب) للانطونيين

٤ ـ الهرطقيون ايضا طلبوا من الرسول ـ ولكن الآباء رفضوا هذه الادعاءات بالارث لأنها كانت سرية ولا يمكن تحقيقها . كما كتب أيرينيه . «قبل فالنتين لم يكن يوجد فالنتيون ولاقبل مارسيون مارسيونيون»

٥ ـ ٨ اسماء المراجع

٩ ـ لوجيون ٢٢ ترجمة بويش ١٠٦ «عندما تصنع من اثنين واحدا ، ستصبح ابن الانسان»

١٠ ـ ١٤ اسماء المراجع

١٥ ـ اسماء المراجع حول الخمر وشجرة الحياة . ولكن عدد الرموز الوثنية المتمثلة من قبل اليهودية هي اكثر بكثير : ثور ، اسد ، نصر ، نسر ، صدفة ، عصفور ، زورق الخ .

١٦ ـ توجد عمليات مماثلة في الهند (تهنيد صور الهية وعبادات اصلية) وفي الصين (بخاصة في التاوية الشعبية) وفي اليهودية (في عصر غزوة ارض كنعان والعصر الوسيط) وفي الاسلام

١٧ ـ ١٨ اسماء المراجع

١٩ ـ يتعلق باسطورة معينة من بعض العلماء مثل (المغطس النشكوني) ـ (من زالموسكي الى جنكيزخان ـ الياد

٢٠ ـ ٢٤ اسماء المراجع
٢٥ ـ الأرينبة l'ariamisme غلبت نهائيا في ٣٨٨
٢٦ ـ من هذه الوجهة النظر ، يمكن مقارنتها بالميتازفيك لناجارجونا (فقرة ١٨٩ ع) والقبالة وطرائق المعلم ذين .
٢٧ ـ حركة هرطقية (بدء القرن الخامس) اعضاؤها كانوا يفكرون بأن الانسانية والالوهية في المسيح اختلطت بهوية واحدة
٢٨ ـ ولكنه فقط في حوالي ١٠٠٠ وجدت في الغرب عقيدة تقول بان العذراء كانت حبلت بدون خطيئة
٢٩ ـ ٣٣ ـ ٣٥ ـ ٣٧ اسماء المراجع المعتمدة من المؤلف .

فهرست الجزء الثاني

من غوتاما بوذا حتى انتصار المسيحية

ديانات الصين القديمة - البراهمانية والهندوسية - بوذا ومعاصروه - الديانة الرومانية - السلت - الجرمان - أورفية - فيثاغورس - التركيب الهندوسي - تجارب اليهودية - الهلينية - تركيبات إيرانية - ولادة المسيحية - غروب الآلهة - الخ ....